كتب علم الاجتماع



دكتور
قباري محمد إسماعيل
أستاذ علم الاجتماع المشارك
بجامعتي الإسكندرية وقاريونس
بنغازي - ليبيا

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه



دكتور
قباري محمد اسماعيل
أستاذ علم الاجتماع المشارك
بجامعتي الاسكندرية وقاريونس
بنغازي - ليبيا

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

"فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه"

صدق الله العظيم

(الآية ١٩ من سورة الكهف)

الاهـــــداء

« إلى الذين بذلوا الكثير وتحملوا عناء وقت عسير
فوقفوا إلى جانبى وجعلوا من العسر يسرا .

إلى أخى الحبيب الأستاذ / محمود اسماعيل المحامى .

وإلى إبنتى وتلميذتى النجيبة / ألطاف ابراهيم اسماعيل .

وإلى المثل الأعلى فى التضحية وانكار الذات
زوجتى وصاحبتى ورفيقة عمرى .

إليكم جميعاً أقدم هذا الكتاب معبراً عن حبى العظيم
وشكرى العميم » .

تصـــدير

« الحمد لله القيوم بذاته ، له الكبرياء بوحدانيته وإليه يرجع الأمر كله ، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا سداد الحكمة وصفاء العقل ونقاء الضمير ، وأنقذنا بالهدى من الضلالة بكف الغفلة وخلع الأنانية ، حتى يتم لنا حسن التوجه إليك » أما بعد ...

فهذا كتاب فى علم الاجتماع الحضرى ومشكلات التهجير والتغيير والتنمية عالجت فيه المقصود « بالحضرية » ما هى ؟ وكيف تكون ؟ وبصدد مشكلات المدينة وأمراض الحضارة ، كيف يواجهها إنسان العصر ، وماذا قدمناه من علاج وحلول ؟ . وإذا ما عالجنا طبيعة الحضرية والقصد منها لوجدنا أن الحضرية Urbanism ، هى سلوك ، وأن كل سلوك ، هو سلوك هادف ومتوقع ، كما أنه منضبط لما تتحكم فيه من ميكانيزمات ومعايير وقيم وضوابط ، فتصبح أنماط السلوك الحضرى Urban Behaviour[1] وأهدافه وضوابطه ، هى بالضرورة ظواهر تظهر للعيان ، وتصدر دون شك عما يسود « البناء الحضرى » من نظم وقيم ومعايير .

ومع تتابع عصور التاريخ ، مرت بنا خلال الزمان الحضارى ، الكثير من أشكال « النظم » و « الانساق Systems والتنظيمات » ، وما سبقتها من صور تقليدية Traditional Forms تميزت بها حضارات أو ثقافات كانت سائدة فى عصور « ما قبل الحضرية » ، كثقافة الكهوف التى ظهرت مع اقتصاديات القنص والجمع والالتقاط Food Gathering ، ومثل أنماط البداوة والرعى التى صدرت فى عصور « ما قبل القرى » وهى بناءات قبلية وعشائرية ربطت بينها

(1) Erickson , G., Urban Behaviour, The Macmillan Company 1954.

علاقات المصاهرة وروابط الدم والجوار ، وكل مايدخل ويندرج تحت « مقولة « الجماعة Gemeinschat » بالمعنى الذى قصده تونيز Tonnies[1] فى كتابه الأشهر الجماعة والمجتمع Gemeinschaft Und Gessellschaft حيث تتميز الجماعة بالتضـامن الآلى ، بينما يقوم المجتمع على التضامن العضوى Solidarité Organique طبقاً للمفهوم الدور كيمى[2] .

ولا يمكننا أن نتوصل إلى مفهوم « الحضرية » إلا من خلال التدرج أو التطور الحضارى ، والتتبع المستمر لماضى الظواهر الحضرية الذى يضفى عليها ضوءاً أوفى وأدق . بمعنى أن تسلسل الماضى التاريخى لتطور السمات والتجمعات الحضرية، إنما يلقى على حاضرها الكثير من الأضواء التى تكشف لنا الغطاء عن حقيقة « الوضع الراهن » ، وبنيته الكلية التى تقدم لنا مختلف التفاسير لسائر التفصيلات الجزئية ، حيث يضفى « الكل » على الجزء معناه ومغزاه [3] .

وما يعنينا من هذا التتبع التاريخى لماضى حضارة الانسان ، هو أن التجمعات والسمات « الحضرية الراهنة » ، لم تنشأ على سبيل الطفرة ، وإنما جاءت متطوره عن صور حضارية مسبقة ، وظهرت كرد فعل تطورى ومباشر ، عن تجمعات وأشكال حضرية تقليدية قديمة العهد . ولقد حدثنا مورجان Morgan فى كتابه عن المجتمع القديم Ancient Society عن تطور المجتمعات من« الحالة الهمجية Savage Stage » حيث بدأ الانسان جامعا للطعام ، فصائدا للاسماك والطيور ، ثم اخترع القوس والسهم ، فى المراحل العليا من الطور الهمجى ، وفى الحالة البربرية Barbarian Stage بدأ الانسان بصناعة الفخار ، ثم أستأنس الحيوان ، وفى المرحلة الثالثة والأخيرة كانت الحضارة Civilization ، كما ظهرت بين الآريين Aryans والساميين Semites حيث تطورت ونضجت أعمال الانسان المتحضر وجهوده ، فتعقدت ظواهر تقسيم العمل Division of labor تلك التى أدت إلى اكتشاف التصنيع وتطور عمليات الانتاج .

---

(1) Tonnies, Ferdinand, Community and Society, New York 1963.

(2) Kardiner, Abram & Edward Preblc., They Studied Man, Mentor., New Youk 1961.

(3) Paul, R. E., Readings in urban Sociology., Univesity of kent ? England : 1960.

وينبغى التأكيد على أن الانتاج سواء أكان زراعيا أم صناعيا ليس ظاهرة فردية وإنما نجده ظاهرة اجتماعية وجماعية حيث أن حركة العمل الصناعى لا تقوم به الآله وحدها ، وإنما نجد أن « وسائل العمــل إنما لا تعمل » دون طاقة بشرية أو قوى انسانية منتجة ومنظمة للعمل ومحركة للآلات . ومن هنا يصبح العمل ظاهرة جماعية وانسانية ، حيث يكون للكم البشرى وعلاقاته أهمية كبرى فى انجاز العمل فالطاقة البشرية تعطى للعمل قوة محركة ، حيث أن انتاج خمسة من العمال يتمايز عن انتاج مائة مجتمعين أو حتى متفرقين .

ولذلك نجد أن الطاقة البشرية ، ليست «كماً عددياً Aggregate عشوائيا» وإنما ينشأ عن تجميع العمال ، قوة جمعية جديدة تختلف كلية عن « مجموع القوى أو الطاقات الفردية » لهؤلاء العمال . حيث يتميز « العمـل الجماعى عن الفردى» ، بتوافر عناصر الحماس ، وتضافر الجهود ، والمنافسه من أجل زيادة الانتاج وأنهاء العمل فى فترة محددة بالذات بفضل الجماعات العضوية Organic gorups التى تتمايز كلية عن الجماعات العددية Aggregate groups ويثير هذا الكتاب الذى بأيدينا ، أهم قضايا علم الاجتماع الحضرى كما ويكشف عن أهم « مشكلات انسان العصر ، مع تقديم الحلول المبتكرة لأهم مشكلات ومعوقات الصناعة والتنمية والتلوث Pollution[1] . بالاضافة إلى دراسة كل ما ينجم عن محنة الصناعة ، ووطأة التكنولوجيا من مشكلات سيكولوجية مثل بعض أمراض الشخصية التى تخلفت عن ظواهر التحضر السريع وتعقد التصنيع[2] .

ولقد أثبتت التجارب أن « التكنولوجيا » أكثر تغيرا وأسرع تطوراً من الايديولوجيات Ideologies كالفلسفة والدين والقيم والضوابط ، ومن هنا تتخلف الايديولوجيات وتظهر الثغرات الثقافية Cultural gaps ، حين تزداد المسافة بين الانسان والآلة ، وينجم التعارض بين الجوانب المادية واللامادية للثقافة ، الأمر الذى يفرض سد الفجوات ، وتقريب المسافات وملأ الثغرات ، عن طريق برمجة مشروعات التنمية الثقافية والاجتماعية .

---

(1) Weinstein, W.S., Health in the city., Vancouver; Canada. 1979.

(2) Hogewey - de - Haart, W. Richter., Impact of the Technology on Society., Edited by B. Schmeikal, Vienna Center 1983.

ولما كان الانسان ، هو وليد تجربته ، وسجين خبرته وثقافته الأمر الذى يفرض عليه أن يعمل دائماً على تطور تجربته ، وتغيير خبراته ، وتبديل ثقافته فتختف الثغرات وتزول الفجوات الثقافية كما تقل المسافة بين المادى واللامادى مما يخفف من حدة التخلف عن طريق برامج التنمية Development .

ومن أهم الدراسات الحضرية المنشورة ، تلك الدراسة المشهورة التى قام بها تشارلز بوث Charles Booth ، باستخدام الأساليب العلمية والموضوعية فى البحث السيوسيولوجى الميدانى ، لعمال مدينة لندن ، وهى دراسة فى مسوح الاقتصاد الحضرى ، نشرها « تشارلز بوث »[1] تحت عنوان Life and Labour of the people of London » ولقد نشرت مؤسسة ماكميلان هذه الدراسة ، وأصدرتها فى لندن عام ١٩٠٢ ، وينبغى الاشارة ها هنا إلى أهمية دراسة « بوث » لسكان مدينة لندن ، بأستخدام طرق ومناهج المسح الاجتماعى Social Survey ولقد ظهر أول « أحصاء حضرى » منذ بداية حكم الملك وليام الفاتح William the Conquerer ، حين أمر بالقيام بأحصاء الافراد وتحصيل الضرائب .

وصدر فى عام ١٧٥٣ قانون خاص بتسجيل التعداد السنوى للسكان وهى أول محاولة ميدانية حضرية لاحصاء وحصر فئات السن والجنس ، مع تحديد نسبة الزواج وضبط المعدلات الخاصة بالمواليد والوفيات فى بريطانيا .

وفى دراسة حضرية أخرى ، طلع علينا مالتوس Malthus بمحاولته الذائعة الصيت لدراسة النسبة بين الغذاء وتعداد السكان ، فأعلن نظريته القائلة عن المعادلة الصعبة بزيادة الثروة بمتوالية حسابية بنسبة (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) بينما يتضخم الناس بمتوالية هندسية وبصورة مضاعفة تتراكم طبقا لتوالى (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦) وحذرنا مالتوس من هجوم الجوع وانتشار الفقر ، مع زيادة الانفجار السكانى المهول[2] الأمر الذى صدرت فيه تعاليم مالتس ، فأشار إلى ضرورة العمل على زيادة الثروة ، مع تخفيض معدلات النسل ، وتأخير سن الزواج مع تنظيم

(1) Booth, charles., life and Labour of the People of London., Macmillan 1902.'

(2) Talmor, E., Malthus our Contemporary., Haifa! University - I Srael - 1983.

وتحديد أو ضبط المعادلة بين سرعة الزيادة الهندسية للبشر ونهم الاستهلاك ، وبين نمط التباطؤ فى الزيادة الحسابية للثروة والانتاج .

وبالاضافة إلى دراسات « بوث » و « مالتس » ، تطورت الدارسات الميدانية الحضرية ، حيث ينبغى على ما يقول عالم الاجتماع الحضرى المعاصر «إجون ارنست برجل Bergel » ، فى كل دراسة ميدانية حضرية أن يهتم عالم الاجتماع الثقافى والاقتصادى بدراسة النسق الايكولوجى دراسة مركزة بالاضافة إلى تحديد الظواهر الايكولوجية فى امتدادها الذى يشمل المناطق الحضرية Urban Areas حيث تعمل الاعداد الكبيرة من الفلاحين والعمال الذين هاجروا من القرية وانتقلوا إلى المدينة بقوة الدفع والجذب ، نحو حياة أكثر رفاهية [1] .

وأستناداً إلى هذا الفهم ــ يمكننا أن نعلن دون تطرف أو مغالاة ، أن دراسات « تشارلز بوت Booth » فى المسح الاجتماعى ، قد ساهمت إلى حد كبير فى تطوير المنهج فى مجال علم الاجتماع الحضرى وبالتالى يقف « بوث » إلى جانب أحد كبار مؤسسيه من أمثال العالم الحضرى الايطالى جيوفانى بوترو Giovanni Botero وإلى جانبه يقف معظم الرواد الأوائل فى علم الاجتماع الحضرى من أمثال « جرونت Graunt ، ورافنشتين Ravenstein » بالاضافة إلى « ويلكوكس Wilcox » و « رينيه موريبه René Maurier » .

ولقد صدرت أول دراسة فى علم التخطيط الحضرى حين وضع « ليونى باتستا البيرتى Leone Battista Alberti » اللبنات الأولى ، للأساس المنطقى الذى تقوم عليه القواعد النظرية فى فلسفة تخطيط المدن ، قبيل نهاية العصوز الوسطى ، ونشرها فى كتابه عن العمارة « De Re Edificatori » وهو أول ما كتب فى الدارسات الحضرية . حيث وضع « البيرتى » لمهندس ما بعد العصور الوسطى، كل ما يتعلق بأسس التخطيط النمطى ، وبخاصة فى الشوارع المتعرجة ، تلك التى تظهر فيها المناظر المتغيرة على الدوام ، حيث تحول الشوارع الممتدة ، دون ظهور المبانى ، لأن الامتداد يعوق رؤية الجمال الهندسى البديع .

ومع ظهور التصنيع وانتشار التكنولوجيا ، أصبحت المدن الصناعية وبخاصة

(1) Bergel, Egon Ernest., Urban Sociology., Mc. Graw Hill. 1955. PP. Vii - Viii.

المدن ذات الصناعة الواسعة La grande industrie من أهم مناطق الجذب البشرى ، حيث ينتقل إليها الكثيرون طلبا لسعة الرزق وارتفاع الأجور ، وهربا من انخفاض مستوى المعيشة ولذلك يتركز الناس فى المدن الصناعية الكبرى ، وتتدفق فئات العمال من مختلف المهن والحرف ، وكنتيجة حتمية لانتشار التصنيع فتبدأ موجات من الهجرة أو التهجير ، تتحول معها القرى إلى مناطق «دفع سكانى» فيزداد حجم المدينة مع ارتفاع نسبة الكثافة الحضرية ومع زيادة « الجذب السكانى» والنمو المستمر للتعمير والتهجير ، فتنشأ الضواحى الجديدة ، التى تظهر على حدود المدن الكبرى ، نظراً لشدة « التمركز الحضرى » والتراكم المستمر فى التوطن السكانى .

ويختلف حجم الانتاج وصوره ، بأختلاف المشروعات الصناعية القائمة فى المدن الكبرى ، حيث يختلف حجم المدينة ومساحتها ودرجة التمركز فيها ، باختلاف كم ونوع الصناعات القائمة ، فهناك الصناعات الواسعة فى الحضر والمدن والموانى الكبرى ، وهناك الصناعات المتوسطة فى المدن الصغرى والمراكز ، أما الصناعات الخفيفة فغالباً ما تقوم فى القرى ، وعلى حدود المدن والمراكز(1) الأمر الذى يربط بشكل واضح بين الأشكال المختلفة لمشروعات الصناعة ، ودورها الحاسم والأكيد فى ظهور وتكوين المدن والمجتمعات الحضرية وشبه الحضرية حيث تنشأ المدن الجديدة ، حول مصانع الغزل وآبار البترول ، كما وقد تنشأ الحواضر الكبرى بالقرب من مناجم الفحم والحديد ، وعلى الخطوط التجارية الكبرى ، وإلى جانب المشروعات الاقتصادية ومؤسساتها البيروقراطية .

وختاماً ، أرجو أن تكون هذه البحوث التى جاءت بين فصول هذا الكتاب هى محاولة جديدة أضافت مزيداً إلى المكتبة العربية ، وفى علم الاجتماع الحضرى بالذات وبخاصة حين كشفت عن « ثقافة المدن Culture of cities »(2)، وعالجت مشكلات التنمية فى القرى ، وعمليات التحضير والتهجير مع ضرورة العمل على تقليل حدة الاستقطاب والتمركز والتوطن فى الحواضر ، مع اقتراح الحلول العلمية

---

(1) Halbwachs, Maurice, La Morphologie Sociale Collec, A. Colin, Paris. 1946.

(2) Mumford; L., The Culture of Cities, London Secker & Warburg. 1946.

والعملية ، حتى نعجل بتطوير اقتصادياتنا ، ودفع عجلة الانتاج فى سائر القطاعات الصناعية والقروية ، حتى تقل الفوارق الاجتماعية والمسافات الثقافية بين مدننا وقرانا ، بأنشاء وتدعيم المرافق بالجهود الذاتية المتعاونة مع مجالس القرى والمدن.

وفقنا الله وأعاننا على تحقيق الغاية المنشودة .

بنغازى ـــ سيدى حسين

يوليو ١٩٨٥ **الدكتور قبارى محمد اسماعيل**

الباب الأول

ماذا يدرس علم الاجتماع الحضرى ؟

* ★ تمهيـــد
* ★ ولكن متى نشأت الحضرية ؟ وكيف صدرت المدن ؟
* ★ ظهور التركيبات الحضرية الأولى
* ★نظم الحرف والطوائف Guild systems
* ★ ظهور مبدأ تقسيم العمل
* ★ طرق البحث الحضرى
* ★ المسح الاجتماعى

تمهيـــد :

يدرس علم « الاجتماع الحضرى » سائر المفهومات والسمات والتجمعات الحضريه ومن هنا نبدأ لكى نتساءل فوراً عن الانسان الحضرى Urban من هو ؟ وما هى سمات شخصيته ؟ وماذا تقصد بالحضرية Urbanism ومتى ظهرت المدن والحواضر ؟ وما هى الفروق الجوهرية بين ثقافة القرية وثقافة المدن ؟ وكيف نحدد مشكلات البيئة الحضرية ؟ وما هى مصادر التلوث Pollution ؟ وهل للحضارة عللها وأمراضها ؟ .

كل هذه مسائل وقضايا يثيرها ويعالجها هذا الكتاب ، حتى أصبحت هى الخطوط العريضة لابوابه وفصوله التى تشتمل على أهم القضايا الجوهرية التى من أجلها صدر « علم الاجتماع الحضرى » ، كى يصنف ويحلل ويناقش ويعلل ويقدم لنا الحلول الخاصة بعلاج سائر المشكلات وكل المسائل التى يهتم بها الباحث الحضرى .

ويسجل الباحث فى « علم المدن » كل ما عنَّ له من ملاحظات ويدرس مايظهر للعيان ، بالوصف والمقارنة والتحليل ، ويعالج ما يتعرض لديه من مشكلات ، ولا شك أن الباحث *فى علم الاجتماع الحضرى إنما يعتمد أصلا فى* ميدانه ، على النتائج الحقلية فى علوم النفس والانثروبولوجيا الثقافية والحضرية والتطبيقية بالاضافة إلى أهمية ما جادت به قرائح علماء الاجتماع فى ميادين الاقتصاد والصناعة والادارة العامة .

ففى ميدان علم الاجتماع الاقتصادى مثلا ، يهتم الحضريون برواج السلع ويغرمون بالدعاية والاعلان ، وينشغلون بكل ما هو جديد ومستحدث فى ميدان التكنولوجيا . ويرصد عام الاجتماعى الصناعى ظواهر التغير والتصنيع وتفكك العائلة الكبيرة ويعالج علم الاجتماع الادارى Sociology of Administration كل مايتصل بالادارة كنسق اجتماعى ، ويدرس مشكلات التنظيم الصناعى فى سائر المؤسسات البيروقراطية .

وقد تظهر بعض الاهتمامات السياسية عند عالم الاجتماع الحضرى حين يهتم بقضايا التخلف والتنمية والتحديث Modernization .

ولكن متى نشأت الحضرية ؟ وكيف صدرت المدن ؟

فى الواقع لقد كانت القلاع والحصون والأسوار ، هى « بذور المدن » التى أصدرتها حضارات قديمة فى مصر وبابل وآشور ، حيث تكونت أقدم المدن فى العصور الأولى لتحقيق وظيفة الأمن والسلام ، فشيدت القلاع الضخمة وانتظمت الجيوش ، وقامت الأسوار العالية للقيام بمهام الحرب والدفاع عن أرض المدينة ـــ الدولة City - State ولما كانت الصناعة هى خالقة المدن حيث « نشأت المدن الكبرى فى قلب الصناعة وأحضانها » ، وظهرت المراكز والبنادر فى بيئات حضرية تحترم العمل الصناعى . وحاربت الآلة فى البداية نظم الحرف والطوائف Guild systems وفى عصور الاقطاع هربت الصناعة من المدن إلى الريف وذلك للتخفف من القيود التى فرضتها الحرف « والطوائف القديمة » .

المدينة فى العصور الوسطى :

كانت المدن فى عصور الاقطاع الأوربى ، هى مدن الحرف والطوائف تلك التى بدأت فيها الادارات الحضرية ، مثل إدارات البلديات والمرافق التى ظهرت فى القاهرة عندنا بعد « العصر المملوكى » ، وكانت القاهرة خالية تماماً من أية تنظيمات لشئون البلديات ، كما لم تكن « اسطنبول » فى هذا الوقت عينه أحسن حالا من القاهرة[1] هكذا يقول أندريه ريمون وهو مدير المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق وهو مؤرخ معاصر انشغل كثيراً بالتاريخ العثمانى لمدينة القاهرة . وكتب Jouvin de Rochefort ، يقول عن اطلاق اسم القاهرة الكبرى على مدينة القاهرة عام ١٦٥٠ نظراً لامتداد أسوارها القديمة وتعدد سكانها ، وعدد منازلها ، وحركة شوارعها ، ولقد كانت القاهرة فى هذا العهد أكثر اتساعا من باريس نفسها، ولذلك تفوق تعداد سكان القاهرة على تعداد سكان باريس[2] .

ولقد كانت مدينة اسطنبول فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس

(١) ريمون (أندريه) : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ترجمة زهير الشايب ، كتاب روز اليوسف السابع عشر يوليو ١٩٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢ .

عشر، هى نفسها المدينة الأولى فى أوربا والشرق الأدنى ، ولقد بلغ تعدادها وقتئذ ٧٠٠ أو ٨٠٠ ألف نسمة .

تطور الطوائف والنمو الحضرى فى مدينة « القاهرة » :

ولقد كان للأنشطة الاقتصادية دورها ، كعامل طرد لسكنى الارستقراطية بسبب ازعاج طوائف الحرف ومضايقاتهم وزحامهم . فخضعت حركة «التوطن الارستقراطى » لعوامل سيكولوجية ، خاصة بانتشار الجديد من الموضة La Mode أو التقاليع التى تنتقل فى همة وسرعة من طبقة الكبراء والأمراء من المماليك إلى الطبقات الأقل فى السلم الهيرارشى أو الطبقى . كما خضع البناء الاجتماعى القاهرى لتركيب ثقافى ، أو « مركب فسيفسائى » يتألف من طبقة ارستقراطية مملوكية حاكمة ، وطبقة بورجوازية وطنية ، تتألف من مجموع التجار من أهل اليسار وكبار المشايخ ورؤساء الطوائف ومختلف الطبقات الشعبية والحرفية والصوفية. وفى العصر العثمانى التركى وفى القاهرة بالذات ظهرت الانجازات الحضرية بعد عمليات مكثفة للتنمية والتغير ، ونتيجة للتبدل والتحضر التلقائى، فتحولت الانساق التقليدية والمتخلفة ، إلى انساق أكثر تقدما وحضرية .

وكانت التقاليد الطائفية (النقابية) سائدة وقوية ، وكان يعاون شيخها نقيب، ويرأس الأسطوات الذين يدفعون لشيوخ الطائفة (الجدك) أو (الخلو) لكى يمارس مهنة الاسطى فى محل معين ، وكانت للشيخ سلطاته القضائية ، حين يفرض الضرائب على أتباعه ، وكان لزاماً عليه هو نفسه أن يدفع « الاتاوة الثابتة» نقدا أو عينا لضباط الأوجاقات . وتعتبر «السلطة العسكرية » هى سلطة النفوذ السياسى والاجتماعى للبكوات والاوجاقات ، حيث تنتقل السلطة وتصبح فى القمة أوليجاركية. عسكرية ، استنادا إلى هيرارشيه مملوكية ارستقراطية هى «الصفوة الممتازة» التى تسكن أرق أحياء القاهرة فى بركة الفيل والازبكية ، وهى أحياء إقامة قصور الارستقراطية .

وتمر عملية قبول عضو جديد للطائفة ، على مراحل ، أولها «حفل الالتحام» وهو حفل انضمام الصبى إلى الطائفة ، والتحاقه بالعمل لدى الاسطى ، و «حفل العهد » ويلقى فيه الاسطى بأسئلة ونصائح ، ويتلو عليه القسم . وفى حفل

«المشد» يصبح فيه الصانع مشدودا للطائفة ويدخلها بعد أن يقبله شيخ الطائفة عضواً فيها . وبعد أن يحصل الصانع على ترخيص خاص بمزاولة المهنة وتعليمها ، ثم يقام «حفل الإذن» ، حيث يتحول فيه الصانع إلى أسطى .

وتذكرنا هذه الاحتفالات الخاصة بالطوائف ، بما يسميه « فان جنب » بشعائر المرور Rites de Passage التى تمارس بين شباب القبائل البدائية حيث يدخل الصبيه أثناء عملية « التكريس » Initiation التى ينتقلون بفضلها من عالم الصغار فيدخلون عالما آخرا ، حين يبلغون طور الرجال ، وهى فئه عمرية age - set أكثر أهمية وضرورة من فئة العمر السابقة عليها فى فترات الطفولة .

ظهور التركيبات الحضرية الأولى فى مدينة القاهرة :

كانت التنظيمات المهنية ، ومشايخ الطوائف هى الهيئات التى تشرف على «ادارة المرافق» ، ولذلك كانت منظمات الأحياء الرئيسية أو « الحارات » هى « البنيات الحضرية » الأولى التى معها صدرت أصول النظم الادارية وإدارات المرافق ، وما يتصل بها من نظم حضرية أصيلة .

وتعتمد الطائفة على وحدة المهنة أو الحرفة ، ولذلك كانت الطوائف هى « روابط إدارية » ، ولقد حدث بعد بضعة أيام من انتهاء « ثورة القاهرة الأولى » أن توجه شيخ وتجار حى الغورية إلى نابليون بونابرت وقدموا له تعهداً بحفظ الأمن ومسئوليتهم لردع أى إضطراب أو شغب . بمعنى أن مشايخ الاحياء كما يقول « نيبور Neibuhr » هم أنفسهم مشايخ للحارات التى يسكنها أتباعهم من الصناع وأرباب الحرف حيث تمتد فى الحارة الحوانيت الصغيرة على طول الدرب الرئيسى للحى ، وسط السوق ، وما يتفرع عنه من أزقة أو عطفات . ومن أهم أحياء القاهرة العثمانية ، حى النصارى وحى اليهود والصعايده والمغاربة وحى السقايين[1].

ولقد ذكر « جومار Jomard » أن شوارع القاهرة عام ١٧٩٩ كانت مليئة

---

(١) للسقايين وحدهم ، أربع طوائف ، هم حاملى المياه على ظهور الحمير لحى باب البحر ، وطائفة لحى باب اللوق ، وثالثة فى حارة السقايين أما الرابعة ففى قناطر السباع . كما كانت توجد طائفة لحاملى المياه على ظهور الجمال ، وطائفة باعة المياه بالقطاعى .

بالأوحال الكثيفة ، وخاصة بعد المطر الطويل ، مما يؤكد عدم وجود الادارة المسئولة عن شئون المرافق والبلديات ، فكانت القاهرة تعانى من « التمزق الحضرى» نظراً لفوضى المرافق ، فضعفت أسباب التحضر ، وتأخرت البنية الحضرية .

ولقد وصف أمبير Ampére زحام القاهرة عام ١٨٤٠ فقال : يمكنك أن تتصور ثلاثين ألفاً من الناس يجرون أو يخبون فوق حميرهم فى شوارع ضيقة ومتعرجة ويكون عليك أن تأخذ حذرك من أن تدوس بقدميك أولئك السيدات والأطفال الجالسين ، فى هدوء تام وسط هذه الضجة .

ولكن ما معنى الطائفة ؟ وما هى الاتحادات الحرفية Craft Guild ؟

ظهرت الطائفة Caste كطبقة مغلقة Closed Class ، بين طوائف الهند بالذات ، تلك التى تمنع دخول الأفراد إليها أو الخروج منها ، بينما تمتاز الطبقة الاجتماعية Social class بأنها مفتوحة ومتسعة ، بل وعالمية لا وطن لها[(١)] ، فالطبقة العاملة ، تشمل العمال والزمر الاجتماعية Social groups التى تدور حول المهن والحرف والصناعات ، ولذلك كان ماركس يخاطب طبقة العمال العالمية كطبقة مطلقة تتخطى الأوطان وتتعدى الدول والممالك Cosmopolite تعيش فى كل زمان ومكان ، فيبدأ كل كتاباته بالشعار الماركسى المشهور حين يشير إلى النداء القائل : أيها العمال فى كل مكان أتحدوا » .

ويميز ماركس الطبقة ، طبقا لنوع الملكية وشكنها ، كما يحدد مدى فاعلية تلك الطبقة وتأثيرها فى النسق السياسى ، وفقا لتقدير تراثها وأهميتها ، مما يضفى عليها طابعا يعطيها فرصتها أو دورها القيادى فى البناء السياسى ولكل طبقة آمالها وتطلعاتها وأحلامها ، فطبقة الملاك تريد الثروة وجمع المال وطبقة الاقطاع الثرية تبغى السلطة والسيطرة على الحكم بمزيد من القسوة والسلطان السياسى ، أما طبقة العبيد فتأمل فى التحرر من الظلم الاجتماعى[(٢)] .

---

(١) لقد أصبحت طبقة العمل تتخطى الاوطان وتشيع فى الارض لكى تشمل العالم كله وتصدق عليها كلمة Cosmopolite .

(٢) الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الاقتصادى ، ومشكلات الصناعة والتنمية ، منشأة المعارف ١٩٨٠ ألاسكندرية صفحات ٢٠٤ ـــ ٢٠٦ .

هذه هى الخريطة الاجتماعية Social Map التى تبرز اتجاهات الطبقات ، حيث نجد الكثير من التعارض فى الخطوط العامة ، وعدم تطابق الاتجاهات إذ أن « خطوط التقسيم » بين سائر الطبقات ، إنما تتعارض ولا تتحدد أو تتفق ، وما يميز الطبقة عن الزمرة الاجتماعية Social group ، هو درجة شمول الطبقة على مختلف الجماعات المهنية التى تقوم بجهود وأعمال طبقا لنوع المناشط الاجتماعية Social activities ، فتتشكل الزمره الاجتماعية طبقا لنوع « العمل » أو النشاط حين يكون جماعيا ودائما ، كما ويرتبط فى نفس الوقت بنوع من « الاهتمامات » أو « المصالح » تلك التى تصدر عنها « الافكار » Ideas ، فيتحدد الوعى الطبقى من خلال « حركة العمل » ونوع الافكار ، تلك التى تتمايز طبقا لدرجة أو نوع التضامن Solidarity أو الاحتكاك Contact الاجتماعى ، بين أفراد الزمره أو الطبقة ، فتنشأ « أيديولوجية الطبقة » التى تحمل كل عناصرها القائمة فى سيكولوجية الزمر الاجتماعية ، التى تشتمل عليها كل طبقة اجتماعية [١] .

ولكن ما الفارق بين الطائفة والطبقة ؟

أن دراسة الطوائف الهندية ، هى أول مساهمة حقيقية فى سائر الدراسات الخاصة بميدان البحث فى علم الاجتماع الهندى Indian Sociology كما أعلن «هوكارت Hocart»، و « ديمونت Dumont » و « بوجليه Bouglé » ولقد نشر الأخير دراسته Essays on the caste System عام ١٩٠٨ فى مجلة « السنة الاجتماعية » أو النشره السنوية لعلم الاجتماع L'année Sociologique التى أشرف عليها شيخ علماء الاجتماع « أميل دور كايم Emile Durkheim » [٢] .

ويقول « جيزو Guizot » ان نظام الطوائف الهندية يقوم على التخصص Specialization الذى ينتقل بالوراثة فى صورة « مهن » أو « حرف » تتناقلها الأجيال ، فيقوم الأب أثناء عملية الاعداد والتربية ، بتدريب الأبناء وتعليمهم أصول الحرفة فتنتقل المهارات والقدرات طبقا لدرجة الذكاء ونوع الامكانيات والأدوات

(١) أنظر كتابنا « علم الاجتماع والايديولوجيات » الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية ١٩٨٠ ص ١٩٨ .

(٢) الدكتور قبارى محمد اسماعيل : اميل دور كايم ، مؤسس علم الاجتماع المعاصر ، نظريا وحقليا منشأة المعارف ١٩٧٥ .

السائدة بين هذه الطوائف ، الأمر الذى معه تنتقل المهن والحرف عن طريق الوراثة من الآباء إلى الأبناء ، حيث تتوارث أجيال الشباب فى طوائف الهند تركات الأجداد Ancestors ، حيث تتسلل الوظائف والحرف والمهن فى نسق اقتصادى مرتب ومحدد بل وصارم[١] .

ونظام الطوائف ، هو « جهاز طبقى مغلق على ذاته » يقوم على توارث المهن والحرف ، وهو أشبه بالاتحاد الحرفى Craft Guild مما يعوق التقدم الاقتصادى ولا يحقق المساواة أو الديموقراطية أو حتى العدالة الاجتماعية[٢] .

ولقد ظهرت « الطبقات الاجتماعية » والصناعية الحديثة ، وتحررت من النزعات الطائفية والاتحادات الحرفية العتيقة ، بعد دخول أو انتشار « ظواهر التصنيع » فأصبحت الطبقات الاجتماعية ، من سمات ملامح عصر التعقيد الصناعى ، بدلا من الطوائف والحرف المتوارثة ، الأمر الذى جعل من الطبقات المعاصره ، أكثر ملاءمة لاشباع حاجات المجتمع الصناعى الراهن ، فلقد انقرضت بعض الصناعات والمهارات القديمة ، لأن تكنولوجيا العصر قد امتصت سائر المهارات اليدوية ، فقللت الآلة والأوتمية Automation من الجهد والوقت وحلت تلك المهارات والقدرات الحرفية ، وأنتقلت إلى جسم الآلة الحديثة وما زالت بعض الصناعات القديمة قائمة حتى الآن تقوم بوظائفها الفلكلورية على اعتبار أنها « تكنولوجيا شعبية » تركت بقاياها Survivals حتى الآن دون أن تنقرض[٣] .

(١) يقوم نظام الطوائف الهندية ، على أساس دينى واقتصادى وسياسى وقبائلى أو جينالوجى Genealogical حيث تتسلسل أنساب العشائر الهندية ودرجة القرابة Kinship فالبراهمة هم طبقة الكهانة ولها أن ترتدى الخيوط المقدسة التى ترمز إلى النقاء الروحى والتى ترتديها أيضاً «طبقة الحرب » وهى الارستقراطية العسكرية ، وهم أقل مكانة من البراهمة ، أما الطبقة الثالثة هم طبقة التجار والفلاحين والحرفيين ، ثم تنتهى كل هذه الطبقات ، بطبقة رابعة هى الخدم والأرقاء والعبيد والفعلة أو السودرا Sudra ويقومون بالأعمال الدنيا ولا شك أنهم أرقى درجة من طبقة « المنبوذين » الخارجين على معايير الدين ، وهم من المطرودين من نظام الكاست out - castes .

(2) Bouglé. Celéstin., Essays on the Cast System., trans.by Pocock, Cambridge. 1971

(٣) انتشرت طوائف المهن والحرف بين الهندوس والبراهمة Brahmans والمسلمين وأتباع بوذا Buddha فظهر الرعاة وصيادين الوحوش والاسماك والطيور ، إلى جانب « التجار » و « النساخ » و « الملاحين » وأسطوات التجارة والحدادة وصاغة الذهب ، وصناع الفخار ومعاصر الخمر وأنوال النسيج ، بالاضافة =

وما زالت بعض الحرف اليدوية القديمة قائمة حتى الآن كفنون فلكلورية أشتهر بها حى « خان الخليلى » فى القاهرة ، حيث يكشف لنا هذا الحى التاريخى العتيق عن وجود بقايا الحرف التى تبرز لنا أصالة الفن المصرى ، وتكشف لنا عن جوانب فلكلورية ، أشتهر بها الفن الشعبى الأصيل .

ظهور مبدأ تقسيم العمل :

لقد كانت دراسة تقسيم العمل هى أول دراسة حضرية واقتصادية صدرت فى وقت واحد ، فلقد أهتم دوركايم فى أطروحتــه للدكتوراه بدراسة ظاهرة « تقسيم العمل الاجتماعى De La Division Du Travail Social طبقا لنظام التخصص وتوزيع المهن . كما كشف دور كايم فيما يتعلق بتقسيم العمل فى سائر المجتمعات الانسانية ، عن نظريته المشهورة فى التضامن بنوعية الالى والعضوى Solidarité Organique .

ولقد تأثر دور كايم فى ذلك الاتجاه بكتابات « فرديناند تونيز » وبخاصة فى كتابه الشهير « الجماعة والمجتمع » .

فالجماعة عند « تونيز » تتميز بالتضامن الالى عند « دور كايم »[1] بينما يقوم المجتمع عند تونيز على التضامن العضوى بالمعنى الدور كايمى . فى الجماعة « ارادة الحياة » وفى المجتمع « ارادة الوعى » فى الجماعة تضامن يتكون طبقا لصلات الدم والجوار ووظائف العادة والتقليد ، بينما يسود فى المجتمع الصراع والفردية والحرية والذاتية ، والعمل بفضل مجموع القوى العاملة المتخصصة Spécialiste[2] .

إلا أن الانسان عند « تونيز » إنما يقع فريسة الصراع والتنافس بين « إرادة الحياة » وهى حدس وعبقرية ، وبين الارادة الواعية ، التى تضبط الوجدان المتفجر ،

= إلى فئات الخدم والعبيد . فلقد بدأت الصناعة فى جمهورية مصر العربية قبيل وصول الحملة الفرنسية على أساس طائفى يحتكر الحرف والمهن ، ومازالت بعض الحرف اليدوية تحتكرها بعض الطوائف كصناعة أدوات الموسيقى كالكمان والبيانو والعود ومع وجود صناعات أخرى مثل تطريز وحياكة كساوى السرادقات وعمل المشربيات وصناعة الطرابيش .

(1) Kardiner, Abram & Edward Preble., They studied Man., Mentor, New York, 1961.

(2) Durkheim, Emile., De La Division du Travail social, Félix Alcan, Paris. 1926. PP. 91-98.

وتوجه الدوافع الخلاقة Creative Motives القائمة فى الحدس والعبقرية .

ومن هنا تقوم الارادة الواعية ، بعملية توجيه وادراك واكراه وذلك لتحديد وتنظيم طاقات الارادة الطبيعية المتدفقة . فالأولى واعية خلقت المجتمع ، أما الثانية ارادة الحياة فقد أوجدت الجماعة. فى الأولى يسود التنافس والغربة ، واستغلال الانسان لأخيه الانسان، وفى الثانية تسود قيم الفضيلة والاخوة وروابط الدم والجوار[1]، فى الأولى كبت وضغط وفى الثانية حرية وخلق .

ولعل « تونيز » بذلك التمايز الذى وضعه ، أمامنا يصف لنا حقيقة بوادر وتباشير المجتمع البورجوازى « القائم على استغلال رأس المال»، حيث تنبأ بانتشار المدنية ، وتفكك القيم الخلقية وتدمير الطاقات الخلاقة . الأمر الذى يمهد ويؤكد بشكل قاطع على القيم الماركسية وذيوعها ، مما يشير إلى تأثر « تونيز » بكتابات « هوبز » Hobbes القائمة على الحرب والصراع . كما وقع « تونيز » تحت تأثير الفلاسفة الاقتصاديين البريطانيين من أمثال سبنسر Spencer وآدم سميث Adam Smith .

ولقد درس علم الاجتماع التحليلى ، عند « تونيز » مختلف العلاقات والميول والعواطف Sentiments تلك التى تهدف إلى الجمع بين الناس ولم شملهم فتظهر الأشكال الجديدة ، كالجماعة والدولة State والكنيسة Church .

ومن المميزات الجوهرية التى تميز الجماعة عن المجتمع ، ذلك التغير الواضح فى قواعد « التشريع القانونى » بظهور أشكال جديدة من الجزاءات والنظم القضائية طبقا لتنوع الحقوق وتعدد المسئوليات .

فالجريمة مثلا ما هى إلا « إجراء » أو « فعل » مضاد للمشاعر العامة تهدد الانسان الفرد ، وتهدر الحقوق الشخصية ، وتدمر « روح الجماعة » وتحطم « قيم الضمير الجمعى » بمعنى أن الجريمة هى « فعل غير اجتماعى Anti-Social ولا أخلاقى » لأنها ضد الجماعة ، وتتنافى مع مشاعر الاخلاق وقيم الدين .

---

(1) Tonnies, Ferdinand; Community and Society, New York 1963.

ولذلك أهتم « تونيز » بوسائل الضبط الاجتماعى « كالقانون والجزاء ، والعرف وسيادة الجماعة ، وسطوة الضمير ، وكلها وسائل ضرورية للضبط ومقاومة الانحراف أو « التمرد » أو « العصيان » . ومن هنا يتطور الأمر عند تونيز وتتحول « العلاقات التلقائية Spontaneous Relations » السائدة فى الجماعة كى تصبح علاقات ديناميكية متغيرة ، فتظهر علاقة « التعاقد » ، ويحل القانون محل العرف ، والعقد محل التلقائية ، والمسئولية الفردية محل المسئولية الجماعية .

فليس « القاتل » أو « المجرم » فى المجتمع البدائى ، مسئولا عن جريمته ، وإنما المسئول الأول هو « قبيلته » ، حيث أن القتل فى المجتمعات البدائية لايقع على « القتيل » كفرد ، وإنما وقع الجرم على « قبيلة المجنى عليه » فتطالب بالثأر أو « التعويض » أو « الدية » ، بمعنى أن المسئولية فى المجتمعات البدائية هى « مسئولية جماعية » ، وليست بالفردية ، ويظهر ذلك بوضوح فى المجتمعات القروية والصحراوية ، حيث تظهر فى هذه المجتمعات « عداوات الدم Blood Feud « والأخذ بالثأر » والصراعات التى تدور من أجل الحياة سعياً وراء الكلأ ومصادر المياه .

ولعل كتابات « تونيز » قد كان لها بذلك صداها فى « علم الاجتماع الامريكى» وخاصة عند « كولى » و « روبرت ردفيلد Robert Redfield فلقد قسم تشارلس كولى Cooley الجماعات إلى جماعات أولية Primary groups وجماعات ثانوية Secondary ويسود فى الأولى علاقات ثابتة وذلك فى المجتمعات الصغيرة الحجم ، التى تمتاز بقلة عدد الأفراد وعدم وضوح التخصص المهنى ، مع توافر روح التعاون والمحبة .

ويميز « ردفيلد » أيضا على غرار « تونيز » ، بين المجتمع التقليدى Folk Sciety و « المجتمع الحضرى Urban Society » حيث يمتاز الثانى بأنه أكبر حجما ، وأكثر تداخلا ، ففى المجتمع التقليدى تنعزل وتتجانس أجزاء المجتمع ، كما أن التكنولوجيا كظاهرة اجتماعية ، تكون أكثر تقدما وتعقيدا فى الظواهر الحضرية . ومن هنا تتمايز وتستقل اقتصاديا طبقا لتمايزه « أشكال وصور تقسيم العمل الاجتماعى » . ومن ثم نستطيع أن نلحظ إلى أى حد تأثرت كتابات «ردفيلد» باتجاهات « تونيز » النظرية فى « علم الاجتماع التحليلى » .

الجماعة ونسق القرابة :

إلى أى حد يمكن تقسيم الجماعات طبقا لنسق القرابة؟ وماهى العائلة ؟ وكيف نميزها عن الأسرة ؟ ولماذا تعددت أشكال الأسرة خلال التاريخ وكيف تباينت صور العائلة ؟ .

فى الرد على هذه المسائل نقول أن روابط الجوار وصلة الدم قد خلقت لنا أشكالا مختلفة من النسق القرابى Kinship system فأختلفت صوره سواء أكان ذلك فى خط الذكور Patrilineal ، وقد تكون أنساق القرابة فى مجتمعات أو ثقافات أخرى ملتزمة بأنتمائها إلى خط الإناث Matrilineal Kinship نظراً لاختلاف نظم المصاهرة وعلاقات الخال والعم ، وصور الأقارب العاصبون[1].

ومعنى ذلك أن العائلة أو الأسرة إنما تتمايز فى أشكالها وصورها طبقا لتمايز أنماط الزواج ونظمه . والأصل فى ذلك كله هو نظم المصاهرة ، وما يلحق بها من روابط الدم وعلاقات القرابة المتخلفة عن علاقات العمومة وما يطرأ عن صلة الخال بابن الأخت ، وما ينجم عن نظم الزواج مثل نظام الزواج المتقاطع Cross - Cousin Marriage[2] .

وإذا ما شرحنا مورفولوجيا العلاقات العائلية وقسمنا الأسرة إلى عدد متمايز الصور والأشكال ، طبقا لحجمها وتقاليدها ، وعلاقات الزوجية القائمة بين مختلف أنماط ثقافتها وأشكال مجتمعاتها ، لوجدنا أن مورفولوجيا العلاقات العائلية، إنما تنقسم إلى عدد محدد بالذات من الصور والأشكال .

فما هى مختلف الأشكال والصور التى تتخذها الأسرة فى مختلف المجتمعات والثقافات ؟ وكيف نحدد مفهوم الأسرة وحدودها البنائية ؟ وما طبيعتها ووظائفها ؟ وإلى أى حد يمكن تقييم دور الأسرة الحضارى ووظيفتها التربوية ؟

فى الرد على هذه التساؤلات ، نقول أن الأسرة بالمعنى المعاصر هى ذلك المثلث

---

(1) Radcliffe - Brown, A.K., Structure and Function in Primitive society, London Cohen & West. Ltd 1961.

(2) Evans - Pritchord, E. E., The Nuer., Oxford, Clarendon Press 1950.

الخالد المؤلف من « ضلعى الأم والأب ، أما الضلع الثالث الذى يكمل الثالوث الأسرى فهو الطفل » .

ويذهب « جورج زيمل Georg Simmel » إلى أن ظاهرة الزواج Marriage ، إنما تضع لنا فى علم الاجتماع العائلى ، بعضا من الشروط أو الخصائص التى يتميز بها « الزواج المثمر » الذى يعقبه ميلاد علاقات جديدة بظهور أو دخول الأطفال إلى محيط الأسرة ، حيث أن هذا الزواج المثمر ، إنما يتمايز تماماً عن « الزواج العقيم» أو غير المنتج[1] .

نسق العلاقات العائلية :

هناك صور مختلفة تتخذها الأسرة استنادا إلى تكامل أو عدم تكامل البناء الأسرى ، فالأسرة بالمعنى السوسيولوجى الدقيق لا تطلق على « زوجين » رجل وإمرأة فقط ربط بينهما عقد الزواج ، وإنما تطلق الأسرة على ذلك البناء الكلى المؤلف من الأب والأم والأبناء . بمعنى أن وجود الأبناء هو شرط جوهرى لوجود « الأسرة » بمعناها العلمى أو السوسيولوجى [٢] .

وإذا ما أردنا تحديد مختلف أشكال الأسرة ، نجد عدداً متمايزاً فى علاقاته العائلية، ينقسم كما نرى فيما يأتى :

(١) الأسرة Family وهى البناء النووى للعلاقات الأولية التى تؤلف « النواة الأولى للمجتمع » ، وتلك هى الأسرة بالنسبة للبناء الاجتماعى كله .

(٢) الأسرة المفككة أو المنهارة Broken Family ، وهى الأسرة الناقصة بنائياً ، وبخاصة من ناحية الأب أو الأم فوجود الأبناء مع أب دون أم أو وجودهم مع أم دون أب إنما يحدث انهياراً أساسياً فى البناء النووى للأسرة الأمر الذى قد يؤدى إلى الانحراف Deviation أو الجنوح وهو السلوك الانحرافى الناجم عن « التفكك العائلى » وبخاصة فى الفترات الحاسمة فى حياة الابناء وبخاصة فى فترات الطفولة

---

(1) Simmel, Ceorg., The Sociology of Georg Simmel., trans by Karl Wolf, Paper back. 1964. P. 135.

(2) Goode, William., The Family., Printice - Hall of India, Delhi 1965.

المتأخرة بل وفى فترة المراهقة Adolescence بالذات ، وهى فترة تغيرية عصيبة ممتلئة بالصراعات Conflicts التى قد تؤدى فى النهاية ومع عدم الرعاية والتوجيه إلى الجريمة، حيث يجد الفتى الجانح Delinquent، مجالا لجنوحه ، فقد تكون الأسرة المفككة ، بيئة صالحة للفساد ، يبيض ويفرخ فيها الانحراف مما يكون له رد فعله على الجانح، فيبدأ أولا بالسلوك المنحرف Deviant behavior وينتهى أخيراً بعالم الاجرام[1] .

واستناداً إلى هذا الفهم ، تصبح الأسرة أهم خلية اجتماعية وهى نظام اجتماعى Social Institution، وهى قائمة وموجودة فى كل مجتمع بشرى، ومن ثم تتسم الأسرة بالعمومية والانتشار ، كما أنها قديمة قدم الانسانية نفسها . ويقول الدكتور على عبدالواحد فى كتابه « الأسرة والمجتمع »، ان الأسرة هى النواة الأولية[٢]، وهى مثل اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، وهى الخلية الضرورية ، والقلب النابض واللسان الصريح ، ومن خلالها يرى المجتمع أفراده ، ويرى الأفراد مجتمعاتهم ، وهى بمثابة الجسر الذى يوصل أفراده نحو الثقافة فيتلقى الانسان معارفه الأولى ويلقن قيمه وإنماط سلوكه ويتشرب ثقافته فيعرف لغته ودينه وتقاليده ، والأسرة هى البيئة أو البوتقة الحقيقية للتربية Education لسبب بسيط جداً ، وهى أنها فى ذاتها هى البيئة الصالحة للتنشئة الاجتماعية Socialization[٣] .

كما وتشبع الأسرة حاجات الانسان الفرد ، فهى كنظام طبيعى يتحكم فى ارادته ويضبط دوافعه الفطرية ، وينظم غرائزه الطبيعية .

ويرى نيمكوف Nimkoff أن الأسرة تتمتع بالديمومة Duration ويعرف بوجاردوس Bogardus العائلة بأنها مجموعة من الأفراد تجمعهم رابطة الدم ، ويسكنون مسكنا خاصا ، ولكل منهم أدواره الاجتماعية Social Roles[٤] .

---

(1) Andry, R.G., Delinquency and Parental Pathology., London Methuen.

(٢) دكتور على عبد الواحد واف ، الاسرة والمجتمع ، نهضة مصر القاهرة ١٩٦٦ .

(3) Kirkpatrick, C., The Family as Process and Institution, Ronald Press. N.Y. 1963.

(4) Titmuss, R., Family as a social inctitution, British National Conference on Social Work., London 1953.

وتسمى الأسرة المكونة من الزوج والزوجة والأطفال بالأسرة النووية Nuclear Family ، وهناك أشكال أخرى من الأسرة ، وتتمايز فيما بينها تمايزا رفولوجيا مثل :

(ا) الأسرة المركبة Composite family وتسمى أيضاً بالعائلة الزواجية Conjugal family وتتكون من أسرتين أو أكثر . وقد تتكون الأسرة المركبة من أب واحد وأمهات مختلفات ، أو من أم واحدة ، كالأرملة التى تتزوج ثانية ، وتنجب لعدم وحدانية الأب، أطفالا واخوة غير أشقاء بمعنى أن الأسرة المركبة هى عدد من الأسر البسيطة التى تؤلف فيما بينها وحدة قرابية لوجود عضو مشترك يربط بينهما كالأم أو الأب .

(ب) الأسرة الممتدة Extended وتتكون من عدد من الأسر ، ويعيش الاعضاء ، أما فى مسكن واحد أو فى عدد من المساكن المتقاربة ، فقد يبقى الابن بعد زواجه فى بيت أبيه ، وفى هذه الحالة يلعب الابن دورين مختلفين ، فهو ابن فى أسرة أمه وأبيه وفى نفس الوقت هو رب الأسرة الجديدة أو الصغيرة التى كونها بزواجه [١] .

ومهما يكن مركز الانسان الفرد فى أسرته أو مجتمعه فانه يكون عضوا فى نوعين من الأسر ، الأولى وتسمى الأسرة التوجيهية Family of Orientation وهى التى يتربى فيها الطفل وينشأ ويكتسب ثقافته وتتكون الأسرة التوجيهية من الوالدين والاخوة والاخوات .

أما الاسرة الثانية فتسمى بأسرة التناسل Family of Procreation وهى التى ينجب فيها الانسان أبناءه وتتكون منه وزوجته وأبنائه[٢] .

وختاماً ، فان الأسرة التى تتألف من زوجين اثنين ، إنما تختلف كلية من وجهة النظر العلاقية ، عن تلك الأسرة التى أنجبت طفلا ، كما أن الأسرة ذات الطفل الواحد ، إنما تتمايز عن الأسرة ذات الطفلين ، أو حتى المتعددة الأطفال وهذه نظرة

---

(1) Nimkoff, Meyer., Marriage and Family, Boston 1947
" " Comparative family system., Boston
Houghton Mifflin Company 1955 PP. 14 - 21.

(2) Bogardus, Emory., Sociology., Third Edition, New York. Macmilan, 1950.

علمية سليمة ، يؤكدها البحث السوسيولوجى وتدعمها نتائج علم النفس الاجتماعى Social Peychology ومن ناحية نوع السلطة ، أو صلة الأب بأبنائه ، هناك مثل من الأمثلة السائدة يقول : إن الأب يصبح عبداً لولده الوحيد ، وسيداً لأولاده العديدين .

ومن هنا تتغير علاقة السيطرة ، كما تتبدل علاقة التبعية ، استنادا إلى تغييرات علاقية ، بين أب وحيد الطفل وأب متعدد الأطفال .

شريعة الزواج كنظام مقدس :

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » صدق الله العظيم .

فالزواج شريعة عالمية ، تنظم الأسرة والمجتمع ، وهو رابطة مقدسة تؤسس العلاقات الانسانية حتى يستند « المجتمع الاسلامى » إلى أخلاق القرآن حين يجعل من الزواج رابطة تربط بين الناس وهى رابطة أساسها المودة والرحمة ، لا البغى والعدوان. حيث لايمكن أن نتصور مجتمعاً يقوم على علاقة «حرب»، بل على أساس من التعاون والتراحم والتكامل والتساند ، فالمؤمن للمؤمن كالبيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، كما يقول الحديث الشريف .

والزواج شريعة دينية أساسها الارتباط الوثيق بين الزوج وزوجته ليسكن اليها ، ولا شك أن السكن من السكينة، والزواج الحقيقى هو الذى ينزل السكينة فى قلوب البشر ، فيصبح الزواج ، هو أداة الوصل والربط ،أو هوالاداة القابضة على مختلف فئات البشر وجماعاته ، وبدونه لا يتحقق الاتصال ، وتتمزق الروابط بين الناس وتتفرق ، فتصبح الجماعات لا رابط بينها ، وكأنها جماعات من الغوغاء Mob لا يربطها رابط ولا تؤلف بين أفرادها علاقة .

فالزواج هو شريان العلاقات الاجتماعية ، وشأنه فى بناء المجتمع ، كشأن دوران الدم فى البناء العضوى ، وجسم الانسان هو مجموعة من الخلايا العضوية Organic Cells تلك التى تبقى وتعيش ، ما بقى قانون الحياة الذى يدفع بدوره

الدم وسريانه بين مختلف أجزاء وشرايين الجسم وأوردته وإذا ما توقف سريان الدم، توقف الكائن العضوى عن الحياة ، بل وتحللت وتفككت أجزاؤه .

فالزواج هو أساس الاتصال الاجتماعى[1] ومحور العلاقات ، وحجر الزاوية فى بناء الأسر ، حيث أن الزواج كرابطة أو كأداة إتصال ، يعتبر النظام الأساسى لكل الظواهر والعمليات والتفاعلات الاجتماعية ، فالزواج جسر يربط بين سائر البشر ، أو هو القنطرة التى بفضلها تنتقل المورثات العرقية ، كما يحتك القائم بالزواج، تماماً كالقائم بالاتصال Communicator بغيره من الاشخاص والجماعات ، وعن طريق الاحتكاك الاجتماعى Social Contact يشارك فى عمليات النقل الثقافى لسائر الافكار والاتجاهات[2] .

ولذلك أصبح الزواج كنظام اجتماعى ، هو مقدمة ضرورية لتكوين الاسرة والعائلة حيث ترتبط الاسرة بالزواج برابطة تعاقدية عن طريق العقد الاجتماعى أو الشرعى الذى يربط بين الزوج وزوجته ، وعلى هذا الأساس يصبح الزواج وسيلة مشروعة لحفظ وبقاء النوع البشرى ، مع الممارسة المنظمة والموجهة أو المنضبطة لاشباع الدوافع الفطرية والجنسية فى صورة حضارية ، لتحقيق الاستقرار والتناغم العائلى .

نسبية نظم المهر والزواج :

ولا يتم الزواج دفعة واحدة ، وإنما هناك مراحل واجراءات تتسلسل فيها مجموعة من الحلقات التقليدية ، وأغلب الزواج يتم فى حدود التقاطع كزواج أبناء العم وأبناء الخال وهو ما يسمى بالزواج المتقاطع ، وفى المجتمعات البدوية تكون الكلمة الفاصلة « للشايب » وهو والد العريس والعروس فى اختيار الشريك الجنسى . وتحرص كل أسرة على أن يتزوج الفتى والفتاة فى سن مبكرة لانجاب المزيد من « العويل » وظاهرة مسك بنت العم أو الزواج من بنت العم هى المثل الأعلى ، وإذا ما تقدم العريس من الخارج ، كان عليه أن يقدم بعض المال ، لبنى عمومها للتنازل عنها ، ويكون ذلك للتعويض والتنازل عن حق « مسك بنت العم » .

---

(1) Nimkoff,. Meyer F., Marriage and Family, Boston, Houghtom Mifflim com. 1947.

(2) Mays, John., Family and the social group, London. Longmans 1959.

ويحدد يوم الخطبة ، حيث تنحر الذبائح فى حضور كبار السن من رجال القبيلة من أقارب العروسين ، ويميل المهر للانخفاض داخل نطاق العائلة بينما يرتفع خارجها ، وغالباً لا تطول الخطبة ، وقد يتم الزواج فى الربيع فى أعقاب موسم جنى الشعير أو الزيتون أو قص الصوف من الاغنام ، وهو موسم الانتعاش الاقتصادى تماماً كما هو الحال فى موسم القطن فى الريف المصرى .

ويظهر فى الزواج التضامن العائلى والعصبية القبلية ، حيث تدوم الافراح أياماً عديدة ، وتظل حفلات الرقص وسهرات السمر حتى ساعات متأخرة من الليل.

وظيفة المهر Lobola :

لا يعبر المهر فى مجتمعات الزنوج فى جنوب أفريقيا عن مبادلة امرأة بعدد من الأبقار ، بل عن مبادلتها بالحقوق Rights التى يمارسها الزوج على عروسه وعلى أبنائه منها[1] .

ومن الخطأ أن يسمى المهر« ثمن العروس Bride Purchase » فالمهر عبارة عن انتقال ثروة من أسرة العريس إلى أسرة العروس كتعويض عن الخدمات التى كانت تقوم بها وتؤديها إلى أسرتها لانتقالها إلى سكنى الزوج وتقديم خدماتها لأهل الزوج. وقد يعطى العريس«لخال العروس» بعضا من الأبقار كجزء من المهر والخدمات سوف يقوم بها الخال ازاء أبناء أخته وعنايته بهم مستقبلا مثل تقديمه للقرابين والاضاحى عند زواجهم ، فيذبح احدى الابقار التى قدمت اليه سابقا كجزء من المهر . وحين يريد ابن الأخت الزواج ، فعلى الخال أن يعطيه بعضا من الابقار كجزء من المهر على أن يردها ابن الاخت حين يعطى هو نفسه من العريس المستقبل لابن أخته ، باعتباره خال مستقبل ويقال أن السبب فى تعدد الزوجات فى تلك المجتمعات ، هو انجاب البنات ثم الثراء بعد ذلك مما يزيد من فرصة الأب فى الغنى حين يضيف إلى أبقاره جزء من مهور بناته ، فيزداد الأب ثراء[2] نتيجة لتراكم مهور البنات فى حيازة الأب.والمهر ضرورة شرعية فى المجتمع البدائى لاثبات

(1) Redcliffe - Brown, A. R., Structure and Fun ction Primitive society., Cohen & Wesk 1961.

(2) Evans - Pritchard, E.E ? The Nuer, Oxford. 1950.

بنوة الأطفال ، ويجوز للمرأة الطاعنة فى السن والتى تريد أن تنجب أطفالا ، يمكنها أن تدفع مهرا لأحد شباب أسرتها لكى يتزوج من احدى الشابات . وحين ينجب الشاب من زوجته أطفالا لايعتبرون من أبنائه رغم أنه « الأب البيولوجى Biological Father » وهو يتميز عن الأب الاجتماعى Social Father الذى التزم بدفع المهر . ولذلك تعتبر المرأة العجوز التى دفعت المهر « هى الأب الحقيقى » رغم كونها امرأة .

ويحصل الانسان البدائى على المرتبة Rank عن طريق الوراثة وخاصة مايتعلق بالرئاسة ، أما المرتبة التى يحصل عليها الشخص عن طريق الثروة فهى أمر نادر فى المجتمع البدائى . ويعتبر عامل السن من أمتيازات المراتب بين حقوق الأخ الأكبر والأخ الأصغر . يقول رايموند فيرث Raymond Firth أن الرجل الشيخ قد يتمثل بأحد الأمثلة فى المجتمع البدائى فيقول « احترمنى فأنا شمس غاربة وشجرة تتهاوى، وقد أصابتنى نوائب كثيرة »[1] .

وفى المجتمعات الأبوية ينظر إلى « العمه » على أنها« شخص مقدس »وتعتبر فى درجة الأب ، بل وتفوقه احتراما ، إذا كانت أكبر سناً من الأب .

ويكن « ابن الأخ » للعمة التوقير، ولها منه موفور الاحترام ، لأنها الأب الانثى Female Father[2] .

وفى بعض المجتمعات التى تنتسب إلى الأم يُسمى الخال Malume بلغة بولينيزيا، والكلمة مشتقة فى لغتهم من كلمة Mamama وتعنى الأم ويعتبر الخال هو الأم الذكر Male Mother كما وتقترب كلمة Malume من كلمة Mother فى اللغة الانجليزية .

ويقال أن السبب الحقيقى لاحترام العمة والعم فى المجتمعات البدوية والقروية إنما يكمن فى احترام الأب نفسه ، وقد يتفوق العم الأكبر سناً فى درجة الاحترام فتفوق درجة احترام الأب نفسه ، وكثيراً ما نسمع فى الريف المصرى من يشير إلى عمه فيقول عنه « أبويا فلان » .

---

(1) Firth, Raymond., The Elements of social Organization, London A.Watts & Co 1956.

(2) Radcliffe - Brown, A.R., Structure and Function, in Primitive society., Cohen & West. 1961.

ومن مهام الأب فى المجتمعات البدائية قنص الحيوان وصيد السمك ورعى الماشية والصناعات الخشبية ، أما رعاية البيت والاطفال والزراعة فمن عمل النساء، فلكل من الرجل والمرأة دوره الاجتماعى Social Role فيصنع الرجل مثلا القوس والرمح وتجمع النساء الثمار والاخشاب وتقوم بصيد السمك بشباك يدوية صغيرة يلتقطن بها ما يجدن من أسماك ، وبخاصة فى الأماكن الضحلة على الشواطىء ، ولا يسمح للرجل مطلقاً باستخدام شبكة الصيد اليدوية الصغيرة[1] ، على الرغم من أنه يقوم بصنعها بيده ، كما لا يسمح للمرأة باستخدام القوارب للصيد ، وهذه أدوار بنائية Structural يقوم بها كل من الرجل والمرأة على مايقول « رايموند فيرث » فى كتابه المشهور « النماذج الانسانية Human Types ، مبادىء البناء الاجتماعى » وقد أشار فيه إلى فصل هام عن « بعض مبادىء البناء الاجتماعى » Some Principles of Social Structure .

الزواج والأسرة والعائلة :

إذا كانت الاسرة ، هى أساس الاستقرار الحضارى ومصدر الروابط والعلاقات الأولية ومبعث السلوك الثقافى ، وعلة التغيير الاجتماعى[2] ، ومهبط القيم والاخلاق، فانها ببساطة وبكلمات أكثر دقة ، هى « عربة الوعى الاجتماعى » والتراث القومى والحضارى ، لأنها تنقل تراث المجتمع وثقافته ونظمه من جيل إلى جيل ، ولذلك تعتبر الاسرة كنظام اجتماعى ، هى مصدر العرف وقواعد السلوك التى تستند إلى الدين والاخلاق والوطنية . وتقوم الاسرة كنظام اجتماعى Social Institution ، بدور المرشد والمروض والمعلم الذى يقوم بوظيفة الترويض الانسانى والاجتماعى والحضارى، حيث يتحول الكائن العضوى Organism بفضل عملية التنشئة الاجتماعية إلى كائن حضارى ينتقل من حالة الوحشية البشرية أو العضوية الفطرية، إلى حالته الاجتماعية أو المدنية .

بالاضافة إلى أن الاسرة هى وحدة إقتصادية تقوم أساساً على نظام الاقتصاد المغلق ، فتقوم بالانتاج من أجل غاية الاستهلاك ، وقد تقوم بالادخار من أجل

(1) Firth, R., We The Tikopia., London Allen & unwin 1957.

(2) Mays, John., Family and the Social group, London. Lomgmans. 1959.

مستقبل أفضل.ولقد أصبحت الاسرة الحديثة تعتمد الآن على وظائف إقتصادية جديدة يقوم بها الأبناء ، بحيث أصبح لكل منهم دخله وعمله ومدخراته لتوفير ظروف إقتصادية أكثر تقدما ، وبذلك أصبحت الاسرة الحديثة هى شركة تعاونية بين الآباء والابناء وإذا تزوج الابن زوجة جديدة ، قامت شركة أخرى بين الشاب وزوجته الموظفة بعد اقترانه بها ، وزواجه منها وتلك هى الاسرة الاحادية أو المونوجامية Monogamous الحديثة ، وهناك أشكال أخرى مختلفة من الاسرة ، صدرت خلال زمان التاريخ .

الزواج والعقيدة التوتمية Totemism :

النظام التوتمى ، وهو النظام السائد فى الثقافات البدائية Primitve Cultures، حيث تعيش الجماعات على الصيد وجمع الثمار والزراعة البسيطة ، فبدأ التعاون والترابط العائلى ، منذ[1] مرحلة سحيقة هى مرحلة جمع الطعام Food Gathering.

ونظراً لخروج الرجال للصيد والقنص فى رحلات قد تطول أيامها ، بل وقد لايعود من يلقىَ حتفه فى الغابة بين سائر الوحوش الضارية . فكانت الأم ، هى العنصر البارز فى القرابة والنسب والاستقرار . والنظام التوتمى هو أقدم صورة عائلية ظهرت فى وسط وشرق أستراليا . ولا يتمايز أفراد العشيرة Clan عن أفراد الأسرة فى الدم نظراً لأنهم يرتبطون قرابياً برابطة مقدسة تقوم على أساس صلة الدم والعصبية ، وانتماء كل أفراد العشيرة الواحدة أو انحدارهم من صلب توتم واحد .

. والتوتم Totem هو رمز أو اله[2] من أصل حيوانى أو نباتى ، فقد يكون طائراً كالنسر ، أو يتجلى فى صورة تمساح أو ثعبان ، وقد يتجسد التوتم طبيعة نباتية كاللوتس أو البردى ، أو يتحقق فى جرم سماوى كالشمس أو القمر وكانت القرابين تقدم للتوتم ، وتذبح الذبائح والاضاحى وسط طقوس خاصة قرباناً للآلهة وطلباً للرحمة والمغفرة فى مناسبات معينة .

ويعتقد البدائى أن «المبدأالتوتمى»، هو مبدأ يتخلل أجسادهم أو هو حال فى

(1) Childe, Gordon., Man Makes Himself., Fontana, 196..

(2) Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de La Vie Religieuse, Félix Alcam, Paris. 1912.

أجسامهم وأنه هو سر بقاءهم ووجودهم الاجتماعى ، فهو موجود مقدس لايقربوه، ومعبودهم الذى لايدنسوه .

ويمنع النظام التوتمى الاختلاط الجنسى بين رجل وامرأة ينتسبان إلى توتم واحد، فالمعاشرة الجنسية بينهما فيها تدنيس للمبدأ التوتمى القائم فى دماء الرجال والنساء الذين ينتسبون إلى نفس العشيرة التوتمية ، فهم أخوة فى الدم ومن ذوى القربى التوتمية ، ومن نفس اللحم والدم . ولذلك كان على الرجال أن يلتزموا بالبحث عن الزوجات من خارج العشائر ، وهذا هو الزواج الاكسوجامى الخارجى Exogamy، وهو الزواج من عشائر أخرى تقدس تواتم أجنبية ومن هنا نشأ الزواج من خارج العشيرة ، عن طريق خطف الزوجات من عشائر توتمية عن طريق الغزو والعدوان . فلقد أصبح الزواج من نفس العشيرة التوتمية من المحرمات Taboo ، وهذا هو أصل التحريم التوتمى ، الذى هو الأصل التاريخى للفكرة الدينية الخاصة بالزواج من المحارم ، فالاخوة فى الرضاعة مثلا هم أخوة فى الدم واللحم ، ولذلك يحرم الزواج الاسلامى فيفصل بين الاخوة فى الرضاعة، هذا مثال توضيحى، على الرغم من أنه قياس مع الفارق الكبير بين التفكير البدائى التوتمى البسيط وبين «فلسفة الزواج فى الحضارة الاسلامية»، فلقد أثبت علم الطب الحديث ، سلامة وجهة النظر الاسلامية ، فى تحريم الزواج من الاخوة والاخوات فى الرضاعة ، حيث تستقر علة التحريم فى أسباب بيولوجية وراثية تؤدى إلى تدهور فى القدرات العقلية وإلى ضعف خلقى (بفتح الخاء وسكون اللام) فى المواليد ، وهو أمر تؤيده التجربة العلمية فى حالات الزواج ممن رضعا مرات متعددة من ثدى واحد ، حتى رويا من حليب واحد .

الزواج ونسق القرابة التوتمية[1] :

كان نظام القرابة الأبوية Regime Patriarchale سائداً فى الكثير من العشائر البدائية ، حيث ينتسب الابن إلى توتم أبيه ، وكان الأب هو محور القرابة ، وتعيش الأم بين عشائر الأب Patrilocal أى فى سكنى عائلته كواحدة منهم ، كما تكون الوراثة فى خط الذكور Patrilineal[2] .

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Structure & Function in Primitive Society., Cohen & West. 1961.

(2) Radcliffr-Brown, A.R., Methods in Social Anthropology University of Chicago 1958.

وهناك عشائر توتمية أخرى، ينتسب فيها الطفل إلى توتم أمه ، وينتقل الأب إلى سكنى عائلة زوجته Matrilocal ، وتكون الأم هى محور القرابة ، وتكون الوراثة فى خط الاناث Matrilineal[(١)] .

وفى المجتمعات والعشائر التوتمية ، تعتقد النساء الحوامل ، أن الحمل الذى يسبب وجود الجنين وحركته فى أحشائها[(٢)] إنما يتم بفضل أرواح التواتم المحلية Local Tetem ، وهى أرواح تعيش بعيداً حبيسة الأماكن المهجورة وبأستطاعتها الحاق الضرر بالأفراد ، وفى حالة ارضائها بالطقوس والقرابين ، التى سرعان ما تسترضى الآلهة فيلحق الخير بمن يمارس هذه الطقوس الدينية .

وهناك أنواع أخرى من الزواج التى تسود المجتمعات البدائية ، مثل الزواج الليفراتى[(٣)] و السورورا Sorora وبمقتضى الزواج الليفراتى Lévirat ، يتعين أن يتزوج الرجل من أرملة أخيه المتوفى ، أما فى نظام السورورا فيتعين على الرجل أن يتزوج بأخت زوجته بعد وفاتها . ويعتبر الأولاد والأطفال الذين يولدون بمقتضى هذين النظامين هم أشقاء للأولاد والأطفال الموجودين من الزواج السابق .

ولاعتبارات اقتصادية واجتماعية كثيرة انقلبت القرابة من الأم إلى الأب ، وخاصة بعد تعلم الزراعة والاستقرار فى الارض ، وضمان بقاء الرجل إلى جانب زوجته انتظارا لغلة الارض المزروعة ، بعد الانتهاء من حياة الصيد ورحلاته حيث أكتسب فيها الرجل قدراته العضلية ، فشعر بقوته ، ثم سيطر على زوجته كمخلوق أضعف فى البنية العضوية والقدرة العضلية .

وفى حياة الزراعة والاستقرار استعان الرجل بالارقاء والعبيد ، لخدمة الزراعة وفلح الارض وكان هذا الوضع هو الدافع الاقتصادى الحقيقى لضم العبيد للعائلة والحاق الارقاء عن طريق التبنى ، والاعتراف بنظام التبعية والميراث فى خط الذكور ، استنادا لسلطة الأب ، وعصبية الآباء ، فسيطرت نظم الحيازة والملكية ، وثبت

---

(1) Evams-Pritchard E.E. The Nuer, Oxford, Clarendon Press 1950.

(2) Radcliffe-Brown, A.R., Structure and Function in Primitive Society.,Cohen & West 1961.

(٣) يشتق لفظ Levirat من الأصل اللاتينى Levir ومعناه « أخ الزوج » .

نهائيا نظام الميراث ، مع ثبات الارض فى عصبية الذكور بدلا من ضياعها بتوريث الاناث وانتقالها إلى أزواجهم وعشائرهم ، وهذا هو السبب الحقيقى فى نظام الميراث الاسلامى فى أن يكون « للذكر مثل حظ الانثيين » .

ولقد كانت المعتقدات القديمة فى عصور الجاهلية تربط بين النساء والبنات والأرواح الشريرة ، مما أدى إلى سيادة ظاهرة جاهلية معروفة باسم « واد البنات » فكانت اللعنات فى معظم المجتمعات القديمة تلحق بالأمهات اللاتى لاينجبن الذكور . الأمر الذى أدى إلى سيادة الذكور وسيطرة الآباء ، وظهور قوة الرجال فى العمليات الحربية والعسكرية مما أدى إلى ضعف سيطرة المرأة فى المجتمعات ذات النظم التى يتم فيها الانتساب بالنسبة للأم ، مما أدى إلى التقليل من شأن المرأة ، وبداية سيادة الأسرة الأبوية Pater Familias . ولقدتطورت سلطة الأب ، حتى جاوزت الحد المعقول أو التصرف المقبول،وخاصة فى المجتمعات اليونانية ، والرومانية القديمة ، فلقد تعددت اختصاصات الأب وساد نظام الرق Serfdom لخدمة السادة فى هذه المجتمعات العتيقة ، وكان العبيد هم « أدوات العمل » التى تباع وتشترى وكأنها « آلات بيولوجية حيَّة » وهذه ظاهرة لا انسانية ولا أخلاقية ، بل ووصمة عار فى جبين الحضارة اليونانية وعصور الرومان .

فكان التشريع الرومانى القديم يعطى[1] للأب حق التبنى ، والاعتراف بقبول الابن والادعاء بالبنوة ، بل وللأب حق التصرف فى زوجاته وأبنائه وعبيده ، بيعاً وهبة وتضحية كقربان للآلهة حتى ترضى .

وجاء الاسلام وانتشرت تعاليمه ، وانتصرت رايته ، وسادت حضارته ، فألغى الدين الاسلامى تلك الحقوق اللانسانية الجائرة التى سادت فى العصور الرومانية العتيقة ، وأصبح للمرأة المسلمة شخصيتها وملكيتها المستقلة عن الزوج وحقوقها المشروعة فى أن تتولى شئون أموالها بنفسها ، بل وفى أن تتعامل بالتجارة بحر مالها. وأصبحت قوامة الرجل على المرأة مشروطة بشرط النفقة فهم قوامون على النساء بما أنفقوا من أموالهم ، وتقول الآية « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم

---

(١) الدكتور / صوفى أبو طالب ، الوجيز فى القانون الرومانى ، دار النهضة العربية / القاهرة ١٩٦٥ .

على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »[1] . ومن الغريب أن المرأة الفرنسية[2] رغم حضارة الغرب ، وانبهارها وتقدمها الهائل لم تحصل على حق تصرفها فى حر مالها ، إلا منذ وقت قريب ، بل وفى نهاية الستينات من القرن العشرين أصبحت المرأة الفرنسية فى درجة المرأة المسلمة وأرتفعت إلى مستواها فى حقوقها المشروعة .

نظم الزواج وصوره القرابية :

تكلمنا عن الزواج الخارجى أو الإغترابى Exogamy الذى يحرم فيه الاقتران بأمرأة ورجل من نفس العشيرة ، ولذلك يقوم الزواج الاغترابى على الخطف من خارج القبيلة ، الأمر الذى معه تتسع دائرة القرابة. وهناك على العكس من ذلك نظام الزواج الداخلى أو الانضوائى Endógamy ، وهو الزواج من نفس العشيرة طبقا لنظام محدد ومنضبط من زواج المحارم . ويدعم هذا النوع من الزواج الداخلى العلاقات القرابية ، ويحفظ الثروة من الزوال للأغراب ، كما يزيد من درجة التماسك القبلى والعشائرى ، وتقوى العصبية وتزداد الرابطة بين أبناء البدنه Lineage .

ولكن ما هى الفوارق القرابية بين العائلة والعشيرة والبدنة ؟ البدنه ، هى العائلة الكبيرة التى تنتسب إلى أب واحد أو جد مشترك[3] وتنحدر البدنه العاصبة Patrilineage فى خط الذكور كما تمتد البدنة الأموية فى خط الاناث Matrilineage وكلما إزداد أفراد البدنة ، كلما قل التعاون بينها . وتتماسك البدنة كنسق سياسى فى وقت الشدة بالذات حيث تتأزم المشكلة الاقتصادية ، وقد تنطلق شرارة الحرب والدفاع عن النفس فتزداد البدنات تماسكاً. وتتسمى البدنة باسم الجد الذى ينتسب اليه الافراد ولذلك يتفاخر أبناء البدنة الواحدة بشجرة النسب والعلاقات الجينالوجية، واستناداً إلى هذه الأنساب يشيع نظام البدنات فى المجتمعات البدائية والقروية والبدوية .

---

(١) من سورة النساء ، الآية (٣٤) .

(٢) لقد كان أول طلب للمرأة الانجليزية فى مجلس العموم البريطانى ، للمطالبة بحقوقها فى عام ١٧٦٦ ، ثم رفض الطلب ، ودافع جون ستيورات ميل John Stuart Mill دفاعاً حاراً عن حقوق المرأة الانجليزية ، وحصل على عطف الكثير من النواب الانجليز ، ورغم تأييده واكتسابه للعديد من الانصار ، فشل مشروعه ، وعاودت الانجليزية طلبها مرات متعددة حتى حصلت على أغلبية الأصوات عام ١٧٩٧ .

(3) Radcliffe-Brown, A.R., Structure and Function in Primitive Society,. Cohen & West 1961.

ولا يزداد حجم البدنة إلى ما لانهاية ، وإنما يمنع العامل الايكولوجى Ecological factor من الزيادة البشرية اللانهائية ، فتتشعب وتتكاثر البدنة الواحدة، ثم تتفرع لكى تنتشر فى الارض زمرا ، حيث تسعى مختلف فروع البدنات نحو ملكية الارض ، والانتفاع بها فتتوزع حسب انتشار هذه البدنات داخل اطار المناشط الايكولوجية .

وقد يؤدى تزايد حجم البدنات إلى وجود صعوبات فى التعرف على أبناء البدنة الواحدة ، فتظهر الشخصيات القوية فى البدنة الواحدة ، ثم يستقل كل منها بعائلته ، وقد تنشب الخلافات والعداوات فتكون سببا فى انقسام البدنة على ذاتها فتتفرع وتتفرق وتتوزع فى المكان الايكولوجى. والنمط الاحادى Unilinear هو نمط الانتساب السائد بين سائر البدنات ، أما عن طريق الانتساب إلى الأب Patriarchal وأما عن طريق الانتساب إلى الأم Matriarc ، فيكون الميراث فى خط الذكور Male Line والسكنى مع عائلة الأب ، فى النظام الأول ، بينما يكون الميراث فى خط الاناث Femal Line ، ويرث الولد خاله فى النظام الثانى .

نظم التعدد فى الأزواج والزوجات :

لقد تنقلت صور الزواج خلال التاريخ القديم ، واتخذت أشكالا مختلفة بدأت بالشيوعية الجنسية Promiscuity ، ثم ظهور نظام التعدد بزواج مجموعة من الرجال لمجموعة من النساء وهو ما يسمى بالزواج الجماعى Group Marriage ثم تطورت ظاهرة الزواج فظهر نظام تعدد الأزواج Polygamy ، حيث ينقسم هذا النظام الأخير إلى نظام تعدد الزوجات للزوج الواحد ، كما هو الحال فى المجتمعات القروية فى مصر ، وفى أغلب المجتمعات البدوية فى الوطن العربى . ويسمى نظام تعدد الزوجات للرجل الواحد بالبوليجينية Polygyny وقد تظهر البوليجامية فى نظام آخر وهو « نظام تعدد الازواج بالنسبة للمرأة الواحدة Polyandry » كاهو الحال فى بعض المجتمعات التى تعيش على هضبة التبت . ولعل السبب فى ذلك هو عدم تعادل عدد الذكور مع عدد الاناث . وكان التعدد معروفا فى الجاهلية ، ثم قيده الاسلام بقيود ونهى عن التعدد إلا للضرورة القصوى ، فإن أبغض الحلال عند الله هو الطلاق كما يقول القرآن الكريم « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، ولن تعدلوا

ولو حرصتم » وفى هذه الآيات ما يؤكد الاتجاه الاسلامى نحو الزواج الاحادى .

ويعرف ميردوك Murdock « الزواج بأنه ظاهرة اجتماعية معقدة نظراً لاختلاف «أشكال الزواج وصوره » وفى رأى وستر مارك Westermark أن الزواج تنظيم اجتماعى للعلاقات الجنسية بين رجل وأمرأة لتكوين أسرة، وهى صورة مشروعة يعترف بها ويقبلها المجتمع ويباركها رجل الدين . وأصبح الزواج المونوجانى Monogamy هو الزواج الاحادى ، والمأخوذ به فى سائر المجتمعات والثقافات المعاصرة بين الشعوب المتحضرة . وترتكز القرابة فى الزواج المونوجامى بين الأم والأب معا ، ويرجح النظام الأبوى لضمان الميراث من الضياع فى حالة تساوى البنات والذكور فى حق الميراث، فأصبح التشريع الاسلامى يعطى للذكر مثل حظ الانثيين فى التوريث . ولذلك يرجح قرابة العصب على قرابة المصاهرة ، حيث أن البنت حين تتزوج سوف يرثها أبناء الزوج الغريب عن العائلة . وفى الأمم الأوربية يرجح الأب ، لأن الولد الأكبر يرث اسم الأسرة ويحمل لقب أبيه ، كما تفقد الزوجة اسم اسرتها وتحمل لقب أسرة زوجها . ولكن القرابة «ديموقراطية بالنسبة للأم والأب» فى انجلترا وأمريكا وكل شعوب أوربا، فهى تتسم بالمساواة وتكاد تكون القرابة متعادلة. وهناك ألفاظ قرابية تطلق على الخالة والعمة مثل Tante ، ويسمى الخال والعم باسم Uncle ، كما يطلق لفظ Cousin على ابن العم وابن الخال ، وبنت العم وبنت الخال ، ويتشابه الموقف بين اللغتين الانجليزية والفرنسية فى كلمة Cousine ، مما يؤكد «ديموقراطية القرابة» فى الأسرة المونوجامية فى العصر الحديث .

الفصـــل الأول

ماذا نقصـد بالحضرية ؟

★ حضارة المدن ومدن الحضارات

★ ما هو الفارق بين الحضارة والحضرية ؟

★ الحضرية والتحضر والتحديث Modernization

★ النمو الصناعى الحضرى .

★ ما معنى الحاضرى أو المتروبوليتان .

★ الحضرية وعملية التحضير Acculturation .

تمهيـــد :

لقد نشأت الحضارات الأولى فى قلب المدن العتيقة ، هكذا صدرت « طيبة » و « ممفيس » و « هليوبوليس » فى مصر الفرعونية ، كما ظهرت بابل و «أور» و «نينوى» فى الشرق الأدنى القديم ، ثم أصبحت « البندقية » هى مبعث الادارة والتجارة فى العصور الوسطى . بمعنى أن المدن هى كائنات حية تظهر وتعيش وتنمو ، وتزدهر ، وقد تذبل وتنضمر ، ثم تختفى وتموت[1] . فالحضارة لاتكثف السكان فى المدن ، إلا لكى تبخرهم بصورة ما أو بأخرى. كما قد تنتعش مدينة من المدن ، على حساب انكماش مدينة أخرى ، ولذلك تحول الريف فى معظم محافظات جمهورية مصر العربية ، إلى مناطق وتجمعات حضرية ، فتحولت القرى إلى مدن زراعية ، وبخاصة حين تنفث المدينة فى القرية من روحها ، وتنشر بذور الحضرية ، فتظهر المدن الزراعية ، ويصبح الفارق بين المدينة والقرية هو مجرد فارق فى الحرفة لاق طريقة الحياة. وتحول الأمر من شكل من أشكال السكنى ، إلى نمط أو طريقة أو أسلوب للحياة From form of Habitat to a way of life[2] . وبين الريف والحضر ، أسباب طرد وجذب ، ومن ثم تقوى أسباب الدفع البشرى ، أثناء عمليات النمو الحضرى ، طلبا للأيدى العاملة التى تنفذ مشروعات تنمية المدن . ومن أسباب الدفع أو الطرد القروى ، شدة تأخر الريف ، وازدياد المسافة الثقافية بين القرية والمدينة نظراً لقلة خدمات الريف وضعف المرافق التى تتأثر طبعا بزيادة معدلات الخصوبة Fecundity التى تؤدى إلى الاستمرار فى تزايد أعداد المواليد ، وكثرة البطالة والأيدى الخاملة خاصة فى أوقات التحاريق ، وأثناء انتظار نضج المحاصيل وبلوغ أقصى حالات نموها ، بالاضافة إلى أن الريف كثيراً مايتعرض للكوارث وخاصة بعد سيل أو فيضان أو حريق .

ومن الأسباب الحقيقية للدفع القروى ، اعتبارا الحواضر والمدن من أكبر مصادر الرزق ، ويزداد فيها الأجر ، كما ويهرب القروى من حدة ضغوط التربية

---

(1) Clarke, W.M., How The City Works., The Professions London 1983.

(2) Wirth.,L., Urbanism as a way of Life., American Journal of Sociology, Vol : 44 No. 1., July 1938.

ووطأة العرف والتقاليد ذات السيطرة والسلطة والتعسف التى قد تصل جميعها إلى « عامل طرد من قيود الريف إلى حرية المدينة » وحياتها السهلة. ولذلك كثيرا ما ينعم القروى ويسعد بالترويح عن نفسه وخاصة بزيارة المدن الكبرى أو حتى الانتقال النهائى بالهجرة اليها والاستقرار فيها ، وهذا ما يفسر لنا السبب فى إنتقال الريفى وهجرته إلى المدينة ، ففى المدينة يجد الطالب القروى مكاناً فى مدرسة اعدادية أو ثانوية ، وفى المدينة يلتحق الشاب القروى المتعلم « بالجامعة » ويغترب عن أهله وعشيرته ، ثم سرعان ما يتكيف بالحياة الحضرية فيستقر بصفة نهائية بعد تخرجه من الجامعة فى المدينة التى الفها وعاش فيها طالباً وموظفاً ، وقد ينتقل القروى إلى المدينة، حين يطلب فى التجنيد، وفى أثناء فترة الجندية حيث يقيم فيها بالمدن؛ فيكون هذا من أهم الأسباب الدافعة لشباب القرية من الهجرة الدائمة والمستقرة من القرى إلى الحواضر .

وفى ضوء هذه النظرة السريعة التى تحدد « عمليات الجذب والطرد » نظراً للتغير الهائل والتبدل الدائم الدائب تحت وطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا[1] ، ازدادت اهتمامات علم الاجتماع الحضرى بمشكلات التنمية سواء فى الريف أو فى الحضر ، لحل مشكلات سكانية تعالج فى ضوء نتائج علوم العصر ، وهى علوم الاقتصاد والسلوكيات وبخاصة الانتروبولوجيا الحضارية تلك التى تهتم أولا وقبل كل شيء بمسألة صراع القيم Value Complex[2] ومع التقدم التكنولوجي السريع تزداد الهجرة بين الريف والقرية ، ويلهث المجتمع وراء الصناعة وتقدم التكنولوجيا فتتعقد ثقافات الانسان ، وتزداد تركيباً فى أنساقها وبنائاتها الحضرية ، هذه هى حقيقة فرضها قانون التطور ، فالتغيير كما يقال هو جوهر الحياة Change is The essence of life .

حضارة المدن ومدن الحضارات :

إن مؤسسى الحضارات هم فى الواقع مؤسس مدن City-Founders هكذا فعل « حمو رابى » فى بابل، وسرجون Sergon فى آكاد Agade الأمر الذى أدى فى

---

(1) Hogeweg-de-Haart, W. Richter., The Impact of Technology on Society., edited by B. Schmeikal, Vienna, Center, 1983.

(2) Coggin, P.A., Technology and Man, Swindon., England 1986.

النهاية إلى صدور دولة المدينة City-State وكانت المدينة بشكلها اليونانى العتيق . هى مجرد تصغير كامل Microcosm للدولة ، فهى ثكنة عسكرية كبرى تعتبر وسيلة للدفاع . ولذلك وصل الرومان إلى هيرازكية من المراكز المدنية .تراوحت من القلعة أو الثكنة،أو من المعسكر الحربى البسيط إلى الاتجاه نحو مراكز الاسواق فى مدن الأقاليم ثم انطلقت فوراً إلى العواصم الاقليمية الكبرى .

ولكن ما هو الفارق بين « الحضارة » و « الحضرية » ؟

لا مشاحة فى أن الحضارة ، هى الجانب المادى من الثقافة ، وبالتالى تعتبر بمثابة الشق التكنولوجى الذى هو شكل من أشكال الثقافة ، على اعتبار أن الثقافة إنما تشتمل أيضا على جوانب أخرى « لامادية » كالدين والفن والفلسفة والقانون ، بالاضافة إلى اتجاهات السياسة والاخلاق والقيم[1] .

ونظراً للتغير الهائل الذى يطرأ على الجوانب المادية والتكنولوجية للثقافة ، صدرت أشكال ثقافية معقدة ، وعلى درجة عالية من التركيب والرقى تلك هى أشكال أو إنماط من الحضارة Civilization بمعنى أن الحضارة هى « نوع ثقافى معقد » أو هى « ثقافة حضرية مركبة » ولذلك « يقال ان الحضارة هى « حضرية عتيقـــة لها ماضيها وجذورها وأصولها فى تربة التاريخ » ، وهذا هو السبب الذى من أجله اتجهت « ثقافة أهل المدن والحواضر » نحو أعقد الانماط الحضرية وأكثرها تنوعا وتركيباً فى أصولها ومصادرها الثقافية .

هذا ما قصدناه بالحضارة ، وما فيها من تراث له أصوله وجذوره الضاربة فى ماضى التاريخ . ولكن ماذا قصدناه بمفهوم الحضرية Urbanism وكيف يكون[2] ؟ . لاشك أن الحضرية ، هى نمط من أنماط السلوك ، ولاشك أن كل سلوك ، هو سلوك هادف ومنضبط ، فتصبح اذن أنماط السلوك الحضرى وضوابطه وأهدافه ، هى بالضرورة ظواهر مستمدة مما يسود « البناء الحضرى » من معايير ونظم .

ومعنى ذلك أن « حضارة المدن » إنما تكمن فى ماضيها وتاريخها،أما الحضرية

---

(1) Benedict, Ruth., Patterns of Culture., Baston, Mifflin 1934.

(2) Wirth, L., Urbanism as a way of life,.
American Journal of Sociology, Voll 44 No : 1, July 1938.

فلا تاريخ لها فقد تنشأ وتصدر المدن طفرة ، وتسمى « بالمدن الشيطانية » تلك التى تظهر فوراً لكى تلمع فجأة ، حول المناجم ، ثم سرعان ما تخبو مدن الاشباح Ghost Towns نتيجة استهلاك ما فيها واستغلال معادنها ، وتتحول مدن التعدين بعدها إلى « جبانات من المدن الخربة والمهجورة » وعلى العكس من هذه النظرة القاتمة ، لقد ازدهرت الحياة الحضرية وتفتحت فى دويلات الخليج العربى ، فظهرت فجأة مدن البترول ، فى أبو ظبى ودبى ، كما ازدهرت عجمان ورأس الخيمة ، وشيدت مدينة « العين » على أحدث طراز حضرى ، هذه هى المدن التى شيدتها دولة الامارات بعد مشروعات ضخمة فى التنمية والتعمير ، وبرامج فى عمليات التحضير Acculturation ، حتى نهضت مدن البترول ، وتركزت فيها وتوطنت تجمعات حضرية ومؤسسات بيروقراطية صناعية وتجارية(١) .

ولقد أصبحت مدينة الكويت و « ميناء الاحمدى » و « الدمام » فى المملكة العربية السعودية ، من أهم مدن البترول المشهورة فى الشرق الأوسط العربى ، وهى مدن ازدهرت فجأة فى عصر البترول وتفتحت فيها مظاهر الحضرية فتغير فجأة مستوى المعيشة ، وزادت الدخول بصورة ملفتة فأصبح الثرى الكويتى أو السعودى ، يشترى غرفة الصالون أو المائدة من باريس بآلاف الدولارات حتى تمتلىء وتزدحم بها غرف شقته الفاخرة والمكيفة على أحدث طراز إلا أنه سرعان ما يترك غرفة السفرة الفاخرة ليأكل مع أولاده على الطريقة العربية التقليدية ، وهم على الارض جلوس بمعنى اننا نجد فى « ميناء الاحمدى » وفى مدينة الكويت أنماطاً حضرية دخيلة ، ولكنها لا تقوم على حضارة بدوية وعربية أصيلة .

الحضرية والتحضر والتحديث :

يمكننا أن نقارن بين « الحضرية » و « التحضر » ، وأن نميز أيضا بين نمو الحضر ودرجة التحضر ، وكلها مفهومات ضرورية وهامة لكثرة تداولها فى كتب ومصطلحات علم الاجتماع الحضرى . فالتحضر هو عملية تبدل أو تحول الثقافة، أو هو عملية تحديث Modernization حين تستبدل ثقافة تقليدية أو بدوية أو قروية ، بثقافة أخرى حضرية .

---

(١) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس الليان / ١٩٦٢ .

وتمثل درجة التحضر[1] ، نسبة سكان المدن والحواضر والمراكز من جهة ومجموع سكان المجتمع كله . ومع ازدياد سكان المدن والحواضر على العموم ، يزداد النمو الحضرى مع تزايد أهل الحضر فى كل مدينةعلى حدة مع تحديد نسبة الزيادة الحضرية كل عام وهى تعبر فى نفس الوقت عن درجة النمو الحضرى . ولقد خفت سرعة النمو الحضرى فى البلاد المصنعة ، بينما ازدادت هذه السرعة فى البلاد غير المصنعة ، نظراً لازدياد عمليات التنمية وكثافة المشروعات الصناعية ، مع ضغط المؤسسات البيروقراطية .

وفى هذا الصدد يقول « زمبارت Sombart » ان المدينة هى تركز بشرى ، فى غذائه واستهلاكه ، على نتاج عمل زراعى خارجى . كما تمتاز المدن بالتباين الاجتماعى ، وفق تصورية « وليم أولسون Wiliam Olsson » ويرى « سوروكين Sorokin »و « زمرمان Zimmermann » أن أسس الحضرية إنما تتمثل فى الوظائف وانماط التفاعل ، مع تجانس أو تفاضل السكان بالنسبة للتباين الطبقى ، والكثافة والحجم ونوع الحرفة وطبيعة البيئة[2] .

بداية التطور الحضرى والخروج القروى :

وهذا هو السبب الذى من أجله يدرس الباحث فى علم الاجتماع الحضرى ، عمليات النمو الاجتماعى للمدن من حيث التمركز Concentration أو عزل Segregation أو غزو Invasion وهذه هى العمليات الأساسية فى الاقتصاد الحضرى Urban economic ، حين تضاف اليها عمليات التوطن[3] ، ودراسة الاسكان وكيفية « التوزيع السكانى » للمدن بالنظر اليه على أنه منهج من مناهج البحث فى علم الاجتماع الحضرى . فلقد ثبت عند أساطين علم الاجتماع الحضرى أن الأسباب الحقيقية فى النمو الاجتماعى والحضرى ، مواجهة مصادر النمو السكانى ، وأهمها الزيادة الرهيبة فى معدلات المواليد ، مع قلة معدلات الوفيات من كبار السن نظراً لزيادة الاهتمامات بالأدوية والعلاج لزيادة الوعى الطبى ، فتزداد

(1) Arbator, G.A., Social and cultural changes in Developing Countries.Moscow 1975.

(2) Bergel, Egon Ernest., Urban. Sociology Mc Graw-Hill 1955.

(٣) د. صلاح العبد « التوطن وتنمية المجتمع بالوطن العربى » معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٣ .

الفئات المعولة زيادة هائلة ، بينما تقل الفئات العاملة . تلك التى تهاجر من القرية إلى المدينة . ونستطيع أن نقول ان البداية الأولى لكل عملية تنقل أو هجره من القرية إلى المدينة ، هى أقدم عملية من عمليات التطور الحضرى .

التطور الاسلامى الحضرى :

لقد كان الدين الاسلامى بفتوحاته الكبرى ، سبباً حضارياً فى ظهور أهم المدن الاسلامية ، مثل « بغداد » و « القيروان » و « الفسطاط » وتعتبر « الفاتيكان » فى ايطاليا ، من أشهر المؤسسات الدينية والحضارية ولا غرو فهى كعبة المسيحى فى أوربا ، ولقد دمغ الاسلام مدنه بطابع أصيل ، هو الذى أعطاها شخصيتها الاقليمية المتميزة ، وجعلها تتشرب من ماضيها حقيقة أو مسحة حضارية Culture-area بعينها . ولذلك تعتبر « الرباط Ribat » مثلا من أكبر مدن المغرب العربى حيث كان يرابط فيها شيوخ المرابطين ، فأصبحت من أكبر المدن الصوفية فى مراكش . بمعنى « أن الدين إنما يضفى على المدن والحواضر، طابعا ثقافيا خاصاً » ، فالعلاقة وثيقة بين التمركز البشرى ، ودور العبادة، وتعنى كلمة Urbani فى أصلها اللغوى والدينى ، هى تلك المدينة أو المدن التى اعتنقت المسيحية ، أما كلمة Pagarni فتعنى الريف الذى لايزال وثنيا.

الحسبة والمحتسب[1] :

من أهم مآثر العرب ادخالهم «نظام مراقبة الأدوية» عن طريق الحسبة والمحتسب وهى وظيفة دينية يقتضيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذا من أوجب واجبات ولى الأمر بين المسلمين الذى كان ينبغى عليه تعيين محتسب يراه أهلا للقيام بهذه المهمة الشاقة التى تتطلب فى القائم بها صفات كثيرة ويذكر بن عبدون من صفات المحتسب فيقول :

(يجب أن يكون المحتسب رجلاً عفيفاً ورعاً عالماً غنياً نبيلاً عارفاً بالأمور محنك فطن لايميل ولا يرتشى ، فتسقط هيبته ، ويستخف به ولا يعبأ به ،

(١) حسن ابراهيم حسن « النظم الاسلامية » القاهرة المطبعة الأميرية ١٩٤٩ .

ولا يستعمل فى ذلك خساس الناس ، ولا من يريد أن يأكل الناس بالباطل ،لأنه لايهاب إلا من كان له مال وحسب ، وقد انتقل هذا النظام إلى أوربا ولا تزال كلمة محتسب تنطق فى اللغة الاسبانية بنطقها العربى) .

ولقد تطورت سائر الامصار الاسلامية ، بتعيين القضاة والولاة ولقد أدخل سيدنا عمر بن الخطاب أثناء خلافته نظم «العسس» و « الحسبة » حتى يستتب الأمن ليلا ، وكان الفاروق العادل عمر هو الذى يقوم بنفسه بدور المحتسب ، فيضرب التجار فى السوق ، حتى يبعدهم عن طريق المارة ، وهو يقول : لاتقطعوا علينا سابلتنا » .

ولقد كانت مهمة المحتسب ، هى الاشراف على نظام الاسواق ، وهى وظيفة حضرية هامة ، فله أن يطلب من الباعة « موازينهم ومكاييلهم » ، حتى يتحقق من ضبط العيار والمكيال ، وفى دار خاصة تسمى « دار العيار » ، وتطورت وظيفة المحتسب ، وأصبحت خاصة بشئون البلديات والمرافق كنظافة شوارع المدينة وتأمين حركة المرور فيها ، بالاضافة إلى مراقبة الأسعار والمقاييس والأوزان فى الأسواق والأحياء السكنية حيث تباع السلع الاستهلاكية والمواد الغذائية .

وكان المحتسب يسير فى كوكبة ، وكان من بينهم « حاملوا الموازين » ولقد حاول أحد المحتسبين المشهورين فى عصر محمد على ، ويدعى مصطفى كاشف ، أن يجبر الأهالى على كنس الأسواق ورشها ، واضاءة الفوانيس على أبواب البيوت والحوانيت ، مما أثار معارضة العامة ، فرفض محمد على ، هذه الأوامر الصارمة التى فرضها أحد كبار محتسبيه[1] .

. النمو الحضرى الصناعى :

تظهر الحواضر الكبرى ، حين تتوافر الظروف التى تسرع من عملية التضخم الحضرى تحت وطأة الصناعة وسيطرة المؤسسات البيروقراطية ، وازدياد الاهتمام بوقت العمل ، بعد أن كان عنصر الوقت ثانوياً ، ونظراً لارتباط الانسان الحضرى

(١) ريمون أندريه : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، كتاب روز اليوسف السابع عشر يوليو ١٩٧٤ ص ٣٦ .

بساعات عمل للحضور فى ساعات محددة ومنظمة . فليس العامل أو المهنى حراً فى أداء عمله ، وإنما يخضع الصانع لرئاسة أو سيطرة ، ولكل منها مسئولية خاصة تراقب العمل ، وتشرف على من يعمل ، وعلى كمية ونوع انتاجه ورصد سلوكه أثناء عمله . بعد أن كان صاحب الحرفة حراً فى عمله يعتمد على نفسه لأنه يرأس ذاته ، ويطمئن إلى أحكام ضميره ومهاراته وتخصصاته[1] .

المتروبوليتان [2] :

وتتميز المدن الكبرى والحواضر ، بالمركزية وسيطرة النفوذ الحكومى الفنى والادارى وأتساع المشروعات الصناعية ، وحركة المرور الدائمة وتزدحم فى شوارعها وطرقها السيارات والشاحنات ، حيث يعتمد أهل الحواضر الكبرى على سياراتهم الخاصة فى السفر اليومى والمستمر من المنزل القائم بعيدا فى قلب الضواحى النائية والهادئة ، ومن العمل فى قلب المدينة ونواتها النابضة الحركة تلك التى لا تخبو أو تهدأ ، ليل نهار .

ويتضمن اقليم المدينة City region كل مجال المدينة سياسياً وإدارياً ولذلك ينمو من التركيبات الحضرية « مناطق نفوذ ومراكز قوة » تتسلط وتتحكم فى المجال الحضرى Urban Field وتعتبر المدينة حلقة وصل بين المدن حيث تمتد شرايين الطرق ، وتترابط شبكة المواصلات، حيث تمر الشاحنات فى سيولة مع حركة مرور تنساب سهلة ونشطة Active ـــ وتعتبر حركة المواصلات والنقل فى أى مدينة هى العامل الحاسم فى تحديد مدى « الاشباع الحضرى » حيث تتعدد الخدمات وتنشط المرافق ، ولا شك أن « البؤرة الحضرية » فى كل مدينة تصبح « ليل نهار كالخلية الحية » ، حيث تنشط حركة النقل السريعة على طرق معبدة ومواصلات ميسرة ، وبفضل مشروعات التنمية التى توفر للمدينة والدولة كلها، الوقت والجهد والمال والقوى البشرية ، وتنشط ليلا حركة الشاحنات لنقل البضائع والسلع الثقيلة

---

(1) Whyte, W.H., The exploding Metropolis, Doubleday and co : Garden city N.Y. 1958.

(2) Coggin, P.A., Technology and Man, Swidon, England 1980.

(3) Mumford, L., Culture of Cities., London, Secker & Warburg 1946.

كآلات الخراطة والصباغة[1] ، التى تعمل يوميا فى دأب وحركة وبخاصة فى البيع والشراء Shopping والتسويق ومن الناحية التسويقية نجد أن الريف هو مصدر انتاج الجبن والزبد واللحوم ، وهو انتاج زراعى حيوانى ، يهتم بالألبان ومستخرجاتها ، ولذلك تعتمد المدينة على الانتاج الريفى .

ومع تدفق رؤوس الأموال ، وظهور طبقة ذوى الياقات البيضاء ، والاهتمام بأدوات الاتصال والأجهزة الالكترونية والكمبيوتر ، وأدوات التليفزيون والتليفون وهى أدوات ضرورية ومرافق هامة ودعائم تكنولوجية تدعم الحضرية فى عصر « المتروبوليتان » ، وهو عصر الحواضر الكبرى ولذلك قيل ان الانسان الفرد ، يكون فى زحام المدينة الكبرى ، أكثر الناس وحشة وشعوراً بالعزلة .

ولكن هل بلغت المدن المعاصرة عصر المدن ؟

نستطيع أن نرد على هذا السؤال بالنفى القاطع ، حيث مازالت المراعى والقرى والكثير من المناطق الفضاء الكبرى التى تبعدنا تماماً عن المدنية والحضرية فنحن لم ندخل بعد « عصر المدن » على الرغم من وجود الانقلابات الصناعية والتطورات الميكانيكية والمخترعات الذرية والالكترونية .

وعلى الرغم من ظهور الدول الصناعية ونشأة الحواضر الكبرى ، ظهرت الكثير من المدن الجديدة التى انشطرت ، فنجمت عن عملية انشقاق أو انفصال Fission أمهات المدن الكبرى ، وهى تمثل « نظائر من المدن Doublets de Villes » المنشقة أو المنشطرة .

الحضرية وعملية التحضير[2] :

لقد حدثت عملية هائلة من عمليات التكيف الحضرى ، وهى تمثل فى حقيقة أمرها عملية ذوبان للحضرية Diurbanization ، فلقد قامت المدن الكبرى دون شك ، على أكتاف الزراعة ومشروعات الرى ، وتنوعت « ثقافات المدن »[3] وتعددت مصادرها Polyculture مع تنوع المؤسسات البيروقراطية

(1) Clarke, W.M., How the city Works ?The professions, London 1983.

(٢) د. عبد المنعم شوقى علم الاجتماع الحضرى ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٢ .

(3) Mumford, L., Culture of Cities., Secker & Warburg 1946.

والمشروعات الصناعية أو التعدينية وبفضل عملية التحضير ، تحدث عملية التكيف وذوبان الحضرية [1] .

ولكنا لايمكننا أن نقيم عملية تقييم أو تخصيص للحضرية ، وعلى مستوى العالم كله ، الأمر الذى معه يصعب اقامة البرهان أو طرح الدليل التجريبى ، بعملية واحدة فحسب مهما بلغت فيها الحضرية درجة الذوبان فى عملية التقييم أو التخصيص فى الحضرية Specialization of urbanism وإنما يمكننا أن نؤكد فحسب ، على الاحتكاك الثقافى Cultural Contact أو عملية الانتقال الحضارى Transculturation ولا يمكننا الاعتماد فقط ها هنا على « الأصول النووية » فى النقل والانتشار الحضارى ، فلا نركز فقط على «الأصل الحضرى» دون التقيد بدور الهوامش وأثرها الايجابى ، حين يعود الناقل الهامشى Marginal ثانية لكى تؤثر ثقافته فى الأصل النووى . وبفضل الانتشار العالمى يمكننا القيام بعملية توسيع وتعميق فى عملية التعميم الحضرى ، بفضل ذوبان المدينة وهجرتها إلى الريف إذا ما استخدمنا مناهج التحضير Acculturation استخداماً علمياً سليماً .

الصدمة الثقافية :

وتؤدى عملية التحضير ، إلى ايجاد « ثقافات هامشية » Marginal Culture تنجم عن عمليات مشتركة متبادلة ، لهضم الثقافات الدخيلة بفضل عمليات الديناميكا الثقافية . وهذا هو السبب الذى من أجله كانت حالة « الصدمة الثقافية Cultural Shock » من أهم مشكلات التحضر ، كما ويعانى منها الريفى والبدوى، حين يواجه كل منهما ثقافة متمايزة وعلى درجة عالية من التحضر فتزداد الفجوة الحضارية ، وتحدث الصدمة الثقافية التى قد تؤثر على شخصية الانسان التقليدى أو المتخلف ، فيحدث القلق النفسى فى مجتمع تنتشر فيه الجرائم وتتشرد الاحداث وترتفع فيه نسبة الطلاق ، وتتزايد أعداد البغايا .

ومن الآثار السلبية للصناعة والتكنولوجيا[2] أن باعد التصنيع بين العمال وأصحاب العمل ، فبعد أن كانت العلاقات وثيقة الصلة لأنها كانت فى الأصل

(1) Coggin, P.A., Technology and Man, Swindon, England 1980.

(2) Reissman, H., The urban Process., The Free Press of Glencoe, N.Y. 1964.

انسانية وعائلية بل وعاطفية وروحية ، تستند إلى تلك الصلة التاريخية الوثيقة بين صاحب الورشة وغلمانه أو « صبيانه » ، تطورت بعد اندلاع الصناعة ، وفى عصر الاوتمية Automation وبعد الانقلاب الصناعى الثانى ، تطورت العلاقات الانسانية الأصل إلى علاقات آمره ضاغطة ورسمية Formal بعد أن كانت كل علاقات الورشة انسانية وغير رسمية .

ومن مشكلات التحضير والحضرية، تفكك العائلة[1] ، وظهور الأسرة العصرية الصغيرة العدد ، مع الازدحام وصعوبة الاتصال فضعفت حدة القانون ، ثم قلت بالطبع سطوة « الضبط الاجتماعى » Social Control وفى المدينة ترتفع نسبة الطلاق ، ويتشرد الأحداث وتتعدد صور البغاء وتتزايد عمليات السرقة ، ويجنح الانسان إلى الجريمة نظراً لكثرة البطالة وشدة الازدحام ، كما وتضعف فى المدينة علاقات الجيرة Neighbourhood وتزداد « العزلة » وتظهر حدة المسافات الطبقية بين الناس ، على العكس من التماسك الاجتماعى القروى القائم على علاقة الوجه للوجه Face-to-Face Relationship[2] .

---

(1) Solimon, Adley., Social Development in New Rural Development in Egypt., Egyptians Authority for cultivation and Development, cairo 1973.

(2) Redfield, Robert., Peasant Society and Culture, An .anthropological. approach to Civilization, University of chicago 1958.

الفصل الثانى

طرق البحث الحضرى

* ★ تمهيـــــد
* ★ ما هى الصعوبات التى تواجه الباحث فى علم الاجتماع الحضرى ؟
* ★ طرق البحث التقنية Technique
* ★ منهج العينات Samples
* ★ منهج المقابلة Interview
* ★ ما هو الاستخبار ؟ Questionnaire
* ★ المسح الاجتماعى Social Survey
* ★ المونوجراف Monograph

تمهيـــد :

ينبغى أن نؤكد أولاً وقبل كل شىء أن دراسات علم الاجتماع الحضرى إنما تهدف أصلا إلى معالجة وحل مشكلات عملية . حيث يكون لكل علم غاياته التطبيقية ، تلك التى تستند إلى دراسات عملية وأبحاث ميدانية تؤدى إلى نتائج حقلية أو تجريبية محددة ، يمكنها أن توصلنا فى النهاية إلى اكتشاف حلول علمية أو نظرية لمشكلات عملية أو مشخصة Concrete Problems . وفى هذا الصدد أعلن دور كايم أن أبحاثه ودراساته فى علم الاجتماع ، إنما لاتستحق ساعة من الجهد أو العناء إذا كان الغرض منها مقتصرا على الناحية النظرية البحتة .

وفى ضوء هذا المعنى العملى الذى أشار اليه دور كايم ، يمكننا أن نؤكد قيمة البحث الميدانى Field Research ، ودور الدراسات العملية فى ميدان علم الاجتماع ، الذى لم يقم هو نفسه «إلا لمعالجة الفوضى العقلية التى سادت فرنسا» ، وحل مسألة « تعدد الفلسفات » التى عصفت واجتاحت بالفكر الفرنسى ، فحاول علم الاجتماع الوضعى ، أن يحقق ما يسميه « ليفى بريل »[١] بالاتساق المنطقى التام La Parfaite Cohérence Logique .

ولكن هل هناك صعوبات حقلية ؟

١ ــ هناك صعوبات متعددة تطبيقية ونظرية ، تواجه الباحث الحقلى فى ميدان علم الاجتماع الحضرى . وعلى سبيل المثال لا الحصر نستطيع أن نتساءل: كيف يمكن قياس الحضرية ؟ وكيف نعالج العلاقات الحضرية[٢] ؟ على الرغم من أن العلاقات الانسانية فى طبيعتها ، هى أمور تتقبل « الفهم » ويتعقلها الانسان لأن مسألة العلاقات الانسانية هى مسألة خلقية Moral ولا تتصل أبداً بالنواحى الطبيعية أو الفيزيقية ، فيمكننا مثلا أن نقيس علاقة الاكسجين بالايدروجين ، بينما لا يمكننا مثلا قياس « القيم » والعلاقات وكل ما يتصل بعالم « الباطن » كالشعور والروح وكلها عوالم تحتاج إلى منهج آخر غير المنهج الوضعى أو التجريبى .

(١) أنظر كتابنا علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الأول « المنطق » الطبعة الثانية ــ بيروت ص ٨٧ .

(2) Reissman, H., The Urbem Process, The Freepress of Glencoe N.Y. 1964.

ويحاول الباحث الحقلى فى علم الاجتماع الحضرى ، أن يستخدم طرق القياس الاحصائية لدراسة الأنشطة الاقتصادية وما يدور حولها من « علاقات انسانية » واجتماعية وإدارية وسياسية ، وما يرتبط كل منها ببنية الثقافة الحضرية ، وما يدور خلالها من نظم وأنساق تكون جميعها فى تكاملها هى « الفحوى أو المضمون » الذى يتفاعل ويتوظف ويتساند فى معية Togetherness فى سائر البناءات الحضرية . ومن أمثلة تطبيق المنهج الاحصائى قياس « الدخل الفردى » أو حتى « قياس دخل الأسرة أو العائلة » إلا أننا نجد صعوبة فى قياس الدخل وتطبيق المنهج الاحصائى ، فعند القيام ببحث فى كفر الدوار ظهرت من نتائج بيانات البحث « أن مصروفات جميع الناس أكثر من دخولهم » . ويرجع ذلك الخطأ بالطبع إلى صعوبة البيانات وعدم معقوليتها ، حيث أن المجيب لايعطى السائل سوى حقائق كاذبة ، وأرقام غير صحيحة ، فهناك مثل طبيعى اشتهر به كل من أهل والحضر حيث يكذب الناس ويشوهون الواقع ، ولذلك تخفق الطريقة الاحصائية كمنهج تطبيقى فى دراسة أو قياس الأشياء المعنوية. ولذلك يستخدم المنهج الاحصائى فى دراسة ظواهر الطبيعيات والماديات ، مثل المساحات واستهلاك خدمات المرافق لوجود عدادات المياه والكهرباء أو الاشتراك فى التليفون .

٢ ـــ وحين يصعب تطبيق المنهج الاحصائى ، يمكن اجراء الطريقة الوصفية Descriptive Method أو المنهج الفينومينولوجى فى وصف العلاقات الانسانية وسبر غورها والكشف عن مكنونها الجوهرى العميق ، فلا يمكن أن تتطابق شخصيات الأفراد ، فلكل انسان طباعه وظروفه وأحواله ، كما لاتتطابق أيضا حالات الأسر فى الحجم أو الدخل والطبقة ، كما تتمايز سائر المؤسسات فى التنظيم والبناءات والأنشطة ، فهناك إذن صعوبة فى التعميم Generalization .

٣ ـــ وهناك صعوبة منهجية أخرى ، وهى أن أحكام الناس هى أحكام شخصية Personal وليست نظراتهم أمينة وموضوعية فتؤدى إلى حقائق غير صحيحة ، وقد يتأثر الباحث الاجتماعى بطبقته أو بيئته أو ظروفه وكل ما يحيط به من أشخاص، قد تتدخل فى تقديره وأحكامه ، فينبغى أن يتخلى تماماً عن مشاعره، ويتخلص كلية من تأثير الجو المحيط به . وهذا هو السبب الذى من

أجله نجد أن نتائج التجربة الطبيعية ثابتة وتتواتر نفس النتائج إذا ما أجريت التجربة فى نفس الظروف ، ومن هنا لا يتأثر الباحث بأنبوبة أو مخبار مدرج ، وإنما يختلف الأمر كلية إذا ما أجريت تجربة نفسية أو اجتماعية فى تقدير حالة أسرة أو انسان ، وقد تختلف النتائج بين سائر الباحثين وذلك لاختلاف « المعايير الخاصة بتقدير كل باحث» ، ثم أن التجارب التى تجرى على « منطقة حضرية » ، تختلف فى نتائجها كلية إذا ما أجريت نفس التجارب على نفس المنطقة الحضرية بعد سنتين أو ثلاثة ، حيث تختلف النتائج لاختلاف الظروف الحضرية ، التى تسبب التغيير الاجتماعى Social Change نتيجة للنمو الاجتماعى والتنمية الحضرية الدائمة والمستمرة . وهذا هو السبب الذى من أجله إزداد الاهتمام بالمسوح الحضرية ، الأمر الذى أدى إلى العناية بالمناهج التقنية Technique لتطبيقها على ما يتغير وما ينمو[1] وما يتحضر ، كما إزداد استخدامنا لمنهج الملاحظة العملية ، نظراً لدقته وموضوعيته وبخاصة فى الدراسات الانثروبولوجية الحضرية والثقافية .

الثقافة ومنهج الملاحظة :

لقد صدرت الكثير من ألوان المناهج التقنية وهناك عدد من مناهج البحث الميدانى المستخدمة فى علوم الاجتماع الثقافى والوضعى ؛ ومنها ما يتعلق بالسرد مثل منهج الدراسة الوصفية Desoriptive Case studies ومنها ما يتعلق بالجوانب الكمية مثل منهج استخدام القياس Measurement[2] ومثالنا على منهج الدراسة الوصفية ما كتبه برونسلاف مالينوفسكى Bronislaw Malinowski عن الاقتصاد الميلانيزى Melanesian economics ، ونظرية الشيوعية البدائية Theory of Primitive Communism تلك النظرية الاقتصادية التى أثارها فى كتابه Crime and Custom in savage society .

(ا) فلقد انتهج مالينوفسكى ، فى هذه الدراسة منهج الوصف والسرد الذى يصل أحياناً إلى حد الاملال . فيصف موطن الميلانيزيين ، وجزر التروبرياند Trobriand وموقعها فى الشمال الشرق من غينيا الجديدة بأعتبارها مجموعة من

---

(1) Geddes, P., The Survey of Cities in Sociological Review, Manchester Vol : I 1961.

(2) Cicourel, Aaron V., Method & Measurement in Sociology., The Free Press of Glencoe. 1964, P. 42.

الجزر المرجانية بيحيرة شاسعة . وهى عبارة عن سهول خصبة تمدها البحيرة الشاسعة بالأسماك الوفيرة . كما يسهل الانتقال بين الأهالى من مكان إلى آخر ، حيث يعمل سكان جزر التروبرياند بالزراعة البدائية ، وبصيد الاسماك التى تكتظ وتتوافر فى البحيرة الهائلة . كما يعمل الأهالى بالتجارة والتبادل التجارى ، نظراً لمهاراتهم فى مختلف الصناعات اليدوية .

(ب) وتنتشر القوارب الصغيرة على سطح البحيرة ، حيث يقضى الأهالى شطرا كبيراً من حياتهم وأوقاتهم فى تبادل التجارة ، أو صيد الاسماك ، أو نقل الأهالى بالقوارب من مكان إلى آخر . ويوجد فى كل قارب عدد من البحارة ، بالاضافة إلى صاحب القارب نفسه ، وينتمى هؤلاء جميعاً إلى عشيرة واحدة . ويلتزم جميع أصحاب القوارب بالعمل الجمعى أثناء القيام برحلات صيد الاسماك ، وهى رحلات جماعية ، فلا يستطيع أى واحد من أصحاب هذه القوارب ، أن يرفض استخدام قاربه فى عمليات الصيد الدائمة[1] .

(جـ) حيث أن ملكية هذه القوارب ليست بالملكية الخاصة بأصحابها ، وإنما هى ملكية عامة لسائر أعضاء العشيرة ، طبقاً للألتزامات Obligations والواجبات Duties التى تفرضها العشيرة فى ميلانيزيا . وتلك هى شيوعية الملكية العامة لقوارب الصيد فى التروبرياند . ولقد أكد « ريفرز W.H.Rivers » قبل مالينوفيسكى هذه الحقيقة ، حيث ذكر فى كتابه الضخم « التنظيم الاجتماعى Social Organization » أن من سمات الثقافة الميلانيزية هى « الملكية العامة » التى تفرض على صاحب قارب الصيد[2] .

إلا أن مالينوفسكى إنما يؤكد فى الرد على « ريفرز » ، أن هناك نظاما معقدا للملكية عند التروبرياند ، ولكنه لايتناول اطلاقا أو يعالج ما نتداوله فى فهمنا المعاصر لمفهومات حديثة ، تدور حول معان اقتصادية مستقاة من نظم بلغت ذروتها فى ثقافة القرن العشرين ، الذى هو قرن أو عصر التعقيد Age of Complexity كما يطلق عليه فى أغلب الأحيان ، فلا ينبغى اطلاقا أن نقارن نظاماً

(1) Riley, Matilda White., Sociological Research, A Case Approach New York. 1963 P. 35.

(2) Rivers, W.H.R., Social Organization, Kegan Paul, London 1924 PP. 106 - 107.

بدائياً ساذجاً ، بنظم اقتصادية مركبة مثل « الشيوعية Communism » أو « الاشتراكية Socialism » أو حتى « الرأسمالية Capitalism » تلك التى تشايع أصحاب النزعة الفردية Individualism فى حرية الاقتصاد طبقاً لمبدأ دعه يعمل دعه يمر Laissez faire, Laisez Passer .

فردريك لوبلاى Le play :

هذا مثال أسوقه ، لايضاح وبيان كيفية القيام بمناهج الوصف فى الدراسة الحضرية الميدانية ، وهناك مثال آخر ، لابراز كيفية استخدام مناهج القياس Measurement ، بالاشارة إلى منهج عالم الاجتماع « فردريك لوبلاى Frédéric Le Play » ودراسته المشهورة التى نشرها فى كتابه « عمال أوربا The European Workers » .

(أ) وهى دراسة انشغل بها « لوبلاى » حين توالت على فرنسا منذ عام ١٧٨٩ عشر حكومات متوالية ، مما أدى إلى الاضطراب الاجتماعى ، وإلى الفوضى التى تفشت فى ربوع فرنسا . وحاول لوبلاى أن يكشف السر الذى يكمن فيما وراء هذه الاضطرابات المتوالية . فأصطنع منهجاً علمياً قياسياً ، حتى تتاح له فرصة التعرف على علة النفور والاضطراب ، وأسباب الفوضى العاتية ، فوجد لوبلاى ، أن الصراع فى مجتمعات أوروبا ، إنما يدور كله حول كفاح الفرد من أجل « لقمة العيش اليومية Daily - bread » .

(ب) وحين تخرج « لوبلاى » من مدرسة الهندسة العليا عام ١٨٢٧ ، شاهد بعينى رأسه ألوان الشرور وصنوف الفوضى والاضطراب ، تلك التى بلغت فى المجتمع الفرنسى حد الخطر الداهم . فحاول أن يقترح منهجاً للدراسة ، وأن يشخص علاجاً لتلك الحالة المرضية ، واستمر لوبلاى نصف قرن من الدراسة الدائبة تلك التى استندت إلى معالجة المسائل الاجتماعية ، ودون التقيد بتصورات أو آراء قبلية A Priori فأختار«عينات ممثلة». من أسر العمال من كل المناطق والأمم والمهن ، حتى يمكنه أن يتفهم حقيقة تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة .

وبدأ لوبلاى ، منهجه القياسى ، بتحديد مفهوم العمال ، فأعتبرهم كل الأفراد

الذين يعملون بأيديهم ، كطاقة منتجة ، لتوفير الحاجات الضرورية للمجتمع[1] .

كما التفت « لوبلاى » فى منهجه إلى ذلك التنظيم المادى والمعنوى Material and moral organization ، للطبقات العاملة ، وما يميز طبيعة عمل هذه الفئات الكادحة الأمر الذى أدى به إلى تأكيد هذا التنظيم المادى والخلقى ، والنظر إليه وإلى طبيعة العمل ، على أنهما من السمات الرئيسية التى تتسم بها ملامح النظام الاجتماعى .

(جـ) واستند لوبلاى فى منهجه إلى النظر إلى الأسرة Family على أنها « النموذج المضبوط Exact Model » للمجتمع أو الطبقة ، فأختار الأسرة التى تمثل المجتمع أو الطبقة أصدق تمثيل . بحيث أننا إذا ما حاولنا معرفة طبيعة الحياة الاجتماعية للطبقة، وإذا ما قمنا بدراسة أسس النظام الاجتماعى ، كان علينا بالضرورة ، أن نلاحظ بدقة وعناية ، كيفية أسلوب حياة الأسرة ، وبحث طرق معيشتها فى ضوء دراسة الحرفة والمسكن ، وفحص تاريخ الأسرة الاجتماعى .

(د) وعلى هذا الأساس ، كانت أسرة العامل ، هى موضوع الدراسة الذى استخدم « لوبلاى » بصددها مناهج « القياس » و « الملاحظة » ، القياس الكمى العددى لحجم الأسرة ، وملاحظة القيم الخلقية والدينية السائدة فى تلك الأســر .

ولذلك القى منهج المشاهدة الذى استخدمه لوبلاى ضوءاً كاشفاً على التفصيلات الجزئية لحياة العمل والعمال . واطلع على دقائق الحياة العمالية ، كعلاقة العامل بصاحب العمل ، وعلاقته برفاقه فى محيط العمل، ثم علاقة العمال بالأطباء، ورجال الدين والمدرسين ، وسائر السلطات القضائية والسياسية .

المونوجراف Monograph :

١ ــ ولقد درس « لوبلاى » ملامح الأسرة فى الجماعات البسيطة Simple social grouping ، مثل أسرة الرعاة فى مجتمعات الحدود التى تربط ما بين آسيا

(1) Ibid : Riley., P. 81.

وأوروبا ، كما درس أيضاً المجتمعات شبه الرعوية semi - nomadic ، تلك القبائل التى تعيش على جبال أطلس . وبذلك ألقى لوبلاى ، باستخدامه لمنهجه العلمى للمشاهدة والقياس ، ضوءاً على كل التفصيلات الجزئية لحياة العامل ، استناداً إلى ما يسمى بالـ « Monograph » ، حيث يضع تحت الملاحظة ، كل مايتعلق بأسلوب حياة العامل وحالته المعيشية[1] .

٢ ـــ وينبغى أن ينقب عالم الاجتماع باحثاً فى كل ركن من أركان بيت العامل أو كوخه ، ليرى أثاثه وأدواته وأطباقه وملابسه ، ويقيم حياته الاقتصادية بالنظر إلى ممتلكاته الخاصة ، من مال أو عقار أو حيوان أليف وباستخدام المشاهدة العينية ، يستطيع الباحث أن يرى ماذا يأكل العامل وأن ينظر كيف يتناول طعامه ؟ وأين يضعه ويحفظه ؟ كما يستطيع أن يدرس ماذا يقرأ ؟ وأن يطلع على مشاعره وقيمه الدينية وأساليب التربية المطبقة فى حياة العامل . كما يتعرف أيضاً على التاريخ الاجتماعى والبيولوجى للأسرة العمالية . ولذلك قسم « لوبلاى » طبقة العمال إلى عمال الخدمة Servant Workers وعمال اليومية Day Laborer وأصحاب العمل والمهن ، وعمال الأجرة Tenant Workers .

٣ ـــ وبهذا المنهج الموضوعى ، قام « لوبلاى » بما يقرب من دراسة ٣٠٠ أسرة دراسة مونوجرافية مركزة ، فدرس أسرة العامل فى باريس ، والمزارع فى كاليفورنيا والفلاح فى سهول الصين ، وبحث الحياة المادية والمعنوية لأسر عمال المناجم والمزارع ودرس القبائل الرعوية على سفوح الجبال .

وبالاضافة إلى كل ذلك ، استخدم « لوبلاى » منهج التحقيق Verification مستنداً فى ذلك إلى الطريقة الكمية Quantitative Mothod ومعتمداً على المنهج التحليلى فى معالجة أشكال الحياة الاجتماعية . ويؤكد « لوبلاى » على أن المبادىء المنهجية Methodical Principles التى يستند إليها علم الاجتماع ، إنما تفترض أولا وقبل كل سىء ، النظر إلى دراسة العناصر المادية Material Elements للحياة الانسانية .

---

(١) أعنى بالـ Monograph بأنه تلك الدراسة الكلية المركزة Intensive study التى تشمل كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، وما تحويه من سائر التفصيلات الجزئية .

٤ ـــ وجملة القول ـــ فان دراسات « لوبلاى » وكتاباته الحضرية ، عن حياة العمال فى الأسرة الأوروبية ، إنما تسهم إلى حد كبير فى تدعيم المنهج السوسيولوجى واثراء النظرية فى علم الاجتماع الحضرى، حيث كشف عن فهم واضح للحياة الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، ودرس طبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تحيط بأسرة القرن التاسع عشر، وكيف تمنح الحكومات الحياة الرغدة الهانئة لاسعاد الملايين من العمال باعتبارهم طبقة الانتاج ، وطاقة العمل وقوته، حيث أن وظيفة الحكومات التى تتعاقب إنما تتمثل فى تحقيق الغاية النهائية وهى إسعاد بنى البشر من المحكومين .

٥ ـــ ولقد اعتمد « لوبلاى » فى تلك الدراسة ، على حقيقة منهجية أساسية وهى أن المجتمع إنما يتكون أصلا من مجموعة من الأسر ولا يمكن النظر اليـه كعدد من الأفراد ، أو كمجموعات فردية منعزلة ، أو فئات عددية مستقلة ، ولقد أجاب « لوبلاى » أيضاً عن تلك المسائل التى كان قد أثارها فى بداية بحثه ، وتدور كلها حول الاستقرار الحضرى ومصادره الأساسية . فوجد أن السعادة فى كل مكان إنما تستند أولا وقبل كل شىء إلى العيش الرغد ، مع توافر الحاجات المادية والروحية فى كل أسرة ، والابتعاد تماماً عن كل ما يهدد الأسرة من بؤس أو شـقاء .

وفى الواقع ـــ لقد أحدث « لوبلاى » تطويراً فى ميثودولوجيا القياس السوسيولوجى Methodology of Sociological Measurement حيث وضع خطة منظمة لمنهجه فى البحث ، وقنّن طريقة لجمع المادة السوسيولوجية وانتهج منهجاً اشتهر به وحده دون سائر علماء الاجتماع ، وهو تحليل أصول المجتمع الانسانى تحليلاً علمياً ، بالرجوع إلى مصادر الحياة العقلية والمادية والخلقية للأسر البسيطة من حيث التركيب ، مع دراسة كل التفصيلات الجزئية للحالات موضوع الدراسة.

٦ ـــ كما يؤكد « لوبلاى » على فكرة منهجية أساسية ، وهى وجوب عدم اهمال أى تفصيلات قد لا تخدم الهدف الحقيقى من منهج البحث . حيث أن هذه التفصيلات التى أهملناها قد تكون ذات فائدة كبرى ، حين تخدم أهدافاً أخرى من أهداف البحث ...

وختاماً — فان « فردريك لوبلاى » بالاضافة إلى كل ذلك قد انتهج فى دراسته منهجاً احصائياً ، وهو الأخذ بمناهج العينات Sampling Mathods حيث اختار « لوبلاى » عينة من مختلف الأسر ، حتى يمكنه « التعميم Generalization » من جهة ، وحتى تسهل عمليات التحليل والمقارنة Comparison من جهة أخرى .

ولكن العينات التى اختارها « لوبلاى » لم تكن بالعينات الممثلة Representative Samples كما نتفهمها ، بمفهومها الحديث ، وهى العينات التى يمكننا بفضلها أن نقوم بالتعميم الاحصائى والتجريبى ، وحتى ولو أخذنا هذه الأيام بمنهج ، العينات الممثلة ، فمن الصعوبة بمكان أن نطبق هذا المنهج ، حيث أننا لايمكن أن تصادفنا «الصدفةالميمونة» فى العثور على تلك الأسرة الممثلة ، أو الأسرة فى عمومها in general ، كما نتصورها بعيدة عن نطاق الزمان والمكان .

٧ — هذه اشارة عاجلة لمنهجين من مناهج البحث الوصفى ، حيث أشرت إلى دراسة وصفية حقلية قام بها « مالينوفسكى » والثانية دراسة كمية واحصائية قام بها « فردريك لوبلاى » . إلا أن هناك الكثير من مناهج البحث الميدانى ، مثل منهج دراسة الحالة Case Method ، هذا الذى يتعلق بمعالجة ظروف أو حالة معينة بالذات مثل *تلك الحالات التى تعالجها دراسات « خدمة الفرد* Case Work » . وهناك أيضا منهج المسح الاجتماعى Survey Method ، وسنشير إليه على نحو مفصل أثناء دراستنا للمسوح الحضرية فى طيّات الفصل الثانى من كتابنا هذا .

وبالاضافة إلى كل ذلك — يستعين البحث الميدانى بمناهج الاحصاء Statistical Methods ، وجمع وتسجيل البيانات . وتختلف تلك المناهج من حيث اتساعها ومداها Scope كما تتمايز من حيث المصادر Sources وأستخدام أدوات الجمع والتسجيل .

ولقد صنف « تشابن Chapin » تلك المناهج من حيث المدى والاتساع ، إلى مناهج العينات Sampling Methods ، ومناهج الحصر والاحصاء Enumeration.

١ — أما من حيث المصادر Sources ، تنقسم المناهج إلى مناهج دراسة المصادر التاريخية Historical Sources التى تسجل الاعترافات والخطابات التاريخية والمذكرات الشخصية التى تسجل ملامح الحياة الخاصة . ومن المصادر التاريخية

هناك الوثائق والسجلات ، والحفريات Fossils والبقايا ، والطبقات الجيولوجية . Geological Strata

٢ ــ وإلى جانب المصادر التاريخية ، هناك المصادر الحقلية Field Sourees ويمكن حصرها فى المشاهدات المباشرة Direct Observations ، تلك التى تسمى أيضاً بالملاحظة الحقلية Field Observation ، وهى تلك الملاحظة العلمية التى لا تتحقق إلا عن طريق الدراسة المباشرة لمجتمع معين بالذات،وفى فترة محددة من تاريخه .

٣ ــ وهناك بعض الطرق المشهورة فى اتمام منهج الملاحظة الحقلية ، ومنها الطريقة المباشرة أو المنهج المباشر ، Direct Method ، وبواسطته يحاول الباحث الميدانى ، أن يقوم بنفسه بعمليات الملاحظة وتسجيل المشاهدات ومنها أيضاً . المنهج غير المباشر Indirect method ، حيث يتلقى الباحث Investigator بياناته ومعلوماته عن الآخرين ، كالمرشدين أو المخبرين الاجتماعيين Informants أو المحللين الاجتماعيين Social Analysts أو الدارسين فى الحقل الاجتماعى Field - Workers ، وبخاصة فى دراسة المجتمعات البدائية ، وهم من يسمون أحيانا بالمتكلمين Speakers وبخاصة فى المجتمعات الحضرية .

٤ ــ بمعنى أن الباحث حين يستخدم المنهج غير المباشر،إنما لايقوم بنفسه بعمليات الجمع والمشاهدة ، أو اجراء العمليات المبدئية فى العمل الميدانى . حيث يعتمد الباحث فى هذه المرحلة على من يقوم بعمليات الجمع والتسجيل ومن يقوم بعمليات التحليل ، أو على من يقوم بعمليات التسجيل والتحليل معاً فى أثناء الدراسة الحقلية .

وهناك شروط ينبغى أن تتوافر فى تطبيق المنهج المباشر ، منها ضرورة إحتكاك الباحث الميدانى بالمجتمع حقل الدراسة ، حيث يسجل ما عنَّ له من ظواهر ، فيقوم فى كل دراسة حضرية Urban أو ريفية أوحضريفية Rurban ، بأحصاء عدد البيوت فى ضاحية أو ناحية معينة ، ويلاحظ حجم المنطقة ، ومدى استخدام المياه والكهرباء ، وتوافر المدارس أو المساجد والكنائس . ويسجل أوجه المناشط الاجتماعية ، وسمات السلوك التى تتسم بها حياة الناس ، وأن يحدد أيضاً جنسية

الأفراد ، وأن يتتبع سماتهم العنصرية Racial Traits ، ويقيس درجة الثقافة والتعليم بمدى اتصال الأفراد بالمكتبات والمدارس ، ويكشف عن اتجاهاتهم وأهدافهم ومثلهم[1] . وهناك بعض المميزات التى تتميز بها الدراسة الحضرية ، كما يتضح فى النقاط الآتية :ـــ

١ ـــ يسمح المنهج المباشر فى كل دراسة حقلية ، بتحقيق المشاهدة الموضوعية Objective Observation ، تلك التى يقوم بها الباحث الماهر المدقق الذى مارس والتحم عن قرب بميدان الدراسات الحضرية .

٢ ـــ يكشف المنهج المباشر عن طبيعة مواقف الحياة Life - situation التى تعبر وتكشف عن حقيقة الوضع الواقعى Real ، الأمر الذى بمقتضاه يستطيع الباحث أن يتعرف على مظاهر وانماط السلوك ، وأن يتفهم حقيقة المصطلحات اللغوية كما يتصورها الناس أنفسهم ... حيث أن الكلمة اللغوية « هى كائن اجتماعى حى » ، يولد ويحيا ويعيش وينتقل أو يهاجر من مكان إلى آخر ، ومن ثم تحتاج دراسة اللغة إلى الالتحام المباشر والممارسة العملية حتى نتوصل إلى باطن الكلمات ونكشف عن مغزاها ومبناها[2] .

٣ ـــ وأخيراً ، فان المنهج المباشر ، هو ذلك المنهج المستخدم فى العلوم الطبيعية ومن ثم فهو المنهج الوضعى الذى تتطلبه كل دراسة موضوعية فى ميدان علم الاجتماع . .

وهناك مناهج مشهورة ، تستخدم فى ميدان علم الاجتماع الحضرى ، باعتبارها مناهج ضرورية فى الدارسات الميدانية ، وأشير فيما يلى إلى أهمها :ـــ

---

(١) « الحضريفى Rurban » ، هو اصلاح اصطنعته اصطناعا ، إذ لم أجد بين المصطلحات العربية ما يناسب الكلمة الانجليزية Rurban ، التى تعنى تلك المجتمعات التى تعيش على هامش القرى والحواضر ، ولذلك أطلقت عليها اسم « المجتمعات الحضريفية » . وإذا كانت هذه الكلمة مشتقة أصلا فى اصطلاحها الانجليزى Rurban ، من عملية دمج كلمتى « Urban » ، « Rural » ، فعلى نفس هذا النحو ، اصطنعت كلمة « حضريفى » ككلمة ـــ مشتقة من عملية دمج كلمتى « حضر » و « ريف » .

(2) Lundberg, George, Social Research, Second edition, Longmans. 1947. P. 128.

(ا) منهج العينات Sampling method

(ب) المقابلة The Interview

(جـ) الاستخبار Questionnaire

(د) البرنمة أو البرمجة Programmation

(هـ) منهج استخدام المادة Use of Available data

(و) المسح الحضرى Urban Survey

وقد يتأثر السائل بمعايير أو معلومات مسبقة . قد تتدخل فى حكمه ، فمثلا يتأثر الأمريكى فى حكمه على الأسود أو الملون Coloured الزنجى بما لديه من معلومات سابقة عن العنصرية والجنس الزنجى . ولذلك يجب أن تكون المقابلة مقننة Standardized Interview[١] .

ومن عيوب المقابلة أن يتأثر الباحث الحضرى بمظهر الشخص المسئول ، وصوته وشكله وتعبيراته ومنطقه ، إما بالقبول أو النفور . مما قد يوقع السائل تحت تأثير آراء المسئول واتجاهاته وأسلوبه وطريقته الكلامية حيث يؤدى « عدم تحديد معانى الكلمات » إلى عدم صدق المقابلة فقد يستخدم السائل كلمات معينة بمعان لا يتفهمها المسئول ، مما يؤثر على نتائج المقابلة بالفعل لعدم موضوعية الكلمات والمعانى .

(أ) منهج العينات Sampling Method

١ ــ ويستند منهج العينات ، إلى الطريقة الاحصائية ، للحكم على عدد محدد من الظاهرات ، بأعتبارها « عينة ممثلة Representative sample » ، واختيارها اختياراً عشوائيا ، بقصد التوصل إلى ما يسمى بقانون الاطراد الأحصائى Law of Statistical Regularity على ما يقول عالم الاحصاء « وولف Wolf » فى كتابه « أصول المنهج العلمى Essentials of scientific Method »[٢] .

(١) دكتور عبد الرحمن عيسوى . علم النفس والانتاج . مؤسسة شباب الجامعة صفحات ٧١ــ٧٢ .

(2) Lundberg, George, Social Research, Second Edition, Longmans. 1947. P. 134.

٢ ــ واستناداً إلى هذا الفهم ــ يكون الباحث الادارى فى مسيس الحاجة إلى « اختيار » بعض الوحدات المعينة بالذات ، حتى يتسنى له القيام بالبحث الميدانى ، حيث أن عملية المشاهدة فى ذاتها ، إنما هى عملية ادراك ، والادراك الحسى فى علم النفس الاجتماعى Social psychology ، هو عملية انتقائية Selective ، ويمكننا بالتالى أن « ننتقى » أو نختار « ما نلاحظه أو ندركه من ظواهر » ، ثم نحدد عدداً من الوحدات عن طريق الانتقاء العشوائى Random Selection[1] ويفرض علينا « الانتقاء العشوائى ، أن نختار عينة احصائية، تتمثل فيها كل الوحدات الجزئية المطلوبة ، حيث أن منهج العينة إنما ينصب على « عملية اختيار جزء من مجموع الظواهر » ، بحيث يمثل هذا الجزء « المجموعة كلها » .

٣ ــ ولعلنا نستخدم منهج العينات ، لتوفير الجهد والوقت والمال والتكاليف، حين نستخدم جزءاً من المجتمع الصناعى بدلا من دراسة البيئة الصناعية برمتها . وهنا ينبغى تقسيم الادارات موضوع الدراسة إلى عدد من الاجزاء أو الوحدات ذات الحجم المحدد ، مع ضرورة وجوب أن تكون جميع الاحتمالات متساوية ومتكافئة الفرصة .

(ا) والغرض الأول من استخدام منهج العينات ، هو التعرف على خصائص المجتمع الحضرى كله ، وتقدير معالمه على أساس التنبؤ الذى نستخلصه من هذه الدراسة المصغرة للعينات الممثلة ، حيث يمكن القيام بالدراسة على نطاق أكبر .

(ب) وتؤدى بنا مناهج العينات إلى الانتهاء إلى معادلة رياضية ، أو معادلات أخرى لحساب التقديرات التقريبية لمعالم المجتمع الحقيقية[2] .

(حـ) ويذهب الاحصائيون إلى أنه ينبغى أن يكون الفارق صغيراً بين « التقدير المحسوب» احصائيا وبين « القيمة الحقيقية » للمجتمع . وفى ضوء استخدام « منهج العينات » ، يجب أن يكون الفرق بين التقدير الاحصائى ، والحقيقة الفعلية صغيرا

(1) Goode, William J., Methods in Social Research, Mc-Graw Hill London 1952, pp. 214; 215.

(2) Lundberg, George. Social, Research, Longmans. 1947, p. 139.

إلى حد كبير . الأمر الذى يجعلنا نعتمد على ذلك التقدير الاحصائى فى دراسة المجتمع الحضرى ، حتى نتخلص نهائيا من الاخطاء والتحيزات Biases [1] .

(ب) المقابلة The Interview :

١ ــ تتحقق أهدافنا فى الدراسة الميدانية ، وبخاصة فيما يتعلق « بالمسوح الاجتماعية Soical Surveys » بأتباع طريقتى « المقابلة » و « الاستخبار » وهذا ما تتطلبه الحياة فى مجتمع متغير يغلب عليه التطور التكنولوجى السريع والتغير الثقافى الهائل[٢] .

٢ ــ ويمكن تعريف المقابلة ، بأنها التقاء مباشر بين فردين وجهاً لوجه ، وتتحقق طريقة المقابلة فى الداراسات الميدانية ، عن طريق أسئلة يلقيها السائل Interviewer لمعرفة رأى المجيب Respondent فى موضوع محدد بالذات ، أو الكشف عن اتجاهاته الفكرية ومعتقداته الدينية ، ومن ثم تكون المقابلة فى ذاتها هى تبادل لفظى « بين السائل والمجيب » ، أو أنها على حد تعبير « وليام جود Good» عملية من عمليات التفاعل الاجتماعى A process of social Interaction[٣] وكما تستخدم المقابلة فى علم الاجتماع ، تستخدم أيضا فى علم النفس العلاجى Clinical psychology ، وتسمى المقابلة فى الدراسات السيكولوجية ، باسم « المحاورة العلاجية Clinical Interview » وهنا تكون المقابلة « تلقائية » حيث توضع الاسئلة حسب توارد الخواطر ، على اعتبار أن ظروف المقابلة ليست محددة من قبل . ولكن المقابلة فى علم الاجتماع ، وبخاصة فى ميدان المسح الاجتماعى ، إنما تختلف عنها فى علم النفس التحليلى أو المرضى ، حيث تكون المقابلة البحث الميدانى ، محددة أصلا ، كما تكون الأسئلة مقننة Standardized .

٣ ــ وطريقة المقابلة من وجهة النظر الميثودلوجية ، هى أداة من الأدوات

(1) Duverger. Maurice., Introduction to the Social Sciences trans. py Malcolm Anderson, London, 1964 pp. 125 - 128.

(2) Goode, William J:, Methods in Social Research, Mc Graw Hill, London 1952. pp 189 - 195.

(3) Cicoural, Aaron V., Method and Measurement in Sociology, Free Press of Glencoe London 1964. p. 75.

العلمية وهى وسيلة تبتدىء بها البحوث التجريبية أو الدراسات الاستطلاعية ، ولذلك تكون للمقابلة وظائفها المتعددة فى البحث العلمى . فهى وسيلة لمعرفة علاقة بين متغيرين Two variables كالمعرفة القائمة بين الرئيس والمرؤوس أو بين الطالب ومدرسيه ، ومن ثم تكون المقابلة دراسة استطلاعية Pilot Study وهى دراسة ضرورية قبل اجراء البحث الميدانى .

٤ ـــ ومن وظائف المقابلة كأداة من أدوات البحث التجريبى هى أنها وسيلة لجمع وتسجيل المعلومات ، من المجـال الاجتماعى ، وذلك بقصد تحقيق Verification فرض معين بالذات ، أو التمهيد لدراسة بحث تجريبى أو القيام بتجربة أنثروبولوجية حقلية ، حيث تعتبر المقابلة ، وسيلة حقلية لايضاح بعض النتائج التجريبية التى يكون معناها مازال مبهماً وغامضاً[1]. ولذلك قد نلجأ إلى طريقة المقابلة لتوضيح ما خفى من معنى . وتلك هى الوظيفة الثالثة للمقابلة كوسيلة لايضاح بعض النتائج والتجارب ، سواء فى ميدان علم الاجتماع ، أو فى حقل الدراسة الانثروبولوجية .

٥ ـــ ويمكن أن تتم المقابلة إما فى أشكال محددة ، واما فى صورة غير محددة فهناك المقابلة المحددة أو المقفلة Closed Interview ، وهى المقابلة المقننة ، حيث يكون للسائل بعض الأسئلة المعدة . وهناك أيضاً المقابلة المفتوحة أو غير المحددة، وهى المقابلة « غير المقننة » ، حيث يلقى السائل بعض الأسئلة الحرة التى تتواتر بطريقة تلقائية دون أن تكون حالة وضع الأسئلة سابقة على المقابلة نفسها[2] .

٦ ـــ وهناك مميزات للمقابلة المقننة ، منها أننا نستطيع بفضلها أن نتوصل إلى نتائج مقارنة نظراً لأن الأسئلة كانت واحدة بالنسبة للجميع ... ومن ثم نستطيع أن نتوصل إلى نتائج يمكن صياغتها فى صيغة رقمية أو صورة رياضية دقيقة . كما تتصف المقابلة المقننة بالموضوعية ، حيث أن الأسئلة إذا كانت مقننة تكون النتائج ثابتة . وهذا ما يسمى فى مناهج البحث العلمى باسم « ثبات الاختبار stability »، حيث ينبغى أن تكون لاداة البحث « قياس معين » ، وإلا إذا

(1) Lundberg, George., Social Research, Second Edition Longmans, 1947. p. 368.

(2) Durverger, Maurice, Introduction to the social sciences, trans by Malcolm Anderson, London, 1964. pp. 179 - 181.

اختلفت الاداة فلن نصل إلى نتيجة معينة ، ولن تكون هناك أية موضوعية .

٧ ـــ فإذا ما أستطعنا أن نحدد أسئلة المقابلة ، فاننا سنتوصل حتما إلى نتائج ثابتة يمكننا فى ضوئها أن نقارن فيما بينها ، إذا كانت العناصر مشتركة ، إذ أننا سوف نخفق فى « قياس المستوى » أو معرفة « الفروق الفردية » ، إذا كانت الأسئلة غير مقننة .

وإذا ما كان لتحديد الأسئلة مزاياه ، فللمقابلة المفتوحة أيضا مزاياها ، حيث لاينبغى أن نأخذ فى أعتبارنا « الصورة اللفظية » لمختلف الاجابات ، وإنما نأخذ بمغزاها معناها ، فليس المهم « صورة الاجابة » أو « صورة الكلمات » وإنما المهم هو معناها . فلا ينبغى أن نأخذ بالشكل دون المضمون .

٨ ـــ ولذلك تتميز المقابلة المفتوحة ، بأنها أقرب إلى الحياة ، إذ أن الاجابة حرة والاسئلة غير مصطنعة ، كما تشجع المقابلة المفتوحة على التلقائية والمرونة ، وتظهر فيها الاستجابة بشكل طبيعى حر .

وفى عبارة مشهورة ينتقد فيها « تشسترتون Chesterton دور المقابلة وموقف السائل Interviewer ازاء المجيب Respondent » حيث يقول تشستروتون :

« غالباً ما نلحظ الناس لايجيبون على ماتقول What you Say ؟ وإنما يجيبون فقط على ماتعنيه What you mean ؟ أو ما يعتقدون انك تعنيه . فاذا ما سألت سيدة مثلا امرأة أخرى : هل يقيم أحد معك ؟! فلسوف لا تتكلم المرأة عن المربية والطباخ والخادم وإنما ستقول فوراً « لايوجد معنا أحد » أى ليس هناك أحد من النوع الذى تعنيه السيدة السائلة . ولكن لنفترض أن طبيباً أتى إلى نفس المرأة ليستفسر عن مرض معد أو كى يستقصى وباء متفشيا ، بقوله : من يقيم معك ؟ فلسوف تتذكر السيدة فوراً المربية والطباخ

والخادم، والزوج والأبناء فكل من يسأل ، لايوجد الاجابة عما يسأل وإنما يجد ما يفكر فيه المجيب » [1] .

٩ ـــ وإزاء هذا الانتقاد الذى يسوقه تشسترون ينبغى أن تتوافر بعض الشروط الأساسية للمقابلة بنوعيها ، سواء أكانت حرة Free أم محددة Directed حيث ينبغى أن توصلنا الأسئلة والاجابات إلى الغاية المنشودة ، كما يمكن أن تحقق القصد بلغة سهلة، وتعبر عن الاسئلة دون أن يكون هناك غموض فى التعبير . وينبغى أن يبدو السؤال على أنه طبيعى تلقائى ، وليس المقصود به أن نتوصل إلى اجابات معينة ، يهدف إليها السائل Interviewer حيث يجب أن يكون الباحث محايداً ، فلا يميل إلى الأخذ بأجابات معينة ، كما لاينبغى أيضاً أن يكون الباحث جامداً ، أى أنه يجب أن يكون محايداً دون جمود .

وبالاضافة إلى كل ذلك ، ينبغى أن توضع الاسئلة دقيقة ومضبوطة ، وفى مستوى تجربة الفرد المباشر . وأن يكون السؤال واضحا ومتميزاً ، مع تجنب الاسئلة الطويلة والمحيرة ، التى تؤدى إلى عدم قدرة الفرد على الاجابة ، حيث تراعى حالته الثقافية والتعليمية . بحيث لاتؤثر الاسئلة على قدرة المسئول Respondent فيخفق فى الاجابة[2] .

١٠ ـــ وفى ضوء هذه العملية الدقيقة ، تقتضى طريقة المقابلة من الباحث مرانا خاصا حيث أنها علاقة تبادل ديناميكية بين فردين ، أو عملية من عمليات التفاعل الاجتماعى Social interaction على ما يذكر وليام جود Goode كما أشرنا منذ قليل .

الاستخبار Questionnaire :

١ ـــ إذا قامت المقابلة على علاقة ديناميكية بين سائل ومسئول ، فان الاستخبار يكون على العكس من المقابلة ، فليس من الضرورى أن يجتمع السائل

(1) Lundberg, Georg., Social Research., Longmans. 1947, p. 182.

(2) Ibid : P. 368.

بالمسئول حيث نجد فى الاستخبار عدداً من الاسئلة المحددة والمطبوعة على استمارة البحث وليس من الضرورى أن يقدم السائل هذه الاسئلة إلى المسئول . كما أنه ليس من الضرورى أن يجيب عن الاسئلة فى حضور السائل ، بل يمكن أن ترسل الاسئلة والاجابات اما بطريق البريد ، أو بواسطة بعض المساعدين فى جمع وتسجيل المعلومات .

٢ ــ ولعل الهدف الأساسى من الاستخبار ، هو ترجمة البحث العلمى إلى أسئلة معينة ففى دراسة الاتجاهات السياسية فى فرنسا ، أجرى المعهد القومى الفرنسى دراسة عن « اتجاهات الرأى العام فى فرنسا » عام ١٩٥٠ . حيث حصر هذا البحث كل الاتجاهات السياسات يمينية كانت أم يسارية ، كما تقوم فى مختلف الدول ، بعض اللجان الرسمية التى تستعين بطريقة الاستخبار ، مثل « لجنة بحث اتجاهات الرأى العام الأمريكى »[١] American Association For Public Opinion Research ولا يوضع الاستخبار بطريقة اعتباطية أو عشوائية وإنما نلحظ أن طريقة الاستخبار هى من أهم وأدق طرق البحث فى علم الاجتماع الميدانى ، وهناك شروط جوهرية ينبغى أن تراعى فى كل أستخبار وهى شروط تتعلق بطبيعة وتنظيم الاسئلة الواردة فى أستمارة البحث ومن هذه الشروط ، أن يعطى كل سؤال فكرة واضحة عما نطلب السؤال عنه ، إذ أن الاختبار إنما يحتاج إلى الاجابات الحرة Free Answers ، كما يجب أن توضع الاسئلة بشكل منتظم بحيث يسهل تحليل استمارات البحث بعد عملية الاستخبار[٢] .

٣ ــ كما يجب أن تحدد « أهداف البحث الميدانى » ، وأن نسبق الاسئلة موضوع الاستخبار ، حيث لاينبغى أن توضع أسئلة خارجة عن نطاق البحث ، ولعل الهدف الأساسى من الاستخبار إنما يكمن فى حث المسئول ودفعه على أن يعطى معلومات خاصة عن « الفكرة » أو « المشكلة » موضوع الاستخبار .

---

(1) Cicourel, Aaron V., Method and Measurement in Sociology Free Press., Clencoe, London. 1964. P. 116.

(2) Lundberg, George; Social Research, Longmans. 1947. P. 186.

ولذلك يجب أن تكون اللغة المستخدمة فى أستمارة البحث ، دقيقة وسهلة وواضحة حتى يسهل علينا نقل الافكار من المسئول إلى السائل[1] .

وبالاضافة إلى ذلك ينبغى أن تكون الاسئلة كاملة وغير ناقصة ، بحيث تشمل كل نقاط البحث المطلوبة ، وأن توضع الاسئلة من وجهة نظر الشخص المسئول، أى أن تكون داخلة فى نطاق خبراته ومعلوماته ، ونظرته إلى العالم وفى حدود مستواه التعليمى والذكائى . وأن تتسم الاسئلة بأن تكون مقبولة اجتماعيا حتى يجيب عنها المسئول دون حرج ، وحتى لايشعر بأن هناك ثمة تطفل أو تدخل مباشر فى حياته الخاصة .

٤ ـــ أما من حيث تنظيم أستمارة البحث الميدانى فيجب أن تصمم الاستمارة وأن توضع الاسئلة ، بحيث لا تكون الاجابة موحاة أو متضمنة ، أو بحيث لا يوحى السؤال للمسئول برأى معين أو بفكرة محددة بالذات[2] . وأن يعبر كل سؤال عن فكرة واحدة دون خلط أو إضطراب . وأن تبدأ الاسئلة بترتيب معين من البسيط إلى المركب ، أو من سؤال عام يتميز بالشمول ، إلى سؤال خاص يتميز بالتركيز على نقطة محدودة ودقيقة ، بحيث تتتابع الاسئلة فى سياق منطقى ، ويطلق على هذه الطريقة اسم « طريقة القمع Funnel Approach » وهى طريقة تتميز بأنها ترتب الاسئلة فى سياق منطقى ، بحيث تبين ترابط الاسئلة ترابطا منهجيا ، يمكن معه حصر المطلوب ، حين يتدرج مما هو عام General إلى ما هو خاص Special .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، قامت جامعة كورنل Cornell University عام ١٩٤٧ : ببحث أتجاهات الرأى العام الأمريكى ، بصدد موقف الحكومة الأمريكية ازاء منظمة اليونسكو فجاءت الاسئلة تتواتر فى تسلسل قمعى من سؤال رحب وشامل ، إلى سؤال أكثر ضيقا وعمقاً كما نجد فى التسلسل الآتى الذى أشار اليه « موريس دوفرجية Maurice Duverger » :

---

(1) Duverger, Maurice., Introduction to the Social Sciences, Trans., By Malcolm; Anderson 1964. PP. I 47 - 150.

(2) Goode, W. J.: Methods in Social Research, Mc Graw Hill, PP. 132 - 159.

(ا) ما رأيك أو فكرتك عن المناشط العامة التى تقوم بها منظمة اليونسكو ؟

(ب) وهل توافق على ما بذلته هذه المنظمة من جهود حتى الآن ؟

(جـ) أتظن أن الحكومة الأمريكية تساعد هذه المنظمة بأضافة امتيازات جديدة لها،أم أن الحكومة الأمريكية تتبع سياسة التدخل فى أعمال هذه المنظمة ؟

من هذا المثال : نرى كيف تتتابع الاسئلة مما هو عام إلى ما هو خاص . وهذه ميزة جوهرية وهامة ، ينبغى أن تتوافر فى كل أستخبار ، حيث تترتب فيه الاسئلة على شكل قمع Funnel حتى تتجنب الآراء الذاتية ، ويتحقق الهدف الموضوعى من الدراسة [١] . حيث يهدف كل أستخبار إلى تحقيق غايات تطبيقية ، مستندة إلى دراسات عملية ، من أجل التوصل إلى نتائج حقلية محددة ، يمكن أن تؤدى إلى أكتشاف الحلول العلمية لمشكلات مشخصة Concrete problems يعانى منها المجتمع .

(د) « البرمجة » أو « البرغة » Programmation :

١ ـــ هى عملية اعداد وتخطيط البرامج أو مناهج لدراسة مختلف مشكلات الاقتصاد الحضرى الناتجة عن ظواهر « التنمية » أو « تحسين الانتاج وتعديله » أو ادخال الانماط التربوية الجديدة « طبقا لبرامج الصحة النفسية » ، مع تقديم الحلول العملية والتطبيقية التى تتعلق بحل مشكلات انتاجية أو انسانية .

٢ ـــ وفى علم الاجتماع الحضرى أو الصناعى بالذات ، يمكننا أن نقسم « العمل » و « الورش » و « المصانع » إلى جماعات ضابطة Control group ، كما ويمكن اجراءالابحاث والدراسات، واعداد البرامج والمناهج ، حين ندخل بعض التعديلات التجريبية ، أو الظروف الجديدة ، على مجموعات صناعية بالذات ، وورش ندخل عليها سائر المتغيرات Variables ، ثم نسجل النتائج ، ونحصل على الفروق بين سائر الجماعات الضابطة والتجريبية Experimental ، وفى ضوء ما كنا قد أدخلناه على المصانع والورش والجماعات التجريبية ، وما فرضنا عليها من « متغيرات » و « ظروف جديدة » كتوزيع الضوء أو الحرارة ، أو رفع الأجور

(1) Duverger, Maurice., Introduction to Social Sciencea trans, by Malcolm Anderon. 1964. p. 149.

والروح المعنوية ، أو الاهتمام بمشكيلات التلوث Pollution أو شغل الفراغ Leisure .

٣ ـــ ويستطيع خبراء التخطيط بالتعاون مع علماء الاجتماع الحضرى وضع وتنفيذ وتتبع البرامج ، تلك التى تسمى بعملية Program emphasis مع القيام بالأعمال والاجراءات الوقائية لحماية المشروع والعمال وتحقيق الأهداف الانتاجية والاقتصادية،ولا تتصل عملية البرمجة Programmation أو اعداد البرامج بأوضاع سياسية فهى عملية تجريبية وموضوعية بحتة ، تساعد فى إنماء العملية الانتاجية وتخطيطها ولا تمس علاقات الانتاج أو علاقات التملك ،وإنما تمس البرمجة نجاح المشروع أو الخطة دون نظر إلى لونها السياسى أن كانت « شيوعية » أم « رأسمالية» حيث أصبح التخطيط أو البرمجة مطلباً علمياً واقتصاديا يسود الاقتصاد الرأسمالى كما يطبقه خبراء « الاقتصاد الاشتراكى » .

٤ ـــ وتتضمن عملية البرمجة أو البرنمة تنظيم العمل الصناعى وتقسيمه وضبطه مع تفويض الواجبات duties الادارية وتوزيع الأدوار Roles الاشرافية ووضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح. ومتابعة الأعمال والأنشطة وهذا هو المقصود بعمليات وضع البرامج أو المناهج من أجل تحقيق أهداف عملية أو ادخال تحسينات اقتصادية.ومن أهم المشكلات التى يعانى منها العمال فى المصانع مشكلة تتعلق بظروف العمل، وسيكولوجية العامل وأخرى تتصل بأيكولوجية المصنع وتلوث البيئة .

أما المشكلة الأولى فهى مشكلة الفراغ أو شغل الفراغ الصناعى وأثرها على زيادة الانتاج، فقد تأكد خبراء التخطيط والبرمجة ، من الوظيفة الاجتماعية لاقتصاديات الفراغ ،حيث يكون للعرض والمشاهد الاستعراضية واعداد برامج السياحة والرحلات دورها الحاسم على نفسية العامل ورد فعلها العميق على درجة نشاطه وإيجابيته من جهة،وفى زيادة مؤشرات الروح المعنوية التى تزيد من الانتاجية، من جهة أخرى .

٥ ـــ وقد يكون لمشكلة الفراغ جانبها الاجتماعى حتى تبرز بوجهها الواقعى كمشكلة تعانى منها مختلف طبقات الناس على أختلاف مذاهبهم ومشاربهم

وتعمق الحضرية الشعور بوقت الفراغ الذى يعانيه الراشد والمراهق والطفل والكهل لكيفية استخدام وسائل الترفيه وبعث البهجة والنشاط فى قضاء الوقت الممتع والصحى للاستفادة من اجازات العمل على نحو علمى وسليم .

وإذا ما زادت حدة التصنيع فى سائر المجتمعات الحضرية تفككت الأسرة وانتشرت روح التمرد ، وظهرت السلبية واللامبالاة وضعفت سطوة القانون مع فقدان القيم والمعايير ، وانتشار جماعات الهيبيز لشعورهم بالفراغ والخواء . ولعل السأم Boardom والملل Monotony والضياع، كلها ظواهر حضرية تعبر عن أبلغ درجات الضجر ، من أشد حالات الفراغ ، ولسوف تحل مشكلة الفراغ تماماً إذا ما عرف الفلاح والعامل القيمة الاقتصادية للوقت والفراغ، الأمر الذى معه تقل معدلات الانحرافات ، فتتخلص تماماً من كل أشكال السلوك الانحرافى التى تنشرها الايديولوجيات الضارة فى سائر البناءات والانساق الحضرية ، مما يؤدى بالتالى إلى التكامل والتوازن دون التفكك والانحلال، فتتسامى الدوافع الفطرية من أجل بناء الجوانب الفوقية والجمالية والتنفيس عن الطاقات الحبيسة باستغلال الوقت فيما هو نافع ومفيد بعيداً عن الايديولوجيات الهدامة ، بتعميق الفهم وزيادة الاستنارة بكل وسائل الاعلام لتحرير عقول الشباب من « أوهام العصر » وتنقية الرأى العام العالمى ، والقضاء على النمطية والاستاتيكية والعادات الفكرية ،التى تتحكم فى صياغة قوالب الفكر بين كل شباب العالم المتحضر .

طرق ومناهج المسح الحضرى :

ومن الدراسات المشهورة فى المسح الاجتماعى ، تلك الدراسة الهامة التى قام بها تشارلس بوث Charles Booth باستخدام الأساليب العلمية والموضوعية فى البحث السوسيولوجى الميدانى ، لعمال مدينة « لندن London » .

وهى دراسة أساسية فى ميدان الاقتصاد الحضرى « والمسح الاجتماعى Social Survey » نشرها تشارلس بوت « تحت عنوان Life and Labour of the People in London ولقد نشرت مؤسسة ماكميلان Macmillan هذه الدراسة وأصدرتها فى لندن عام ١٩٠٢ .

١ — وينبغى قبل الاشارة إلى أهمية دراسة « المدن » باستخدام طرق المسح الاجتماعى حيث أن دراسات المسح الاجتماعى ، ليست بالحديثة العهد ، وإنما هى دراسات قديمة فى تاريخ الفكر الاجتماعى .

ولقد صدرت الاهتمامات الأولى بدراسات المسح الاجتماعى ، منذ بداية حكم الملك « وليم الفاتح William the Conqueror » ، حين أمر اداريه وموظفيه فى كافة المقاطعات الانجليزية ، أن يقوموا « باحصاء الأفراد » و « تحصيل الضرائب » ، مع دراسة الحالة الاجتماعية ، ومستوى المعيشة Standard of Living بالاشارة إلى ظروف الحياة فى ظل النظم الاقطاعية التى كانت سائدة فى البناء الانجليزى القديم .

ويعبر هذا المسح الاجتماعى القديم ، عن مرآة تعكس صورة صادقة لمجرى الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة ، أى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وبخاصة عام ١٠٨٦ .

وفى عام ١٧٥٣ تقدم أحد نواب البرلمان الانجليزى ، بمشروع قانون خاص بتسجيل التعداد السنوى للسكان ، وحصر فئات الجنس وتحديد نسبة الزواج والوفيات والمواليد فى بريطانيا . ولقد وافق على هذا الاقتراح أغلبية النواب الانجليز فى البرلمان .

ولقد طلع علينا « مالتس Malthus » عام ١٧٧٨ ، بدراساته الذائعة الصيت عن السكان وتعدادهم ، وأعلن نظريته المشهورة ، التى مؤداها ، أن الثروة إنما تزداد بمتوالية حسابية ، حيث تزداد الثروة بنسبة (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) . بينما يزداد الناس ويتكاثر السكان بشكل مزعج وبمتوالية هندسية حيث يزداد النسل بنسبة (٢ ، ٤، ٨ ، ١٦ ، ٣٢) .

ولقد نبّه « مالتس » الأذهان ، وحذر العالم من الانفجار السكانى ، ومن تلك الزيادة السكانية الهائلة . كما أعلن ضرورة العمل على زيادة الثروة من جهة ، وتحديد النسل أو تنظيمه ، من جهة أخرى ، حتى تستقيم المعادلة ، ويقل البون الشاسع بين نسبة زيادة السكان ونسبة زيادة الانتاج وإلا ارتبط مصير العالم بالبؤس والجوع والحرمان .

وإذا ما حاولنا أن نضع تعريفاً لمنهج ومفهوم المسح الاجتماعى نقول : أنها تلك الدراسة الاستطلاعية ، التى نقوم بها ، بقصد الكشف عن مشاكل المجتمع ، وبخاصة بين القطاعات الفقيرة ، أو على ما يقول « ويلز Wells » .

A Fact-finding study, deiling cheifly with poverty working-class and with the nature and problems of the commuity.

ومن هذا التعريف الدقيق الذى يقول به « ويلز » يتبين لنا تلك الأسس التى يستند اليها المسح الاجتماعى وموضوعه ، حيث يؤكد هذا التعريف على الجوانب الاستطلاعية فى كل دراسة اقتصادية ، تلك الجوانب التى تساعدنا على امكان الحفر طويلا فى الواقع الاقتصادى ، بحثاً عن الحقيقة فى ضوء الظروف الاجتماعية وسعياً وراء أحوال الطبقات الكادحة ، وما يعيشون فيه من فقر وفاقه ، وما يعانونه من مشكلات اجتماعية واقتصادية .

كما يؤكد هذا التعريف من ناحية أخرى ، على بحث ظروف طبقة العمل والعمال ، والاهتمام بالطبقات الدنيا ، دون غيرها من سائر الطبقات البورجوازية والارستقراطية .

وبهذا المعنى ، ترتبط طريقة « المسح الاجتماعى » بمنهج الوصف ، ودراسة التفصيلات الجزئية الخاصة بالطبقة الكادحة ، عن طريق اختيار بعض الوحدات الاجتماعية .

ويتطلب المنهج الوصفى فى المسوح الاجتماعية ، تلك الدراسة المركزة Intensive Study . والبحث الجاد العميق لأحوال الناس فى « بيئة » أو «قطاع» مع بحث الوظائف الاجتماعية لشتى وحدات تلك الطبقات موضوع الدراسة . وفى هذا الصدد يقول « كارادوج جونس Caradog Gones » عالم الاجتماع الانجليزى: « No part of a Community Fuuction in a Vacuum » حيث أن « وظائف » المجتمع وأجزائه ونظمه ، إنما لا تسبح فى فراغ . كما لايولد الإنسان منعزلا أو مستقلاً ، وإنما يولد الانسان ويعيش وقد انخرط فى « زمرة» أو «طبقة» أو « رابطة » ، ولذلك وجب علينا دراسة هذا الإنسان الاجتماعى فى ضوء ما ينتمى إليه من أشكال الروابط والعلاقات الاجتماعية .

ولقد كنا بالأمس ، ندرس مشكلات المجتمع بطريقة « المحاولة والخطأ Trial and Error » ، ولكنا اليوم ، وبفضل تقدم الدراسات الاجتماعية ، نحاول استخدام أساليب التخطيط Planning ، كما نحاول فى نفس الوقت تطبيق مناهج العلوم الطبيعية ، كى يلقى ضوءاً كاشفا على مشكلات المجتمع ، استناداً إلى مناهج علمية مثل مناهج « المشاهدة » و « الفرض Hypothesis » و « التعميم Generali Zation » .

وعلى هذا الأساس العلمى ، تتصل دراسات المسح الاجتماعى بأسس التخطيط على المستوى المحلى والاقليمى ، حيث أن المسح الصناعى أو الاقتصادى ، فى شتى القطاعات ؛ إنما يهدف أصلا إلى تحليل حالة الصناعة ، وحركة التجارة ، وجدير بنا أيضاً أن نبحث برامج التنمية فى هذه الأيام ، وبفضل الجهود السوسيولوجية الجادة المخلصة أن نكشف عن العوامل التى تساعد على زيادة الانتاج فى مختلف الصناعات .

حيث أن الحاجة الملحة ، إنما تدعو علماء الاجتماع فى جمهورية مصر العربية أن يواصلوا جهودهم العلمية بقصد العمل على زيادة مشروعات التنمية الاقتصادية فى مختلف القطاعات الفلاحية والعمالية ، وعلى مستوى مجتمعاتنا القروية والحضرية دون تمييز .

ويتصل هذا الشكل الاقتصادى ، من أشكال المسح الحضرى ، بدراسة «الإدارة» و « الإنتاج » و « العمالة » ويؤكد بصفة خاصة على الاهتمام بالعلاقات الانسانية فى البناء الصناعى ، بالنظر إلى طبقة العمال ، حيث أن الهدف الرئيسى للمسح الصناعى ، إنما يتركز فى معرفة أكبر قدر ممكن من الوقائع عن الحالة الاجتماعية لطبقة الانتاج ، وظروف الفئات الكادحة والفقيرة .

ويعد « روانترى Seebohm Rowntree » من أهم رواد المسح الاجتماعى الذين اهتموا بدراسة الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، بالالتفات إلى مايسميه علماء الاجتماع « بأسلوب الحياة Style of Life » ، أو ما يسمى فى كتب علم الاجتماع الفرنسى Mode de la vie .

ولقد قام « راونترى » بدراسة أساسية إشتهرت فى دراسات المسوح الاجتماعية باسم York Survey ، وكان هدف « رونترى » من هذه الدراسة ، هو جمع المادة التى تبين لنا مستوى الطبقات الفقيرة ، بحيث نستطيع فى ضوء هذا «المستوى»، من أن نتمكن فى ثقة وضع معيار دقيق ، لمعنى « الفقر Poverty مع القاء الضوء على الظروف الاجتماعية والشروط الضرورية التى تتحكم فى أسلوب حياة الطبقات العاملة ، ونظام الأجور ، وكيفية الترقى فى البناء الطبقى .

ولقد استنتج « راونترى » بعض النتائج فى ضوء دراسته ، فذهب إلى أن هناك حالات مختلفة للفقـر منها الفقر الأولى أو الابتدائى Primary Poverty وفى هذا المستوى يكون الدخل الكلى للفرد قليل ، إلى الدرجة التى معها لايستطيع الفرد أن يحصل حتى على الضروريات التى تشبع مجرد حاجياته الفيزيقية .

وهناك حالة أخرى « حالة الفقر الثانوى Secondary poverty » وهى تلك الحالة التى يسمح فيها الدخل ، إلى العيش بحيث يحصل الفرد على الضروريات التى تمكنه من مجرد صون وحفظ حياته العضوية .

ولقد قام عالم آخر من علماء المسح الإجتماعى ، وأعنى به « Bowiey » قام بدراسة استخدم فيها منهج المسح عن طريق العينات Survey by sample وأطلق عليها اسم « The Five Towns survey » تلك الدراسة التى قام بها عام ١٩١٢ بقصد بحث الحالة الاجتماعية لدى الطبقات الكادحة فى المناجم والمعامل ودراسة القوى العاملة فى المصانع ، بمعنى أن العناية كانت تنصب على طبقة العمال Working Class .

ولقد استخدم « Bowiey » فى هذه الدراسة ، منهجاً علمياً إحصائياً هو منهج « العينة العشوائية Method of Random sampling » ولقد إستخدم هذا المنهج الاحصائى المستند إلى الطريقة العشوائية لأول مرة فى تاريخ الدراسات المتعلقة بالمسوح الاجتماعية . حيث انتهج منهج البحث الاجتماعى باضفاء الطابع الرقمى أو العددى الذى تسهم فيه الطريقة الإحصائية ، كى نلقى ضوءا على العينات الاجتماعية موضوع الدراسة .

واستناداً إلى هذه الطريقة الاحصائية ، درس « Bowley » حالة كل طبقة من الطبقات العاملة ، وبدلا من أن يزور كل بيت ، وأن يدرس كل أسرة ، على مافعل « راونترى » فى York sürvy ، إلا أننا نجد أن « Bowley » قد انتهج منهجاً إحصائيا ، عن طريق الاختيار العشوائى لعينات من الأسر والمساكن ، فأخذ عينة عشوائية تتألف من ٨٤٠ بيت ، من المجموع الكلى الذى بلغ ١٨٠٠٠ بيت .

وأقام « Bowley » على تلك العينة العشوائية ، طرق ومناهج الاحصاء statistical method ، بقصد الكشف عن بعض المسائل الجوهرية ، ومعرفة ما يأتى من موضوعات أساسية :

١ ـــ مستوى المعيشة .　　　　٢ ـــ مستوى الأجر وحالة الدخل .
٣ ـــ دراسة القوى العاملة .　　　　٤ ـــ حالة الطبقات الفقيرة .

وليس من شك ، فى أن وظيفة « المسح الاجتماعى » فى ميدان العلوم الاجتماعية، إنما تماثل تماماً وظيفة « المشاهدة » ، فى ميدان العلوم الطبيعية ، بالاضافة إلى أن إستخدام « المنهج المقارن Comparative method » . إنما يلعب بصدد علم الاجتماع ، دور التجربة Experiment والتجريب فى العلم الطبيعى . ويرى « كارادوج جونس » أن الدراسة العلمية الموضوعية الخالصة ، إنما تتجلى فى علم الاجتماع ، بفضل إستخدام مناهج المسح الاجتماعى . إذ أن طريقة المسح الإجتماعى ، إنما هى الأساس الموضوعى الذى اليه يستند تفسيرنا العلمى للظواهر الإجتماعية .

إلا أن صعوبات منهجية فى ميدان علم الإجتماع . تقف عقبة كأداء إزاء تقدمه ، نظراً لتعقيد الظاهرة الاجتماعية ، من جهة ولحداثة مناهج العلوم الاجتماعية من جهة أخرى .

ومن المسائل المنهجية والصعوبات،التى يعانى منها علم الإجتماع وهى تعتبر من نقاط الضعف الشديدة ، مسألة القياس measurement . إذ أن « القياس الكمى Quantitative » ، وهو ذلك القياس المستخدم فى طرائق البحث العلمى، ومن هنا يسهل القياس فى ميدان العلم الطبيعى .

ولكنا فى ميدان « العلم الإجتماعى » إنما نصادف الكثير من الصعوبات والعقبات إزاء القياس الإجتماعى » إذ أنه ببساطة « قياس كيفى Qualitative ».

فنحن مثلا نستطيع بسهولة أن نقيس طول الانسان ، أو وزنه أو حرارته أو درجة ضغط الدم ، ولكننا لا نستطيع اطلاقا أن نقيس « قيمه » أو «ثقافته» أو مستواه الخلقى ، وذلك لعدم دقة أو حتى وجود الأدوات التى بفضلها يستطيع عالم الإجتماع أن يقيس درجة الثقافة أو مستوى القيم . إذ أننا فى علم الإجتماع ، إنما نقيس كيفيات مجردة Abstract Qualities مثل مفهوم « الطبقة » و «أسلوب الحياة » و « سمات الثقافة » .

وتلك مفهومات ومصطلحات تستعصى معها لغة الكم ، وتصعب إزاءها المقاييس والأدوات العلمية الدقيقة ، تلك المفهومات والأدوات التى يمكن أن توصلنا إلى نتائج صادقة ولهذا السبب ، كثيراً ما يصل العلماء فى الطبيعة أو الكيمياء ، إلى نفس « التنبؤات » و « النتائج » فى قياس ظاهرة معينة بالذات من ظواهر الطبيعة ومهما تكررت التجارب . على عكس الحال تماماً فى ميدان علم الاجتماع ، حيث تختلف النتائج باختلاف علماء الاجتماع ، طبقاً لاختلاف وجهات نظرهم ، إذ أن علماء الاجتماع ؛ ما هم إلا بشر ، من دم ولحم ، « فهم ليسوا كآلهة أبيقور يعيشون فيما بين العوالم » فما زلنا بعيدين تماماً عن طمأنينة العلم الخالص[1] .

هذه هى بعض الصعوبات المنهجية ، ولكننا على الرغم من ذلك ، نحاول إستخدام مناهج المسح الإجتماعى ، حيث نبه « كارادوج جونس » الأذهان إلى ضرورة الإهتمام بالوسائل والأدوات التى يستخدمها عالم الإجتماع ، حتى تتحقق الدقة والموضوعية ، وحتى نتجنب الوقوع تحت تأثير العناصر الذاتية والعوامل الشخصية Personal Factors .

ولهذا السبب نفسه ، ذهب « كارادوج جونس » إلى أن طريقة المسح الاجتماعى » ، تعد من أدق الطرق والأدوات التى يستخدمها عالم الاجتماع ، فى

(1) Cuvillier, A., Introduction â la sociologie; Collec A, Colin Paris. 1949. P. 90.

تطبيق المنهج العلمى فى بحث الظواهر الاجتماعية . كما أعلن « كارادوج جونس » أيضاً ، أن تطبيق الطرق العلمية فى دراسات المسح الاجتماعى ، إنما ينجم عنه بلاشك بعض النتائج وذلك حين نلحظ تقدما يمكننا بالطرق الفنية والوسائل الموضوعية ، بحث ودراسة الظواهر الاجتماعية .

حيث أننا بإستخدام مناهج المسح الاجتماعى ، إنما نحاول اصطناع الوسائل الموضوعية الدقيقة ، بقصد الاحاطة « بقدر الامكان » بكافة الظروف والأحوال فى منطقة معينة بالذات ، عن طريق اختيار « عينة ممثلة Representatlve sample تتركز حولها سائر الدراسات الاحصائية والاجتماعية ، لالقاء الضوء على كل مايتعلق بها من جوانب « أسرية » أو « مهنية » ، ومستويات « ريفية » أو « صناعية » .

« تشارلس بوث » والايكولوجيا الحضرية :

أشرنا إلى مختلف مناهج أو طرائق المسح الاجتماعى وكيفية دراسة «المدن» عند « روانترى » و « باولى » و « كارادوج جونس » إلا أننا ينبغى أن نؤكد على أن أول دراسة منهجية منظمة من دراسات المسح والمورفولوجيا الحضرية ، قد قام بها «تشارلس بوث Charles Booth » وهى دراسته المشهورة، على ما أشرنا من قبل ، حيث صدرت تحت عنوان Life & Labour of the people of London .

ولذلك أشتهر « تشارلس بوث » بدراسة المدن الكبرى ، وبالتركيز عليها فى دراسة مورفولوجية وحضرية ، وبخاصة حين درس « لندن » أكبر مدن إنجلترا ، وسميت هذه الدراسة بإسم « مسح لندن London Survey » وفى هذه الدراسة الحضرية المشهورة ، جاب « تشارلس بوث » كل شارع ، وطرق كل باب ، ودرس على حد قوله كل أسرة ، « فليس هناك أحد يستطيع أن يفعل ذلك » ، ولقد عبر عن هذا المعنى فى كلمات بليغة يقوله :

No one can go, as I have done, over the description of the inhabitants of street after street in this huge district, taken,; house by house and family by family.

وكان من النتائج الاحصائية والاجتماعية التى توصل إليها « تشارلس بوث » من دراسته للمسح الاجتماعى فى لندن ، أن جاءنا بتصنيف معقد حين يحدد لنا فيه نسق ومكانة الطبقات الفقيرة ، كما ويشير إلى تسلسل الفئات المعدمة .

ثم يرتب فيما بينها ترتيباً تصاعدياً من الطبقات الأدنى والأقل ثراء ، كى تتدرج إلى الطبقات الأعلى والأكثر غنى . كما يمثل الجدول الآتى :

II	Upper Middle Class الطبقة المتوسطة العليا	
G	Lower Middle Class الطبقة المتوسطة السفلى	
F	Higher Class Labour طبقة العمال العليا	
E	Regular Standard Earnings أصحاب الدخل الثابت المتزايد	
D	Small Regular Earnings أصحاب الدخل البسيط المنتظم	Poor طبقات فقيرة
C	Intermittent Earnings أصحاب الدخل المنقطع غير المتواصل	
B	Casual Earnings أصحاب الدخول الطارئة	Very Poor
A	Lowest Class of Occasional Labourers. الطبقة الدنيا للعمال من أصحاب الدخول العرضية أو الفجائية .	

وهناك بعض المميزات المنهجية التى تتميز بها دراسة « تشارلس بوث » وهى أنها دراسة تستهدف الكشف عن باطن وحقيقة الحياة الاجتماعية فى لندن ، كما

تتجلى وتظهر بشحمها ولحمها . حيث يلتحم الباحث الحقلى بالميدان الاجتماعى سعياً وراء الظواهر والحقائق الاجتماعية ، وبحثاً عن تلك الحقيقة الاجتماعية التى تلخصها عبارة The Flesh and Blood of Society .

والسمة الثانية ، التى تتسم بها دراسة « مسح لندن » هى أنها دراسة إحصائية Statistical ... وتتميز هذه الدراسة الإحصائية السوسيولوجية ، عن كل دراسة أنثروبولوجية حقلية . فمن المعروف أن الاتجاه الأنثروبولوجى الاجتماعى والثقافى ، إنما ينفر من الإحصائيات .

ويعبر أحد أساطين الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وأعنى به « مالينوفسكى Malinowskl » ، عن هذا المعنى المنهجى فى الدراسة الحقلية ، بكلمات صادقة وعبارة سهلة فيقول : « I want to feel facts, not to count them » .

وإستناداً إلى هذا القول ، نجد أن الدراسة الأنثروبولوجية الحقلية إنما تأنف من التعامل مع الأرقام ، إذ أن الإحصائيات إنما تهدف إلى الدراسة العددية البحتة لسائر المظاهر والعلاقات دون أن يحسّها أو يشارك فيها الباحث فى المجتمع .

أما البحث الأنثروبولوجى الاجتماعى ، فهو فى الحقيقة بحث إنسانى ، لاعددى، ولذلك أهتم علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، بدراسة الانسان من حيث هو إنسان إجتماعى ، لا من حيث هو عدد أو رقم .

وإذا ما التفتنا إلى حدود الجدول السابق وتقسيم « تشارلس بوث » وتصنيفه لطبقات لندن المتوسطة والفقيرة نجد أن مجموع الطبقات الفقيرة فى تصنيفه يتركز فى طبقات أربع أساسية ، هى التى يرمز إليها بالرموز (A. B. C. D.) ، ولقد أطلق «بوث » على الطبقتين (C + D) = Poor ، بالنظر إلى أنهما من قبيل الطبقات الفقيرة ، أما الطبقتين الثانيتين فيرمز إليهما (A + B) = Very Poor أى أنهما من قبيل الفئات الفقيرة إلى أبعد آماد الفقر ، على أعتبار أنهما من الطبقات المعدمة التى تتميز بالفقر المدقع .

ولقد إستند « تشارلس بوث » فى هذا التقسيم إلى أساس إقتصادى بالنظر إلى « ثبات الدخل » أو « عدم ثباته » ، أى أنه قسم الطبقات من زاوية مايسميه بالدخل المنتظم Regular Income .

وفى هذه الدراسة الميدانية فى « مسح لندن » أعطى تشارلس بوث » لكل شارع إحصائية خاصة به ، تتعلق بدراسة العمال ، وصانعى الأحذية ، وعمال المناجم Minera، والمشتغلين بصناعة علب الكبريت،وعمال نقل الفحم،الذين يعملون فى عمليات الشحن والتفريغ Coal Porters .

وحين أكمل « تشارلس بوث » دراسة شرق لندن ووسطها ، قرر أن ينتهج منهجاً خاصا فى المسح الإجتماعى ، حين يتخذ من الشارع وحدة دراسية ، أو ما يسميه باسم « Working Unit » ، بمعنى أنه قد اتخذ من الشارع بدلا من الأسرة ، وحدة أساسية للدراسة ، حتى تتيح له هذه الطريقة ، الفرصة الكافية لدراسة أحياء لندن الفقيرة برمتها ، وفى وقت محدد .

وفى هذه الدراسة الميدانية اهتم « بوث » إهتماما واضحا — على ما قلنا — بالإحصاء ، ولذلك نجده تحت تأثير كتابات « أوجست كونت Comte » لم يستخدم عبارة « سوسيولوجيا » ، حيث اعتبر نفسه أحد علماء الإحصاء الإجتماعيين Social Statistician ، حيث راجت فى عصر « تشارلس بوث » وذاعت أهمية الدراسات الاحصائية .

وبالاضافة إلى ذلك ، أصبح علم الاحصاء الاجتماعى Social Statistic يرادف إلى حد بعيد « علم المجتمع Science of Society . حيث أن علم الاحصائيات على حد تعبير « Sir Rawson W. Rawson » هو العلم الذى يدرس « بناء المجتمع الانسانى The Structure of Human Society »[1] .

ولما كان ذلك كذلك ، فلقد درس « تشارلس بوث » فى مسحه الاجتماعى لمدينة لندن « مشكلات العمال » بالاشارة إلى حياتهم الأسرية ، وما يعانونه من ألوان الفقر ، كما قام « بوث » بدراسة ميدانية وإحصائية ، قصد بها تصنيف العمال إلى فئات أو طبقات عليا Higher Classes ، وأخرى دنيا Lower Classes كما أهتم بمعدلات للمواليد والوفيات للطبقات الدنيا ، إبتداء من عمال السفن والشحن ، وعمال دبغ الجلود والترزية .

---

(1) Hallwachs Maurice., Population and Society. Introduction to Social Morphology. Free press of Glencoe. trans. by Duncan and Harold 1960 p. 22.

وبذلك كشف « تشارلس بوث » بدراسته الميدانية فى لندن ، عن صورة كاملة للبناء الحضرى Urban Structure وعملياته الايكولوجية Ecological Processes ، حين يدرس مشكلة الطبقات الاجتماعية والحراك الاجتماعى Social Mobility فى المستوى الرأسى ، عن طريق الانتقال والتغير أو التبدل الطبقى المستمر ، وفى المستوى الأفقى عن طريق الانتقال السكانى والهجرة ، داخلية كانت أم خارجية.

وإستناداً إلى هذا الفهم ، فيمكننا أن نعلن دون تطرف ، أن دراسات «تشارلس بوث » فى المسح الاجتماعى ، قد ساهمت إلى حد كبير فى ميدان «علم الاجتماع الحضرى Urban Sociology » وبالتالى يقف بوث إلى جانب أحد كبار العلماء وهو مؤسس هذا العلم وأعنى به عالم الاجتماع الايطالى Giovanni Botero كما يقف إلى جانب رواد علم الاجتماع الحضرى ، من أمثال «جرونت Graunt » ورافنشتين Ravenstein » و « ويلكوكس Willcox » و « ورينيه مورييه René Maurier » حين حاول هؤلاء جميعا أن يسهموا بسهم وافر فى تدعيم دراسات علم الاجتماع الحضرى[1] .

ففى كل دراسة ميدانية ، على ما يقول عالم الاجتماع الحضرى « اجون ارنست برجل Bergel » ينبغى أن يهتم عالم الاجتماع الثقافى والاقتصادى بدراسة النسق الايكولوجى دراسة مركزة ، وأن يدرس الظاهرة الايكولوجية Ecological Phenomenon فى امتدادها الذى يشمل المناطق الحضرية urban areas حيث تعمل الاعداد الكبيرة من العمال الذين هاجروا من القرى وانتقلوا إلى المدينة، بقوة الدفع والجذب نحو حياة أكثر رفاهية .

المنهج المقارن ودراسة التحضير :

لاينبغى أن يتوقف عالم الاجتماع الحضرى عند حدود المنهج التحليلى ، بل عليه أن يتعدى الدراسة التحليلية للأنماط الحضرية ، باستخدام المنهج المقارن ، ومحاولة ربط التحليل الثقافى بعقد المقارنات العلمية بين شتى أشكال التكيف الانسانى التى نشاهدها فى مختلف الثقافات والحضارات ، حيث يلقى المنهج المقارن على الظاهرة موضوع الدراسة ضوءاً أوفى وأدق .

(1) Bergel, Egon Ernest, Urban Sociology, Mc Graw-Hill 1955. pp. Vii-Viii.

ولكى يحقق الباحث أهدافه العلمية بتطبيق المنهج المقارن ، عليه أن يقوم بتصنيف دقيق لسائر الثقافات الحضرية الأمر الذى يساعد الباحث الانتروبولوجى حين يتبع طريقة محددة بالذات من طرق التصنيف ، بمقتضاها يستطيع تنظيم مشاهداته وتنسيق ظواهر الثقافة ، وتصنيف المادة التى كان قد أنتهى من جمعها فى مرحلة التسجيل والتحليل .

ونظراً لدقة وعمق الدراسات المقارنة ، فان مناهج التصنيف والترتيب ، انما يصعب امكان تطبيقها بنفس السهولة التى يطبق بها المنهج التحليلى فى ميدان الانتربولوجيا الحضارية . حيث تنصب الدراسة التحليلية على التركيز على ثقافة واحدة معينة بالذات ، أما مناهج المقارنة والتصنيف ، فالأمر فيها يختلف حيث لاترتكز على دراسة ثقافة واحدة ، وإنما تستند المقارنة إلى دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف بين ثقافتين أو أكثر[1] .

ولذلك ازدادت فى ميدان الانثروبولوجيا الحضارية وتعددت الدراسات التحليلية، بينما تظل الدراسات المقارنة أقل عددا ، إذ أن الصعوبات التى تواجه المنهج التحليلى هى أقل بكثير من تلك التى تواجهها مناهج المقارنة ، نظراً لما تكتنفها من مشكلات أكثر تعقيداً وأشد تشابكا وتركيباً .

وعلى هذا الأساس ، فإن تطبيق المنهج المقارن ، يقتضى منا تجنب المقارنات السطحية ، والتعرض لجوانب أكثر عمقاً لفحص وكشف طبيعة الواقع الثقافى ، من خلال عقد المقارنات الجادة والعميقة بين شتى الثقافات . وكثيراً مايستخدم أصحاب الاتجاه الثقافى مختلف المصطلحات الفنية ، « مثل السمات الثقافية » و « المركبات الثقافية » و « الدائرة الثقافية » أو مايسمى أحيانا Culture circle . وذلك للتوصل إلى تحقيق دراسة أوفى وأدق فى ميدان المقارنة والتصنيف .

ومن ناحية أخرى ، إتفق علماء الانثروبولوجيا الثقافية على إعتبار صفة « الديمومة duration » والاستمرار فى الوجود هى الخاصية الأساسية التى تميز ثقافة بالذات عن غيرها من سائر الثقافات ، ولذلك يفتش عالم الثقافة عن هذه

(1) Piddington Ralph., An Introduction to Social Anthropology Vol; L, Oliver Boyd, 1960. p. 22.

الخصائص الدائمة فى تركيب السمات والظواهر فى دائرة ثقافية محددة بالذات ، كما يبحث أصحاب المنهج المقارن عن بعض العناصر الثقافية التى تتميز بالديمومة وبالكلية فى ثقافة معينة ، ومقارنتها بسيادة سمات ثقافية أخرى فى نفس البناء أو المنطقة أو الدائرة الثقافية الممتدة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد فى الثقافات النيلية الحامية الممتدة فى منطقة شرق ووسط أفريقيا ، حيث تسود مجموعة من السمات والعناصر الثقافية مثل ما يسميه « ملفيل هرسكوفتز Melville J. Herskovits » بمركب الماشية Cattle Complex ، حيث نجد أن الماشية فى نظر هذه الشعوب هى أكثر من كونها مجرد ثروة إقتصادية . فهى محور إهتمام الأهالى وميلهم إلى الربط بين الماشية وبين المظاهر المختلفة لحياتهم اليومية . حيث تعتبر البقرة عنصراً حيوياً فى حياتهم السياسية وعلاقتهم الاقتصادية . كما نلحظ أن تبادل الابقار ، هو عنصر إجتماعى ضرورى يساعد على توثيق العلاقات .

ويفرض نظام التبادل إيداع الابقار عند الأصدقاء والجيران ، وهذه هى عادة الكبسيجيس والناندى ، حين يوزع أصحاب الماشية جزءاً من مواشيهم فى أماكن متباعدة لضمان قلة الخسارة فى الثروة الحيوانية ، إذا تعرضت منطقة للأمراض أو الصراعات التى كثيراً ما تنشب بين مختلف العشائر ، وبذلك يبعدون شبح العوز والفاقة .

وقد أدخلت على هذا النظام التبادلى الكثير من التعديلات وبخاصة بين قبائل الباكوت . وبناء على هذا التعديل يجب على الشخص الذى يتسلم بقرة أن يعطى لصاحبها عجلا أو كمية من الحبوب أو عدداً من الاغنام . ويسمح لراعى البقرة الجديدة أن يحتفظ بها طوال الحياة ، غير أنه يتعين عليه أن يقدم لمالكها القديم هدايا صغيرة ، وأن يتخلى له عن أحد عجولها بصفة دورية ومنتظمة . ويتحرر المالك الجديد من الدين إذا ماتت البقرة ، فلا يلتزم بشىء للمالك القديم . ولذلك وكثيراً ما يدعى المالك الجديد موت البقرة ، فتدور المنازعات وترفع القضايا التى تنظر فيها المحاكم المحلية .

ومن هذا المثال يتضح لنا أن « مركب الماشية » هو بؤرة الحياة الثقافية بين

الشعوب النيلية ، ولهذه العقدة قيمتها وردود أفعالها فى سائر النظم الأخرى ، الأمر الذى يجعل منها محوراً ترتكز إليه كل جوانب الثقافة السائدة فى منطقة شرق ووسط إفريقيا . حيث أن الماشية ثروة إقتصادية يسهل نقلها من مكان إلى آخر، على حين يتعذر ذلك بالنسبة للأرض الزراعية ، مما يعطى للماشية قيمة «النقود» فى سيولتها وسهولة نقلها فى المجتمعات المعقدة ، كما أن الماشية كثروة مادية ، لاتتوقف عند حد ، وإنما تنمو وتتكاثر تلقائياً ، ولا تحتاج إلى عناية كبيرة كما هو الحال فى الزراعة ، والنيليون يمجدون الحرب والصراع ، لأنها وسيلة تعوضهم ما يخسرونه من الماشية حين يتفشى المرض ، كما أن الحرب تثير حماسة شباب « البانتو » و « الباكوت » وتفسح لهم مجالا لإحراز الشهرة وزيادة الثروة[1] .

وفى ثقافات الهنود الحمر فى أمريكا ، تشيع بعض الدوائر الثقافية المميزة ، منها ما يعتمد على تربية الخيول ، ومنها ما يغرم بصيد الـ Bison ، وهو حيوان برى أمريكى يشبه الثور ، كما نجد أيضاً بين تلك الثقافات الهندية الحمراء بعض القبائل التى تعتمد فى حياتها الاقتصادية على زراعة الأرز البرى ذلك الذى تدور حوله الكثير من الطقوس والشعائر التى تتصل بمحصول الأرز وطريقة زراعته ومواعيد حصاده .

ونستخلص من كل ذلك أن الدراسة المقارنة إنما تستند أصلا إلى تصنيف الثقافات إلى مجموعة من الدوائر الثقافية . كما أن المنهج المقارن ، إنما يعتمد أولا وقبل كل شيء على تصنيف السمات والعناصر الثقافية . كما يستند المنهج المقارن أيضاً إلى تنسيق ومقارنة هذه السمات والعناصر بغيرها ، ومن نفس الدائرة الثقافية. إذ أن علماء الانثروبولوجيا الثقافية القدامى قد انزلقوا إلى الوقوع فى الأخطاء المنهجية فى دراسة النظم وغرائب العادات ، عن طريق مقارنة هذه النظم الغريبة بنظم أخرى متنوعة من ثقافات لا ترتبط بها بأى صلة تاريخية أو جغرافية. وبذلك لم يطبق المنهج المقارن فى الدراسات القديمة على نحو علمى منظم ، إلا أن الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة ، تأخذ بمقارنة سمات وعناصر ثقافية ، تقع أو تنحصر فى «دائرة أو قطاع» تسوده السمات والعناصر المتشابهة .

---

(1) Melville, J. Herskovits. Cultural Anthropology, Alfred. A. Knopf, New York, 1964.

فاللغة مثلا تعتبر عنصراً أو سمة ثقافية ، يستطيع العالم الأنثروبولوجى بصددها أن يدرس مختلف اللغات واللهجات السائدة ، وأن يعقد المقارنات بينها ، وأن يربط فى نفس الوقت بين حدود اللغة وحدود الثقافة أو القبيلة موضوع الدراسة.

وقد تعتبر اللغة من عوامل التصنيف Classification ، حين ينظر إليها الأنثروبولوجى اللغوى على أنها عامل مساعد من عوامل الكشف عن الإحتكاك الثقافى Cultural Contact ، كما تكشف المقارنة اللغوية عن حدود الثقافة ، من أين تبدأ وكيف تنتهى ؟ .

إلا أن الحدود اللغوية رغم ذلك ، كثيراً ما لا تتفق مع الحدود السياسية والثقافية للمجتمعات ، نظراً لوجود ما يسمى بالإنتشار الثقافى diffusion of Culture ، ومن شأن هذا الانتشار الثقافى أن يؤدى إلى التشابه بين العناصر الثقافية فى مناطق وثقافات متفرقة .

ويؤلف العنصر أو السمة الثقافية جزءاً بسيطاً من الثقافات المادية أو «اللامادية» التى هى « الثقافة الإجتماعية » . فحين نشاهد مثلا فى ثقافة ما من الثقافات نمطاً سلوكياً معيناً بالذات ، نستطيع فوراً أن نعتبر هذا النمط السلوكى جزءاً أساسياً من الثقافة موضوع الدراسة . ومن هنا تصبح أنماط السلوك هى عناصر جوهرية وسمات أساسية من سمات الثقافة التى يدرسها الباحث الأنثروبولوجى الحقلى .

وقد تتحقق سمات الثقافة فى كيفية الحصول على الطعام أو جمعه ، وطريقة توزيعه أو تخزينه ، وقد يتمثل السلوك الثقافى فى إستخدام نوع معين من أنواع الحراب لصيد الأسماك ، أو الزواج من طائفة معينة من الأقارب . وكل هذه أنماط مختلفة من السلوك ، التى يمكن النظر إليها على أنها سمات أو عناصر جوهرية من سمات المجتمع محل الدراسة .

وغالباً ما تتوزع سمات الثقافة توزيعا جغرافيا ، فتمتد هذه السمات وتنتشر عناصر الثقافة إلى ما وراء حدود القبائل والمجتمعات موضوع الدراسة ، وحين تنتشر سمات الثقافة وتمتد العناصر الثقافية كى تلتحم مع سمات وعناصر أخرى فيما وراء الحدود ، فانها تؤلف ما نسميه « بالمركب الثقافى Culture Complex »

ذلك المركب الذى يتكون من التحام بعض سمات الثقافة بعناصر أخرى عن طريق الاحتكاك الثقافى، أو ما يسمى « بالتحضير Acculturation » .

فالمركب الثقافى هو مجموعة متلاحمة من السمات الثقافية التى تتوظف وتتماسك كما تتصف بالديمومة والثبات . ويضرب لنا « كلارك وزلر Clarke Wissler » مثالا فى هذا الصدد عن مجموعة من قبائل الهنود الحمر ، تعيش على زراعة الأرز البرى ، بالقرب من بحيرة Superior Lake ، ولما كانوا من الأمريكيين الأصليين فقد سموا بالامـرنديين Amerindian .

وتقطن هذه القبائل منطقة البحيرات الكبرى ، ونلحظ فيها شيوع بعض السمات الثقافية المشتركة تلك التى ، تتصل جميعها بمركب الارز ، مثل طريقة جمع الارز وتخزينه ، وحفظه من إغارة الطيور عليه . كما يرتبط هذا المركب ببعض السمات الدينية كالشعائر والطقوس التى تدور حول زراعة الارز البرى ، كما يلتزم الأهالى ببعض المبادىء الإقتصادية التى تنظم طريقة إنتاج الارز وتوزيعه ، وفقاً لمجموعة من الانماط التى تتم حسب قواعد مدروسة وطبقا لقوالب سلوكية متوارثة.

وتدخل كل هذه السمات الثقافية الأساسية فى صلب « مركب الارز » كمجموعة من العمليات الثقافية المتفاعلة ، إلى الدرجة التى معها نستطيع القول أن المركب الثقافى يتضمن الكثير من الظواهر المتشابكة ، والنظم التى تتساند فيما بينها تسانداً وظيفياً داخل البناء الثقافى برمته[1] .

وإستناداً إلى هذا الفهم ، يستشهد « وزلر Wissler » بالتوتمية Totemism والزواج الخارجى exogamy كأمثلة حية للمركبات الثقافية . فالتوتمية مثلا ، ليست حقيقة ثقافية فردة Single Cultural Reality ، وإنما تنتشر الاشكال والصور التوتمية ، وما يرتبط بها من مختلف المعتقدات والنظم كى تمتد فى نماذج متمايزة فى سائر المجتمعات والثقافات .

وهناك مقولات تصنيفية أخرى تخضع للبحث المنهجى فى ميدان الدراسات المقارنة ، حيث يستخدم علماء الانثروبولوجيا الثقافية ما يسمى « بالدائرة

(1) Piddington, Ralph., Social Anthropology., Vol. 1 O'iver and Boyd, Third Edition, 1960. PP. 22 - 23.

الثقافية» باعتبارها منطقة تسود فيها سلسلة من السمات الثقافية المتقاربة ، ومجموعة من المركبات الثقافية المتجاورة ، والسائدة بين مجموعة محددة من القبائل البدائية ولذلك فقد ينتقل «المركب الثقافى»، بهجرة بعض السمات أو العناصر الثقافية من قبيلة إلى أخرى ، كما هو الحال فى إنتقال مركب الماشية ، بين سائر قبائل شرق ووسط إفريقيا ، وخاصة بين قبائل الباكوت ومثل إنتقال « مركب الارز البرى » بين سائر قبائل سهول أمريكا حيث تنتشر قبائل الهنود الحمر .

وقد يطلق علماء الثقافة بصدد إستخدامهم للمنهج المقارن ما يسمونه «بأنماط الثقافة Patterns of culture » بقصد تصنيف سائر أشكال أو صور الثقافات السائدة فى المجتمع البشرى ، ولكن يبدو أن تصنيف هذه الثقافات إلى « أنماط لم يستند إلى الدراسة الموضوعية لمختلف السمات والعناصر الثقافية ، بقدر ما استند هذا التصنيف إلى الكثير من الدراسات السيكولوجية التى تعتمد على نظريات فرويد Freud ويونج Jung وعلى ما جادت به قرائح علماء النفس الالمانى بصدد نظرية الجشطلت Gestalt .

بمعنى أن دراسة « أنماط الثقافة ، قد استندت أصلا إلى « فروض وتقديرات ذاتية subjective assessments » على حد تعبير « رالف بدنجيون Ralph Piddington » حيث قام علماء الثقافة من أمثال « روث بندكت Ruth Benedict بتحديد « صيغ ثقافية عامة » تستند إلى دراسة ما يسود فى الثقافة من قيم وإتجاهات سيكولوجية عامة : وبمقارنتها بما يسود فى ثقافات أخرى .

و « الصيغة الثقافية » عند اتباع الاتجاه السيكولوجى فى دراسة الثقافة ، هى « نمط Pattern » يتميز بالعموم ، أو « صورة Form » تتضمن فى ذاتها مجموع السمات الثقافية الثابتة ، كما تمتاز « الصيغة الثقافية » بالتكامل ، حين تنتظم عناصرها وتتوظف وتتفاعل فى إطار كلى متساند الأجزاء . حيث أن الثقافة تتحقق فى وحدة ، وتتجسم فى كل مترابط يطلق عليه اسم Configurition ، بالنظر إلى الثقافة كصيغة كلية ، إذ أنها ليست مجموعة ممزقة من السمات ، أو « كل مبعثر العناصر والأجزاء » .

الأوتومية وآثارها الاجتماعية :

ونستطيع أن نؤكد فى بساطة ، أن الصناعة إلى جانب كونها ظاهرة «انسانية» وليست بالمادية ، وأنها أيضا ظاهرة جماعية Collective وليست بالفردية فينبغى أن ندرس الانسان فى الصناعة ، بل ولا ينبغى أن تكون الصناعة على حساب الانسان الأمر الذى معه يفتش الباحث الصناعى عن الجوانب « الجمعية » و « النفسية » والترفيهية فى العملية الانتاجية .

وليس من شــك فى أن شخصية العامل انما تتأثر بنمط الحياة الصناعية وبأسلوب معيشة العمال ، كما تتأثر أيضا بوطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا حيث تتشكل السمات العامة لشخصية العامل وثقافته بعمليات التنميط Patternization والتبسيط Simplification فى عمليات الانتاج الصناعى ووحداته ونماذجه . ويجب أن يتفهم « الادارى » فى المصنع ، أن العامل ، انسان له شخصيته ومشاعره ، فلقد ثبت أن للبناء البيروقراطى أثره على شخصية العامل ، وقلقه واضطرابه الذى قد يصل إلى حد الكآبة والاحباط . فللبيروقراطية الصناعية انماطها على حد تعبير « جولدنر » فى مقاله عن « انماط البيروقراطية الصناعية » Patterns of Industrial Bureaucracy أكد « ميرتون Merton » و «بلاو Blau» على ديناميكية البيروقراطية dynamics of Bureaucracy وتأثيرها على سـائر سلوك العمال(1) .

ومن هذا المنطلق يهتم علم الاجتماع الصناعى Industrial Sociology بالعنصر الانسانى فى الصناعة ، بحيث ينبغى على الرؤساء والمديرين أن يعلموا جيدا أنهم كما يديرون آلات الانتاج وحركة العمل ، وهى حركة ذات مصادر مادية تحركها أدوات تكنولوجية ، فانهم يديرون فى نفس الوقت « طاقات بشرية » وقوى عاملة ، ومصادر آدمية ، وهى ليست بالمادية ، لأن العامل «انسان» وهو طاقة آدمية لا تعمل دون إنقطاع ، «بالنظر إلى العامل كقدرة بشرية محدودة » ، وقد يعمل العمال بلا حدود وبروح معنوية هائلة ، إذا ما تغير نمط الادارة وأسلوب السلطة فى البناء الصناعى نحو الديموقراطية والمشاركة فى اتخاذ القرار وتتطلب « فلسفة الادارة

(1) Hill, Michael., The Sociology of Public Administration 1972.

العامة» ضرورة تدريب القادة والمديرين والمشرفين ورؤساء الأعمال على النمط الديموقراطى فى الادارة ، سواء فى تشغيل « الورشة » الصغيرة ، أو الاشراف على المؤسسة الكبيرة . وعلى المديرين ورؤساء الأعمال استنادا إلى أسس نفسية وانسانية أن يغيروا نمط الادارة ونظرتها إلى العمل والعمال باحترام شخصية العامل، ومعاملته كأنسان لا كآلة عضوية كما كان يتصور « فلاسفة العصر اليونانى » ، حين نظروا إلى العبد كأداة أو كوسيلة بيولوجية مجعولة للخدمة ، ومسخرة للعمل. فللعامل كرامته ومشاعره وذاتيته ، كما أن له شخصيته وقدراته ، فهو ليس بآلة أو « ترس » فى آلة الانتاج الضخمة ، فلا ينظر اليه بمقدار «مايعطى» وهذه نظرية نفعية بحتة للعامل والعمال ، ولقد خلقت الاوتومية Automation مجتمعا صناعيا حضريا جديدا ، متوفر السلع ويمتاز أفراده بالمهارات العالية ، والتخصصات الدقيقة ، كما ساعدت الاوتومية على تقليل ساعات العمل وانخفاض تكاليف الانتاج ، مع زيادة معدلات الانتاج(١) .

وحين ضاق نطاق المصانع التقليدية ، ازدادت نسبة المصانع الاوتوماتيكية التى تساعد على الانتاج الآلى بالجملة mass Production ، ظهرت الاوتوتية بفضل تخفيض القوة العاملة ، فقد يكلف عامل واحد للاشراف على آلة أو آلتين أو أربعة كلها « نصف أوتوماتيكية » أو أوتوماتيكية .

ويمكن ضبط « الميكنة أو الاوتومية » ، باستخدام خرائط العامل والآلة Man Machime charts وذلك لاختصار المسافات التى يتحركها العامل واقتصاد وقته . ويساعد استخدام خرائط العامل والآلة على تحديد عدد الآلات التى يشرف عليها العامل الواحد على أساس الزمن القياسى Standard Time للعملية الانتاجية ، وحصة الانتاج فى الساعة . وهناك أوتومية مستمرة continuous automation وتعطى عملية انتاجية كاملة بأساليب الآلات ذاتية الحركة . وهناك أيضا عملية التجميع المتكامل لكل الاجزاء السابق صنعها continuous assembly automation أما الاوتومية المتقطعة Segmented automation فهى التى يتخللها فترات راحة أثناء ساعات التشغيل اليومية للعمل . وهناك مكاسب كثيرة للاوتومية ، منها ، تخفيض

(1) Smelser, Neil., The sociology of Economic life., Primtice-Hall. 1963

تكاليف الانتاج ، بتخفيض العمالة الزائدة ، مع تلافى التأخير والتكاسل والغياب، لغياب العنصر البشرى ، واقتصاد المساحة المشغولة بالمصنع ، وانتظام الجودة فى الانتاج وتحسينها كماً وكيفاً مع تشريع قوانين العمل ودقتها حتى تكون لها رد فعل بالنسبة للعامل وبالنسبة للانتاج كله ، ومن مزايا الاوتومية ، سرعة التحكم فى الانتاج ، وقلة تعرض الافراد لاصابات العمل . ومن عيوب الاوتومية أنها تتطلب تكوين رأس المال الضخم للتصنيع بالآلات ذاتية الحركة . وقد يؤدى العطل فى الانتاج الاوتوماتيكى إلى احداث اعطال أخرى فى خط سير العملية الانتاجية . بالاضافة إلى ارتفاع تكاليف صيانة مثل هذه الآلات الاوتوماتيكية التى تحتاج إلى العامل الماهر والفنى المتخصص الدقيق .

وطأة العلاقات الصناعية :

ولقد تغير « مفهوم العلاقات الصناعية » وأنقلب رأساً على عقب ، منذ أدخل عالم النفس الالمانى « فنت Wundt » فى جامعة ليبزج فى المانيا أول معمل تجريبى فى علم النفس . مما كان له رد فعله الشديد فى تطوير دراسات علم النفس الصناعى فى أمريكا وبخاصة عند عالم النفس الامريكى مونستربرج Munsterberg[1] وهو أحد أتباع وتلاميذ « فونت » ، وعمل فى أمريكا كأستاذ لعلم النفس التجريبى فى جامعة هارفارد . وله دراسات ممتعة فى الادارة الصناعية ، وتحديد أفضل الظروف النفسية للحصول على أكبر انتاجية ، وكان أول من دعا إلى التوجيه المهنى على أسس عملية فى الصناعة ، مع دراسة الآثار الايجابية لديناميكية الادارة الناجحة[2] .

ويعتبر « هوجو مونستربرج » أول من طبق مبادىء علم النفس الصناعى والتجريبى فى المصانع والمكاتب وأماكن العمل ، وليس فقط فى المعامل وأماكن

(١) ولد مونستربرج فى أول يونيه ١٩٦٣ ، فى دائرة دانزج بألمانيا ، وحصل على الدكتوراه فى علم النفس ، من جامعة ليبزج عام ١٨٨٥ وتتلمذ على يدى « فونت » ، ثم حصل على درجة أخرى بعد ذلك بعامين من جامعة هيدلبرج ، ثم تولى مسئولية معمل علم النفس فى جامعة هارفارد فى أمريكا ، حيث عمل بها كأستاذ لعلم النفس التجريبى .

(٢) جورج ، كلود ، تاريخ الفكر الادارى ، ترجمة أحمد حموده ، مكتبة الوعى العربى صفحات ١٧٢ — ١٧٤ .

البحوث والمختبرات ، ثم ظهر الاهتمام بعدها بعلم التوجيه المهنى Vocational guidance ، وهو من أحدث العلوم السوسيولوجية التى تفرعت من « علوم الاجتماع» وعلوم النفس المعاصرة .

الادارة العلمية والعلاقات الانسانية :

وإهتم تايلور بطرق الانتاج ، ووسائل التنظيم الصناعى كما عالج مشكلات الأجور كوسيلة لنجاح أو اخفاق كل العملية الانتاجية ، بكل ما فيها من عمل وادارة وتنظيم ومشكلات للأجور ، واقتصاديات الوقت والفراغ والحركة Motion على اعتبار أن نجاح العملية الانتاجية ، إنما يتحقق فى بذل أقل مجهود فى أقصر وقت. الأمر الذى معه يدخل علم النفس الصناعى والتجارى والتربوى والثقافى والفسيولوجى فى دراسة الحركة والادراك والدوافع Motivation والحوافز والروح المعنوية وترتيب وتوجيه وترشيد اتجاهات الرأى العام .

ولقد حاول « تيلر » عالم النفس الاكلينيكى والصناعى الامريكى ، فاهتم بتطبيق الاختبارات السيكولوجية وتتبع دراسة الحركة ، بالمقابلة الشخصية والاختبارات والمقابلات . كل ذلك من أجل حل مشكلات صناعية وحركية وفيزيقية ، بالاضافة إلى حل مشكلات التوتر والاضطرابات التى يفقد العامل معها القدرة على الانضباط فيفقد الأمن ، حيث أصبح الصراع الصناعى فى هذه الأيام، ظاهرة واضحة تأخذ فى الازدياد والانتشار فى المجتمعات الرأسمالية والصناعية .

منهج فلسفة العلاقات الانسانية :

وهناك مناهج للبحث مختلفة ، تطبق فى سائر ميادين علم الاجتماع الحضرى والصناعى ، منها ما يحلل « اقتصاديات الادارة » ، وما يدرس الكفاية الانتاجية وقد تتسمى أيضا مناهج البحث فى علم الاجتماع ، باسم صاحب البحث أو طريقته مثل طريقة تايلور Taylor ،ومنهج فايول Fayole[1] وطريقة جانت Gantt

---

(١) يمكن تقسيم مجهودات « فايول » إلى أربعة فترات ، وتبدأ الفترة الأولى من عام ١٨٦٩ حتى عام ١٨٧٢ حيث كان يعمل مديراً مساعداً وكانت أفكاره موجهة نحو حل المشكلات المتعلقة بهندسة المناجم . أما الفترة الثانية فتبدأ من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٨٨٨ حيث شغل مركزا إداريا أعلى . واتجه نحو حل المشكلات الجيولوجية ، أما الفترة الثالثة فتبدأ من عام ١٨٨٨ حتى عام ١٩١٨ حيث كان يتولى مركز المدير العام، فألقى عام ١٩٢٠ بحثا فى مؤتمر دولى ضم الكثير من رجال المناجم =

ومنهج التون مايو Mayo ، ولكل منهم اهتماماته ومنهجه وتخصصاته .

فلقد أهتم تايلور بدراسة الوقت Time Study وأهتم جلبرت Gilbreth بعلاج مشكلة التعب ، وتخفيض الجهد ، أو دراسة الحركة Motion study بينما أهتمت « طريقة جانت » بنظام المكافآت ، كما أشتهر بتحديد بطاقات لسير العمل ، مازالت تحمل اسمه حتى الآن ، بينما أنصب منهج « التون مايو » على توفير المناخ الملائم للعمل والعمال ، وأختيار العامل المناسب والاضاءة المناسبة مع طلاء الجدران ، بالألوان الهادئة التى يكون لها أثرها فى انتاجية العمال .

منهج البحث عند فردريك تايلور :

قام تايلور بدراسات وبحوث متعمقة فى الادارة ، والانتاج والحركة ، إلى الدرجة التى معها توجد طريقة خاصة فى علم الإجتماع الادارى ، تسمى بطريقة تايلور . ولقد اصطنعها كطريقة أو كمنهج يزيد من إنتاج العامل . كما يزيد أيضا من ساعات راحته . وكان تايلور يستخدم أنواعاً من الجاروف ، كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، واهتم فى منهجه ، بترشيد استخدام وتحميل الجاروف فى الوقت المستغرق ، مع تحديد أجر العامل الذى يزداد كلما إزدادت إنتاجيته[1] .

ولقد كانت أهم المبادىء التى اعتمد عليها تايلور فى منهجه فى الادارة العلمية، إكتشاف أنسب الوسائل لأداء العمل فى أقل وقت ممكن ، وبأقل جهد مبذول . أما المبدأ الثانى الذى اعتمد عليه تايلور ، هو إيجاد « تقسيم جديد للعمل » يوضح طبيعة العلاقة بين الادارة والعمال ، ويتناول تحديد سلطات ومسئوليات كل عمل سواء فى التخطيط أو فى الادارة والتنفيذ ، وهذا هو أهم

= والمعادن ، ثم كتب بحثا تحت عنوان « آراء حول المبادىء العامة للادارة » ، وتبدأ الفترة الرابعة من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٥ وعلى الرغم من أن فايول كان قد تقاعد فى سن الشيخوخة . فقد كان على جانب كبير من النضج والحيوية كما وأخذت جهوده ومبادئه فى الاستمرار ، حتى بعد وفاته إلى يومنا هذا .

(١) لقد اتهم تايلور بأنه سعى إلى تحقيق المزيد من الانتاج ، عن طريق الضغط على العمال putting pressure on the workmen إلا أن تايلور فى الواقع كان يسعى لحل مشكلات العمل ولايجاد علاقات طيبة تربط بين صاحب العمل والعمال . بتشجيع الحوافز والأرباح وزيادة الأجر والانتاج . ولذلك وصف تايلور فى علم الاجتماع الادارى وأشتهر فى هذا الصدد باسم « أبو الادارة العلمية » .

مبدأ فى تقسيم العمل الجديد New devision of labor [1] . وعلى رئيس المجموعة أن يتأكد مقدماً ، من أن « القوى العاملة » التى تعمل بانتظام تحت إشرافه الدقيق ، إنما تؤدى عملها بانتظام ، وفى حدود الزمن المقرر . كما ينبغى التأكد من أن كل عامل ، إنما يحافظ على آلاته ، ويقوم بصيانتها ، كما يتم إنتاج العامل طبقاً للمواصفات ، وبأكبر قدر من المهارة وأعلى قدر من الكفاية أو الجودة . ويشرف رئيس الجماعة على العمال ، ويراقب الوقت ، ويعمل على تعديل أجورهم كلما حققوا انتاج وكفاية . ويطبق تايلور منهج الادارة العلمية ، الذى يلخصه فى تطبيق « منهج العلم » بدلا من التقدير الشخصى Rule of Thumb [2] ، فهى قاعدة بيروقراطية تعسفية ، كما أنها مستبدة ، ولا تحترم الذكاء الإنسانى ، لأنها تصدر من « إدارة أتوقراطية » لا إنسانية ، ومعوقة للنمو .

وختاماً ، فلقد اكتشف تايلور بمنهجه العلمى بعض الأساليب الجديدة فى الانتاج وتطورت جهوده العلمية والتطبيقية على مستوى إدارة المصنع على نحو منتظم ، حين قام بتقسيم العمل الذى يقوم به كل عامل إلى « حركات أولية وبسيطة » . ثم استبعد كل الحركات غير الضرورية ، واختار أسرع الطرق فى أداء العمل ، وتجنب الوقت الضائع Waste time .

ومع توفير الجهد تزداد راحة العامل ، كما إزدادت إهتمامات تايلور بتحديد فترات أكبر لراحة العمال أثناء عملهم ، فيؤدى كل ذلك إلى زيادة فى أجر العامل وإلى زيادة فى معدلات الانتاج على العموم .

ويحقق منهج تايلور العلمى ، الانسجام بدلا من التفرقة ، والتعاون بدلا من الصراع conflict ، وسيادة روح الفردية individualism . ويحقق المنهج العلمى للادارة أكبر قدر ممكن من الانتاجية ، مع تنمية كفاية الفرد ، مما يتطلب ثورة عقلية من جانب الادارة ، ومن جانب العمال ، على ما يقول تايلور ، فالمنهج

---

(١) قام تايلور بدراسة الوقت الذى يستخدمه العامل فى أداء واجبه ، مع تقليل إجهاد Fatigue العامل ، ومدى إهتمام رئيس المجموعة أو إلمامه بطبيعة العمل وحركات الآلات مع ضرورة فهمه الواضح للرسوم والتصميمات ، وعليه أن يتأكد مقدماً من أن كل شىء معد للعمل .

(٢) أطلق تايلور هذا الاصطلاح الانجليزى استخدمه للاشارة إلى الأسلوب الادارى القديم وهو منهج البصمة والتخمين .

العلمى فى الادارة ، لا يأخذ بمنهج البصمة والظن والتخمين ، كما لايأخذ المنهج العلمى سوى بالمنهج الادارى الموضوعى الحق ، الذى يستند فقط إلى « القانون» من جهة ، كما ويحترم الانسان من جهة أخرى [1] .

قواعد المنهج عند فايول Fayole :

لقد وضع فايول ، أسس وقواعد كل من التنظيم والادارة ، وقام بتحليل العملية الادارية ، وقسم العمل ، ورسم الخرائط الدقيقة لانجاز الأعمال . ويعتبر فايول ، هو المؤسس الحقيقى لمدرسة البحوث والعمليات ، وهو رائد تحليل العمليات إلى أجزاء بسيطة محددة تحديداً زمانياً ، ولقد حاول فايول أيضا أن يعالج مشكلات إدارية أخرى ، كمشكلات الأجور والحوافز ، مما أدى إلى سيادة « نظرية التنظيم» فى علم الاجتماع الادارى .

وبصدد التنظيم ، اهتم فايول بالالتزامات أو الواجبات الادارية managerial duties الخاصة بالتنظيم ، كما أهتم فايول أيضا بتقسيم الوظائف إلى أنشطة مثل :

(١) النشاط الفنى technical activity كالانتاج ، أو تصنيع سلعة جديدة ، أو استخراج ما له قيمة .

(٢) مثل النشاط الاقتصادى أو التجارى commercial activity كالتبادل والبيع والشراء .

(٣) النشاط المالى Financial فيتصل بترشيد الانفاق ، وحسن استخدام المال على الوجه الأمثل .

وبالاضافة إلى كل هذه الأنشطة ، هناك مناشط التأمين Security activities وتهدف إلى حماية الممتلكات والأشخاص من المخاطر Risk والأخطار ، أما عن النشاط المحاسبى accounting activity ، فهو الذى يتمثل فى محاولة التفتيش والمتابعة ، عن طريق الجرد المستمر ومراجعة الميزانية وحساب التكاليف ، وهناك أيضا النشاط الإدارى managerial activity ويتعلق بكل ما يتصل بالتنسيق

(١) أنظر كتابنا « علم الاجتماع الصناعى ومشكلات الادارة والتنمية الاقتصادية » . منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٥٤١ .

والتخطيط والرقابة ، وإصدار الأوامر والتنفيذ . وهكذا يقسم فايول الوظائف والأنشطة الأساسية فى كل منشأة أو مؤسسة[1] .

ويذهب فايول بصدد الإدارة الصناعية العامة ، إلى أن هناك صفات إدارية managerial qualities ينبغى أن تتوافر فى الادارة بالفطرة أو الموهبة أو حتى بالتدريب training ، كما ينبغى أن تنتقل من الادارة المتوسطة إلى الإدارة العليا ، وتتحول من مستوى التنفيذ إلى مستوى التخطيط ، كما يستطيع أن يحظى الأسطوات من أصحاب الادارة المتوسطة middle management مع التدريب الدائب المستمر ، فيحصل كل منهم على كل خبرات وتجارب الادارة الأعلى Higher ، حيث تتوفر الصحة الجسمية ، والصفات الذهنية mental الراقية ، حين تمتزج بها صفات معنوية Moral ، كالجلد والهمة والحزم وتحمل المسئولية ، والقدرة على الخلق والابداع والثقافة العامة والخبرة الشخصية أو الدراية الخاصة Special Knowledge وبذلك وضع فايول قواعد المنهج فى كل إدارة وتنظيم فكان من الرواد الأوائل الذين علموا الادارة وأضافوا إلى « الوظيفة الادارية » إضافة جديدة ومبتكرة ، كما وتظهر القدرات الفنية واضحة لدى كل رئيس منشأة . بل وقد تتفوق على القدرات الفنية أحيانا ، سائر القدرات و « المواهب الإدارية » فلاينبغى مثلا أن تفرض تعليمات الرئيس فرضا تعسفيا ، أو تصاغ فى قواعد أو قوالب جامدة not to be considered rigid rules كما لاينبغى أن يطبق الرئيس أو المدير نفس المبادىء فى ظروف مختلفة ، أو حتى فى الظروف المتشابهة Identical conditions حيث يأخذ فى اعتباره المتغيرات التى تحيط بالعمل فى كل الظروف، بل وفى كل ظرف على حدة . ودراسة العوامل المتغيرة التى تؤثر فى تلك الظروف التى قد تتشابه فى المظهر ، وتختلف فى الجوهر والمضمون ، ومن هنا نستطيع أن نؤمن بقيمة علم الإدارة . وإمكان تطبيقه على كافة الأنشطة التجارية والصناعية والسياسية والحربية والدينية والخيرية philanthropy .

أما عن الواجبات الإدارية للتنظيم ، فيؤكد فايول ، على الشروط الآتية ، التى تحدد ملامح الإدارة الصناعية :

(1) Fayole Henri., General and Industrial Management, trans. by Storrs, paper backs, 1969.

١ ـ التأكد أولا من أن التخطيط قد أعد بعناية ، كما يجب أن ينفذ بكل سرعة ودقة .

٢ ـ وضع سلطة مفردة ومرشدة Singlo guiding authority مع تكامل التنظيم الإنسانى والمادى ، وتحقيق الأنسجام ، وتنسيق الجهود ، وإصدار القرارات الحاسمة والواضحة .

٣ ـ إيجاد وسيلة فعالة للاختيار وللاختبار مع تحديد الواجبات بوضوح .

٤ ـ تشجيع الرغبة فى تحمل المسؤلية الإدارية ، ومنح المكافآت العادلة .

٥ ـ التأكد من إستتباب النظام وإستقراره ، حين يهتم التنظيم بالعقوبات وتقويم الخطأ .

٦ ـ التأكد من تغلب المصلحة العامة على مصلحة الأفراد ، مع رقابة كل من فى التنظيم ، ومقاومة كثرة التعليمات .

هذا فيما يتعلق بالتنظيم ، أما ما يتعلق بالادارة فيشرح « فايول » عناصر أو مبادىء الادارة Elements og management . ويقسمها على النحو التالى :

(ا) التخطيط Planning ، حيث تهدف الادارة إلى تنظيم وتحديد النظر إلى المستقبل looking ahead ، على أن يأخذ المخطط فى اعتباره موارد وطبيعة العمل وأهميته فى ضوء إتجاهات المستقبل القريبة .

(ب) التنظيم Organization ، وتقسم كل مؤسسة إلى تنظيم مادى . يتعلق بالمواد الخام والأدوات ، ورأس المال . أما « التنظيم الانسانى » ، فيتعلق بالأفراد الذين يقومون بالعمل ، ويستخدمون أدوات التنظيم المادى .

(جـ) القيادة Command ، وهى الأسلوب أو المنهج أو الطريقة التى تتم بها إدارة أو تشغيل أى تنظيم من التنظيمات . وتتوافر فى القيادة المعرفة التامة لطبيعة العمل . وإستبعاد غير القادر ، وعقد المؤتمرات ، ومناقشة المشكلات ، وعدم التدخل فى التفصيلات الجزئية ، فالادارة الرشيدة هى التى تضع الأساس الاقتصادى برفع الروح المعنوية Moral وتشجيع روح الابتكار وخلق الكوادر ، وتكريم القدوة الحسنة .

(د) التنسيق coordination ، وهو تحقيق الإنسجام بين مختلف أوجه النشاط ، المنتج والفعال ، ويذهب فايول إلى أن « التنسيق » إنما يشمل كل الجوانب الاجتماعية والمادية والوظيفية مع متابعة قدرة كل جانب منها على أداء وظيفته فى صورة اقتصادية مثالية . وهناك شروط وضعها فايول لمنهج التنسيق الجيد. بشرط أن يتوفر عنصر الانسجام مع سائر الأدوات ، ومعرفة طبيعة كل إدارة منها وأقسامها وقدراتها ومناشطها .

(هـ) الرقابة Conrol ، وتتمثل وظيفة الرقابة فى منهج فايول ، فى التحقق من أن كل المناشط ، إنما تحدث وفقاً للخطة الموضوعة . مع إظهار نقاط الضعف، وكشف الأخطاء ، ومنع تكرارها . ويشمل نطاق الرقابة كل ما فى المؤسسة من « أعمال وأشياء وأشخاص » . ويرى فايول ضرورة وجود الأخصائيين الفنيين الذين يعاونون « المدير العام » فى المسئوليات الملقاة على عاتقه ، وبشرط أن يكون لهؤلاء الإخصائيين الفنيين سلطات محدودة ، على أن يعمل الجميع طبقاً للقرارات والتعليمات التى يصدرها المدير العام .

مبادىء فايول :

ويذهب فايول إلى أن هناك بعض الأسس التى تنبنى عليها كل إدارة مثل مبدأ « التخصص وتقسيم العمل » ، وهو من أهم المبادىء الإقتصادية والإدارية المعروفة، كما ربط فايول السلطة authority بالمسئولية Responsibility بالطاعة obedience . على إعتبار أن المسئولية هى نتيجة طبيعية للسلطة وعلى قدر المسئولية تكون السلطة Responsibility is a Corollary of authority .

ومن الأسس التى وضعها فايول للادارة « النظـــام » وهو مبعث القوة فى كل إدارة . كما أن إزدواج الأمر dual command هو مبعث الضعف ، فلابد من وحدة الأمر ، ووحدة التوجيه unity of direction ، طبقا لخطة واحدة ورئيس واحد . وهذا هو الشرط الأساسى والجوهرى ، لتنسيق القوى وتركيز الجهود طبقا لمبدأ one plan for one head ، وعلى إعتبار أن المصالح الفردية إنما ينبغى أن تخضع خضوعا كاملا ومطلقا للصالح العام general interest فمصلحة المؤسسة ، فوق مصالح الأفراد الجزئية ونزعاتهم الشخصية . ويفرض الرئيس على كل إدارة الرقابة

الدائمة ، مع إتباع الحزم والقدوة الطيبة من الرؤساء ، ومكافأة الأفراد ثمنا لما يبذلونه من خدمات ، عن طريق الحوافز والأجور العادلة ، ومن الأسس الجوهرية للادارة عند فايول مبدأ تدرج السلطات ومركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ ، وترتيب الأشياء والأفراد ووضع الرجل الصحيح فى المكان المناسب Right Man in the right placo وإستخدم مبدأ المساواة وإستقرار العمل وهو دليل استقرار الادارة وبدون هذه المبادىء على حد تعبير فايول ، يعيش الإنسان فى ظلام ، وهذه هى أسس أو مبادىء الادارة ، وهى المنارة التى نسترشد بها لمعرفة الطريق .

والإدارة الرشيدة ، تعتمد على التخطيط planning والتنظيم organizing والقيادة والتنسيق والرقابة control ـــ حيث أن الادارة تعنى عند فايول النظر إلى المستقبل managing means looking ahead . مما يؤكد أهمية التخطيط ودور التنظيم والقيادة command . أما التنسيق فهو تحقيق الانسجام بين مختلف أوجه النشاط فى المنشأة بقصد تيسير عملها . عن طريق تعاون قادة المشروعات Business heads . فمن الخطأ أن يأخذ الرؤساء بمبدأ فرق تسد ، أو فرق تحكم divide and rule .

مبتكرات « جلبرت » « جانت » :

لقد استخدم « فرانك جلبرت Gilbreth » وزوجته ، أثناء إجراء التجارب فى ميدان العمل الادارى . الكثير من المبتكرات الحديثة مثل التصوير الفوتوغرافى السريع ، وذلك بقصد النجاح فى محاولتها للحصول على « سجل كامل وخاص » بكل التفصيلات الجزئية المتعلقة بكل أو بعض « حركات العمل المطلوبة » وكان جانت Gantt[1] من الرواد الأوائل لمدرسة الإدارة العلمية ،وكان من أشد أنصار تايلور . ولقد ذهب جانت إلى أن الإدارى الناجح عليه ألا يتسم بالغلظة

(١) ولد هنرى لورنس جانت Henry Laurance Gantt عام ١٨٦٦ فى ولاية مريلاند فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهو معاصر لفردريك تايلور . وتخرج جانت فى جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins .

ودرس الهندسة فى معهد ستيفنسون ، وأسهم جانت فى وضع جداول ورسوم بيانية باللوغاريتمات . ولقد أهتم بالأجور وبطرق تحديدها ووضع حصة للأجور المرتبطة بالعلاوات the Gantt task and Bonus Plan استناداً إلى مبدأ الأجر الثابت للفترة الزمنية المحددة ، مع زيادة العلاوات والمكافآت كلما ازداد الانتاج فى فترات زمنية محددة بأرقام قياسية.

والقسوة، وعليه أن يتفهم طبيعة العمال ، وأن يسلك إزاءهم سلوكا يحظى بتقديرهم . وكان من رأيه أن المادة لاينبغى أن تكون هى « القوة الدافعة فى الانتاج» ، ولذلك ينبغى الاهتمام بالإنسان الصانع ، الأمر الذى معه اهتمت دراسات « جانت » بالخرائط والرسوم البيانية ولقد صمم عدداً من هذه الخرائط . منها ما يتعلق بالآلة وحركتها وعمرها وانتاجها وطريقة تشغيلها ، وصيانتها . ومنها ما يتعلق بالعامل وإنتاجيته ، وعرفت هذه الخرائط باسم خرائط جانت The Gantt charts . ولقد وضعت بقصد الرقابة ووضع الجداول لمعرفة الإنتاج وتكلفته Charts for control of production Schedules حيث كان جانت يهتم بدراسة الوقت الضائع ، مما لايدخل فى إنتاج السلعة .

منهج العلاقات الانسانية :

ولقد اعترض « إلتون مايو Mayo » على فردريك تايلور ، حين نظر الثانى إلى الحافز الاقتصادى كأهم الحوافز الإنتاجية . بينما نظر « فايول » إلى أهمية العلاقات الإنسانية Human Relations وأثرها فى الجوانب النفسية والفكرية والعاطفية . وكان « مايو » هو أول علماء الإجتماع الإدارى بالمعنى الحقيقى ، لأنه أول من يستخدم علم الإجتماع فى الإدارة كما كان أول العلماء الذين انتهجوا منهجاً إنسانيا فى التنظيم والإدارة ، ضد رتابة أو مادية عصر الآلية السائدة Dully Mechanicel age .

وفى شركة « وسترن اليكتريك Western Electric »[1]أجرى «إلتون مايو» مع فريق من معاونيه . وعلى رأسهم « فربترروتلزبرجر Rothlisberger » عدداً من

---

(١) لقد ظهرت عبقرية « مايو » بتجاربه المعروفة التى مزجها بدراسات سيكولوجية وسوسيولوجيه فى الادارة والانتاج ، نظراً لدراساته فى علم النفس وإشرافه فى البحوث الصناعية industrial Research فى جامعة هارفارد وبخاصة فى قسم الدراسات العليا لكلية إدارة الأعمال وهى نفس الكلية التى ظل يعمل بها أستاذاً طوال الفترة ما بين عامى ١٩٢٧ ــ ١٩٤٩ وذاع صيته بعد تجاربه التى أجراها فى مصانع هاوثورن . ولذلك يطبق عليها اسم تجارب هاوثورن Howthorne experiments كما أهتم بمشكلة الكراهيه Antipathy التى نجمت عن الصراع بين العمال والادارة فى بلده الأصلية أستراليا ، حيث كان يحاضر فى جامعة كوينزلاند Queens land university ولقد أهتم مايو بنشر أفكاره ، التى ألقت ظلالا على محاضراته التى ، ألقاها فى نفس الجامعة ، فى موضوع « الفلسفة Philosophy » .

التجارب الخاصة بدور العلاقات الإنسانية فى زيادة الانتاج . وأثر الظروف المادية المحيطة بالعمل على إنتاجية العامل ، وروحه المعنوية ، ولقد أثبتت هذه التجارب أن جو الألفة والمحبة والتعاون إنما يخلق نوعا من المسئولية الجماعية « كحافز جديد نحو العمل » كما تبين أيضا من هذه التجارب أن جو الرقابة Control لم يكن له أى دخل فى زيادة الانتاج ، بل ساعد على العكس جو الحرية Freedom على خلق المعدلات العالمية فى الكفاية الانتاجية .

فليس العامل أداة طيّعة فى أيدى الاداريين يحركونها كيفما شاءوا ، وإنما للعامل ظروفه وشخصيته وإنتاجيته وروحه المعنوية ، باعتباره إنسان منتج ، بل إن العامل هو المنتج الأول The First producer فعلينا الاهتمام به وتنمية قدراته وظروفه وحل مشكلاته .

ولا مشاحة فى أن « العامل المشكل » هو أقل إقل إنتاجاً من العامل غير المشكل، إذ أن مشكلات العامل وظروفه وروحه المعنوية ، إنما يكون لها جميعها صداها فى إنتاجيته العامة فالعامل القانع المستريح ، أكثر انتاجا ونشاطا من العامل المضطرب نفسيا واجتماعيا. فعلينا أن نشبع دائما فى العمال الكثير من الجوانب النفسية والروحية والإنسانية ، ودون أن نقتصر على مجرد الحوافز المادية ، وحدها ، وبشرط أن ننظر أولا إلى العامل النفسى ثم العضوى ثم المادى . فالعامل انسان له حق الحياة ، ولاينبغى تأييد وجهة نظر « تايلور » التى اقتصرت على « الحافز النفسى » وحده فى المقدمة ، على الرغم من أنه حافز ثانوى للغاية إذا ما قارناه « بالحافز المادى ».

اتجاه مضاد للمدرسة الانسانية :

ولا مشاحة فى أن «حركة العلاقات الانسانية»، قد قامت بحركة مضادة للادارة العلمية . على اعتبار أن الحركة الثانية إنما تنظر إلى الانسان على أنه أداة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الانتاج والربح . وبأقل قدر ممكن من الأجر والتكلفة والوقت والجهد . أى أن الهدف هو زيادة الانتاج ، وبأقل تكلفة أو نفقة ممكنة .

وإذا كانت التجارب قد أيدت «المنهج الانسانى» فى الادارة ضد المنهج اللا إنسانى ، فقد عارضت حركة العلاقات الانسانية ، كل مزاعم فلسفة الادارة

العلمية إلا أننا ينبغى أن نعلن أن المدرسة الانسانية قد غالت فى تقدير أهمية العوامل النفسية والعاطفية والحسية والمعنوية Moral ، حيث أن مجرد الاهتمام بالعامل النفسى وحده ، إنما سيؤدى ذلك حتما ، إلى التراخى ، وعدم الانضباط، فالاهمال واللامبالاة فالتسيب ، ولاشك أن الكفاية الانتاجية ، إنما تتأثر بقوة أو بضعف الطاقة الانتاجية والبشرية ، ولاشك أن معدلات الانتاج إنما تنخفض إلى حد كبير ، مع غياب الادارة ، باعتبارها أكبر عضو قيادى وانتاجى .

ويعتبر « دافيد بل David Bell »[1] على رأس الاتجاه الذى ساد لكى يعترض على « المدرسة الانسانية » ، على اعتبار أن مجرد اعطاء عنصر « الشعور بالانتماء» Sense of Belonging كل القيمة والأهمية هو أمر بغيض على حد زعم «دافيدبل» الذى أنتقد « تجارب هاوثورن » بل واطلق المسميات الساخرة على «مدرسة العلاقات الانسانية » التى اعتبرها « موضة السنوات الأخيرة » .

ولقد بلغت الحملة ضد حركة « العلاقات الانسانية » ذروتها على يد « مالكولم ماكنير Malcolm Mcnair » وهو أحد أساتذة جامعة هارفارد ، وفى مقال له بعنوان Too much human relation هاجم المنهج الانسانى ، وعبر عن قلقه من الاهتمام الجارف بالجوانب الانسانية على حساب الكفاية فى أداء العمل ، واتقانه كماً وكيفاً . وظهرت بعد ذلك النظرة التحليلية فى ضوء القيم العلمية وبدأت الكتب المرجعية عن الادارة تعنى بدراسة ماذا ولماذا ؟ فى مجال الادارة كعلم ينصب على واقعها التجريبى ، على نقيض الاتجاه الماضى أو السابق الذى كان يعنى بالمبادىء والأحوال ، متمسكا بقضايا المنهج الانسانى وحده . ولاشك أن الادارة هى فى النهاية علم يتزايد الاهتمام به فى مؤسساتنا المعاصرة ، ويرى كل من هالبين Halpin وكولا دارسى Coladarci وجتزيلز Getzels أن الادارة ميدان تطبيقى، يطبق فيه علماء الادارة منهج العلم باستخدام التكنولوجيا وكافة الأساليب العلمية .

---

(١) كان دافيد بل محررا فى مجلة Fortune Magazine ثم انتقل إلى جامعة كولومبيا بأمريكا لكى يعمل كأستاذ لعلم الاجتماع الادارى . ومن إدعائاته أن التطور إنما يحدث فى كل شىء فيقول « وتماما كما يحدث فى عالم الأزياء فإنما يحدث التطور ويجرى أيضا فى عالم الفكر الادارى » ، ثم اسمى مدرسة العلاقات الانسانية موضة السنوات الأخيرة The vogue in recent Years of human relation .

وختاما ــ لقد تعددت المناهج فى دراسات علم الاجتماع الحضرى وكلها تدور فى اطارات امبيريقية وتطبيقية باستخدام منهج العلم الوضعى ، وهناك مناهج أخرى تقنية وطرق للبحث عملية ، وهى مناهج تجريبية وحقلية ، أكثر منها منطقية ونظرية وتلك هى النظرة التى تفرض علينا الالتفات إلى أهمية المناهج حقليا مع تطبيق طرق البحث على نحو تجريبى ، الأمر الذى يستوجب الاهتمام بمناهج البحث الحقلى والميدانى .

وما يعنينا من كل ذلك ــ هو أن مناهج البحث فى علم الاجتماع الحضرى قد تعددت وتنوعت ، طبقا لتعدد القضايا وتعقد الآراء ، حول طبيعة الحضرية وكل ما يدور فى بنية الثقافات الحضرية ، إلا أن كل هذه المناهج مجتمعة « قد ألقت لنا ضوءاً كاشفا على مجموع ملامح أو سمات شخصية الانسان الحضرى » .

الباب الثاني

بين الحضارة والحضرية

* ★ الثقافة الحضرية .
* ★ وظيفة الحضارة .
* ★ تطور الحضارة على الأرض .
* ★ بين الثقافة والحضارة .
* ★ التكنولوجيا والحضارة .
* ★ ثقافات حضريفية Rurban .
* ★ الايكولوجيا الحضرية .

تمهيــــد :

إذا ما وصفنا مجتمعا بأنه « متحضر » أو « متأخر » أو « نام » فإنما نطلق فى الواقع مجموعة من الخصائص السوسيو اقتصادية ، وكذلك الحال حين يحكم الانسان لأول وهلة على اقليم أو « كفر » أو دائرة ثقافية بأنها منطقة « قروية Rural» أو « متخلفة » أو « بدائية Primitive » أو حين يرى ويشاهد أمام عينيه اقليما بدويا أو صناعيا industrial . فكلها أحكام ثقافية أو حضارية ، وهذا هو السبب الذى من أجله أطلق عالم الاجتماع العربى « ابن خلدون » فى مقدمته المشهورة اسما حضريا لعلم الاجتماع هو « علم العمران » .

الثقافة الحضرية :

تعتبر الثقافة عند علماء الاجتماع الحضرى ، هى ذلك الكل الذى يشتمل على النتاج الاجمالى أو المجموع الكلى « للغايات البشرية » ويميز الحضريون أيضا بين «الثقافة » و « المجتمع » فيرون أنه إذا كان المجتمع يتحقق فى جماعة أو زمرة تعيش وتعمل فى معيه ، فان « الثقافة » هى « نمط الحياة » أو « طريقة العمل » وأسلوب المعيشة بالنسبة للجماعة ، وكيفية مشاركة الأفراد فى الفكر والعمل .

ويحدد الحضريون المنهج العلمى لدراسة الظاهرات الحضرية بملاحظة السلوك ودراسة وفهم الانتاج الانسانى الجمعى ووظائفه ، بالاضافة إلى معرفة مدى التغيرات التى طرأت على البيئة الطبيعية بانتاج الأشياء الاجتماعية Choses Sociales بمعنى أن الثقافة هى مجموع جهود الانسان ، تلك التى تلخصها كلمة « الحضارة » حين تتمثل فى سلوك الانسان أو نزوع بنى البشر نحو تغيير ظروف البيئة الطبيعية ، والسيطرة عليها .

والثقافة عند عالم النفس الاجتماعى هى « مجموع العادات الاجتماعية » ، على اعتبار أن مسائل « الثقافة الحضارية » هى أقرب المسائل صلة بعلم النفس التربوى وبنظرية التعلم بالذات . حيث أن انتقال الثقافة وتراكمها إنما يتمان باستخدام عمليتى التعلم والتربية. ولذلك أعلن « فورد Ford » فى تعريفه للثقافة بأنها عبارة عن« مجموع الطرق التقليدية المتبعة فى حل المشكلات » أو هى الحلول المتعلمة الموجودة بطريقة مسبقة .

ويسوق العالم الانثروبولوجى البريطانى أدوارد تايلور Edward B. Tylor ، تعريفاً مشهوراً حين يحدد مفهوم الثقافة بقوله :

« أنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة ، والفن ، والاخلاق والقانون ، والتقاليد والعادات التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى مجتمع » .

إلا أن هذا التعريف يقتصر فقط على « محتوى الثقافة الحضرية » ، فهو تعريف قاصر وناقص ، إلا أنه مجرد قائمة بمحتويات الثقافة ، ولكن الحضرية هى « تنظيم Organization » قبل أن تكون « محتوى » فلم يفعل تايلور إلا أنه قام بعملية وضع أو « رص » لمحتويات الثقافة ورصّها رصا، بحيث أننا إذا ما استثنينا كلمة « كل » لتفرق وتبعثر هذا المضمون الذى جمعه أو « رصه » دون ما «تنظيم» أو تنسيق .

وقد يفسر البيولوجيون تراكم الثقافة الحضرية استناداً إلى « الوراثة الاجتماعية » إلا أننا نجد أن هذا التعريف البيولوجى لايخلو من أنتقاد وتجريح ، حيث يوحى الينا أن الانسان يكتسب ثقافته مثلما يكتسب جيناته[١] .

فالثقافة عند البيولوجيين هى اكتساب وراثى أو فطرى تنتقل إلى الانسان دون أن يبذل أى جهد فى التكيف معها أو حتى فى مقاومتها ، إلا أننا فى الرد على وجهة النظر البيولوجية ، نقول ان الانسان الحضرى ليس مجرد الناقل أو الحامل السلبى لانماط الثقافة الحضرية وسماتها العامة ، ولكن الانسان الحضرى هو خالق للثقافة وصانع لها ، فللانسان دوره الايجابى الفعال فى عملية النقل الثقافى ، ولايقتصر دوره على الحمل السلبى أو النقل المحايد ، ومن هنا تتهافت وجهة النظر البيولوجية فى تحديد مفهوم الثقافة .

وقد يفسر التاريخيون تطور الثقافة الحضرية استناداً إلى أنها «رواسب التاريخ » على أعتبار أن « الثقافة عندهم هى مجموعة من عمليات تاريخية الأصل » ، وتراكم

(١) الجينات Genes بالمعنى البيولوجى والتشريحى هى عبارة عن مجموع الموروثات الفطرية التى يتلقاها الجنين بالوراثة كأول هدية بيولوجية من أمه وأبيه ، فقد يرث منهما لون العين والذكاء وشكل البشرة ومقطع الشعر وطول القامة .

خلال السياق الحضارى أو تترسب فى الزمان التاريخى ، فتنمو وتنتعش وتترقى وتنتقل وتهاجر من منطقة إلى أخرى وقد يقال ان الثقافة هى عملية انتقائية توجه ردود أفعال البشر نحو منبهات داخلية وخارجية ، وهذا مفهوم سيكولوجى يتضمن دراسة « المنبه » أو « المثير » بالاضافة إلى « الاستجابة » أو «النزوع » . حيث أن طبيعة التكيف الانسانى انما تختلف وتتمايز من مجتمع إلى آخر ، ومن هذا التكيف البشرى تظهر بعض الملامح البيولوجية العلمية التى نشاهدها واضحة فى طول القامة وشكل الأنف ومقطع الشعر وحجم الجمجمة . وفى أثناء عملية التكيف بالبيئة الطبيعية ، يصنع الانسان ثقافته ويشيد حضارته .

التكيف الحضارى :

يقول زكرمان Zuckerman أن الظواهر الحضارية لاتصدر عن أحداث فسيولوجية physiological events ، حيث يوجد تمايز كامل بين الاستجابات الفسيولوجية physiological Responses للحيوان وبين النزوع أو السلوك الثقافى Cultural behavior للانسان فالحضارة بالضرورة هى ظاهرة انسانية[1] .

وتتضمن كل ثقافة بعض المظاهر والجوانب التى يمكننا أن نصنفها فى مجموعتين من الظواهر والسمات الحضارية . والمجموعة الأولى وهى الخاصة بسمات الثقافة المادية material culture وتتصل بدراسة المنتجات المادية ، ومعرفة الموضوعات أو الأشياء التى تشبع الحاجة أو الرغبة ، مثل الأدوات والآلات والأسلحة وبناء المنازل ، ونقوش المعابد وصنع القوارب ، وكل مايستخدم فى عمليات السحر وأغراض الدين ، كما يدخل فى نطاق الثقافة المادية ، كل مايندرج تحت مايسمى بالتكنولوجيا Technology .

أما المجموعة الثانية الخاصة بالثقافة الاجتماعية Social Culture وتتعلق بدراسة كل أشكال الثقافة اللامادية non material كألوان الفن والمعرفة وضروب الفلسفات والقيم والمعتقدات ، وكل ما يتصل بالجوانب الروحية Spiritual فى المجتمع .

---

(1) Herskovits, Melville, Cultural Anthorpology, Knopf, New York, 1964. p. 324.

ويمكننا أن نؤكد أن دراسة الثقافة الحضرية إنما تستدعى فوراً أن نتطرق إلى ميدان الايكولوجيا Ecology ، باعتبارها ذلك العلم الذى يتناول دراسة التكيف البشرى بالبيئة الجغرافية ، ومناشط الانسان فى تلك البيئة الفيزيقية . أثناء تجواله لجمع الطعام أو سعيه للحصول عليه مستخدما مختلف الأسلحة والأدوات والشباك والفخاخ التى ينصبها للايقاع بالحيوان .

كما يدخل أيضا فى هذا الصدد ، دراسة كيفية بناء الانسان لمأواه ، سواء أكان منزلا من الطوب أو بيتا من الخشب ، حين نشاهد أشكالا من المأوى ، مثل خيام البدو ، وأكواخ البدائيين ، وسراديب الاسكيمو ، وكلها أشكال ثقافية مختلفة ، وكيفيات متنوعة يأوى اليها الانسان كى يحمى نفسه من قسوة الجو وتقلباته من برد قارس إلى حر لافح .

ويمكننا أن نتوصل فورا إلى فهم مضمون الثقافة الاجتماعية وسماتها ، إذا ماحاولنا دراسة ملكية الأرض وشكل التنظيم الاقتصادى للانتاج ودراسة المعتقدات الدينية والعمليات السحرية .

تلك هى عناصر الثقافة الاجتماعية ، فى المستوى الفيزيقى أو المادى للبيئة الجغرافية بقصد اشباع حاجات الانسان المادية والطبيعية وفى هذا الصدد يمكننا أن نتساءل : ما هى مختلف السمات التى تبرز الثقافة البدائية وتميزها عن غيرها من سائر الثقافات المتقدمة ؟

من هنا يمكننا عقد المقارنات بين ثقافة الصيد وجمع الطعام Food gathering فى المجتمعات الاسترالية البدائية ، وبين ثقافات أوربا وأمريكا التى تمتاز بالحضارة ، وهناك خصائص رئيسية تتميز بها سائر الثقافات البدائية المتخلفة ويمكن حصرها أو تحديدها فى النقاط الخمس الآتية :

١ ــ تتميز المجتمعات البدائية بالجهالة والأمية illiteracy ، فالثقافة البدائية لاتاريخ لها ، نظراً لكونها ثقافات متخلفة لاتعرف الكتابة ، الا أن هناك رغم ذلك ثقافات بدائية ذات حضارية مثل ، الازتيك Aztic و « المايا » فى أمريكا الوسطى والجنوبية لما تمتاز به هذه الحضارات من تاريخ حافل بالتراث الثقافى .

وما يعنينا من كل هذا هو أن الثقافة البدائية تتميز بالبساطة ، على حين أن الثقافات المتقدمة ، فلها تاريخها وماضيها مما يفسر تعقدها ، هذا ما يميزها عن الثقافات الأولية ذات التاريخ غير المكتوب . بمعنى أن الكتابة سمة أساسية من سمات الثقافة والحضارة ، حيث تخلف لنا تراثا مسجلا عن المعابد والآثار .

٢ ــ يتميز التنظيم الاجتماعى للثقافات البدائية بالبساطة . حيث يتألف من مجموعات صغيرة ومحدودة من التجمعات الانسانية والبناءات المعزولة مثل العشيرة Clan والقرية والقبيلة ، على حين أن حدود الثقافات المتقدمة هى حدود الدول والقوميات بل والامبراطوريات[١] .

٣ ــ ان الثقافة البدائية ذات نظام « تكنولوجى منخفض » المستوى بسيط المحتوى ، يتمثل فى مجموعة من الحراب أو السهام المستخدمة فى الصيدأو الحرب ، مما يفسر لنا أن تكنولوجيا البدائى هى تكنولوجيا الصيد وصناعة القوارب أو القسى والرماح .

٤ ــ تقوم العلاقات الاجتماعية فى الثقافات البدائية استنادا إلى أنساق القرابة Kinship وصلة الدم والجوار المكانى ، الأمر الذى يفسر لنا طبيعة التجمعات البدائية .

٥ ــ ينعدم التخصص الاقتصادى فى الثقافات البدائية ، نظرا لبساطة تقسيم العمل الاجتماعى ، وتشابه الوظائف التى يقوم بها الانسان الفرد ، حيث يكون التضامن بين البدائيين آليا . وهو ما يفسر طبيعة السلوك الاستاتيكى الثابت بين البدائيين ، حيث يمكن التنبؤ به مقدما ، تماما كما هو الحال فى مجتمعات النمل وخلايا العسل[٢] .

ومن مميزات الثقافات البدائية ، انها ثقافات معزولة isolate ولعل هذه العزلة الثقافية هى السبب المباشر فى بساطة هذه المجتمعات وبداوتها . الأمر الذى لم يتح

(1) Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthropology vol L, Oliver and Boyd. Edinburgh, Third Edition 1960 p. 5 .

(2) Durkheim, Emile., De la Divison du Travail Social, Alcan, Paris. 1926 p. 85.

وأنظر أيضا فى هذا الصدد : كتابنا « علم الاجتماع الفرنسى » صفحات ١٧٩ ــ ١٨٩ دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

لها فرصة الاحتكاك الثقافى Cultural Contact بسائر المجتمعات والثقافات الأخرى. ومثالنا على ذلك الثقافات الاسترالية التى تقطن شمال غينيا الجديدة Guinea وتلك المجتمعات البسيطة التى تقطن صحراء كلهارى فى أفريقيا الوسطى مثل مجتمعات البانتو Bantu و«البوشمن Bushmen» و «الهوتنتوت Hottintots».

ولقد ظهرت النزعة التطورية الثقافية Cultural evolutionism كرد فعل أو انعكاس لظهور كتابات داروين ، وبخاصة كتابه الذى أصدره عام ١٨٥٩ عن « أصل الأنواع Origin of species » ومن هنا دخلت النظرية الدارونية فى صلب الانثروبولوجيا الثقافية . بمحاولة تطبيقها على الحياة الاجتماعية وتطور الثقافة وهذا هو ما يؤكده هرسكوفتز[1] Herskovits » فى كتابه «الانثروبولوجيا الثقافية» .

ولقد كانت كلمة « تطور evolution » تعنى قبل داروين مايقابل كلمة تحسين أو تحول development وبعد صدور تلك الكتابات الدارونية ، اتجهت الانظار نحو الدراسات الاثنولوجية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فكانت البدايات الأولى للنظرية الاثنولوجية التطورية بظهور الاثنولوجيا الالمانية عند مشاهير الكتاب الالمان من علماء العهد القديم ، وعلى رأسهم « فيتز Waitz » ز « باستيان Bastian » و « باخوفن Bachhofen » وبصدور كتابات علماء الاثنولوجيا الانجليز من أمثال هنرى مين Maine » و « ماكلينان McLennan » ، و « تايلور Tylor » هؤلاء الذين ظهروا فى الفترة ما بين ١٨٥٩ــ١٨٦٥ .

وظيفة الحضارة :

يضطلع الاتجاه الوظيفى بدراسة الثقافة استنادا إلى فكرتى « البناء » و «الوظيفة» مع تطبيق المنهج التكاملى فى تفسير سائر الظاهرات الاجتماعية وتحليل الوقائع والسمات الثقافية .

وتستند النظرية الوظيفية فى دراسة الثقافة البدائية إلى بعض المبادىء الضرورية التى فى ضوئها نستطيع القيام بالتفسير العلمى لسائر الثقافات البدائية حيث أن سمات الثقافة أيا كانت بدائية أم حضرية ، ليست مجموعة من الأجزاء المبعثرة

---

(1) Herskovits Melville, Cultural Anthropology. New York 1964, p. 431.

وإنما تقوم مكونات الثقافة باستنادها إلى « وحدة من العناصر الثقافية المتكاملة » التى تتجمع فى كل متكامل « لا تناثر فى عناصره ، أو تباعد فى سماته»، بالنظر إلى الثقافة « كوحدة عضوية Organic Unit » يرتبط كل عنصر فيها بسائر العناصر والأجزاء الأخرى .

وفيما يتعلق بانساق الحضارة ومكوناتها ، نجد أن البناء الحضارى إنما يتكون من مجموعة من الانساق والنظم التى ترتبط بمختلف مناشط الانسان وجهوده كالنظم الايكولوجية والاقتصادية ، والتنظيم الاجتماعى والسياسى ، كما ترتبط أنساق الثقافة بطقوس الدين وعمليات السحر وتجاريبه .

بمعنى أننا ندرس هذه الانساق والنظم فى علاقتها بعضها بعضا فى وحدة كلية متكاملة ، حيث تسعفنا تلك الوحدة العضوية للثقافة بقضاء أو أشباع الحاجات الملحة التى يرغب الانسان فى الحصول عليها ، لأنها ببساطة تشبع الحاجات والشروط الضرورية لحياة الكائن الانسانى ، كالحاجات البيولوجية Biological والحاجات السيكولوجية ، بالاضافة إلى تحقيق الحاجات الاجتماعية .

ولم يلتفت علماء الانثروبولوجيا الحضارية القدامى إلى تلك الوحدة التكاملية التى تمتاز بها أجزاء الثقافة ، ولم ينشغلوا بدراسة العوامل الديناميكية dynamic factors التى تقوم بدورها داخل اطار الانساق والنظم الاجتماعية ، ودراسة العلاقات القائمة بين تلك الانساق والنظم ذات السمات البنائية المركبة .

أما علماء الانثروبولوجيا المحدثين ، فقد التفتوا إلى دراسة مايسمى بالبناء الاجتماعى « استنادا إلى اتباع الطريقة التحليلية»، فقامت الدراسات الحقلية Field, Work، التى تعتبر الوسيلة الوحيدة لتحقيق المنهج الوظيفى Functional Method.

فقد استند المنهج القديم فى ميدان الانثروبولوجيا الاجتماعية ، إلى الدراسة الجزئية لماضى النظم الاجتماعية ، واتباع المنهج التاريخى الظنى Conjecural History أو منهج التاريخ التخمينى ، الذى يتناول أو يتتبع النظم الاجتماعية بقصد التوصل إلى أصولها الأولية .

كما تقوم مناهج القدماء على دراسة تلك الاختلافات القائمة بين سائر

المجتمعات البشرية والحضارات القديمة والحالية ، دون الالتفات إلى ماينها من مماثلات أو مشابهات . أى أن قدامى الانثروبولوجيين قد أنشغلوا فقط بدراسة أوجه الاختلاف بين المجتمعات ، دون الرجوع إلى أوجه الشبه القائمة بينها .

أما المنهج الانثروبولوجى الحديث ، فيهدف إلى التوصل إلى تحديد الحاجات الرئيسية لبنى البشر ، تلك الحاجات الضرورية التى قامت بفضلها مختلف ألوان الثقافات البدائية ، كما يتناول المنهج الحديث فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دراسة مختلف الطرق الاجتماعية المتبعة فى أشباع هذه الحاجات الملحة فى سائر المجتمعات البدائية .

ويمكن تقسيم حاجات الانسان الرئيسية إلى فئات ثلاث ، أو لها الحاجات الأولية primary Needs وهى الحاجات البيولوجية باعتبارها حاجات أو شروط ضرورية فى تكوين البناء العضوى للكائن البشرى .

ومثالنا على تلك الضرورات البيولوجية الملحة تتضح وتتأكد صلتها فى كل مايتعلق بحاجات الكائن العضوى كالجوع Hunger ويعبر عن الحاجة إلى الطعام ، ومثل الجنس Sex وما يرتبط به من ضرورات ، وكلها حاجات فسيولوجية بحتة لها ردود أفعالها فى السلوك الاجتماعى وهى حوافز أساسية لها أثرها الثقافى والحضارى ، باعتبارها عوامل جوهرية لتقدم أو تطور الجنس البشرى .

ففيما يتعلق بالجنس مثلا ، لا تقف الحاجة إلى الشريك الجنسى عند مجرد اشباع الحاجة البيولوجية ، فهذه عملية مؤقتة من الناحية الفسيولوجية ولكنها رغم ذلك تستمر بالضرورة فى مراحل الحمل والانجاب ولقد أكدت « مارجريت ميد Margaret Mead » أن الفروق المزاجية بين الرجل والمرأة تحددها أنماط الثقافة ، فالعملية الجنسية وما يستتبعها من نتائج بيولوجية تحاط جميعها بسياج من سمات الثقافة ، هذا ما تؤكده ميد فى كتابها « الجنس والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية» Sex and temperament in three Primitive Societies . ومن هنا يبدأ الغطاء الثقافى كى يقوم بوظائف ضرورية فى عملية تربية الطفل ، بالنظر إليه كمخلوق عاجز ضعيف ، ينبغى رعايته وحمايته واطعامه حتى يتمكن من مواجهة الحياة .

وتتطلب كل تلك العمليات والوظائف التى تنجم عن اشباع الحاجات البيولوجية ، والتى تبدأ عند الانتهاء من العمليات الفسيولوجية ، إلى اتباع بعض الطرق والمظاهر الثقافية ، وذلك أثناء عملية « رعاية الطفل » وطريقة تربيته وتثقيفه وأسلوب الأسرة فى سد حاجاته إلى الطعام والشراب واللعب واشباع حاجته إلى الأمن .

فالحاجة هى الدافع الأول الذى يثير « التوتر » وطريقة الاستجابة أو الاشباع هى طريقة مستمدة بالضرورة من نمط أو غطاء الحضارة،فقد تدعو الحاجة إلى الدفء إلى ارتداء الفراء أو الحياة فى سراديب ، كما هو الحال فى مجتمعات الاسكيمو وثقافاته البدائية ، على العكس من ذلك نجد أن البدائى فى الغابات الحارة يقطن الكوخ ويغطى القليل من أجزاء جسمه للتكيف مع مناخ من نوع خاص .

الغطاء الثقافى أو الحضارى :

الثقافة هى « وسيلة وقائية » ، أو هى « غطاء متوارث » يتقى به الانسان غوائل البيئة ، وقسوة الظروف ، ولذلك قيل إن الانسان مثل الحيوانات اللافقارية الصدفية أو القشرية ، يعتمد فى بقائه على هيكل خارجى أو غلاف ثقافى ، يتألف مما يصنعه الانسان ويقوم به من جهود وأعمال ، وما يتركه من مخلفات ، كالكهوف ، والأكواخ والسراديب والمنازل والقرى والمدن التاريخية ، وسائر أشكال الثقافة المادية ، حيث يدرس المؤرخ الثقافى أو « الأثرى » ماضى الانسان فى ضوء تراثه ومخلفاته فنجد فى عالم الآثار أن « الاحجار تتكلم » فيستخرج الباحث الاثرى من دراسته للتراث الثقافى بعض المعانى الجديدة التى تعيد من تركيب الماضى فى صور وأشكال جديدة .

ومن هنا فان « الفن » عند الاثرى ، هو ظاهرة ثقافية تشبع حاجات الانسان إلى القيم الجمالية ، فأصبح الفن لغة رمزية **Symbolic Language** حين تتكلم الاحجار كى تحكى تاريخ الفكر والوجدان .

وبهذه الوسيلة أمكن ربط الفن بأجزاء التاريخ وأنساق الثقافة ، كوسيلة للتعبير

والاشباع لأرقى حاجات الانسان كما تتمثل فى مظاهرها العليا فى الذوق والفكر والوجدان .

وبالاضافة إلى ذلك فان الحاجة إلى الطعام ، إنما تفسر لنا بوضوح كيف ظهرت ثقافات الصيد والقنص ، وجمع الطعام Food gathering وكيف ابتكر الانسان كافة الاسلحة والأدوات البدائية باعتبارها أهم سمات الثقافة المادية فى المجتمعات المتخلفة حضاريا ، حيث مازال الانسان البدائى يستخدم هذه الأدوات والأسلحة كالنبال والحراب والسهام ، نظرا لحاجته لها فى صيده وقنصه وحربه .

ولقد كان الانسان الأول جامعاً للطعام كما ابتكر واستخدم أدوات صيد الاسماك كالشباك والصنانير والخطاطيف والقوارب ، وكلها سمات أساسية فى ثقافة الصيد . وفى مجتمعات بدائية أكثر تطورا وتقدما كالمجتمعات القروية والثقافات الرعوية ، استخدم الانسان مختلف الأدوات الأكثر تركيبا وتعقيدا وخاصة فى ميدان الزراعة وفى المناطق الجبلية والرعوية مما يؤكد أن الحاجة إلى الطعام قد أدت إلى أشباعها بمختلف أساليب وطرق وأدوات الثقافة . أى أن ثقافة الصيد والقنص بأسلحتها وحربها إنما صدرت كصدى أو رد فعل لحاجة بيولوجية ملحة ، مثل الحاجة إلى الطعام ، وجملة القول فان الثقافة هى استجابة لحاجات بيولوجية صرفة فلكل حاجة أولية primary Need استجابة ثقافية Cultural Response[1] .

كما أن سد واشباع هذه الحاجات البيولوجية ، قد يصاحبه فى نفس الوقت بعض الدوافع الاجتماعية Social motives ففى ثقافات الصيد والقنص وجمع الطعام، تستند كافة المناشط الاقتصادية والاجتماعية إلى أصول جمعية تفسرها ظاهرة تقسيم العمل division of labor حيث نجد فى المجتمعات الاسترالية البدائية، تقوم النساء بعملية جمع الطعام ، ويقوم الرجال بصيد الاسماك وقنص الحيوان ، كما نجد أن النساء حين يذهبن فى جماعات للعمل ، إنما لايذهبن للزيادة فى جمع البذور والجذور والثمار ، ولكن بقصد الصحبة والعمل فى جماعة وفى مشاركة جمعية . كما يتعاون الرجال أيضا فى المجتمعات الاسترالية أثناء ممارسة

(1) Piddington, Ralph; An Introduction to social Anthropology, Vol. I, Oliver and Boyd, Edinburgh, 1960. p. 212.

عمليات الصيد تحقيقا لمبدأ المشاركة الجمعية ، وتأكيدا لوظيفة الدوافع الاجتماعية فى القيام بكافة مظاهر النشاط الجمعى[1] .

بين الثقافة والحضارة :

لكل مجتمع درجة من الحضارة أو الثقافة ، ونقصد بذلك كل الماديات والمعنويات القائمة فى مجتمع ، والتى تنتقل بالتربية من جيل إلى جيل ، والثقافة هى البيئة التى خلقها الانسان لنفسه ، وإذا كان للحيوان ما يحميه من قوى وخصائص وأسلحة جسمية ، إلا أن للانسان أدوات خارجة عن ذاته يحمى بها نفسه ، فاصطنع الانسان هذه الأدوات للدفاع ، وأدخل عليها التحسينات ، ثم هذبها وورثها لأجياله عن طريق وسائل النقل الحضارى ، كالتجارة والحرب والغزو وطرق التحضير Acculturation ووسائل الحراك أو الديناميكا الثقافية . .

مفهوم الحضارة :

وغالباً ما تتحقق الحضارة فى الجانب المادى من الثقافة Material aspect of Culture فاذا ما تجسمت الحضارة المصرية القديمة فى آثار الفراعنة كما نشاهدها فى المتاحف ، ونراها على الطبيعة فى أهرام الجيزة أو معابد الأقصر ، فهذه هى حضارتنا ، أما الثقافة فلا تتجسم فقط فى آثارنا التى يدرسها علم «المصريات»، وإنما تتحقق فى معنويات وسلوكيات «وأشياء أخرى غير ملموسة كالقيم وطرق التفكير Custom وعادات العمل Habits وغالباً ما تصاغ طرق التفكير فى «تقاليد» بينما تتحقق العادات فى أعمال وشعائر تتكامل وتتساند مع التقاليد التى هى طرق الفكر ووسائل التعبير التى لا تتناقض مع النظرة إلى الحياة . ولاشك أن مشروعات الصناعة ومؤسسات التجارة هى ثمار من حضارة وثقافة ، ومع قياس درجة الصناعة ومستوى التجارة ، سواء فى المجتمع الريفى أو المجتمع الحضرى نستطيع أن نتبين مدى التقدم العلمى والفكرى فى كل مجتمع من المجتمعات[2].

وإذا ما كانت هناك وحدة تكنولوجية بين سائر المجتمعات الحضرية نجدها

---

(1) Ibid : p. 222.

(٢) د. محى الدين صابر ، التغيير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس الليان ١٩٦٢ .

تتحقق فى مدى تقدم نظم البلديات والمرافق وطرق المرور ، وخدمات النور والمياه والتليفون ورصف الطرق ، وحركة مسار القطارات وأدوات النقل ، كل هذه وسائل يمكن توحيدها تكنولوجياً بالتنمية الحضرية الدائمة والمستمرة ، وقد تعترض عملية التنمية ، عوائق ثقافية نابعة من البيئة ، وموانع تحجرت فى عادات وتجمدت فى تقاليد ، وذلك هو السبب الذى من أجله ظهرت الثغرة الثقافية Cultural gap التى فصلت بين الايديولوجيات والتكنولوجيات ، فالأولى أبطأ والثانية أسرع ، ولذلك تسبق الماديات المعنويات ، ويمكننا استيراد التكنولوجيات ، كأسلحة تشيكية أو قطارات يابانية ، وهى عناصر أو أجزاء من ثقافة دخيلة تغزو ثقافة أخرى أصيلة ، وقد يحدث التكيف السريع مع التكنولوجيا المستوردة ، بتعليم الناس واعدادهم بطرق التحديث Modernization المبتكرة ، حتى يتم التوافق بين التكنولوجيا ومستوى خبرة وثقافة وسلوك الانسان فى المجتمع النائى فيجب أولا وقبل كل شىء أن نرفع من المستوى الفكرى والاجتماعى ، حتى يتم التوافق بين درجة تقدم الآلة ، ودرجة ثقافة الانسان ومدى فهمه لها .

ولذلك تنتشر المخترعات والمكتشفات فى عالم الصناعة والتكنولوجيا بصورة أكبر بكثير من درجة الانتشار الثقافى والفكرى ، فمن السهل أن « نستورد السلاح التشيكى » ومن الصعب القيام بعملية تدريب أو استيعاب للسلاح وليس من السهل أن نتقبل مثلا « اللغة التشيكية » أو التعليم التشيكى فنحن نتكيف مع التكنولوجيا بدرجة أسرع من تقبلنا للايديولوجيات .

التكنولوجيا والحضارة :

تنتشر التكنولوجيا مع النقل الحضرى للصناعات الريفية والقروية ، ولكى تقل المسافة بين المجتمع الحضرى والمجتمع الريفى ، ينبغى أن تنجح المدينة فى تصنيع الريف ، وتشجيع التكنولوجيا الزراعية ، وتطبيق الزراعة الآلية وميكنة جمع ونقل وتوريد المحاصيل فى مواسم الحصاد ، الأمر الذى معه يزداد النشاط الصناعى ، ويتراكم انتاجه سواء فى القرية أو فى المدينة وبالتالى تنتشر مشروعات الانتاج الزراعى، وتنشط الحركة عن طريق الاحتكاك المباشر والمستمر ، بين اقتصاديات القرية واقتصاديات المدينة .

الأمر الذى خلق الحاجة الماسة إلى « بنوك القرى » للقيام بالمشروعات الزراعية، وامتصاص المدخرات القروية ، واستثمارها فى مجال التنمية والتعمير والاسكان .

ولقد كانت التجارة فى موكب الحضارة ، هى المحرك الاقتصادى الأول لدولاب العمل ، حيث كان تعبيد الطرق ، فظهرت المدن التجارية الكبرى على طول طرق التجارة العالمية كالبندقية فى العصور الوسطى ونيويورك وكيبتون وهونج كونج فى هذه الأيام . فخلفت التجارة من المدن التجارية ، أكثر بكثير مما خلفته مشروعات الصناعة من المدن الصناعية الكبرى .

ولذلك ظهرت الصناعات اليدوية المنزلية ، التى تتبعثر مهاراتها التقليدية بين مختلف مناطق وقرى الريف المصرى ، حيث تنتشر المغازل والأنوال فتقدمت صناعة الغزل والنسيج ، وصناعة المفروشات والسجاد ، وإذا كانت الصناعات مبعثرة فى مناطق وقرى الريف ، نجد على العكس من ذلك أن الصناعات كانت مجمعة فى المدن ، حيث تظهر الصناعات التحويلية[1] ، بينما تظهر فى الانماط القروية مشروعات الاقتصاد الاستخراجى التى تنتشر فى سائر مناطق القطاع القروى .

ثقافات حضريفية Rurban :

وحين تنتشر المدنية فى الريف والقرى ، قد نجد نمطاً زراعيا وصناعيا فى نفس الوقت ، فيظهر الريف المطعم بالحضر ، أو الحضر القائم فى قلب الريف فيصبح كل مجتمع صناعى زراعى ، هو بمثابة « البناء الاجتماعى » الذى يخلط ويمزج ويزاوج بين أنماط حضرية وريفية معا . وهذا هو بالضبط ما يقصد بالمصطلح الافرنجى Rurban ، وهو ما أطلقت عليه بكلمة « حضريفى » حين يجمع النمط الثقافى فى وضوح ما بين حضروريف[2] .

---

(١) يقوم الاقتصاد التحويلى بتحويل سلعة خام إلى سلعة أخرى أكثر منفعة ، فيزداد الطلب عليها فى أسواق الاقتصاد وبنوك التجارة والمال .

(٢) لقد ورد هذا المصطلح فى الباب الأول وبخاصة فى الفصل الثانى ، وأشرنا إلى ما قصدناه منه فى حينه. والكلمة Rurban التى يقابلها المصطلح الذى أصطنعته « حضريفى » وهى كلمة عربية جديدة أضيفها إلى علم الاجتماع الحضرى وهى كلمة مشتقة من عملية دمج كلمتى « حضر » و«ريف».

وحول المشروعات الحضريفية ، ظهرت مدن الشركات والمؤسسات فكفر الدوار مثلا والمحلة الكبرى فى مصر ، وميناء الاحمدى بالكويت من مدن شركات البترول والغزل والنسيج والصياغة ، وكلها مدن جمعت بين أنماط الثقافة الحضرية والقروية .

ولعل قرية البيضا ، قد أصبحت الآن بما تحتويه من مجمعات سكنية للعمال والموظفين ، من أهم «مدن الشركات» فى جمهورية مصر العربية ، فلقد خلقت شركة صباغى البيضا مدينة كاملة One Company town من مجموع المصانع والمساكن العمالية ، وما يحيط بها من طرق معبدة ومواصلات سهلة ، واسكان مريح للعمال، مما يشعر العامل بالرضا Satisfaction والقناعة والراحة ، فيزيد من انتاجه وغالباً ما تقوم مصانع وشركات ومشروعات القطاع الحضريفى على أماكن رخيصة وبعيدة عن العمران ، وغالبا ما نشيد المشروعات الاقتصادية فى مناطق رعوية مهجورة ، فتظهر المدن الصناعية Industrial town ، كما وتظهر أيضا مختلف صناعات المدن مثل صناعات الخدمات Service Industries وإذا كانت القرية هى جزء من منطقة انتاج ، الا أن المدينة هى مركز لمنطقة انتاج ، حيث تقوم المدينة بخدمات مركزية Centralized Services ، والمدن كالواحات وسط الصحارى ، تظهر على خريطة المجتمع كبقع متباعدة ، بحيث أصبح التباعد هو أرضية بقعة حضرية ، وبحيث تصبح العاصمة هى أبعد المدن الكبرى عن المدن، ومع زيادة حجم المدينة يزداد التباعد بينها ، وتقل المناطق الهامشية Marginal ولذلك يقل على العموم فى كل دولة عدد المدن الكبرى والحواضر Metropolis ومن ثم كان التباعد أو العزلة أو التبعثر هو النمط الذى يخضع له توزيع المدن ، فالمناطق النائية والمتباعدة هى ما تنقاد له كل مدينة وتتأثر به فى وجودها ، وهى الغرس الحضرى Semis Urbaine ، على اعتبار أن المدن لاتظهر إلى الوجود الا وهى « منعزلة » أو « منفردة » ، ولذلك لا يتميز المسكن القروى فحسب بما فيه

= ففى المدن والمراكز الحضريفية ، مثل المحلة الكبرى نجد عمارات وبنايات حضرية ومتعددة الأدوار والطوابق ، وفى الطابق الأخير نجد أكوام الحطب والقش التى تستخدم كوقود للافران المنزلية القروية وهى أفران ضرورية فى كل بيت ريفى وبخاصة فى عمليات الطهى واعداد الخبز اليومى الطازج .

من تجمع Agglomeration وتبعثر dispersion وإنما يمتاز تصميم المسكن الحضرى أيضا بهذا النمط من التبعثر Patterm of Scatter .

وقد تتكتل العلاقات الاجتماعية وتتركز فى المجتمعات القروية ، نظرا لشدة تركيز سكان القرى ، بينما تتبعثر العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الحضرية نظرا لتباعد سكان المدينة وانتشارهم هنا وهناك ، وانتقالهم وتفككهم بين أرجاء المدينة وضواحى المناطق الحضرية ، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تخلخل العلاقات الاجتماعية فى مجتمع المدينة ، وإلى عدم تركزها كما هو التقليد المتبع فى «مجتمع القرية » الذى يتسم بروح المحافظة والتمسك بالأخلاقيات ، وهذا ما أكده «زنانيكى Florian Znaniecki فى دراسته للفلاح البولندى The Polish Peasant[1]

وقد نستطيع أن نعقد المقارنات من زاوية أنماط الاقتصاد القروى والحضرى، فاذا كان الريف يرتبط اقتصاديا بالمدينة لتسويق محاصيله ، فان المدينة تشترى من الريف البيض والخضر ، بينما تغزو المدينة بحضارتها وامكانياتها فتهاجر الانماط الحضرية إلى القرية، وتستعير كل ما فى الثقافة الحضرية من أدوات وخدمات ، وعن طريق الاستعارة والهجرة تستطيع القرية أن تكتسب الكثير من جوانب التحضير والتحديث . وقد نجد فى المدينة سوقا استهلاكيا غذائيا ضخما يفرض نفوذه على توجيه الانتاج القروى وتوزيعه مع تسويق المنتجات الزراعية والصناعات الريفية . ومع النمو الحضرى ، يبتلع نمو المدينة كل ما يحيطها من أراضى زراعية وأقاليم قروية فيرتفع سعر الأرض وتتكثف الزراعة لانتزاع أكبر عائد تسويقى ممكن عن طريق استثمار الاشجار Arboriculture وماعليها من ثمار ، مثل استثمار ما تنتجه فلاحة البساتين Horti culture مع تصدير أنواع الورود والزهور Flori culture .

ومن الناحية السيكولوجية والعقائدية ، تختلف سمات الشخصية بين القروى والحضرى ، وخاصة من ناحية « الدين Religion والتمسك بأهدابه حيث يضعف الشعور الدينى بين أبناء الحضر ، حيث يفسر الانسان الحضرى موقعه من الله والايمان ، بأن الدين أو العقيدة هى اجتهاد وعمل . كما ويختلف « الاتيكيت

---

(1) Riley, Matilda, White., Sociologicel Research; Acase Appreach, New York. Vol : I P. 196.

Etiquette ، ويتمايز نمط السلوك بين الريف والحضر ، فهناك السفور أمام الرجال في المدينة ، والحجاب أو عدم الظهور في القرية . وفى المدينة تناقضات وأنماط من التشابه والتضارب ونماذج من الأزياء والتخصصات فى تقسيم العمل ، ووسائل المواصلات وازدحام فى الحركة والمرور ،بينما يكون العكس فى القرية الهادئة المتجانسة السلوك والأزياء والتقاليد. وتختلف خدمات المرافق والبلديات ، فيستخدم القروى حتى الآن وسائل بدائية للاضاءة والحفر والحرث والرى ، بينما يستخدم الحضرى كل وسائل الرفاهية ورغد العيش ، وكل هذه أسباب تؤدى بالطبع إلى تمايز مبادىء القروى الخلقية عن أخلاقيات الحضرى وسلوكياته(١) .

(1) El-Abd., Salah., An approach to integrated Rural development in Africa, Sirs Layan, Menofia, Egypt. 1973.

الفصـــل الثالث

تطور الحضارة على الأرض

★ تمهيـــد .

★ ظهور الانسان العاقل Home - Sapiens .

★ التحدى والاستجابة .

* ثقافة الكهوف .
* الانسان الصانع Home - Faber .
* أنماط البداوة والرعى .
* التصنيع والتغيير الاجتماعى .

تمهيــــد :

ولقد اصطدم الانسان الحفرى المنقرض ، منذ أن بدأ يدب بأقدامه على الأرض بمشكلتين رئيسيتين ، بالمشكلة الاقتصادية « من جهة ، ومواجهة البيئة الفيزيقية الصارمة ، من جهة أخرى ، فمضى وهو الكائن الأعزل إلاّ من بعض أحجار مشطوفة ، قضى الانســـان شـطرا هائلا يفوق ويزيد على ٩٩ ٪ من عمره الحفرى جامعا للطعام ، بمعنى أنه ظل طوال حياته ـــ التى بدأت منذ حوالى نصف مليون سنة ـــ يجمع خلالها من قوته وطعامه ما يشبع من جوعه ، وعلى قدر حاجته منذ كان يفتش فى الأرض ، وبين أغصان الشجر بحثا عما فيها من جذور وبذور . ولذلك واجه الانسان العاقل الصعوبات القاسية منذ بدأ فى أستئناس الحيوان واستنبات النبات وحين حاول الانسان الحفرى العاقل أن يترق حضاريا وأقتصاديا ، ترك ثقافة الصيد والقنص ثم قام بأول « ثورة صناعية » ، منذ بدأ يستقر فى الأرض كى يشيد « أول حضارة للزراعة » ، وكى يبنى مقدمات وطلائع « ثقافة القرية » .

الانسان العاقل :

ولما بدء الانسان الاقتصادى يهتم بالسلع وتبادلها فتحقق التوازن بين السلع المستهلكة فى تبادلها وتعادلها المستمر مع كل السلع التبادلية والموارد الانتاجية، فيمكننا أن نقسم التاريخ تقسيما اقتصاديا ، حين يدور مجال العصر التاريخى ، حول مناشط اقتصادية وانتاجية بعينها ومن هنا ترتبط أشكال المناشط الاقتصادية ارتباطا وثيقا بطبيعة العصر فتضفى على حركة التاريخ طابعا خاصا[1] .

ولاشك أن العقل هو ميزة الانسان عن سائر الحيوان ، ولهذا السبب نفسه كثيرا ما يوصف الانسان وينعت بأنه « *حيوان صانع للآلات* » *بمعنى أن الانسان*

---

(١) وعلى سبيل المثال بدأ « الانسان الاقتصادى » عصور الحجر والنحاس والبرونز والحديد . يصنع الآلات والأدوات منذ آلاف السنين ، وظهر أول انسان منتج للطعام مع بداية الثورة الصناعية الأولى أى « بأكتشافه للزراعة » بعد محاولاته المريرة لاستغلال موارد الطبيعة . وتعديل هذه الموارد لاشباع حاجاته الضرورية . ومن هنا جاهد الانسان العاقل Home Sapiens وعمل على اكتساب وتوافر السلع الضرورية لحاجة التداول أو الاستهلاك أو الانتاج . ولقد أعلن « علماء الحضارة » أن الانسان العاقل قد بدأ جامعا للطعام « منذ نصف مليون سنة » وظل هكذا حتى ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

الاقتصادى هو كائن من نوع خاص ، يتميز بالذكاء والابتكار وسرعة التعلم ، كما أنه يتكيف ويتأقلم ويتعلم خلال تاريخه الطويل ، بالاضافة إلى صراعه الرهيب وكفاحه المستبسل بفضل استعداداته المبكرة للعمل ، فكان «صانعاصبورا» بدأ أولا بصناعة الأدوات البسيطة للصيد والآلات غير المعقدة للقنص وجمع الطعام .

ثم تطورت جهود الانسان الاقتصادى ، فأصبحت بمثابة نتاج تاريخى Historical Product ، صدر عن عمليات الانتاج والتراكم ، وزيادة القدرة «على التحكم والضبط » فى استخدام الأدوات والأشياء وتطويرها وتصنيعها ومن هنا تتحقق الظاهرة الاقتصادية وتتجسد فى ذلك العنصر المادى من الثقافة . ولقد درج علماء الآثار فى الماضى ، على أن يتكلموا عن فترات أو « أدوار » للعصر الحجرى القديم الأعلى كما يتحقق فى الدور الأوريجناسى Aurignacian والسوليتيرى Sosutrean الدور المجدلينى Magdalenean حيث انتشرت بانتهاء « العصر الجليدى Ice age » تلك الشعوب التى كانت تعيش على صيد الحيوان . فظهرت مرحلة اقتصادية جديدة امتازت باستخدام الفؤوس الحجرية المشطوفة .

وهناك نظرية اقتصادية وحضارية مشهورة ، يقول بها « أرنولد توينبى Arnold Toynbee ، حين ينظر إلى البيئة وظروفها ، بأنها خلقت الدوافع التى دفعت الانسان دفعا نحو الاستقرار فى الأرض ، « نتيجة للتحدى المستمر » لقسوة الطبيعة التى تهاجمه بلا رحمة ، فلجأ إلى أودية الانهار واحتمى بالكهوف ، وهبط الواحات ، وتسلل إلى المنخفضات ، حيث وجد « صيده الوفير » ، واستطاع أن يحصل على ما يشفى غليله ويسد رمقه بين الينابيع والوديان[1] .

ومن خلال الاستقرار ، اكتشف الانسان عن طريق الصدفه[2] ، وبعد كثير من الصراع والكفاح فى « المحاولة والخطأ » ، أن النباتات يمكن أن تزرع وأن

---

(١) تكونت هذه الوديان وانتشرت فى العصر المطير فازدادت كمية المياه الجوفية فظهرت الواحات التى لجأ إليها الانسان . لكى يبنى مساكنه ومدافنه ، ويشيد قراه ، لكى يستقر فى وديان الانهار ثم حاول الانسان بعد أن أكتفى بما قدمته له الطبيعة من غذاء وكساء أن يبدأ مرحلة جديدة ، فشيد «الصوامع» لتخزين الحبوب ودخل مرحلة « انتاج الطعام » حين بدأ يعرف طريقة لتوفير طعامه وزيادة انتاجه .

(2) Mannheim, Karl., Man and Society in an age of Reconstruction., trans-from German by Ebward Shils., Kegan Paul, London. 1942 p. 163.

الحيوان يمكن أن يستأنس . ولقد بدأت هذه المحاولات قبل اكتشاف الانسان لكيفية استنبات النبات وأستئناسه ، حين لاحظ الانسان الأول ، « مجموعة من الظواهر النباتية التى تتكرر » ، مثل نمو القمح البرى الذى يتكرر فى «صورة رتيبة ومنتظمة » فأدرك الأهمية الاقتصادية لهذه النباتات البرية فى محاولتها الطبيعية التى تتواتر وتتكرر لكى تنمو كل عام . فحاول الانسان أن يكتشف العلة وراء هذا « التكرار المنظم » وأن يكشف الغطاء عن سر هذه « الصدفة الرتيبة » فأستزرع الارض وقلد الطبيعة وأستنبت الحبوب ، وتوصل إلى أعظم أكتشاف اقتصادى حين أصبحت الزراعة هى « أول ثورة صناعية » فى تاريخ الاقتصاد الاجتماعى .

وبعد أن توصل الانسان عن طريق « التحدى والاستجابة » أو الاكتشاف عن طريق المصادفة Chance discovery[1] إلى زراعة الغذاء وتربيته ، فلم يكتف الانسان بجمع الطعام ، وإنما صار منتجا للغذاء ، الذى كان ينمو وحشيا أو بريا، ثم أصبح أليفاً مستأنساً .

ومع أكتشاف « صناعة الزراعة » ، ظهرت صناعات أولية بدائية وتمثل أول « انتاج صناعى » فى تصنيع الأوانى « والأدوات القروية ، كالاسبته والاقفاص والفؤوس»، وكلها أدوات خشبية أو صدفية ظهرت « كمصنوعات أولية » وصدرت مع ظهور القرى واستقرار الانسان ، فبدأت الظواهر الاقتصادية الأولى مع بداية التحضر الانسانى ، بموقف الانسان إلى جانب أرضه ومجهوده وانتاجه . ومع تطور المجتمعات تطورت النظم الاقتصادية ، حين بدأت بمرحلة جمع الطعام Food gathering ، وصيد الحيوان ، فبدأت معهما المراحل الأولى لاستخدام الأدوات والآلات ، كما كان التبادل الاقتصادى يتم على أساس الهدايا لاالنقود، وبأكتشاف الزراعة دخل الانسان مرحلة استئناس الحيوان ، كما بلغ مرحلة التحكم فى الانتاج الاقتصادى والحيوانى ، حين تكونت القرى وظهرت مجتمعات الزراعة البدائية .

ومن هنا قام « الانسان الأول » بتخزين الطعام ، وتهجين البذور ، واستئناس

---

(1) Ibid.

الحيوان وتدجينه ، خلال العصر الحجرى الحديث ، مما أدى إلى انتشار القرى فى الشرق الأدنى القديم ، وخاصة فى مصر والعراق وايران ، حيث عاش الانسان الاقتصادى فى هذه الفترة ، فى بيت من اللبن ، بناه بعد أن استعان بفروع الشجر وأغصانها . وكان الانسان يزرع القمح والشعير ، واستخدم المنجل فى الحصاد ثم أقام الصوامع فى باطن الأرض حيث تحفر وتبطن بالسعف وذلك لتخزين القمح والحبوب . ولقد دار النشاط الاقتصادى فى قرى الشرق القديم حول الزراعة وتربية الأبقار والماعز والخنازير ، كما استخدم الانسان الكلاب لصيد الطيور والحيوان البرى وعرف صناعة الأوانى والأوعية الفخارية كما نسج ملابسه من الكتان.

وحين « فاض الانتاج الاقتصادى الزراعى » ، وزاد عن الحاجة الضرورية ظهرت أهمية الملكية ، وتحكم الاقطاع ، وانقسم المجتمع إلى طبقتين « ساده وعبيد» فأستعان الغنى بالفقير من أجل الزراعة وزيادة الانتاج الاقتصادى ، ثم ظهر الرق ومنح الملوك والولاة المساحات الشاسعة من الأقاليم والامصار كعطايا للفرسان وهبات لرجال الدين كما ظهرت طبقة أهل اليسار من التجار بقصد محاولة « شراء المحاصيل » والعمل على تسويق فائض الانتاج الزراعى .

وعن طريق المحاصيل الزائدة ، ومع تبادل الانتاج الزراعى ، إزدادت طبقة التجار ثراء . فظهرت الرأسمالية التجارية ، بأسواقها وعرباتها وخيولها المطهمة . وحين تقدمت المناشط التجارية المختلفة ، إزدادت قيمة النقد بسيولته وسهولته كطريقة للتبادل ، بدلا من « طريقة المقايضة » التى كانت هى الطريقة الوحيدة للتبادل الاقتصادى .

ومع ظهور « الرأسمالية الصناعية » تعقدت نظم التبادل وتطورت ففى انجلترا ازدهرت صناعة النسيج ، ومع قيام الثورة الصناعية ، ظهرت الآلة التى حلت محل العمل اليدوى ، فتوسع الانتاج الآلى ، وعلى هذا الأساس تتصل النظرية الاقتصادية ، بالواقع التاريخى إتصالاً وثيقا ، فيعتريها التغير مع تغير شكل الانتاج[1] .

---

(١) ويذهب « ريمون آرون » إلى أن كل المجتمعات الانسانية ، لا تخضع لنظرية اقتصادية واحدة بعينها ، وإنما ترتبط اقتصاديات المجتمع ، بأصول ثقافية ومصادر تاريخية وجذور قيمية وفكرية . أنظر فى هذا الصدد: ارون ريمون : المجتمع الصناعى ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٦ ص ١١ .

وبصدد ظاهرة الاختراع أو الابتكار عند الانسان الاقتصادى تقول «روث بندكت Ruth Benedict[1] : إن الحاجة الاقتصادية ليست بالضرورة كما يشاع عنها بأنها « أم الاختراع » فلقد أكتشف الانسان ألاقتصادى «البرونز» خلال صراعه الطويل فى ماضيه التاريخى ، ثم أكتشف « الحديد » بعد ذلك بفترة طويلة وعلى الرغم من ذلك الاكتشاف الجديد ، ظل البرونز هو المعدن المفضل رغم وجود وتوافر « الحديد » ، وقد يقال إن الانسان هو « وليد تجربته » و «سجين خبرته وثقافته » ومع ذلك نجده يعمل دائماً على تغيير تجربته ، وتبديل ثقافته وتعديل خبراته ، بالثوره على ظروفه الوضعية ، وبالتمرد على أوضاعه وأحواله الراهنة، فوجدناه يخرق الجبال ، ويحيل الصحراء إلى جنات خضراء ، تنتج بعد طول جدب، كما يتحكم فى مياه الأمطار والأنهار ، ويقيم الجسور والسدود والانفاق .

وعلى العكس من ذلك ، فقد يشبع الانسان حاجاته ، حتى يتكيف مع بيئته تكيفا خاصا ، الأمر الذى معه تتعدد تلك الاختلافات الواضحة فى الانماط الاقتصادية المتباينة ، فقد يستخدم الانسان البدائى « مغارة » أو كهفا غائرا فى صخور الجبال أو كوخا بصنعه من أغصان الشجر ، أو سردابا تحت الجليد ، أو خياما من جلود الحيوان ووبر الجمال ، وكلها أشكال متمايزة لاشباع حاجات « الانسان الاقتصادى البدائى » والتجمع والاستقرار للتثبت فى الأرض .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تعتمد قبائل شرق سيبيريا اقتصاديا على «رعى الرنه » وتربيتها واستخدامها فى جر العجلات التى تنتقل من مكان إلى آخر ، مما أدى إلى عقد الصلات التجارية مع جماعات الاسكيمو . وبالرغم من وجود هذا التبادل التجارى الدائم والمستمر ، الا أننا « نجد اختلاقا ثقافيا واضحا إذا ما قارنا بين النمط الاقتصادى عند جماعات الاسكيمو من جهه ، وقبائل شرق سيبيريا من جهة أخرى . حيث تتمسك قبائل شرق سيبيريا بنمط ثقافى يتعلق بوجود مجموعة من الخيام المصنوعة من الجلود ، والتى يشدونها يومياً وينفضون عنها

---

(١) ولدت روث بندكت فى نيويورك فى ٥ يونيه ١٨٨٧ ، من أب جراح توفى خلال طفولتها المبكرة ، ومن أشهر مالها من كتب « أنماط الثقافة Patterns of Culture وهى باحثة جادة وكاتبة معاصرة من تلامذة فرانزبواس Franz Boas ومن زميلاتها الباحثة الانثربولوجية « مارجريت ميد » .

كل ما علق عليها من الجليد والصقيع المتجمد ، طلبا للحركة اليومية والسعى الدائب والتنقل الدائم . بينما يشيد الاسكيمو بيوتهم من سراديب تحت الجليد ويجلبون اليها الدفء من « زيت الحيتان » ويوقدونه ، كما ويبطن السراديب بجلود وفراء الحيوان .

وعلى الرغم من وجود الاتصال الثقافى ، والتبادل التجارى الدائم ، بين جماعات الاسكيمو وقبائل شرق سيبيريا ، يلتزم الاسكيمو بنمط اقتصادى محدد ، يختلف عن ذلك الذى نجده بين قبائل سيبيريا ، على الرغم من الصعوبات التى يواجهونها فى حياتهم الخاصة بسبب الخيام وصعوبة استخدامها فى المناطق القطبية ، بينما يلتزم الاسكيمو بالاستقرار وينفرون من « حياة الرعى » والتنقل أو التجوال « لتربية الرنة » رغم ما قد تدره عليهم من مكاسب اقتصادية .

الانسان الصانع :

لاشك أن تاريخ الجنس البشرى ، إنما يؤرخ لنا ويحدد زمان وطبيعة اقتصاديات الانسان القديم فى ضوء أساليب حياته ، كما يروى لنا هذا التاريخ قصة تقدم الانسان الاقتصادى حين يسجل مناشطه ويكشف عن ثقافته ، « فتتكلم آثاره » حين يحكى الماضى أعماله ويروى كفاحه ، كما يشيد تاريخ الانسان ويشهد بجهوده خلال نسيج الزمن .

ولقد تمكن الانسان الصانع Homo Faber من خلق أدواته وصنع أسلحته من عظام وجلود ما يصطاده أو يربيه من حيوان .

ولقد صنع الانسان القديم حضارته الأولى من الحجر الاصم ولهذا السبب أطلق على الانسان بأنه حيوان « صانع للآلات » لأنه أبتكر تلك الأدوات الأولية البسيطة من الأحجار المشطوفة التى تحكى لنا كيف بدأ حضارته وثقافته .

وعلى هذا الوضع التاريخى شيد الهندى الأحمر حضارة الازتك Aztek والمايا والانكا وغيرها إذا ما أرخنا لثقافات أمريكا القديمة . وعلى الرغم من أن أدوات الانسان الأول وآلاته كانت شديدة البساطة والبدائية ، إلا أنها نظراً للمهارة البدائية الفائقة أصبحت أقرب إلى الفن منها إلى الصناعة والتكنولوجيا ، حيث

ظهرت مختلف الصيغ والاشكال فى صناعة الأدوات الحجرية .

ويمكننا أن نميز فى هذا الصدد بين الظواهر الطبيعية من جهة ، وظواهر الحضارة أو الاقتصاد والتاريخ من جهة أخرى . فإذا أخذنا قطعة من الحجر لوجدناها بالطبع ظاهرة جيولوجية تخضع لدراسة علماء التربة والصخور أو طبقات الارض إلا أن قطعة الحجر هى أما منحوتة من الجبال ، أو مأخوذة من طبقة أو سطح ، أو منتزعة من بنيه من بناءات التربة . ولاشك أن الاحجار كأجزاء منتزعة من العالم الطبيعى ، إنما تتمايز عن تلك الاحجار التى وردت من عالم التاريخ ، فهى مشطوفة من جهة وتكشف عن وظائف ماضيها من جهة أخرى ، « هى أحجار تتكلم » وتحكى تاريخها بل وتحفظه . فالفأس الحجرية مثلا هى قطعة من الحجارة المشطوفة بمهارة ، والمهيأة للقيام بوظيفة اقتصادية معينة .

فهى ظاهرة لايدرسها الجيولوجى ، وإنما ينشغل بها كل من الأثرى والمؤرخ وعلماء الانثربولوجيا والاجتماع والحفائر Excavation والحفريات Fossils .

ولاشك أن هناك الكثير من ألوان الجهد البشرى التى تتجلى فى مهاراته وصناعاته والتى تكشف عنها مخلفاته التى تركها الانسان القديم خلال عصور الحجر . ولقد بدأت حضارة الانسان الأول بصناعة الحجر بشطفه وتشكيله بمختلف الصور والنماذج ، كما بدأت الاقتصاديات الحجرية بصناعة النصل Blade الذى هو عبارة عن شطفة ذات جوانب متوازية تستخدم كآلة مأخوذة من النواة أو اللب Gore حيث تنزع النصال منها كما تنزع أوراق الخرشوف(١) .

(١) اللب آلة حجرية كمثرية الشكل ظهرت فى كهوف فرنسا ، ولقد استخدمها الانسان الأول فى اقتلاع الجذور والخضروات ، وكسر غلاف الفواكه وجوز الهند ، ثم هذبت الاحجار وصارت أكثر صقلا ، وأسهل فى القبض اليدوى ، ثم أصبحت أكثر فائدة فى إنجاز الأعمال والأنشطة الاقتصادية ، وفى هذا الصدد يقول كيسنج Keesing : لقد كانت المادة الرئيسية فى حيازة الانسان القديم هى الظران Flint أو الصوان . ثم يتحول الظران بعد كسره إلى لب أو شظايا Flakes والنواه Core أو nucleus هى الأصل الذى صدرت عنه الشظايا بعد عملية الكسر بواسطة مطرقة Hammer وسندان Anvil .

ولقد أعلن كيسنج أيضا أن هناك آلة بدائية تسمى « فأس اليد Hand axe » أو فأس المقبض Fist axe وهى عبارة عن لباب Core يستخدم فى الكسر أو الحفر عن طريق ضم أو جمع الأصابع حول اللب . وهذا هو الساطور أو الفأس الحجرى ، كما صنع الانسان العصر الحجرى السكين والمثقب Borer والمكشط Scraper والازميل والمنحت Chisel لاستخدامها فى النقش والنحت والحفر . وكلها

ومع تقدم منتجات الاقتصاد الحجرى ، استخدم الانسان أدوات صغيرة من العظام لنزع النصال من الأحجار ، بالضغط على الشطفة ، وتعرف باسم طريقة « الشطف بالضغط Prossure Flaking » ، ولقد استخدمت هذه الطريقة لتهذيب الاحجار وتشذيب النصال .

وفى كهوف فرنسا ظهرت المسنونات المدببة التى كانت تستخدم كرؤوس للحراب واتخذت شكلا مدببا ومخروطيا من الجانبين ، لكى تبدو غاية فى المهارة والدقة حيث عشق الانسان القديم لغة الاحجار كفن بلغ فى العصور الأولى لحضارات الحجر درجة عالية من التقدم والاتقان .

الأصول الحضارية للثقافة :

لاشك أن الظاهرة الاقتصادية هى نتاج التفاعل المستمر والاحتكاك الدائم القائم بين عنصرى « الطبيعة أو البيئة environment » من جهة ، وبين مايسميه « سبنسر Spencer » بما فو العضوى Super Organic » من جهة أخرى .

ولقد شاع هذا الاستعمال عند علماء الاجتماع الألمان ، حيث استخدموا هذا المصطلح كى يقصدوا به دراسة كل الظواهر التى تنجم عن احتكاك الانسان والبيئة من لغة ودين وتقاليد وقوانين ، وكلها أجزاء ضرورية لما يسمى « بمافوى العضوى » بالاضافة إلى أنها بمثابة « أنساق » تدعم البناء الثقافى فقط .

ويجدر بنا فى هذا الصدد ، ألا ننظر إلى الظاهرة الاقتصادية على أنها مستقلة Independent استقلالا كاملا عن الأفراد كأفراد ، وإنما ظاهرة تراكمية و « جمعية » تتصل اتصالا وثيقا بالمجتمعات والثقافات بالنظر اليها على أنها « بناءات » منتجة وخلاقة بفضل ذلك الصراع القائم بين « الكتل البشرية » و « البناءات الفيزيقية » تلك العملية الدائبة والدائمة التى أطلقنا عليها اسم « ما فوق العضوى »[1] .

أدوات حجرية هامة اقتصادياً ، بالاضافة إلى استخدام الاسلحة « والأدوات القاذفة Projective tools وهى أدوات وجدت فى الحفريات القديمة ، مما يؤكد استعمال الانسان الأول لها فى بداية حياته الاقتصادية .

وأنظر أيضا هذا الصدد :

Keesing, Felix., Cultural Anthropology, New York 1960 : pp. 88-89.

(1) Ibid : p. 36.

واستنادا إلى هذا الفهم ، فما هو « فوق العضوى » هو ظاهرة كلية وعامة يتميز بها « بنى البشر » كما أنها صفة انسانية واجتماعية تميز الانسان عن غيره من سائر الحيوان .

فالسلوك الاقتصادى ، هو سلوك انسانى « مكتسب » ينتقل بالتعليم والتربية والاعداد للحياة ، حيث أن ظواهر الاقتصاد لاتظهر « طفرة » وهى ليست شيئا « فطريا » أو افرازاً طبيعياً أو غريزياً .

وإنما ينبغى النظر إلى الاقتصاديات على أنها « أشياء اجتماعية des choses Sociales » ، يتوصل إليها الانسان بفضل كفاحه الدائم ، وصراعه المستمر الدائب مع بيئة فيزيقية صارمة ، وبأستخدام طاقاته العقلية وقواه الفكرية .

وقد تعقدت الظاهرة الاقتصادية وتنوعت وتحولت ثم تخلت عن بساطتها البدائية المعهودة ، بفضل التطور والتاريخ ، وأصبحت الظواهر الاقتصادية هى «نتاج تاريخى » لعمليات مستمرة نجمت عن ذلك الركام الثقافى الهائل الناجم عن جهود البشر ، والناتج عن صراع الانسان الجمعى وكفاحه الدائم الدائب . بالنظر إلى الاقتصاد على أنه ذلك الجانب « المادى » من الثقافة أو أنه هو نفسه مايسميه علماء الثقافة والاجتماع الثقافى ، بالثقافة المادية ، تلك التى تغلب على حياة الجماعة ، وتغلف المجتمع من الخارج بغطاء مصطنع تفرزه سائر الوحدات والجماعات والزمر « السوسيو اقتصادية » ، بما تقدمه من فنون الصناعة خلال تطور التكنولوجيا .

ثقافة الكهوف :

على جدران الكهوف ، ترك الانسان البدائى الحفرى الكثير من اللوحات الفنية الرائعة ، تلك التى تزدان بالنقوش والزخارف ، كما هو الحال فى كهف Lascaux الشهير فى جنوب فرنسا ، وبالقرب من جسر نهر فيزر Vézere « حيث تواجهنا الكثير من الألوان الصارخة كالأحمر والأسود والأصفر ، وفى تداخل منسق رتيب رسمت مجموعة من الثيران الضخمة والخيول الصغيرة فى أشكال وظلال يمثلان تقدما « حضاريا » واضحا ، بل ومذهلا .

ومما يثير الدهشة أنهم صنعوا الألوان من الفحم الحيوانى الممزوج بشحم الحيوان المضاف إلى التراب الطبيعى .

تلك هى حضارة انسان الكهوف التى دارت كلها حول عملية الصيد والقنص وبخاصة صيد الغزلان والجاموس الوحشى ، والتعبير عن هذه الاهتمامات اليومية ، كان للاقتصاد صداه حين كشفت رسوم الفن البدائى عن صورة بليغة معبرة لجاموسة وحشية جريحة ، وقد تدلت على حائط الكهف أحشائها من أثر السهام وفعل الحراب .

ثقافة الجمع والقنص :

إذا كانت الثقافة هى اضافة الانسان إلى الوجود الطبيعى وتغييره ، فان الاقتصاد هو تنمية لقد رأت هذا الانسان لاشباع حاجاته ، ومن ثم زرع الانسان الأرض ، وخرق الجبال وأقام الجسور والانفاق ، وصنع الشباك والأدوات، وأنشأ الكبارى وشيد المنشآت والمؤسسات .

وكما بدأت الثقافة بسيطة ، بدأ الاقتصاد حين أكد الانسان الحفرى مهارته فى صناعة الآلات الحجرية ، حيث أظهر الانسان السولتيرى درجة عالية من الاتقان والتناسب « السيمترية » كصناعة الآلات المدببة والمسنونة ورؤوس الحراب ولها وظائفها السيكولوجية والاقتصادية ، كوسيلة دفاعية أو كعامل أمن أو حتى كأداة للصيد والقنص .

وأصبحت تكنولوجيا صناعة الحجر عند الانسان الحفرى أهم الفنون التى ابتكرها الاقتصاد البدائى فكانت « الحاجة هى أم الاختراع » وكانت عوامل الأمن والاقتصاد والذكاء ، هى أهم الدوافع التى وجهت الانسان نحو اختراع القوس والسهم والحربة . كما بدأت الحيوانات الضخمة والمكتنزة اللحم فى الانقراض منذ العصر الحجرى الوسيط ، نظرا لتحول السهول الفسيحة إلى غابات انتشرت فيها الخنازير البرية ، وهاجرت الرنة مع الثلاجات Glaciers إلى الشمال بينما انقرض « الماموت Mammouth والبيسون والحصان الآسيوى فأصبح القنص أكثر صعوبة فى صيد الحيوانات الصغيرة نسبيا . ولذلك استخدم صياد العصر الوسيط

السهام المدببة والخشبية ذات الرؤوس الغليظة مع استخدام القوس على مايفعل «البوشمن Bushmen » فى صحراء كلهارى .

وكان ظهور الكلاب ، وأستئناس الانسان لها ، من أهم المخترعات التى استخدمت مع صياد وقناص العصر الحجرى الوسيط . ولا ندرى تاريخيا من الذى أكتشف الآخر على وجه الدقة ، الانسان أم الكلب ؟ ومن الذى بدأ أولا بالصداقة ؟

لا مشاحة فى أن انسان الكهوف كان يلقى بفضلاته فحامت حولها الكلاب، وتركها الانسان تحوم حوله وتلازمه ، فصارت له مألوفة ، فصاحبته فى رحلاته وجولاته ، حتى ظهرت مواهبها فى عالم الصيد والقنص ، بها الانسان وأستأنس المتوحش منها .

ولم يكتف صياد العصر الحجرى الوسيط بصيد البر ، فأعتمد على صيد البحر أيضا ولذلك استخدم سكان السواحل المحار فى طعامهم ، كما استخدموا الحراب فى صيد السمك ، وعثر علماء آثار ما قبل التاريخ على صنانير خاصة بصيد السمك تتعلق بمخلفات وبقايا العصر الحجرى الوسيط ، كما استخدموا أيضا القوارب والشباك والفخاخ .

وإذا أردنا أن نعرف شيئا عن ثقافة العصر الحجرى الوسيط ، لوجدنا أن ثقافة « البوشمن » تعطى صورة حية تكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية فى تلك العصور حين تخلط ثقافة البوشمن بين الحياة فى المجتمع وطرق القنص ولذلك تعتبر ثقافة البوشمن من أقدم الثقافات ، حيث ظهر انسان روديسيا قبل ظهور البوشمن الذين أمتازوا بضآلة الحجم وقصر القامة والبشرة المشوبة بالصفرة ، والشعر المجعد والعيون المغولية المنحرفة ، والوجوه المثلثة .

وانسان « البوشمن » صائد ماهر ، يعرف صنوف الحيوان وسلوكه وكيفية صيده، أن كانت بالرمح أو القوس ، أو السهام المسمومة ، حيث يخلط صياد البوشمن فى تركيب السم بعض الأعشاب والجذور السامة ، ثم يمزجونها بسم الثعابين ، ولكى يصبح السم هلاميا له قوامه الشمعى ، يخلط ثم يغلظ السائل المركب فوق النار ، ثم تغرس فيه السهام والحراب فتصبح سامة وقاتله .

وإذا ما حاولنا أن نعالج طبيعة الاقتصاد البدائى ، لوجدنا أن هناك الكثير من أوجه الشبه بين اقتصاديات « البوشمن » وأقزام الكونغو وبين الاقتصاد الاسترالى البدائى حيث وجدنا أنماطا اقتصادية واحدة ، قد نجمت عن ظروف فيزيقية واهتمامات ومصالح لا تتمايز بعضها بعضا ، حيث يسود النمط الاقتصادى الخاص بالجمع والالتقاط والانتقال الدائم وراء الصيد[1] .

وتتميز تكنولوجيا الأدوات والآلات بالبساطة وتشبه فى حالاتها الراهنة بتكنولوجيا العصر الحجرى الوسيط . حين يقوم الاسترالى أو « البوشمن » بأستخدام أبرع الطرق فى الصيد البدائى وحين يتجول بعيداً طويلا بحثا عن صيده وجامعا لطعامه ، بينما تجمع النساء والفتيات جذور النباتات وبذورها .

وحين يبدأ الشاب البدائى فى الاعتماد على نفسه ليدخل «طور الرجال» يشعر بالاستقلال الاقتصادى ، وعليه أن يمر بعمليات قاسية ليدخل « شعائر المرور Rites de Passage » أو طقوس التكريس وفيها قد يحرم الشاب من الطعام والشراب وقد يترك وحيداً يتجول فى الغابة ولفترة طويلة . وهناك عمليات أخرى صارمة كنزع الاسنان وتشويه الأنف أو الجبهة ، وعمليات ضرورية وتربوية القصد منها قياس درجة احتمال الشاب ومدى استعداده للبطولة وللرجولة لمواجهة نمط الحياة الاقتصادية الحافلة بتجارب الصيد وعمليات القنص الصعبة ، فقد يطلب من الشاب أن يقتل ثورا قويا هائجا بطعنة رمح واحدة .

فالتكريس عملية بدائية وضرورية فى اقتصاديات الجمع والقنص ، حتى يترقى الشاب ويشعر بالاستقلال بدخوله مجتمع الرجال ، فتتحدد وظائفه وتتغير أدوراه الاقتصادية والعسكرية والجنسية ، وهناك من يتصور أن البدائى يمتاز بالشراسة والشهوة والفظاظة ، وهذا أمر بعيد عن الصواب ، إذ أن البدائى انسان هادىء ، طيب القلب ، ليس قاتلا أو مجرما بطبيعته . ففى اقتصاديات « البوشمن » رغم شدة الحاجة وقسوة الظروف فى صحراء قاحلة وحارقة ، فان « البوشمن » لا يأكلون القردة رغم وفرتها ، نظراً لشدة الشبه بينها وبين الانسان .

---

(1) Service, Elman R., The Hunters, printice - Hall, 1966. pp. 9 - 12.

نمط البداوة والرعى :

وتنتشر أنماط البداوة فى ثقافة الصحراء ، وبخاصة فى الواحات وحول العيون والآبار . فقد يعتمد البدوى على تربية الجمال مثل عشائر الجمالة والابالة ، وهم رعاة الجمال والابل ، مثل قبائل الطوارق أو الملثمين فى صحراء شمال أفريقيا ومثل العشائر والقبائل المتنقلة فى الصحراء الكبرى ، تلك التى لا تثبت فى أرض ولا تستقر على حال سعيا وراء الكلأ ، وهذا هو نمط « البداوة الخالصة » .

وهناك عشائر من البدو أكثر استقراراً من الجمالة ، وهم « الغنامة » ويقومون برعى الأغنام والماعز . ومن أنماط البداوة الرعوية « الشاوية » وهم رعاة الشياه بين التلال وسفوح الجبال . وهناك نمط البداوة الهامشية Marginal ، وهم عشائر نصف رحل ينتشرون بالقرب من الحواضر ويعيشون كجماعات متنقلة تتجول فى الهضاب والمرتفعات والجبال المتاخمة للمدن . وإلى جانب الجمالة والغنامة ، هناك أنماط أخرى من البداوة ، مثل « بداوة الخيل » و « بداوة الابقار » فى المجتمعات البدائية الافريقية .

وهناك أيضا فى الصحارى « بداوة النخيل » و « بداوة الطير » ففى مواسم الحصاد ، يتجمع البدو حول النخيل ، وفى هذه الفترة تبدأ الطيور المهاجرة من أوروبا فى فصل الخريف ويجتهد البدو فى هذه الفترة فى نصب الشباك لصيد السمان الذى يتوافد فى أعداد كبيرة هربا من برد أوروبا القارس .

وتدور اقتصاديات البداوة والرعى ، حول الكلأ والتمر والطير والماء ، كما يعتمد البدو على منتجات الحيوان مثل صوف الأغنام ووبر الجمال ، وشعر الماعز ومنها يصنع خيامه وملابسه ، وقد تستخدم حيوانات الرعى كوسيلة من وسائل التبادل الاقتصادى بالاضافة إلى استخدامها فى عمليات البيع والشراء والتجارة ، وقد يحصل البدو على منتجات حيوان الرعى كالشحم واللحم واللبن .

وعلى هذا الأساس كانت المصادر الحقيقية للثروة التقليدية فى ثقافات البدو هى ملكية « الحيوان » والآبار . كما تعتبر السيول والأمطار من المصادر الطبيعية للاقتصاد البدوى . وتحاول الحكومات والدول الاهتمام بتنمية المجتمعات البدوية فى

المجالات الاقتصادية ، بقصد زيادة وتطوير الأجهزة المتخصصة وأتاحة ظروف الانتاج وزيادة الثروة وهجرة رؤوس الأموال ، مع اعداد الأيدى العاملة الماهرة . ومن هنا تصبح عملية التنمية متكاملة تقدّم كافة القوى الاجتماعية والمادية للمجتمع.

وإذا ما عقدنا المقارنات بين بداوة الصحراء ورعاة شرق أفريقيا ، لوجدنا الثقافة الأولى تعتمد على « الخيام » أما الثقافة الأفريقية النيلية ، فهى ثقافة « الأكواخ» الأولى عشائر رحالة أو نصف رحالة « لا تستقر على حال » والثانية عشائر مستقرة تهتم بالماشية وبملكية الثروة .

ويمتاز البدو بالشجاعة والعصبية والصدق والتكافل الاجتماعى ، وتقديس القوة والعفة والكرم واحترام الشيوخ وكبار السن ، وهذه هى جماع القيم البدوية. والبداوة اقتصاديا هى أول نمط من أنماط الحضارة ، وهى مرحلة حضارية بسيطة تقوم على السعى فى طلب الرزق ، باستخدام أدوات ووسائل بدائية ، فقد يتخذ البدو بيوتهم من الخيام أو الطين أو الحجارة ، وقد يأوى البدوى إلى الكهوف والمغارات .

والقبيلة البدوية هى وحدة اقتصادية وسياسية بالاضافة إلى أنها تنظيم اجتماعى وقضائى . وتعتمد القبيلة على توافر عنصر « الأمن » استنادا إلى القانون البدوى أو العرف الناجم عن مجموع القيم والعادات والتقاليد التى فرضتها ظروف الحياة الاقتصادية فى الصحراء ، وأهم ما تمتاز به القبيلة سيكولوجيا هو مدى سيطرة أو قوة تأثير الرأى العام فيها على أفرادها ، وخشيتهم من الخروج عليها ، ويرأس القبيلة شيخ له سلطته العليا التى تنتقل وراثيا طبقا للنظم الارستقراطية البطريركية ومسئولية شيخ القبيلة مسئولية اقتصادية ، لأنه يحدد ويبين أماكن الرعى ، ويضع قواعد الانتفاع بأماكن الرعى ويحدد مواعيد العمليات الرعوية . ولما كانت الأرض عادة ملكية مشاعة للقبيلة فيقوم شيخ القبيلة بتوزيع أماكن الرعى والكلأ والآبار وتوفير أسباب المعيشة لسائر عشائر القبيلة .

ولقد شهدت بعض المجتمعات الصحراوية والبدوية مثل ليبيا والكويت الكثير من التغيرات البنائية السريعة ، نتيجة لظهور البترول واستخراجه وعمليات تصنيعه وتكريره ، ولذلك تغيرت الكثير من أنماط البداوة ، نظرا لانجذاب البدو نحو هذه

المناطق الجديدة ، حيث الأجور العالية، وظهرت وسائل المواصلات والطرق الفسيحة التى تربط بين أطراف المكان .

وبالرغم من اقامة غالبية هؤلاء البدو بالقرب من مراكز ضخ البترول ، فى مساكن حديثة ، إلا أنهم مازالوا يتمسكون بقيم البدوى ، رغم دخول الراديو والتليفزيون ، وحين ازدحمت الحواضر فى مجتمعات الصحراء ، نقصت الأيدى العاملة فى ميادين الزراعة والرعى والخدمات ، فتدهورت الثروة الحيوانية التى كانت ركيزة الاقتصاد البدوى وعماده كما ارتفعت الأجور وازدادت أسعار اللحوم ، ونتيجة للامتداد العمرانى نقصت الرقعة الزراعية .

ويمكن لحل هذه المشكلات الاقتصادية ، الاهتمام بعملية التنمية الاجتماعية وتعبئة وتنظيم الأفراد ، وتهيئة عوامل التقدم الاجتماعى ، مع محاولة خلق الأهداف والانماط الجديدة ، لكى تحل بطريقة تدريجية ، كبدائل للاهداف والانماط القديمة .

رعاة أوربا وأفريقية :

وينتشر نمط الرعى فى كل من أوربا وأفريقية وآسيا ، وفى شرق أفريقيا مثلا ، تجد رعاة الثقافة النيلية ، كالدنكا والنوير والشلوك ، بينما يعيش « الماساى » على قنص الأسود ورعى الماشية فالرجل صائد قنّاص ، يعرف كيف يستخدم القوس والحربة والسهم والرمح ، كما يعرف فى نفس الوقت كيف يربى الماشية ويرعاها ، لأنها مركز الاهتمام الاقتصادى ، ودليل المكانة الاجتماعية . والماشية عندهم ليست مجموعة من الأغنام والأبقار ، وإنما هى حيوانات مدللة لا تعمل ولكل منها أسمها ، وهى مصدر الثروة ووسيلة التبادل التجارى ، ويزداد المركز الاقتصادى بأزدياد ملكية عدد الماشية لأن قيمتها تعادل قيمة النقود فى المجتمعات الحديثة ، فهى الغاية التى يتدافع ويتصارع الناس من أجلها وفى الحصول عليها .

وغالبا ما يعيش رعاة ثقافة شرق أفريقيا على اللبن ، ونادرا مايأكلون لحم الأبقار لأنهم يحصلون على حاجتهم من اللحوم عن طريق الصيد والقنص . أما الماشية والأبقار فتلعب فى الاقتصاد الرعوى دورا هاما فى تدعيم الروابط الاجتماعية ، وبخاصة رابطة الزواج ، فى حالات الخطوبة وتقديم « المهر » Lobola .

و « اللوبولا » أو المهر عبارة عن عدد من المواشى يقدمها العريس وأقاربه إلى أسرة العروس . وقد تطلب العروس مهرا كبيرا لايستطيع العريس أن يقدمه إلا بعد أعوام طويلة ، وقد يستمر العريس فى تقديم المهر حتى بعد القيام بالزواج ، بل وحتى بعد الانجاب ولهذا السبب الاقتصادى ، أصبح الزواج فى ثقافات شرق أفريقيا هو الفرصة المواتية لتوطيد العلاقات الاجتماعية بين أسرتين فالزواج هو الذى يساعد على انتقال الثروة والماشية بين العائلات والعشائر .

وفى ثقافة الشيلوك ، من الطريف أن المرأة لا تستطيع أن تنفصل عن زوجها بطلب الطلاق إلا إذا قدمت عشيرتها عدداً من الأبقار والماشية يعادل مادفعه زوجها مهراً . والا يحق للزوج أن يسترد ويحتفظ بأولاده الذين أنجبهم نتيجة لاقترانه بزوجته . وإذا ماتزوجت الزوجة الأرملة التى توفى زوجها ، فإن أبناءها من الزواج الجديد يصيرون أبناء الزوج السابق الذى دفع المهر ثم مات ، فالأبناء هم أبناء الزوج الذى يدفع « اللوبولا »[1] .

نمط الثقافة المتخلفة :

وعلى العموم يتسم « نمط الاقتصاد البدائى المتخلف » بسمات عامة أهمها بساطة التنظيم واستاتيكية النسق الاقتصادى ، وتشابه الأدوار والمراكز فى نسق صغير الحجم قليل الموارد ، يأخذ بنظام التبادل والتهادى قبل ظهور «فكرة السوق» وما يدور حولها الآن من نظم معقدة فى بورصات التجارة والمال ، والعقود والنقود .

ويماثل نظام التبادل التجارى نظام الاقتصاد الطبيعى L'économie Naturelle الذى يسود فى كل المجتمعات المتخلفة ، فظهرت فكرة المقايضة الجبرية التى أكتشفها الانسان الاقتصادى البدائى ، قبل ظهور أهم اختراع تجارى وأعنى به اختراع النقود ، كوسيلة للمقايضة . وقد استخدمت مجتمعات «الصيد والقنص» السهام والجلود ، وأستعان الرعاة بالماشية والابقار ، ويستعين القرويون حتى الآن بالحبوب والغلال .

(1) Radcliffe-Brown, A.R. Structure & Function In primitive Society. London, 1956.

ولاشك أن نظام النقود هو من الناحية الاقتصادية البحتة ، هو أكثر تقدما من نظام المقايضة ، فالنقود « مقياس اقتصادى دقيق وحديث » يحدد قيمة السلع كما تمتاز النقود بأنها مقياس موضوعى وثابت . كما وقد أصبحت النقود أداة لحفظ الثروة ، لما أمتازت به من « سهولة وسيولة » فى الأخذ والعطاء ، ولما تتسم به من التجانس والقابلية للعد والتقسيم ، والتمييز فيما بينها .

النمو الاقتصادى فى التاريخ :

(ا) إذا ما التفتنا إلى كتابات مؤرخ انثولوجى مثل « جوردن تشيلد » Gordon Childe ، حين يعرض ويسجل لنا كل ما يتصل بماضى« الشعوب والحضارات القديمة » لوجدناه يحاول تقسيم تطور الثقافات والمجتمعات خلال مسار تاريخ التحضر البشرى ، فيقسم هذا المسار التاريخى تقسيما اقتصاديا ، استنادا إلى قياس « درجة التطور الحضارى مع بداية ظهور التغيرات الاقتصادية الحاسمة التى تطرأ على حياة المجتمعات »[1] .

وفى كتابه « الانسان الذى صنع نفسه Man Makes Himself » أشار « جوردن تشيلد » إلى ما أسماه بالثورات الاقتصادية Economic Revolutions تلك التى كان لها رد فعلها فى محيط الانتاج والعمل فتؤدى بالتالى إلى التغيرات الاقتصادية والسياسية الهائلة . ولقد كانت الثورة الصناعية الأولى ، تتمثل فى محاولة الانسان « لانتاج الطعام Food Production »وبداية الاستقرار ، باكتشاف الانسان لكيفية استزراع الأرض واستنبات النبات بطريقة صناعية . ولذلك تحولت المحاصيل والمنتجات الزراعية بفضل تدخل العامل البشرى ، من « منتجات برية » إلى محصولات و « منتجات انسانية » نظرا لتدخل فكر الانسان وللاستخدام المستمر الرشيد لذكائه وتعديل سلوكه ، وتبديل أنماطه المسبقة .

وبدأت الثورة الاقتصادية الثانية مع هجرة الفلاح من القرية إلى المدينة ، ويسميها « تشيلد » بالثورة الحضرية « Urban Revolution » ، فانتقل النمو الحضرى للانسان من حالة البداوة ، وترقى إلى الحالة الحضرية « Urbanism ومن

(1) Childe, Gordon., Man Makes Himself, Fontana; 1966.

هنا نشأت المدن فى عصور « الحجر والبرونز والنحاس » وكلها عصور « ذات طابع ومضمون اقتصادى » .

ويتجه هذا التقسيم ويعتمد عند « تشيلد » على أساس الطاقة الاقتصادية التى تمكن الانسان من أكتشافها وضبطها والاستفادة منها ، نتيجة لكفاحه المستمر مع البيئة ومحاولته الدائمة والدائبة للسيطرة عليها وعلى كنوزها .

أما « الثورة الاقتصادية الثالثة » ، فقد اندلعت مع تباشير الثورة الصناعية الحديثة فى انجلترا منذ أواخر القرن الثامن عشر حين توصل الانسان إلى « كيفية استخدام البخار كقوة محركة للآلة » ومنظمة للحياة الاقتصادية المنتجة .

ولقد كان أكتشاف الذرة Atom » هو بمثابة الثورة الاقتصادية الرابعة التى نجمت عن القوة النووية ، بتفتيت الذرة وتفجير اليورانيوم ، وتحويل « المادة » إلى « طاقة » تتمثل فى أضواء وحرارات واشعاعات ، وتفاعلات أخرى يمكن استخدامها فى ميادين الصناعة والزراعة والطب والهندسة .

(ب) ولقد رفض الانثروبولوجى الأمريكى « ردفيلد Redfield » نظرية الاركيولوجى « جوردن تشيلد » تلك التى تأخذ بفكرة المراحل ، أو الثورات الاقتصادية الأربع . وذهب ردفيلد إلى أن الحياة فى المجتمع هى أما مدنية Civilized » وأما « غير مدنية Uncivilized » واما سابقة على الحالة المدنية Precivilized » ومع ظهور المدن أو نشأتها ظهرت المدنية ، وهى بمثابة مرحلة الانتقال الكامل نحو الاستقرار الاقتصادى والتنظيم الاجتماعى والسياسى[1] والمرحلة السابقة على المدنية ، هى حالة بدائية ، لم تصل بعد درجة الكتابة حيث كان المجتمع أمياً لايعرف الكتابة Preliteral ، وتلك المرحلة التى تسمى بمرحلة العشائر Folksociety حيث لايبدأ التسجيل والتدوين ، وهى حالة اجتماعية لم تصل بعد مرحلة المدن والتنظيم المدنى .

(١) ليست الفوارق الحقيقية بين الناس ، كما يذهب « ردفيلد » هى فوارق بيولوجية عرقية ، وإنما تتمثل فى ذلك التمايز القائم بين تصورات ومعتقدات الناس وأوهامهم وما يستحوذ على أهتمامهم ، ويستلفت انتباههم ، ويؤثر فى تصرفاتهم ، ويحدد اختياراتهم وتفضيلاتهم الشخصية . أنظر فى هذا الصدد لنتون ، رالف : الانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف المكتبة العصرية . بيروت ١٩٦٧ ص ١١١ .

ويميز « ردفيلد » بين مفهوم « الثورة Revolution » ، وبين مرحلة الانتقال Transformation ، فالثورة تتضمن عنصر المفاجأة ، أو هى تغير فجائى جذرى وعميق ، على العكس من حالة « التمهيد » أو مرحلة الانتقال . فثورة انتاج الطعام Food production ليست ثورة لأنها لم تكن حالة فجائية ، أو تغير جذرى عنيف، وإنما مهدت لها بالضرورة بعض المراحل الاقتصادية المسبقة ، تلك التى ساعدت على التوصل إلى أكتشاف أو ابتكار الطرق الجديدة لتخزين أو انتاج الطعام .

واستنادا إلى هذا الفهم يقول « ردفيلد » يستطيع الفيلسوف أن يبدأ فلسفته بالكتابة عن أرسطو ، كما يبدأ البيولوجى بالاميبا ، أما الانثروبولوجى فينطلق من الاندمان Andaman[1] .

(جـ) ولاشك أن الظواهر الاقتصادية إنما تدور أصلا حول حاجة الانسان وقيمه وظروفه ونظرته إلى الحياة ، بالاضافة إلى معرفة كيفية أشباعه لحاجاته عضوية كانت أم سيكولوجية . الأمر الذى معه يهتم الأقتصاديون بظواهر الاستهلاك ، وعمليات الانتاج Production ، وذلك مع دراسة النفقة الاقتصادية[2] الخاصة والعامة ، ومن أجل تحقيق الرفاهية » بأقل قدر ممكن من الانفاق والتضحية المادية.

ومن أجل حل هذه المشكلة ظهرت المذاهب الرأسمالية والماركسية والتعاونية والقابية . ومع ظهور الرأسمالية تعقدت « الآلة » وتطورت التكنولوجيا وازدادت حركة التسويق ، وظهر « التاجر المخاطر » الجرىء ، و « الوسيط » الذى يشترى من المنتج كى يبيع إلى المستهلك ، وانتقلت الأهمية الاقتصادية والمكانة الاجتماعية، من مجرد ملكية الأرض إلى أهمية ووظيفة رأس المال .

---

(1) Lssa, Aly., Social Anthropology, Theory & practice, Cairo, 1964. p. 234.

(٢) يعرف الاقتصاديون « الانتاج » بالمعنى العلمى ، بأنه محاولة « خلق السلعة » أو زيادة منفعتها . عن طريق الاضافة أو « تحويل مادة أولية » غير قابلة للاستعمال إلى مادة قابلة للاستهلاك أو الاشباع ، وقد يكون العمل المنتج عبارة « عن مجهود عقلى أو ذكائى أو فنى » كأنتاج الفيلسوف والأديب ، ومجهودات الفنان والطبيب .

ومع بداية الثورة الصناعية فى انجلترا ، تطور الفكر الاقتصادى بشكل ملحوظ بعد انتهاء القرن التاسع عشر ، فلقد ساهمت حركة التصنيع الآلى التى صاحبتها ونجمت عنها ظهور مختلف الأزمات التى أجتاحت أوروبا ، حيث تراكمت وإزدادت البطالة الظاهرة والمقنعة بين جماهير العمال ، وظهر الفراغ Vacuum الهائل الذى فصل فصلا كاملا بين صاحب العمل ومساعديه وغلمانه ، وازدادت بل وتعقدت المسافة الاقتصادية ، كما تنوعت وتمايزت العلاقات بين سائر الطبقات.

(د) ونظراً لوجود هذه الأزمات ، شجرت الصراعات ونجمت الكراهية وتعقدت العلاقة بين مختلف الفئات المنتجة . وحين تضخمت وانتشرت المنتجات وتعددت مصادر الانتاج عبر الأسواق ، خضعت جماهير العمال لصرامة قانون العرض والطلب وأصبحت العمالة مهددة فى رزقها ، فظهرت مشكلات الأجور Wages ، وضاعت قيمة الإنسان ... وتحت وطأة التصنيع ، نجمت الطاقات الجديدة ، وظهرت « التكنولوجيا المتقدمة » والمواد المتعددة ، كما إزدادت قيمة العلم ، وتعقدت المعرفة التجريبية مع الاهتمام بالمنهج العلمى وتطبيقاته . كما إزدادت معدلات المواليد ، وقلت أو خفت حدة معدلات الوفيات حين تقدمت علوم الطب العلاجى والوقائى ، مما أدى إلى التضخم فى أعداد السكان .

حضارة العمل :

ان الحياة هى مبعث « العيش والعمل والانتاج » ، ومع تطور الحياة على الأرض، تطور العمل وتطورت أساليب العيش . والعمل هو الواجهة الحقيقية لكل « نتاج اقتصادى » أو فنى أو أدبى ، حيث يخلق الكاتب والفيلسوف ، ويبدع الفنان ، كما ويعمل الفكر دائما من أجل الحياة . ولذلك ارتبط العمل حضاريا بمدى فهمنا لحقيقة « الزمان Time » و « المكان Space » ، بل وتعقد فهمنا للزمان والمكان مع تعقد وتطور الحضارات والثقافات ، فلا قيمة للزمان والمكان بين المتخلفين والمتأخرين ، بل ولا معنى لهما عند البدائى والقروى حيث لايشعر كل منهم بقيمة الزمان الاقتصادى ، حين يرتبط بحضارة العمل .

والعمل هو أصل الثقافة « Culture » وأصل المجتمع والحضارة ، وبفضل العمل كظاهرة جمعية تحول الانسان من دنيا الحيوان ، ودخل عالم البشر ، حين ترق إلى درجة « الانسان العاقل Homo-sapiens » ، وهو الانسان الحامل لكل الخصائص الانسانية [1] .

---

(1) Engels, Frederick., Dialectic of Nature, Progress publishers Fourth printing, Moscow. 1966. p. 170.

الفصل الرابع

الأيكولوجيا الحضرية

- ★ تمهيد .
- ★ الايكولوجيا والحضارة .
- ★ كيف صدرت كلمة أيكولوجيا ؟ .
- ★ الايكولوجيا والتكيف .
- ★ الايكولوجيا والبيئة .
- ★ الايكولوجيا والتنظيم الاجتماعى .
- ★ التفاضل الحضارى والتنظيم الايكولوجى .
- ★ التفاضل السيكوفيزيولوجى .

تمهيـــد :

إن المنهج الايكولوجى ، هو ذلك المنهج الأولى الذى يستخدم كبداية أولى لكل دراسة حقلية ، يقوم بها الباحث فى ميدان الدراسات السوسيولوجية ، والأنثروبولوجية ، وتستند النظرية الايكولوجية إلى قضية منطقية جوهرية ، تفترض إستمرار أو ديمومة « أنماط الحياة life Patterns » بكل صورها العضوية ، كما تتجلى فى أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية .

الايكولوجيا والثقافة :

ولعل البدايات الأولية فى دراسات الايكولوجيا الانسانية Human Ecology إنما بدأت أولا بتلك المساهمات التى قام بها علماء إيكولوجيا النبات ، وإيكولوجيا الحيوان ، حيث وضعت تلك الكتابات الركيزة الأساسية ، التى اليها تستند قضايا النظرية الايكولوجية العامة ، حين تعبر عن « بناء » أو « نسق » من القضايا الايكولوجية إستنادا إلى مصادرها ومضامينها المنطقية حين تتصل « النظرية الايكولوجية » ببعض المسائل السوسيولوجية الجوهرية ، مثل مسألة « طبيعة nature ، و « تطور development » البناءات الاجتماعية . إذ أننا ننظر أصلا إلى الايكولوجيا على أنها دراسة « كل مظاهر الحياة » من زاوية علاقتها بتطور البيئة الفيزيقية Physical development إلى الدرجة التى معها اتسعت الدراسات الايكولوجية ، لتشمل الايكولوجيا المائية أو البحرية ، كى تتناول التوزيع البيولوجى للأحياء المائية فى أعماق البحار والمحيطات ، ومدى ملاءمة هذه الكائنات البحرية مع درجة حرارة الماء أو نسبة الاكسوجين الذائب ، فيه وقياس درجات الحموضة والقلوية ومدى إتساقها كبيئة فيزيقية تتلاءم مع الجوانب البيولوجية . وقد تتسع دراسات الايكولوجيا فى المستقبل ، كى تدرس وتتناول ايكولوجيا الفضاء لامكان وجود بيولوجيا فضائية ولاحتمال وجود أشكال أخرى من الحياة فى أجرام أو كواكب أخرى بعيدة عن كوكبنا الأرضى .

كيف صدرت كلمة ايكولوجيا ؟

وتشتق كلمة « إيكولوجيا » من الأصل اليونانى « Oikos » ليعنى «بيت» أو «منزل» أو مكان للاقامة والمعيشة ، ومن هذا الأصل اليونانى صدرت مصطلحات أكثر تداولا ، مثل كلمتى « economics » و « economy » [1] .

ولقد اصطنع العالم البيولوجى الألمانى « هيكل Haëckel » الإصلاح العلمى « إيكولوجيا Ecology » ، كى يطلقه على دراسة الكائنات النهائية الحية . ولقد صدر هذا الاصطلاح أول ما صدر فى عام ١٩٦٨ .

ولكن الايكولوجيا كعلم وضعى ، هى علم حديث نسبياً ، ظهر مع بدايات القرن العشرين ، حين صدرت كتابات العالم النباتى « اجنس ورمنج Eugenus Warming » فى علم « ايكولوجيا النبات Ecology of plants » وبخاصة عام ١٩٠٩ . وفى عام ١٩٠٥ صدرت كتابات « كلمنتس Clements » فى مناهج البحث فى الايكولوجيا Research Methods in Ecology » وفى عام ١٩٠٧ صدرت دراسة لنفس هذا الكاتب تحت عنوان : « ايكولوجيا وفسيولوجيا النبات Plant Physiology and Ecology » ، ومن ثم بدأت المطابع تصدر العديد من سائر الدراسات والكتابات الايكولوجية ، والتى أخذت تثرى وتترى وتتواتر ، فإزدادت المكتبة الايكولوجية ثراء فوق ثراء . حيث بدأ إهتمام العلماء بهذا الفرع الحيوى من فروع العلوم البيولوجية والتشريحية .

الايكولوجيا والتكيف :

وتعرف دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britannica « ميدان البحث الايكولوجى ، بأنه هذا الميدان الذى يضطلع بدراسة الصلة بين الكائنات أو جماعات الكائنات العضوية فى صلتها وعلاقتها بالبيئة . على إعتبار أن « عالم الحياة World of Life » هو « نسق دينامى متفاعل » .

على إعتبار أن كل كائن حى ، إنما يواجه بيئة خارجة عن ذاته ، كما يضطر إلى

(1) Hawley, Amos H., Human Ecology, A Theory of Community Structure, Ronald, New York, 1950. p. 3.

« التكيف adjustment » معها ، بفضل « عملية ثابتة constant Process » من عمليات التكيف . ويخضع لهذه العملية الضرورية كلّ كائن عضوى ، سواء أكان « جنساً » فى مملكة النبات ، أو « نوعا » فى دنيا الحيوان ، أو « فرداً » فى عالم الانسان .

حيث ترتبط حياة الكائن العضوى بشروط البيئة الفيزيقية ، تلك الشروط التى لاتتصل فحسب بشروط « المناخ » و « الطوبوغرافيا Topography » وهى الدراسة الخاصة بالتحديدات المكانية ، بل وترتبط أيضًا حياة الكائن العضوى بشروط البيئة ، من حيث « المناشط الجمعية Collective activities » التى تقوم بها مختلف الزمر وسائر الجماعات ، و « رد فعلها المباشر » إزاء حتم البيئة .

وفى هذا الصدد أعلن « Bews » أن ثالوث الحياة ، إنما يتألف أصلا من « البيئة Environment » و « الوظيفة Function » و « والكائن العضوى Organism » ... وهذا هو الثالوث البيولوجى الرئيسى ، حيث نجد أن كل مناشط الكائنات الحية والجماعات الانسانية ، إنما تتجه أصلا أثناء حياتها وتطورها نحو القيام بعملية أساسية ، حين تقصد الموجودات الحية ، والكائنات البشرية ، نحو قصد واحد فحسب ، وذلك هو قصد « عملية التكيف المباشر » مع البيئة الفيزيقية القاسية .

ولعل الكتابات الايكولوجية ، إنما تمتد جذورها بعيداً . فى العلم البيولوجى وفى الفكر السوسيولوجى على السواء ، حيث بدأت طلائعها منذ عام ١٨٥٩ مع كتاب « أصل الأنواع Origin of Species » الذى نشره « تشارلس داورين Darwin » .

حيث حدثنا داورين فى هذا الكتاب ، عن فكرته الأصلية عن « الصراع من أجل البقاء Struggle for existence » بمعنى بقاء الأصلح وكفاحه ضد البيئة الفيزيقية التى لا ترحم . وما يعنينا من ذلك ، هو أن بدايات الايكولوجيا الأولى ، قد صدرت مع كتابات « داروين » و « والاس Wallace » . ومع سائر الدراسات البيوفيزيقية التى صاحبت « النزعة التجريبية البيولوجية Biological empiriciam » ، تلك النزعة التى صدرت مع ظهور القرن التاسع عشر ، حين بدأت سائر

الدراسات والكتابات فى ميدان « التاريخ الطبيعى natural History » .

وفى هذا الميدان ، عالج داروين مسائل « الانتخاب الطبيعى natural selection » ، حين ذهب إلى أن عملية التكيف ، إنما هى عملية صراع من أجل الوجود ، ففى ضوء مبدأ الانتخاب الطبيعى ؛ يبقى الأصلح بعد صراع مرير من أجل الحياة ، حين تتحداه البيئة الطبيعية ، فيمارس الكائن العضوى تجربة صعبة ، حين يفوز بالحياة بعد إمتحان رهيب ، تفرضه البيئة وتمليه ظروف الحياة ، إستناداً إلى قانون « البقاء للأصلح Survival for the fittest » .

الايكولوجيا والبيئة :

وفى الدراسة الإيكولوجية ، يقصد بالبيئة Environment كل « العوامل الخارجية external factors » التى تضغط على الفرد وتؤثر فى تحديد انماط سلوكه ولقد نبه داروين أذهان علماء الحيوان Zoologists ، وعلماء النبات Botanists كى يعودوا إلى معاملهم ، لاجراء الملاحظات ، وممارسة التجريب العلمى فى ميادين « المورفولوجيا Morphology » « والفسيولوجيا Physiology » ، حيث يقضى هؤلاء العلماء ويبذلون جهدهم بحثا وتنقيبا ، ووصفاً وتصنيفاً .

ولقد تقدمت علوم إيكولوجيا النبات بسرعة أكثر من تقدم الدراسة فى علم إيكولوجيا الحيوان ، ثم ظهرت فى نهاية المطاف « دراسات إيكولوجيا الانسان » التى هى « الايكولوجيا الانسانية » .

ولقد ظهرت الايكولوجيا الانسانية ، مع ظهور « كتابات بارك R. E. Park » و « برجس E. W. Burgess » ، وبخاصة فى كتابهما « مقدمة فى علم الاجتماع An introduction to the science of sociology » فداعت بذلك كتابات الايكولوجيا فى ميدان علم الاجتماع ، بعد أن كانت قاصرة على إيكولوجيا علوم النبات والحيوان .

ويحدد (و.ب. تايلور W. B. Tylor) مجال دراسة الايكولوجيا ، فى « كل العلاقات الخاصة لكل الكائنات العضوية المرتبطة بكل البيئات All relations of all organisms to all their Environment. » ولهذا السبب « كثيراً ما يقال إن

البيئة ، والوظيفة ، والكائن العضوى ، هم الثلاثى البيولوجى المشهور « Biological Triad » .

البيئة والكائنات الحية :

وهناك قضية جوهرية ، فى علم البيولوجيا ، وهى تلك القضية القائلة : بأننا دائما على صلة معتادة ورابطة وثيقة بالحياة . حيث أن الحياة هى جوهر وجودنا الحى ، كما أنها تحيط بنا من كل جانب . وما يحيط بنا دائما ، هو إما « مادة حية living matter » وإما « مادة غير حية nonliving matter » . وتتميز المادة الحية ، بميزة أساسية ، وتتسم بسمة رئيسية ، وهى أن المادة الحية هى « كيف دينامى » ، بمعنى أنها تمتاز « بكيفيتها الدينامية Dynamic quality » ، وهذه الكيفية الدينامية هى ميزة المادة الحية ، عن المادة غير الحية .

حيث يتوافر «التفاعل والنشاط والحركة» التى تؤدى إلى كيفيات لا تتوافر فى «المادة غير الحية » ، مثل « النمو » و « الاغتذاء » و « التناسل » حتى تتجدد « دورة الحياة Life Cycles » . فلقد أكدت علوم النباتات الحفرية والحيوانات المتحجرة Paleontology ، أن أشكال الحياة إنما تتجدد وتتنوع ، حين يزول القديم ، كى تحل محله صورة جديدة من صور الحياة .

بمعنى أن « الكيفية الدينامية » للحياة ، إنما تؤكد قدرتها على التغير الدائب ، والتجدد الدائم ، فالتغير هو جوهر الحياة . وتستند عملية الحياة بالضرورة وفى كل أشكالها ومظاهرها ، إلى شيئين :

(ا) التركيب الكيميائى Chemical composition من جهة .

(ب) والعملية Process ، من جهة أخرى .

وعن طريق التركيب الكيمائى ، ومناشطه فى عمليات الحياة ، تتشكل صور الحياة « وتتنوع أشكال الكائنات ، فيظهر ما بينها من تمايز يفصح عن نفسه ، بالكشف عن مختلف « الأشكال Shapes » و « الأحجام Size » .

وفى عملية الحياة ، تتساوى « البكتريا الميكروسكوبية » مع الشجرة العملاقة

الضخمة ، كما تتعادل فى الحياة ، « الأميبا Amoeba » من جهة ، والحوت الهائل من جهة أخرى . وبين هذه الكائنات المتباينة ، تتمايز درجات الحياة ، كما تتحقق فى صور وأشكال وأحجام .

ولكن الحياة فى ذاتها ، لايمكن أن توجد « فى فراغ in vacue » إنما تدب الحياة بأقدامها على الأرض،أو فوق الجبل، كما تدب الحياة فى جوف بحر أو باطن صحراء بمعنى أن هناك بعض القوى الخارجية والتأثيرات والعوامل التى تصدر عن العامل الفيزيقى ، ليكون لها صداها ورد فعلها فى عملية الحياة Process of Life .

فالكائنات الحية هى فى مسيس الحاجة إلى « مكان Space » تمارس فيه « مناشطها الضرورية necessary activities » للقيام بعملياتها الحيوية ، وتلك شروط ضرورية وحيوية نجدها متضمنة أصلا فى العالم الخارجى ، وقائمة فى البيئة الفيزيقية .

فالحياة بهذا المعنى هى « تركيب Synthesis » أو تأليف بين « الكائن العضوى Organisn » والبيئة « Environment » وهذه هى القضية المنطقية الجوهرية التى بمقتضاها قامت النظرية الايكولوجية .

الانسان والمكان الايكولوجى :

يتضح لنا من هذه المقدمة الاستهلالية ، أن النظرية الايكولوجية ، إنما تستند بالضرورة إلى محورين أساسين هما « الأرض » من ناحية ، بالاضافة من ناحية أخرى إلى ما يتفاعل مع هذه الأرض بما « يغطيها » من سائر الغطاءات النباتية والحيوانية والبشرية بمعنى أن الايكولوجيا الإنسانية كعلم وضعى ، إنما يرتكز إلى قطبى « الانسان » و « المكان » أو « البيئة » .

و « البيئة Environment » هى إصطلاح علمى ، يطلق على كل العوامل أو « القوى الخارجية external Forces » التى يكون لها صداها ورد فعلها فى تكوين وتنظيم حياة الكائن العضوى .

وتشتمل « البيئة » على كل ما تحتويه من مادة ضرورية للحياة ، وما يحيط بها من عوامل وشروط تسهل أو تعقد من سبل المعيشة ، وكلها شروط جغرافية

وظروف جيولوجية أو عوامل بيولوجية ، وما أعنيه ببساطة ، هو أن « القوى الايكولوجية الخارجية » هى قوى تتعلق بالجو أو المناخ ، أو عوامل تتصل بالأرض وطبقاتها ، أو ظروف الوراثة بما تكمن فيها من سائر القوى الحيوية التى تتحكم فيها قوانين البيولوجيا نباتية كانت أم حيوانية .

وما يعنينا من كل ذلك ــ هو التأكد من أن هذه « القوى الايكولوجية الخارجية » إنما تفرض على الكائن العضوى أن يتكيف معها ، تحقيقاً لبقائه وتأكيداً لمبدأ الصراع من أجل الوجود .

ولهذا السبب تتصل دراسة الايكولوجيا بعلوم البيولوجيا والمورفولوجيا Morphology ، والاقتصاد كما ترتبط بعلوم الجغرافيا البشرية ، والديموجرافيا demography ، الأمر الذى يجعلها فى نهاية الأمر ترتبط بالضرورة بعجلة علم الاجتماع .

حيث تعالج الايكولوجيا مسألة السكان ومناشطهم على سطح الأرض فيدرس الايكولوجى بيئة السكائن الانسانى ويقوم بمسوح طبيعية وثقافية لتلك البيئة ، ثم يربط أخيراً بين مختلف المناطق والبقاع الطبيعية natural area من جهة وبين الدوائر والمناطق الثقافية Cultural area من جهة أخرى[1] .

ولقد إهتم بمسألة الربط بين الدوائر الطبعية والثقافية ، مختلف علماء الاجتماع الحضارى ، من أمثال « جيدس Geddes » و « برانفور Branford » و «لوبلاى Le Play » و « جيدنجز Giddings » كما درس « كروبير Kroeber » ، فى هذا الصدد تلك الصلة الوثيقة التى ترتبط بين المناطق الطبيعية والمناطق الثقافية ، وبخاصة بين القبائل الأصلية فى شمال أمريكا ، ثم قسم « كروبير » هذه المنـــاطق الطبيعية إلى مناطق ثقافية كبرى .

ولا مشاحة فى أن علاقة الانسان ومناشطه وخضوعه للظروف أو الشروط الفيزيقية التى تتصل بالأرض والبيئة الطبيعية ، إنما تجعلنا نقترب إلى حد بعيد من حقل الدراسات الجغرافية ، وما يتصل بها من علوم الجيومورفولوجيا

(1) Hawley, H., Amos., Human Ecology, A Theory of Comunity structure. Ronald, New York 1950.

Geomorphology والديموجرافيا والجغرافيا البشرية ، Human Geography ، ولكن الجغرافيا البشرية ، إنما تتمايز تماماً عن الايكولوجيا الانسانية ، حيث تؤكد الجغرافيا البشرية فقط على تأثير البيئة الفيزيقية على الانسان ، على ما يذكر أصحاب مدرسة الحتم البيئى environmental determinism وعلى رأسهم « راتزل Ratzel » ، وفيدال دى لابلاش Paul Vidal de la Blache « وجين برون Jean Brunhes وغيرهم عن أتباع تلك النظرية التى تؤكد أثر العوامل الجغرافية فى السلوك الانسانى، إلى درجة الدرجة التى معها يذهب « باروس Barrows » إلى أن الجغرافيا هى علم الايكولوجيا الانسانية Human Ecology حيث تدرس الجغرافيا البشرية مختلف الجماعات الانسانية كجزء من « الغطاء الطبيعى » تماماً كما ينظر إلى « الغلاف الهوائى » أو الغطاء النباتى ، أو الحيوانى ، فالغلاف البشرى هو جزء متمم ومتكامل مع سائر هذه الأغلفة والغطاءات الكونية والعضوية .

ولهذا السبب يضيف الجغرافيون ذلك النمط المتغير The changing Pattern الذى يتعلق بدرجة كثافة الكتلة البشرية وكيفية توزيع السكان Population distribution ، ويفسر كل ذلك فى ضوء العوامل الجغرافية Geogrephical factors.

ولكن الغطاء الانسانى ليس مجرد « غطاء طبيعى » يغلف سطح الأرض ، حيث نجد للانسان ردود أفعاله إزاء الطبيعة ، فهو ليس جامداً كتمثال حيال البيئة ، وإنما نجده يخرق الجبال ويبنى السدود ، ويزيل الغابات ، ويعبد الطرق ويزرع الصحراء . وتلك هى جهود الانسان التى نلخصها دائماً كلمة « حضارة Civilization » .

فالانسان هو خالق حضارته وصانعها ، أما الحيوان فلا ثقافة له أو حضارة ، حيث يغير الانسان ما هو بيئى أو طبيعى natural ، والثقافة أو الحضارة ، هى عملية تعديل modification مستمر للموقف الطبيعى ، كما لا تصدر الثقافة إلا عن عملية تكيف adjustment إنسانى مع البيئة الفيزيقية .

وبهذا المعنى تتمايز الجغرافيا البشرية عن الايكولوجيا الانسانية ، حيث تتعامل الجغرافيا مع الناس ومناشطهم activities وتوزيعهم distribution على بقعة الأرض،

فلا ينشغل الجغرافى بتلك العلاقات المتبادلة interrelation تلك التى تنجم عن تفاعل interaction الجماعات والنظم والظواهر والانساق الاجتماعية . وتلك هى وظيفة الايكولوجيا الانسانية فلا ينشغل السوسيولوجى على العكس من الجغرافى، إلا بالعلاقة المباشرة بين الانسان الاجتماعى والبيئة الطبيعية ، ومدى تضافر الجهود الجمعية والعلاقات الاجتماعية فى تساندها وتعامدها interdependence وبخاصة فيما يتعلق بتحديد الأفعال action وتنظيم ردود الأفعال reactions ، تلك التى تربط الجهود الجمعية لعملية التكيف مع البيئة الطبيعية .

وبينما يهتم الجغرافى بانتشار الانسان على سطح الأرض ، ينشغل الايكولوجى بتحليل عمليات التكيف الاجتماعى بالبيئات الفيزيقية ودراسة أثر عمليات التكيف الجمعى فى تحديد شكل العلاقات الاجتماعية وصور التنظيم الاجتماعى Social organization ، ومن ثم تضطلع الايكولوجيا الانسانية بمهمة سوسيولوجية وتعالج مسألة جوهرية فى علم الاجتماع ، وهى تلك المسألة الخاصة بتطور التنظيم الاجتماعى الذى يكون له صداه فى عمليات التغير الاجتماعى .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن للإيكولوجيا الانسانية دورها ومجالها ، كما تستند النظرية الايكولوجية إلى مجموعة من القضايا والفروض العامة ، تلك التى تستمد أصلا من علوم إيكولوجيا النبات والحيوان والانسان ، وبالتالى فإن المضامين المنطقية logical implications المتعلقة بالنظرية الايكولوجية العامة ، إنما تنسجم وتتكامل مع دراسات متعددة ومستفيضة فى علوم التشريح والبيولوجيا والجيولوجيا ، وهى علوم متصلة بعالم الكائنات الحية ، هذا العالم الهائل الذى يحوى بين طياته حقول النبات وبيئات الحيوان ، ومجتمعات الانسان .

الايكولوجيا والتنظيم الاجتماعى :

وليس من شك من أن هناك ما يؤكد تلك الرابطة الوثيقة التى تربط بين الايكولوجيا من جهة ، والتنظيم الاجتماعى Social organization من جهة أخرى . فلا يمكن أن يسبح أى شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى فى فراغ ، حيث تتداخل القوى الايكولوجية إلى حد بعيد فى تحديد الصور الخاصة بأشكال التنظيمات الاجتماعية .

و « التنظيم الايكولوجى Ecological organization بمعناه الوسيع ، هو شبكة العلاقات ، والتفاعلات الوظيفية Functional interrelatinship ، التى بفضلها وبمقتضاها ينتظم الناس فى حياة جمعية[1] .

واستناداً إلى هذا المعنى ، ينبغى على العالم الايكولوجى ، أن يركز الانتباه إلى دراسة تنظيم العلاقات الوظيفية Organization of functional relations .

ولهذا السبب كان الزمان Time ، والمكان Space من المحاور الأساسية لكل دراسة ايكولوجية ، وكثيراً ما حدثنا علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وبخاصة إيفانز بريتشارد Evans Pritchard عن « الزمان الايكولوجى » و « المكان الايكولوجى »، واستند إيفانز بريتشارد إلى تلك الأبعاد الايكولوجية ecological dimensions ، الزمانية والمكانية ، كمدخل رئيسى لدراسته المشهورة عن «النوير The Nuer»[2].

بمعنى أن الزمان والمكان هما من قبيل الأبعاد الرئيسية ، التى فى ضوئها نستطيع أن نقيس أو أن نلاحظ كل تنظيم ايكولوجى ، ولا يمكن أن يقاس أو يدرس أى شكل من أشكال التنظيمات الايكولوجية ، إلا من خلال إطارى « الزمان الاجتماعى والمكان الاجتماعى Social Space »[3] .

وجملة القول ـــ فإن « الايكولوجيا الانسانية إنما تدرس كل مظاهر التنظيم الأيكولوجى،فى ضوء دراسة السكان وبخاصة فى علاقاتهم بالتنظيم الاقتصادى ، ومناشطهم فى الحياة الجمعية ، كما تظهر وتتجلى من طبيعة أسطح البيئات الفيزيقية وأشكالها وتضاريسها وتعاريجها ، وهذا هو طبيعة المكان الاجتماعى » ، بمعنى أن التنظيم الايكولوجى ، إنما يتصل بكل أشكال الأنشطة الجمعية ، ودراستها من زاوية الزمان والمكان ، أى أننا ببساطة ، ندرس النشاط الجمعى Collective acticity كما يظهر للعيان على سطح الأرض .

---

(1) Ibid : P, 193.

(2) Evans - Pritchard E, E., The Nuer, Clarendon Press - Oxford, 1950.

(٣) أنظر كتابنا « علم الاجتماع والفلسفة » الجزء الثانى نظرية المعرفة ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، ودار المعرفة الجامعية الاسكندرية .

التفاضل الثقافى والتنظيم الايكولوجى :

ويدخل فى باب التنظيم الايكولوجى ، كل الظواهر التى تتعلق بالتفاضل الإجتماعى Social differentiation . على إعتبار أن «المجتمع ما هو إلا تنظيم من المتشابهات والاختلافات Organization of differences & Similarities كما تنبثق أسس التفاضل الإجتماعى عن جوهر وطبيعة الحياة الجمعية ، تلك التى تستند أصلا إلى « الأفراد individuals » كما ترجع أيضا إلى شروط البيئة الفيزيقية حيث أن المجموع الكلى للمناشط أو القدرات الفردية individual abilities » هو بمثابة المادة الخام raw material التى عنها تصدر الأصول الأولى لكل ظاهرة جمعية .

ولا شك أن هناك ما يميز « التفاضل » عن « التنظيم » ، فالتفاضل الاجتماعى يرجع أصلا إلى ما ينجم عن ذلك المجموع الكلى لقدرات الأفراد . كما يصدر التفاضل عن ذلك التركيب الاجتماعى الهائل الذى يتألف من فئات السن age والجنس Sex ، تلك الفئات التى تتوظف فى الحياة الجمعية ، كما يستند التفاضل إلى شروط الظـــروف المحلية للاقليم local terrilorial circumstances ويرجع ذلك التفاضل إلى ذلك التمايز الحادث بين مختلف الطبقات ومستويات المعيشة وأوضاع الأفراد ومراتبهم فى النسق الاجتماعى الكلى .

ومن هنا يكون « التفاضل » ما هو إلا الركيزة الأولية التى اليها يستند التنظيم organization . ويقوم كل تنظيم على نوعين من التفاضل ، هما : التفاضل الفيزيوسيكولوجى أو السيكوفيزيولوجى Physio-psychological differentiation من جهة ، والتفاضل الاقليمى territorial differentiation من جهة أخرى .

وقبل الاشارة إلى نوعى التفاضل ، ينبغى التركيز على ماهية « التنظيم » فى ضوء فهمنا لطبيعة التفاضل : فنقول إن التنظيم هو ذلك المفتاح الرئيسى الذى يعالج به عالم الايكولوجيا صور وأشكال التجمعات الانسانية رغم ما فيها من تفاضـــل ظاهر فى تركيب هذه التجمعات .

ولذلك تحاول الدراسات الايكولوجية أن تكشف أو أن تصف كل أنماط التنظيم الانسانى human organization ، على اعتبار أن القضية الجوهرية التى

تستند اليها النظرية الايكولوجية ecological theory برمتها ، هى تلك القضية القائلة بأن التفاعل الاجتماعى ، هو المظهر الرئيسى للوجود الانسانى human existence . ولاشك أن هذا التفاعل إنما ينتج عنه بالضرورة مختلف أشكال أو صور التنظيم ، ولكننا نتساءل وما معنى التنظيم فى ذاته ؟!

فى الرد على هذه المسألة نقول إن التنظيم الاجتماعى إنما يعبر عن تضامن أو تعاون مجموعات من الأفراد والجماعات ، حين تتوظف هذه المجموعات للقيام بدور محدد من أدوار تقسيم العمل الاجتماعى .

بمعنى أن التنظيم هو عبارة عن تعاون جماعة من الأفراد للقيام بوظيفة من وظائف تقسيم العمل. فالأسرة مثلا هى وحدة تتألف من مجموعة من الأفراد حيث نجد داخل اطارها مجموعة من العناصر المتفاضلة ، ففيها الكهل والشيخ والرجل ، وفيها الشباب من أنثى وذكر . فالتنظيم هو تركيب متفاضل الأجزاء للقيام بمهام أو أدوار أو وظائف .

وبهذا المعنى يكون التنظيم الايكولوجى ecological organization هو ذلك الكل المعقد الذى يتألف من شبكة الوظائف function والعلاقات التى بفضلها يعيش الأفراد على إعتبار أن الأفراد هم العناصر الأولية فى كل تنظيم اجتماعى .

وفى ضوء ما يتعلق بطبيعة التنظيم ، علينا أن نشير الآن إلى نوعى التفاضل السيكوفيزيولوجى من جهة ، والتفاضل الاقليمى من جهة أخرى .

١ ــ التفاضل السيكوفيزيولوجى :

من المسلمات الأولية فى علم الاجتماع ، أن الأفراد هم المصادر العينية للفعل الاجتماعى social action كما أنهم أيضا « حملة الملامح والسمات السلوكية bearers of behavior traits ومن المسلم به أيضا على نحو اكسيوماتيكى Axiomatic ، أننا لن نعثر على فردين إثنين متماثلين . بمعنى أنه لا يوجد ولن يوجد إنسان يتطابق تماما مع إنسان آخر من حيث السمات السلوكية والذكائية .

واستناداً إلى نتائج ومكتشفات علوم الأجنة embryology وما يتصل بها من ظواهر كالتهجين والتلقيح وانتقال المورثات من جيل إلى آخر ، فلا مشاحة فى أن

التفاضل بين الناس ، هو حقيقة بيولوجية استناداً إلى تلك العوامل الجنينية واختلاف المورثات ، الأمر الذى يؤدى بالطبع إلى التفاضل من الزاوية السيكوفيزيقية من جهة والسيكوسوسيولوجية من جهة أخرى .

ومن المعروف أن الجينات genes التى تنجم عن التلقيح باتصال الذكر بالأنثى، إنما تأتلف كى تكون باتحادها بويضة مخصبة Fertilized ovum . ولاشك أن لهذه البويضة أثرها فى الزمان الجنينى ، حيث يتطور الكائن العضوى ، وحيث يتشكل البناء الفيزيقى الحى ، وتتحدد النسب الذكائية والملامح العضوية بفضل انتقال المورثات والجينات من الأبوين « كهدية أولى يهديانها طفلهما الوليد » .

وطبقاً لقوانين الوراثة heredity لن نعثر على فردين إثنين لهما نفس السمات الوراثية ، ومن وجهة النظر الاحصائية وطبقاً لمبادىء الاحتمال probability هناك احتمال ضعيف بل ومتناهى الصغر infinitesimal فى العثور على إثنين متشابهين من حيث القدرات العقلية والمظاهر الجمعية والسلوكية والانفعالية .

وحتى فى حالة التوائم Twins ، تلك الحالة تنشأ عن إنشطار خلية مخصبة واحدة a single fertilized cell ، فإننا من الناحية النظرية نجد أن الخلية المنشطرة إنما تتشابه وتتطابق فى شطريها ، ولذلك غالباً ما تتشابه التوائم من حيث السمات والملامح ، ومع ذلك فقد تظهر اختلافات جوهرية وهامة ، فإذا كان التوأم الأول يمتاز بالقوة الجسدية ، نجد أن الثانى يتميز بالضعف الجثمانى ، وإذا كان الأول أعسراً أو « أشول » left-handed ، فيكون الثانى أيمناً أو « غير أعسر » right-handed ، كما وقد تتمايز التوائم من حيث سمات أو طرز الشخصية personality ، ومن حيث القدرات العقلية والذكائية . وهذا ما تؤكده دراسة « تولمان Tollman » المقارنة عن تطابق أو عدم تطابق التوائم بالاشارة إلى المشابهات الذكائية :

" A Comparative study of identical and non-identical twins with respect to intelligence resemblances " .

وبالاضافة إلى العناصر البيولوجية فى عملية الوراثة ، فإن توزيع أفراد المجتمع

وانقسام الفئات الاجتماعية إلى مجموعتين من فئات السن والجنس ، فإن هذا التوزيع الأولى يعتبر من المصادر الأساسية التى يصدر عنها ، « التفاضل الوظيفى Functional differentiation الذى إليه يستند كل تنظيم اجتماعى حيث أن « تقسيم العمل » هو الركيزة الأولى فى كل تنظيم اجتماعى ، كما يتفاضل الناس استناداً إلى اختلاف الوظائف التى يقومون بها فى التنظيم الاجتماعى وطبقاً لمبدأ تقسيم العمل .

ومهما كانت حالة البناء الاجتماعى من التعقد أو البساطة ، ومهما بلغت درجة تحضر المجتمع أو بدائيته ، فإن إنشطار البناء إلى فئات للجنس من ذكر أو أنثى ، وانقسام المجتمع إلى فئات للسن من شبان ورجال وشيوخ ، يعتبر هذا الانشطار أو الانقسام بمثابة الركن الأساسى فى عملية توزيع الوظائف الاجتماعية ، تلك التى تنعكس بالتالى على كل مظاهر النشاط فى الحياة الجمعية collective life حيث تميل الجماعات المتفاضلة إلى تنظيم أنفسها بالقيام بمختلف الوظائف التى يكون لها دورها على أرضية البناء الاجتماعى .

ومن هنا صدرت مختلف المناشط الجمعية لألوان للجماعات التى تختلف وأشكال الزمر التى تأتلف فى القيام ببعض الأدوار التى تتوظف فى سائر الأنساق الاجتماعية فيظهر التجانس homogeneity واللاتجانس heterogeneity فى كل أشكال تقسيم العمل . وينقسم العمل الاجتماعى ، وتتفاضل الجماعات والزمر ، كما تظهر على مسرح المجتمع أشكال من الظواهر الايكولوجية . والمناشط الاقتصادية . وقد تحدث بعض التغيرات التى تطرأ على الوظائف المتفاضلة فتتغير فجأة مختلف الأنشطة السائدة فى بنية المجتمع .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حين نجحت الحكومة الفيدرالية نهائياً فى هدم وتحطيم القوى العسكرية والحربية الخاصة بمجتمع الأروكوا Iroquois ، طرأت بعض التغيرات على الوظائف البنائية ، وتبدلت المناشط الايكولوجية وتغيرت أشكال تقسيم العمل الاجتماعى ، فلقد كان مجتمع الرجال عند الاوركوا قبل الالتحام والخضوع للحكم الفيدرالى ، هو مجتمع القوة العسكرية ، وكانت الوظيفة الاجتماعية لفئة الرجال وظيفة حربية وسياسية ، فالرجال هم هيئة المحاربين التى

تنظر إلى الزراعة agriculture نظرة إحتقار وإزدراء إذ أنها مهنة المرأة ووظيفة النساء . ثم تغيرت وظائف فئات الجنس والعمر مع إنهيار البناء العسكرى والحربى الأمر الذى معه يتلاشى السبب الجوهرى فى إزدراء الزراعة وإهمالها حين تحول الرجل عند الإروكوا من « محارب » إلى « مزارع » ، حيث ألقى بالقوس والحربة كى يهتم بالفلاحة والزراعة ،وتغيرت وظيفة الكر والفر ، وظهرت وظيفة فلاح الأرض المستقر . ومن هنا تتفاضل الوظائف والمناشط الإيكولوجية وتتغير الظواهر العامة التى كانت سائدة فى تقسيم العمل الاجتماعى .

ومعنى ذلك أن التفاضل السيكوفيزيولوجى إنما يتم عن عامل الجنس ، وهناك أيضاً طبقات عمرية متفاضلة فى المجتمع وتكشف عن قواه العاملة ، حيث تتمايز هذه الحالات العمرية بين الطفولة والصبا والشباب والرجولة والكهولة . فالأطفال والشيوخ « فئات معولة لا تعمل » ، وتقلل من طاقة المجتمع وتضعف من قواه ، بينما الشباب هم فئة العمل والانتاج . وبالاضافة إلى هذه العوامل الخاصة لفئات الجنس وطبقات العمر ، هناك أحد العوامل السيكوفيزيولوجية وهو عامل «السلالة أو العنصر Race » وهو عامل بيولوجى يهتم به دارس علم السلالات حيث تتفاضل أجناس الناس وتتمايز ألوانهم ومشاربهم استناداً إلى خصائص ومميزات فيزيقية يكون لها دورها فى عملية التفاضل .

التفاضل الاقليمى :

لاشك أن سطح الأرض لايستوى على نحو محدد ، وإنما نجده يتعرج ويلتوى حين ينخفض تارة ويرتفع أخرى ، كى تظهر المنخفضات والأخاديد والوديان من جهة، كما ترتفع الجبال والهضاب من جهة أخرى. وتلعب هذه الأشكال التضاريسية دورها فى كل الظاهرات الايكولوجية ، ويكون لها رد فعلها فى عالم النبات والحيوان، حين تخضع لشروط المكان وظروف المناخ . ومن ثم تصدر عن تلك العوامل الاقليمية والايكولوجية بعض التصورات والظاهرات الثقافية التى تنشأ أصلا عن مدى درجة الاتصال والعزلة . ومن هنا يكون للتفاضل الاقليمى أثره فى صدور التفاضل الثقافى Cultnral differentiation الأمر الذى من الذى من أجله يتمايز

« الاسكيمو Eskimo » عن شعوب المناطق الحارة ، ويختلف « رجل الجبل » عن « عامل المنجم » ، وتظهر الفوارق واضحة بين « البدوى » الصحراوى المتنقل ، ورجل السهول المزارع المستقر . بمعنى أن التفاضل الاقليمى إنما يفرض أشكالا مختلفة من مظاهر التفاضل الثقافى . وبمعنى أن التفاضل الاقليمى أيضاً إنما هو تعريف فى ذاته وعلى نحو قبلى apriori هو أحد الشروط الجوهرية فى تحديد إنماط الثقافة ، كما يعتبر التوزيع الفيزيقى أحد العوامل السوسيولوجية التى تؤسس الثقافة من جهة ، والتى تغير الأساس المادى للمجتمع من جهة أخرى .

٣ ــ الكثافة الفيزيقية :

وبالاضافة إلى وظائف التفاضل السيكوفيزيولوجى والتفاضل الاقليمى وأثرهما فى التنظيم الايكولوجى ، هناك عامل الكثافة الفيزيقية physical density ، على اعتبار أن الزيادة فى تعداد السكان ، إنما تتأثر بهذه الأشكال الأولى للتفاضل ، حيث يحمل الانسان فى انتقاله كل الملامح الاقليمية والثقافية . ولقد اهتم « اميل دوركايم » بأثر الكثافة الفيزيقية حين يميزها فى دراساته المورفولوجية عن « الكثافة الاجتماعية social density حيث أن الكثافة الفيزيقية ترتبط بتحديد النسبة بين عدد السكان ومساحة الأرض ، وبالتالى نحصل على درجة الكثافة السكانية أو الفيزيقية أما الكثافة الاجتماعية فترتبط بدرجة الاحتكاك أو « تواتر العلاقات » القائمة بين الناس . فقد يتسم شعب معين بالذات بدرجة عالية من الكثافة السكانية مع الاحتفاظ فى الوقت عينه بدرجة منخفضة من الكثافة الاجتماعية[1].
ولذلك تنقسم كل دراسة فى كل تنظيم ايكولوجى إلى مظهرين أساسين :

(ا) مظهر مكانى من جهة .

(ب) ومظهر زمانى من جهة أخرى :

(ا) المظهر المكانى :

يرتبط كل تنظيم االيكلولوجى بالضرورة بالأساس المادى أو التحديد المكانى spatial . حيث أن التوزيع السكانى ما هو فى حقيقة أمره سوى شكل من

(1) Ibid : P. 196.

أشكال « التوزيع المكانى » ، حيث تتأثر الجماعات الانسانية فى تنظيماتها حين تتناثر وتتوزع فى انتشارها على سطح المكان الاجتماعى ، إما فى تجمعات صغيرة نسبيا ، وإما فى تكتلات هائلة [1] .

ونستطيع أن نتساءل عن علة توزيع السكان وانتشارهم فى المكان الايكولوجى ما هى ؟! وكيف تترتب الجماعات وتنتظم الزمر الإنسانية على سطح الأرض ؟ وما هى العوامل الجوهرية التى تسهم فى عملية التوزيع المكانى Spatial diatribution ؟!

للاجابة على هذه المسائل ، نقول إن هناك ثلاثة عوامل أساسية بصدد التوزيع الايكولوجى ومصادر تنظيم المناشط الإنسانية ، بما يتمشى مع الأسس الايكولوجية للمكان الاجتماعى وأول هذه العوامل يتصل بعملية الاعتماد المتبادل interdependence بين مختلف الجماعات والزمر ، على إعتبار أن هناك مظاهر تبادلية للتداخل والتعامد بين علاقات البشر وتكتلاتهم . ويتصل العامل الثانى بعملية اعتماد المناشط البشرية activities ، على المميزات العامة للمكان الفيزيقى ، حيث تستند الوظائف Functions فى تقسيم العمل الاجتماعى وفى تفسير الظواهر الايكولوجية إلى مختلف الخصائص والسمات التى تتسم بها البيئة أو طبيعة الأرض. أما العامل الثالث والأخير فمرتبط بذلك الامتداد المكانى الذى يتيح للغضاء الانسانى فرصة التلاحم والاحتكاك contact .

وبصدد هذه العوامل ، لايستقل عامل بذاته عن سائر العوامل الأخرى ، حيث أنها عوامل تتضافر وتتكامل دون ما إنفصال أو استقلال ، ولا يفصل بينها علماء الإجتماع إلا بقصد ما تتطلبه عملية التحليل فلا يميزون فيما بينها إلا لأغراض الدراسة فحسب . فالفصل بين هذه العوامل ليس حقيقياً ، وإنما هو بمثابة فصل ظاهرى يقتضيه التجريد العلمى . فهناك اعتماد متبادل دون شك بين مناشط الإنسان ونوع البيئة الفيزيقية ، كما يقلل العامل الايكولوجى أو يزيد من درجة تركز السكان أو تخلخلها Concentration ، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تحديد شكل التنظيم الايكولوجى من زاوية طبيعة المكان الاجتماعى .

(I) Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaires de la Vie Religieues. F Alcan Paris 1912. p. 15.

(ب) المظهر الزمانى :

إن التحديد الزمانى temporal يتكامل تماما مع التحديد المكانى ، حيث أن الزمان كالمكان له دوره الخطير فى تحديد شكل التنظيم الايكولوجى ومداه ، ودرجة إتصال أو تماسك الجماعات ، وفرض أنماط أو صور عامة للسلوك الجمعى Forms of Collective behaviour وفقاً لطبيعة المناشط الايكولوجية التى تتغير من حين لآخر طبقاً لتواتر مختلف الفصول التى تشكل إطاراً زمنياً عاماً تدور فيه مختلف أنماط السلوك الاقتصادى وأساليب الحياة الجمعية ، تلك الأساليب والأنماط التى لا تنظمها وتفرضها سوى مجموعة من الأبعاد الزمانية temporal dimensions .

ولا يمكننا بالطبع فصل ما هو « مكانى » عما هو « زمانى » إذ أن الزمان والمكان من الصور الاجتماعية الأساسية التى تتدخل فى صلب كل دراسة سوسيولوجية أو حقلية . ولا يمكن أن نفصل الزمان الاجتماعى عن المكان الفيزيقى إلا على سبيل التجريد abstraction إذ أننا لا ننتقل فى المكان إلا خلال الزمان ، ولايمر بنا الزمان ويتواتر إلا داخل صورة مكانية أيا كانت . فالنمط الزمانى temporal pattern هو متضمن أصلا فى كل نمط مكانى Spatial Pattern .

وإن كان ذلك كذلك ، فان فكرة الزمان ، لا تتولد عن التجربة الشعورية للفرد ، وإنما تصدر عن أصل اجتماعى ، وتنبع عن تلك التجربة الحية القائمة فى الحياة الجمعية ، فالتقويم الزمنى هو إذن تعبير صريح « عن إيقاع الحياة الاجتماعية» وما يصاحبها من مظاهر وظواهر النشاط الجمعى . وهكذا يصدر «الزمان الاجتماعى عن تلك الديمومة الكلية المطلقة الكامنة فى حياة الجماعات .

ولقد تابع « هوبير » و « موس » هذا الاتجاه الدوركيمى ، وقالا بالأصل الدينى والسحرى لفكرة الزمان . والتفت « مارسيل موس » إلى الزمان باعتباره نتاجا ضروريا ينجم عن تلك الأفعال والطقوس الدينية ، كما حاول أيضاً أن يؤكد الأصل الدينى الغيبى وأن يدعمه بدراساته المختلفة حول التصورات السحرية[1] .

---

(1) Huber Et Mauss, Mélanges D'Histoire des Religions, Paris 1929. p. 191.

وخلاصة القول إن الزمان الدوركيمى ليس صورة من صور الحدس ، كما أنه ليس قبلياً a Priori فى العقل الخالص ، على نحو ماذهب كانط Kant[1] وإنما حاول دور كايم وأتباعه أن يؤكدوا الصورة الاجتماعية لفكرة الزمان ، وأن ينكروا قبليتها، بابراز الأصل الاجتماعى لحركة الزمان ، من حيث أن تلك الصورة الزمانية إنما تبستمد خصائصها الضرورية والكلية من واقع التتابع الاجتماعى للاحداث ، ومن تتالى الشعائر والطقوس الدينية .

وبهذا المعنى يصبح الزمان عند دور كايم ، وهو زمان الجماعة وديمومتها الكلية الصائرة ، على مر السنين كما تصبح « مقولة الزمن » عند دوركايم ، ظاهرة إجتماعية ، تشكل فى بنية المجتمع « نظاماً إجتماعيا » ثابتاً [2] .

وهكذا يلقى علم الاجتماع على فكرة الزمان ضوءا ، ويضفى عليها طابعاً اجتماعيا ، ويعطى لها تفسيراً يكشف عن مغزاها الدينى ومبناها الجمعى .

ولقد عقد الاجتماعيون والتاريخيون أهمية كبرى على فكرة الزمن ، وذلك بربطها بالماضى الاجتماعى ، أو الماضى التاريخى ، ذلك الماضى الإنسانى الذى يظهر بظهور المجتمعات ، والذى يتصل بالإنسان منذ أن كانت له تجاربه وأعماله وجهوده ومنذ أن شاد نظمه الاجتماعية ، تلك التى تلخصها جميعاً كلمة «الحضارة» ومن ثم كان الزمان الاجتماعى هو الزمان الممتلىء بالتجارب الإنسانية والاجتماعية ، وهو « الذاكرة الاجتماعية » التى تحفظ حضارة الإنسان الفكرية والدينية والخلقية .

وفى هذا الصدد كشف « موريس هاليفاكس Halbwachs » فى كتابه عن « الاطارات الاجتماعية للذاكرة les Cadres Sociaux de la Mémoire . حيث أنه كشف[3] عن فكرة الزمان باعتبارها إطاراً إجتماعيا من إطارات الذاكرة ، وعنصرا رئيسياً من عناصر عملية التذكر ، حيث أننا أثناء قيامنا بالتذكر ، إنما نحاول أن نتوصل إلى الأحداث من خلال معرفتنا وتذكرنا لزمانها ومكانها .

---

(1) Ibid : P. 234.

(2) Kant, I., critique de La Raisonpuew., Press. univers, France., 1950. P. 63.

(3) Halbwachs, Maurice., Les Cadres Sociaux de la Mémoire. Nouvelle Edition. E. Alcan Paris 1955. p. 28.

ولما كانت الذكريات تتصل بالواقع الإجتماعى فاننا نقول مع «هاليفاكس» : ان الزمان والمكان من الاطارات الاجتماعية للذاكرة ،«حيث أننا لا نمضى من الذكرى إلى الزمان ، ولكنا نمضى من الزمان كاطار إجتماعى ، إلى الذكرى كحدث ولى وإنقضى ، كما أننا لا نستثير الذكرى إلا فى سبيل ملء الإطار ، ولقد كنا نفقد الذكرى لو لم يكن لدينا الإطار تملأه » .

ومن ثم كان من الواضح أن الزمان إطار اجتماعى ممتلىء بالعناصر الاجتماعية والتجارب الجمعية والأحداث الإنسانية [1] . ومن هنا ربط «هاليفاكس » فكرة الزمن بفكرة الماضى المتذكر ، وأضفى على مقولة الزمان عنصراً اجتماعيا خالصاً باعتباره شرطاً أو إطاراً لقيام الذكريات .

هناك من الدلائل الاجتماعية ما يكشف عن العناصر الجمعية والتاريخية التى تكمن فى فكرة الزمن ، مؤدها « أن المجموعات الزمنية»، والتقاويم المستعملة فى قياس الزمن ، قد صدرت جميعها بصدور حضارات نبتت فى مجتمعات قديمة ، كما هو الحال فى مصر واليونان وفلسطين والهند ، ومن ثم فقد أصبح لدينا تلك التقاويم الهامة كالتقويم المصرى والتقويم الفلسطينى والتقويم الهندى .

كما أن هناك أحداثا هامة قد نعتبرها مبدأ تاريخيا لحساب السنين ، مثل « الأولمبياد الأولى » أو « تأسيس روما »[2]، كما ويتفق المؤرخون على أن « سقوط روما » أمام غزوات البرابرة ، هو الحد الفاصل بين التاريخ القديم والعصور الوسطى .

وتلك أحداث تاريخية خالصة ، ولكن هناك أيضا أحداثا دينية كبرى قبلتها الجماعات البشرية كبدايات للتقويم الميلادى أو الهجرى . تلك التى بدأتْ « بميلاد » المسيح عليه السلام ، أو « بهجرة » الرسول ﷺ ، وهى أحداث زمانية مقدسة لدى الشعوب الأوربية والإسلامية مما يجعلها « مراكز تثبيت » ، أو نقاط ارتكاز هامة فى التاريخ الإنسانى .

(1) Blondel Charles,Introduction à la Psychologie Collective Collection Armand colin, Paris. 1949. p. 137.

(2) Blondel, Charles. Introduction à la Psychologie collective; A Collin. Paris, 1949. p. 123.

ولعل « موريس هاليفاكس » قد عبر تعبيراً صادقا « عن المعنى الإجتماعى والتاريخى » للزمان بالإشارة إلى فكرة الذاكرة الجمعية ، والمجموعات الزمانية ، أى التقاويم المستخدمة فى قياس الزمن ، وبهذا المعنى يكون « هاليفاكس » مكملا « للاتجاه الدوركيمى » فى معنى ومضمون الزمان الاجتماعى .

الباب الثالث

بين القروية والحضرية

★ الأسرة القروية والعلاقات العائلية .

★ القرابة والعصبية فى النظم التقليدية .

★ ما هى سمات الثقافة القروية ؟

★ التنمية فى مجتمعات العالم الثالث .

★ ثقافة الانسان الحضرى .

تمهيـــد :

(ا) لا مشاحة فى أن الأسرة ظاهرة انسانية عامة ، تسود سائر المجتمعات والثقافات ، على ما يقول « وليام جود Goode »[1] ، أو هى « نظام أجتماعى » له وظائفه ، وميكانيزماته وضوابطه ، وله أيضا التزاماته بعدد من الحقوق والواجبات ، على ما يذكر تتموس Titmuss[2] .

الأسرة القروية والعلاقات العائلية :

(ب) وتترابط الأسر والعائلات بروابط أساسها علاقة الجوار أو روابط الدم ، وهى أساس ما يسمى « بالنسق القرابى-S. System » وحتى نبتعد تماما عن الوقوع فى تفاسير بيولوجية ، فالأسرة أصلا هى جماعة اجتماعية Social group على ما يذكر ليفى استراوس Levi Strauss أساسها الزواج ومجموعة من الحقوق والالتزامات الدينية والاقتصادية والعلاقات الشرعية والقانونية المنظمة للعلاقات الشخصية بين الزوج وزوجته وأولاده منها .

والأسرة هى نواة النسق القرابى كله ، وللقرابة دلالات بيولوجية تنشأ بانحدار الأفراد عن أصل واحد ، أو بالرجوع إلى صلب جد واحد كما ينحدر الحفيد عن الجد عن طريق الأب . وقد تكون القرابة فى خط الذكور Patrilineal Kinship وقد تكون القرابة فى خط الاناث Matrilineal Kinship وتعتبر الأسرة أبسط صور القرابة ، وتقوم على أساسها أشكال وصور العائلات التى تتميز بالتركيب والتعقيد، كما توجد وتتعدد فى سائر المجتمعات والثقافات أنواعاً من الأسر ، يتمايز فيها « البناء القرابى Kinship Structure حسب صلة القرابة فى خط الذكور أم الاناث ، وموضع السلطة Focus of authority وقواعد اختيار الشريك الجنسى ، ومن أنواع وأشكال الأسرة أو العائلة التى تتعدد صورها نجد أن الأسرة النووية Nuclear Family هى أضغر شكل من أشكال الأسرة ، أما الأسرة الممتدة

---

(1) Goode, W.J. The Family, Printice - Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1964.

(2) Titmuss, R., Family as a sociol institution, British National conference on sociol Work., London. 1953.

(3) Levi - Strauss., The Family., Article in Man Culture & Society., .

Extended Family هى التى يبقى فيها الابن بعد زواجه فى بيت أبيه ثم ينجب أطفالا .

وتختلف الأسرة الممتدة ، عن الأسرة المركبة Complex Family حيث يدخل فى الأخيرة نظم زواجية تتعدد فيها الزوجات أو الازواج فيوجد فيها نوعين من الاخوة الاشقاء وغير الاشقاء ، مثل « أخت الأخت » أو « أخ الأخ » وذلك فى حالة زواج الرجل وهو أب لعدد من الأبناء بزوجة أخرى كان قد سبق لها زواج أنجبت منه ، ثم أنجبت بعد ذلك من زوجها الثانى ، فتصبح بناتها وأبنائها بالنسبة لبنات وأبناء الزوج الثانى بمثابة « أخت الأخت » أو « أخ الأخ » .

(جـ) وتتمايز الأسرة المركبة عن الأسرة المتصلة Joint Family وتشتمل على وجود أفراد آخرين تربطهم صلة القرابة بالزوجين وأطفالهما . وتعرف الجماعات القرابية Kinship group حين تتزايد فى الحجم والنمو ، فتظهر البدنة Lineage ، وتحمل البدنة اسم « العيلة » وهو فى الغالب اسم أكبر أفراد الجماعة القرابية سنا .

(د) وتتألف البدنة من مجموع الأفراد الذين يرتدون فى نسبهم إلى « جد واحد مشترك » وينحدر فى خط الذكور Patrilineage وتتحدد البدنة فى خط الاناث من ناحية الأم Matrilineage فأجداد الأم ، كما يقيم الأب فى محل إقامة قبيلة الأم Matrilocal[1] .

ولا نجد فى نسق البدنة نفس التماسك والتعاون الذى نجده واضحا فى الأسرة أو العائلة ، حيث تقل وتضعف أحيانا درجة التعاون والتماسك كلما زاد عدد أفراد البدنة الذى أحيانا قد يصل إلى الآلاف . ويظهر التعاون والتضامن واضحا فى حالة الحرب وعند وقوع الشدائد والأزمات الاقتصادية .

ويشيع نظام البدنات فى الثقافات القروية وفى مجتمعات الرعى والزراعة البدائية، تلك التى تتطلب نوعا من التعاون من عدد كبير من الأفراد تربطهم رابطة القرابة والملكية والمصلحة الاقتصادية .

(هـ) ومع ازدياد حجم البدنات واتساع رقعة الأرض الزراعية أو مناطق

(1) Radcliffe - Brown, A.R., Structure & Function in Primitive Society, Cohen & West Ltd. 1961.

الرعى، تنقسم « البدنة الكبرى إلى عدد من البدنات الصغرى وتتوزع لكل منها منطقة خاصة للرعى أو للزراعة ، وقد تكون العداوات والخلافات سبباً فى انقسام البدنة إلى فروع ، فيستقل كل فرع منها بعائلته وينفصل عن بقية البدنة إلى فرع جديد فى وحدة قرابية مستقلة .

وإذا كانت وظيفة الأسرة التقليدية ، هى وظيفة تربوية خاصة حيث تقوم الأسرة بنقل الثقافة والتنشئة الاجتماعية Socialization إلى جانب الوظائف البيولوجية كالانجاب والتناسل والاشباع النفسى والاقتصادى ، فالأسرة وحدة اقتصادية للانتاج والاستهلاك .

هذا عن وظائف الأسرة ، أما عن البدنات فتتحد فيها الكثير من المراكز ، كالمركز الدينى والمركز الطبقى والمركز السياسى ، إلى جانب الانساب السلالية والعرقية ، التى تستند إلى أصول جينالوجية Genealogical[1] .

(و) فقد تقوم البدنة بوظيفة التحكيم وفض المنازعات والخلافات بين أفراد العائلة ، والتوفيق بين أطراف العائلات داخل نطاق البدنة الواحدة ويتم ذلك بواسطة « هيئة كبار السن » ، أو ممن يحتلون مراكز دينية أو طبقية أو رئاسية.

ومن وظائف البدنات أيضا الاشراف على الملكية فى سائر المناطق والنجوع الخاصة بملكية البدنة ، وهى ملكية عامة لكل ما فيها من ماشية وأراضى زراعية أو مناطق رعى وآبار وعيون . ولذلك تقوم البدنة بوظيفة اقتصادية أخرى إلى جانب الاشراف على الملكية وهى حماية مصالح الأفراد ، ودرء الأخطار عن البدنة ، وتدعيم موقف الأفراد والعائلات فى حالة الأخذ بالثأر أو وقوع جرائم القتل والسرقات[2].

(ز) والبدنة وحدة سياسية وأقتصادية ، تقوم بكل وظائف الانتاج والتوزيع والاستهلاك ، ومنها تشيع السمات الثقافية ، ومن خلالها تتم ضروب من النشاط وألوان من السلوك ، فهى مركز الحياة اليومية .

وفى الصحراء قد يتسع مجال العلاقات القرابية فى البدنة أو القبيلة البدوية حين

(1) Evans -Pritchard, E.E., The Nuer., Oxford, Clarenden Press. 1950.

(2) Berger, M., The Arab World To day, New York., Doubleday & Company. 1962.

يلتزم ويدخل آليها أفراد بالانتماء والولاء المطلق للعائلة ويلزمونه بالحقوق والواجبات العائلية طبقاً لنظام الاكتتاب ، حين يلجأ اليها الغرباء ليدخلوا فى حمايتها ويعتبرون أنفسهم كأنهم من نفس البدنة أو القبيلة حين يكتتبون مع البدو وقبائلهم ، مثال «أكتتاب بعض التونسيين مع عائلة حليص» بالدراع البحرى فى مصر فيصبح لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجب ، وقد يخرج من البدنة طبقا « لنظام البراوة » كعقوبة من القبيلة على بعض المنحرفين من أبنائها كالقتلة ومرتكبى جرائم الاغتصاب والسرقة ، والقتل العمد أو الخطأ ، وعلى كل من صدرت ضدهم عقوبات بالسجن كالحبس ،فيحكم عليهم بالبراوة التى تسجل فى أوراق رسمية ، ويستبعد هؤلاء الأفراد منها ولا يعتبرون من أبنائها ، ويحكم عليهم برفع الحماية عنهم وهذه عقوبة غاية فى القسوة بين البدو ، بل هى أقسى عليهم من « عقوبة الاعدام نفسها» ، فنظام الخلع أو البراوة هو حكم بالضياع والتشرد وتسود « الروح الجمعية » بين أعضاء البدنة ، وتصبح المسئولية الحقيقية هى مسئولية جماعية ، وليست بالمسئولية الفردية ، ويحتمى الأفراد بانتمائهم إلى البدنات والقبائل .

وحين تقع الجريمة [1] تصبح المسئولية الجنائية ليست مسئولية الجانى وحدة ، وإنما هى مسئولية عامة ومشاعة بين كل أفراد البدنة أو القبيلة ويطلب من البدنة أو من « ولى الدم » دية القتيل ، التى تقوم البدنة بدفعها نيابة عن القاتل أو الجانى ذاته أو قد تطالب البدنة المجنى عليها بدم القتيل بقتل أحد أفراد بدنة الجانى أخذا بالثأر ، وثمنا لدم القتيل .

وتعتبر دية الرجل فى حالة القتل ضعف الدية التى تدفع للمرأة ويقضى العرف البدوى « بعدم احتساب الاناث عند دفع الدية ، إذ أن الاناث كم مهمل ، فى حالة المناصرة أو العصبية . وتؤول الأرض للذكور ولا تورث المرأة أرضاً ، لأن توريث المرأة يؤدى إلى « نقل أو ضياع الملكية » التى يرثها بعد الزواج أزواجهن، وفى هذا إضعاف لملكية البدنة أو القبيلة .

وفى قبائل بدوية أخرى تطبق الشريعة الاسلامية فى نظام التوريث « بحيث يكون للذكر مثل حظ الانثيين » وعلى العموم فللذكور أفضلية والرجال قوامون على

(1) Philby, Saudi Arabia, London. Ernest Benultd. 1955.

النساء . وفى الولائم والمناسبات يقدم الطعام للذكور أولا ، وثمة أجزاء معينة من الذبيحة تقدم للذكور وأخرى للاناث وبخاصة فى الحفلات العامة عند توزيع اللحوم ، وأن الاخلال بهذا التوزيع يعتبر بمثابة اهانة للرجل ، ونيلا من مكانته ، وقد يقتضى الأمر مقاضاة الضيف نفسه ، وتقديمه للمحاكمة أمام مجلس عرفى[1].

ومن أهم خصائص البدنة ، صفة الديمومة Duration والبقاء والاستمرار ، وهذا هو السبب الذى من أجله جعل ايفانز بريتشارد[2] Evans Pritchard العلاقات البنائية.وهى العلاقات التى تمتاز بالديمومة والبقاء فلا تكون للعلاقات الثنائيـــة Diadic relation[3] القائمة بين أفـــراد الأسرة الواحـــــدة من العلاقات البنائية Structural relation على ما يؤكد راد كليف براون ، حين يعتمد مثلا على العلاقة بين الأب والابن فى الاسرة فى النسق القرابى ، فيذهب ايفانز برتشارد إلى أن البدنة أكثر دواما من الأسرة ، فقد تموت وتفنى الأسرة ، بموت أفرادها وأندثارهم أو هجرتهم ، بينما تبقى البدنة قائمة على الدوام . تماما كما نهتف فى حماس وقوة « نموت وتحيا مصر » فالفرد زائل ، والاسرة تتبعثر ثم تندثر ، أما الوطن فهو خالد باق .

كيف ظهر التفكك فى الأسرة التقليدية ؟

(ا) أشارت الدراسات الحقلية التى قامت حول الاسرة ونسق القرابة وأثر التغير الاجتماعى الذى ظهر واضحا فى البناء الاجتماعى لانساق القرابة وسائر النظم الاجتماعية والعائلية بحيث يختلف التغير الاجتماعى من منطقة إلى أخرى ، حسب درجة المتغير نفسها ، ونوعية الأسر والعائلات التى خضعت لتأثير المتغير وعمقه ومداه [4] .

ففى ج.م.ع تتميز المنطقة الصحراوية على طول السهل الساحلى بقصور الموارد الاقتصادية المتاحة . فالمساحات المتزرعة ضئيلة ومحدودة وغير قابلة للزيادة،

---

(١) د. عبد الجليل الطاهر ، خصائص المجتمع القبلى ، حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ، ١٩٥٦.

(2) Evans-Pritchard., E.E., The Nuer., Clarendon Press Oxford. 1950.

(3)Radcliffe-Brown.R., Structure & Function in Primitive Soeiety. Cohen & West Ltd. 1961.

(4) Hitti., Philip, K., History of the Arabs., Macmillan & Co-Ltd 1943.

نظرا لقلة الأمطار ، وقبل وصول مياه النيل اليها مباشرة قبل الستينات . كما ثبت أن محاولة القيام بالشروع بالزراعة فى هذه المناطق ، هى محاولة فاشلة ، نظرا لأنها غير مأمونة النتائج وبخاصة فى سنوات الجدب وعدم سقوط المطر ، حيث تنعدم المراعى وتموت المواشى ولاتنفع تربية أو تنمية للثروة الحيوانية التى تكون عرضة للهلاك فى مناطق خالية من الماء والكلأ .

(ب) وبعد ظهور فرص العمل فى القيام بمشروعات الدولة للتنمية ، اتسع نطاق العمالة ، وأصبح الشريط الساحلى منطقة جذب للكثير من البدو المقيمين فى نجوع المناطق الداخلية .

وأشتغل البدو فى حقول البترول فى العلمين ، وأشتغل البعض الآخر بنقل السلع والتجارة ، فأرتفع مستوى المعيشة ، وتغيرت النظرة إلى الحياة فى جدب الصحراء . فكان من نتائج كل ذلك أن حدثت التغيرات الاجتماعية الواضحة فى البناء والانساق العائلية ، فظهرت تطلعات خاصة للمعيشة فى المساكن المبنية عوضا عن الاقامة فى الخيام ، وأتجهت الاذهان بين البدو إلى الزواج من خارج النطاق العائلى أو القبلى[1] .

ولقد ضاقت دائرة العلاقات الاجتماعية ، فأصبحت خاصة بعلاقات الجيرة Neighbourhood ، أو قاصرة على علاقات العمل وتغيرت أنماط العلاقات القرابية وتمزقت تلك التجمعات القرابية السابقة ، ولم تظهر بعدها علاقات « التجمع » وتجمعاته الممتدة بأمتداد القرابة كلما ازداد حجم البدنات .

(جـ) وتغيرت الأدوار التقليدية للأب والأم ، فبعد أن كان رب الاسرة هو الذى يقسم العمل بين أبنائه ، ويفرض على كل منهم عملا يتعلق بالرعى والماشية. فأصبح رب الأسرة الجديد إلى جانب عمله فى شركة مريوط الزراعية أو عمله فى هيئة تعمير الصحارى يقوم بأدوار أخرى جديدة ، كأن يرعى بعض الماشية ، أو يذهب إلى السوق لقضاء بعض الحاجات العائلية . وتغيرت مكانة الأم بعد خروج زوجها إلى العمل وخرجت إلى السوق لتقضى كل مصالح الأسرة وقد ترعى

---

(1) Gwit Chell, K.S., Saudia Arabia With an account of the development of its natural Resources, Princeton, Princeton univers Press. New Jersey 1958.

الماشية أو تقوم بقليل من الزراعة البدائية المحدودة ، مما أعطى المرأة مزيداً من الحرية فى السلوك وأتخاذ القرارات ، كما تغيرت الحركة فأصبحت محدودة ، وتغيرت مظاهر الحل والترحال التى كانت سمة العائلة التقليدية حين كانت تسعى وراء الكلا والماء فى هجرات موسمية ، وبدأت حياة الاستقرار والاقامة الثابتة ، حين وصلت مياة النيل وزرعت الأسرة حول بيوتها البرسيم لرعى الماشية .

ومن التغييرات الواضحة ، نمو الفردية individualism وظهور الروح الاستقلالية للانسان الفرد [1] ، وأصبح له تطلعاته وتحررت إرادته وميوله وتغيرت خبرته ونظرته للحياة ، ولقد بدأ البدوى يبيع نصيبه فى الارض وملكيته للماشية والآبار إلى أخوته وأقاربه ، فأنهارت الملكية الفردية ، وتأثرت الملكية الجماعية ولم تعد سائدة .

(د) ومن خلال الاحتكاك الثقافى Cultural contact[2] تغيرت أتجاهات البدو ، وتكونت أتجاهات جديدة مع توافر الحرية والسلوك والتفكير وأتخاذ القرارات نتيجة لنمو الروح الفردية ونتيجة للخروج بعيدا عن مجتمعات الصحراء ، وخاصة فى فترات العمل أو التلمذة أو التجنيد الاجبارى . ومع التغير الاجتماعى الجديد ، تغيرت أنماط السلطة فى العائلة ، وأنكمشت سلطة كبار السن ، وأختفت ظاهرة « البراوة » و « الاكتتاب » ، نظرا لوجود كثرة من الاغراب فى أعقاب مشروعات التنمية ، ومع تطبيق القانون الوضعى ، وأنهاء العمل « بالقانون العرفى » فى معظم الواحات المصرية .

العصبية فى النظم التقليدية :

(ا) يهتم البدو بالقرابة والانساب ، ولذلك كانت العصبية خاصية جوهرية من خصائص البدوى . فالعصبية « ضرورة فى الحرب والدفاع وحماية القبيلة » كما

(١) مكى الجميل ، البداوة والبدو فى البلاد العربية ، دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطينهم، سرس الليان ١٩٦٢ .

(2) Arbatov, G.A. Social & Cultural changes in Developing Countries Moscow. 1975.

وأنظر أيضاً فى هذا الصدد :

Buchanan, R.A., Technology & social Profeess., Bristol., College., England. 1966.

فرضت عزلة البدو الحفاظ على أنسابهم دون الاختلاط فأصبحت العصبية فى القبائل نقية خالية من شوائب الدخول فى أنساب متشابكة الاصول والفروع [١].

ومن أهم الوظائف التى تقوم بها العصبية فى نظم البداوة ، هى وظيفة الحرب والدفاع عن القبيلة [٢] ، ففى العصبية قوة ضغط اجتماعى تدفع الناس على التضامن لصالح القبيلة ضد العداوات الخارجية . فالعصبية كما يقول ابن خلدون تنتج سلطانا وجاها وشرفا[٣] .

ومن هنا نرى أن العصبية هى أساس التضامن الاجتماعى لمناصرة القبيلة عند الشدائد . ويرى عالم الاجتماع العربى ابن خلدون أن للعصبية أدوارها وأطوارها فى تأسيس الملك ، وتكوين الدول وإذا ما وقع التفكك بين أبناء العصبية الواحدة سرعان ما تنهار دولتهم [٤] .

كما يهدد تعدد العصبيات ويقيم الصعاب فى قيام الدولة أو استمرارها حيث تنشأ غلبة الدول من غلبة عصبيتها ، فالدولة أساس التغلب على الآخرين .

ومن أنماط العصبية ، ما يتصل بالعائلة ، فتصبح العصبية عائلية حين يتضاعف أفرادها للدفاع عن العائلة ، وللدفاع ضد الخطر المشترك ، والتعاون لتحقيق المصالح العامة ومساعدة كل من يحتاج إلى المساعدة ، ومع دفع الثأر أو طلب التعويض وفقا للتقاليد والاعراف البدوية [٥] .

وإلى جانب عصبية الاسرة ، هناك عصبية التحالف الذى قد يحدث بين قبيلتين أو أكثر لمواجهة عدو مشترك ، وهناك أيضا « عصبية الولاء » ويدخل فيها الكثير من الاخوة والموالى من الذين يدينون بالولاء للقبيلة دون غيرها .

---

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٣ .

(٢) الدكتور عمر فروخ كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة 1951 .

(٣) الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب التجارى للطباعة بيروت ١٩٦٢ ص ٢٩٢ .

(٤) يقصد ابن خلدون بالدولة ، العائلة أو الأسرة الحاكمة Dynasty, régime ، على ما يذكر الدكتور عمر فروع فى ص ٣٠٤ من كتابه الضخم ، تاريخ الفكر العربى ، طبعة بيروت ١٩٦٢ المكتب التجارى للطباعة .

(٥) كارلتون ، كون ، القافلة ، دراسة لثقافة الشرق الأوسط ، ترجمة برهان دجانى ١٩٥٩ .

والنوع الأخير من العصبية ، هو عصبية الاجارة أو الحماية ، حين يحتمى بعض الافراد من خارج القبيلة ، فينتمون اليها ، وقد يفقد الفرد الاجارة والحماية حتى ولو كان من نفس العصبية ، فيحكم عليه بالطرد دون حماية من القبيلة .

الفصل الخامس

سمات الثقافة الحضرية

- ★ تمهيد
- ★ سكان القرى
- ★ نظم الاقامة فى الريف
- ★ الخروج القروى Rural Exodus
- ★ سمات حضرية وقروية
- ★ تركيب البناء الحضرى
- ★ الايكولوجيا الحضرية

تمهيـــد :

نستطيع أن نتساءل : من هم أهل القرى ؟ وكيف ومتى نشأت القرية ؟ وماذا يدرس عالم الاجتماع القروى ؟ فى الرد على كل هذه المسائل ، نقول ان علم القرية، هو علم لايقوم على تخصص واحد فى علوم الانسان أو الطبيعة أو المجتمع ، وانما تنصب فيه سائر العلوم والتخصصات الانسانية وغير الانسانية ، ومن هنا ينبغى أن يكون عالم الاجتماع القروى على دراية تامة بمناهج وتقنيات جميع العلوم الاجتماعية، كما ويضم فريق البحث فى علم الاجتماع الريفى عددا من المتخصصين فى كل ميدان، مثل « التغير » و « القيم » و « التنمية » و « البيئة » و « الايكولوجيا » و «الاقتصاد» و « الحرف » و « التربية » و « الاسرة » ، و « الدين » ، و « غزو التكنولوجيا»، والفلاح التقليدى ، « التحديث Modernization و « الادارة» والمشروعات القروية والقرابة والزواج وروابط الدم .

والقرابة هنا ليست قرابة مكانية أو جغرافية ، وإنما هى علاقات زواجية قائمة على المصالح الاقتصادية والاهتمامات الدينية والسياسية ، والسلوكيات العميقة كالتعاون والتكامل والمشاركة والاندماج ، وكلها عمليات ضرورية للتحول القروى [1].

علم الثقافة التقليدية ما هو؟ وما صلته بالثقافة القروية؟

هناك نزعة محافظة ومثبتة ، تتبدى فى الميل نحو صياغة النظام الاجتماعى والاحتفاظ بوجوده استنادا إلى الاعتراف بالخبرات السابقة، وتراث الماضى، الذى يزودنا بأنماط السلوك ، ونماذج الفعل الانسانى .

وهناك نزعة مضادة هى نزعة الشك وعدم الرضا وطلب « التغيير » وهى نزعة مدمرة وثورية فى مواجهة النزعة المحافظة الأولى التى تهدف إلى بقاء النظام استاتيكياً أما النزعة الثانية فهى ديناميكية وتقدمية ، تعتمد على التكنولوجيا وتطوير السلوك البشرى ، وتغيير الوجود الانسانى .

---

(1) Volgyes, R.E. Lonsdale, W.P. Avery., The Process of Rural Transformation, University of Nebraska; U.S.A 1980.

فأستندت الحياة الاجتماعية ، إلى ثقافتين أساسيتين :

١ ـــ ثقافة مادية من جهة نسق التكنولوجيا، والإقتصاديات كالأدوات والأجهزة وصناعة السيارات .

٢ ـــ ثقافة لا مادية ـــ كالايديولوجيات مثل القيم والفلسفة والفن والأدب والقانون واللغة .

وكل المنتيجات غير المادية كالقصص والفنون الشعبية والفلكور Folklore والأقوال المأثورة Wise sayings والأمثال Proverbs ، وهى أمثال شائعة وعبارات تضفى قوة وهى « أوفى تعبيرا وأدق لفظا » . .

ومن المنتجات غير المادية ، اختراع الانغام والسيمفونيات وخلق التقنيات الجديدة القيمة ، وأبتكار الفكر والانماط الجديدة الصادرة عن قوى الانسان المبدعة والخلاقة Creative .

ومن خواص الثقافة التقليدية ، الايقاع البطىء فى [1] معدل النمو نظراً لاستاتيكية العناصر التكنولوجية وثباتها ، كعادات اقتصادية ، مثل أدوات ومعدات الزراعة ومثل نظم الاسرة الابوية وبقايا النظام العشائرى القديم ونسق المعتقدات والقيم ، حيث أننا مازلنا نفعل كما كان يفعل أباؤنا وأجدادنا ، وكبار السن هم« حملة الثقافة التقليدية»، فهم على قدر كبير من السلطة والتأثير نظراً لخبراتهم المكتسبة ، وتراكم أكبر قدر ممكن من المعارف والأسرار المتعلقة بالطب الشعبى ، والطب البيطرى فضلا عن ممارسة تجارب السحر وعمليات زيادة المحصول الزراعى ، حيث تولدت الغيبيات حول كيفية استزراع الأرض وأستنبات النبات بعد أن كان بريا ووحشيا .

ولقد كشف دوبروفلسكى ، لدى البولنديين وبخاصة فى بعض المناطق الزراعية الوسطى ، حيث لاحظ إيمان القروى البولندى هناك بالمعتقدات والممارسات السحرية ودهش حين وجدها تتخلل الصناعات الريفية نفسها كصناعة الزبد والجبن ، بل ودخلت بعض أعمال السحر فى معظم الأنشطة الخاصة بتسمين

(١) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع سرس الليان ، ١٩٦٢ .

الأغنام ورعى الماشية وحلب اللبن وتدخلت الطرق الغيبية Mystique في عمليات درء الخطر المتوقع كالحسد والنحس حتى لايشعر البولندى بفقدان الأمن والخوف من المجهول ، كما قد تتدخل عمليات السحر وبخاصة فى حالة المخاوف من النحس والحسد التى يستشعرها البولندى والخوف من المجهول حتى فى زواجه ، وأفراحه ، وبخاصة فى مواكب العرس وحفلات الختان وإلى جانب البطء الاستاتيكى للقرية وتماثل أنماط الثقافة بتوافر الميل إلى التضامن والتماسك الاجتماعى ، مع تبادل الاحترام والتحية ويظهر التعاون فى حالات الموت والزواج ، فتكثر الهدايا والهبات واقامة الطقوس والمواكب الدينية ، فى مختلف نواحى القرية ، وبخاصة فى أماكن العبادة وحولها [1] .

ولكن كيف تصدر ديناميات التفكك فى الثقافات التقليدية ؟ وعلى أى أساس تتحلل عناصر النسق الاقطاعى ؟

فى الرد على هذين السؤالين ، نقول ان الحراك الاجتماعى Social Mobility الأفقى والرأسى كالتنقل أفقيا من المدينة إلى القرية ، والتنقل الرأسى بين الطبقات الغنية والحاكمة ، هما من أهم الأسباب فى القيام بعمليتين أساسيتين لنقل الثقافة الحضرية وأنماط السلوك البورجوازى والارستقراطى إلى البناءات القروية عن طريق عمليتين :

(ا) إما عن طريق الضغط الطبقى البورجوازى أو القهر الواعى للطبقة الحاكمة .

(ب) وإما عن طريق التقليد أو المحاكاة Imitiation ويتم التغير على نحو تدريجى وعلى المدى الطويل ، فتبدو التغيرات واضحة على بناء الأسرة القروية ، وتتغير النظرة إلى العالم ويتحول الانسان القروى ، فيرسل أولاده وبناته إلى مدارس المدينة ، وقد يشغلون الوظائف ويعقدون المصاهرات بين المدينة والقرية . فظهرت فئات هامشية Marginal وهى فئات قروية وحضرية معا ، فتدعمت حركات الفلاحين بالقادة والحكام ، فبدأت عملية المحاكاة بطريقة إرادية وطبيعية ، فتظهر العادات الحضرية

(1) Dobrowolski, Kazimterz., Peasent Traditional Culture., Ethnographie., Palska. Vol. I. 1958.

المكتسبة وتنتقل الثقافة الجديدة كالاتيكيت وآداب المعاشرة وأنماط السلوك المتغيرة .

المجتمع المحلى للقرية Village Community :

المجتمع القروى ، هو مجتمع محلى ، ويعرف المجتمع المحلى بأنه تجمع بشرى بسيط التركيب يتألف من عدد من جماعة أجتماعية Social group تترابط بروابط القرابة والجوار والدم ، ويشتركون فى مصالح مشتركة ويخضعون لمعايير وقيم فوق منطقة خاصة من الأرض (1) .

ويمكن تصنيف المجتمعات المحلية ، فتشمل فى ضوء التعريف السابق القرى والمراكز والمحافظات والأقاليم .

ونمط الحياة الريفية عند سوروكين وزيمرمان Zimmerman (2) هو ذلك النمط الذى تفرضه طبيعة العمل الزراعى . إلا أن هذا الفارق لايعتبر محكا يكفى وحده لتعريف القرية ، فهناك مجتمعات حضرية تحتوى على ضفافها وهوامشها وتخومها بعض المناطق والأراضى المزروعة ، ويذهب زمرمان وسوركين فى كتابهما « مبادىء علم الاجتماع الحضرى والريفى Principles of rural-urban Sociology إلى أن هناك مناطق مزروعة تحتوى على وحدات عمرانية حضرية ، وعلى ذلك فليس هناك محكات مقبولة بوجه عام يمكن فى ضوئها تعريف المناطق الحضرية تعريفاً إدارياً . وفى الولايات المتحدة الامريكية تعرف الوحده العمرانية التى يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ نسمة على أنها قرية ، وما يزيد عن ذلك العدد السكانى ، تعرف المنطقة بأنها بلده Town ولكن هذا التقسيم الاحصائى لايمكن تطبيقه على قرى الهند والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، حيث لا تبلغ القرى فى هذه الدول مثل هذه الاعداد الكبيرة .

ومن عيوب هذا المقياس الامريكى الاحصائى ، هو أن زيادة أو نقص البشر

(1) Boguslaw Galoski., Basic Concepts of Rural Sociology., Manchester university Press London. 1972 : Shap. 4 the Village Community, PP. 76 — 99.

(2) Zimmerman & Sorokin., and Galpin., Systematic Source-book of Rural Sociology., Minnea Polis. 1930.

عن ٢٥٠٠ نسمة تحيل الحياة بأكملها من ثقافة قروية إلى ثقافة حضرية أو العكس، على الرغم من أن الحياة الانسانية لاتختلف بزيادة أو نقص شخص أو مجموعات من الأشخاص . ولذلك نجد أن هذا المقياس الاحصائى الأمريكى لاينطبق على كثير من الدول ، كما لاينطبق على القرية المصرية نفسها إلى جانب القرية الهندية . ولقد حاول علماء الاحصاء منذ عام ١٩٣٥ تقسيم المجتمع المصرى إلى ريف وحضر ، وتتبع الدكتور سيد صبرى [١] احصاء ١٩٢٧ــ١٩٣٧، ونظر إلى الحضر فى سائر المناطق القائمة فى مختلف المحافظات والمراكز وبخاصة فى كل المناطق التى تفرض عليها « ضريبة مبانى » ولعل السبب فى ذلك هو أن ضرائب المبانى ، لا تفرض إلا على الوحدات الحضرية ذات الأنشطة الصناعية والتجارية المتفوقة ، وكانت هذه الأنشطة غير الزراعية هى السبب فى فرض « ضريبة المبانى » .

وحينما طبقت هذه الشروط الحضرية ، كانت النتيجة فى عام ١٩٣٧ هو انقسام المجتمع المصرى إلى ٢٤٪ من السكان كانوا من الحضر ، بينما بلغ ٧٦٪ من المصريين من سكان القرى . وإذا ما قمنا الآن بتطبيق معايير تقسيم الدكتور السيد صبرى فى الوقت الحاضر ، لوجدنا بعض العيوب والصعوبات فى التطبيق . حيث أن فرض ضريبة المبانى أصبح شائعا ، كما أنها لاتعتبر علامة من علامات الحياة الحضرية . فإذا كانت ضريبة المبانى تؤخذ كمعيار سنة ١٩٣٥ إلا أنها الآن ليست معيارا لانتقال الوحده من ريف إلى حضر ، فلقد صارت ضريبة المبانى عامة ، ولا يمكن اتخاذها أساساً للتفرقة بين المدن والقرى .

وقد تعتبر عواصم الأقاليم من الأجزاء الحضرية ، لوجود النشاط الادارى ودخول النظم اللامركزية . أما عواصم المراكز فلا شك أن معظمها من المناطق القروية ولا يصح أن تعتبر من المراكز الحضرية مثل (حوش عيسى ، وأبو المطامير قبلى وبحرى) فلا يوجد فيها ما يميز المناطق الحضرية سوى المركز وتفتيش الرى فقط وكل ماعدا ذلك لايصح أن يعتبر من المناطق الحضرية .

ولذلك يمكن أن تعتبر المناطق الحضرية هى التى تدخلها «مرافق النور والمياه»

---

(١) الدكتور أحمد الخشاب . علم الاجتماع الحضرى . طبعة بيروت .

والمستشفيات والمدارس والطرق المرصوفة ، حيث يقع الحضر داخل هذا الكردون فى المراكز وعواصم الأقاليم ، والمحافظات عدا محافظات الصحراء والحدود وهم بدو رحل ، وحياتهم خالية من المرافق .

ومن الصعوبات التى يواجهها الباحث إذا رجع إلى الاحصائيات نظرا لعدم وجود بيان بأماكن المراكز فى كتب الاحصاء . كما أن عواصم المراكز ليست موجودة فى احصاء سنة ١٩٣٧ نظرا لاستخدامها حديثاً كما تغيرت بعض مواقع المراكز فى دفاتر الاحصاء [١] .

ويستند حجم مجتمع القرية إلى التركيب الزراعى ، وعلى نمط الانتاج الموحد فى المناطق الزراعية . ومع ارتفاع نسبة التركز الزراعى ، تزداد كثافة القرى ، ولقد لاحظ جالسكى Galeski فى الجزء الجنوبى من بولندا تفتت المزارع المتاخمة للمراكز الحضرية ، كما تميزت المزارع فى المناطق الوسطى والقريبة بالكثافة والحجم الكبير ، حيث يتراوح عدد سكان القرية الواحدة ما بين ٨٠ إلى ٥٠ أسرة .

وهذا هو السبب الذى من أجله تنخفض الكثافة السكانية فى القرى إذا ماقارناها بالمراكز الحضرية ومن طبيعة الانتاج الزراعى انخفاض الكثافة البشرية والاتصال المباشر بالطبيعة ، أما الانسان الحضرى فيحاط بأشياء وأدوات وآلات تخلو من الحياة . بينما يعيش القروى والبدوى فى أحضان الطبيعة أما الحضرى فيشعر بالاغتراب Alienation عن الطبيعة .

ومن الآثار الطيبة للطبيعة على الانسان ، ما يتبدى لنا من تفوق الانسان القروى من الناحية الأخلاقية على المواطن الحضرى [٢] .

وتمتاز جماهير القرى والبدو بدرجة عالية من التجانس [٣] فلا يوجد تقسيم للعمل ولا يوجد بالقرية أى نوع من الحرفيين ، ولا تتوافر لدى القروى الخبرات العملية كالنجارة والحدادة وبناء المساكن ، ومعالجة الحيوانات المريضة ، وتشغيل

---

(١) د. محمد طلعت عيسى ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٠ .

(٢) د. عبد المنعم شوقى ، تنمية المجتمع وتنظيمه — القاهرة ١٩٦١ .

(٣) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس الليان ١٩٦٢ .

الآلات وإنما يعرف القروى ، تهجين السلالات ، وتسمين الأغنام وتحسين الأرض، وضم المحاصيل ، وكلها خبرات ومهارات زراعية .

ويتأثر سلوك القروى بالرأى العام ، حيث تتأثر العائلات كجماعات أولية بالعلاقات الشخصية Personal Relation وسيادة الروابط القروية وعلاقة الوجه للوجه Face-to-Face فلا يستطيع القروى اخفاء حياته عن أعين جيرانه . ويولد القروى ويتزوج فى قريته أو بانتسابه إلى أسرة منحدرة من عائلات قروية .

والوجود القروى للانسان القروى لايماثل الوجود العائلى ، فالعائلة التى تتفرع عنها الأسر ، وتمتد ، هى البداية فى الوجود القروى ، على حد تعبير جالسكى ، وعلى سبيل المثال سنحاول الآن الاشارة إلى دراسة « زنانيكى » للفلاح البولندى.

زنانيكى والفلاح البولاندى :

ولقد استخدم كل من « فلوريان زنانيكى Florian Znaniecki » و «وليام توماس William Thomas » بصدد دراستهما المشهورة عن « الفلاح البولندى The Polish Peasant » ، منهجاً محدداً بالذات وذلك بالكشف عن كل ما يتصل بالريف والقرى ومجتمعات الفلاحين فى بولندا ، ووصف الظواهر القروية ، من حيث الهجرة من القرية إلى المدينة ، مع تحديد درجة كثافة أو تخلخل السكان فى المجتمع البولندى القروى .

ولقد اتبع « زنانيكى » و « توماس » منهج استخدام المادة ، فى معالجة مختلف الظاهرات التى تحيط بالفلاح البولندى ، وهى دراسة سوسيولوجية مركزة Intensive study ، للكشف عن التغير الاجتماعى الذى طرأ على قرى بولندا حيث وجد الفلاح البولندى نفسه ، وهو يعانى من نتائج التغيير الاجتماعى Social Change الهائل الذى اجتاح القرية البولندية ، فى فترة عصيبة ، بين الأشكال الجديدة والعتيقة التى ظهرت ملامحها بوضوح على صور « التنظيم الاجتماعى Social Organization » قديمها وحديثها .

فانتقلت أشكال التنظيم الاجتماعى Forms of Soctal Organization عبر القرون ، وتحولت مظاهرها إلى صورة حية حديثة من صور الحياة الاجتماعية المعاصرة . كما

أصبحت كل ملامح الميكانيزم الاجتماعى Social Mechanism ، سهلة الدراسة يسيرة الفهم ، وأضحت وظائف وأدوار « الاتجاهات الانسانية Human Attitudes» ، بكليتها وعمومها فى الحياة الاجتماعية ، أضحت هذه الاتجاهات ووظائفها أكثر وضوحا عنها فى مجتمع لايزال يعيش إلى أبعد الحدود طبقا لتنظيم إجتماعى موروث [1] .

ولقد استخدم زنانيكى فى تلك الدراسة المركزة لقرية الفلاح البولندى ، استخدم المنهج الاستقرائى العلمى ، الذى لايوصلنا إطلاقا إلى تلك الأحكام المتحيزة، التى توضع بشكل جائر أو التى تفرض بصورة تعسفية Arbitrary ، ومن السمات الجوهرية ، التى تتسم بها دراسة « زنانيكى » و « توماس » ، هى التصنيف الدقيق لأشكال القيم Values ، وحدود الاتجاهات Attitudes التى تشكل التنظيم الاجتماعى فى القرية البولندية ، استنادا إلى الدراسة العينية المشخصة لمختلف القيم والاتجاهات القروية البولندية ، بحيث أصبحت كل قيمة قروية واضحة المعالم ، وبحيث يمكن فهم كل إتجاه من الاتجاهات الاجتماعية السائدة ؛ فى إرتباطها الوظيفى الدقيق بمظاهر الحياة الاجتماعية .

الأمر الذى يجعل من هذه القيم والاتجاهات ، هى اللبنات الأساسية والعناصر المكونة التى تبرز معالم البناء الاجتماعى القروى فى بولندا . مما يجعلنا على دراية تامة، ومعرفة منظمة ، بشتى أنساق البناء ، وسائر النظم الاجتماعية . ومن الواضح أن هذه الدراسة المركزة ، التى تعالج بصورة مونوجرافية ، كل تفصيلات الحياة الاجتماعية فى ملامحها الجزئية . كما تظهر فى قرى بولندا . مما ينبغى أن نتابع هذه الدراسة بدراسات أخرى . حتى يمكننا أن نكون على دراية أشمل ، ومعرفة أوسع بالحقيقة الاجتماعية ، ومن ثم يتم فهمنا الكامل لسائر الأنماط والأشكال القروية السائدة فى بنية الريف البولندى حيث تزداد قطعا قيمة كل دراسة مونوجرافية مركزة ، وحيث تتطور أيضا أسس ومناهج الدراسات الحقلية القروية .

ويذهب « زنانيكى » إلى أن « الأسرة القروية Peasant Family » فى بولندا ، إنما

---

(1) Riley, Matilda White., Sociological Research, A Case Approache New York, 1963 Vol I P. 196.

يمكن اعتبارها « جماعة أو زمرة إجتماعية Social Group ، بكل حذافيرها ، وبكل معانى هذاالاصطلاح السوسيولوجى ، حيث تتكون الأسرة فى الريف البولندى ، من مجموعة من الأقارب التى ترتبط فيما بينهم رابطة القرابة فى الدم والقانون . Blood and Law-Relatives

والأسرة عند « زنانيكى » ، وفى مفهومها ومعناها الضيق ، إنما تشتمل الزوجين (الأب والأم) وأطفالهما ، وهى ما يمكن تسميته بالجماعة الزواجية Marriage-Group ، وبذلك يمكننا تماما فى ضوء هذا الفهم ، أن نميز تماما بين مانسميه « بجماعة الزواج » وبين ما نطلق عليه الاصطلاح « جماعة الأسرة Famlly-Group » حيث أن هذا التمييز يعتبر ضروريا فى فهم طبيعة الحياة العائلية والنظم الأسرية (١) .

فالأسرة بهذا المعنى عند « زنانيكى » هى جماعة مركبة ، تتميز بأنواع وأشكال منوعة ، وبدرجات متفاوتة من القرابة بين أعضائها . ولكن العلامة الرئيسية التى تتميز بها الرابطة الأسرية إنما ترتد إلى مصدر وحيد لايمكن أن يرد إلى أصول أخرى لأشكال الروابط والعلاقات الجماعية Group Relationship كما أن الرابطة الأسرية الأصيلة ، هى رابطة وعلاقات فريدة ، ولا يمكن تحويلها إلى مجرد « علاقات شخصية Personal Relations » أو فردية ، كتلك العلاقات التى تدور بين أفراد نشاهدهم وكأنهم فى عزلة .

ومن ثم يمكن أن نطلق على العلاقات والروابط الأسرية ، اصطلاح « زنانيكى » الذى أطلقه فيما يسميه « بالتضامن الأسرى Familial Solidarity » . فالعلاقة الرئيسية التى تميز الروابط الأسرية هى علاقة التضامن الأسرى الوثيق حيث يعبر كل فرد من أفرادها عن عضويته المتكاملة مع جماعته ككل ، ومن هنا يتضامن الفرد داخل نطاق الأسرة ، تضامنا كليا وعضويا مع الجماعة برمتها .

ويتمايز هذا التضامن الأسرى انعضوى ، تمايزا كليا عن كل أشكال التضامن الاقليمى أو الدينى أو الاقتصادى ، أو حتى التضامن القومى ، نظرا لتمايز الروابط

(1) Idid : P. 197.

والاتجاهات والقيم السائدة فى كل شكل من هذه الأشكال الخاصة بالتضامن ، فى أى جماعة عينية مشخصة Concrete Gronp . وتتحدد درجة التضامن الأسرى، طبقا لنوع القرابة ؛ ودرجة العلاقة الأسرية التى تربط ما بين عضوين ، والتى لا تفترض أو تسلم بالعلاقات الشخصية الخاصة كعلاقات الحب والصداقة Friend ship .

ومن الدراسات الذى انشغل بها « فلوريان زنانيكى » « وليام توماس » دراسة طريقة تعالج ظاهرة إجتماعية بولندية ، تلك هى الدراسة التى تعالج بصورة سوسيولوجية وعلمية « شكل ووظيفة الخطابات الريفية Form & Function of the Peasant Letter » حث يغرم الفلاح البولندى بكتاباته المطولة ، وهو يعاود كتابتها كوسيلة لأداء الواجبات الاجتماعية Social Duties ، على ما يحدث فى المناسبات والاحتفالات والظروف ذات الشكل التقليدى Traditional Form .

ويعبر هذا الشكل التقليدى الثابت للخطابات القروية ، عن وظيفتها الاجتماعية ويطلق « زنانيكى » على هذا الشكل القروى Rural Form للخطابات التقليدية فى الريف البولندى ، اصطلاح « خطابات التبجيل والتفخيم Bowing-Letters إذ أنها خطابات ذات وظيفة إجتماعية قروية من الدرجة الأولى . وتشبع هذه الخطابات فى ريف بولندا ، تلك النزعات السيكولوجية الخاصة بعواطف التبجيل وقيم التقدير والاحترام .

وغالباً ما يرسل هذا الشكل الثابت من خطابات التبجيل ، إلى أحد أعضاء الأسرة القروية ، الذى يمضى بعض الوقت غائبا عن قريته ، وبعيداً عن أسرته ، وتعبر هذه الخطابات القروية المتعددة عن ذلك الاستمرار والاتصال حين تدوم العلاقة، وتستمر الصلة بين الأسرة وأعضائها ، مما يؤكد بوضوح وجود « التضامن الأسرى » ، رغم حالة الانفصال وإنعزال الفرد عن جماعته العضوية فيؤكد تضامنه مع أسرته ، ومحبته وتقديره لقريته ، رغم الابتعاد عن الأسرة ومحبته وتقديره لقريته ، رغم الإبتعاد عن الأسرة ، والاغتراب عن القرية .

وهذه الخطابات ، هى تعبير له ضرورته الاجتماعية ، حين يبدأ أعضاء الأسرة فى الهجرة والابتعاد عن أسرهم ، حيث يظهر الأفراد فى فترة الأغتراب عن قراهم ،

ما يربط هؤلاء الأفراد بأسرهم من علاقات التضامن Relations of Solidarity ، تلك العلاقات التى تدوم بدوام الأفراد والأسر والقرى .

وتتضح هذه العلاقات الأسرية ، وتظهر صلات التضامن القروى الوثيق ، حين يعود القروى إلى قريته ، فيقابل بالفرح العظيم والمشاعر الفياضة ، كما يعبر القرويون عن تضامنهم هذا فى أفراحهم وأتراحهم ، بشتى المشاعر والمشاركة الروحية والوجدانية .

ويغلب على كتابات القرويين فى خطاباتهم ورسائلهم تلك المسحة الدينية الغالبة ، التى تظهر للقارىء والكاتب معا ، روح التضامن الدينى ، هذه الروح الريفية التى ترتبط بين أفراد القرية برباط دينى وثيق . حيث أن الظاهرة الدينية هى الظاهرة العامة والغالبة فى شتى المجتمعات الريفية والسائدة فى سائر البناءات القروية فى بولندا .

والفلاح البولندى مخلص فى علاقاته برفقائه ، كغيره من سائر القرويين فى مختلف أنحاء الثقافات والمجتمعات ، ولذلك نجد فى رسائلهم وخطاباتهم ، ألوان من التحيات المباركات ، والدعوات الحارة ، والتمنيات الطيبلة بدوام الصحة لذويه من أعضاء أسرته . وفى ذلك نجد معنى الوفاء والمحبة ، حيث تصدر هذه القيم المثالية ، عن رابطة « التضامن الروحى Spiritual Solidarity » وهى عروة دينية وثقى تصل وتربط ما بين القروى من جهة ، وبين كل أعضاء أسرته بل وقريته برمتها، فيرسل عاطر تحياته اليهم جميعا ، كل باسمه صغيرا كان أم كبيرا ، فلا ينسى أحدا أو يسهو عن ذكر زيدا أو عبيد ، وهذا يعبر عن معنى الاحترام والتبجيل للأسرة برمتها .

وبالإضافة إلى كل ذلك ـــ يبدو من خطابات البولنديين « روح المحافظة » والتمسك بالأخلاق القويمة ، كما تبنى علاقاتهم الزوجية على المحبة والاحترام ، ولا يحب الفلاح البولندى أن تعمل إبنته فى أعمال الخدمة فى بيوت الآخرين ، كما لايفضل أيضا أن تعمل زوجته فى أى عمل من الأعمال نظير أجر معلوم .

وتتميز أسرة الفلاح البولندى بالتماسك ، حيث يسود بينهم مبدأ طاعة الأبناء

للآباء ، وحيث تتركز السلطة الآباء فى علاقاتهم ، وفى تربيتهم لأطفالهم . كما يميلون فى ريف بولندا إلى الشدة فى تربية البنت بصورة أوضح من تلكم المعاملة التى يعاملون لأخيها فلا تخرج البنت وحدها دون أن تصاحبها الأم أو الأب أو الأخ .

وفى ضوء كل ذلك نجد أن دراسة زنانيكى وتوماس قد أنصبت منهجياً على التركيز على فحص خطابات ورسائل « القروى البولندى » فكانت هذه الخطابات والمراسلات ، هى المادة Data التى إليها إستندت دراسة « زنانيكى » و «توماس» فى منهجهما وفى كيفية إستخدامهما لتلك المادة السوسيولوجية ولذلك قام « زنانيكى » تماماً كما فعل « لوبلاى Le play » بصدد تصنيفه للمادة السوسيولوجية وتبويبها وفقاً لقواعد منظمة ، وصيغ مقننة Standardized Formula . وكذلك طبق « زنانيكى » « منهج إستخدام المادة » فقام بعملية تصنيفية كبرى واتبع منهجاً تحليلياً فى دراسة هذه الخطابات والرسائل المتبادلة فى الريف البولندى ، ثم قام زنانيكى « بتحليل المادة السوسيولوجية التى جاءت فى هذه الرسائل ، وحللها تحليلا علمياً ، وذلك لمعرفة طبيعة العلاقات الأسرية ، وبحث أسس التفاعل الاجتماعى Social Interaction بين الفلاح البولندى ، وبين رفقائه وأعضاء أسرته ، حيث تتضح لنا فى النهاية « طريقة الحياة Style of life » فى القرية البولندية وأسلوب المعيشة فيها [1] .

وختاما — فان منهج إستخدام المادة ، الذى أتبع فى دراسة الخطابات والرسائل على طريقة « زنانيكى » هو أفضل بكثير من مناهج المشاهدة observation والاستخبار questionnaire والمقابلة Interview حيث تعبر هذه الرسائل والخطابات عن التفاعل الاجتماعى نفسه ، وحيث تواجه هذا التفاعل دون أية صعوبات منهجية ، أو إجراءات تعسفية [2] ، ففى رسائل الفلاح البولندى ، ترجمة واضحة ، وسيرة كاملة لحياته الذاتية Autobiography يحكيها القروى البولندى بنفسه ؛ ويقصها علينا فى واقعها المشخص ، بحيث تواجه وتشاهد حياته بصورتها ومادتها على السواء ، فتكشف هذه الخطابات عما حجب عنا ، بحيث

(1) Riely, Matilda White., Sociological Research A case Approach. New York - 1963 Vol 11.

(2) Idid : pp. 2 41-242.

نلحظ عن قرب أسلوب معيشته اليومية ، وبحيث نطلع على طريقة حياته ، التى نشاهدها كما هى « بشحمها ولحمها » .

وظائف مجتمع القرية :

١ ــ الوظيفة الاقتصادية : على الرغم من أن القرية هى جزء من كل متجانس إلا أنها تتميز بتقسيم للعمل يتعلق بالزراعة والمحاصيل وتبادل التجارة والخدمات ، وتحقيق الاكتفاء الذاتى ، وأشباع الحاجات الأساسية للاقتصاد العائلى والتدبير المنزلى [١].

٢ ــ ويعتبر التعاون وتبادل المساعدات من أهم الوظائف التقليدية التى يمارسها القروى فى الافراح والاتراح ، وفى ظروف الكوارث ونشوب الحرائق وحالات الوفاة وفى مناسبات خاصة بالمواسم والحصاد ودرس الغلال ، ومن صور التعاون والعمل الجماعى المنظم ، ظهرت الملكية الجماعية للآلات الحديثة للحرث ، بين عدد من العائلات تربط فيما بينها علاقات الجوار والقرابة والاقامة المشتركة .

٣ ــ وتظهر الجهود الذاتية المشتركة بين القرويين فى حالة شق الترع أو تعبيد الطرق أو كهربة القرى . ومن الوظائف الاقتصادية للقرية ، انشاء اتحادات من المزارع الفردية فتظهر الوحدات الانتاجية فى القرى ، نتيجة لنمط الانتاج التعاونى، ومن هنا يفقد مجتمع القرية كثيراً من سماته القروية ، ويتحول من مجتمع بسيط ، إلى مجتمع مركب يضم عددا من العمال فى مشروع زراعى كبير .

٤ ــ ويدخل التأمين Socurity ضمن الوظائف الاقتصادية لمجتمع القرية ، وبخاصة التأمين ضد الكوارث الطبيعية كالحريق والفيضانات . والقرية وحدة اجتماعية تقوم بوظيفة أساسية هى وظيفة الضبط . والقرية وحدة إدارية تخضع للسلطات الرسمية العليا للدولة ، وذلك لحماية الأمن وتأمين القانون وحفظ النظام. وللقرية معاييرها التقليدية ، وقواعدها الأخلاقية وأساليبها الخاصة فى فض المنازعات وقواعد التقاضى .

٥ ــ كما أن الرأى العام القروى هو مصدر السلطة ، حيث يمتثل الناس لسلطة الرأى العام والاعتراف بها وسيطرتها على سائر العائلات القروية .

---

(١) د. أحمد فؤاد على ، علم الاجتماع الريفى ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ .

القرية والبيئة الطبيعية(١) :

إذا كان المجتمع هو مجموعة من الناس فى مكان طبيعى ، محدد بحدود سياسية فان العلاقات والنظم إنما تنشأ وتظهر فى كل المجتمعات فى صورة مؤسسات Institutions ومنظمات ، إذا ما نظرنا إلى المجتمع ككل As a Whole وإذا ماأردنا تحديدا أكثر ضيقاً، نقول « مجتمع ريفى » أو « مجتمع حضرى ».ويدرس علم الاجتماع الريفى سائر البيئات والمؤسسات القروية ، بينما يدرس علم الاجتماع الحضرى ، سائر التنظيمات والمناطق والتجمعات الحضرية ، وما يسودها من علاقات معقدة ونظم متشابكة .

وبصدد البيئة القروية ، يدرس الباحث خصائص المجتمع الريفى ونظمه وتقاليده ويتفهم البنيان الاجتماعى الريفى لا مكان تنميته واشباع حاجات القروى وتحسين الريف وحل مشكلاته (٢) .

ونحن نعلم جيدا أن البيئة القروية ، ليست قاصرة على القرويين وحدهم فهناك مهن غير زراعية كما أنها ضرورية فى حياة القرية، مثل طبيب القرية، وشيخ المسجد أو كاهن الكنيسة ، والمدرس والناظر ، فى المدارس والاخصائى الاجتماعى فى الوحدات المجمعة ، وصيدلى القرية وبنك القرية وما فيه من موظفين ، والطلبه فى المدارس والجامعات ممّن يقيمون فى الريف ويتلقون تعليمهم فى المدن والحواضر لقريبة . ونظراً لكل ذلك نستطيع أن نقول ان علم الاجتماع الريفى ، أصبح علماً عاماً وضروريا للطبيب والصيدلى وللمدرس والمحامى فى القضاء الريفى ، فيجب أن يدرس كل هؤلاء كيف يتعاملون مع الريف وأهل الريف وكيف يخدم هؤلاء المجتمع الريفى ، فيجب دراسة سوسيولوجية الريف وسيكولوجية البدوى والقروى حتى يمكن فهم السلوك وأسلوب المعاملة وطريقة المعاشرة ونمط الحياة (٣) .

---

(1) Johnson, J.H. Urban geogrophy., London. Univrsity Colleges. 1972.

(٢) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى ، وتنمية المجتمع ، سرس الليان ١٩٦٢ .

(٣) د. صلاح العبد ، التوطن وتنمية المجتمع بالوطن العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ـــ القاهرة ١٩٧٣ .

البيئة القروية والثقافة :

يصدر كل نشاط انسانى أصلا عن ظروف الانسان وحاجاته ويعتمد الانسان البدائى Primitive على بيئته اعتمادا كليا ، فالبدوى مثلا يرعى الغنم ويزرع الشعير ثم يأكله ، ويقيم بيته وخيامه من الأوبار والجلود أو من النخيل والسعف ويبنى الفلاح المصرى بيته من الطين ، ويعتمد البدائى فى جنوب أفريقيا على صيد الاسماك وجمع الثمار ، ومن كل هذه الأمثلة نجد أثر البيئة واضحا على ثقافة الشعوب والمجتمعات المتخلفة .

وهناك تفاعل دائم ومستمر ، بين الانسان وبيئته ، فاذا كان للبيئة القروية دورها، فالزراعة شريك دائم للفلاح وظروفه الطبيعية ، وتؤثر الزراعة على تحديد فلسفته للحياة وقيم الأفراد نتيجة لظروف القرية الطبيعية . ولاشك أن أفكار الناس وعاداتهم وتقاليدهم هى من نبات الأرض ، ومن خلق البيئة الاجتماعية ، وهى وثيقة الصلة بفلسفة الحياة فالتفكير القروى مثلا وثيق الاتصال بالبيئة القروية [1] وفى دراسة قام بها بيير بورديه Bierre Bourdieu عن الفلاح الجزائرى ، الأمر الذى معه يرتبط تفكير الفلاح وخبراته وحياته بكل ما يدور فى قريته من زراعة وأرض ونبات وحيوان . وبذلك يرجع عقل الانسان ومنطقه وتفكيره وفلسفته إلى أسلوب حياته Mode de la Vie وإلى ما مر به منذ نعومة أظافره من صور وأشياء تجمدت حولها أنماط سلوكه وتحجرت سمات شخصيته. فالفلاح مثلا يقاوم أى تغير اجتماعى أو ثقافى يواجهه ، نظرا لعادات وتقاليد ثابتة وجامدة التزم بها وتكررت كل عام مع مواسم الزراعة والحرث وبذر البذور ورى الأرض وضم المحصول ، سلوك ثقافى متكرر فى أوقات معينة من السنة ، فمن الصعب بالطبع على المزارع أن يواجه أى تغيير ، فيقاوم الجديد ولا يمكن أحتماله أو التكيف معه .

وتحت رحمة الأقدار يؤمن البدوى والقروى بالله ولا يؤمنان بالعلم والتكنولوجيا ، فظروف الزراعة ، واقتلاع الريح للذرة ، وعوامل التعرية والفيضانات التى تكتسح التربة ، كلها عوامل طبيعية يقع فيها الانسان القروى أو البدوى تحت رحمة القدر

---

(1) Bourdieu, Pierre., The Attitude of Algerian Peasant toward Time., Article from Moditerranean Country Men., Mouton. 1963.

فلا يستطيع التنبؤ بمحصول من المحاصيل ولذلك قيل أن القروى قدرى بطبعه ، فيؤمن بالقضاء والقدر .

واستنادا إلى هذا الفهم تترك البيئة الفيزيقية القروية آثارها العميقة وبصماتها القوية على الشخصية الريفية ، تماما كما تترك الآلات والمصانع والتروس أثرها فى عمال الصناعة ، فللمهنة أثرها على شخصية صاحب المهنة ، ومهنة كالزراعة ، تقوم فيها طبيعة البيئة الفيزيقية ، بدور هام فى حياة الفلاح وفى تركيب سمات شخصيته ، كما تفرض على القروى أنماط تفكيره ، وتخلع عليه قيمه وأخلاقياته وتشكل صفاته وخواصه العاطفية والذاتية .

ولكنا نتسائل عن كثافة الريف ، هل هى منخفضة أم مرتفعة ؟ وما أثر الكثافة على طبيعة الحياة القروية ؟ لاشك أن لكثافة السكان رد فعلها على حجم وطبيعة النظم والمؤسسات الاجتماعية ، ومناطق الريف أقل سكاناً من المناطق الحضرية ، فلا تنشأ فيه الكثير من المؤسسات والمنظمات الاجتماعية ، تلك التى تتطلبها دائماً المناطق ذات الكثافة العالية .

ونتيجة لقلة كثافة الريف فلقد ظهر أثر القيم Values والضوابط الاجتماعية بين الناس ، نتيجة للعلاقات الشخصية ، ومعرفة الناس بعضهم بعضا ، فيخشى الريفى أن يخرج على تقاليد القرية خوفا من ألسنة الناس الحادة ، وسخريتهم اللاذعة وانتقاداتهم المريرة . وكلما زاد عدد الناس كلما قلت حدة الضبط الاجتماعى على عكس الحال فى المدن والحواضر ، فلا نجد أى أثر لقيمة العادات أو ضغط التقاليد أو أى نقد لتغيير الأزياء على الموضات Modes, Fashion ففى المدينة كل انسان حر فى تصرفاته ، ولا يحكمه إلا القانون كضابط اجتماعى ، أما فى القرى والأرياف ونجوع البدو فيسود العرف بينهم .

ولكثافة السكان أثرها على مستوى المعيشة Standard of Living وتدخل فى فى مكونات مستوى المعيشة ، جوانب اقتصادية مادية ومعنوية لاشباع حاجات الأسرة ، كالدخل الشهرى والملكية والثقافة ومستوى التعليم والصحة والمظهر الخارجى والأزياء .

وفى المناطق المنخفضة فى الكثافة البشرية ، كالقرى [1] وتجوع البدو ، لانستطيع أن نقيم المدارس أو المستشفيات أو اقامة طرق ومشروعات للصرف الصحى ، وخطوط النور والمياه والتليفون والمواصلات والبريد والتلغراف لعدد صغير أو بسيط من السكان . لأن تكاليف توفير مثل هذه المرافق والخدمات تكون باهظة ومرتفعة فى المناطق ذات الكثافة المنخفضة .

فاقامة كوبرى أو محطة كهرباء مثلا أو بناء مدرسة ، كل ذلك تكون تكاليفه غاية فى الغلو بالنسبة لعدد بسيط من الناس لايزيد عن ٣٠٠ مثلا ، بينما تكون التكاليف معقولة بالنسبة لخدمة ٥٠٠٠ شخص أو أكثر .

وهذا هو السبب الذى من أجله حرمت الكثير من المناطق الريفية وخصوصا القليلة السكان ، مما أدى إلى حرمان كلى أو جزئى ، لكثير من القرى من المرافق والخدمات[1].

ثقافة القرية وحتمية البيئة :

للبيئة أثرها وحتميتها على نسق الثقافة وأسلوب التفكير والأساطير حيث تفرض البيئة أسلوب وطريقة الحياة Style of Life ويؤثر نمط الثقافة ومستوى المعيشة . فسكان الجبال مثلا يختلفون فى معيشتهم عن سكان الصحراء والفلوات . ولقد أرتفعت نظم المعيشة فى الولايات المتحدة مثلا نتيجة لهجرة الثقافات الأوربية اليها واستغلال امكانياتها ومناجمها وطاقاتها الطبيعية باستخدام العلم والتكنولوجيا .

ولقد أثار علماء الاجتماع والجغرافيا[2] جدلا عنيفا ومناقشات حامية ، حول حتمية البيئة وأثرها فى التفاعل المتبادل بين الانسان والأرض . وما يهمنا هو نشأة الجدل حول نمط الثقافة القروية وبنية الاقليم الريفى ، فالأرض الزراعية تخضع لنوعيتها وخصوبتها ، وعوامل جوية جغرافية واقتصادية مما يؤدى إلى انتاج نوع متجانس من المحاصيل فى اقليم دون آخر .

---

(١) د. عبد المنعم شوق ، تنمية المجتمع وتنظيمه ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) د. محمد طلعت عيسى ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٠ .

(2) Johnson, J.H., Urban Geography., London. University College., 1972.

ونظراً لتجانس القطر المصرى لكونه زراعيا لانستطيع أن نميز منطقة دون أخرى. ولكن المناطق الصحراوية تمتاز بنوع واحد من المحاصيل وفى بيئة معينة وتتطلب حياة خاصة ، ولقد أدت خصوبة الأرض وحرارة الطقس ورطوبة الهواء فى سائر الدول الزراعية الواسعة ، إلى خلق مختلف الأقاليم النباتية نظراً لاختلاف التضاريس ، مما أدى إلى وجود عدد من الأقاليم الزراعية فى الدول الكبرى مثل أمريكا وروسيا والصين الشعبية ، ففى كل منها نجد التباين الجغرافى الواضح فى تركيب كل دولة كبرى ، ففيها الجبال والوديان والصحارى والمراعى .

ولقد حاولوا زراعة القطن فى شمال الولايات المتحدة الأمريكية ، فلم تنفع معه برودة الجو والجبال العالية ، ثم قامت تجارب زراعته فى الوسط فوجوده يعطى ايرادا كبيرا بينما يصلح الجزء الشمالى لتربية وتسمين الأبقار وصناعة مستخرجات الألبان . كما ظهر الانتاج الكبير فى مختلف الأقاليم الأخرى مثل زراعة الفاكهة والذرة والقمح فظهر نوع من تركيز الانتاج استنادا إلى توافق الظروف البيئية والاقتصادية فى كل اقليم زراعى [1] .

ومع تشابه الظروف البيئية والاقتصادية فى مساحات كبرى من الأقاليم والمناطق الزراعية ، ظهرت الأقاليم الثقافية نتيجة لخلق تجانس فى العادات ، وتشابه فى الفكر والعمل ، صدرت عنها نماذج معينة من برامج التعليم والفلسفة والمنطق ، وتميز كل اقليم زراعى ، ثقافة خاصة ومستوى محدد للمعيشة . ولذلك تسير الأقاليم الزراعية فى معيّة الأقاليم الثقافية ، فى أنسجام وتداخل وتكامل فليست هناك تناقضات ، ولن نرى ثقافة عالية فى منطقة متخلفة زراعياً ، أو فى يداوة ترعى الأغنام،والعامل الانسانى هو المهم وليس الظروف الطبيعية [2] .

كما أن هناك تداخل وثيق بين ظروف البيئة الزراعية وظروف الأقليم الثقافى ففيهما تطابق ، حيث نجد أنهما متداخلين Overlaping .

وليس فى القطر المصرى أقاليم زراعية وأخرى ثقافية تسيران جنبا إلى[3] جنب

(١) د. على أحمد فؤاد ، علم الاجتماع الريفى ، القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس الليان ١٩٦٢ .

(٣) د. فتح الله هلول ، البلدان الريفية والحضرية بالاقليم المصرى مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٩ .

فى أنسجام وتداخل ، فليس للقطن كمحصول رئيسى أقاليم بعينها ، وحتى غيره من المحاصيل ، ويجوز لنا أن نجد فى الوجه القبلى اقليماً للقصب فى نجع حمادى وماحولها ، لظروف جوية وطبيعية ، إلاّ أننا لانجد فى القطر المصرى مثل تلك الأقاليم الزراعية والثقافية الكبرى التى نجدها فى وديان وجبال وسهول أمريكا والصين الشعبية .

وقد نجد ما يشبه بالاقليم الثقافى فى مناطق الواحات الداخلة ، ففيها أنماط متشابهة يعتقد أنها تكون فيما بينها « أقاليم زراعية » ، وثقافية ، حيث يختلف « أهل الواحات » عن أهل الدلتا و « الوادى » ، من الوجهة الاقتصادية ونوع المحاصيل الزراعية ، ومن ناحية نظام الحكم والعادات والتقاليد وسائر الظروف الاجتماعية الأخرى ، فهناك فارق كبير بين ثقافة القرى وثقافة البدو[1] .

نظم الاقامة فى القرى والمزارع :

هناك نظم مختلفة للاقامة فى القرى Rural settlement فهناك من يعيش فى مزارع ، حيث يقيم المزارع مع أسرته فى مزرعته ، مع عامل أو أثنين على الأكثر . وتقيم مجموعة من الزارعين فى منطقة تسمى « عزبة » وهى بعيدة عن المناطق الأخرى .

وفى الكفر أو النجع يوجد ٣ أو ٤ بيوت وهى أكثر شيوعاً من العزب الخاصة ، أما العزبة فهى منطقة أكبر قليلا وتختلف فى الشكل والحجم ولكن المدينة هى مجموعة كبيرة جدا من السكان .

وفى معظم دول أوربا وفى الولايات المتحدة تسود نظم الاقامة فى مزارع ، وفى الشرق الأوسط يسود فى مصر والهند نظام الاقامة فى العزب والنجوع أو الكفور ولاشك أن « نظام الاقامة فى القرى » هو أقدم النظم الانسانية على سطح الأرض فمنها نشأت التجمعات الأولى لبنى البشر ، وتزاحمت الجماعات فى أودية الانهار ثم استقرت باكتشافها للزراعة ، ثم تدفق الانسان من الوادى لكى ينتشر فى الأرض زمرا [2] .

(١) د. عبد الجليل الطاهر ، خصائص المجتمع القبلى ، حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ١٩٥٦ .

(2) Zaborski, B., on the Formsof the villages in Polond, Gracow. 1962.

ونستطيع أن نتسائل : ما هى مميزات الاقامة فى الحواضر ؟ وكيف نحدد مختلف أضرار ومتاعب الحياة فى جوف الريف ؟ فى الرد على هذه المسائل نقول أنه من أهم عيوب الاقامة فى القرى ، إنما نجده فيما يلى من عيوب ، حيث لا تسمح الاقامة فى القرى بقيام نظام زراعى معين كتربية الحيوانات لضيق المساحة ، أو لحدوث النزاع والصراعات وللتعرض لسرقة الماشية ، الأمر الذى معه لا نستطيع تربية المواشى بالاعداد الكبيرة ، وزراعة الفاكهة والخضر فى الحقول التى تبعد عن المنازل، مما يستلزم نفقات اضافية للحراسة ، الأمر الذى يزيد الكثير فى تكاليف انتاجها ، كما يضيع على الفلاح الكثير من الوقت والجهد فى الذهاب من المنازل إلى الحقول ثم العودة منها . كما أن المبانى متداخلة وغير صحية والطرق ضيقة ، والاصلاح الاجتماعى له دوره الضعيف فى حل مختلف مشكلات الريف الصحية والسكانية . وهنا نتساءل : ما هى عيوب الاقامة فى الحواضر ؟ وإلى أى حد يمكن تحديد مختلف مميزات الاقامة فى جوف الريف؟ نقول فى الرد على هذه المسائل أنـــه :

من أهم مزايا الاقامة فى القرى[1] :

١ ــ تكايف الاقامة أقل فى القرية .

٢ ــ العلاقات الاجتماعية أقوى وأمتن فى سائر القرى .

٣ ــ لقد أصبحت القرية الآن نظاماً اجتماعيا للاقامة ، نظرا للتزايد المستمر فى اعداد الفلاحين ، ولوفرة المساحات والأراضى ذات الكثافة العالية من السكان .

هذا عن القرى ، أما عن المزارع فلها مزاياها وعيوبها ، وخاصة فيما يتعلق بالاقامة بالذات ، وهنا نتسائل :

وما هى مزايا المزارع :

(ا) من الناحية الاقتصادية ، هناك ثلاثة أسباب منها :

---

(1) Volgyes, I. Lonsdale, Avery., The ocess of Rural transformation., University of Nebraska, U.S.A. 1980.

١ ـــ حرية الزراعة وامكان تحديد نوع المحصول أن كان زراعة الفاكهة أو الخضر، مع عدم التعرض للسرقة .

٢ ـــ قلة التكاليف فى الانتاج نظرا لقرب البيوت والمساكن من الحقول .

٣ ـــ الشعور بالحرية الاجتماعية ، بالابتعاد عن كلام الناس وألسنتهم الحادة وانتقاداتهم المريرة .

(ب) من الناحية الاجتماعية :

توجد الروابط القوية بين أفراد الأسرة الواحدة ، لأنهم يشعرون جميعا وكأنهم أخوة فى كتلة واحدة .

وإذا كانت هذه هى حسنات المزارع ومزاياها ، فما هى أضرار الاقامة فى المزرعة ؟ فى الرد على هذه المسائل نقول : تتمثل عيوب المزارع من ناحيتين :

(أ) من الناحية الاقتصادية [1] :

١ ـــ زيادة تكاليف الخدمات والمرافق العامة ، كمد خطوط التليفون والكهرباء وتوصيل المياة الخاصه للعائلة التى تقيم بالمزرعة .

٢ ـــ الخدمة فى المزرعة تشمل عددا كبيرا من السكان ، أما فى القرية لاتقوم الخدمات والمرافق لأن الخدمة غالية التكاليف لعدد قليل من السكان .

(ب) من الناحية الاجتماعية :

١ ـــ الاتصال المحدود بالعالم الخارجى ، نظرا لصعوبة الاتصال أو الانتقال الأمر الذى يؤدى إلى عزلة اجتماعية .

٢ ـــ صعوبة إرسال الأطفال للتعليم وتحتاج أوجه النشاط الاجتماعى والخدمات الصحية إلى مصاريف كبيرة ووقت يضيع معظمه فى الانتقال والمواصلات.

وكان نظام القرى سائدا فى الولايات المتحدة الأمريكية عند مهاجرة سكان

---

(1) Mendras, H., I. Milailescu., Theories & Methods in Rural Community studies.,Vienna ccnter, Volinna, Austria. 1982.

أوروبا الأوائل لأنهم أصلا كانوا يقيمون فى القرى قبل الهجرة ، وعندما أستتب الأمر ، وعبدت الطرق والمواصلات السهلة ، ساعد ذلك على اقامة المزارع بدلا من القرى القديمة كما أن النوع المنتشر فى مصر هو نظم الاقامة فى القرى والنجوع والكفور ولا توجد فى مصر مزارع [١] .

صور وأشكال القرى :

(ا) يطلق على النوع الأول من أنواع القرى اسم « عديمة الشكل » ، وليس للقرية عديمة الشكل وضع معين ، كما هو الحال فى القرية المصرية ، فليس هناك تنظيم للبيوت والشوارع والمزارع ، وليس هناك رسم أو تخطيط للقرية[٢] وأماكن التسويق ، وساحات الأندية ودرس الغلال أو مكان للآلات والحيوانات والمحاصيل . أما المدارس والمستشفيات والملاعب فنادرة ، وعلى ضفاف القرى ، وذلك حتى تخدم أكبر عدد ممكن من القرى المتاخمة على الأطراف والحدود . وفى معظم الأحيان تكون «الجبّانة» أو مكان دفن الموتى فى خارج نطاق القرى وعلى التلال البعيدة التى تقع خارج البلدة وبعيدة عن المزارع الواسعة أو الضيقة . وبعد فترة تطول أو تقصر ، نجد الجبانة داخل البلدة ، بعد أن كانت خارجها ، نظرا لشدة الازدحام وكثرة المواليد ، والزواج المبكر بين الفلاحين ، نظرا لاعتبارات اقتصادية واجتماعية معينة ، فأبناء الفلاح هم طاقة بشرية وأيدى عاملة مطلوبة فى الحقول أثناء الرى وضم المحاصيل وجنى القطن ، والفلاح فى مسيس الحاجة إلى من يشاركه فى أعمال الزراعة الكثيرة والمتعددة ، فيوفر على نفسه أجور عمال يستأجرهم لانجاز أعماله [٣] .

(ب) هناك بعض القرى تأخذ وضع فيزيقى وطبيعى معين نتيجة لمؤثرات طبيعية فى المنطقة كما يلاحظ :

---

(١) د. على فؤاد أحمد ، علم الاجتماع الريفى ، القاهرة ١٩٦٠ .

(2) Clout, H., Rural Geography., university College., London. England. 1972.

(3) Soliman, Adly., Social development in New Rural development in Egypt. Egyptian authority for cultivaton & development, Cairo. 1973.

القرى المستطيلة الشكل ، وتنتشر على الأنهار والترع فمثلا هناك قرى على طول طريق كفر الدوار وبجوار ترعة المحمودية مثل « قرية البيضا » ، و « قرية كنج عثمان » نجد أنهما تأخذان الشكل المستطيل ولايتعدى سمك القرية على منزلين أو ثلاثة ، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى وجود قرى مستطيلة Line Village وهى منتشرة فى فرنسا وبعض مناطق أمريكا الشمالية فى حوض نهر المسيسبى[1] .

ولهذا النوع من القرى « المستطيلة الشكل » حسناتها وعيوبها ، الا أن مزاياها أكثر . ومن أهم مميزات القرية المستطيلة :

١ ـ يطل كل بيت على ترعة أو نهر ، وعرض البيوت قليل ومما يزيد من المزايا قرب البيوت من الحقول التى تقع خلف البيوت مباشرة .

٢ ـ هناك ميزة أخرى مكانية واقتصادية ، لقرب البيت من الحقل مما يوفر الجهد والوقت .

٣ ـ يمكن اقامة طرق بسهولة ، نظرا لعدم تكتل أو تركز الناس فى منطقة واحدة .

٤ ـ تتوفر الخدمات بأسعار رخيصة ، ويمكن اجراء عمليات الاصلاح مع سهولة توصيل المياة والنور .

هذا عن مزايا وحسنات القرية المستطيلة ، ولكننا نتساءل عن عيوب القرى المستطيلة ، ما هى ؟

فى المناطق المستطيلة على شواطىء الأنهار ، والترع ، يصعب وجود المدارس والمستشفيات ، نظرا لعدم تركز الناس فى منطقة واحدة ، وعرض البيوت قليل لايسمح بانشاء وبناء المدارس ، فالقرية محدودة ومستطيلة لمسافة كيلو أو أكثر طولاً بينما يضيق العرض جدا .

وهكذا حال الاسكندرية ، فهى عبارة عن شريط ساحلى ، مما يؤثر على

---

(1) Volgyes, I Lonsdale, Avery., The Process of rural Transformation University of Nebraska, U.S.A. 1980.

الخدمات ومواقعها وتكاليفها من حيث ادخال الماء وتركيب التلفون والنور الأمر الذى يزيد العناية بالصحة العامة .

القرى المستديرة الشكل Round Village :

وتتركز وسطها الخدمات التعليمية والصحة والأمن ، وهى منتشرة فى اسرائيل وفلسطين [1] وتسمى بالمستعمرات ، ففى مراكز القرية المستديرة ووسطها تشيد المدارس والمستشفيات والمحلات . أما الحقول فهى قريبة وممتدة فى مختلف اتجاهات القرية ، وتنشأ هذه القرى المستديرة بطريقة هندسية منتظمة وبناء على تخطيط دقيق وحديث ، وينتشر هذا النوع الجيد والجديد من القرى فى مديرية التحرير فى القطر المصرى[1] .

ومن الممكن القيام باصلاحات اجتماعية واقتصادية للقرية المصرية إلا أنها تقابل بمقاومة شديدة من الناس ، فمن الصعب تنظيم القرية المصرية ، ومن المستحيل هدمها ، بل من الممكن وضع خطة تنظيمية للقرى المصرية على أساس المزارع الواسعة لأن مواقع الخدمات موزعة حاليا توزيعا مناسبا لنظم الاقامة فى المزارع .

سكان القرى[٣] :

السكان هم تكتل بشرى هائل، وهم المادة العضوية التى يتألف منها المجتمع. واهتم علماء الاجتماع الريفى بالدراسات السكانية ، من زاوية الدين والدخل والعمر والتعليم والصحة . وللسكان خواصهم المميزة حيث تؤثر هذه الخواص تأثيرا كبيرا على ما ينشأ بين السكان من علامات اجتماعية ومنظمات ومؤسسات .

ولقد تضاعف عدد السكان فى مائة وخمسين عاما خلال الفترة ما بين عامى ١٨٠٠ حتى عام ١٩٥٠ ، مما استرعى أنظار الباحثين فى الفترة الأخيرة بصدد

---

(١) د. فتح الله هلول ، البلدان الريفية والحضرية بالاقليم المصرى ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٩ .

(2) El Abd, Salah., An approach to integrated Rural development in Africa, Sirs El Layan, Minofia Egypt, 1973.

(3) Volgyes, R.E Lonsdale, Avery., The Process of Rural Transformation., University of Nebraska, U.S.A. 1980.

الزيادة المطردة حين أضيف إلى سكان الكرة الأرضية ما يعادل عدد السكان أنفسهم خلال تلك الفترة الوجيزة فى حياة المجتمعات . وإذا استمرت الزيادة السكانية ، على هذا النحو الهائل ، فلسوف ينشأ حتما نوع جديد من المنظمات والمؤسسات الاجتماعية نظرا لانتشار السكان فى كافة بقاع المعمورة وفى مناطق لم يسبق لهم أن أقاموا عليها .

ولم يظهر الاهتمام بالدراسات السكانية والسكنية منذ الـ ١٥٠ سنة الماضية فحسب ، ولكن هناك من سبق أن نشر أبحاثه قبل هذا التاريخ مثل «جون جرانت John Graunt الذى سبق أن كتب مقالا عن الوفيات تحت عنوان Bills of Mortality ، ثم جاء مالتس Malthus بعد ذلك عام ١٧٩٨ ، ونشر Essay on Principle of Population وهو عنوان مقاله المشهور ، الذى كان أول بحث علمى عن الدراسات السكانية مما كان له صداه فى تطور علم السكان والاهتمام بالشئون السكنية والاسكانية .

مالتس وجرانت :

لقد أكد لنا مالتس Malthus أن الزيادة السريعة فى عدد السكان تقابلها نسبة منخفضة فى معدلات انتاج الغذاء والطعام على سطح الأرض ، وأنه لابد وأن تتخذ الاجراءات الاجتماعية والسياسية السريعة [٢] أما بوقف السكان عن طريق تحديد النسل وتنظيم السكان ، أو عن طريق أكتشاف موارد جديدة أخرى للمواد الغذائية .

وبذلك فتح مالتس بابا جديداً كاونبه الأذهان نحو خطورة المشكلة السكانية . فلقيت نظرية مالتس اهتمام الكثير من الباحثين فى علوم السكان والديموجرافيا . ولقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية أن تنتج كميات كبيرة من الأغذية ، فوزعت الفائض وكان هائلا وضخماً لحل مشكلات الجوع التى واجهت معظم دول العالم وقت الكساد التجارى ، مع زيادة تعداد السكان التى فاقت بكثير سرعة انتاج الطعام وبخاصة فى المجتمعات النامية

(1) Talmor, E., Malthus our Cntemporary., Haifa University Israel. 1983.

والمتخلفة ، ولقد كان هدف مالتس كحل للمشكلة الاهتمام بالتعليم ورفع مستوى المعيشة ، وخفض البطالة وتحديد النسل .

برامج تحديد النسل وتنظيم الأسرة :

كانت من نتائج دراسات « مالتوس » المتشائمة أن أصبحت مشكلة زيادة السكان هى القنبلة الرهيبة التى انفجرت فى مراكز البحث العلمى ، وبين أروقة الجامعات ، وظهرت فى عصرنا معاملات الارتباط الوثيقة التى تربط بين أنجاب الاعداد الزائدة من المواليد ، مع ندرة الوفيات بين الأطفال ، وكان هذا الوضع المثير نتيجة للتقدم الطبى الرهيب ، والاهتمام بالصحة العامة فى معظم دول ومجتمعات العالم الثالث .

ومن أهم الظواهر التى ينبغى دراستها بكل وضوح وعناية هى دراسة العلاقة القائمة بين معدلات الزيادة السكانية من جهة وبين التخلف الاقتصادى من جهة أخرى .

ولما كان الهدف هو ضرورة التوصل إلى أقل معدلات الانجاب المنخفض باستخدام الطرق العلمية ووسائل منع الحمل ، ودراسة كيفية ممارستها واستعمالها وتجربتها ، بدلا من ترك الحبل على الغارب عن طريق الانجاب الزائد بالمصادفة والعفوية .

ويهدف مشروع تنظيم الأسرة فى مختلف دول العالم الثالث إلى التركيز على الجوانب الصحية والطبية باستخدام مختلف الطرق والوسائل الطبية والمبتكرة مثل « الحبوب » المعروفة وتناولها عن طريق الفم ، أو تركيب « اللولب » عند« فتحة المهبل » ولنجاح مشروع تنظيم الأسرة وتحديد النسل ، لابد من وجود أو توافر الشروط الآتية :

١ ـــ وجود برنامج تعليمى محدد لشرح كافة الموضوعات المتعلقة لعملية تنظيم النسل .

٢ ـــ وجود خطة محددة أو أهداف معينة لابد من التوصل اليها لنجاح المشروع.

٣ ـــ استخدام وسائل الاعلام المختلفة كالراديو والتلفزيون والصحف .

٤ ـــ ادخال برامج مبتكرة لتحديد النسل .

٥ ـــ تحديد النتائج الخاصة بمدى نجاح التطبيقات والتجارب الخاصة بالمشروع.

وإذا كانت الزيادة السكانية لها نتائجها وآثارها الوخيمة ، فان النقص فى عدد السكان لايقل أهمية عن الزيادة فى تعدادهم ... أما عن مشكلات الزيادة والآثار الناجمة عن تضخم تعداد السكان فنحددها فى النقاط الرئيسية الآتية :

١ ـــ تؤدى زيادة السكان إلى تعقد العلاقات الانسانية .

٢ ـــ ضرورة مواجهة الزيادة السكانية بتكثيف نوع جديد من المنظمات أو المؤسسات .

٣ ـــ تصاحب الزيادة والتضخم مع ظهور التخصصات الجديدة لمواجهة الزيادة فى تعقد تقسيم العمل .

٤ ـــ تزداد قيمة الملكية مع زيادة عدد السكان ، فتتضاعف أسعار الأراضى الزراعية سواء فى المناطق القروية أو الحضرية على حد سواء .

٥ ـــ ظهور الطبقات الاجتماعية وتعددها مع الزيادة الرهيبة فى السكان . وتواجه مجتمعات شبه جزيرة اسكندناوة كالسويد والنرويج مشكلات النقص فى تعداد السكان ولذلك نشجع مثل هذه المجتمعات على الانسال والولادة والانجاب وانتاج الأطفال ، وهناك الكثير من الآثار الوخيمة التى تنجم عن النقص فى تعداد السكان ، نحددها فى النقاط التالية :

ا ـــ يتطلب النقص فى تعداد السكان ضرورة ادخال تغييرات فى الزراعة نفسها، بأدخال واستخدام التكنولوجيا والآلات الميكانيكية بدلا من استعمال الأيدى العاملة الناقصة .

ب ـــ ضرورة ايجاد أنواع من المنظمات والمؤسسات الاجتماعية لادخال مايؤكد قيام العلاقات الانسانية ، حيث يصحب النقص السكانى ضرورة عمل أنواع من التكثيف ، لكافة العلاقات الانسانية ، فلابد للمجتمع اذن من أن يكيف نفسه وظروفه للتغيرات سواء بالزيادة أو بالنقص فى تعداد السكان .

ولو نظرنا إلى عدد السكان فى مصر لوجدنا أن السكان كانوا فى تعداد سنة ١٨٩٧ حوالى ٩,٧ مليون ، بينما بلغوا فى تعداد عام ١٩٤٧ فوصلوا إلى ١٩ مليون نسمة ومعنى ذلك أن سكان مصر قد تضاعفوا خلال ٥٠ سنة وزادو ١٠٠٪ .

وهذه زيادة رهيبة لا يمكن التهاون معها أبدا فلقد زاد سكان العالم أيضا بمقدار الضعف خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة .

وإذا ما قارنا بين تعداد سنة ١٩١٧ وتعداد سنة ١٩٤٧ لوجدنا أن سكان الوجه البحرى قد نقصوا من ٤٧٪ فى تعداد سنة ١٩١٧ إلى ٤٣٪ فى تعداد سنة ١٩٤٧ . ويرجع ذلك إلى هجرة الكثير من سكان الوجه البحرى إلى المدن والمحافظات التى تضخمت فى تعدادها من ١٠٪ سنة ١٩١٧ إلى ١٨٪ فى سنة ١٩٤٧ .

ولو نظرنا إلى السكان فى القرى ، فانهم ينقسمون من حيث المهنة إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ ريفيون زراعيون .
٢ ــ ريفيون غير زراعيين .
٣ ــ ريفيون بلا عمل .

ونلاحظ أن الزراعة المصرية بأساليبها الراهنة يشتغل فيها نسبة كبيرة من السكان ، ويعمل معظمهم فى عمليات زراعية تافهة للغاية بالاضافة إلى أن عملية الاستغناء عنهم هى عملية صعبة جدا ، لأنها تتطلب ضرورة الاتجاه نحو غايتين :

١ ــ أن توفر لهم الدولة أعمالاً أخرى تتناسب مع كفاءتهم .

٢ ــ لابد من أحداث نوع من التغيرات فى أساليب الزراعة المصرية بحيث يمكن الاستغناء عن عدد كبير من العمال قبل ادخال الآلات الزراعية .

وإذا ما تساءلنا ولماذا لا تدخل تكنولوجيا الزراعة وتستخدم الآلات الحديثة ؟. فى الرد على السؤال نقول إن النمط الزراعى السائد فى مصر ، وهو القطن وهو من المحاصيل

التى يصعب معها استخدام الآلات الميكانيكية ، كما لا تجدى الملكيات الصغيرة الحجم مع امكانيات الآلات الميكانيكية ومتطلباتها الهائلة . ثم تظهر مشكلة أهم وأكبر ، وهى كيف نوفر العمل الضرورى واللازم للفائض عن الحاجة من الزراعيين بعد تطبيق نظم الزراعة وتحديثها آلياً ؟ .

الأسرة القروية والعائلة التقليدية :

نستطيع أن نتسائل : ما هى طبيعة الأسرة القروية ؟ وكيف نحدد سماتها ؟ وماذا نقصد بالمجتمع الريفى ؟ وبم يتألف البناء القروى ؟ فى الرد على كل هذه المسائل ، نقول يتميز المجتمع الريفى عادة بالبساطة فى التركيب والتجانس Homogeneity فى طبيعة الحرفة .

ويوضح كنجز لى دافيز Kingsley Davis هذا المعنى فيميز القرية « أو المجتمع الريفى » عن غيره بقلة الحجم وأنخفاض الكثافة بحيث تكون بساطة البناء Structure هى السمة السائدة فى المجتمعات الريفية . ويذهب « دافيد » إلى أن حجم المدينة هو السمة المميزة لعملية التحضير Urbanization ، وأن حجم القرية يقل دائما عن مظاهر العمران والتركز والتوطن Concentration وهى ظواهر تراكمية تطرأ على المدينة الكثيفة السكان ، ويبدأ النسق الحضرى Urban System فى التكوين حينما يصل حجم سكان المدينة إلى ١٠٠ ألف نسمة بينما نجد مقياساً مضاعفاً تحدد فيه هيئة الأمم المتحدة حجم سكان المدينة على أساس ٢٠٠ ألف نسمة [١] .

هذا تقسيم على أساس الحجم Size ، وهو تمييز يحدد أو يضع لنا الفارق بين المجتمعات الريفية والحضرية . فالحجم هو أحد المقاييس الموضوعية للتمييز فكما تزايدت معدلات السكان كلما زادت الخدمات والمرافق ، وكثر الموظفون وتعددت المنشآت والمؤسسات والمصانع ، الأمر الذى معه تتعقد العلاقات وتتشابك مع عمليات الهجرة Migration والتهجير والتوطن ولهذا السبب تتسم المدن بالكثافة والتركز .

---

(1) Bette. S.Denich., Migration, Network Manipulation ın Yugenlovia., Article form Spencer., Migration Anthlopology, Univ. of Washington Press. 1970.

وفى دراسة قام بها « دينش Denich » فى يوغوسلافيا عن هجرة الريفيين إلى الحضر ، وجد أن هناك علاقات سابقة للقروى مع أقارب أو زملاء أو أصدقاء يعيشون فى المدن ، ومن هنا تبدأ شبكة العلاقات بين الريفيين والحضريين . فالفلاح المهاجر سبق له أن أتصل مع أقرانه وذويه ، وهم سكان من الريفيين نجحوا فى الاتصال بالمدن . وعندما يستقر القروى بعد هجرته إلى المدينة نراه يندمج فى شبكة جديدة من العلاقات ، وقد يعود إلى قريته ثانية فى الاجازة أو لحضور زواج، أو المشاركة فى مناسبة اجتماعية . وحين يشعر الفلاح بحاجته إلى دخل أوفر عليه أن يتعرف قبل رحيله من القرية على عدد من الريفيين الذين سبقوه إلى الهجرة إلى المدينة ، فتزداد المصادر المتعددة لشبكة العلاقات بجماعات قرابية Kinship groups أو زملاء فى العمل أو رفقاء الدراسة أثناء مختلف مراحل التعليم ، وقد يكونوا من نفس الجوار وقد تتكون علاقات الصداقة أثناء النشاط التسويقى أو الترفيهى .

هذا ما يراه « دنيش » . ولكننا نتساءل ... كيف تتحول البيئة القروية ؟ وماذا يطرأ على بنية المجتمع حتى تتغير حرفة الزراعة ؟ وإلى أى حد تكبر وتزداد « الوحدة القروية » حتى يمكن اعتبارها « وحدة حضرية » ؟ وكيف تنتقل حالة ما قبل الحضر Pre-Urban إلى الحالة التى تضع حداً فاصلا حين تميز تماما السمات القروية عن السمات الحضرية ؟ .. لاشك أن هناك صعوبات واضحة أمام مبدأ التقسيم على أساس الحجم ، فمن الصعب اتخاذ الحجم كأساس للتفرقة بين الريف والحضر (١) .

وهناك جانب أو ناحية أخرى تضع لنا حدا فاصلا بين ما هو ريفى وما هو حضرى ، وهنا يذهب آرنست برجل Bergel فى كتابه علم الاجتماع الحضرى Urban sociology إلى أننا بغض النظر عن الحجم ، ينبغى الالتفات إلى الحرفة أو المهنة Occupation ، فالزراعة حضارياً هى مرحلة سابقة على التصنيع والصناعة ، أى أن السمة القروية سابقة على الحضرية ، استناداً إلى طبيعة الحرفة ، ودخول التخصصات المهنية ، وظهور المهارات والتقنيات Technique فى المجتمع الصناعى .

(1) Zaborski, B., On the forms of the Villoges in Poland, Gracow. 1926

ولقد أطلق العلامة العربى عبد الرحمن ابن خلدون فى مقدمته المشهورة ما اسماء « بعلم العمران » لكى يصدق على « علم الاجتماع » . وميز ابن خلدون بين المجتمعات التقليدية كالبداوة الرعوية وسماتها التى تتباين والحالة الحضرية.وكان أساس التمييز عند ابن خلدون ، هو المهنة ، التى تضع حداً بين أنشطة اقتصادية، وألوان من الحرف بين البدو ، وميزها تماما عن غيرها من الحرف ، حيث تنتقل قبائل البدو سعياً وراء الكلأ ، ولهم حرفهم ومهاراتهم التى لاتتوافر بين الريفيين أو الحضريين ، ومن هنا تختلف طبيعة العمران عند ابن خلدون باختلاف الحرف والمهن .

وقديما عرف الناس « القرية » بأنها المكان الذى يعمل فيه أهلها بالزراعة ، أى أن معظم أو كل سكان القرية يحترف الزراعة . بينما نجد العكس فى البيئات والمناطق والتجمعات الحضرية ، حيث نجد أن معظم أو كل الناس لايعمل أو يشتغل بالزراعة ، حيث تظهر التخصصات المهنية والمهارات الصناعية إستناداً إلى تعقد ظاهرة تقسيم العمل Division of labor .

والنقد الحاسم الذى يمكن أن نوجهه إلى هذه النظرة المتعلقة بالحرفة كأساس للتقييم بين الريفى والحضرى ، وجود بعض الصعوبات الخاصة عند تطبيق هذا الفاصل فى تعريف الريف وتمييزه عن سمات المدينة .

ففى مجتمع الاسكندرية مثلا ، وهى منطقة حضرية دون شك ، نجد قطاعات شاسعة من المناطق الزراعية ، ويوجد الكثير ممّن يشتغل بالزراعة فى مختلف العزب المتاخمة للمدينة مثل عزبة « عبداللا » . فماذا نعتبر من يعمل فى المناطق القروية؟ وماذا نسمى الريفى الذى يقوم بأعمال قروية وزراعية فى قلب الحضر ؟ فى المدينة مناطق تحتاجها لانتاج الخضروات والبقول والفاكهة ، وفى القرية أيضا ، نجد من لايعمل بالزراعة مثل « ناظر المدرسة » الابتدائية ، وطبيب القرية ، والنجار والحلاق . ففى القرية من يعمل بالزراعة ، وفيها أيضا من لايعمل بالزراعة .

ومعنى ذلك أن التقسيم الاقتصادى الذى يقول به الاقتصاديون ليس هو التقسيم الحاسم فلا يمكن تقسيم الريف والحضر على أساس المهنة فهذا أمر صعب ولايمكن أخذه كأساس للتقسيم أو التقييم .

ويقول الاجتماعيون ، أن الناحية الثقافية أو العامل الاجتماعى والنفسى Social psychological factor هو عامل جوهرى فى التمييز بين القروية والحضرية . فالعلاقات القائمة فى الريف بين مختلف الأفراد هى علاقات اجتماعية قوية تقوم على علاقة الوجه للوجه Face-to-Face relationship ففى المجتمع الريفى نجد أن الناس يعرفون بعضهم بعضاً معرفة شخصية ، كما يعرفون أسماءهم وألقابهم وعائلاتهم، وهذا بالطبع لانجده فى العلاقات الحضرية .

ومن هذا المنطلق يؤكد الاجتماعيون على وجود نوع من التكامل والتضامن إستناداً إلى وجود علاقات الدم والجوار والأرض وهى علاقات اجتماعية قوية ، قد تظهر فيها « العصبية » وتنشأ العداوات استنادا إلى مبدأ الأخذ بالثأر ، إذا مانشب الصراع بين عائلتين كبيرتين .

ولكن التمييز الاجتماعى والنفسى ليس حاسماً ، فهناك صعوبة فى تقدير مدى العلاقات الموجودة وقياسها ، حتى نميز بين الحضر والريف . حيث تكون فى الريف قوية أو شخصية Personal بينما تكون ضعيفة أو رسمية Formal فى المناطق الحضرية [1] .

بنية العائلة القروية :

اشتهرت نظرية تونيز Tonnies[2] فى تعريف طبيعة الحياة القروية ، ومقارنته الجماعة Community بالمجتمع Society ، حيث يعتبر « تونيز » العامل المورفولوجى هو العامل الحاسم فى تحديد التمايز بين العائلة القرويه والأسرة الحضرية، حيث يتغير حجم العائلة طبقا للتغييرات الاجتماعية الناجمة عن التصنيع مما كان له دوره على خروج المرأة للعمل . الأمر الذى كان له نتائجه الاقتصادية حيث يؤدى التغيير الثقافى والتعليمى والحضارى إلى تغييرات فى حجم العائلة القروية ، كما ويتضح العامل المورفولوجى فى عملية انتقال الحياة من حياة محلية إلى حياة اجتماعية ، وتطورها من حجم الجماعة القروية الضيق المحدود ، إلى اتساع المجتمع الحضرى اللامحدود .

---

(1) El Abd, Salah., On Approach to integrated Rural development in Africa, Sirs El layan, Menofia, Egypt, 1973.

(2) Tonnies, Ferdinand., Community & Society., Harper. New York. 1963.

أثر الهجرة فى تركيب العائلة القروية :

والعامل الجوهرى الذى يميز العائلة القروية ، هو هجرة أبناء القرى من مجتماتهم الضيقة المحدودة وانتقالهم منها طلبا للجديد والتجديد وحباً فى الاستقلال عن الأسرة والتحرر من سلطان العرف والتقاليد .

ومع تغير حجم العائلة وتناقص عدد الذكور فى القرية نظرا للقيام بعمليات الهجرة إلى مناطق الجذب الحضرى ، نظرا لتطور العمل العائلى داخل البيوت وما نجم عنه من ضعف سلطان الأب ، وخاصة بعد الغاء الرقيق وتحرير العبيد ، من الأعمال الخاصة بخدمة الأرض وكل ما يتعلق بملكية أو اهتمامات العائلة .

ولقد نجم عن هجرة أهل الريف مشكلات خاصة ، مثل ازدياد كثافة السكان فى المدن والمراكز مع كثرة الهجرة الداخلية الأمر الذى أدى إلى غزو المناطق الزراعية المتاخمة للمدن ، وتحويل الأراضى المزروعة إلى أماكن سكنية ومرافق وخدمات فأرتفع ثمن الأراضى فى الريف ، كما أرتفع ثمن الأراضى البور فى المناطق غير السكنية وغير الصالحة للزراعة، ويقصد بالخدمات هنا ادخال المياة والنور فى هذه الأماكن ، فتجذب السكان جذبا ، نظرا لندرة الأرض فى المناطق المزدحمة ، الأمر الذى أدى إلى التفكير فى انشاء عمارات سكنية ضخمة لاتشغل الأسرة منها سوى شقة أو وحدة سكنية صغيرة وضيقة [1] بمعنى أن اتساع المساحة التى كانت تشغلها الأسرة القديمة قد أخذ فى الضيق ، وأرتفعت ايجارات المساكن ، حتى هجرت بعض الأسر الأوربية ، وهربت من ايجار المساكن المرتفع ، وأقامت فى بنسيونات وفنادق رخيصة . ودخل الأطفال دور الحضانة ، وأنتسب الأولاد إلى المدارس الداخلية ، بينما أقام الزوجان فى فندق .

وهكذا أصبح حال الأسرة فى عصر التصنيع، حيث تقوم المواصلات والخدمات وسرعة الاتصال ، فكان لهذا كله أثره على العامل الموروفولوجى لتركيب العائلة القروية ذات النسق القرابى القديم ، فكانت الاقامة فى الفنادق أحدث صيحة مورفولوجية فى عصر التعقيد Age of Complexity حيث انعكست ظواهره التغيرية وطرأت مشكلاته الحادة على حياة العائلة التقليدية ، مما كان له رد فعله على العامل

(1) Goode, William, The Family, Printice-Hall of India Delhi. 1965.

المورفولوجى العائلى وتطويره فى عصر السرعة والميكنة Automation وتقدم تكنولوجيا الزراعة وأدوات الانتاج الصناعى .

(جـ) عوامل التغير فى بنية العائلة التقليدية والقروية :

(١) لاشك أن للنسق التربوى دوره العميق فى التغيير والتطوير، فلقد كان لانتشار ديموقراطية التعليم ، وتكافؤ الفرصة ، وانتشار الوعى الثقافى بين الشباب . وأهتمام المجتمع الحديث بتربية البنت ، لأنها أم المستقبل ، والأم مربية الأجيال الصاعدة ومدرسة النشىء وأعداده الاعداد السليم . وكان لزوال التقاليد البالية التى تضع الفوارق بين الرجل والمرأة ، أثره الواضح فى ديموقراطية السلوك الانسانى ، وحلت ديموقراطية المناقشات الحرة وأصبحت الأسرة هى الموجه الثقافى والمعلم الرياضى والملهم الدينى كما أنها ندوة علمية ، وملتقى سياسى وليست مجرد استراحة مخصصة للنوم والراحة ، أو مكان لتناول الطعام والشراب .

هذه هى وظيفة النسق التربوى ودوره فى التغيير والتطوير «فالعلم كالماء والهواء» على حد تعبير الدكتور طه حسين فى سياسته التعليمية والتربوية .

(٢) وإلى جانب النسق التربوى ، هناك النسق الاقتصادى وأثره الحاسم فى التغيير ، ودوره التطورى معروف ، نظراً للتغييرات التى تطرأ على الأسرة القروية ، بل وعلى الريف نفسه بعد تصنيعه وادخال الأدوات والآلات فى أنجاز الأعمال القروية ، كالرى والحصاد ، وحرث الأرض وتقليب التربة .

ولقد كان الانتاج العائلى القروى « داخل البيوت » ، وكان الانتاج مغلقاً ثم أصبح مفتوحاً بعد ظهور الآلات وتطور تكنولوجيا الصناعة ، فتطورت اقتصاديات العائلة التقليدية ، حيث أصبح كل عضو من أعضاء الأسرة يغير من نمط العمل الزراعى ، بعد انتشار التعليم ، فأجتهد القروى فى البحث عن العمل الهادىء المريح لاستغراق الوقت المنظم والثابت الذى يدر عليه الراتب الشهرى المجزى ، وأصبح الانسان الفرد بعد أن كان منتجاً لنفسه فى القرية أصبح منتجاً لغيره فى مصنع المدينة . وتحولت الأسرة القروية من حالة أسرة منتجة لكى تستهلك ما تنتجه فى حلقة مفرغة ، ومغلقة ، وهى حالة اقتصادية قديمة هى حالة

الكاست Castes بين طوائف الهند وهى حالة الانتاج للاستهلاك[1] .

هذا عن اقتصاديات القرية التى تغيرت وتطورت ، فأصبح للانتاج التداول والاستبدال ، وأصبح العامل فى المصنع هو دعامة الانتاج وهو المنتج الأول The First Producer .

ولقد تطورت النظم السائدة فى النسق الاقتصادى القديم ، وساعد ذلك الغاء الرق وتحرير العبيد وتطورت نظم العمل وتجددت وبعد أن كان البيت هو نفسه مصنعا ، ثم تحرر العمال من النسق الاقتصادى المغلق والانتاج المحدود ، وأصبح من حق الانسان الفرد عرض خدماته على الآخرين وظهر العامل المنتج والمتخصص والانتاج الكبير Mass Production وقامت المصانع الكبرى نظراً لوفرة العمال بعد الغاء الرق وتحرير العبيد ، ومع زيادة هجرة القرويين من الريف إلى المدن ازدادت وفرة الأيدى العاملة وقلت أجورها ، بمعنى أن وفرة الأيدى أدت إلى رخصها لزيادة العرض على طلب السوق ، بالمعنى الاقتصادى الخاص بنظريتى القيمة Value والعرض والطلب .

ولقد كان لنفس العامل الاقتصادى أثره الحاسم على خروج المرأة للعمل ، بأعتبارها من عناصر الانتاج ، وفضلت المرأة العمل على البقاء حبيسة جدران البيت ، فتعاونت وساهمت مع الرجل فى حل المشكلات الاقتصادية للأسرة ، ولقد كان للتصنيع وأستقطاب المدن الصناعية للعمال من القرى وازدحام المدينة وأنتشار الأمراض [2] ، مع انخفاض مستوى المعيشة أو ضعف المعايير الأخلاقية ، وقلة هيبة القانون ، فخفت حدة الضوابط ، وزادت معدلات الوفيات ، وظهر الاستغلال الاجتماعى وتعددت مشكلات التشرد والبطالة ، وساد استغلال الانسان لأخيه الانسان .

ومما ساعد على التغيير والتطور فى بنية العائلة التقليدية ، تقدم أدوات ترقية الذوق العام ، كالمذياع والتلفزيون والفيديو إلى جانب التليفون وتوافر تكنولوجيا خدمة الأسرة التى تقدم لها سائر التسهيلات Facilities اللازمة للحياة الحضارية

(1) Boguié, Celéstin., Essay on the Caste System, Trans by Pocock. Cambridge. 1971.

(٢) د. محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع سرس الليان ١٩٦٢ .

كالفريجيدير والبوتاجاز والسخان والمكنسة الكهربية ، مع آلية غسيل الملابس وتجفيفها وكيها ، وتقدم أدوات الطهى وغسل الأطباق ، فظهر المطبخ الحديث للمرأة العاملة تتناول فيه الوجبات السريعة والخفيفة المعلبة أو الطازجة . وتستخدم الأسرة العصرية فى المنزل أدوات تكييف الهواء حيث تقدم حضارة التصنيع [1] للأسرة كل منتجات تكنولوجيا العصر ، فيترقى معها سلوك الانسان المتحضر وتنمو مناشطه وتصوراته حيث للاقتصاد المنزلى دوره فى التدبير العائلى وأثره الواضح فى التقدم نحو حياة أفضل وأسرة حضرية أكثر سعادة ورفاهية .

الفروق القائمة بين مجتمع القرية وتعقد المدينة :

لقد أشتهر « روبرت ردفيلد Redfield وتشارلس كولى فى التمييز بين الجماعات الأولية Primary Groups والجماعات الثانوية Secondary groups ، وبين العلاقات الرسمية Formal relation وعلاقة الوجه للوجه[2] .

وميز « فرديناند تونيز » بين جماينشا فت » و « جرلشافت » أى بين المجتمع العائلى أو الريفى ، وبين الجماعات الرسمية الحضرى وعلاقاته القائمة على العقد . وعلى نفس هذا النحو وضع « ردفيلد » مختلف الفوارق بين مجتمع الفولك Folk من ناحية والتمدين Civilization من ناحية أخرى [3] .

وفى كتاب « لومس وبيجل » عن « الانساق الاجتماعية القروية Rural social systems » نجد عدداً من الفروق والمميزات التى تضع الكثير من أوجه الاختلاف بين « نظم القرية » و « العلاقات » القائمة على الشكليات والرسميات فى غربة الكثافة الحضرية القائمة بين« جيران العمارة الواحدة داخل أسانسير متحرك».

فإذا تساوى تأثير الجماعات وعلى نحو استاتيكى فى نظم القرية والعلاقات العائلية فيها ، فأن التأثير يكون من جانب واحد ، أما الاستجابة Response

---

(١) أيرمز ، تشارلز ، المدينة ومشاكل الاسكان ، ترجمة لجنة من الأساتذة المترجمين دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، بدون تاريخ .

(2) Cooley, ch., Social organization, Sribner & sons. 1909.

(3) Redfield, R., The Little Community, Chicago, The University of Chicago Press, 1962.

فتكون من جانب آخر . وإذا كانت العلاقات تطوعية وعلى أساس الرغبة والمحبة والصداقة ، فى الأسرة أو العائلة القروية ، فإن العلاقات تصبح إجبارية ولاتحترم الجوار فى المجتمعات التعاقدية .

وفى القرية ، يشترك أفراد الجماعة فى الأهداف والدوافع والقيم ، نظرا لوجود عناصر التضامن والتماسك والتعاون . بينما تتنوع فى المدينة ، الأهداف والدوافع والقيم ، وتقوم العداوات ، بين مختلف الزمر المتنافسة من أجل المصلحة . ويكون الاتصال فى القرية مباشرا وغير رسمى ، وتسود علاقة الوجه للوجه ، بينما يكون الاتصال رسميا فى المدن بين أصحاب المصالح والمتاجر ، فيتمسكون بالشكليات والرسميات ، والتمسك بالكتابات فى التخاطب والاتصال نظرا لوجود علاقات رسمية Formal وتكون الثقافة القروية مقدسة Sacred ومنعزلة كما يقول هوارد بيكر Howard Becker فيقاومون فيها الانحراف عن القيم . بينما تكون ثقافة المدن متحررة لاتتقيد بقيود متزمته كما هو الحال فى الريف حيث يسود السلوك التقليدى ، بينما يسود السلوك الكفء المتزن داخل اطار المجال الحضرى[1] .

وبالاضافة إلى هذه الفروق ، وضعت نظرية « لومس وبيجل » فروقا تتعلق بالسلطة والمسئولية وطبيعة الأدوار داخل العائلات القروية والجماعات العقدية أو التعاقدية . فالسلطة فى العائلة القروية شخصية Personal ، بينما تكون السلطة فى مجتمع المدينة أو المصنع سلطة غير شخصية Impersonal تعتمد على النظام .

ويتم السلوك العائلى بأنه متأثر بالانفعال ودرجة القرابة الأسرية كما أنه سلوك مشحون بالعواطف والعصبية ، أما السلوك الحضرى فهو سلوك متأثر بالذكاء والحذر مرتبط بالتفكير العلمى والتخطيط الهادىء المتزن ، نظرا لوضوح السلطة وتحديد المسئولية ، وأمكان التنبؤ بالمستقبل طبقا لضوابط التخطيط الهادف المنظم، أما الجماعات القروية ، فتسودها العصبية والعلاقات القرابية التى تذوب معها المسئولية وتضعف السلطة ، وقد تتكامل الأدوار داخل الجماعة القروية أما الجماعة الحضرية فلا تتكامل فيها الأدوار سواء داخل أو خارج الجماعة .

---

(1) Loomis & J.A. Beegle., Rural Social systems, Printice-Hall. 1950.

الهجرة والخروج القروى :

ولعل أهم العوامل الحاسمة التى يكون لها رد فعلها فى بنية العائلة القروية ، هو عامل الهجرة ، فلقد اشتهرت كل مجتمعات العالم الثالث بظاهرة الخروج الريفى Rural Exodus فمعظم سكان المدن من الريف ، وهذا ما تتطلبه الرحلة إلى العمل، حين تنشط الحركة اليومية بين المدن وما يجاورها من أقاليم ، وقد ينتقل العامل القروى يوميا من مصنعه القائم فى قلب المدينة فيغادرها إلى مسكنه الرخيص فى قريته .

ولذلك تلتهم المدينة من القرية موجات من المد البشرى فى صورة هجرة دائمة، أو ما يسمى بالحراك أو الحركة الاجتماعية Social Mobility تتمثل فى حركة التنقل اليومية .

فليست القرية مصدرا للغذاء والخضر فحسب ، وإنما هى أيضا من أهم الموارد البشرية الدائمة التى تقوم بتغذية المدينة بالقوى العاملة ، بحيث تحصل المدينة على ما تتطلبه الحياة الحضرية من طاقات بشرية .

ولقد أصبح الامتزاج أو الاندماج Amalgamation قويا بين القرية والمدينة ، إلى الدرجة التى معها لاتوجد أسرة قروية ليس لها ما يمثلها فى المدن أو التجمعات الحضرية المجاورة . ونظرا لشدة الخصوبة ، fecondité فى العائلة القروية تتزايد أعداد السكان فى الريف بصورة أقوى بكثير من معدلات المواليد فى المناطق الحضرية ، تلك التى تتجه نحو الأخذ بمبدأ تحديد أو تنظيم النسل . الأمر الذى يؤدى إلى وجود « فائض سكانى » قروى مستمر تمتصه سائر الصناعات والمشروعات الاقتصادية فى المدن والقطاعات الحضرية النامية والآخذة فى النمو[1] .

بالاضافة إلى أن عامل دخول الآلات الزراعية بفضل تقدم التكنولوجيا الحديثة حين تستخدم فى زراعة وحرث الأرض ، وفى درس الغلال وجميع البذور فى وقت الحصاد وضم المحاصيل ، فقد قلل التقدم التكنولوجى من كثرة العمالة نظرا للاعتماد على الآلة ، دون الأيدى العاملة ، ونظرا لاقتصاد الجهد والوقت ، فقل

---

(١) د. محمد طلعت عيسى ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى ، مكتبة القاهرة ١٩٦٠ .

الجهود وأنتشرت البطالة فى القرى ، مع ازدياد الاسكان الريفى وكثافته نظرا لضغط البطالة وزيادته ، وتناقص الغلة بضآلة الملكية ولزيادة عدد أفراد الأسرة ، فأنخفض مستوى المعيشة ، الأمر الذى أدى بالتالى إلى زيادة الاستقطاب Polarlization الحضرى ، حين أصبحت المدينة قطباً للجاذبية Attracrion ، للرواج والتصنيع وكثرة المشروعات والخدمات ، وكلها عوامل فرضت على العامل القروى أن يندفع من القرية هربا من الأجور الرخيصة ومستوى المعيشة المنخفض [1] .

وإذا كان الخروج الريفى إلى المدن المجاورة ، هو فى ذاته ظاهرة صحية ، وإذا كانت الهجرة من الريف دليل على تقدم تكنولوجيا الزراعة ، ووفرة العمالة الزراعية مع اقتصاديات الجهد والوقت والعمل الآلى بالاضافة إلى نجاح الجمعيات التعاونية الريفية[2] إلا أننا ينبغى الا يفوتنا أن القرية قد تصاب بالبوار أو الخراب ، نظرا لهجرة الأيدى الفلاحية ، فتتفاقم المشكلة ، حين تبور الأرض بلا فلاحة ، وتصبح القرية غير قادرة على الانتاج الزراعى ، فعلينا الا نترك الحبل على الغارب ، ففى الخروج الريفى أثر كبير على اقتصاديات القرية التى هى المورد الضرورى للمدن والمناطق الحضرية فعلينا أن « نضبط الخروج الريفى » ، حتى يتم التعاون الوثيق بين أقتصاديات القرية وحاجات المدينة ، فيقوم التوازن بين الدفع السكانى القروى، ومدى حاجة القرية والأرض إلى القوى البشرية العاملة ، فيتم ضبط الدفع الريفى على الرغم من شدة أو إرتفاع درجة جاذبية المدن وتزايد رواج مشروعاتها .

ضبط الخروج القروى :

وبهذه السياسة العادلة يتحقق التوازن والانضباط ويتزايد الاهتمام بغلة الأراضى الزراعية ومحاصيلها مع وضع الخطط القريبة المدى لزيادة الانتاج فى الخضر واللحوم والجبن والزبد ، وهى منتجات ضرورية تتطلبها أسواق المدن والحواضر ، كما أنها أيضا الغذاء الضرورى لجماهير القرى والنجوع .

ولقد أعلن « برونر Brunner » و « كولب Kolb » فى كتابهما « دراسة المجتمع

(١) د.محمد عبد المنعم شوقى ، علم الاجتماع الحضرى ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦١ .

(٢) الدكتور فتح الله هلول ، العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤدية إلى نجاح أو فشل الجمعيات التعاونية الريفية ، بمديرية البحيرة ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٠ .

القروى » ان هجرة أهل القرى وخروجهم إلى المدن[1] هى عملية انتخابية Selective بالنسبة لمجموع فئات القوى البشرية الفلاحية ، بحيث تهاجر نوعية معينة من الشباب الريفى المكافح الطموح ، وتبقى نوعية أخرى أقل فى مستوى الطموح level of Aspiration وهم من كبار السن وصغار الصبية ، مما يؤثر بالطبع على الخصائص الديموجرافية للريف والحضر ، وعلى توازن التوزيع السكانى ومدى تخلخله فى القرى وكثافته فى المدن الأمر الذى ينتج عنه ما يسمى بالاستقطاب الحضرى Urban Polarization بحيث يحدث عدم التوازن السكانى بين مختلف المناطق الحضرية .

ومعنى ذلك أنه من ناحية فئات العمر age-set يهاجر من الريف فئات عمرية محددة ، تتفاوت ما بين العشرين حتى تصل إلى سن الخامسة والأربعين ، بحيث لايبقى إلا ما فوق هذا العمر فيعود إلى القرية . الأمر الذى يفرض على القرية تركيباً عمرياً هامشياً Marginal ، ترتفع فيه معدلات كبار السن ، ونسبة الصبية ، والفتيات من صغار السن .

بينما تقل نسبة الرجال وتنخفض معدلات الشباب فى القرى والأقاليم ، كما يخسر الريف الكثير من أبنائه الصغار الذين يتعلمون فى المدن والحواضر بحيث يبقى فى الريف الكثير من الفئات المعولة ، ويقتصر الأقليم القروى على الأعمار غير المنتجة من صغار السن والشيوخ ، وفى الوقت عينه تقل الفئات النشطة ، فتنخفض إلى حد كبير الفئات المنتجة من الرجال والشباب[2] .

دور العلاقات الادارية بين القرية والمدينة :

وبالاضافة إلى كل ذلك ، ترتبط المدينة بالقرية ارتباطا اداريا وثقافيا حيث تصبح المدينة هى عاصمة الاقليم ، ومن ثم كانت وظيفة المدينة بالنسبة للقرى المحيطة هى وظيفة ادارية ، حيث أن المدينة مهما صغرت فهى « قاعدة ادارية » ، ولذلك كان الدور الادارى من أقدم الأدوار التى تقوم بها المدينة ، بأعتباره مصدر

(1) Brunner, L., & Kolb. I.H., Astudy of Rural Society., Madisen, 1940.

(2) Ammar, H., Growing up Egyptian Village, Silwa Provinc Aswan,London. Routledge and Kegan Paul. 1954.

الثقافة الراقية والنظم الحضرية ، وفى التنظيمات السياسية ونظم الحكم المحلى والبلديات ، هناك هيراركية بين المدن تتدرج فى مراتب الخضوع والسيادة ، وتتسلسل وتترابط السلطة الادارية التى تزداد تركزا فى العاصمة حيث تتركز الحكومات والوزارات ، وكل ما يتصل بسلطة الدولة المركزية [1] ولذلك أصبحت المدينة اداريا وثقافيا هى همزة الوصل بين السلطة المركزية ، كما تتمثل فى العاصمة، وبين المناحى الاقليمية والمناطق الريفية المبعثرة حول المدن . ولذلك تظهر المدن دائما فى مراكز نووية تتوسط الأقاليم الزراعية ، فأصبحت المدينة هى مصدر التحضير الثقافى Acculturation بالنسبة للأقليم الريفى . فالمدينة هى المدرسة والمعهد والجامعة ، بالنسبة لأبناء الأقاليم المحيطة بها . حيث أن معظم طلبة المدن وعواصم الأقاليم ، هم من الريف وقراة ، وهم فى تعدادهم أكثر عددا من أبناء المدينة نفسها .

وتمتاز المدينة عن القرى والنجوع بوجود السينما والمسرح والنوادى والملاهى الترفيهية ، وكلها خدمات حضرية ومنشآت متحضرة لا تتوافر فى الريف . والمدينة هى مركز اشعاع فكرى وثقافى وتعليمى ، فمنها تصدر الصحف والمجلات التى تعبر عما يدور فى المجتمع المحلى والدولى من أحداث وتسجل أخبار السياسة وحركة التجارة والمال وتصدر عن المدينة صور الفكر والفن ونماذج الأذواق والأزياء التى تنتشر من قلب المدينة ومراكزها إلى دوائر أخرى ريفية وقروية .

خصائص الأسرة التقليدية :

لقد نشأت الانسانية فى أحضان البداوة ، والبدوى انسان لايستقر على حال ، يتنقل راعيا لأغنامه وماشيته ، سعيا وراء الكلا ، ويظل على تجواله فوق ظهور الابل يقتحم الصحراء فى خفة وحركة ونشاط [2] .

ويتأثر النشاط الرعوى بنوع البيئة الفيزيقية وطبيعة الأرض ونوع الحيوان ، فرعاة الخيل والابل والبقر أكثر تجوالا فى الأرض من رعاة الضأن والغنم والماعز الذين

---

(1) Soliman, Adly., Socal Development in New Rural Development in Egypt., Egyptian Authority for Cultivation & Development cairo. 1973.

(٢) د. عبد الجليل الطاهر ،خصائص المجتمع القبلى ، حلقة الدراسات الاجتماعية ، للدول العربية ١٩٥٦ .

يحومون حول ضفاف الصحارى وتخومها دون التجاسر على أقتحامها ، بينما يقتحم الابالة من رعاة الابل جوف الصحراء طلبا للماء والعشب حول الآبار والواحات .

وتتميز الأسرة البدوية بخصائص معينة[1] ، وأنماط خاصة من السلوك تحددها ظروف البيئة الفيزيقية القاسية تلك التى لا تسمح بحياة سكنية تصلح معها الاقامة المستقرة والعيش الدائم المستمر ، حيث تقوم البداوة أصلاً على التنقل والترحال ، ولا تهجع القبيلة من البدو فى مكان واحد طوال السنة ، نظرا لاختلاف الفصول وظروف التجارة وأماكن الرعى فسرعان ما تشد الرحال من أقليم إلى آخر حسب مقتضى الحال . فالبدوى يعرف بخبرته وتجربته مختلف الأماكن ، ويدرك بالسليقة مختلف الطرق والمسالك على الرغم من التجانس الظاهر فى البوادى والقفار .

والبداوة كنمط، هى *مرحلة حضارية قديمة*، بدأت فى جوف الماضى السحيق، مع حضارة بدأ فيها الانسان الأول جامعا للطعام[2] . Food gatherer أما البداوة الحالية فهى حالة متخلفة من بقايا الحضارات الأولى ، وهى ملاءمة بشرية مع ظروف بيئية وطبيعية ، منذ بدأ الصراع بين الانسان وغزو الصحراء فى تفاعل عنيد بين الذكاء والبيئة ، وتكيف صارم يشكل لنا شخصية الانسان البدوى ، ويحدد لنا الملامح الوجهية القاسية التى تركتها الطبيعة لكى تكون واضحة السمات أو القسمات .

وتنقسم أنماط البداوة إلى أنماط رئيسية ، أهمها :

(١) بداوة الصيد والجمع والالتقاط .

(٢) الرعى والترحال .

(٣) نمط الزراعة البدائية .

ولا فاصل بين هذه الانماط البدوية ، فهى ليست حالات منعزلة من أنماط البداوة ، وإنما قد تتواجد هذه الحالات وتتعايش معا وفى مجتمع واحد . ولكن قد

---

(١) د. عمر فروخ ، كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت مكتبة منيمنة ١٩٥١ .

(2) Childe, Gordon., Man Makes Himself, Fontana, 1966.

يظل أحد هذه الانماط سائداً لكى يبرز لنا شكلا حضارياً من أشكال البداوة[1].

وقد تمر الزراعة البسيطة أو البدائية دون أن تمر ببداوة الرعى . فليس هناك سلسلة تاريخية أو حضارية تتتابع فيها تلك الأشكال المتدرجة من أشكال وأنماط البداوة .

وليست الصحراء هى مسرح البداوة الوحيد ، على الرغم من أنها بطبيعة موقعها ومواردها ، عامل جوهرى يفرض على الانسان حضارة بعينها فتترك بصماتها البدوية الصارمة . ففى أفريقيا بداوة الجمع والالتقاط رغم بعد الصحارى والبوادى عن غابات السفانا الاستوائية فى قلب القارة السوداء ومنهم رعاة البقر كالنوير Nuer ، ومنهم من يعتمد على الصيد والقنص ومنهم من يمارس الزراعة[2] .

بمعنى أن الصحراء هى عامل مساعد لظهور بداوة الرعى ، وليست البداوة فى نفسها حياة صحراوية ، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتبطت البداوة بالصحراء فى أذهاننا ، نظرا لانتشار نمط الرعى بين معظم قبائل صحارى المملكة العربية السعودية ، وإذا كان الجمل هو عنوان بداوة الصحراء ، فان الأبقار هى عنوان بداوة المجتمعات القبلية الأفريقية .

ومن جماعات البدو فى أفريقيا العربية قبائل وجماعات من المسلمين مثل « قبائل البربر » فى الصحارى الكبرى ، والبجا فى شرق السودان ، والطوارق فى شمال أفريقيا ، ومازالت *أنماط السلوك البدوى تتعايش حتى الآن مع « النظم والأنساق الحضرية »* فى معظم عواصم الوطن العربى ، *حيث نرى كيف تمتزج القيم البدوية* مع القيم الأوربية والتصورات الحضرية الغربية .

ولقد أرتبطت البداوة بالرعى منذ ظهور الاسلام ، بل وقبل[3] ظهور الاسلام حيث كان كل أنبياء بنى اسرائيل من الرعاة ، كما كان عيسى عليه السلام يعيش فى نفس الجو الثقافى فأصبحت البداوة هى مهبط الديانات ومستودع المثل والقيم

---

(١) كارلتون كون ، القافلة ، دراسة لثقافات الشرق الأوسط ، ١٩٥٩ ترجمة برهان دجانى بيروت ١٩٥٩ .

(2) Evans-Pritchard, E.E., The Nuer, Oxford, The clarendon Press. 1950.

(3) *Hitti, Philip, K.; History of Arabs, Macmillan & co. Ltd. 1943.*

والأخلاقيات الفاضلة ، كما صدرت عن البداوة أروع قصائد شعر الرعاة ، وأبلغ الحكم والكلمات ، فالبدوى ذكى بالفطرة فصيح اللسان عربى البيان .

العصبية والملك عند بن خلدون :

لقد أصدر عبد الرحمن بن خلدون مقدمته المشهورة لكتابه الرئيسى تحت عنوان « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فكان بحق مؤسساً لعلم الاجتماع العربى ، وواضعا للبّنات الأولى لقواعد الفكر الاجتماعى المعاصر ، فقد تكلم عن طبيعة العمران ، وأثر البيئة فى أبدان البشر وأخلاقهم وأحوالهم . ووازن ابن خلدون بين البدو والحضر . وأستعمل كلمة « عرب » بمعنى البدو أما الاعراب ، فهم من سكان البادية . والبدو هم القائمون على رعاية الماشية والأغنام فى المشرق ، وعلى الرعى والزراعة فى المغرب .

ويستعمل ابن خلدون كلمة « التوحش » للسكنى فى مكان بعيد عن المدن والتحضر . كما يطلق كلمة العمران على ما نسميه نحن اليوم بالمجتمع . فعلم العمران عند ابن خلدون هو علم الاجتماع . والعمران نوعان ، أما بدوى وأما حضرى[1] . والأول سابق على الثانى فى الزمن ، لأن الحضر مهاجرون من البدو . كما أن أهل البادية يقدمون ما يحتاجه أهل الحواضر من اللحوم والخضر والفواكه والجبن والزبد وسائر الأطعمة النباتية والحيوانية .

والعمران الحضرى والبدوى ضروريان ، ويعيشان جنبا إلى جنب . ويكتفى أهل البادية بالضرورى من اللباس والطعام والسكن ، وهم فى طباعهم أقرب إلى الخير لأنهم أقرب إلى الفطرة وأبعد عن أوجه الترف وهم أكثر شجاعة من أهل الحضر لتمرسهم فى قتال الحيوانات المفترسة فى البوادى ، وصد الغارات وقيامهم بالغزو والعداوات . بينما يعتمد الحضر على الحماية لكافة مدنهم وأملاكهم بالقلاع والجيوش والفرسان للدفاع والمدافعة عن أنفسهم بأستخدام الأمن والشرطة ، ورجال البوليس والقضاء والنيابة .

---

(١) الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر عند العرب ، المكتب التجارى للطباعة بيروت ١٩٦٢ .

وأساس الاجتماع البدوى هو العصبية [1] ، وهى النعرة على ذوى القربى وأهل الارحام أن ينالهم ضيم أو أن تصيبهم هلكة فتكون العصبية فى أهل النسب ومن صاهرهم أو أنتسب إليهم . والأصل فى العصبية هو صلة الدم والقرابة والنسب . وهى أصل الجاه والسلطان والشرف ، وتستمر العصبية فى أربعة أجيال . بعدها يضيع المجد ، وتقل الهيبة والأبهة ثم تضعف ريحهم وتذهب عصبيتهم ، حتى يثب عليهم من هو أقوى عصبية ، وتنشأ الدولة الجديدة على أنقاض القديمة إذا ما ذهبت الرئاسة وضاعت السلطة وضعفت القوة .

وإذا قويت العصبية فى البدو ، ظفرت بالرئاسة ، وتطور المجتمع البدوى إلى مجتمع حضرى ، وزادت عصبيتهم جاها وأبهة وسلطانا ، فتطمع العصبية الجديدة فى الملك والاستبداد فيكون لها الجاه والسلطان والهيل والهيلمان بما لديها من القوة والبأس والمال .

فالملك لايحصل الا بالغُلب ، والغلب لا يحصل إلا بالعصبية ، ثم يؤخذ المجد والدنيا غلابا ، ثم يدعو الملك ثانية إلى الترف والرفاهية والتقلب على النعمة والتنعم بالحضارة وإذا كانت الحضارة تابعة للعصبية وقوة البداوة بصفة مؤكدة فان الرفاهية والترف والنعمة كلها تابعة للملك والجاه والسلطان ، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى الانغماس فى الشهوات ، ويغشى النفس ما يغشاها من حجب ، ومن هنا يأتى الضعف والهوان حين تمرض النفس وقد غشت عليها الماديات .

ولذلك يقول ابن خلدون ، أن للدولة أعمار كما للأشخاص [2] ، فيكون أهل الدولة والحكام من الجيل الأول ، أهل بدو وخشونه ، ثم يتحول الملك بالترف من البداوة إلى الحضارة فى الجيل الثانى ، ثم تنكسر سورة العصبية فى الجيل الثالث وفى الجيل الرابع تنتهى الدولة حين ينغمس أهلها فى النعمة وينسون البداوة ، والجيل الخامس هو طور الظفر بالملك وظهور القوة العصبية الجديدة ، تلك التى تدور عليها دائرة الانفراد بالملك ثم السيطرة على الحكم ثم اتساع الامصار والاستكثار من النعمة ، ثم يبدأ طور الخنوع والمسالمة ، مع الاسراف والتبذير ، فيختل الميزان ويزول الملك بظهور قوة جديدة هى عصبية الخصوم .

(١) الدكتور عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧١ .

(٢) ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٣ .

أثر التغير الاجتماعي في البناء العائلي :

إذا قلنا إن للعائلة التقليدية فى الأنماط القروية والبدوية وظائفها فى عملية أكتساب القروى لثقافة مجتمعه ، وهى عملية نقل Transmission لمحتوى الثقافة وأنماط السلوك واللغة والعادات والتقاليد . فإننا نستطيع أن نؤكد على وظيفة التنشئة الاجتماعية Socialization للعائلة بل وللأسرة على العموم . وفى هذا الصدد يقول دور كايم فى كتابه الضخم « الصور الأولية للحياة البدينية » فى عبارة مشهورة : « إننا نتكلم لغة لم نصطنعها ، ونستخدم آلات وأدوات لم نخترعها ونقنن ونفرض حقوقاً لم ننظمها » إنه هو المجتمع الذى ندين له ، بمختلف خبرات الحضارة [1] .

ومن هذا النص اللدور كيمى الدقيق ، نقول إن المجتمع والحضارة والأسرة والتربية كلها عناصر أساسية فى عملية التنشئة الاجتماعية ، بمعنى أننا لو جردنا الانسان من لغته ودينه وأخلاقه وقيمه ، لتصورناه وحشاً من وحوش الغاب ، فالطفل الزنجى الأسود الذى تتاح له الفرصة فى أن ينتقل إلى انجلترا أو فرنسا ثم ينشأ نشأةأوربية، لسوف يختلف بذلك كلية عن كل أقرانه السود الذين نشأوا وعاشوا فى بلادهم الأصلية، حيث أنه للتنشئة الاجتماعية دورها الخطير فى أكتساب المهارات والصفات والخصائص الحضارية ، عن طريق التنشئة الاجتماعية الأوربية ، على الرغم من أنه سيكون حاملا للصفات الوراثية الزنجية كلون السحنه وشكل الشعر ، الا أنه سيتمايز فيما عدا هذه الصفات العضوية والخصائص الفيزيقية والوراثية ، حين يتكلم لغة أوربية ويسلك سلوكا حضاريا ويحمل السمات الثقافية والخصائص الاجتماعية التى لا تتوافر بالطبع عند أقرانه من السود الذين عاشوا فى ثقافتهم الأصلية .

وللتغير الاجتماعى أثره البعيد فى تفكك البناء العائلى وظهور المشكلات والأمراض الناجمة عن تفكك الوحدة البنائية ، وتغيير المكانات status والأدوار Roles القائمة فى التنظيمات والمؤسسات والنظم القديمة ، الأمر الذى معه تتغير

---

(1) Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de La vie Religeuse., Félix Alcan. Paris. 1912.

الميكانيزمات والنظم والضوابط القائمة فى سائر أجزاء أنساق البناء الاجتماعى كله[1] .

وللتصنيع أثره فى نمو الأجهزة الاقتصادية وتغيير الحالة الاقتصادية ، الا أن الأسرة كوحدة بنائية تتغير بالطبع مع تغيير الأوضاع الاقتصادية والصناعية ، ومع تزايد كثافة العمال واستقطاب المصانع ، تتفكك العلاقات العائلية ، تلك التى يكون لها صداها أيضاً فى ظهور المشكلات الناجمة عن وطأة التكنولوجيا ، ومحنة الصناعة .

ولاشك أن البلبلة المعنوية والخواء اللذين يتسم بهما عصرنا ، ليس نتيجة حتمية لفقدان الأعصاب ، والقلق الدائم من أثار الرعب النووى المستمر ، والناجم عن أحداث المستقبل المجهولة . وإنما ظهر الفراغ الثقافى والخواء المعنوى كنتاج حتمى لفحوى الحضارة العصرية .

فهى حضارة مادية آلية ودنيوية ونفعية ، فجاء التقدم العلمى الهائل مع التخلف الأخلاقى والدينى[1] ، بالاندفاع نحو التكنولوجيا وتأكيد الماديات والانبهار بميكانيكا الأدوات والآلات ، مع وجود فراغ ثقافى ونقص شديد فى الايديولوجيات بالرغم من تقدم الآليات ، وظل عصرنا على هذا الحال ، وتلك هى أهم ما يعانيه من أمراض ومشكلات .

ولقد خلق المجتمع الصناعى ، مع التقدم التكنولوجى الباهر ، والنجاح المادى فى تطوير أسلوب الحياة الذى أحدث تغييرا هائلا فى الأخلاقيات والايديولوجيات، فقد خلقت الآلة والحركة ، الشك فى كل ما هو ثابت ، ومقدس Sacred كالقيم ومعتقدات الدين وتصوراته وطقوسه ، كما ظهر التشكك الأخلاقى مع جنون الحرية والمساواة . ومع الآلية ظهرت الأدوات ، وتقدمت التكنولوجيا ، ومع دوران رأس المال الصناعى ، دارت العجلات وتقدمت فنون الميكانيكا والهندسة ، وطغت المادية على كل قيمة ، واندلعت ثورة العلوم على حساب

(1) Sorokin, P.A., Culture & Personality, N.Y. Harper of Brothers. 1947.

(1) Mays, John , Family & the social group., London Longmans. 1959.

المقدسات والأخلاقيات ومع نسبيه الزمان والمكان عند « اينشتين Einstein » صدرت النسبية الأخلاقية والثقافية [1] .

ومع ظهور حضارة التصنيع طرأت التغيرات على نظم الاسرة ، وطرأ التفكك على سائر أنساق المجتمع ، كما أدت التغييرات المادية إلى ظهور الاباحية الجنسية [2] ، وضعف الوازع الدينى وقلت سطوه القيم والاعراف .

ولقد طرأ على بناء الاسرة الكثير من التغيرات فى درجة التماسك أو التضامن العائلى ، وخرجت المرأة إلى ميدان العمل ، وتحررت من طغيان شخصية الرجل نظرا لاستقرارها الاقتصادى مع توافر الأساس المادى للمعيشة ، وظهرت النزعات الفردية والاستقلالية ، وأنعدمت العواطف الأسرية ، وتطور مركز المرأة الاجتماعى، ورفضت الزواج المبكر ، وأخذت بمبدأ تحديد النسل ، وتأثرت معدلات الخصوبة وتغيرت ، وزاد اهتمام المرأة بالترويح والكماليات ، وأصبح من حقها أن تطالب بالطلاق الارادى Repude أو التفريق الجسمانى Separation de Corps وبذلك زادت فى المدن الصناعية والمجتمعات الحضرية معدلات الطلاق Divorce على عكس الحال فى المجتمعات القروية والرعوية [3] .

ومع التفكك العائلى وزيادة معدلات الطلاق ، وتحت وطأة التصنيع ومحنة التكنولوجيا ، ظهرت المؤسسات الجديدة والضرورية لرعاية الأسرة وعلاج مشكلاتها، ومنها مؤسسات لحماية الطفولة ومستشفيات للمرضى من الأطفال Child Welfare centre وبيوت اللقطاء Fosters Homes ، ورعاية الطفل وتوجيهه Child Guidance، وبيوت نقاهة الطفل Child Convalescent Homes وبالاضافة إلى كل ذلك أهتمت الكثير من المؤسسات الطبية بغذاء الطفل ورعاية الأجنّة والحوامل، كما ظهرت المؤسسات الاجتماعية لعلاج مشكلات الأسرة المنهارة Broken Family أو المفككة بالطلاق أو بموت أحد الآباء ، وما ينجم عن تلك الحالات من الانحرافات Deviation وحالات الجنوح بين الاحداث من صغار السن .

---

(١) إيريس ، س « الحضارة الصناعية مالها وما عليها ؟ ترجمة محمد ماهر نور ، مكتبة الانجلو .

(٢) الدكتور عبد الباسط محمد حسن ، علم الاجتماع الصناعى ، الانجلو المصرية ١٩٧٢ .

(3) Nimcoff, Meyer F., Marriage & Family, Boston, Houghton Mifflin Company 1947 ed ; Comparative, Family Systems (Boston, Houghton Mifflin Company. 1955).

والحدث هو الفتى الجانح Delinquent وهو ذلك الطفل الذى تتلقفه عصابات اللصوص والاشرار من الخارجين على القانون ، فيتربى الحدث فى أحضان أوكار الجريمة ويتعلم منذ نعومة أظفاره كيف يخرج على القانون أو القيم بأرتكابه جريمة أو جنحة ، أو أشتراكه فى عملية نشل أو سرقة .

وهنا تقول الباحثة الامريكية Merrill كنا بالأمس تقول : هذا لص يسرق ، ونحن نعرف ماذا نفعل باللصوص أما اليوم فنقول : هذا انسان يسرق ، ونحن نحاول أن نعرف لماذا يسرق ؟ .

ومن أجل هذا تطرق العلماء نحو دراسة مصادر الانحراف وأسباب الجنوح بين صغار السن من الأطفال والاحداث ، وظهر علم « الباثولوجيا العائلية » Pathology of Family وهو العلم الذى يدرس الأمراض الاجتماعية ، كأمراض الأسرة ، وأمراض الشخصية ومشكلات الصحة النفسية والعقلية والعصبية ، وكلها أمراض ومشكلات يدرسها علم النفس الاكلينيكى Clinical Psychology .

وعلم الطب الاجتماعى وهو تخصص من أحدث التخصصات المعاصرة فى ميادين علم الاجتماع العام ، ويهتم بدراسة « الطب الصناعى » وعلاج مخاطر الصناعة ، وتطوير أدوات الأمن الصناعى ودراسة الاضرار الناجمة عن تلوث البيئة Pollution ، وما يهدد حياتنا من بقايا افرازات المواد الكيميائية والصناعية ، عما يلقى فى البحار والأنهار ، وما ينجم عن الغازات وبقايا الاحتراق الداخلى للآلات والسيارات والمصانع ، فتفسد الهواء ويتلوث معها الجو ، الأمر الذى معه يتضرر الانسان فى عملية الاستنشاق والتنفس للهواء السام الصادر عن الجو الفاسد الذى يخيم على المدن الصناعية الكبرى وقد تمكث بقايا الافراز فى الارض فتقتل الزرع ويهلك معها ما على الأرض من حيوان .

ومن دراسات « علم الطب الاجتماعى » ، تلك الأمراض التى تتعلق بمناطق بعينها ، كالبلهارسيا المنتشرة فى سائر قرى الريف المصرى ، وهى مرض متوطن يصيب الفلاح المصرى ، فيضعف من قواه ، ويقلل من مجهوده وهناك أيضا « طب المناطق الحارة » وعلاج أمراضها وعللها طبقا لما ينجم عن ظروف البيئة والجو والمناخ . ومن المباحث التى يتطرق اليها علم الاجتماع الطبى ، دراسة العادات

الاجتماعية المتصلة بعلاج الأمراض بالرجوع إلى « التراث الاجتماعى » ، كدراسة الطب البدوى مثلا ، وكيف يمارس البدو أشكالا من العلاج المتوارث ، كالكى بالنار مثلا ، وهو من أقدم الطرق الطبية المعروفة ، بالاضافة إلى الاهتمامات الجديدة التى يمارسها « الطبيب الاجتماعى » بدراسة « أمراض الحضارة » الناجمة عن التقدم المادى والتخلف الواضح فى الأخلاقيات وضعف الوازع الدينى مع تهافت القيم والمثل العليا ، وقلة هيبة القانون ، وغيبة التزامات الأخلاق وإتباع الحكمة وفقدان المعايير وضياع صوت الضمير ، مع دوران الصناعة وضجيج حركة الآلة[1]. ولعل من أهم وأقدم الكتب التى صدرت فى ميدان « الطب الاجتماعى » أو علم الاجتماع الطبى كتاب الإنتحار Suicide عند أميل دور كايم .

ولقد صدرت معظم أمراض المجتمع ، عن طبيعة التغيرات المتكررة فى أبنية الجماعات ، لما كان له أثره ورد فعله الحاسم فى بلورة العلاقات الاجتماعية ، فيظهر التغير السريع على « دينامية العلاقات » وتفككها بعضها بعضا ، نتيجة لعدم التماسك فى القيم وانضباط قواعد السلوك . ولقد أكد لنا « ولبرت مور Moore » فى كتابه « أسس علم الاجتماع المعاصر » على وجود بعض العوامل التى تسرع بمعدلات التغير والتنمية ، مثل عامل الاتصال Communication فكلما زادت وتعددت أدوات الاتصال وقنواته وبرامجه ، كلما زادت امكانية استيعاب كل ماهو مستحدث[2] وهناك فلسفات وأيديولوجيات تعتبر كعوامل أو حركات اجتماعية قوية تطالب بالتجديد والتغيير والاستيعاب أو الهضم الحضارى حيث نجد أن العناصر المركبة أقل قابلية للأنتشار والانتقال من العناصر البسيطة ، كما نجد أن التكنولوجيا أكثر تقبلا للتغيير أو التبديل من الايديولوجيات . كما يكون التغير أسرع بين الطبقات المتميزة إجتماعياً ، وبخاصة إذا ما كان التغيير ملائما ومواتيا لصالحها ، هذه هى أهم عوامل سرعة التغير فى نظرية ويلبرت مور[3] .

---

(1) Lemert., E., Social Pathology., New York. M cG rew-Hill, 1957.

(٢) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الجماهيرى وبناء الاتصال منشأة المعارف ، ١٩٨٥ . اسكندرية .

(3) Moore, W.E., Social change., Foundations of Modern Sociology., Prentice-Hall, New Jersey. 1963.

ولعل تقدم التكنولوجيا ، وانتشار البيئات والثقافات الصناعية المعاصرة هما من أهم العوامل التى تؤكد لنا على وجود معامل ارتباط وثيق بين التصنيع من جهة ، وصور التنظيم من جهة أخرى. ففى ميدان الأسرة كنظام اجتماعى ، وجدنا ان قوى التصنيع التغيرية ، قد هدمت النظم العائلية والعشائرية التقليدية ، لكى تتفكك سائر العلاقات الاجتماعية المتعلقة بالتماسك والتعاون والتضامن ، لكى تظهر النظم الأسرية الجديدة فى عصر ما بعد التصنيع ، فتزول العائلة القديمة لكى تتحطم وتتفتت إلى عدد من الأسر الصغيرة التى يتألف كل منها من زوج وزوجة وأولاده منها ، حيث يسود فى المجتمعات الصناعية نظم الزواج المونوجامى .

سمات البداوة :

لا مشاحة فى أن المجتمع البدوى مجتمع بسيط صغير الحجم ، يتشابه أفراده على نحو استاتيكى فى تقسيم العمل ودرجة التماسك والتضامن الاجتماعى ، وتنتشر بين البدو الأمية والجهالة والتأخر ، ويعيشون فى عزلة مع قدر متساو من الخبرة الذاتية والمعرفة الشخصية لكل فرد من أفراد القبيلة والعصبية عندهم هى أساس القرابة القبلية ويتعاون الكل من أجل الغذاء والمأوى والدفاع عن القبيلة .

والمسئولية جماعية وليست فردية ، وتتميز القبيلة اقتصادياً بنوع من الاكتفاء الذاتى حيث تكفى القبيلة نفسها بنفسها من حيث الانتاج والاستهلاك وتضعف سطوة القانون، ولذلك نجد أن « ضوابط السلوك » غير رسمية ولذلك يلتزم البدوى بالدين والقيم ويؤمن بالمقدسات .

والبدوى له عاداته وتقاليده ، فهو كريم يتسم بالشجاعة والوفاء والشهامة والامانة والصدق والمروءة[٢] . ومن أشهر من درس البداوة من علماء الاجتماع العرب « عبدالرحمن ابن خلدون » فقسم فى مقدمته المشهورة ، سائر المجتمعات البشرية التى عاصرها إلى قسمين أو ثقافتين هما البداوة والحضر ، فيقول عن البدو « يقتصر البدو على الضرورى فى أحوالهم » ثم يقول عن الحضر « يعتنون بحاجات الترف الكمالى فى أحوالهم وعوائدهم » [١] ويميز ابن خلدون بينهما بقوله :

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٣ .

(٢) د. عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب العربى التجارى ، لطباعه بيروت ١٩٦٢ ص ٤٨٧ .

« ولاشك أن الضرورى أقدم من الكمالى وسابق عليه ، لأن الضرورى أصلى والكمالى فرع ناشىء عنه فالبدو « أصل المدن والحضر » .. ثم يقول : « وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، ولهذا نجد أن التمدن هو غاية للبدوى ، يجرى اليها » ، ومتى حصل البدوى على الرياش الذى حصل له عاد إلى الدعة .

ويقول ابن خلدون عن بداوة الامصار :

« اننا إذا ناقشنا أصل مصر من الامصار »وجدنا أكثرهم من أهل البدو « وأنهم أيسروا فسكنوا المصر[1] » وعدلوا إلى الدعة والترف الذى فى الحضر ، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها .

والشجاعة والمروءة والخير والذكاء والحساسية والحذر ، هى صفات وخصائص صدرت عن طبيعة بيئة الصحراء ، أما « الراحة والدعة والترف وترك الأمن والحماية والمدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى مواليهم » تلك هى أهم خصائص الحضر على ما يذكر ابن خلدون .

أما البدو فهم لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحاجة، فهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ولا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم .

وقد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية . ومن طبائع الحضر ، على الرغم مما لهم من رونق الصنائع والتعليم ، فتميزوا بمميزات ، وسببها كثرة ماينعمون فيه ويعيشونه من فنون الملاذ ، وعوائد الترف والاقبال على الدنيا . وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق أما البدو فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها .

أما بالنسبة إلى الذكاء ، فإذا كان ابن خلدون قد أكد على تفوق الحضر الذى أمتلأ بالمنتجات والصناعات ، فإننا نجده يقول : « الا أن أهل البداوة أعلى رتبة فى الفهم والكمال فى العقل » .

---

(١) « المصر » يراد بها المكان الحضرى ، والامصار هى الحواضر التى هى عواصم الأقاليم الادارية بعد الفتح الاسلامى ، حيث يولى عليها الولاة من قبل الخليفة أمير المؤمنين .

وهكذا يبرز لنا ابن خلدون مختلف سمات الشخصية البدوية فى بنائها وتركيبها العام ، وهذا منهج علمى سليم فى التحليل السيكولوجى المعاصر يأخذ بالمنهج التكاملى فى دراسة سمات الشخصية . وهذا هو المفهوم السائد الآن فى أروقة الجامعات الأوربية وهو نفس المفهوم الذى يدرس سمات الشخصية فى ضوء البناء الاجتماعى ، بتحليل مكونات الطبائع والسجايا الخلقية والعقلية[1] .

الوظيفة السياسية للأسرة البدوية :

وللأسرة البدوية وظيفتها السياسية ، فالأسرة هى أصغر وحدة سياسية فى المجتمع البدوى ، وتعتبر على صغرها هذا متمايزة ، بمعنى أن لها شيخاً ورئيساً من أبرز مهامه فض المنازعات وحل المشكلات وتنظيم العلاقات السياسية القائمة بين الأسرة وغيرها من أسر العائلة الكبرى[2] وللبداوة كمرحلة حضارية فى مظهرها المادى، الذى يشتمل على كل مايستخدمه البدوى من أدوات خاصة بنشاطه الاقتصادى ، أما المظهر المعنوى للبداوة فهو التقاليد والقيم والنظم ، وتقوم البداوة فى مناشطها الاقتصادية على رحلات دورية متكررة ، لاستغلال موارد البيئة وتربية الحيوان، والتنقل فى طلب الرزق. وليس التنقل هو هدف البداوة المطلق وإنما التنقل المقصود، هو الذى يهدف إلى التحرك حول موارد معيشية متاحة ومؤقتة وآمنة، ولذلك كانت أعمال الرعى والصيد وجمع الثمار والزراعة البسيطة المتنقلة ، هى الأنشطة البدوية ، التى ينقسم العمل الاقتصادى والاجتماعى حولها ، فى حركة موسمية تتكرر وتتواتر فى كل عام وكأنها هجرات محسوبة ومؤقتة ومحددة ، تتعلق معظمها بعملية الترحال والتنقل بين الواحات والمراعى فيسعى نحوها البدوى ويرتحل بقطعانه . ولكل قبيلة ديارها ووديانها وقفارها وحيوانها وعشبها ترعى فيها مع ضرورة الالتزام باستخدام المياه الخاصة بها ، ولكل قبيلة وشمها الخاص وطابعها الخاص ، ولها عصبيتها التى أصبحت مصدرا لتضامنها وثباتها عبر التاريخ ، شامخة حول أشجارها ومياهها ووديانها فى جوف البوادى .

وقد تكون ديار القبيلة مقسمة تقسيماً إدارياً ودولياً كما هو الحال فى قبائل

---

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٣ .

(٢) د. عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .

السعودية وعشائر سوريا والعراق حيث تنتقل القبيلة مع ابلها ومواشيها فى مواسم الشتاء والربيع نحو آبارها الدائمة التى تحتفظ بها أيضا فى مواسم الصيف[1].

ولاتهاجر القبيلة أو تنتقل إذا سقطت الأمطار بغزارة ، فيظهر المرعى الوفير وينمو الكلأ والعشب ، فتستقر القبيلة فى الأرض لاتغادر ديارها ، طوال موسم المطر ، وقد ترحل القبيلة هربا من القحط فى موسم ندرة الأمطار والأعشاب ، فلايستقر لها حال حتى تهجع فى ديار تجود فيها حشائش المراعى حيث الخضرة والماء والعطاء .

فالبساطة وعدم الاستقرار والانطواء والعزلة والتنقل والترحال وسيطرة الطبيعة وقسوتها وتطرفها ، وفى ضوء كل ذلك يضيع البدوى بين ندرة المطر ووفرته ، ولذلك يمتاز أهل البداوة بالحذر حيث يفر هاربا من الخطر الداهم إذا ماتغيرت ظواهر الجو وغدرت الطبيعة ، وهذا بالطبع أمر يستوجب الحذر .

ومن أبرز ملامح تقسيم العمل بين البدو ، علو مكانة الرجل وقيامه بالأعمال الممتازة ، على حين تقوم البدوية برعاية الحيوان وصنع الأغطية من أوبار الابل ، وزراعة بعض النباتات حول مضارب القبيلة[1] .

أما الملكية فهى جماعية فى المراعى والآبار والواحات ، فكل ما له قيمة اقتصادية فهو للبدو وهو ملك للجميع . وتمارس كل جماعة فوق الأرض حق الاستغلال فقط ، ومن حق البدوى أن تكون له ملكيته الخاصة فى الحيوان وأدواته الشخصية وخيامه .

وتتسم الثقافة البدوية ببطء التغير ، والريبة هى السمة الغالبة بين البدو لمواجهة كل ماهو جديد يقتحم حياتهم. وهذه أكبر عقبه سوسيولوجية يواجهها البدوى فى عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

السمات الثقافية لشخصية البدوى :

من تراث البداوة التقاليد الصارمة ، والاعراف السائدة كالغزو والحرب واظهار

---

(1) Lipsky, George, A., Saudia Arabia, its People, its Society its Culture, New Haven, 1959.

(١) د. عمر فروخ ، كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة ١٩٥١ .

الفتوة والرجولة ، والفروسية والعرافة وأقتفاء الأثر ، وطلب الثأر بالقصاص أو الدية أو التعويض Compensation والتفاخر بالعصبية ، فالغريب لايعتبر قتله جريمه تستوجب الثأر Revenge لأن قانون القبيلة وأعرافها لا تحمى دم الغريب ، فليست له أية مطالب أو حقوق ولأسباب غيبية Mystique إنتشرت فى الجاهلية ، عادة «وأد البنات» بين قبائل البدو لأن البنت فى زعمهم « رجس من عمل الشيطان » ، وعادة وأد البنات عادة مذمومة مارسها بل وأرتكبها البدو خشية املاق أو خوفا من الفقر أو السبى أثناء الغزوات أو الغارات والعداوات .

وفى هذا الصدد يقول القرآن العظيم « وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت » ، وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم[٢] فيتوارى من قومه من سوء ما بشر به ، فيدسه فى التراب .

ويقول ابن خلدون والبدو شجعان ، وعلى خلق قويم ومتين ، ولكنهم قطاع طرق، وهم أهل فطرة يبغضون الابتذال والتسفل ، ولكنهم ليسو أهل علم ولا فن ولا صنعة ، وفى فقرة أخرى يقول ابن خلدون « والانسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذى الفه فى الأحوال حتى صار خلقاً وملكة ، وعادة تنزله منزل الطبيعة والجبلّة » . فالبداوة ليست من صنع البدو أو البشر بقدر ما هى من صنع الطبيعة المحيطة بهم .

ولقد كشف ابن خلدون عن « خصائص البداوة » من زاوية مقارنتها بخصائص الحضر ، لأنهما على نقيض ، فإذا كان البدوى شجاعا خشنا متوحشا ، فالحضرى جبان وضعيف يؤثر الدعة والترف . وإذا كان البدوى صادقاً طيب السريرة ، فان الحضرى متسفّل أفسدته الحضارة وأصبح رخواً مخادعاً ولذا كان الحضر أهل علم وصنعة ، فالبدوى يكره العلم ويبغض الصنعة . والبدوى يحترم القوة ويحتقر العمل ويمتاز البدو على العموم بالتضامن والتلاحم والتدين[١] ونجد فى الشخصية البدوية الكثير من السلبيات والايجابيات التى يكون لها رد فعلها فى عمليات التنمية ، ما هى ؟ وكيف تعمل ؟ .

---

(١) د. عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب التجارى للطباعة بيروت ١٩٦٢ .

من الممكن فى الرد على هذا السؤال ، أن نقول إذا رصدنا مختلف الايجابيات الخاصة بالبدو كالصبر مثلا والجلد وشدة الاحتمال ، وفضائل القوة والشجاعة والبأس والشهامة والكرم ، وأحترامه لكبار السن وانضياعه الشديد للقبيلة ولمعاييرها الجماعية .

كل هذه خصائص وسمات يمكننا أن نستفيد منها فى عملية تنمية البداوة وحل مشكلاتها الايكولوجية الاجتماعية والاقتصادية ، وهناك سلبيات للبدو يمكننا استبدالها بخصائص أخرى أكثر ايجابية ، وليست عملية استبدال البديل أو البدائل عملية سهلة خصوصا وأن خصائص البدو الشخصية قد نجمت عن عوامل بيئية وتاريخية أجتماعية وسيكولوجية ، فالبدوى هو « طفل الطبيعة » الذى تربى فى أحضانها ، فتعلم الصبر والجلد والكفاح والشجاعة والسماحة والعرفان بالجميل والكرم والشرف والعصبية والحسب والنسب ، ومن سلبيات البدو ، الأخذ بالثأر والخشونة والفظاظة والغيرة والحسد ، فالبدوى غيور وحسود بطبعه وخاصة فيما يتصل بملكية أعضاء أسرته ومنهم من يتميز بالطمع فى ملكية الآخر من ابل وماشية وأغنام .

وقد أوضح بيرجر[1] أن البدوى العربى شديد التقدير لنفسه ولقبيلته والاعتزاز بذاته وبكرامته وأصله إلى حد المبالغة ، الا أنه شديد الانصياع لقبيلته ولمعاييرها الجماعية ، والبدوى متدين وصبور ، وهو لايبالى ، لأنه يواجه قسوة الطبيعة وخطر الطريق ، فيضع ثقته فى الله كاملة .

والبدوى كريم ، يحترم ضيوفه ، ويقدم لهم اللبن والتمر والثريد وزوجة البدوى تحب الأطفال ، وتكثر من الانجاب ، وتفنى فى حب عشيرتها وقبيلتها وهى غيورة شديدة التضحية ، ولا تقرب مجتمع الرجال لأنها طاهرة وعفيفة ، صريحة تقية ترعى زوجها وبيتها وتحرص على سمعتها وشرفها .

وإذا سألت البدوى عن نفسه فلسوف يقول على الفور أنه من قبيلة زيد أو عبيد ، فهو شديد الولاء لجماعته القرابية ويحفظ التسلسل القرابى لقبيلته عن ظهر قلب .

---

(1) Berger, M., The Arab World to-day., New York Doubledey & Company, Inc. 1962.

والبدوى لايقدر الوقت ، كما يفقد البدوى حساسيته بالنسبة للمسافة تماما كالقروى فى مصر ، حين يقدر المكان البعيد فيشير اليه بقوله : أنه فركة كعب « رغم بعده ومشقته ، وارهاق من يصل اليه ماشياً ، أو حتى راكباً . ويعبر البدوى عن نفس هذا المعنى فيقدر مسيرة يوم وليلة ، ويعبر عنها بقوله : إنها رمية حجر .

والبدوى لايحب الادخار ، وربما كان ذلك يرجع إلى عدم وجود ما يدخره أصلاً نظراً لكرمه الزائد ، وضيافته للاغراب ، ومن أمثلة البدو « خاطر ليله ما توريه فقرك » « يا فقر ما غناك قعود » ، أى على الانسان الفقير أن يكون كريما ولو بالمخاطرة بالذبيحة الوحيدة التى عنده ، لأنها لا تزيد غناه ، فالكرم مع الفقر ، أفضل من الغنى مع البخل « وثوب تعطيه خيرا من ثوب تلبسه » و « بيت إرجال ولا بيت مال » ، و « ايفرشنَّك لباسك ولا تفرشنَّك اجناسك » وهذه أمثلة شعبية ليبية.[1] وتوجد أمثلة بدوية أخرى من واحات مصر « كل نهار وله رزقه » « فقر بلا دين هو الغنى الكامل » و « عدو ماله ، عدو ماله » ، « حبيب ماله ، حبيب ماله » ، « وخد الأصيل ونام على الحصير » .

ضوابط السلوك فى النسق الاجتماعى :

ما هى العناصر الأولية التى يتكون منها بناء النسق الاجتماعى[1] وكيف تتوظف هذه العناصر داخل اطار النظام الاجتماعى ؟ وما هى معايير Norms السلوك ؟ وإلى أى حد ترتبط بميكانيزمات الضبط الاجتماعى Social Control ؟ .

فى الرد على كل هذه الأسئلة نقول ، تتعدد مختلف العناصر التى يتألف منها « بناء النسق الاجتماعى الكلى » من خلال ما يدور فيه من معايير وضوابط للسلوك Control of behavior[2] تتعلق بالسلطة والمكانة والحقوق والأدوار والأهداف السائدة فى سائر أجزاء النسق الاجتماعى ، كبناء ضرورى لاستمرار المجتمع ودوام الانساق والنظم .

(١) جمعت بعضاً من الأمثلة الشعبية التى يرددها كبار السن من مشايخ الأسر والعائلات الليبية ، أثناء زياراتى لمختلف البلاد المجاورة لمدينة بنغازى خلال قيامى ببعض الابحاث العملية المتصلة بالتدريس فى « جامعة قار يونس » .

(1) Janne, H., Le Systéme Social., Bruxelles, 1970.

(2) Leberman, D.S. Control of behavior Cycles, American Frontiers of Psychological Research. W.H. Free Man & Co. San Francisco 1966.

مكونات النظام الاجتماعى :

يتألف النظام الاجتماعى من مجموعة من العلاقات المحددة فى تنظيم ، نشاهد فيه نسقا من أنماط السلوك المتوقع . ومن أهم العناصر المكونة للنظام الاجتماعى ، هى ما تلعبه المكانة الاجتماعية Social status الموروثة أو المكتسبة على السواء بالاضافة إلى ما يقوم به الدور Role من وظائف ضرورية داخل اطار التنظيم الاجتماعى[1] .

ومن مكونات النظام الاجتماعى إلى جانب الأدوار والمكانة كصور للسلوك المتوقع ، هناك عناصر لضبط السلوكيات والميكانيزمات ، ومنها :

(ا) السلطة Authority والحق Right والأهداف ، من جهة أولى .

(ب) والقواعد السلوكية (كالمعايير والضوابط) من جهة ثانية .

وسنشير أولا إلى صور السلوك المتوقع ، ثم نشير إلى عناصر السلوكيات وميكانيزمات الضبط .

أولا ــ صور السلوك المتوقع :

(ا) الدور Role   (ب) المكانة Status .

والسلوك المتوقع هو نمط معروف مقدماً ، أو فعل يمكن تصوره اجتماعياً بصفة مسبقة أو على نحو قبلى Apriori .

(ا) وسنحاول ابراز مفهوم السلوك المتوقع ، فنقول أن الدور هو مايتوقعه أعضاء الجهاز الاجتماعى من سلوك يصدر عن صاحب الدور ، فى موقف من المواقف الاجتماعية فسلوك الأب مثلا هو سلوك متوقع فى موقف عائلى ، وسلوك المدير هو سلوك متوقع فى موقع ادارى ، وسلوك ضباط الجيش هو سلوك متوقع فى قطاع عسكرى .

ونحن نقيس درجة المثالية والانحراف ، بالرجوع إلى طبيعة الدور[2] ومقارنته

(1) Sorokin, P : A, Culture & Personality; N.Y. Harper of Brothers, 1947.

(2) Sabrin, T.R., Role Theory., in Lindzey aG. Ed. Handbook of Social Psychology, Cambridge., Mass : Addison-Wesley 1954.

بردود أفعاله وتصرفاته الواقعية ، وكلما زاد الفرق بين طبيعة الدور المتوقع وردود أفعاله وتصرفاته الفعلية ، كلما زاد الانحراف عن الدور الحقيقى ، وكلما ازدادت أيضا درجة النفور من التصرف المنحرف واستهجان أو نقد الجماعة لخروج صاحب الدور عن طبيعة السلوك المتوقع منه .

وكلما زادت درجة التعقد فى التنظيم الاجتماعى ، كلما زادت الأدوار التى يقوم بها الانسان ، فهو أب فى أسرة ، وأستاذ فى الجامعة ، وعضو فى حزب سياسى ، ورئيس لنادى رياضى . وقد يكون للانسان العادى أكثر من دور واحد فى النسق العائلى ، فهو عم وخال وابن أخ وأب وجد ، وهنا تتعدد أدوار الفرد فى النسق العائلى ، ويحاول أن يسلك فى كل المواقف حسب توقعات الأدوار ، تلك التى تتمايز بالطبع حسب التوقعات المنتظرة فى كل دور على حده .

(ب) المكانة Status :

إذا كان الدور المتوقع هو دور اجتماعى مرسوم داخل تنظيم أو مؤسسة أو إدارة فان المكانة ، هى المرتبة التى يحتلها الانسان ، طبقا لمواصفات تؤهله لشغل هذه المرتبه . وإذا ما تفرد الانسان بسمات شخصية تؤهله لشغل مكانة « أستاذ بالجامعة » فهو يقابل بالتبجيل والاحترام ، لأنه يحتل مكانة علمية مرموقة[1] .

وسنتكلم عن نوعين من المكانة الاجتماعية :

١ ــ مكانة استاتيكية ولادية موروثة ، تلتصق بالانسان منذ ولادته ، كما هو الحال فى طوائف Castes الهند وأبناء الزنوج . فمن يولد فى طائفة يرث كل ما يلحق بالطائفة من مهن وحرف . ومن يولد زنجيا يرث مكانة اجتماعية دُنيا فى المجتمعات العنصرية فى ولايات الجنوب فى أمريكا الشمالية ، فهناك مدارس وأحياء وكنائس للسود ولا يدخلها البيض ويقابل الزنجى بالاعتراض والاستهجان إذا خرج عن قواعد الملونين Coloured وهذه وصمة عار فى جبين المدنية والحضارة الغربية.

وتسمى هذه المكانة العنصرية بالمكانة الاجتماعية المسببة Ascribed social Status وهى مكانة لا تتوافر إلا فى المجتمعات المنبوذة والمقهورة وهى ثقافات

(1) Hyman, H.H., The Psycology of status., Arch. Poychol., 1942.

جامدة كالطوائف الهندية أو هى انساق مغلقه Closed Systems كالمجتمعات الاقطاعية والثقافات البدائية Primitive أو التقليدية[1] .

٢ ـــ والنوع الآخر من المكانة هو أرقى وأسمى وهو ما يسمى بالمكانة الاجتماعية المكتسبة Achieved social ststus وهى تلك المكانة الاجتماعية التى يحصل عليها الانسان على نحو ديموقراطى طبقا لجهوده وعلمه إذا ما أعطيت له الفرصة المتكافئة مع غيره فيجتهد ويكافح ويكدح فى السهر والعمل حتى يحصل على مكانة أرقى[2] . أما من يهمل ويسيء ويتكاسل فى غباء ويتواكل على غيره ، فانه يهبط إلى مكانة دنيا أقل ، ويقابل بالسخرية . أما من زادت مكانته التحصيلية فى النظم الاجتماعية التى تؤمن بقيمة الانسان وتشجع ذاتيته ، فسيصبح بالطبع من ذوى المكانة العليا ، بكفاحه وعرق جبينه .

ثانياً ــ السلوكيات والضوابط والمعايير :

للانسان الاجتماعى حقوقه وواجباته وعليه الا يقصر فى واجباته نحو وطنه وأسرته ونفسه ، وهناك ضوابط للسلوك الانسانى ، فى تنظيم حياته ، وهناك معايير Norms وقواعد للسلوك وهى قوانين اجتماعية[3] تتحكم فى النزوع الانسانى وتبعده عن الوقوع فى الخطأ ، والاعتداء على حقوق الآخرين ، فيقع تحت طائلة القانون .

(ا) والسلطة هى عنصر من عناصر نظم الضبط ، لأن السلطة هى حق يمنح لفرد أو أفراد ، من أجل مصلحة عامة ، وللضغط والتأثير على كل من يخرج عن القواعد المرعية . وتزداد السلطة كلما ازدادت المسئولية خطراً والمكانة وأهمية .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تزداد سلطة « المدير على سلطة رئيس القطاع » نظراً لازدياد مسئولية المدير التى تشمل كل القطاعات .

وتحقق السلطة بعض الأهداف الضرورية ، سواء فى « المدرسة » أو « المصنع » أو « المزرعة » أو المؤسسة الاقتصادية ، ولصاحب السلطة الحق فى

---

(1) Evans-Pritchard, E., E, The Nuer, Clarendon Press Oxford 1950.

(2) Moore, J.C., Status & Influence in Small group interaction Sociometry., 1968.

(٣) نعيم عطية ، فى الروابط بين القانون والدولة والفرد ، دار الكاتب العربى ـــ القاهرة ١٩٦٨ .

منع أو توجيه أو ضغط . فرجال البوليس لهم سلطة الضبطية القضائية فى حدود القانون أو من أجل حماية المجتمع ، ولرجل المرور سلطته أو حقه الممنوح ، لتوجيه وتنظيم المرور ، سواء بالحركة أو التوقف بالشارع ، وذلك بهدف حماية الناس والأرواح ، مع تخفيف سيولة الحركة وسهولة المرور دون وجود أية أختناقات .

(ب) وإذا كانت السلطة ضرورة اجتماعية للضبط والادارة ، فما هى طبيعة الحقوق وموقعها من السلطة[1] .

فى الواقع هناك توازن بين السلطة والحقوق **Rights** فإذا ذاعت الديكتاتورية وتحكم الاستبداد وشاع الظلم بين الناس . فالحقوق ضرورة انسانية وديموقراطية الا أنها لاتمنع من طاعتنا للسلطة وخضوعنا لها .

وليس من حق الانسان الفرد أن يمنع أحد من أداء واجب تفرضه السلطة المشروعة ، الا أن السلطة فى حدود القانون قد تمنع حقا مشروعا ، ومن حق الانسان الفرد أن يعرف السبب فى هذا المنع المشروع لحقوقه . فمن سلطة رجل البوليس أن يمنع السيارة من المرور ، وأن يوقف السيارة المسرعة وأن يفرض المخالفات المطلوبة ،وأن يسرع فى سيارته وراء سيارة هاربة من القانون ، ومن حق السائق أن يستفسر عن الخطأ ، أو عن الموقف ، ولا يخضع لحكم السلطة حتى يعرف طبيعة المخالفة التى ارتكبها . وهذا هو الأسلوب الديموقراطى الذى يساوى بين الحق والسلطة بنفس درجة التوازن حتى لا تضعف السلطة أو تضيع الحقوق .

(جـ) فى كل تنظيم[2] اجتماعى أو اقتصادى نجد نسقا من التضامن والتوحيد ومن التماسك والتساند ، وفى نفس الوقت يمتاز كل تنظيم بالتغير ، ودوام الحركة ، نظراً لدينامية العلاقات بين الأدوار داخل كل بناء التنظيم ، ولذلك كانت الأهداف **Ends** من أهم مقومات التنظيم ، لأن الأهداف هى تغييرات مطلوبة ، طبقا للتخطيط **Planning** ، ويتوقعها جهاز يتابع الخطة ، فالأهداف هى تغييرات

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الادارى ، منشأة المعارف ١٩٨٢ .
العربى ـــ القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الاقتصادى ، المنشأة العامة للنشر والاعلان ، طرابلس ١٩٨٢ .

مخططة يهدف اليها الجهاز كله ويتوقعها سائر أعضاء التنظيم . وطبقاً لدرجة التضامن أو لتساند أو تماسك التنظيم هناك تغييرات ثورية مطلوبة فى التخطيط لتغيير الأمر الواقع ، على الرغم من وجود أهداف أخرى محافظة للابقاء على بعض الأوضاع الراهنة التى يتطلبها التنظيم الاجتماعى .

السلوكيات والمعايير[٢] :

قلنا ان المعايير هى مجموعة من القواعد السلوكية التى تحدد لنا مختلف الطرق والوسائل المشروعة لتحقيق الاهداف . وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك أهداف محددة بالنسبة لوجود سائر قواعد السلوك Rules of behavior ، تتعلق جميعها بحماية التنظيم . فأهداف المؤسسة هو تحقيق أكبر عائد أو ربح ممكن للمؤسسة التجارية فى نظم الاقتصاد الحر .

وإذا كانت هذه هى أهداف المؤسسة الناجحة اداريا واقتصاديا ، فان المعايير Norms[٣] السائدة فى المنظمة أو المؤسسة هى التى تحدد الوسائل التى تحقق هذا الهدف التجارى ، فتمنع مثلا الوسائل غير المشروعة كالغش التجارى أو التلاعب فى الأسعار أو التضارب المتعمد فى السوق والخداع واخفاء السلع[٤] بمعنى أن كل مؤسسة تجارية أو اقتصادية عليها أن تلتزم ببعض المعايير المشروعة ، كقوانين للسلوك التجارى ، وضوابط للاقتصاد السليم وقواعد للتجارة وتحقيق الربح المشروع .

ولكن كيف نقيس قوة القانون ؟ وكيف نسبر شدة أو ضعف المعيار ؟ وما هى أسس التنظيم وقواعد ضغط السلوك ؟

فى الواقع ، كلما كان القانون شاملا وعاما ، كلما كان قويا . وإذا ساد المعيار بين جماعات قليلة من البشر ، يصبح المعيار ضعيفا . بمعنى أن درجة شمول القانون ، هى التى تحدد لنا مدى قوته أو ضعفه .

---

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الادارى ، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٨٢ .

(٢) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، أساسيات علم الاجتماع الاقتصادى ، المنشأة العامة للنشر والاعلان . طرابلس ١٩٨٥ .

(3) Sherif, M., The Psychology of Social Norms, New York. Harper. 1936.

(٤) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الاقتصادى ، ومشكلات الصناعة والتنمية ، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٢ .

وهناك شروط أساسية ينبغى أن تتوافر لكى نتعرف على مدى فعالية القانون ، ونقيس بها درجة ضغط المعيار أو شدته ، ونسير بها أيضاً إلى أى حد تسوء وتنتشر أو تقتصر وتضعف ؟

والشرط الأول هو شرط الديمومه Duration ، أو درجة دوام القانون السلوكى أو استمرار المعيار وانتشاره لمده طويلة ، فالقانون الدائم المستمر، قانون يتسم بالقوة والتعطية والشيوع ، بينما يضعف المعيار السلوكى إذا اقتصرت فترة دوامه على مدة بسيطة ، أو على فترات متقطعه ، لا تتسم بالديمومة. والشرط الثانى ، من شروط سيادة القانون وشدته ، هو قياس « درجة الضغط الاجتماعى » ، فيكون القانون والمعيار السلوكى قويا[1] إذا زادت درجة الضغط الاجتماعى التى يفرضها القانون ، والمجتمع دون شك هو الذى يضفى على هذا المعيار السلوكى مدى أهميته ، كما أن المجتمع هو الذى يفرض القاعدة أو المعيار السلوكى ، وهو الذى يمارس عملية الضغط نفسها ويحدد مداها . فإذا كان ضغط المجتمع ضعيفا بصدد سلوك أو فعل إجتماعى كان هذا من الأدلة الصادقة على ضعف المعيار وعدم سطوة القانون السلوكى الذى يفرضه المجتمع على نحو غير ضرورى ، ولا التزام فيه ، نظراً لعدم شدة المعيار وقلة حدة الالتزام به .

وطبقا لهذه الشروط الخاصة بسبر غور القانون السلوكى ، وقياس مداه وقوته ، يمكن تقسيم القوانين السلوكية ، طبقا لتدرجها من حيث الشدة والضبط والديمومة، فتنقسم من الأضعف إلى الأقوى ، طبقا لأشكال القوانين وصور المغايير ، حيث يمكن أن نحدد نسق الضوابط وميكانيزمات السلوك التى تبدأ من أدناها كما يتمثل فى التقاليع Fads والموضات Modes ثم تترقى إلى أعلاها حين تقوى وتشتد فى السلوكيات الاجتماعية Folkways[2] . وأخيراً تظهر الاعراف Mores وهى التشريعات غير المكتوبة ، كما هو الحال فى المجتمعات التقليدية ، بينما تظهر الضوابط المشروعة والقوانين الوضعية فى المجتمعات المحددة ذات المؤسسات والنظم المتقدمة حضاريا وصناعيا .

---

(1) French, J.R.P., & Raven, B.H., The.Basis of Social Power., In Ed. Studies in Social Power., univers of Michigan Press 1959.

(2) Sorokin, P.A., Culture & Personality, N.Y. Harper of Brothers. 1947.

أما التقاليع فتنتشر بين الطبقات الارستقراطية والفئات الراقية ، فهى أبسط وأقل وأندر المعايير. وتكثر التقاليع فى المجتمعات الغنية الدائمة التغير ، وبين الطبقات الراقية والثقافات المتقدمة ذات الانماط الصناعية المستحدثة ، وتندر التقاليع فى المجتمعات الاستاتيكية والثقافات التقليدية ومعنى ذلك أن التقاليع تتسم بالندرة فى أغلب المجتمعات التقليدية والقروية والبدوية ، لأنها بناءات اجتماعية ثابتة نسبيا ، والتقاليع ليست عامة ، ولا تدوم لفترات طويلة ولايمارس المجتمع بصددها ضغوطاً على من لايلتزم بها أو لايتابعها .

أما الموضات Fashions فهى معايير سلوكية أقوى من التقاليع وتظهر الموضات غالباً فى تغير شكل الأزياء أو أنماط الملابس ، وخاصة بالنسبة للسيدات. ولذلك تنتشر الموضات فى قطاع أكثر شمولا من قطاع التقاليع ، كما تستمر الموضة فترة أطول قد تدوم وتصل إلى عام أو عامين ، كما يؤيد المجتمع الموضة ، فتنتشر ، ويحبذ أتباعها بين البنات والسيدات ، بل ويستهجن المجتمع من يخالف الموضات ، ويقابل من يخالفها بالسخرية والهزء ، واثارة الضحك والتغامز. ولتلك الأسباب جميعها نجد أن الموضة أقوى من التقاليع وأكثر دواماً وانتشارا وأقوى تأييداً وتدعيما من المجتمع .

وإذا كانت الموضات أقوى من التقاليع ، فان السلوكيات الاجتماعية Folkways أقوى من الموضات لأنها تتصل بأتيكيت Ettiquite تناول الطعام ، وكيفية استخدام أدوات المائدة بالطريقة المتبعة حضاريا ، بالاضافة إلى الطرق المبتكرة لشكل الأزياء وأنماط الملابس والسائد منها هو « الزى القومى » . والسلوكيات الاجتماعية تتميز بأنها عامة بين سائر أفراد المجتمع ومنتشرة فى شمول دائم ولفترات طويلة ، وتتوارث خلال أجيال متعددة . ويقابل من يخرج على السلوكيات الاجتماعية بالاستهجان ، ويسخر المجتمع الحضرى Urban من سلوكه وتصرفاته[1] حينما يحاول الخروج على المعايير الخاصة بالسلوكيات الاجتماعية العامة.

وفى سائر المجتمعات البدائية ، يسود العرف كقانون بدائى أو بدوى أو قروى. والاعراف البدائية والبدوية هى ما تعارف عليه الناس ، فساد العرف فى الثقافات

(1) Erickson, G., Urban behaviour, The Macmillan, Company, 1954.

القديمة كما تتحكم التقاليد فى المجتمعات البدوية بينما تضعف شوكة القانون، وتقل حدة التشريع .

فالاعراف Mores هى ضوابط وتشريعات غير مكتوبة ، وهى أقوى القواعد السلوكية ، ويولد الانسان ليجدها سائدة ومتحكمة قبل ميلاده على نحو قبلى A Priori ، وهى رادعة الأثر فى المجتمع البدوى وهى أهم سمة أساسية فى القانون البدائى Primitive Law[1] ، بحيث تصل عقوبة من يخالفها إلى درجة الاعتداء البدنى ، وترجع قوة العرف وضغط التقاليد إلى قدمها ورسوخها ، من جهة ، وأرتباطها بنسق الدين والقيم السائدة ، من جهة أخرى ، بالاضافة إلى ما يحيطها من طقوس ومعتقدات تصل إلى حد التقديس .

وإذا كانت الاعراف والتقاليد هى أهم ضوابط وسمات التشريعات غير المكتوبة فى المجتمعات البدائية ، فان القوانين الوضعية[2] مستمدة أصلا مما يسود فى البناء الاجتماعى من تراث وتقاليد وقواعد دينية ونظم أخلاقية Moral orders وهى جميعا من الضوابط السلوكية بين أهل الحضر والحواضر حيث يسود القانون لردع الجريمة والانحرافات فى المجتمعات والثقافات الحضرية ، حيث لا تتوافر « عناصر المدافعة عن النفس » بالبأس والشجاعة ، وإنما يكون الأمن Security بقوة القانون .

---

(1) Redcliffe-Brown., A.R., Structure & Function in Primitive Society., Cohen & West 1961.

(٢) الدكتور عمر فروخ ، كلمة فى إبن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة بيروت ١٩٥١ .

الفصل السادس

ثقافة الإنسان الحضرى

* تمهيـــد .
* من هو الانسان الحضرى ؟ وكيف يكون ؟
* الخصائص والسمات الحضرية .
* الايكولوجيا الحضرية .
* المدينة العتيقة La Cité Antique .
* المدينة كنموذج مثالى .
* أبعاد المجتمع الحضرى .

تمهيـــد :

من أدق وأعوص المسائل التى تواجهها علوم العصر ، وأعنى بها علوم الاجتماع والثقافة والاقتصاد والتنمية ، مسألة « الحضرية » ومقولة « الثقافة » وفكرة الشخصية ، فى ضوء مختلف الانطباعات التى تفرضها طبيعة البناء الاجتماعى ونظمه ، ولذلك إختلفت وتعارضت أنظار جمهور العلماء عند فحص هوية الانسان الحضرى وسبر غور شخصيته وأناه ، « وحول الانسان الحضرى Urban » ازدادت حدة المناقشات وحميت وتناقضت .

فمن هو الحضرى ؟ وكيف نميزه عن الحاضرى Metropolitan وما هى الحاضرة Metropolis وكيف يمكننا فهم أو تخطيط المركب الحضرى ؟ فى الرد على كل هذه المسائل ، نستطيع أن نقول أن الحضرية هى أسلوب للحياة Style of Life تلقاه واضحاً وسائداً فى بيئة أو قطاع « أو منطقة ».ويعيش الانسان الحاضرى فى جو عصرى ، مشبع بكل مقومات الحضرية الخالصة ، والحاضرى Metropolitan فى مفهوم تعداد الولايات المتحدة منذ عام ١٩١٠ ، وهو أحد سكان الحواضر المزدحمة الكبرى[١] . فالحاضرى من أبناء الحواضر الكبرى الذين هم أبناء المدن المركزية والمناطق الحضرية التى تحيط بها . وهذا هو أول تعريف لمفهوم يحدد « نواة الجهة الحضرية » وهى مدينة يعيش فيها وتتركز مجموعات سكانية حضرية لاتقل عن مائة الف نسمة ، عدا كل التقسيمات الفرعية التى تقل فيها كثافة السكان عن ١٥٠ شخصا للميل المربع .

بمعنى أن الحضرية ، هى نمط من أنماط الثقافة يتبدى لانسان العصر الذى يعيش حياته العصرية ، وقد بلغت حضاريا إلى حد التحديث Modernization فالحاضرى بهذا المعنى هو الانسان الذى يعيش فيحيا « وسط جماعات سكانية كثيفة » ومتنوعة الحرف والطبقات فى ظروف اقتصادية واجتماعية معينة ، تعقدت معها نظم تقسيم العمل Division of Labor ، تلك التى انبثقت عنها وتعددت مختلف التخصصات ذات المهارات المتمايزة ، فصدرت لنا ومنها أعمال متنوعة الأغراض وظهرت بفضلها أنشطة متنافرة المهن والصنائع[٢] .

(1) Whyte, W.H., The Exploding Metropolis, Doubleday & Co. Garden City. N.Y. 1958,

(2) Clarke, W.M., How the city Works ? The Professions, London 1983.

وهذا هو مفهوم الانسان الحضرى بمعناه الوسيع ، وفى هذا المفهوم يمكننا أن نجد كثيرا من التمايزات والفوارق ، بين مصطلحى التحضر والحضرية Urbanism على اعتبار أن عملية التحضُّر Urbanization[1] فى ذاتها ، هى عملية انتقال حضارى مرحلى لجماعات بشرية ، وتنميتها من جماعات حضارية أدنى مرتبة أو أقل درجة ، إلى جماعات أرقى تطورا ، وأعلى منزلة ، وأكبر نموا . ولسبب بسيط وجوهرى أو ضرورى يتعلق بنوع أو هوية وكثافة الأنشطة الاقتصادية التى يقوم بها الانسان الاقتصادى Home-Economicus أو حتى الانسان الصانع Homo-Faber ، حيث تتفاوت درجات النشاط التجارى أو الزراعى ، كلما سار التحضر قدما ، وعلى نطاق يتزايد وينمو ويستمر فى مجال يتسلسل تطورا وفى حلقات ، من مسار « النمو البطىء »[2] أو المنعدم كما هو الحال الاستاتيكى Static فى المجتمعات البدائية Primitive ، تلك التى تتطلع إلى طور النمو المخطط أو المحدود ، كما هو الحال فى مجتمعات عصرنا النامية ، وهى القائمة فى معظم دول آسيا وأفريقيا وغيرهما من دول العالم الثالث .

وتعتمد المجتمعات النامية أصلا ، فى نموها بدورانها اقتصادياً فى مدارات أفلاك كبرى ، وهنا يتوصل بنا مسار التحضر إلى غايته ، حين يتجلى وينطلق من خلال إبراز « دور النتاج الحضارى » ، ومدى سيطرته على أسواق محلية وعالمية . وهو تماماً ما نراه واضحاً فى « اقتصاديات المجتمعات العالمية الكبرى » وبين الدول الاقطاب ، كما يتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وكما يتبدى لنا الآن من تجارب راهنة ومتطلعة تنمو وتنطلق فى الصين واليابان .

ولكن ماذا نقصد بالحضرية ؟ :

لعل تعريف التحضر الذى سقناه وبيناه ، هو أسهل بكثير من تعريف الحضرية Urbanism التى هى عبارة عن ذلك النتاج الاجتماعى وكل ما يتصل بالتراث الثقافى الناجم عن ظاهرة « التحضر Urbanizdion والمدينة الكبرى ، أو

---

(1) Reissman, H., The Urbam Process, The Free Press of Glencoe N.Y. 1964.

(2) Redfield, Robert., Peasemt Society & Culture., An anthropological Approach to Civilization, university of chicago, 1958.

الحاضرة Metropolis[٣] هى من أكبر مدن الاقاليم القائمة فى الدائرة الحضارية ، ومن أشدها تعقيداً أو أكثرها بعداً عن المدينة المتوسطة . وتمتاز الحاضرة كمدينة كبرى ، بقدرتها على استيعاب ونقل وانتاج السلع والخدمات ، بكيفية أغزر وكفاية أكثر ، من قدرة المدينة المتوسطة أو الصغيرة ، نظراً لتوافر المواد الخام ، ورخص أدوات النقل الآلى ، ووفرة الأيدى العاملة ذات الكفاية الانتاجية العالية ، والمهارات Skills المتخصصة ، مع الدربة والخبرة فى سائر التخصصات والمهن والعمليات الانتاجية .

وتكمن « سيكولوجيا الحضر » فى هوية الانسان الحضرى وتتميز بها سمات شخصيته ، وتتبلور حولها ذاتيته وأناه . حيث تتجلى فى شخصية العامل أو الصانع مثلا ، بعض السمات والملامح التى لا تتوافر اطلاقاً فى شخصية القروى أو فلاح الأرض .

خصائص سمات الحضرية[٢] :

وتتسم السمات الحضرية بمميزات سيكولوجية وأخرى سوسيولوجية تتوحد جميعها وتتفاعل حين تتجمع فيما بينها سمات ثقافية وجماعية وتمتزج فيها أنماط من الوعى الطبقى والطائفى والمهنى ، وأمشاج من الفروق الفردية والمهارات التكنولوجية والسمات الذكائية ، فتبرز لنا مختلف المضامين التى تمتزج لكى تتوحد وتتألف فى معية Togetherness لتكون لنا مفهوم « الحضرية » . ذلك المفهوم الذى يضعف ويقل ويبهت كلما تباعدنا عن المناطق الحضرية ، حيث يقل الاحتكاك بالطبع بسائر التجمعات الداخلة فى أى تنظيم أيكولوجى حضرى ، وهذا ما يطلق عليه علماء الاجتماع الحضرى باسم « ثقافة المدن Culture of cities » ويتعلق العامل الايكولوجى بقرب أو بعد المدينة عن غيرها من مناطق الانتاج أو مراكز التجارة ، أو غيرها من مواقع العمل . ولقد حدد لنا « أوجبرن Ogburn » ما قصده بالتخلف الثقافى[١] ، وردّه إلى أسباب تتصل بمواجهة التغير الاجتماعى

(3) Whyte, W.H., The exploding metropolis Deuble-day & co. Garden city, New York. 1958.

(1) Reissman, H., The urben Process, The Free Press of Glencoe, N.Y. 1964.

(1) Ogburn & Nimkoff; Hand book of Sociology, London 1960.

Social change ، حين يزداد تقدم التكنولوجيا على حساب ثقافة غير نامية ، الأمر الذى يؤدى بالطبع إلى وجود « فجوة هائلة » مع ازدياد المسافة بين التكنولوجيا والايديولوجيا . فالتكنولوجيا أسهل وأسرع تغيرا فى المجتمع ، بينما تكون الايديولوجيا هى آخر ما يتغير اجتماعيا ، وبصعوبة .

ولقد ضرب « أوجبرن » على ذلك مثالا ، اشتهر به وحده دون سائر علماء الاجتماع الثقافى ، وهو ضرورة تنمية واعداد البيئة Eco-Development وتهيئتها للتكيف مع غزو التكنولوجيا ، مع ضرورة تنمية الانسان واعداده وتهيئته للتكيف مع الجديد لهضمه وفهمه ، حتى يمكن أن يتمشى مع التقدم التكنولوجى المطلوب مواكبته بالضرورة ، وجنبا إلى جنب مع التقدم الايديولوجى[1] .

وأى فائدة تعود علينا من أختراع « آلة متقدمة » تكنولوجيا ، يستخدمها انسان بدائى متخلف ؟ لم يصل بعد إلى فهم أو هضم آلة متقدمة عليه ومتفوقة تكنولوجيا ، الأمر الذى يخلق بين الانسان والآلة حالة من « سوء التفاهم » لأنه يجهلها ولا يعرف كيف يتعامل معها ، بالاضافة إلى أنه لايعرف كيف ولماذا تتوقف الآلة أو تتعطل ؟ الأمر الذى معه ينبغى تدريب وتنمية كفاءة الانسان وصقل خبراته ، وتدعيم شخصيته ، وشحن أناه معنويا حتى يتكيف ثقافيا مع غزو التكنولوجيا .

وبصدد التخلف الايكولوجى للمدن والبيئات الحضرية ، يقول « أوجبرن » ان المدينة التى تزدحم فيها السيارات إلى الدرجة التى تعاق فيها الحركة وتنعدم السيولة ، هى بالطبع « مدينة متخلفة » ، حيث ينبغى أن يتواءم تخطيط المدينة مع مستقبلها بتعبيد الطرق الواسعة والكبرى ، حتى تمتص درجات الازدحام المتفاوتة والمتزايدة كل عام طبقا لتزايد الاستيراد ، واشباع حاجة النقل والشحن ، ودعم المشروعات الانتاجية ، فى سائر القطاعات الاقتصادية مما يفرض علينا قطعا زيادة الاهتمام ، بأنشاء الكبارى ومشروعات الطرق بتوسيعها وتدعيمها ووفرتها ، مع الزيادة الكمية والكيفية فى تشجير وتجميل الحدائق والميادين ، مع زيادة أو توسيع عرض وطول الشوارع المتفرعة من الميادين والمتجهة إلى داخل ووسط

(1) Ogburn, W., The Social Change., Ency. of Social sciences New York. III. P. 217.

المدينة . وبذلك تخفف الحركة فى قلب المدينة ، وتزداد سهولة وسيولة المرور ، فتقل الاختناقات التى تحدث فى المدن الصناعية وخاصة فى ساعات الدفع والخروج Rush hours من المصانع والمدارس ، مما يعوق الحركة ، ويتعسّر الاتصال ، وتنسد شرايين المدن . الأمر الذى معه ، نستطيع حل مشكلات المدينة الحضرية ، بتدعيم مرافقها ، وتجديد أدوات الاتصال فيها ، مما يدعم عمليات الانتاج ، ويقلل من ضياع الجهود والمال والوقت ، بين سائر القطاعات الاقتصادية ، فيخسر المشروع وينتهى بالفشل دون فائض أو عائد[1] .

تطور السمات الحضرية :

يقال ان تطور السمات الحضرية ، فى المدينة الأوربية قد نشأ بصورة مختلفة تماما عن نشأة المدينة الأمريكية تلك التى نشأت دون ما حاجة إلى سواعد عمال الزراعة وهجرتهم ، أما فى أوربا فلقد كان التصنيع وهجرة عمال الزراعة أو الخروج القروى Exodus ، من أهم أسباب ازدياد حجم المدينة الأوربية وكثافة الناس فيها ، مع شدة ازدحام المرور ، مما يتطلب تقليل حدة الكثافة الحضرية ؟ وتخفيض شدة الازدحام ، مع الاهتمام بتطوير المرافق ، فلقد ثبت أن أهم المشكلات الحضرية ، هى مشكلات تتعلق بالاسكان والتركز والتوطن Concentration حتى يتحقق التوازن أمام الاستقطاب الحضرى Urban Polarization .

وإذا كان التصنيع هو علة الهجرة والتوطن وسبب الاستقطاب والتركز ، مما كان له دوره الحاسم فى نشأة المدينة الأوربية المعاصرة وازدياد حجمها ، على عكس الحال تماما بالنسبة لنشأة المدينة الأوربية فى العصور الوسطى فلقد كان « الدير » أو « الحصن » من أهم أسباب تكوين ونشأة المدن فى العصور القديمة ، حيث نشأت الديانات المنزلية فى أقدم المدن .

ولقد أشار فوستل دى كولانج Fustel de coulanges فى كتابه المشهور الذى نشره تحت عنوان « المدينة العتيقة La cité Antique » إلى دور الدين أو « الديانة المنزلية » فى نشأة المجتمع الحضرى ، فنظ إلى النظام الدينى على أنه حجر الزاوية فى سائر النظم والانساق السائدة فى البناء الاجتماعى العتيق ، الذى ارتكز أصلا

(1) Brease, G., Urbanization in Newly Developing Countries, Prentice-Hall., N.Y. 1966.

على النسق الدينى وحده كدعامة تستند إليها وتتوظف سائر الانساق البنائية عائلية كانت أم اقتصادية أم عسكرية ، فربط الدين بين الزواج والميراث والملكية والتبنى .

ولقد كان الدين فى المجتمع الرومانى القديم مرتبطا بالأسرة ، ومستندا إلى نظمها تلك التى تتعلق بالبدنة العاصبة Agnatic Lineage وبقوانين الميراث ، والخلافة وبنظم الملكية ، والزواج والسلطة الأبوية Paternal Authority(1) .

واستنادا إلى هذا المفهوم ، أرجع « فوستل دى كولانج » كل أنظمة العنصر الآرى القديمة ، سواء لدى الهنود أو الأغريق أو الرومان إلى الدين ، فالديانة عنده، هى أساس الأسرة وما يتخللها من نظم وعلاقات مثل « السيادة الأبوية » والزواج والتبنى ، والملكية ، والميراث ، والقرابة ، وتتفاعل كل هذه النظم فى تساند وأعتماد متبادل من حيث البناء والوظيفة .

ويعبّر « فوستل دى كولانج » ، عن وظيفة الدين وطقوس الديانة المنزلية بقوله: « والأسرة التى تبقى على الدوام مجتمعة حول مذبحها بحكم الواجب وبحكم الدين تثبت فى الأرض كالمذبح ذاته ، وتجىء فكرة المسكن المستقر مجيئاً طبيعياً فالأسرة مرتبطة بالموقد ، والموقد مرتبط بالأرض ، وبذلك تستقر صلة وثيقة بين الأرض وبين الأسرة(2) واستنادا إلى هذا النص ، كانت الديانة المنزلية هى الرباط المادى على حد قول « فوستل دى كولانج » ، الذى يربط بين شتى النظم والظاهرات الاجتماعية فى الأسرة الرومانية القديمة .

المدينة العتيقة La cité Antique :

وإذا كان الدين هو حجر الزاوية فى المدينة الرومانية القديمة ، فلقد أشار السير هنرى مين Sire Henry Maine إلى « القانون القديم »(3) ودوره الحضارى فى تنظيم العلاقات التجارية والاقتصادية التى تعقدت مع نشأة المدن التجارية الكبرى ، كالبندقية فى عصر النهضة ، وبذلك أصبح « العقد Contract » عند « هنرى

(1) Radclife-Brown., A.R., Structure & Function in Primitive society, London. 1956. P. 162.

(2) فوستل دى كولانج ، المدينة العتيقة ، ترجمة عباس بيومى بك ص ٨٠ .

(3) Maine, Henry., Ancient Law., Routledge, London. 1897.

مين» هو الاختراع الاقتصادى البديل ، على أعتبار أن العقد فى فقه القانون هو « سيد المتعاقدين » فقامت العلاقات المدنية مع نشأة المدن التجارية ، وحل اكتشاف « العقد » محل العرف القديم ، وقامت العلاقات الحضرية والاقتصادية على أساس قانونى وتشريعى ينظم علاقة التعاقد بين فردين أو أكثر ، وحل القانون والمسئولية الفردية « محل » المكانة « Rank » والعلاقات القرابية Kinship وروابط الدم والجوار .

واستنادا إلى هذا الفهم ، إذا كان فوستل دى كولانج يركز على نسق الدين فى نشأة بناء المجتمع الرومانى ، فان السير هنرى مين يركز على التشريع القديم أو القانون العتيق Archiac Law كأساس لسائر النظم الاجتماعية السائدة فى البناء الاجتماعى ، لأن القانون القديم كان يرتكز أساسا حول السلطة والسيادة والمرتبة الاجتماعية وتتركز جميعها فى نسق السلطة الأبوية ونظم القرابة فتطورت علاقات القرابة والعصبية ، إلى علاقات تعاقدية ، وانقرضت السلطة الأبوية لتحل محلها سلطة القانون فانفصلت السلطة وانعزلت عن المرتبة ، وتطورت السيادة الأبوية إلى سيادة القانون ، وتحولت المسئولية الجماعية إلى مسئولية فردية .

وإذا كان « هنرى مين » قد نظر إلى « العقد » و « القانون » فقد نظر ماركس Marx وزميله انجلز Engels[1] إلى دور العمل والتصنيع ، على اعتبار أن الاقتصاد هو الأساس المادى ، أو هو البناء الأسفل Infra-Structure الذى على أساسه تقوم وتنشأ الأصول الحضرية الأولى للمدن .

المدينة كنموذج مثالى Ideal Type :

ولقد كانت دراسة « اميــل دور كايم » المشهورة فى تقسيم العمـل الاجتماعى De la Division du Travail Social هى أول دراسة حضرية ، ولقد ميز فيها بين نوعين من الأعمال التى تميز المجتمع البدائى فى نمطه الآلى والمجتمع الصناعى واقتصاديات التضامن العضوى La Solidarité organique[2] الأمر الذى يذكرنا بتمييز « فرديناند تونيس Tonnies » بين الجماعة والمجتمع Geimeinschaft والمجتمع

(1) Marx, Engels., Selected Works., Vol : I Moscow. 1962.

(2) Durkheim, Emile., De la Division du Travail Social., Félix Alcan., Paris. 1926.

Gesellschaft ففى الأولى تكمن إرادة الحياة القائمة على علاقات الجوار والدم والقرابة ، بينما تكمن فى الثانية إرادة الوعى وتقوم على العمل والصراع ، حيث يسود التنافس والتخصص والغربة . وبذلك تنبأ « تونيس » بأنتشار المدنية مع تباشير المجتمع البورجوازى ، وتفكك القيم الخلقية وتدمير الطاقات الفردية الخلاقة[1] .

وهذا هو السبب الذى من أجله التفت « ماكس فبر Max Weber. » إلى الجوانب السيكولوجية والاجتماعية للنشأة الحضرية ، بالنظر إلى شكل البيئة ونوع التبادل ، وتعقد المهن وتعدد التخصصات ، بالاضافة إلى نمط الاستقرار وكثافة السكان ، وعلاقة الوجه للوجه Face-to-Face فقامت المدينة كنموذج مثالى Ideal Type أو كتنظيم بيروقراطى ، يقوم على الاستقلال الذاتى ، ويعتمد على التشريع والقانون ودور القضاء ، ويستند إلى النظام العسكرى والتنظيم السياسى والمؤسسات الاقتصادية والبنوك وأسواق التجارة والمال[2] .

ولقد نظر « روبرت رد فيلد Robert Redfield إلى أبعاد حضرية وقروية ، حين قارن بين المقصود بكلمة Folk وتعنى مجتمع القرية وبين المقصود بكلمة urban ، وهو ثقافة الحضر ، وعقد رد فيلد مختلف المقارنات بالرجوع إلى أختلاف السمات الثقافية فى كل منهما . إلا أن ردفيلد قد أهمل الابعاد البيروقراطية للمدينة وسماتها الثقافية الحضرية ، كما أخطأ أيضاً ردفيلد للمرة الثانية حين نظر إلى « الثقافة القروية » نظرة جزئية ، وقارن بين المدينة والقرية من خلال مقارنة الجزء بالكل ، وركز ردفيلد على أكتشاف أوجه الشبه والاختلاف فيما يتعلق بالقيم الثقافية السائدة فى المجتمع القروى التقليدى ، وهو مجتمع الفولك Folk من زاوية ما يميزه عن المجتمع الحضرى من ناحية درجة الازدحام وشدة الكثافة ، وتعقد التنظيم وسمات الحجم وعلاقات الجوار Neighbourhood[3] .

وإذا كانت أوائل المدن وأقدمها قد ظهرت حول الحصون وهياكل المعابد فقد

(1) Tonnies, Ferdinand., Community & Society, New York. 1963.

(2) Weber, Max., The Theory of Social & Econonic Organization, trans. by Hendersen, Glencoe. 1947.

(3) Redfield, Robert., Peasant Society & Culture., An Anthropological Approach to Civilization., university of chicago, Press. 1956.

قامت المدن الأمريكية على العكس من ذلك تماما بالقرب من المناجم وآبار البترول كما نشأت مدن أمريكا بفضل خطوط النقل وتوطن الأسر والعائلات بالقرب من محطات تلك الخطوط التى استقرت حول البحيرات والشواطىء والأنهار ، وبخاصة حين تتوافر الخدمات والمرافق وطرق المواصلات ، وخطوط ووسائل النقل البرى والبحرى والجوى .

ولا شك فى أن حركة التجارة ، ومشروعات الصناعة ، قد عملت على زيادة « تقسيم العمل » والاهتمام بمبدأ التخصص Specialization ، الأمر الذى قضى بنائيا ووظيفيا على الانساق التقليدية Traditional Systems فظهرت بناءات جديدة على أنقاض الانساق القديمة ، فقلت حدة القانون والضغط ، وزادت وطأة الصناعة وتفككت روابط الأسرة والعائلة ، وضعفت العلاقات العائلية وظهرت المدينة كوحدة متكاملة ، وعلى درجة عالية من التنظيم ، كبناء طبيعى يخضع لقوانين خاصة ، تتحكم فى أطار أو صيغة المدينة كصورة فيزيقية .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على أن التكنولوجيا أكثر تقدما فى المدينة عنها فى مجتمع القرية ، حيث تقوم كل مدينة استنادا إلى نسق حاسم يستند إلى التصنيع وتقسيم العمل ، بينما تقوم القرية على علاقات النسب والقرابة والجوار والوراثة والدم .

ولكن كيف ومتى صدرت ايكولوجيا الحضر ؟

إذا ما التفتنا إلى سمات الناس وأنماط سلوكهم وألوان أشكالهم وأفكارهم وطرق معيشتهم وكسب عيشهم وصنوف أطعمتهم ومشاربهم ونظمهم الحكومية والدينية، لوجدنا أن هذا كله قد صدر أصلا عن خصائص البيئة الفيزيقية physical التى تحيط بالانسان ، وما يعيش فيها من كائنات كالحيوان البرى وأنواع الحشرات والطيور ، وما يوجد فيها من جمادات وأشياء غير حية كنوع الأرض وطبيعة الجو ودرجة الرطوبة والحرارة ، كل هذه سمات وخصائص بيئية يكون لها رد فعلها على نواحى الحياة الاجتماعية ، وأثرها فى تشكيل الأفراد وثقافتهم وسلوكهم وقيمهم الحسية والمعنوية .

ويقول الاجتماعيون، ان للبيئة أثرها الظاهرى بينما يقول الجغرافيون، ان للبيئة دورها الجوهرى الحقيقى فى تغير الانسان ، فى الكويت والسعودية نجد أن مستوى المعيشة أصبح مرتفعاً ، حين زادت بل وتضاعفت معدلات الدخول الفردية ، نتيجة أكتشاف واستغلال آبار زيت البترول وأستخلاص تركيباته ومحتوياته بعد تحليلها وتكريرها ، فنشأت الصناعات البتروكيماوية لاستغلال موارد الزيت الخام ، وبالرغم من كل هذه الطاقات الاقتصادية الضخمة ، وظروف البيئة الفنية ، إلا أننا نجد أن معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ، مازال متخلفاً، ومازالت الكثير منها تعانى من التفاوت الاقتصادى الشديد ، وتعانى من ثقافة الفقر والتأخر الحضارى، ولا يعطى ذلك بالطبع صورة طيبة وطبيعية ، بالنسبة لمستوى معيشة لائق فى ظل دخل قومى مرتفع وظروف أيكولوجية غنية ، ومناشط اقتصادية دائبة الحركة .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن البيئة والمناشط الايكولوجية ، ودور الانسان الاقتصادى وحركته ، هى العوامل الضرورية التى تعمل على تغيير المجتمع وتنمية الانسان .

ولقد بدأت الاهتمامات واضحة بما يسمى بالايكولوجيا الحضرية Urban Ecology ، وبخاصة بصدد التركيز السكانى ، مع اقتراح الفروض الخاصة بتوزيع التوطن Concentric hypothesis ، وبذلك نظر الايكولوجيين إلى المدينة على أنها وحدة طبيعية ، وبدراستها لا على أنها مجموعة من العمليات أو النظم ، وإنما على أساس مادى طبيعى أو بيئى . ومن أهم علميات النمو الاجتماعى للمدن ، عمليات التركز ، والتتابع والاستقطاب والعزل segregation والغزو Invasien .

ولقد نشر « ارنست برجس Ernest Burgess » بالاشتراك مع روبرت بارك Robert Park ، كتابا تحت عنوان « المجتمع الحضرى » The urban Community ونشطت مدرسة شيكاغو وأصبحت نظرية النمو الخلقى للمدينة هى مركز الدراسات الحضرية ، تلك التى تهتم أصلا بمشكلات الديموجرافيا الحضرية urban Demography وعلوم المسح وإدارة المدن التى تأخذ بأهتمامات علوم تخطيط المدن Town Planning ، فالمسح يسبق التخطيط ، والمخطط هو قائد الأوركسترار الذى ينسق بين دراسات الاقتصاد والسكان وأبحاث الانثروبولوجيا والاجتماع والحكم

المحلى ، وتشغل كلها أهتمامات مخططى المدن وعلماء الاجتماع الحضرى[1].

أبعاد المجتمع الحضرى :ـ

لقد أطلق الاجتماعيون الأمريكيون اسم « ايكولوجيا المدن » على دراسة تركيب المدن ونشأتها ، لأن المدينة لا تظهر تلقائيا ، بل يقيمها الريف لتقوم بأعمال مركزية ضرورية . فالمدينة كما يقول زمبارت Zombart هى تركز بشرى يعتمد فى غذائه على نتاج عمل زراعى خارجى . والأصل فى وظيفة المدينة هو أنها جانب أو عنصر اقليمى RegionalComponent « يخدم منطقة تابعة له[2] .

فمن الخطأ الجسيم دراسة المدينة دون علاقاتها الاقليمية مع ما يحيط بها من أرياف ، فهناك تفاعل وثيق بين المدينة وريفها ، هو عبارة عن مجموعة الأفعال وردود الأفعال التى تتبادل فى أحتكاك مستمر بين مجتمع المدينة حين يتعامل مع ضفافها وتخومها القروية ، وينشأ بينهما مركب اقليمى نشط وفعال ، وله دوره الاقتصادى الذى يتمثل فى حركة التجارة والنقل والتبادل . فلقد كانت الحركة ضعيفة نسبيا بين المدينة وريفها ، رغم اعتماد المدينة غذائيا على الريف حين كان الاكتفاء الذاتى هو أساس الاقتصاد القروى الزراعى ، ويقوم مهرة الصناع من الحرفيين أو الاسطوات L'Artisan الذين يقيمون فى القرى بخدمات صناعية متواضعة ، كما وتتخصص كل قرية وتشتهر بصناعة معينة وأنتاج أو زراعة محاصيل خاصة ، ومن هنا ظهرت فائدة الأسواق الأسبوعية الدورية التى تعقد فى قلب القرى ، ويسعى إليها الكثير من التجار ، يتجولون بين أسواق القرى بالأقمشة والبضاعة التى يحتاجها الفلاح .

ومن أهم الأبعاد أو العناصر الخاصة بالمجتمع الحضرى ، هو العنصر الاقليمى للمدينة الذى يعتبر من الأبعاد الأساسية لوظيفة المدينة ، فالمركب الاقليمى عنصر جوهرى فى قيام حركة تفاعل متبادل بين المدينة وريفها ، ولذلك كانت أهم الوظائف الجوهرية للمدن ، هى وظائف محلية ، ووظائف اقليمية ، الأولى لخدمة سكان المدينة والثانية لخدمة أهل الريف المحيط بضفاف المدينة ، وفى عمليات

(1) Geddes, P., The Survey of cities, in Sociology Review Manchester, Vol : 1. 1961.

(2) Bergel, Egon Ernest., Urban Sociology., Mc. Graw Hill. 1955.

التخطيط والتنمية ينبغى على الخبراء التمييز بين الوظائف المحلية والاقليمية ، حيث ينقسم التركيب الوظيفى للمدن إلى فئتين ، فهناك تركيب أولى ويشتمل على الأصل فى وجود أو قيام المدينة[1] . أما التركيب الثانوى ، فيتعلق بخدمة أصحاب الحرف التى تقوم بالوظائف الأولية .

وتعتمد الايكولوجيا الحضرية أولا وقبل كل شىء على المكان Space ، ولكل تجمع حضرى شكله المكانى ، كما يتميز فى نفس الوقت بأبعاد مكانية ، تجعل للمجتمع الحضرى طابعه وموقعه بالنسبة لقربه أو بعده عن مراكز أو تجمعات حضرية أخرى .

وبذلك تكون الايكولوجيا الحضرية ، هى دراسة العلاقات المكانية القائمة بين سائر التجمعات الحضرية ، حين تتأثر جميعها بعوامل البيئة الفيزيقية ، بالاضافة إلى ابراز دور وأهمية الأبعاد الزمانية Temporal diemension ، تلك التى تحدد لنا وتنظم العلاقات الحضرية بين أقوام من البشر .

ولقد درس « بورديه » فكرة الزمن عند الفلاح الجزائرى فوجدها متميزة تماما عن طبيعة الزمن الموضوعى أو الحقيقى . بمعنى أن فكرة الزمن ، إذا ما درست فى ضوء المجتمعات الريفية والحضرية ، دراسة سوسيولوجية أو حتى أنثروبولوجية ، لاكتشفنا بعض الأبعاد الثقافية الكامنة فى فكرة الزمان الاجتماعى Social Temporal Time[2] الذى يتمايز مفهومه تماما بين فلاح القرية ، فى الثقافة القروية ، وعامل الصناعة فى الثقافة الحضرية .

وفى ضوء هذه المعانى ، فان أبرز وأهم أبعاد المجتمع الحضرى هو ما نجده متمثلاً فى البعد الايكولوجى[3] ، حيث أن أهم ما يواجه الباحث الحضرى ، هى

(1) Reissman, H., The Urban Process., The Press of Glencoe, N.Y. 1964.

(2) Bourdieu. Pierre., The Attitude of Algeriani Peasant Toward Time, Article from Mideterranean Countrymen, 1963. P. 56.

(٣) يتصل البعد الايكولوجى بمواقع العمل والسكنى ، وطرق الانتقال ووسائل الحركة اليومية ، ومدى سرعتها أو بطئها ، ولذلك تتصل الايكولوجيا الحضرية ارتباطا وثيقا بمدى بدائية أو تقدم وسائل وطرق النقل ، وآثارها الاقتصادية فى حركة المدينة ومناشطها صناعيا وتجاريا وسياحيا ، ودراسة مدى قربها أو بعدها عمن غيرها من سائر المدن والحواضر الكبرى .

مسألة مناشط سكان المدن واقتصادياتهم المتمايزة تماما عن اقتصاديات سكان القرية .

ولقد أشار « روبرت بارك Park » فى كتابه عن « المدينة The city » إلى مانسميه بالايكولوجيا الحضرية ، على أعتبار أنها سمة جوهرية من سمات « ثقافة المدن Culture of Cities » على ما يذكر « لويس ممفورد Lewis Mumford » فى كتابه الذى نشره فى هذا الصدد . فقد يكون « التنظيم الاجتماعى » وشكله وأدواره وميكانيزماته وتعقد أدوات الضبط فيه ، من سمات المجتمعات الحضرية ، فلاشك أن التقدم التكنولوجى هو شرط ضرورى من شروط الحضرية ، لأن اقتصاديات المدينة هى أكثر أعتمادا على نتاج التكنولوجيا ،لأن الثقافة الحضرية أوفر استخداماً لأدوات الصناعة من الثقافة القروية .

العوامل الطبيعية ودورها فى التركيبات الحضرية والقروية :

وهناك عوامل ايكولوجية وقوى طبيعية ، لها رد فعلها فى تحديد ثقافة الريف أو حضارة الحضر . فالعلاقات التى تربط أهل القرى بعضهم بعضا ، هى علاقات مكانية محدودة بعكس الحضرى ، فتتسع دائرة علاقاته مع اتساع طرق المواصلات وسرعتها ، وبذلك يتركز النشاط الايكولوجى الريفى وسط القرية ، بينما تقل علاقته بالمركز ونقطة البوليس ، ويندر اتصاله بالمديرية أو المحافظة . ومعنى ذلك أن مهنة الزراعة ، تربط الريفى بالأرض حيث يسكن ويزرع ، فيحدد المكان القروى محل اقامة الناس على العكس تماما من النشاط الايكولوجى الحضرى ، ففى التجارة مثلا تستطيع المؤسسات الحضرية أن تتعامل مع الاتحاد السوفيتى وتتبادل مع الولايات المتحدة ، رغم بعد المسافات الشاسعة بين المدن التجارية الكبرى .

وقد تكون العوامل الجوية كشدة الحرارة ، أو المناطق الجليدية ، من الأسباب الايكولوجية التى تقلل من النشاط الانسانى ، وتؤثر فى توزيع السكان ، وتحدد اقامة الناس ، وكثافة السكان ، سواء فى الصحارى الحارة ، أو الباردة . ولكن باستخدام التكنولوجيا ، حاول الانسان بثقافته ، ومخترعاته وأساليبه الحضارية من الاقامة فى أقصى الصحراوات الحارة بحثا عن البترول ، واستخدم طرق المواصلات

والسفن الهائلة لاختراق الصحراوات الجليدية فى المناطق القطبية الباردة ، وأصبحت منطقة «الاسكا Alaska» التى تقع بين كندا وأمريكا وروسيا، من أهم المناطق العسكرية لأهميتها الاستراتيجية .

وبالاضافة إلى دور الانسان فى مواجهته لقسوة القوى الطبيعية ، فان للبيئة آثارها وردود أفعالها على تحديد نوع الثقافة ، وتحضير المجتمع ، فما يميز ايكولوجيا الريف عن الحضر ، وجود محكات بيئية وثقافية ، فلو قارنا بين القرية والمدينة، لوجدنا أن المدن هى « وحدات بيئية ثقافية » ، أكثر منها مجرد وحدات بيئية جغرافية ، لأن الحياة السياسية والاجتماعية فى المدن ، إنما لا تعتمد على ظروف طبيعية ، بعكس الحياة القروية ، تواجهها ظروف الريف الطبيعية كالأرض الملحية أو الرملية أو غير الخصبة والمجدبة والبور ، حيث ينبغى الاصلاح والتوسع . كما ويدخل فى أعتبارنا أيضا مشكلة المياه الجوفية بالنسبة للواحات ، وكمية الأمطار الساقطة على جبال الحبشة بالنسبة لمشكلة الرى فى السودان ومصر ، وبالتالى يكون الانسان هنا تحت رحمة درجة خصوبة الأرض ، وكمية المياه الجوفية فى الزراعة البعلية ، وكمية الأمطار الساقطة فى الحبشة ، لاستخدامها فى رى الدلتا وصعيد مصر والنوبة .

ومن الأمثلة البارزة التى تكشف عن أثر القوى الطبيعية فى ثقافة المناطق المتخلفة مشكلة عدم سقوط الأمطار فى شبه جزيرة سيناء ، الأمر الذى جعلنا عاجزين عن التقدم فى زراعة نوع معين من المحاصيل ، حيث تعرقل القوى الطبيعية ، تقدم الانسان ، فتخلفت الثقافة والحضارة فى هذه المناطق المجدبة .

وإذا كانت الزراعة تتأثر بالطرق الفيزيقية والجوية ، أكثر من التجارة أو الصناعة التى قد تتدخل فيهما عناصر استعمارية أو عسكرية وظروف دبلوماسية أو سياسية أو عوامل اقتصادية وظروف مالية ، وذلك لأن الزراعة كمهنة إنما تسير وفق نمط أو نظام روتينى محدد . لذلك لو حاولنا مثلا نقل مجموعات من السكان من نجع حمادى فى الوجه القبلى ، الذى يهتم بالقصب والبصل ، إلى منطقة كفر الشيخ فى الوجه البحرى ، لزراعة الأرز مثلا ، فسنضطر بالضرورة إلى تغيير النظم الثقافية لتكييف الزراعة الجديدة ، نظرا لاختلاف نوع الأرض والمحاصيل ، فتتغير أفكار الناس وطرقهم الزراعية .

وهذا أمر لا نجده مثلا ، حين ينتقل المحامى أو الطبيب من القاهرة إلى الاسكندرية فمهنته الأساسية لا تتغير ولا تتأثر بمكان أو محل العمل . وفى بعض الدول الزراعية نجد نوعاً من التخصص فى منطقة معينة كمنطقة لتربية دود القز ، ومنطقة أخرى لزراعة القطن ، ومنطقة لتربية المواشى والألبان .

وقد يحدث ما يؤدى إلى نقل هذه المناطق ، فلابد من الدراسة والتخطيط لاحداث نوع من التكييفات ، ونقل نوع من الخبرات التى تتناسب مع القوى الفيزيقية الجديدة ، ومدى ملاءمتها مع عملية النقل والتهجير . وقد تنشأ المشكلات العسيرة والمتعددة ، حين يتم النقل جبرياً ، كما حصل بالنسبة للاجئين العرب واقامتهم بعد طردهم من بلادهم ، وتشريدهم فى مناطق تتمايز تماما من الناحية الثقافية عن مناطق اقامتهم الأصلية ، وكان لابد على هيئة الأمم المتحدة ووكالة الغوث الدولية من أحداث نوع من التكييف بين اللاجئين من الناحية الاجتماعية والثقافية والحضارية وبخاصة فى مناطق اقامتهم الجديدة .

هذه هى بعض العوامل الفيزيقية والثقافية التى تلعب دورها فى التركيبات الحضرية أو القروية ، إلى جانب التركيز على البعد الايكولوجى كبعد جوهرى من أبعاد المجتمع الحضرى ، ولكننا نتساءل : كيف يمكن دراسة تركيب السكان فى المناطق القروية والحضرية ؟

وهل يمكن أعتبار الحجم Size من الأبعاد السوسيولوجية للمجتمع الحضرى؟ وما هو دور التكنولوجيا ووسائل النقل فى التركيبات الحضرية ؟ وما هى مكونات المركب الحضرى ؟ ومن كل هذه المسائل ، نستخلص عنوانا رئيسيا يجمع بين كل التفصيلات الجزئية المطلوبة ، حين نتساءل يقولنا :

كيف يمكن فهم أو تخطيط المركب الحضرى ؟

لقد ذهب « جديون سجوبرج Gideon Sjoberg » فى كتابه الذى أصدره تحت عنوان « المدينة قبل الصناعية The Pre-industrial city » إلى أن الحجم ليس هو المعيار الوحيد للتجمع الحضرى ، فهناك تجمعات أفريقية وهندية كبيرة ، بين الزنوج فى المجتمعات البدائية الحامية والنيلية ، وبين هنود البيوبلو فى الولايات

المتحدة الأمريكية ، ومع ذلك يندر أن نجد فى هذه التجمعات البشرية الكبرى والكثيفة ، تجمعا حضريا واحدا ، ويعتبر القليل منها رغم حجمه وكثافته من التركيبات أو التجمعات الحضرية .

البعد التكنولوجى وأثره فى النسق الحضرى :

وقد يكون للبعد التكنولوجى أثره الكبير فى تكوين النسق الحضرى ، فلقد ظهر للمدينة المعاصرة ، مع استخدام الكهرباء ، وتوفير الطرق والكبارى ، والاهتمام بوسائل النقل والمواصلات مع وجود الطاقة Energy للمحركات ، والتوسع فى تكنولوجيا آلات الاحتراق الداخلى ، على ما يذكر « فردريك كتريل Cattrell »[1] .

ولقد كان السبب فى تحرير الصناعة والتكنولوجيا ، من قيود المكان وقرب الموانى والأسواق ، وطرق النقل ، يتمثل فى سهولة نقل القوى والطاقات الكهربائية بواسطة تعدُّد المحطات والشبكات . وبفضل وسائل النقل القوية ، لم يعد العمال فى حاجة إلى السكنى قرب المصانع وأماكن العمل .

وبذلك توافرت الأيدى العاملة الرخيصة ، نظرا لسهولة الانتقال إلى مراكز الصناعة ، فظهرت المراكز والتجمعات الحضرية الجديدة ، وتزايدت الجماعات المتلاحمة Compact التى سكنت الضواحى الجديدة ، فتعقدت التكتلات والمركبات الحضرية ، وتركزت حول الأماكن المكتظة بالسكان ، حيث تحيط جميعها وتقع حول مرافق عامة ، مثل خدمات الغاز والنور والمياه والتليفونات .

ولقد ذهب « آموس هولى Amos Hawley[2] » أستاذ علم الاجتماع بجامعة ميتشجان ، على أن علم الاجتماع الديموجرافى إنما يعنى بتركيب السكان للأسباب الآتية :

١ ــ سهولة وتيسير وصف السكان ومقارنة السلالة ودراسة فئات السن Age-sets والجنس .

---

(1) Cattrell, Frederick., Energy & Society, Mc. Graw Hill New York. 1955.

(2) Hawley, Amos., Human Ecology., A Theory of Community Structure, 1950.

٢ ــ امكان تحديد معدلات المواليد والوفيات ، ودراسة كل ما يتعلق بالهجرة والزواج والجنسية ، مع تحليل القوى العاملة ، والموارد البشرية .

٣ ــ فهم وتحليل كل ما يتصل بدراسة التنظيم والحجم والبنيان الاجتماعى .

٤ ــ دراسة معدلات الخصوبة وتحليل التركيب النوعى للسكان .

ولقد ظهر أن المدن الحضرية والصناعية ، يقل فيها عدد الوفيات قبل الولادة ، بينما يقل تسجيل الاناث عنه فى حالة الذكور بحيث يزداد معدل الوفيات بين الذكور أكثر منه بين الأناث .

٥ ــ ثبت أن غالبية المجتمع القروى من الذكور ، كما تزداد معدلات الاناث على الذكور فى المجتمعات الحضرية . ويدل هذا الاختلاف فى « التركيب النوعى» بين المدينة والقرية ، وذلك بسبب النزيف المستمر من هجرة الشبان من الريف إلى الحضر .

الباب الرابع

متى ظهرت المدن والحواضر ؟

* ★ التفسير الوظيفى لنشأة المدن
* ★ التفسير الاحصائى الكمى لسكان المدن
* ★ التحليل التاريخى لظهور المدن والحواضر
* ★ البورجوازية وظهور المدن الصناعية
* ★ ثقافة المدن Culture of Cities
* ★ الثقافة وتخطيط المدن
* ★ السمات الحضرية وهندسة تخطيط المدن

تمهيــد :

المدينة هى أعظم حدث حضارى ، وأعقد نمط عمرانى شيدته عقلية الانسان ، ويمكن التعرف على المدينة من مظهرها الخارجى وشكلها الهندسى ، الذى يؤكد ثراءها التاريخى وتطورها الحضارى ، وتراثها القومى .

فالقاهرة مدينة تاريخية يمكن التعرف على آثارها العتيقة بدراسة مساجدها وقلاعها وحصونها ، بينما تتميز جلاسجو كمدينة صناعية ، بمداخنها ومؤسساتها الصناعية ، وارتباطاتها التجارية ومستودعاتها الهائلة ، وكثافتها السكانية العالية ، حيث تتركز فيها كل مظاهر الحياة الحضرية والتكديس العمرانى[1] .

ويعرف راتزل Ratzel المدينة ، على أنها بمثابة نتاج أو محصلة ذلك التفاعل الايكولوجى الصادر عن فعل الانسان وأثره العمرانى فى البيئة الطبيعية وتغييره الدائم الدائب لأنماط حياته ، الى الدرجة التى معها يتكلم جوردن تشيلد Gordon Childe عن الحضرية على أنها ثورة ، ويعالج التطور التاريخى من خلال قفزات أو انفجارات أو ثورات حضرية Urban Revolution .

ويرى برجس Burgess أن للمدينة مناشطها التجارية ومؤسساتها الصناعية ، فتتعدل بذلك وتتبدل النظم الحضرية وتتغير الوظائف القديمة للسكان والمرافق من أحياء شعبية وحارات عتيقة Slums كى تتطور الى أقسام وأجزاء حضرية ، ولذلك يصب ، الإيكولوجى سائر اهتماماته على المناطق المركزية وأقسامها وأنماطها وعلاقاتها الادارية .

ولقد التفت هارلند بارتولميو Harland Bartholomew الى أن النشاط التسويقى والرواج التجارى هو أبرز مظهر من المظاهر الحضرية[2] . ولقد ذهب لافيدان Lavidan الى أن المدينة هى المكان الذى يتمتع بالتقدم الادارى والعمرانى كما أنها

(1) Moore, W.E., The impact of industry., Printice - Hall. 1965.

(2) Gallion, (A.B) & Fisner., The urban Pattern., London. 1960.

مركز حضرى له مرافقه التى تتبع المجالس والمراكز البلدية Municipal ، ويرتبط بأقسام قضائية Juridique ، ولذلك كان للمدينة وظيفتها الادارية التى تضفى عليها طعماً حكومياً له طابعه السياسى .

وجملة القول ، فإن المدينة كما يقول إيجون برجل Egon Bergel ، هى مصطلح مجرد Abstract term ، وهى فى نهاية الأمر عبارة عن مجرد تجمع فيزيقى Physical Conglomeration يتألف من مجموعة من الشواهد الحضرية كالشوارع المنسقة ، والطرق المعبّدة والمنازل المشيدة ، ومراكز التجارة وأماكن العبادة .

والحضرية كطريقة للحياة Urbanism as a way of life هى التى تخلق لنا ما يسميه علماء الاجتماع « بالوسط الاجتماعى » Social Milieu . ومع النظام الحضرى تتبدل الأنساق القديمة وتتغير ، وتتحطم النظم الاجتماعية السابقة التى تحل محلها النظم البديلة ، وتختفى العلاقات القبلية والعشائرية وتضعف الروابط التى كانت تربط بين الفرد والعائلة .

وهناك عدد من التفاسير يتصدى لمشكلة نشأة المدن ومتى ظهرت الحواضر ؟، ومن أهمها التفسير الوظيفى Functional ، وهو تفسير « بنائى » يهتم بالعلية أو السببية بربطها بوظيفة المدن أو علة وجودها . والى جانب النزعة الوظيفية فى التفسير ، هناك الموقف الاحصائى Statistical وتفسيره للحضرية من زاوية الدراسة الكمية quantitative والنوعية qualitative لحجم وتركيب السكان وتكميم الظاهرات الحضرية .

وسنشير أيضا الى أهمية « التحليل التاريخى » لتتبع ظهور المدن والحواضر وكيف كانت البورجوازية هى السبب التاريخى المباشر فى نشأة المدن الصناعية .

التفسير الوظيفى لنشأة المدن :

اذا كانت « وظيفة النظام » هى علّة وجود Raison d'Etre على ما يقول أصحاب النزعة الوظيفية Functionalism من أمثال اميل دوركايم فى

« فرنسا » و راد كليف براون فى « بريطانيا » وتالكوت بارسونز فى « أمريكا » فان « وظيفة المدينة » هى « العلة » أو السبب الجوهرى الذى من أجله ظهرت المدن وصدرت الحواضر الى الوجود ، بأعتبارها بدأت كمجموعة من السمات الاولية لتجمعات سكانية مستقرة حول مشروع اقتصادى أو صناعى ويطلق عليها « تجمعات حضرية » وجدت ونشأت لتأدية وظائف بعينها .

ولا شك أن هناك أسباب أو وظائف لوجود أو نشأة المدن ، منها ما هو عسكرى أو حربى ، ومنها ما هو اقتصادى أو صناعى أو تعدينى ، ومنها ما هو ثقافى أو سياحى أو ترويحى وترفيهى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن وظيفة الدفاع العسكرى مثلا ، هى المبرر الحقيقى لوجود القلاع والحصون ، وبناء الأسوار وحفر الخنادق للحماية من الغزو ، بمعنى أن الوظيفة الحقيقية للسمات الحضرية الاولى ، كانت وظيفة دفاعية وعسكرية تتصل بتحقيق عنصر الامن والامان ، لحماية الاستقرار فى سائر التجمعات الحضرية .

التفسير الاحصائى الكمى لسكان المدن[1] :

ترتبط دراسة سكان الحضر والحواضر ارتباطا وثيقا بالدراسة الكمية quantitative وتدور كلها حول تكميم حجم السكان . كما ترتبط دراسة سكان الحضر أيضا بالدراسة النوعية qualitative تلك التى تدور وتتصل بتركيب السكان وتقسيم الناس الى فئات للسن Age-Sets وفئات للجنس ، والدور الاقتصادى والانتاجى لكل منها ، وخاصة ما يتعلق بالفئات المنتجة والفئات

(١) الدراسة الكمية هى دراسة خاصة بتحديد تعداد السكان فى المناطق الحضرية وغير الحضرية ، ورسم المؤشرات التى تكشف عن معدلات الزيادة أو النقصان فى حجم السكان . إما عن طريق تكميم المواليد والهجرة وهذا هو ما يعنى به علماء السكان والاجتماع الريفى والثقافى والديموجرافى ، كما وينشغل به أيضا علماء الاقتصاد والادارة والتخطيط ، ولا يستغنى عنه المشرع التربوى ، ورجل السياسة والديبلوماسية ، كما يمكننا عن طريق المنهج الاحصائى المقارن ، أن نعرف « التغير النسبى » ، أو نسبة التغير المئوية فى حجم السكان ، وأثر الزيادة الطبيعية فى عمليات الانتاج والاستهلاك .

المعولة . أما الدراسة الكمية والاحصائية ، فتتناول معدلات الزيادة والنقصان فى تعداد السكان وتحديد معدلات الزيادة الطبيعية ، بالاضافة الى تكميم المواليد والوفيات وتقدير أو تحديد معدلات الخصوبة ، وتمايزها النسبى بين الريف والحضر . أما الدراسة النوعية[١] فتتصل بنوع الناس وتحديد القوى العاملة فى الريف والحضر ، مع دراسة أسباب تضاعف الزيادة الهائلة فى تعداد النّاس . مع ابراز مشكلات الانفجار السكانى[٢] . وبخاصة فى المجتمعات النامية وشبه النامية ، وكيف تكون « مشكلة الجوع » هى المشكلة الاساسية فى تلك المجتمعات ، وكيفية تطويرها وتنميتها لتوصيل وتقديم الطعام الى كل فم .

ولقد ذهب تومبسون ودافيد لويس David Lewis الى أن التعريف القديم لسكان الريف والحضر ، قد كان تعريفا احصائيا وعدديا ، وبخاصة بالنسبة لتعداد عام ١٩١٠ الذى نظرا الى المكان الحضرى ، على أنه المكان الذى يضم ويجمع فى اطاره ٢٥٠٠ نسمة أو أكثر . أما المكان القروى فهو الذى يتبقى بعد حصر أهل الحواضر والمدن[٣] .

---

(١) الدراسة النوعية هى دراسة كيفية تتصل بتحديد مدى قابلية الناس للقياس Measurement مثل دراسة نسبة الذكور الى الاناث ومعدلات الوفيات والمواليد وهذا ما يقصد به الاصطلاح السوسيولوجى الخاص بتركيب السكان . ولا شك أن التركيب الحضرى للجماعات ذات السمات الحضرية ، هى كما قلنا ، انما تتمايز عن سمات التركيب القروى فى المجمعات الريفية ، كما وتتمايز أيضا بين الثقافات الرعوية Pastoral والصحراوية ، وجماعات الصيد والصيادين .

(٢) ظهرت مشكلة تزايد السكان ، حين كانت الثورة الصناعية تشق طريقها فى انجلترا ، فكتب مالتوس Malthus مقاله الشهير ، حين كشف عن خطورة الزيادة الرهيبة فى أعداد الناس بمتوالية هندسية [٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢] ، بينما تظل وسائل العيش واستهلاك الطعام تتزايد بمتوالية حسابية طفيفة ، [١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥] .

ولقد كتب مالتوس هذا المقال عام ١٧٩٨ ، فى الرد على جودوين Godwin وكوندورسيه Condorcet ، فأعلن قانون مالتوس الطبيعى أن أعداد بنى الانسان ، انما تزيد بسرعات أكثر من سرعة غذائه ، وتكون النتيجة الحتمية هى الجوع ونقص الغذاء والوقوع فى البؤس والفقر وذل الحاجة . والحل هو استمرار قهر الانسان للطبيعة ، والعمل على زيادة غلة الفدان ووفرة المحصول الزراعى ، فعلينا العمل الدائب والجهد الدائم من أجل زيادة الانتاج ، لمواجهة المجاعات Famines ومقاومة الزيادة البشرية الهائلة .

(3) Thompson, Warren., David Lewis., Population Problems., Mc. Graw Hill, New York. 1985.

ولقد كان هذا التعريف مناسبا وبسيطا ، ويسهل تطبيقه ،وقت صدور التعداد القديم ، حيث كان الرقم (٢٥٠٠) نسمه هو أدنى حد للاقامة الحضرية وقتها ثم ظهر مفهوم آخر ، يميز بين الريف والحضر ، بعد أن أصبح التعريف القديم أقل اتفاقاً مع الواقع ، فخالف الحقيقة ، فتخلف ذلك المفهوم الذى ظل مناسبا وسائدا ، حيث تغير التصور العددى أو الأحصائى بمعناه الحضرى القديم نظرا لتدفق الحضريون بأعداد متزايدة ، خارج حدود المدن ، بعد انتقالهم الى الضواحى . فيرى دونالد بوج Donald Bogue[1] ان استخدام التعريف القديم ، سوف ينجم عن تطبيقه اندماج قسم كبير من سكان الضواحى وادراجهم فى عداد أهل الريف ، على الرغم من كونهم من الحضريين .

وبذلك يقلل التعريف القديم من معدلات النمو الحضرى ، ويدخل الحضريون مع أبناء الريف فى كردون واحد ، حيث يقل تعداد الحضريين فى الضواحى عن ٢٥٠٠ نسمة .

وانتهى بذلك مفهوم المدينة الاحصائى أو العددى وحدودها السياسية لكى يظهر مفهوم المنطقة المتحضرة أو الحضرية Urbanized حيث بدأ النمط الجديد يظهر فى المناطق والتجمعات المكتظة ، ومع بداية ظهور هذا النمط الجديد بدأ الغزو الحضرى ، فدخلت الحضرية وانتقلت وشاعت الى الاراضى القائمة فيما وراء المدينة وضواحيها .

التحليل التاريخى لظهور المدن والحواضر[٢] :

لقد كانت « أثينا » و « إسبرطة » ، من أقدم المدن أو الدول فى العالم القديم ، فظهرت « الدول المدن » ، ودولة المدينة City-state هى وحدة عسكرية وادارية ، تستند الى حركة التجارة والنقل والمواصلات .

ومع أنتشار وذيوع مبادىء التنوير enlightenment تعالت الصيحات التى

---

(1) Bogue, Donald., The Population of the United States, The Free Press of Glencoe, New York 1959.

(٢) يذهب التارخيون إلى أن لكل مدينة شخصيتها الفريدة المستمدة من طابعها الحضارى الناجم عن أصولها ومصادرها التاريخية .

تعلن ضرورة التحديث ، وقيام فكرة الدولة الحديثة ، فظهرت عواصم الاقاليم ، ومراكز الحكومات ، كما صدرت الدوقيات والابعديات والاسقفيات ، وهي مراكز الاسقف Diocese ، وهو الذى يشرف على عدد من الابرشيات . ومنها انتشرت السمات الحضرية وسادت حولها ، وتكونت بيئاتها .ومركباتها وتحققت البدايات الاولى لوحداتها فى مدن صغرى تطورت بالتنمية والتحديث الى مدن كبرى ، وعواصم عليا Super-Capitals ، متحولة أصلا من أحياء راقية كانت تعيش فى توائم Symbiosis تربط فيما بينها شبكة سهلة من أدوات النقل والشحن والاتصال كما وتغرق فى خدمات عالية ، حيث تتوافر مرافق الكهرباء والمياه والتليفون .

البورجوازية وظهور المدن الصناعية :

والبورجوازية Bourgeoisie مقولة أساسية من مقولات الاقتصاد الماكسى وتطلق هذه الكلمة فى الاصطلاح اللغوى على الطبقة المتوسطة من سكان الحواضر حيث أن « البورجوازى Bourgeois » هو الشخص المتيسر الذى يقطن المدينة ، منذ أن ظهر فى العصور الوسطى أولئك الصناع Artisans والتجار من ذوى اليسار ، فانتسبوا الى تلك الطبقة التى تسمى « بورجوازية » نسبة الى « القرى » و « الكفور » أو « المراكز Bourgs » ، والمركز هو « البندر » أو « الكفر الكبير » ، الذى يقترب فى حجمه الى حد ما من « المدينة » .

ولقد نشأت هذه « البنادر » أو « المدن الصغيرة » ، فى أول أمرها ، حول القصور الإقطاعية المحصنة ، كما نشأت أيضا « الكفور الكبيرة » ، حول « الاديرة Abbayes » التى تتمركز وسط اقطاعيات كبار رجال الدين والكهنة والرهبان[1] .

وهناك بعض الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التى أدت الى ظهور البورجوازية بأعتبارها طبقة ناشئة تقوم على تنمية الثروة بمواهبها ، وفقا لروح تقدمية وفردية تصل بالانتاج فى نهاية الامر ، الى درجة الاستغلال المادى كما يتمثل فى صورة مزعجة ومخيفة . والسبب الاول فى ظهور « البورجوازية » كطبقة لها مصالحها ،

---

(١) الاستاذ الدكتور محمد ثابت الفندى « الطبقات الاجتماعية » ـــ دار الفكر العربى ١٩٤٩ ص ٥٤ .

هو اندلاع الثورة الصناعية فى انجلترا ، الامر الذى أتاح الفرصة« للطبقة البورجوازية للتسلط على الأشياء المادية » و « التحكم فى الطبيعة » لتغييرها أو لتحويلها بالعمل الانسانى أو بالصناعة لصالح الجنس البشرى .

وكان من نتائج اندلاع الثورة الصناعية ان نشأت المدن وظهرت المجتمعات شبه الحضرية حول « المصانع » و « المؤسسات » وكانت البورجوازية فى الاصل ، هى الطبقة التى عمرت تلك المدن الصغيرة ، التى قامت حول قصور واقطاعيات النبلاء ورجال الدين بمعنى أن « المدينة » قد تحولت وانتقلت من مراكز الاقطاع الى مراكز الصناعة .

ظهور المدن :

لقد إنشغل الاقتصاديون والاجتماعيون بتحديد ملامح العمران الحضرى ، فذكر « باتريك جيدس Geddes » أن العناصر الحيوية والطبيعية هى أهم الملامح الحضرية ، والتفت الى الصناعة على أنها القوة المادية الأولى التى يستند اليها المكان الحضرى ، وأن التكنولوجيا هى العنصر الضرورى والجوهرى لقيام المدن الحديثة ، وأن التغير هو السمة المميزة لكل شكل حضرى أو نموذج ثقافى . فلكل مدينة نمط خاص بمراحل التطور التاريخى ، ولها إتجاهاتها الهندسية المنظمة لخطوطها وميادينها التى تتحكم فى شرايين التركز الحضرى ، وحدائقها التى تبرز معالمها وسماتها ، وتخطيط ضواحيها .

تحديد خصائصها وتوزيع مناشطها :

ويذهب « مارك جيفرسون » إلى إبراز دور الكثافة البشرية وأهمية الحجم ، فالعاصمة هى اكبر الحواضر فى العمران البشرى ، والحجم هو المعيار الجوهرى لتحديد كل ما هو حضرى . ولكن لقد ثبت أن قاعدة الحجم ليست بالقاعدة العامة ، فواشنطون أصغر بكثير من نيويورك ، على الرغم من أن الأولى هى عاصمة الولايات المتحدةلا الأمريكية بأسرها[1] .

ولم ينظر « زيبف Zipf » الى الحجم بقدر ما التفت إلى نمط السلوك الانسانى

(1) Gibbs, Jack., Urban Research Methods., Princeton - 1967.

كمعيار أو محل لكل الخصائص الحضرية . بينا نظر « آرثر سميلز Arthur Smailes » إلى التسلسل الحضرى Urban hierarchy ومدى إتصاله بكيفية إشباع حاجات الانسان الفيزيقية الضرورية والكمالية ، كالوان الأطعمة ، والملابس الفاخرة ، والمجوهرات الثمينة ، والرياش النفيسة ، وتعدد المدارس والمعاهد العليا والجامعات .

أما « روبرت بارك Park » فقد أدلى فى هذا الصدد بدلوه ، واكد على أن « التفاعل الاجتماعى » هو جوهر كل جماعة من « الجماعات الحضرية Urban Community » ، فهناك روابط متعددة وعلاقات متشابكة بين سائر تجمعات البشر ، تلك التى يكون لها تأثيرها الإيكولوجى فى استغلال الطبيعة ، بفضل وجود فائض حضارى أو إضافة ثقافية لتغيير الأنماط التقليدية وتحضيرها وتنميتها .

ولقد شايع « لويس ممفورد Mumford » نظرة أستاذه « جيدس Geddes » ، بصدد تتابع التطور التاريخى للمدن ، ومراحل نموها التكنولوجى . فأنقسمت الظواهر الحضرية عند « ممفورد » إلى قسمين تاريخيين :

(أ) مدن عتيقة .

(ب) مدن حديثه .

وأكد على أن هناك استعدادات للتغيير من ثقافة العصور الوسطى ، والانطلاق بها إلى إستنارة enlightenment عصر النهضة ، ثم وقوعها بدخولها عصر التكنولوجيا فى محنة الصناعة ووطأة المادة ، فتخلفت الثقافة وركعت أمام الغزو الصناعى والتقدم المادى فظهرت الثغرات الثقافية Cultural gaps .

ولا شك أن هناك أوجه شبه كثيرة بين مراحل النمو الحضرى عند ممفورد ، تلك التى بدأت بظهور مرحلة الميجابوليس Megapolis ، ومع التطور النامى ، صدرت مرحلة الميجالوبوليس Megalopolis ، فهى مرحلة النيكروبوليس Necropolis . ومن أمراض المجتمع الحضرى إنتشار اللامبالاة والسطحية Superficial ، وانعدام الشخصية ، ولقد نجمت هذه الأمراض عن طبيعة التعقد الصناعى ، والتعدد المهنى ، وما ينجم عن كل ذلك من تنوع التخصص فى ثقافة طغت عليها التكنولوجيا وغشت عليها المادة ، فتخلفت وتعثرت .

وحين ظهرت « المدن » ونشأت حول المصانع ، ارتفعت الاجور ، وأصبحت « المدينة » مركزا من مراكز « الجذب » للاعداد الهائلة من القرويين الذين يندفعون نحوها ، هربا من ظلم الاقطاع . فبدأت الهجرة من القرية الى المدينة وترك الفلاح العمل الزراعى ، وظهرت « طبقة البروليتاريا الصناعية » .

والى جانب انتشار حركة « التصنيع » التى أدت الى طرد الفلاح من القرية واندفاعه نحو المدينة ، هناك بعض الاسباب الاخرى التى أدت الى ظهور « البورجوازية » ، ومنها تراكم رأس المال فى « المدينة » وقيام المشروعات الصناعية والتجارية ، الأمر الذى أدى الى تركيز « البورجوازية » ووقوفها على أقدامها كطبقة تقدمية نامية .

وحين اصطدم « البورجوازيون » من رجال الصناعة ، بمصالح الاقطاع كما تتمثل فى الطبقات الارستقراطية من النبلاء والامراء ، وكما تتمثل أيضا فى طبقة الكهنوت من رهبان الكنيسة ، عجلت البورجوازية بظهور عصر « التنوير Enlightenment » الذى هو « عصر العقل » فأثار البورجوازيون أفكار الحرية ، ونادوا بالديمقراطية وشجعوا طبقة العمال على الوقوف ضد تحالف الرجعية المتمثل فى سلطان الملوك والاقطاع الدينى .

واستنادا الى هذا الفهم — لقد ظهرت البورجوازية على أكتاف البروليتاريا وعلى حساب جماهير العمال ، تلك البروليتاريا الصناعية التى كانت فى ذاتها بروليتاريا عصور الاقطاع حيث كان للاقطاع « بروليتاريا » وتلك هى بروليتاريا الرق serfdom، التى استعبدها الاقطاعى ، فهرب « عبيد الارض » من أراضى الاقطاع الى مصانع البورجوازية ، ولذلك كان الاقطاع يحتوى على كل جراثيم البورجوازية . وبينما تنمو البورجوازية ، فان « بروليتاريا جديدة A new proletariat » تنمو فى جوفها ، وهى بروليتاريا العمال الحديثة ، ومن هنا ينشأ الصراع بين طبقة البروليتاريا ، وطبقة البورجوازية .

العلم والتكنولوجيا :

لا شك أن ظهور العلم الحديث بمكتشفاته فى ميادين الطبيعة والميكانيكا قد أدى الى تقدم البحث التكنولوجى والاهتمام بالظاهرة الصناعية ، مما شجع الطبقة البورجوازية المتسلحة بالعلم والتكنولوجيا ، على تأكيد ذاتها ضد طغيان الكنيسة ، وقطاع ارستقراطية النبالة . الامر الذى جعل « سان سيمون Saint Simon » ، يعلن نهاية طبقة النبالة ، ويؤكد على حتمية التطور ، حين ينتقل المجتمع من نظام « حكم الانسان Gouvernement des Personnes » الى نظام السيادة أو التسلط على الاشياء L'administration des choses .

وكان من نتائج التصنيع Industrialization ، أن ظهرت البطالة لازدياد عرض العمال على طلبهم ، فأنخفض الوضع المادى للعمال ، ووقعت البروليتاريا الصناعية بين أنياب البورجوازية ، حيث ظهرت بعض القيم الاخلاقية الجديدة وأصبح شعار البورجوازية هو « مصلحتى أولا وليكن بعدى الطوفان » أو ما تعبر عنه البورجوازية الفرنسية بعبارة Lss affaires sont les affaires وبذلك تطورت أخلاق الاقطاع التى هى أخلاق اللاهوت ، وأنتقلت الى أخلاق المنفعة ، وتحولت التصورية القديمة « للبورجوازى الطيب » ، الى التصورية المعاصرة للبرجوازى الجشع .

النزعة النفعية :

وظهرت « النزعة النفعية Utilitarianism » واضحة عند الفلاسفة البورجوازيين ، وعلى رأسهم « جون ستيوارت ميل John Stuart Mill » حيث تقاس الغاية الاخلاقية لدى هؤلاء الفلاسفة ، بمقدار الطمأنينة المادية التى تتحقق عند أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع[1] . وعلى هذا الاساس أدت الفلسفة النفعية خدمة جليلة للبورجوازية ، كما أدت من قبل « فلسفة اللذة » خدمة جليلة للفكر الاقطاعى ولطبقة النبالة Noblesse ، وبخاصة عندما صدرت فلسفات الاخلاق عند « ارستيب Aristipe » وسائر فلاسفة اللذة فى المدرسة القورينائية .

---

(1) Mill., John., Stuart., utilitarianism, The Fontana Libray Collins Second Impression, 1964.

وللأسف الشديد ، لقد عبر الفكر الاخلاقى اليونانى ، عن ايديولجية الاقطاع القديم الصادرة عن روح العصر الارستقراطى اليونانى ، وتحيزت الفلسفة لعقلية الاقطاع الرجعى حين وضعت مصلحة الفكر الارستقراطى ، التى تعبر عن مصلحة « الاقوى » أو « مصلحة الصفوة Elite » فوق المصلحة العامة ، التى هى مصلحة الرعاع على حد تعبير افلاطون . على اعتبار أن « العامة » أو « العبيد » انما يقومون بوظائف « العمل اليدوى » الذى أحتقره أشراف اليونان وفلاسفتهم .

فالعبد عندهم يقوم بالوظائف الدنيا ، اذ أنه « آلة بيولوجية » ، وهذه نظرة « لا انسانية » ووصمة عار فى جبين الفكر اليونانى . وهذه هى نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها فلسفات « أرسطو » و « أفلاطون » ، على الرغم من عظمة الفكر اليونانى واشراقه واثره فى حضارة الانسان ، وفكره ومثله العليا ، الا أن هذين الفيلسوفين رغم كونهما من أساطين الفكر الانسانى على العموم الا أنهما للاسف الشديد ينظران الى العبد « نظرة لا انسانية » على أنه « آلة متكلمة » وهما فى ذلك انما يعبران عن روح العصر الارستقراطى اليونانى خير تعبير .

فاللذة عند فلاسفة اليونان ليست الا للطبقة الارستقراطية التى تسعد بالنعيم أما « التقشف والحرمان » فللطبقات البروليتاريا من « عبيد الارض » أو « القطيع » على حد تعبير الفيلسوف الارستقراطى الالمانى « نيتشة Nietzsche »[1] .

ولقد رفضت البورجوازية « مبدأ اللذة » ، وجعلت من المنفعة مقولة اقتصادية ، وتلك هى مقولة الرفاهية والترف Luxury وتمسكت الاخلاق البورجوازية بقيم « الربح » و « الانتاج » و « المنفعة » ، وكلها قيم مادية تدور حول مكاسب ووظائف رأس المال ، وما ينجم عن هذه المكاسب من « فائدة » بالمعنى الاقتصادى ، وما ينشأ من رؤوس الاموال من « فائض » أو « عائد » .

(1) Martindale, Don, The Nature and Type of Sociological Theory, Routledge and Kegan Paul, London 1961 p. 101.

ولقد تعددت أشكال البورجوازية ، خلال تاريخ تطورها ، حين ظهرت أولا كطبقة نامية ، ثم اتخذت بعد ذلك موقفاً رجعياً ، اذ تخلت عن مبادئها الانسانية حين تتكلم باسم « التنوير » الا أنها تراجعت وتقهقرت وتحجرت فى قوالب لاهوتية قديمة .

وقد تظهر « البورجوازية المعاصرة » فى شكل « استعمار » أو قد تأخذ صورة « احتكار Monopoly » وقد تنزع منزعا « عنصريا Racism » ، كما هو الحال الراهن الآن ، بالنسبة لامريكا وروسيا ، وفى مجتمعات « البيض » و « السود » فى جنوب افريقية تلك التى تحكمها مجموعة من حكومات الاقلية العنصرية البيضاء ، حيث تحدث من حين لآخر سائر الاصطدامات والصراعات بين « البورجوازى الابيض » من جهة ، « البروليتارى الاسود » من جهة أخرى .

ومن هنا يتضح لنا ، أن البورجوازية ، بعد أن كانت فى مبدأ أمرها « انسانية النزعة » ، وجدناها فى أشكالها المتطورة الحالية ، تتسم بالاسلوب « اللا انسانى » وبالنزعة النفعية ذات السمة الانانية الجشعة ، اذ تطورت البورجوازية أخيرا الى « طبقة عنصرية » تحارب الانسان الكادح ، كما أضحت طبقة مادية ، تبحث عن مختلف الاسواق التجارية لتسويق منتجاتها ، فأتخذت « الاسلوب الامبريالى Imperialism حين أنتهجت سياسة التوسع الاستعمارى وبذلك تحولت البورجوازية من نزعة « ليبرالية Liberalism » أثناء التنوير الفرنسى ، الى نزعة « امبريالية » تهدف الى الفتح والاستعمار Colonization .

ولقد حدثنا « دهرندورف Ralf Daherondorf » عن مجتمعات ما بعد « الرأسمالية » حيث تنبأ بصددها بالعزلة السياسية ، وبقلة الصراعات Conflicts التى ستتخذ طابعا نظاميا ، فتخفف من حدة المصالح الطبقية ووطأة العداوات وتقلل من المسافات القائمة بين الطبقات .

فتبدأ بذلك بين طبقات العمال ، نهاية الايديولوجيا القديمة ، بعد صب الوعى الطبقى العمالى ، وامتصاصه فى المجتمعات الرأسمالية ، داخل اطار أحزاب رئيسية تمثل الطبقة العاملة ومصالحها وتعبر عن أهدافها وآمالها وأحلامها .

ولما كان ذلك كذلك ، فلقد أصبح وجود أحزاب كبرى للطبقة العاملة فى المجتمعات الرأسمالية والثقافات الصناعية ، أمراً ضرورياً ومألوفاً . الامر الذى تحاول بسببه طبقة العمال « التبرجز » أى بالتحرك نحو البورجوازية والتشبه بأنماط سلوكها الثقاف ، والتمتع بكل ما تتمتع به الطبقات المتوسطة فى مجتمعات أوربا .

وهذا هو السبب الذى من أجله ، أدت طبقات العمال فى الرأسمالية الصناعية الحديثة ، إلى ظهور انجازات المجتمعات الصناعية ، وتطور العلم والتكنولوجيا ، وارتفاع مستوى المعيشة والاجور بالنظر الى ضرورة التمسك بالقانون وقنواته الديمقراطية ، بعد أن خفت حدته ، وازدادت الاهتمامات بمقاومة الجريمة التى تفشت أثناء النمو الصناعى والتجمع الحضرى ، حين يصاحب كل منها سائر التغيرات التى تطرأ على البناء الاجتماعى الصناعى ، من تفكك وانحلال من ناحية ، وتكامل وانضباط من ناحية أخرى .

ولقد ظهرت المدنية كنتيجة حتمية للتطور التاريخى والحضارى الذى صاحب بدوره نموا مستمرا فى عمليات الاندماج البشرى للتجمعات الحضرية فى سائر المجتمعات الصناعية التى ظهرت معها معالم المدنية الحديثة .

ولكن ماذا يقصد بالمدنية Civilization ؟

المدنية فى اصطلاح علماء الاجتماع الحضرى ، هى درجة متقدمة من الثقافة Culture ، تكون فيها العلوم متطورة الى حد ملموس ، كما ترتفع فيها درجات الفن وتترقى مظاهر الحياة السياسية والديبلوماسية .

ويرى « جوردون تشايلد Gordon Childe » أن الخاصية الاساسية التى ينبغى أن تتوافر فى « المدينة » كمجموعة من « سمات الثقافة المتقدمة » هى وجود الاندماج Amalgamation[1] ، والتكيف بين مختلف الطبقات الاجتماعية ،

---

(١) اذا كان السود فى أمريكا يطالبون بالتكيف والاندماج مع البيض ، بينما يحب اليهودى العزلة ويكره الالفة ويرفض الاندماج ، فالزنجى بهذا المعنى أكثر قابلية للتمدين والتحضر من اليهودى الذى ينفر من التكيف ، ويحب المعيشة فى عزلة بعيدا عن سائر البشر من غير اليهود .

وهناك خصائص أخرى للمدنية بالمعنى الحضرى ، وأهمها وجود التخصص المهنى ، ووفرة المدن الكبرى وبأعداد بشرية هائلة من سكان الحواضر مع نمو الرياضيات والالكترونيات مع تقدم التكنولوجيا وأدوات التصوير والكتابة بأستخدام الطباعة المتطورة .

ويميز علم الحضارة Culturology السمات الجوهرية للمجتمع الحضرى بوجود وانتشار الميكنة Automation بمدى وتقدم التكنولوجيا الحديثة هكذا يقول علماء الحضارة ، كما ويفرقون بين الاكتشاف Discovery والاختراع Invention . حيث أن الاكتشاف هو اضافة جديدة للمعرفة على ما يقول رائد الانثرووجيا الحضارية المعاصرة « رالف لنتون »[1] . اما الاختراع فهو استعمال جديد للمعرفة .

وقد يكون الاكتشاف عرضيا دون قصد ، مثل أكتشاف نيوتين لقانون الجاذبية ، أو أكتشاف « كريستوفركولومبوس » لامريكا ، أما الاختراع فهو اكتشاف مقصود بل ومرغوب فيه ، فالحاجة أم الاختراع .

ويرى « رولاند دكسون Roland Dixon »[2] ، أن هناك ثلاثة شروط للاكتشاف ، هى الفرصة المواتية التى تمكن من الوصول الى الاكتشاف ، مثل سقوط تفاحة فبوتن . فهى أعظم صورة للفرصة المواتية . أما الشرط الثانى من شروط الاكتشاف هو الملاحظة والتمحيص ، ثم نتوصل فى النهاية الى الشرط الاخير ، وهو « التقدير والتفسير والتصور » ويقول « دكسون » ملخصا شروط الاختراع هى الفرصة والحاجة والعبقرية .

ولقد ذهب موريس هالبفاكس Halbwachs الى أن الصناعة الواسعة La grande industrie . هى بؤرة المدن الكبرى التى تتركز فيها مختلف الفئات المتعددة من أصحاب المهن والحرف ، كما يتجلى النشاط البشرى فى تعدد الاسواق ، حيث تتدفق على المدينة جموع التجار من سائر الاقطار ، وتنشط حركة البيع والشراء[3] .

---

(1) Linton, Ralph., The Cultural Background of Personality, 1947.

(2) Dixon, Roland., The Building of Culture, 1982.

(3) Halbwachs, Maurice., La Morphologie So[illegible] Collect. Armand Colin, Paris. 1946.

ويترتب على هذا التقدم الحضرى ، وتطور وتحديث مرافق المدينة ، الى ظهور عملية تفاضل Differentiation فى التقسيم الادارى للمدينة حيث تتفاضل المدن وتتمايز شكلًا وموضوعاً ، فتظهر المدن الريفية ، والمدن المحلية ، والمدن الاقليمية ، وتربطها أو تحكمها هيراركية ادارية تتألف من ثلاث مراتب أو درجات ثقافية . والنمو الطبيعى هو أساس التوطن الحضرى لاسباب متشابكة ، تجمع بين أنشطة اقتصادية وسياحية وفندقية ، فتظهر العواصم الاصيلة الكبرى ذات التاريخ البعيد والحضارة الراسخة ، على العكس تماما من العواصم الاصطناعية Capitales Artificielles وهى مدن بلا تاريخ أو سمات حضرية ، وحواضر دون أصل أو حضارة ، مثل واشنطن وهى عاصمة الولايات المتحدة الامريكية وقد ظهرت فجأة ودون مقدمات وتسمى Fiat-Capitales ، وهى المدن التى صدرت بلا جذور أو أصول تاريخية فنشأت بالامر أو بقرار ادارى أو سياسى دون سند من تاريخ أو صناعة أو حتى سيادة اقتصادية .

وبفضل التجارة والتبادل التجارى ، تظهر المدن التجارية وتشتهر ، ويقوم التبادل التجارى على أساس فائض السلع ومدى حاجة الدولة اليها ، وكلما ازدادت سهولة النقل وسيولة المواصلات ، ومرور الشاحنات عبر الطرق البرية وحركة السفن فى النقل البحرى والنهرى ، كلما ازدادت حركة التجارة والنقل وانتشرت مراكز التجمع والشحن والتفريغ .

ولقد كانت « البندقية » من أشهر المدن التجارية فى العصور الوسطى ، حيث ربطت التجارة بين المدن بعضها بعضاً برباط اقتصادى نفعى وثيق . وبفضل التجارة تقدمت الحضارة وبفضل تعبيد الطرق ، وسيولة النقل ، تظهر وتتطور من التجارة ، حيث أن النقل كما يقال هو أصل الحضارة ، وعصب التجارة ، فظهرت مدن الاسواق Market towns وبخاصة فى البنادر Bourgs الرئيسية التى سيطرت على حركة النقل والشحن والتجارة ، مما يخلق فى القطاع البرى ما يسمى بمدن القوافل Caravan Cities .

وتكتسب المدن « ميزة طبقية » ، حيث ظهرت مع دخول « الصناعة الواسعة » وانبثقت مختلف « الطبقات الاجتماعية Social Classes » الصادرة أصلا عن بناء اجتماعى صناعى ، حافل بأشكال معقدة للعلاقات الاجتماعية

والتصورات الجمعية والطبقية ،وتضفى الطبقات الاقتصادية فى كل مدينة وفى كل حى رغم تباعدها طابعا مميزا ، حيث تضع تلك الطبقات بصماتها ، وتترك بعض السمات الثقافية فى سائر الاماكن الفقيرة والاحياء العتيقة . وهذا هو السبب الذى من أجله لا يعرف « أبناء الذوات » كيف تعيش الطبقات الكادحة ، الأمر الذى يجعلنا نقرر على الاقل أن « للطبقات العليا والسفلى ميلا خاصا الى الانعزال أو الانغلاق » ، والانفصال عن بعضها البعض ، فتعيش كل طبقة منها فى عزلة مكانية واجتماعية ، ولكل طبقة أذواقها وعاداتها وحاجاتها ، تلك التى تميل الى التماثل والتشابه فى نفس المستوى الذى يتمايز كلية من طبقة الى أخرى ، فتضفى هذه الطبقات على المكان الحضرى طابعاً خاصاً ، وبفضل عملية الاستقطاب والتنمية الحضرية تكتسب الأماكن والأحياء والمدن الكثير من الخصائص عن طريق التصنيع والتهميش Marginalization والتحضير Acculturation فترتدى المدن الجديدة عن طريق النقل والاستعارة وتلبس الاحياء والاماكن ثوبا ثقافياً حضرياً رفيعاً ، ومع تعدد « المسارح والمسرحيات ، ودور الاوبرا ، وأنتشار صناعة الازياء والملابس الجاهزة ، أصبحت العواصم الكبرى ، كما يقول « دبرونت هوتيلزى Whittlesey » هى « لعبة الحكومة » حيث تؤمن « النظرية الرأسمالية بالمركزية المتطرفة »، التى تتضخم معها العاصمة تضخماً بارزاً ، وتتحول الى مراكز كبرى للصناعة أو الثقافة ، الامر الذى خلق قبل الحرب العالمية الثانية ما يسمى بأرستقراطية المدن ، بين « روما » و « لندن » و « برلين » و « باريس » و « طوكيو » ، كما ظهرت فى ربوع سويسرا وفرنسا ، ومدن العطلات « ومدن الترف Villes de Luxe » وهى مدن ترفيهية وسياحية ، تنتشر فيها المواصلات الحديثة ، وتربط بين جبالها الخضراء خطوط التلفريك Téléferique .

والى جانب كل هذه الاشكال من المدن التجارية والسياحية ، ظهرت على الشواطىء والسواحل ، مدن وموانى الملاحة البحرية القريبة ، والملاحة عبر المحيط وفيما وراء البحار Deep Sea ، حين كانت التجارة البحرية منذ البدء تجوب البحار ، وتسعى وراء المحيطات فتنتقل التجارة فى البحر بين الشواطىء ، لكى تقوم بعملية التسويق بينما تجوب وتتوقف عند سائر الموانى فترعى السواحل ، وتنقل المؤن وتقوم بتمشيط تجارى بين الحواضر والثغور الهامة .

الفصل السابع

ثقافة المــدن

★ تمهيـــد

★ المدخل التاريخى لثقافة المدن

★ اقتصاديات الحواضر الكبرى

★ حضارات النيل والفرات والهند والسند

★ المدخل الايديولوجى لتفسير الحضرية

تمهيـــد :

لقد كتب الكثير من الامريكان وأطنبوا فيما أطلقوه بثقافة المدن ومن الكتب المشهورة فى علم الاجتماع الحضرى ، ما نشره « لويس ممفورد Lewis Mumford » فى كتابه الممتع « ثقافة المدن Culture of Cities » الذى يهدف أصلا الى دمج دراسات الثقافة بميدان علم الاجتماع الحضرى ، حين مزج بين المدن والحضارة وجمع بين « أنماط » أو نماذج من الثقافة ، من جهة ، وبين سمات حضرية تتميز بها المدن من جهة أخرى .

واستنادا الى هذا المعنى ، يربط كتاب ممفورد بين نشأة المدن ، حين يتتبع نمو الظواهر الحضرية والثقافية ، بمعنى أننا اذا ما حاولنا ابراز دور « المدخل الثقافى » ، فانما نحاول أن نعرف الى أى حد ساهمت ظواهر الثقافة ، فى خلق أو نمو « التصور الحضرى » ؟ وكيف صدرت البنائات الحضرية طبقا لتفسير وجهة النظر التى تؤسس الموقف الثقافى ؟

فى الرد على كل هذه المسائل ، نقول ان هناك مداخل متعددة ، تفسر لنا « نشأة المدن » ، كالمدخل الثقافى ، والمدخل الايكولوجى ، والمدخل التاريخى ، والمدخل الايديولوجى ، والمدخل السياسى ، والمدخل الاقتصادى[1] ، وكلها مداخل جوهرية ترتبط أصلا بنشأة « المدن » أو « الدول » أو حتى ما يسمى فى المجتمع اليونانى القديم بدولة المدينة أو المدينة كمجتمع سياسى City-State .

---

(١) يتصل المدخل الاقتصادى ، بظهور الطبقة « البورجوازية Bourgeoisie » بعد تفجر الثورة الصناعية ، وهدم قلاع العصور الوسطى ، حيث نشأت المدن والحواضر ، فظهرت المجتمعات شبه الحضرية حول « المصانع » و « المؤسسات » . ولقد صدرت كلمة البورجوازية نسبة الى « القرى » و « الكفور » أو « المراكز » Bourgs . والمركز هو « البندر » أو « الكفر الكبير » الذى يقترب فى شكله وفى حجمه الى حد ما من المدينة .

ولقد نشأت هذه « البنادر » أو « المدن الصغيرة » ، فى أول أمرها حول القصور الاقطاعية المحصنة ، كما نشأت أيضا الكفور الكبيرة حول « الاديرة Abbayes » التى تتمركز وسط اقطاعيات كبار رجال الدين والكهنة والرهبان . ولا شك أن التغير فى انماط الثقافة والاقتصاد ، هو الذى يفسر لنا التطور الحضارى من نمط البداوة والرعى ، الى نمط القرية ثم ظهرت ألوان من النمط الحضارى بمعنى أن المدينة انتقلت من مراكز الاقطاع الى مراكز الصناعة .

ولم تظهر الانماط الحضرية الى الوجود الاجتماعى ، الا بفضل صدور « مجتمعات متطورة » وبعد وجود ثقافات راقية ذات طابع مميز . الأمر الذى يربط « المدينة » من جهة و « الثقافة » من جهة أخرى برباط تاريخى ووشائج اجتماعية واقتصادية تفسر لنا جميعا ، ما قصده « لويس ممفورد » من مفهومه « لثقافة المدن » ، وبخاصة اذا ما تتبعنا « نشأة المدن » من زاوية تنوع وتفاضل أنماط الثقافة التقليدية Traditional كما تتمثل فى المجتمعات البدائية Primitive[1] والرعوية Pastoral والقروية Rural .

واستنادا الى هذا الفهم الثقافى لنشأة المدن ، فان أصل المدينة ، انما يرتبط بأصل الثقافة والحضارة ، كما تتابعت أشكالها وصورها خلال تتابع العصور ، بمعنى أن قصة « المدينة » انما هى قصة « المدنية Civilization » نفسها وهى قصة « الحضارة الانسانية » بكل ما لها وما عليها .

المدخل التارخى لثقافة المدن :

لقد ساهمت المدن القديمة فى حوض البحر الابيض المتوسط ، فى بناء حضارة فينيقيا وفى تقدم الفنون ، حين ركب البحار الفينيقى البحر ، ونشطت التجارة بين سائر بحار العالم ، ووضع الفينيقيون أيديهم وسيطروا على حركة التجارة فى حوض البحر المتوسط وترجع أقدم الكتابات التى تؤرخ لظهور المدن . حين عثر الاثريون على « خطابات تل العمارنة » تلك التى ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وهناك مجموعة أخرى من الكتابات اللاحقة فى تاريخها على خطابات العمارنة وهى ما عثر عليه فى حفائر « رأس شمر » على الساحل السورى . ولقد ألقت كل هذه الرسائل والخطابات القديمة سواء فى تل العمارنة او على الساحل السورى

(١) تطورت المجتمعات البدائية ، من مرحلة الجمع والالتقاط بدو الغابة Nomades of Forest » ، و من مرحلة بداوة الجليد بين الاسكيمو ومعناها أكلة اللحوم نيئة Eaters of Raw meats ، ثم تحولت هذه الجماعات البدائية الى بدو الرعاة ، أو جماعات رعوية Pastoral Nomades . وبعدها ظهرت الزراعة المتنقلة Shifting agriculture ، التى تحولت بعد ذلك إلى مرحلة الزراعة الكثيفة Intensive فالواسعة Extensive . وبذلك تطورت الثقافة البدائية . من مرحلة التجوال الدائم Perpetual Wandering بالهجرة والانتقال والترحال ، الى مرحلة الاستقرار والثبات والانتماء الى الأرض .

ضوءا على البدايات الاولى لتكوين المدن الفينيقية ، ولقد افادت هذه الآثار فى فهم المدخل التاريخى لثقافة المدن القديمة ، كما صدرت سماتها الاولى فى التاريخ الحضارى والفنى لفينيقيا ، كما كشفت عن طبيعة النظم السياسية والادارية ، وبدراسة البقايا Survivals والآثار نستطيع بفضل دراسة النماذج والصناعات التى تؤكد على وجود العلاقات والصلات التى سجلها التاريخ الاقتصادى للساحل السورى وعلاقاته التجارية ببابل وآشور شرقا ، وحضارة الحيثيين شمالا ، ودليلنا على ذلك مستنبط من علم الآثار والحفائر ، وهو العثور على نماذج وآثار فينيقية تشبه فى صناعتها ما عرفناه فى مصر وآشور . ولقد ظهرت المدن الصحراوية القديمة مثل دمشق وحلب ، وكانت تتصل تجاريا بمدن السهل الساحلى ، ولعل اشهر المدن الساحلية الفينيقية هى صور وصيدا وبيروت .

اقتصاديات الحواضر الكبرى :

لقد كان السبب الاول لظهور الرأسمالية هو اندلاع الثورة الصناعية فى انجلترا ، الامر الذى اتاح الفرصة للطبقة البورجوازية للتسلط على « الاشياء المادية » ، بل والتحكم فى « الطبيعة Nature » لتغييرها ، وتحويلها لصالح البشرية .

وكان من نتائج اندلاع « الثورة الصناعية » أن نشأت المدن وظهرت المجتمعات ، والثقافات ذات الانماط الصناعية ، وكانت البورجوازية فى الاصل هى الطبقة التى عمرت تلك المدن الصناعية الصغيرة التى بدأت حور قصور الاقطاع وقلاع النبلاء ، كما نشأت حول أديرة الرهبان واقطاعيات رجال الدين .

وكان العامل الاقتصادى ، هو السبب الجوهرى ، فى تحويل « المدن » من الاقطاعيات ، الى مراكز أكثر جذبا ، لانها مراكز أكثر أجراً كالمناجم والمصانع فظهرت المدن حولها ، وارتفعت أجور المناطق الحضرية ، وأصبحت « المدينة » مركزا رئيسيا من مراكز « الجذب الحضرى » للاعداد الهائلة من القرويين الذين يندفعون نحوها ، نظرا لتراكم رأس المال فى المدن ، وقيام المشروعات الاقتصادية ذات العائد والارباح التى تشجع « الايدى العاملة » على الهجرة والتوطن ، طلبا لحياة أفضل . وهذا هو ما يؤكد عليه « تايلور Taylor » فى دراسته عن « البيئة والقرية والمدينة Environment, Village and City » .

المدخل الايكولوجى :

ينهض التفسير الايكولوجى لظهور المدن ، بدراسة توزيع السكان وعلاقته بمناشطهم فى المكان الفيزيقى . فللتكنولوجيا أثرها على توزيع مناشط أو أنشطة Activities البشر ، ولها أثرها أيضا على التفاضل المكانى وتنوع نمط المكان الفيزيقى Physical بمعنى أن التجمعات الحضرية هى وثيقة الصلة بالتنظيم الايكولوجى Ecological Organization وشكله ووظائفه حين يتمايز فى مختلف الضواحى والاماكن والنواحى ، تلك التى تختلف تماما عما يسمى بالكفر أو « المحلة » أو « النجع » ، وسائر المناطق القروية والتجمعات المنعزلة .

ويهتم عالم الايكولوجيا الانسانية Human Ecology ، بدراسة أثر حجم السكان وكثافتهم وتوزيعهم ومناشطهم ، على سائر التنظيمات الاجتماعية السائدة فى المجتمعات المحلية والتجمعات الحضرية ، فاذا كانت مؤشرات التوطن والتركز السكانى Concentration تتجه فى العصور القديمة نحو « الحصن والقلع والمعبد » فلقد نشأت المدن الحديثة حول مصادر الطاقة ، وخطوط النقل ، ومناطق التعدين ، والمواصلات السريعة .

ولما كانت « المدينة » هى وحدة ايكولوجية معقدة ، وعلى درجة عالية من التنظيم ، فان هناك الكثير من العوامل الموضوعية التى ينبغى ان تتوافر حين تتهدم البناءات التقليدية لكى تظهر بناءات حضرية اكثر تعقدا ، الامر الذى يفرض « تغيير تقسيم العمل » وزيادة التخصص المهنى .

حضارات النيل والفرات والهند والسند :

يعلمنا التاريخ ، كيف نشأت الحواضر الكبرى فى أودية النيل والفرات والسند وهوانج هو . فلقد بدأت « المعابد » الكبرى كبذرة أولى لصدور « المدن » حول كل أماكن اقامة الطقوس والشعائر الدينية .

وهذا هو السبب الذى من أجله قيل : « أن المدينة ليست وعاء فحسب وانما نجد لكل مدينة درجة معينة من الجاذبية » كما تعلمنا دروس الطبيعة أن قطب المغناطيس يسبق ويتركز حوله كل أو معظم ما فى مجاله من ذرات ، ولذلك كانت

حضارة القرية الباكرة هى أول مغناطيس بشرى قديم يجتذب الناس ، ويستوعب سائر النظم ، والانساق الاجتماعية Social Systems .

ومن حضارة القرية انبثقت وصدرت خلال التاريخ سائر حضارات العالم القديم ، عن طريق التأثير المتبادل ، حيث تتوظف القرية وتتحكم اقتصادياً وتاريخياً فى عمليات تجارية ، واعداد للمشروعات كتخزين المياه ، واستغلال القنوات المائية ، وتعبيد الطرق .

وبعد أن كان الانسان الاقتصادى Homo- Economicus جامعا للطعام Food Gatherer فى العصر الحجرى القديم ، دخل عصر انتاج الطعام Food-production[1] فى العصر الحجرى الحديث فتعلم كيف يستخدم الدخان والملح فى حفظ اللحم ، وبدأ يوفر قوته ، ويخزن صيده وبدأ فى تقليد الطبيعة فأستزرع القمح البرى ، وشيد الصوامع ، بعد إستنبات جذور النبات والنخيل والفاكهة ، واستقر بجوار نبع أو مستنقع وعرف الكلب واستخدم السلال والآنية وأدوات الطعام ، كما استخدم الحيوان فى الجر والانتقال .

حدث كل ذلك قبل أن تظهر المدينة الى الوجود ، فقويت علاقات الدم والجوار والتربة ، وتلك هى « ثقافة القرية » ، التى أوجدت الجار ، والمشاركة ، وخلقت المزار والتعاون ، فى مواجهة أزمات الحياة بالمواساة فى الموت ، والمشاطرة فى الفرح والابتهاج بالزواج والميلاد ، فكما يقول هزيود Hesiod يسارع الجيران الى النجدة ، على حين يتلكأ الاقارب أنفسهم ويتباطأون فى اعداد انفسهم .

ولقد انتقل الى المدينة ، ما ظفرت به القرية من نظم المعيشة واستقرار الحياة ومازالت علاقات الجوار باقية فى النواحى والاحياء ، الا أن المدينة تمتاز بالقدرة على أجتذاب غير المقيمين فيها للاختلاط ، وذلك على نقيض القرية فهى تعادى الغريب عنها ، وذلك بحكم جمود تكوينها ، وأنطوائها على نفسها .

ولقد بدأ التحول الحضرى الاول ، حين ظهرت المدينة كثمرة جديدة منبثقة من أندماج نتاج العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث ، وهذا هو نفس

(1) Childe, Gordon., Man Makes Himself, Fontana, 1966.

المعنى الذى قصده لويد مورجان Lloyd Morgan واستعمله « وليام ورتون هويلر William Morton Wheeler » وهكذا تبلورت المدينة تاريخيا من عملية اندماج بين نتاج العصرين، بأنبثاق وحدة جديدة أكثر تعقيدا من نسق القرية القائم على الصيد والرعى وقطع الاحجار والاشجار وظهرت التخصصات الجديدة ، حين نشأ المهندس والنجار وصانع القارب وملاح السفينة ، وما يحتاجه كل منهم من تخصص مهنى ، كما ظهرت وظائف أخرى للتاجر والقسيس والجندى والصراف وكلها وظائف جديدة لم تكن معروفة فى ثقافة القرية ؛ وبذلك نجحت المدينة فى تجنيد الايدى العاملة ، والسيطرة على وسائل النقل وتعبيد طرق المواصلات بين مناطق الانتاج الزراعى .

ولقد ظهرت التجمعات الحضرية ، حول أماكن دفاعية يعتصم بها أهل القرية ، حين تتهددهم الغارات والحروب فيحتمون بالقلعة ، فكان « الحصن » هو مكان التجمع الحضرى Urban Agglomeration فى العصور التاريخية الاولى حيث كانت الحرب نظاما مألوفا ، فازداد الاهتمام بالقلاع والحصون فكانت المهمة العسكرية وعوامل الامن Securily هى أولى المهام والوظائف فى التجمعات الحضرية القديمة .

ومن وجهة النظر التاريخية ، أصبحت المدينة هى أول وحدة حضارية ، تجمع بين وظائف معقدة تقوم بها القلعة والمعبد والورشة وأسواق التجارة . وهكذا بدأ التكوين المادى والثقافى للمدينة العتيقة .

المدينة العتيقة :

لقد حدثنا المؤرخ الاجتماعى « فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges » عن نظم المدينة العتيقة ، فى كتاب له فى هذا الصدد ، فاذا كان فوستيل دى كولانج قد نظر الى الدين كحجر الزاوية فى نشأة المدينة العتيقة ، فقد نظر « السير هنرى مين Sir Henry Maine » ، الى « القانون القديم Ancient Law »[1] والسلطة الابوية Patriarchal كأصلين لنظم التبنى والميراث والملكية ،

(1) Maine, Henry., Ancient Law., Routledge, London. 1897.

بمعنى أن ظهور التحضر والتجمعات الحضرية ، قد واكب ظهور « العقد Contract » ، حيث أن المدينة العتيقة فى ذاتها هى « نسق قانونى » عند « هنرى مين » بمعنى أن القانون كان « هرم القوة الاول » الذى يؤسس التكوين الحضرى للمدينة العتيقة وطرق تنظيمها ، ومما يدل على مبدأ « عبادة القوة » فى العصور الغابرة ، أن استعراض « القوة المسلحة » قد أصبح هو أهم استعراض للمدينة العتيقة ، وهكذا أصبحت المدينة بفضل « القانون » هى أول مركز من مراكز القوة ، حيث صدر القانون ليحمى السلطة والملكية ، استنادا لقوة العقد وشرعية التعاقد .

ولقد لعب الدين ورجاله ، دورا فى صدور أول تجميع حضرى ، حيث كان الفوز برضاء الآلهة هو أول التجارب العملية التى قامت قبل أن يحتمى الانسان من أعدائه فى حصن أو قلعة ، هكذا يقول « ميرسيا إلياد Mircea Eliade » .

ويقول « فوستيل دى كولانج » ، فى كتابه المدينة العتيقة ، أن الدراسة المقارنة للمعتقدات والقوانين ، انما تظهر أن الدين البدائى ، انما يؤسس الاسرة اليونانية والرومانية ، حيث أن الدين هو أساس الزواج والسلطة الابوية ، كما يثبت لنا نظم العلاقات ، ويؤكد لنا قداسة حق الملكية ، وحق الميراث[1] .

ولقد أنشغل « دى كولانج » ، بدراسة حواضر المجتمع الرومانى القديم حيث كانت تجتمع الاسرة حول مذبحها ، فكانت الاسرة مرتبطة بالموقد ، وكان الموقد مرتبطا بالارض ، ومن هنا بدأت الطقوس والعبادات ، حيث كان الدين هو الأساس الاجتماعى الذى اليه ترتكز كل أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والعسكرى[2] .

المدخل الايديولوجى لتفسير الحضرية :

لا شك أن التقدم الفنى أو التقنى Technical انما يؤدى الى تطوير فى التكنولوجيا ، ولما كان الانسان كما يقال هو « حيوان صانع للآلات » ، فلقد خلق « الانسان الصانع Homo-Faber » أول الانماط البدائية فى كل تقنية .

---

(1) Radcliffe-Brown, A.R., Structure and Function in Primitive Society, London. 1956.
(2) Ibid: P. 162.

وتغيرت هذه التقنية خلال ثقافات الحجر والبرونز والنحاس ، تطورت من مجتمع الصيد الى مجتمع الرعاة الى نسق أو نمط القرية .

ولقد ظهرت المدينة بعد أن أحرزت تقدماً تكنولوجياً هائلا ، كما أحدثت فى الوقت عينه تقدماً ثقافياً .

ولا شك أن نشأة المدينة « انما تحتاج الى ايديولوجية معينة » تفضى الى تغيير جوهرى فى نظم الاقتصاد والمعيشة ، وهى نظم حضرية مستعدة لهضم نظم تجارية وقانونية ، وفى هذه الفترة الاولى فى حياة المدن ، كانت الايديولوجيات العتيقة تتغير على نحو بطىء ، بتأثير صعوبة الانتقال والمواصلات ، أو لعدم الاتصال والاحتكاك وصعوبة الانتقال المباشر أو الفورى من أيديولوجية الى ايديولوجية أخرى مغايرة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد تم الانتقال من ثقافة العصور الوسطى ، الى ثقافة العصر الباروكى[1] على نحو استغرق أربعة أو خمسة قرون .

فلقد أنشأ التخطيط الباروكى أحياء جديدة ، بل ومدنا جديدة ، بعد أن توقفت نشأة المدن ، وقلت نسبة ظهورها بعد انتهاء القرن السادس .

ومع تعقد التكنولوجيا ، وتطور الايديولوجيا الحضرية ، صدرت المراكز الاولى للمدن فى أوليمبيا ، ودلفى Delphes وعرفت الانسانية الجيمنازيوم والمصحة والمسرح .

---

(١) امتاز عصر الباروك **Baroque** بالمظهرية وبالخط العريض الثابت. والباروك أسلوب من أساليب الفن الكبرى التى ظهرت فى نهاية عصر النهضة وهو أسلوب يمتاز بالفخامة والعظمة ، ودقة الزخرفة وغرابتها احيانا بل وبالتعقيد الذى يثير الدهشة والاعجاب ، وفى أغلب الاحيان . وتشتق كلمة باروك من الكلمة الاسبانية **Barrueco** وتعنى لؤلؤة كبيرة الحجم وغير منتظمة الشكل .

الفصل الثامن

السمات الحضرية وهندسة تخطيط المدن

* ماذا نقصد بالحضرية ؟
* كيف ومتى صدرت السمات الحضرية الأولى ؟
* هندسات تخطيط المدن وتطورها فى العصور الوسطى
* المدن البورجوازية
* هندسات معاصرة فى تخطيط المدن

تمهيـــد :

كثيرا ما تتردد فى كتب علم الاجتماع فى عصرنا الراهن ، كلمات فنية ومتخصصة، مثل «السمات Traits» و «الثقافة» و «الحضرية» وما من أكثر المصطلحات المجتمعية أنتشارا وذيوعا .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، قد تكون « سمات الثقافة » هى محط أنظار خبراء التربية وعلماء النفس والانثروبولوجيا لرصد ودراسة أنماط « الفعل الاجتماعى Social Action » وفهم نماذجه ، ورسم توقعات السلوك ، وكلها سمات يمكننا تجريدها عن ثقافة بعينها ، وذلك بعد عزلها وتفريغها عن تجسداتها الحسية .

وقد يفصح لنا خبراء النفوس ، عن مجموعة من سمات الشخصية ، يغوص فيها عالم النفس ، حين يرصد لنا ظواهر بعينها ، مثل « درجة الذكاء » أو مستوى الطموح Level of Aspiration ، أو حتى حين يقيس مدى الاتزان العاطفى ، وكلها سمات خاصة بذاتية الانسان ، كما وترسم لنا أبعاد الانا وتحدد نماذج الشخصية حتى نتعرف على سائر صورها ومضامينها .

خطوات المنهج وطريقة البحث :

سنحاول فى هذه الدراسة ، ان نتتبع نشأة مختلف السمات الحضرية ، وتطورها عبر التاريخ ، حتى نستطيع أن نتوصل الى مصادرها الحضارية الاولى من خلال تتبع البدايات الأولية لهندسات تخطيط المدن . الامر الذى يفرض علينا أولا أن نبدأ « بالتخطيط الشبكى للمدن » فنلقى ضوءا على عصور[1] الباروك Baroque

(١) ظهر الطراز الباروكى فى العصور الوسطى ، وكان من اهم سمات المدينة الباروكية فى عصر النهضة ، الشارع المستقيم ، والخط الافقى ، والقوس المستدير ، وتجانس الوجهات ، وتشابه النافورات والزخارف المنحوته . وأمتازت عصور الباروك بالنماذج الكلاسيكية ، وبفخامة وضخامة النوافذ والمنازل والاعمدة . والباروك على العموم ، هو اسلوب هندسى ومعمارى ، ظهر فى نهاية عصر النهضة ، وهو أسلوب يمتاز بالفخامة والعظمة ، بل وبالتعقيد الذى يثير الدهشة والاعجاب ولقد ساد الاتجاه الباروكى فى أدبيات القرن السابع عشر ، حيث يمتاز الادب الباروكى بالغرابة والصور غير المألوفة . أما كلمة « باروك » نفسها فهى مشتقة من الكلمة الاسبانية Barrueco ، وتعنى لؤلؤة كبيرة الحجم ، وغير منتظمة الشكل .

Encyclopaedia Britannica, 14th edition Vol: 3.P. 132.

وثقافة الروكوكو Rococo[١] . ثم نلتقى بعصر الصناعة والتصنيع حيث ظهرت المدن البورجوازية . والى جانب استخدامنا للمنهج التتبعى ، نلتفت الى ضرورة « المنهج المقارن » ، حيث نعقد المقارنات بين مختلف الصور القديمة والمعاصرة فى هندسات تخطيط المدن ، تلك التى نحتاج الى ضرورة تطبيقها الآن ، بضرورة تتطلبها حضارة التصنيع ، نظرا لوجود الحواضر الكبرى التى ظهرت فجأة نتيجة للاستقطاب الحضرى ، وكحل لمشكلات الانفجار السكانى .

ولكن ماذا نقصد بالحضرية ؟

من بديهيات علم الاجتماع الحضرى ، أن « الحضرية هى أسلوب حياتى له سماته وخصائصه »، وهى نمط عصرى من أنماط الثقافة . وللحضرية Urbanism سماتها التى نجدها واضحة ، حين نلقاها فى واقعنا قائمة هنا والآن بشحمها ولحمها « سائدة ومشخصة Concrete » فى قطاع ايكولوجى أو بيئة اجتماعية ، وقد نلتقى بسمات حضرية فى مناطق قروية نامية ، أو حتى فى بيئات صحراوية متطورة[١] .

وعملية التحضر Urbanization ، هى عملية تطوير بشرى ، وانتقال حضارى أو هى تنمية مرحلية لبيئة فيزيقية خام[٢] ، وتهيئتها واعدادها لتقبل مشروعات

---

(١) الروكوكو ، هو فن البلاط وتخطيط القصور بأستخدام الطلاء والالوان والرخام والعقيق ، والبللور والمرمر ، والزخرفة الفنية . ويقوم فن الروكوكو على الفخامة والترفيه والمباهاة واظهار النعمة ، فى سرف مهول لا حد له ، وترف ارستقراطى متكبر ، وما بين السرف والترف ضاعت حياة الناس .

ولقد نفذت موارد الدولة والامارات فى عصور الباروك والروكوكو ، وبخاصة فى بلاط الملوك ، وقصور النبلاء والكرادلة وقلاع امراء الاقطاع ، وصالونات السادة من كبار رجال الدولة وصفوة الاشراف .

والروكوكو نوع متطور من فن الباروك ، وهو أسلوب فى التزيين . ومنبج فى الفن المعمارى يمتاز بالزخرفة البالغة ، والروكوكو فن فرنسى الاصل ، ظهر فى الربع الاول من القرن الثامن عشر . وكلمة روكوكو Rococo مشتقة أصلا من الكلمة الفرنسية Rocailles ، وهى توحى بما يسود أو يحف بحدائق فرساى ، بمناظر الصخور والكهوف الطبيعية ، ويمتاز فن الروكوكو على العموم بأعتماده كلية على الفخامة والزخرفة والخيال الخصب .

---

(1) Brease, G., Urbanization in Newly Developing Countries., New York: Prentice-Hall. 1966. pp. 30-96.

(2) Anderson. Nels., The Urban Community, Routledge, London., Kegan Paul., 1960. p. 360-388.

وأنشطة اقتصادية كما هو الحال في « الدّمام » في المملكة السعودية ، أو « ميناء الاحمدى » في دولة الكويت ، وهما من المدن المستحدثة ، والبيئات الحضرية المتطورة عن حالة مسبقة تتميز بالبدائية والتخلف ، حين كانت تنمو يوما ما على نحو استاتيكي ثابت وبطيء ثم اسرع بها الدفع الحضارى ، وسار قدما في سلم التحضر مع أكتشاف « النفط الخام » وقيام الصناعات البتروكيماوية بعد ضخه وتكريره وتصديره ، فتطورت عمليات التنمية الحضرية في « مدن حقول البترول » ، تلك التي أصابتها التخمة والتركز والكثافة كنتيجة حتمية لعملية الاستقطاب الحضرى Polarization .

وتظهر « الذات الحضرية » كنتاج اجتماعي ينجم عن عوامل التحضر التي تغير من « هوية الانسان » التقليدى وطبيعته ، بهضم الجديد . واذا كانت التكنولوجيا هي الرداء المادى للثقافة الحضرية ، فالايديولوجيا هي أصعب هضماً لانها تتعلق ببناء الانسان ونموه وتطويره .

وللحضرية سماتها التي تتغير من مدينة الى أخرى ، ولذلك يقال ان سمات مدن أوربا قد نشأت وتطورت بصورة تختلف عن مدن أمريكا ، تلك التي نشأت دون حاجة الى سواعد الفلاحين وهجرتهم . أما في أوربا فلقد كان التصنيع والخروج القروى من الريف Rural Exodus ، من أهم أسباب ازدياد حجم المدن وكثافة الناس[1] .

واذا كان هذا هو حال المدن الاوربية المعاصرة وسماتها الخاصة بالهجرة والتوطن والاستقطاب والتركز Concentration وكلها سمات تختلف تماما من مدينة الى أخرى ، كما وتتمايز تلك السمات في خطوطها وهندساتها من عصر الى عصر ، فهناك سمات حضرية للمدن الاوربية في العصور الوسطى ، لا يمكن ان نجدها اطلاقا في « المدينة العتيقة » ، حين كانت الارض و « الحصن » و « الدين » و « المذبح » هي من أهم الاسباب التي من أجلها ظهرت المدن في العصور القديمة ، مع تعدد الآلهة في « الديانات المنزلية » ، هكذا قال لنا المؤرخ الاجتماعي « فوستل دى كولانج » في كتابه الممتع « المدينة العتيقة » .

(1) Geddes, P., The Surrvey of Cities, Sociological Review, Manchester, Vol: 1, 1961, p. 74.

ولقد كانت دراسة « إميل دوركايم Emile Durkheim » عن تقسيم « العمل الاجتماعى » ، هى أول دراسة حضرية ، حين ميز تماما بين اقتصاديات التضامن الآلى واقتصاديات « التضامن العضوى Solidarité Organique »[1] . واذا كان « فوستل دى كولانج » ، قد نظر الى الدين كمصدر للسمات الحضرية ، بينما ركز « السير هنرى مين »[2] على القانون والعقد ، فان كارل ماركس[3] قد نظر الى الاقتصاد والتصنيع كأساس لنشأة الاصول الحضرية الاولى . أما فرديناند تونيز Tonnies فيميز لنا بين « الجماعة » كارادة للحياة ، وبين المجتمع كارادة للوعى ، حين يضع حدودا فاصلة بين « العمل والصراع والمنافسة والتخصص » من ناحية ، وبين « علاقات الدم والقرابة والجوار Neigbourhood » من ناحية أخرى .

وبذلك انبثق مفهوم الـ Gemeinschaft عن ارادة الحياة ، بينما صدر مفهوم الـ Gesellschaft عن ارادة الوعى . من الاولى انطلقت سمات الريف فنشأت القرية ، ومن الثانية خلقت المدينة وسمات الحضر[4] .

ولقد التفت « ماكس فبر Max Weber » الى الجوانب الاقتصادية والنفسية بصدور السمات الحضرية ، بالرجوع الى شكل البيئة ونوع التبادل ، وتعدد التخصصات وكثافة السكان ، ونمط الاستقرار ، فقامت المدينة كتنظيم بيروقراطى يستند الى الاستقلال الذاتى ، ويعتمد على التشريع والقانون ودور القضاء وتستند الحضرية الى التنظيم السياسى ، والنظام العسكرى ، والمؤسسات ذات الشكل البيروقراطى ودورها الذى تلعبه فى أسواق التجارة والمال[5] .

ولقد ميز « روبرت ردفيلد Robert Redfield » بين الريف والحضر فعقد المقارنات بين المجتمع الشعبى التقليدى Folk ، ومجتمع المدينة الحضرى urban ،

---

(1) Durkheim, Emile., De la Diviseon du Travail social, Paris: Félix. 1926.

(2) Maine, Henry., Ancient Law., London. Routledge. 1897.

(3) Marx, Engels., Selected Works., Vol: I Moscow: 1962. pp. 20-100

(4) Tinnies, Ferdinand., Community and Society, New York 1963. p. 44.

Weber, Max., The Theory of Social and Economic Oranization., trans. by Henderson Glencoe: 1947. pp 330-386.

ويقوم الاول على العلاقات الشخصية ، وأنماط السلوك الاولية والعاطفية والتكاملية ، بينما نلحظ عدم التجانس ، واختلاف الانماط[1] الثقافية فى المدينة ، حيث تميل العلاقات الى أن تكون ثانوية وانقسامية ونفعية .

الا أن نقطة الضعف الشديدة التى يعانى منها « روبرت ردفيلد » هى أنه قد أهمل دراسة الابعاد البيروقراطية فى « ثقافة المدن » وسماتها الحضرية .

ويخطىء « روبرت ردفيلد » للمرة الثانية حين نظر الى الثقافة القروية نظرة جزئية ، وميزها عن الثقافة الحضرية ، من زاوية بشرية ومن جوانب ديموجرافية تتصل بأحصاء السكان ، وشدة الكثافة ودرجة الازدحام وتعقد التنظيم .

واذا كانت « المدن العتيقة » قد قامت أصلا حول « الحصون » و « الهياكل » و « المعابد » ، منذ تنفس صبح الانسانية ، فأطلّت على الوجود من نوافذ « الدين » فأنطلقت الصور الأولى للعقيدة فكان « المذبح هو أول بناء حضرى » . وهكذا نشأت وتكونت المدن فى التاريخ السحيق ، وهى نشأة تمايز دون شك عن نشأة المدن الحالية فى عصرنا ، ففى انجلترا وفرنسا نشأت المدن حول المناجم ، وفى الولايات المتحدة الامريكية ، نشأت المدن حول حقوق البترول والمشروعات الصناعية الضخمة .

ولقد كان « الدين البدائى » القديم ، هو الاساس الواقعى الذى عليه يقوم « البناء الاجتماعى » فى أثينا واسبرطة ، حيث كان الدين فى المدن اليونانية العتيقة ، هو أصل الزواج والسلطة الابوية ، لان الدين ببساطة هو النظام الوحيد الذى يثبت النظم والعلاقات ، ويؤكد حقوق الملكية والمبررات والتبنى .

تلك هى نظرة « فوستل دى كولانج Fustel de Coulanges » فى كتابه عن « المدينة العتيقة The ancient city »[2] حيث ذهب الى أن كل أنظمة العنصر الآرى القديمة ، سواء لدى الهنود أو الاغريق أو الرومان ، انما تقوم أساسا على الدين كمحور ارتكاز .

---

(1) Redfield, Robert., Peasant Society and Culture., An Anthropological approach to Civilization Chicago, University of Chicago. 1956.

(٢) قام « ويلارد سمول Willard Small بترجمة هذا الكتاب الشهير ونقله من اللغة الفرنسية الاصلية الى اللغة الانجليزية ، حيث صدر أصلا تحت اسم La cité Antique

وعلى العكس من هذه النظرة ، حاول مونتسكيو Montesquieu « أن ينبّه الاذهان والشواغل نحو ما يسميه « بروح القوانين L'esprit des lois » حين يشير اليه كأصل لكل نظم وتشريعات الاسرة والملكية ، وسلطات الدولة وحقوق الافراد ، فنظر مونتسكو الى القانون كأساس للبناء الثابت للاستاتيكا الاجتماعية وكأصل ومصدر للروح العامة للأمة L'espirt général[1] .

الارض والاسرة والمذبح :

وذهب « فوستل دى كولانج » الى أن الاسرة حين أستقرت فى الارض ، نشأ الدين بين أحضان العائلة ، وكانت الديانة المنزلية هى الصورة الاولى من صور الدين . فلم ينشأ الدين أولا فى المعابد . فالاسرة هى التى صنعت آلهتها بنفسها ولنفسها . والزواج هو أول نظام ثابت أقامته الديانة المنزلية ، ولم تقم الروابط القرابية على صلة الدم ، بل على روابط العبادة وطقوسها ، ولذلك قال أفلاطون Plato : « ان القرابة هى المشاركة فى نفس الآلهة المنزليين » .

واستنادا الى هذا الفهم ، ربط فوستل دى كولانج بين نظم الاسرة والقرابة والملكية من جهة ، وبين الدين والمذبح والاستقرار فى الارض من جهة أخرى وكأن الدين هو أول بداية حضرية « للاستقرار العائلى » . فالدين هو أساس الاسرة ، وتجتمع الاسرة حول مذبحها على الدوام ، فيبقى المذبح ذاته ، حيث تستقر الاسرة فى الارض .

ومن هنا تبدأ أفكار الحضر والاستقرار الحضارى ، ولقد بدأت الحضارة المسيحية كحركة سرية ، اتسمت بالعزلة والانفراد ، فنحتت معابدها تحت الارض ، وأقام المسيحيون هياكلهم فى المغاور والكهوف التى ملأت فجواتها تلال روما ، وكان المسيحى يقوم بطقوسه ، ويحتفل بدفن أخيه المسيحى ، بعيداً عن أعين الوثنية الرومانية القديمة .

والى جانب المذبح ، قامت شواهد القبور ، وظهرت الهياكل فى الاسواق الرومانية ، وحول الهيكل تدور طقوس الدين مع ترانيم الانشاد المسيحى ، بين

---

(١) الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، أصول الانثروبولوجيا العامة ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

دقات الموسيقى وإطلاق البخور والعطور . وهكذا كان التخطيط الهندسى فى المدن الاولى تخطيطا دينيا ، فصدرت الصور أو الاشكال الاولى للحياة الحضرية وقد غلب عليها الطابع الدينى. وأصبحت المدن المسيحية الاولى فى واقع أمرها ، كالاشجار ، حيث أنها لا تزول متى أستقرت ورسخت ، بل تظل كما هى دائما وارفة الظلال ودائمة الخضرة[1] .

مدينة الديـــر :

ومع ظهور الانعزال والرهبنة فى التصوف المسيحى ، أقام النساك الاوائل بيعهم بالقرب من بحيرة مريوط . ومن الاسكندرية هاجرت الرهبنة المسيحية من أديرتها المصرية الى سائر أديرة أوربا . وسادت الاديرة روح المحبة والاخوة لاقامة حياة مسيحية على الارض ، تتماشى فيها أنماط الفكر والمعيشة والسلوك ، وحياة يتمسك فيها المسيحى بحب الله فى عزلة تقوم على الضبط والنظام والأمانة .

ومدينة الدير ، هى خلوة صوفية ، يعيش فيها الناسك حياته الروحية ويبقى بنفسه فى الحضرة الآلهية ، يخلو مع الله حيث يراه ويناجيه ، حتى يتجرد ويحظى بالقربة ، ويجتمع بالحضرة الآلهية المقدسة .

فالدير مدينة سماوية أخلاقية وفاضلة ، وهى مدينة الله ومملكته التى يتجرد فيها متصوفه الرهبان والنساك ، بخلع الانانية ، ونزع حجب النفس حتى تصفو ، بالابتعاد عن شهوات العالم .

وتعبر مدينة الدير عن أمكانية قيام عالم دنيوى فاضل ، يبقى كواجهة مثالية وروحية لتحقيق مملكة الله Kingdom of God على الارض ، على حد تعبير « القديس أغسطين Augustin » ، حيث يتحد فى مدينة الدير كل الاخوان ، ويظل الرهبان داخل فردوس « الدير العالمى » كأخوة فى الرهبنة ، يتمسكون بحبل المحبة وبرابطة وثيقة من القيم الانسانية . ومن ثم تبقى مدينة الدير « أبدا كجنة روحية سماوية هبطت الينا بقداستها من السماء الى الارض » .

(1) Davis, Kingsley., The Urbanization of the Human Population., New York. Macmillan. 1965. pp. 222.

وحول الاديرة وطلبا للامن ، اقيمت الاسوار ، لصد الغازات المفاجئة ، وحماية للدير من هجوم الوثنيين ، فأصبحت الاديرة أول مراكز للاستقرار الحضرى ، وقد شيدت حولها الحصون والاسوار ، كما حفرت الترع والجسور حول القلاع ، فى مختلف أماكن الدفاع .

والى جانب عامل الامن وحماية الاديرة بتحصين الاسوار وبناء القلاع للدفاع ، ظهرت ضرورات اقتصادية لحماية عبور السفن ، وخاصة بعد ظهور المدن التجارية الكبرى كالبندقية فى ايطاليا ، فطلبت صفوة التجار من ذوى اليسار الحماية الاقتصادية الكاملة لحماية السوق وعمليات البيع والشراء ، وصفقات رأس المال من السرقة والسطو وعصابات اللصوص ، وخاصة بعد حدوث الرواج الاقتصادى بأكتشاف السوق كأعظم إمتياز تجارى ، ورتابة اقامة الاسواق الاسبوعية حيث يتجاور كل أرباب المهن من الصيادين والفلاحين والصناع .

وبأكتشاف الاسواق ونمو المدن ، اخترعت المدينة « تبادل العملة » فظهرت قطع النقود للتعامل ، بدلا من نظام المقايضة أو تبادل السلع . ولقد أدى أختراع النقود الى تغيير مبدأ « تبادل السلع » الى تبادل العملة والنقود السائلة ، فظهرت قيمة النقد كمقياس اقتصادى جديد لقيمة السلع .

وتمتاز النقود بأنها مقياس موضوعى وثابت ، يحدد قيمة السلع اقتصاديا ، كما أصبحت النقود أداة لحفظ وتراكم الثروة لما تمتاز به النقود من سهولة وسيولة فى التبادل ، وهى اكثر يسرا كوسيلة للتعامل بالاخذ والعطاء ، كما تخفف كثيرا من صعوبات نظم المقايضة وتبادل السلع . كما تتسم النقود بالتجانس والقابلية للعد والتقسيم والتجزئة ، والبساطة فى التمييز بين وحداتها ، بالاضافة الى أستقرارها فى القيمة الموضوعية ، مع امكان انتقالها وسهولة استخدامها وتبادلها ونقلها من مكان الى آخر[1] .

ومع ظهور النقد ، أصبح العمل بالقطعة أو بالساعة هو الاسلوب الحضرى ، بدلا من أنجاز العمل كله فى موسم دينى ، أو فترة اقتصادية ، وقد تظل الخدمة طوال الحياة وهو أسلوب مألوف ومعروف بين الرعاة وفى الثقافات البدوية

(1) Mauss. Marcel., Sociologie et Anthropologie., Paris Press univers. 1950. pp. 211-325.

والقروية . ومن ثم حل القانون والتشريع والتعاقد ، محل المكانة أو المرتبة وقام العمل في الانماط الحضرية بدلا من السخرة والاستغلال ، في النظم البدائية ، وهكذا ميز « هنرى مين » بين أنماط الريف وسمات الحضر[1] .

وفى عصور الاقطاع ، كانت الكنيسة والاساقفة والكرادلة الى جانب الملوك والامراء هم الصفوة المالكة للمساحات الشاسعة من الاراضى ، وهم طبقة النفوذ والهيبة والسلطان السياسى ، حيث تحكّم الامير الاقطاعى فى دولاب العمل ، وسيطرت طبقة الكهانة على حركة السوق ومصادر الانعاش والرفاهية كما أصبحت المدينة والمراكز الحضرية بمرافقها وخدماتها البلدية هى أولى هدايا الامير الاقطاعى ، فهى من عمله وصنعه ، فكانت أوائل مدن أوربا هى عواصم الاقطاع الذى جذب ارباب الحرف والصناعة والتجارة . فكانت الغلبة وقتها للجوانب العسكرية والحربية والسياسية ، هكذا اعلن توماس فردريك تاوت Thomas Frederick Tout فى احدى دراساته المتعلقة بتخطيط المدن أثناء حركة التقدم الاقطاعى .

وأصبحت الاديرة هى ملاذ اللاجئين ، وملجأ المرضى والعجزة ومأوى الضعاف والفقراء . كما شيد الرهبان القناطر ، وأقاموا الاسواق ، حتى انضمت البلديات القديمة الى الاسقفيات ورؤساء الاديرة .

ولقد جفف الرهبان عام ١١٧٩ بالقرب من روشفور دى جارد Rochefort du gard » فى مقاطعة بروفاس ، حيث جفف رهبان الدير ، ورعاة الكنيسة والابرشيات[2] ، بحيرة بأكملها ، وحولوها الى مزارع كبرى للكروم ، وفى عصور الاديرة انتشرت طواحين الماء والهواء ، وارتفع مستوى تربية الخيول ، وازدهرت صناعة السروج والعجلات والعربات ، وتعددت الموارد الاقتصادية ، بادخال صناعات التعدين واستغلال المناجم ، وتطورت خدمات الدير وأصبحت حيوية نظرا لوجود طاحون الغلال ومناخل الدقيق ، ومعصرة النبيذ ، بالاضافة الى صناعة

---

(1) Maine, Sir Henry., Ancient Law., London. Routledge. 1897.

(٢) كان تقسيم المجتمع المسيحى الى ابرشية Parish واسقفية Diocese هو التقسيم السياسى المسيحى الغربى ، ويرأس الاسقفية اسقف ، ويرأس الابرشيات التى يشرف على كل منها راع أو قس .

الاحذية وتجهيز الاقمشة وغزل الصوف ، وتجفيف الكروم لعمل الزبيب واعداد الجعة التى يغرم الرهبان بها .

ولقد أكدت سجلات « وليم الفاتح William The Conqueror » فى عام ١٠٨٦ م والتى نشرت تحت عنوان « سجل يوم الحشر Doomsday Book » وذلك حين تضاعف أعداد السكان فى المقاطعات الانجليزية ، على الرغم من عدم ارتفاع معدلات المواليد[١] . وقد الزم القانون الانجليزى فى القرن الرابع عشر كل أبناء المدن على أختلاف طبقاتهم ودرجاتهم العلمية ، المشاركة فى جمع المحصول فى كل حصاد فساندت المدن الاقطاعية أهل القرى بالتعاون والتضافر لتحقيق أهداف انتاجية .

الهندسة الاجتماعية وتطور تخطيط المدن :

يقول المهندس الاجتماعى « ميتون Meton » وهو مخطط ومساح أرض اننى أشرع فى العمل بمسطرة مستقيمة لارسم مربعا فى داخل هذه الدائرة ، وفى المركز سوف تكون مساحة السوق دائرية ، بحيث تتطرق ايها كل الطرق فتتجه اليها[٢] .

واذا ما تتبعنا هندسات التخطيط فى ثقافة المدن اليونانية القديمة ، نجد أن كل الشوارع المستقيمة تصب فى ساحة السوق الدائرية الكبرى ، وتتجمع الشوارع كلها على هيئة نجم يرسل أشعته من كل الجوانب ، وفى خط مستقيم .

ولقد وضع مخطط المدن « هيبودا موسى » وهو أشهر مهندس يونانى ، فكرة التخطيط الشبكى للمدن ، ونشرها فى عصر أرسطو ، حيث تمتد الشوارع وفقا لهذا التخطيط فى خطوط متوازية ومستقيمة ، كما وتتقاطع بعضها بعضا بحيث يتعامد ويتوازى كل خط ، فهو مواز من جهة ، وعمودى من جهة اخرى . تماما كما هو الحال فى رقعة الشطرنج أو فى الأسلاك المتعامدة والمتقاطعة فى شبكة الشواء[٣] .

(١) أمر الملك وليم الفاتح ، اداريه وموظفيه ، أن يقوموا بحصاء الافراد ، وتحصيل الضرائب ، ودراسة مستوى المعيشة ، بالاشارة الى ظروف الحياة فى ظل نظم الاقطاعية التى سادت البناء الاجتماعى القديم .

(2) Reissman, H., The Urban Process., New York: The Free Press of Glencoe. 1964.

(3) Geddes. P., The Survey of Cities., Sociological Review. Manchester, Vol: I. 1961.

ولقد اكد لنا « باتريك جيدس Geddes » أن كل حضارة قد بدأت بمركز حضرى ينبض بالحياة ، بأعتباره عاصمة تتوسط ثقافة من ثقافات السهول . ولقد كانت « مدن السهول » هى العواصم التاريخية الاولى ، مثل « أور » و « نيبور » و « طيبة » و آشور » و « نينوى » و « بابل » ، وظهرت كلها فى أودية الانهار الكبرى كالنيل ودجلة والفرات وهوانج هو . ومع هذه المدن نشأت أوائل الجيوش والشرطة ، ودور القضاء . وظهر الحراس والعسكر حول القلاع ، كما ظهر الترف الحضرى فى قصور النبلاء وابرشيات كبار الكنيسة ، وبدأت الحرف اليدوية بصناعة الدروع والاسلحة بالاضافة الى صناعة المجوهرات والحلى وأدوات الزينة .

ولكن متى بدأ أول تقسيم حضرى للعمل ؟

لقد جمعت ثقافة المدن[١] فى نماذجها وصورها ، وبخاصة فى سماتها الحضرية الأولى ، بين القرية والقلعة ، وربطت الصور الاولية لثقافات المدن القديمة بين الهيكل والسوق ، كما اعتمدت فى حياتها على التعاون والتراحم وزيادة النسل . ولقد أعلن المؤرخ الاجتماعى « جوردون تشيلد Gordon Childe » ان الوان من التخصص المهنى واشكال من أساليب العمل ، كانت قد دخلت المدينة مع ظهور الطوائف والمهن والحرف وفنون الصناعة ، فدخلت الالقاب الوظيفية حين استخدمت كلمات مثل « صياد » أو « محارب » و « حارس » و « فارس »[٢] .

وذهب « هوكارت » الى ان اول تقسيم للعمل ، قد ظل متوارثاً ومتصلا باقامة الشعائر والطقوس الدينية . ومع انماط البداوة والرعى ، ظهرت طبقات الصناع والزراع والتجار وعمال المناجم والتعدين ومختلف الطوائف المهنية . ومع تقدم الاقتصاد ، وتطور اساليب الحياة ، ظهر اول تقسيم حضرى للعمل ، بدلا من الاقتصار على توارث أو مزاولة حرفة واحدة بعينها .

(١) اطلق « لويس ممفورد Lewis Mumford هذا العنوان على أحد كتبه المشهورة فى علم الاجتماع الحضرى ، ومزج ممفورد فى كتابه « ثقافة المدن » بعضا من نماذج الثقافة وسماتها ، كما تصدق كل منها على مجموعة بعينها من السمات الحضرية التى تتلاءم مع مدينة بالذات .

(2) Childe, Gordon., Man Makes Himself Fontana, 1966.

وفى « اثينا » و « اسبرطة » احتقرت ثقافة اليونان ، سائر المهارات اليدوية واعمال الصناعة ، لانها كما يقول افلاطون Plato وأرسطو Aristotle من شان الاجراء والعبيد[1] ، ولذلك وجدنا فى عصور اليونان المزهرة ، ان فلسفات التربية والتثقيف Paideia قد اغفلت برامج الصناعة وتنمية المهارات اليدوية والحرف ، فلم تدخل فى صلب مناهج التعليم ونظم الدراسة .

ولقد لاحظ « هيرودوت » ان الصناع كانوا ادنى درجة واقل شانا ، وكان « اليونانى الحر » هو البطل المصارع او المقاتل ، وكل من يعزف عن الحرف والصناعات اليدوية هو « كريم الاصل » . ولذلك علل « شيشرون » سقوط « كورنتة » و « قرطاجة » الى شدة شغف الناس بالتجارة البحرية ، والسفر والابتعاد سعيا وراء الرزق والكسب المادى والارباح المغرية .

وفى عهد « سولون » عرفت الأجورا[2] لتكون مكانا للاجتماع واقامة الاعياد ، كما كانت الوظيفة الحضرية للأجورا، وظيفة حكومية وقضائية وحرفية ودينية وطبقية، حتى اصبحت الاجورا اكبر اماكن المدينة صخباً وضجة . فالأجورا هى ساحة السوق وهى المركز الدينامى للمدينة ، فهى موطن التجارة والعمل .

ولقد كان العمل الجبرى واسترقاق العبيد ، من أهم سمات المدن القديمة ، فمع حضارة المدن ظهرت مختلف الوان العنف والقسوة والوحشية تلك التى وصفها جيامبا تستافيكو Giambattista Vico بوحشية المدينة ، او بربرية حضارة العنف ، وعلى الرغم من كل ذلك ، كان ساكن المدينة أوفر رزقاً واكثر اجراً من الفلاح القديم .

تطور هندسات تخطيط المدن :

لقد كان الاتجاه الغالب فى تخطيط المدن فى العصور الوسطى ، هو التخطيط الهندسى المنتظم الذى يتسم بالأناقة والاستقامة والثبات بأستخدام الخطوط

---

(١) الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الثانى ، دار الطلبة العرب ، بيروت ١٩٦٩ .

(٢) عرفت الاجورا كساحة للسوق واقامة الاعياد فى ثقافة اليونان ، وأنشئت فى عهد « سولون » اجورا الخزف ، حتى تكون سوقا أو مكانا للاجتماع فى أثينا واسبرطة ، وتلك هى الوظيفة الاجتماعية للأجورا .

العريضة ، واتخاذ المستطيل أساسا للتقسيم الثانوى وفى مدينتى « مونتسبجور Montsegur » و « كورد Cordes » فى فرنسا ، كانت هندسة التخطيط تمزج وتخلط وتلائم فى ذكاء واضح بين هندسة أساسها الخطوط الثابتة والعريضة وبين الخطوط الكنتورية ، أو بين التخطيط المستطيل ، والحدود الطبيعية للواقع[١]

ولم يلتزم تخطيط هندسات المدن ، نمطاً خاصاً طوال العصور الوسطى ولم يتبع نظاما بعينه ، فكانت هندسات المدن تتغير فى خطوطها العامة ، وتتخذ مختلف الاتجاهات والصور ، بل وتميل عادة الى عدم الانتظام ، منه الى أتباع نمط أو نظام بالذات ، فأرتكب الكثير من مخططى المدن الكثير من الاخطاء ، بسبب عجزهم عن ادراك الفوارق الحقيقية التى وضعها علماء البيولوجيا ، بين المضاهاة والموازنة ، فما هو مضاهٍ Homologous انما يتمايز تماما عما هو « موازن Analogous » ، لان المضاهاة تقتضى « التشابه فى الاصل والتركيب Construction » . أما الموازنة فلا تقتضى الا المماثلة ، أو التشابه فى الوظيفة Function ، ولا تقتضى التشابه حتما فى بنية الاصل والتركيب . ومن الاسباب الجوهرية التى أدت الى عدم انتظام التخطيط فى العصور الوسطى ، وجود المواقع الصخرية الوعرة . ولقد تخلف عن ازالة الاشجار ، الكثير من الشقوق الارضية العتيقة ، مما أدى الى عدم انتظام الخطوط العامة ، وعدم التشابه فى أنماط « التخطيط الحضرى Urban Planning » مع تمايز أشكال المدن .

نظرية « البيرتى Alberti » فى تخطيط المدن :

قبل نهاية العصور الوسطى ، وضع « ليون باتستا البيرتى Leon Battista Alberti » الاساس المنطقى لقواعد تخطيط المدن على أختلاف صورها ونماذجها ، كما وضع سائر الفلسفات فى هندسات المدن ونشرها فى مؤلفه عن « العمارة De Re Edificotori » ويعتبر من أوائل المصادر وأمهات الكتب والمنشورات التقليدية ، التى صدرت فى ميدان الدراسات الحضرية[٢] .

ولقد أثار « البيرتى » الكثير من القضايا ، وترك خلاصة تجربته وخبراته

(1) Reissman, H., The urban Process., The Free Press of Glencoe.. New York. 1964.

(2).Geddes, P., The Survey of Cities., Sociological Review. Manchester, Vol: I. 1961.

لمهندسى العصور الوسطى ، ومن أهم مجهوداته ، ارساء قواعد « التخطيط النمطى » ، وبخاصة فى تصميم الشوارع المتعرجة التى تظهر فيها مختلف الابعاد والمناظر ، التى تحول دون رؤيتها خطوط التنظيم والهندسات المستقيمة فلا تظهر فى الشوارع الممتدة التصميمات الرائعة للبيوت والمحلات ، لان الامتداد يعوق رؤية الجمال الهندسى البديع .

ويذهب « البيرتى » فى هندسته للتخطيط ، الى أن الانحناء الوئيد هو خط السير الطبيعى لمن يمشى على قدميه ، ويمكن لاى عابر سبيل فى ساحة خلاء أن يتتبع أو يلحظ ذلك الميل فى طريقة مشيته ، اذا ما تطلع خلفه ونظر الى آثار قدميه . وهذا هو ما يضفى صفة الجمال على مبانى العصور الوسطى فى « هاى ستريت **High Street** » بأكسفورد ، حيث نلحظ فى هذا الشارع « شجرة وحيدة » تمتد فروعها الى ما يجاور الخط الهندسى على أمتداد تنظيم المبانى ، مما يزيد الصورة كلها جمالا فوق جمال .

وحين كنت أقيم فى أحد فنادق « اثينا » التى تقع تماما وسط عاصمة اليونان شاهدت هذه الخطوط المائلة فى كل الشوارع التى تصب فى ميدان « أومونيا » فكان التخطيط رائعا يضفى طعما حضريا عتيقا ، ويعطى طابعا كلاسيكيا فى هندسة تخطيط المدن .

هندسة تخطيط المدن عند « لافدان » :

لقد لاحظ « لافدان **Lavedan** » أن أهم ما يميز فن انشاء المدن هو تكوين دائرة ومركز للمدينة ، بحيث تتجه كل الشوارع الرئيسية نحو مركز المدينة وعند محيط المدينة الدائرة تنتهى كل الشوارع ، لكى تلتحم المدينة ومحيطها بالطرق الكبرى خارج المدن ، حيث تسير الشاحنات التى تربط بين سائر المدن من عواصم الاقاليم . ومن هنا تصبح شوارع المدينة من الداخل كأنصاف أقطار متلاقية فى مركز واحد .

النواة الحضريـــة :

تتمركز « النواة الحضرية » فى جوف المدن ، ففى كل تخطيط حضرى أو

تصميم هندسى ، نجد بؤرة أو مركز أو نواة ، تمتد فيه ساحة للسوق أو كاتدرائية أو ميدان مركزى عام يتوسط مجموعة من الاحياء الوظيفية **Functional Precints** يشتمل كل منها على مجموعة من المبانى والوحدات السكنية المتجانسة **Homogeneous .**

وتنقسم المدينة على ذاتها ، فى نهاية العصور الوسطى ، وتتفتت الى عدة مدن صغرى ، كمجموعات من الاحياء قليلة الحجم . ولكل مدينة صغرى ، أو حى من الاحياء الوظيفية أسواقه وكنيسته ، وموارد المياه الخاصة كالآبار والنافورات بحيث تتمتع كل منها بالاستقلال والاشباع والاكتفاء الذاتى .

سمات التخطيط الباروكى للمدن :

لقد كان هدف كل تخطيط للمدن فى العصور الوسطى ، يتمثل فى تحقيق النظام والجمال . أما النظام فهو التصميم الهندسى البديع ، كما كان الجمال يتحقق اما فى زخرفة أو طراز رومانسى ، واما فى طراز باروكى أو قوطى متقدم ، وقد تجتمع كل تلك الطرز مع طراز عصر النهضة فى شارع وحيد دون أن يقلل ذلك الخليط من قيمة الشارع الجمالية .

ويعبر هذا « المزيج الجمالى » عن تعقد المجتمع الحضرى ، مع تطور التاريخ ، وتغير هندسات التخطيط . ولقد مزج « مهندسو البناء » طبقا لحتمية التغير التاريخى ، بين مختلف السمات الحضرية فى العصور الوسطى ، فخلطوا فى تخطيط المدن بين القديم والجديد ، واصطنع المهندسون منهجاً نموذجيا ، ازداد مع الايام غنى وجمالا وخصوبة وكمالا .

ولقد بدأ التعقيد الحضرى الجديد مع ظهور الحديقة الباروكية(١) مع تثبيت النظام الموحد للمدينة الباروكية فى القرن السابع عشر ، وفيه تتكامل أسس التخطيط الباروكى . واذا ما استخدمنا لغة الموسيقى نقول : ان اللحن ظل ضئيلا من الحان العصور الوسطى ، وقد أضيفت اليه التوائب والصيغ والأدوات الجديدة ، فتغيرت النغمات مع سرعة ايقاع اللحن : فلم يظهر الجديد فجأة . ولم تسقط

---

(١) هى حديقة مسيجة [illegible]

حضارة العصور الوسطى ثم انهارت فى لحظات ، ولم تمت فجأة كما تموت الكائنات الحية ، وانما أخذت فى الانحلال والتفكك . ومع أيديولوجيات ومسميات علوم الميكانيكا والفيزياء الجديدة التى واكبت ظهور الرأسمالية التجارية ، مزجت علوم العمارة بين القديم والحديث وخلطت هندسة البناء بين سمات « الطراز القوطى » ، وسائر فنون البناء والتخطيط التى سادت عصر النهضة الاوربية .

وللتخطيط الباروكى سماته كتخطيط مستقيم الاناقة ، يتميز بالخطوط العريضة والثابتة ، ولقد ظهرت سمات النموذج الارستقراطى للباروك وانتهت مع احتضار عصر الملكة فيكتوريا ثم ظهرت بعد ذلك ألوان من التخطيط الباروكى الملائم لسائر فئات الطبقات الوسطى .

ومن ظواهر التخطيط الباروكى « البواكى » بأقواسها الثلاث المستديرة ، وهى معروفة فى فلورانسا باسم « لوجيا دى لانزى Logyia die Lanzi » . وشيدت منذ عام ١٣٨٧ ، ولذلك كانت تنتمى أصلا الى العصور الوسطى من حيث النشأة التاريخية ، الا أنها كانت تنتمى الى عصور النهضة من حيث الاشكال والصور Forms[1] .

ولقد كان « للبلاط الباروكى » أكبر الاثر على مدينة العصور الوسطى ، وما ساد فيها من نظم ، ولقد كانت كلمة « قصر Palazzo » تعنى فى ايطاليا « المبنى الفخم » الذى يشغله أحد النبلاء أو الامراء ، وتعبر الروح الباروكية عن الاسراف والترف والاتساع والقوة ، وأحتقار الحاجات البشرية . ولقد كان الفن الفرنسى فى باريس قد بلغ فى عصر الباروك درجة عالية . وكان الامراء الالمان ، يحاكون ملك فرنسا وبلاط قصر فرساى فأستوردت المانيا معظم النماذج الفرنسية ، فهاجرت فى

---

(١) اشتهرت هندسات عمارة الباروك بخطوطها الطليقة وأشكالها الرصينة وأعمدتها الكلاسيكية وعلى الرغم من ذلك لم تظهر مدينة واحدة فى عصر النهضة تعبر عن الطابع المثالى الفريد الذى يجمع كل سمات وخطوط هندسة النهضة . فلم تكن هناك « مدينة نهضة » ان صح التعبير أو مدينة تعبر تماما عن الواقع الفنى والجمالى ، أو تكشف عن النمط الفنى الكامل لوجه النهضة . وانما نجد فقط بعض قطع وملامح منتزعة من طرز قديمة .

(2) Encyclopaedia Britannica., 14th edition, Vol: 19 p. 370.

القرنين الخامس عشر والسادس عشر من فرنسا الى المانيا الكثير من عناصر الفن الباريسى ، وعن طريق الاقتباس والاستعارة الثقافية ، انتقلت سمات وملامح الروكوكو الفرنسى التى استوردها الاقطاع ، فامتلأت بذلك قلاع وقصور الامراء بنوع المانى ركيك من الروكوكو الفرنسى .

وبعد اندلاع الثورة الفرنسية ، لم يعد فى فرنسا بلاط أو مسارح أو صالونات تحمل كل ملامح « الذوق الفخم Grand Gout » وحدثت هزة عنيفة أحدثت أزمة فى الفكر الاوربى ، مع انهيار فتنة وفخامة الروكوكو ، فظهرت « رصانة الالوان » ، وصرامة الخطوط ، واستقامتها فى عصر ثورة عاتية هدمت النظم وقلبت الاوضاع ، فهاجرت الثقافة من باريس ، وانتقلت الزعامة العقلية والادبية فى القرن الثامن عشر من فرنسا الى بريطانيا التى أصبحت أكثر نشاطاً وتقدماً ، فسيطرت على قمة الاقتصاد ، وتحكمت فى دفة السياسة وقادت البورجوازية الانجليزية حركة الفن والادب ، بل وساعدت على ظهور المدن والنمو الخضرى .

المدن البورجوازية :

كان التخطيط الهندسى ارستقراطياً شديد الترفع ، قبل اندلاع الثورة الكبرى فى فرنسا ، ثم سادت النزعة البورجوازية وسيطرت بشدة على سائر اتجاهات الفن والعمارة والادب ، فغلبت عليها الجوانب الحسية والوجدانية .

وخرجت الطبقة البورجوازية من الحدود الجامدة للنظام الطبقى الاقطاعى وأصبحت الطبقة العاملة الانجليزية ، كما أشار « تشارلز دكنز Charles Dickens »[1] فى بعض رواياته مثل « أوليفر تويست Oliver Twist » و « قصة

(١) « ديكنز » كاتب بورجوازى يتسم بالمثالية ، وهو اديب وروائى كتب واصنب ضد الاقتصاد الحر ، وأخذ بمبدأ المنفعة والاقتصاد الموجه . وهو كاتب شعبى ، ومن أوائل تلاميذ « كارلايل » . كتب مذكرات « بيكويك » المشهورة ، وقد بيعت منها أربعون ألف نسخة ابتداء من العدد الخامس عشر فصاعدا .

ويمتاز لغته البورجوازية بالاستواء والتلقائية والفخامة . فكان أسلوبه شعبيا بل وسوقيا مثل « كيتس » يهبط الى مستوى جمهوره ليكتب بنفس المشاعر ، وبالطريقة التى يتحدث بها « البقال » و « الطاهى » و « الخادمة » . ومن أشهر كتاباته التى تكشف عن طابعه البورجوازى « قصة مدينتين » كتبها باسلوبه الرقيق ، وكان صديقا بورجوازيا للشعب قريبا من الناس ، الا انه لم يكن ثوريا ، بل كان مصلحاً ينادى بالعمل والمثابرة والتدبير والسعادة فى الرخاء المعقول والحياة الرغدة والكريمة .

مدينتين » و « مذكرات بيكويك »[1] حيث وجدنا كيف تلقى عمال انجلترا من البورجوازية نفس المهانة التى تلقاها عمال فرنسا ، كما اشتركت طبقة الشعب والطبقة الارستقراطية فى نفس الموقف الذى يعانى الكثير من الآلام من جشع البورجوازية والرأسمالية الصاعدة .

ومع تطور البورجوازية ظهرت المدن الصناعية ، مع كتابات « آدم سميث Adam Smith » كما ظهرت وظائف ومكاسب جديدة لتقسيم العمل الصناعى والحضرى ، ولما يتضمنه « التخصصى المهنى » من مهارات عقلية ويدوية وحركية ، وأثر كل ذلك فى زيادة الدخل والانتاج .

ولذلك ذهب « توينبى Toynbee » الى أن طوائف المهن وما صاحبها من مهارات وحرف يدوية ، انما تدل على تعدد التخصصات والمهن التى صدرت عن نظم مهنية عتيقة كنظام الطوائف Castes[٢] فى الهند .

ولقد نشأ « أول هرم حضرى » عن تقسيم الناس الى طبقات وطوائف وفقاً لنوع الحرف والمهن ، وكانت قمة الهرم تتألف من الملك والكاهن والمحارب بينما تندرج تحته وتتعدد مختلف الطبقات التى تتزايد مع ظهور « ذوى اليسار من التجار ، وأرباب الحرف من المزارعين والملاحين . وكانت الحواجز قائمة بين سائر الفئات ، والحاجز هو غلاف طبقى خارجى « يباعد بين كل فئة واخرى » .

ومع زيادة السكان ، وتراكم الثروة ، ظهر نوع آخر من التقسيم الحضرى او الاقتصادى للعمل ، وهو تقسيم الناس الى طبقتين اقتصاديتين ، مع ظهور « البروليتاريا Proletariat » والبورجوازية ، وهو نفس التقسيم التقليدى الذى يقسم الناس فئويا وطبقيا الى « اغنياء » و « فقراء » .

ولقد جاء هذا التقسيم مع بداية « الحياة الحضرية Urban life ومع ظهور نظم

(1) Dickens, Charles., Mr. Pickwick., Selection from Pickwick Papers., Pilot Books, University of London. 1949.

(٢) ظهرت الطائفة كاتحاد أو نقابة حرفية Craft Guild بين طوائف [illegible] مغلقة ، تمنع من دخول الافراد اليها او الخروج منها . بينما تعتبر الطبقة الاجتماعية منفتحة [illegible] وطن لها . اما الطائفة فجهاز طبقى متوارث ويقوم على توريث المهن جيلاً بعد جيل

Bouglé, Celéstin., Essay on the Caste System, Trans by Pocok. Cambridge. 1971.

الملكية الخاصة كالضياع والطواحين ومعاصر النبيذ ، مع تعبيد الطرق واقامة الجسور حول القلاع والمعابد والاديرة .

وللمدينة البورجوازية[1] مزاياها التجارية التى توازى مزاياها الصناعية المتمتعة بالحقوق البلدية ، نظرا لرخص القوى المحركة ، وانخفاض مستوى الاجور وزيادة الأيدى العاملة ، الا ان اسوا سمات العمل الصناعى ، هو ساعات العمل المرهقة والاجور المنخفضة ، واساءة استخدام الاحداث فى العمل .

وفى المدينة البورجوازية ، أصبح « المصنع » هو نواة الكيان الحضرى الجديد ، وامتدت ساحة المدينة حول « قرية المصنع » ، واستخدمت الآلة البخارية التى ابتكرها « وات Watt » وهى أداة رئيسية للحركة ، فأصبح من الميسور زيادة كثافة العمال وتركز الصناعات وانتقال العمال الى اماكن اكثر بعداً عن قراهم ومواطنهم الاصلية .

ولقد شجعت حقول الفحم ، على اقامة الصناعة ، وسهولة الوصول اليها ، باستخدام الفحم كوقود فى حركة النقل البرى والبحرى ، كالقنوات والسكك الحديدية . وبذلك ادى « البخار » وظيفته كقوة حضرية ادارت ادوات المصنع وآلاته ، وتألفت « نواة المدينة الحضرية » من آلات توليد القوى ذات الطاقات المتعددة . واصبحت قوة المصنع الصغير ، تتحمل من الطاقة والوسائل التقنية التى تستخدم اكثر من مائتين وخمسين عاملا .

ولقد ساعدت طرق النقل بالاساليب التقنية ، وعاونت مع مناجم الفحم والحديد ، فى اقامة الصناعات الراسمالية الحديثة وتجمعاتها الحضرية ، الامر الذى ادى الى ظهور « الصناعات الثقيلة » مثل « صهر المعادن » كالنحاس والحديد ، وصناعة الصلب . ومن هنا اصبح « المركز الحضرى الكبير » يرتكز الى الصناعة ، وكأن « المصنع هو باعث النمو والاستقطاب » ، وهو العامل الاول فى زيادة نطاق الازدحام الحضرى ، مما شجع على الاخذ بنظام النقل ، بالطرق الحديدية .

وبذلك سيطرت مدن البورجوازية ، على انتاج السلع الصناعية ، فغلب الطابع

(1) Davis, Kingsley., Urbanization and the development of Preindustrial Areas., Economic development and Cultural change, Vol: III-October. 1954.

الصناعى على المجتمع الحضرى . فاذا كان القروى يخضع للطبيعة ، فان البورجوازى يسيطر على الآلات ويسخر الطبيعة لخدمته بالعلم والتكنولوجيا . مما يؤدى الى ارتفاع مستوى الطموح ، مع اتساع وعمق الخبرة التى تحتاج الى اعلى وادق التخصصات والمهارات .

وتتسم المدن البورجوازية[1] ، بانخفاض معدلات الانجاب والوفيات وارتفاع نسبة الجريمة والتشرد . ولقد قام ارنست برجس Burgess بدراسة المدن العصرية وخطوطها وهندساتها ، وتوزيع الناس فيها ، فلاحظ أن المدينة تتوزع فى شكل حلقات حول مركز ، وان ملاك البيوت يتزايدون كلما بعدنا عن وسطها ، حيث تزداد معدلات البغاء والجنوح ، ويشعر الانسان بالضياع لسيطرة السلوكيات المتحررة ، والشعور بالغربة والاغتراب ، وكأنه غريب وسط اجانب وتقل العزلة والغربة ، كلما بعدنا عن وسط المدينة الصاخب .

هندسات معاصرة فى تخطيط المدن :

من أشهر نظريات تخطيط المدن فى الهندسة المعاصرة ، نظرية الدوائر الخمسة المتحدة المركز Five Concentric Circles ، وقد اجريت فعلا للتطبيق على « تخطيط مدينة شيكاغو » . وتستند النظرية الى وجود نموذج من الدوائر المتمركزة . والمدينة العصرية هى حقل معقد وممتلىء بالكثير من صور النشاط الاقتصادى الحافلة بالاعمال العامة . وينبض قلب المدينة بالحياة وهو منطقة مركزية ، او بؤرة وسط المدينة تعرف باسم الدائرة الداخلية ، تتميز بكثافة البشر ورجال الاعمال والفنادق الراقية ، والعمارات الشاهقة والمتاجر الكبرى ، مع سهولة خطوط الاتصال السلكية واللاسلكية .

هذه هى نواة المدينة وفى الدائرة الثانية تتوافر الخدمات المرفقية ، ومن سماتها الحضرية وجود الاسواق والمخازن والمعارض الكبرى ، الامر الذى يعرضها للتغيير السريع والانتقال Transformation من حال الى حال وتكثر فى الدائرة الثالثة مساكن العمال ، وتتركز المدارس والمتنزهات .

---

(1) Gist, N.P. and Nalbort., L.A., Urban Society., New York.Thomas V. Crowell. 1956.

اما الدائرة الرابعة فتشمل المساكن الجديدة ، التى تقطنها الطبقات الوسطى . اما الضواحى التى يسكنها الاثرياء فتوجد فى الدائرة الخامسة او « الحلقة الخارجية Outer Ring » حيث الاحياء الراقية .

وفى دراسة قام بها « هومر هويت Homer Hoyt » على ١٤٢ مدينة ، فتوصل الى نظرية عامة للمدن ، واسماها بنظرية القطاع Sector Theory وهى تصورية ذات خطوط عريضة ، ففى رأيه تنقسم المدينة الى « قطاعات » وليست « حلقات » ، نظرا لوجود معيار اساسى ، استندت اليه النظرية ، هو « معيار الايجار » وهو يميز بين سائر القطاعات السكنية ، كمعيار عام .

ولقد انتقد « هيرس Herris » و « ألمان Ullman » سائر الهندسات السابقة لتخطيط المدن ، لكى يعلن كل منهما عن نظرية « النوى المتعددة » حين تنقسم المدينة الى عدة مراكز حيوية ومتخصصة ، دون ان تقتصر على مركز او نواة وحيدة لنشاط محدد بالذات من الانشطة الاقتصادية . وقد تنمو المدينة العصرية وتزدهر مع نمو هذه النوى او المراكز ، الا ان هذه النظرية لا يمكن تعميمها ، او حتى فرضها فرضا تعسفيا على كل المدن . وقد تفصح هذه النظرية عن نموذج حضارى فى كل المدن ، وبخاصة حين يتردد الناس على تلك المراكز او النوى كمناطق للبيع والشراء والتعدين والتصنيع وكلها أنشطة اقتصادية قد تتلاحم وتترابط فيما بينها ، دون ان تحول بينها الموانع الجغرافية كالجبال والانهار ، وينفر الاثرياء من مناطق الصناعة ، فيلجأون الى الهدوء فى الضواحى البعيدة .

ومن هنا يجب ان يتدخل الاقتصاديون والمهندسون ورجال الادارة[1] المحلية والتخطيط ، بالتعاون مع علماء الاجتماع والتنمية ، فيصنعون مختلف الخرائط لاشكال المدن وصورها التى ينبغى ان تكون عليها فى المستقبل ، مع وضع الخطط والفلسفات الخاصة بطرق النمو الحضرى ، استنادا الى دراسة « الحراك الاجتماعى Social Mobility » الافقى والراسى فى المجتمع ، ورصد النمو أو الاستقطاب السكانى ، وحركة التصنيع واساليب تنمية البيئة الحضرية ، مداخلها

(1) Swarthout, J.M. and Bartly., E.R.,. Principles and Problems of State and local government, New York, Oxford Univers. 1958.

ومخارجها طبقا لمواقعها الجغرافية بشرط ان يكون التخطيط المادى او الفيزيقى للمدن والحواضر مبنيا على ايجاد فلسفة خاصة للمعيشة الحضرية ، مع تقديم الحلول المتعلقة بمشكلات المدن والحواضر ، حتى تصبح اكثر انتاجا وترفا .

ومن شروط التخطيط المادى للمدن ، تحديد مناطق السكن واماكن الضواحى ونقل الورش الصناعية من قلب المدن ، كى تتجه الانشطة الاقتصادية الى خارج المدن وتخومها ، وفى هندسة المدن ينبغى ان يكون التخطيط شاملا ومنظما ، فى ضوء خطة مسبقة مدروسة ومعدة فى تصميم مرن يتقبل اى تعديل منتظر لكل خطة .

وينبغى تقسيم الخطة على مراحل ، وتقسيم التكاليف على خطوات تدريجية تستكمل وتنتهى فى فترة زمنية محددة ، مما يفرض علينا ضرورة انشاء جهاز ادارى وتنفيذى للاشراف على عمليات تخطيط المدن ، ومتابعة خطوات التنفيذ وتوزيع العمل طبقا لتقسيم زمنى مع القيام بالمسح الاجتماعى اللازم لحل مشكلات الخطة الشاملة **Master Plan** للمدينة تمشيا مع السياسة العامة لما وضعته الدولة من خطط للمستقبل . ولاشك أن مشكلة التلوث **Pollution** وحماية البيئة ، هى من اكبر مشكلات المدن والحواضر ، مما ينبغى تقديم الحلول العملية ، وإستبعاد الصناعات التى يستحيل اقامتها داخل المدن ، كصناعة تكرير البترول والصباغة والبتروكيماويات والورق ودباغة الجلود ، وكلها منشآت تحتاج الى تغيير خطط وطرق الصرف الصحى ، حتى لا تتلوث التربة ، ولا يفسد الماء والهواء ، مع ضرورة اقامة مراكز الانتاج الكبرى خارج المدن[1] .

ويقترح المخطط الامريكى فرانك لويد **Frank Loyd Wright** ضرورة علاج مشكلة التركز والكثافة والازدحام ، بتخطيط المدن وتحويلها بكل ضواحيها وخدماتها ومصانعها الى « قرى صغيرة » ، تعيش فيها كل اسرة فى منزل خاص ومنفصل ، له مزرعته ذات المساحة الكافية لزراعة ضرورات الاسرة من الخضر والبقول والفواكه ، فتكتفى كل اسرة بذاتها ، وتربى ما تحتاجه من انواع الدواجن ، فيسعد الانسان الحضرى بحياته اليومية ، ويقترب من الطبيعة ويعيش بين احضانها

(1) Broom, L., And Seiznick, P., Sociology., New York: Row Patersen and co-1956.

فيجمع بذلك بين مزايا القرى والحواضر ، حين تقل حدة المواصلات ، وتخف وطاة الزحام الذى يسبب اختناق المدن .

ويوجه « رايموند اروين Raymond Irwin » الاذهان بين كبار المخططين الى ضرورة الاكثار من الضواحى المخططة ، على طراز « مدن الحدائق Garden Cities » المشهورة على ضفاف لندن وتخومها . بينما يشير « لا كوربوزيية Le Corbusier » الى ضرورة انشاء « ناطحات سحاب » تبنى وسط المدن لامتصاص كل ما تستوعبه الاسواق والمصانع من سكان ، حتى تقل حدة ازدحام الطرق ، وتخف وطاة الكثافة واختناق الشوارع ، باستغلال المصاعد كطريق بديل للمواصلات ، ومن اجل تجميل وسط المدينة الفرنسية ، تخطط لها الحدائق التى تحاط بناطحات السحاب ، مع التقليل من الميادين الكبرى .

خاتـــمة :

وختاما ــ لقد نشطت مدرسة شيكاغو ، واصبحت نظرية النمو « الحلقى للمدينة » هى مركز الدراسات فى علوم مسح وادارة المدن ، تلك التى تاخذ باهتمامات علوم تخطيط المدن Town Planning ، فالمسح يجب ان يسبق التخطيط والمخطط هو « قائد الاوركسترا » الذى ينسق بين دراسات السكان والاقتصاد ، وابحاث علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والتنمية والحكم المحلى ، وتشغل كلها اهتمامات مخططى هندسات المدن ، وهذا ما أعلنه برجس Burgess وروبرت بارك Robert Park فى كتابهما الممتع الذى صدر تحت اسم « المجتمع الحضرى The urban Society » بقصد تقديم الحلول الخاصة بمشكلات هندسات المدن ومحاولة وضع الخطط لمواجهة حدة التركز والاستقطاب Polarization والعزل Segregation . وذلك لتحقيق اكبر قدر ممكن من الاستفادة بتنمية البيئة Eco-development مع ترشيد الانفاق ، وتخطيط المشروع الناجح فى المكان الملائم ، وسرعة تنفيذه ز وذلك بأقل تكلفة ممكنة .

الباب الخامس

التنمية والحضرية ومشكلات الهجرة والتوطن

* ★ كيف تحدث التنمية الحضرية؟
* ★ الهجرة والاستقطاب الحضرى
* ★ مقاييس الانسان بين القرى والحواضر
* ★ التوطن ومشكلات التنمية
* ★ سمات الاسرة العربية فى المجتمعات الاسلامية
* ★ التعليم العالى وخطط التنمية
* ★ تحديث التربية والتعليم فى الوطن العربى

تمهيـــد :

قلنا فى مقدمة الباب الثالث « ان القرية سابقة على المدينة » ثقافيا وحضاريا ولا يمكن ان تظهر المدن الى الوجود على سبيل الطفرة ، ولا يمكن ان تطفح الحواضر او تطفو من العدم ، فالقرية هى التى انتجت الناس ، كما يقال . ولكننا نجد ايضا الى جانب هذا المعنى ان لكل مدينة وظيفتها وكثيرا ما تخدم المدينة منطقة تابعة لها ، حيث ان المدينة لا يمكن ان تعيش فى فراغ in vacuum او بلا ارضية ، وانما السائد كنمط حضرى ان كل اقليم انما يخلف لنا مدينة مركزية ، بمعنى ان ايكولوجيا الريف هى الموطن الحقيقى الذى فى احضانه نشات وترعرعت ونضجت ايكولوجيا الحضر .

مشروعات التنمية فى الريف :

لقد اهتمت معظم كتب التنمية فى علوم الاجتماع الريفى والثقافى والحضرى بالمجتمعات التقليدية ، ومن اشهر الدراسات السوسيولوجية التى صدرت فى علم الاجتماع الريفى ، كل ما كتب عن الريف الهندى والنظر الى القرى الهندية ، باعتبارها نماذج كبرى لسائر القرى المنتشرة فى المجتمع البشرى الى جانب « القرية المصرية » ، فهى من اقدم الامثلة للقطاعات القروية فى عصرنا ، ومن أهم الكتب التى اهتمت بالتنمية والتحوّل فى القرى ، كتاب اصدره الكاتب الهندى درجاناند سنها Durganadn Sinha تحت عنوان « القرى الهندية فى مرحلة التحول »[1] .

ويناقش الكتاب المشكلات الاساسية للتنمية والتحول فى سائر القرى الهندية . ولقد اعلن الدكتور « جورج جاكوب » ، ان انخفاض الانتاجية الى جانب قلة الدخول وضعف الاجور ، وزيادة الكثافة البشرية هى أهم مشكلات التنمية فى القرية الهندية ، ويرجع ذلك الى الطرق التقليدية المتبعة مع تخلف الآلات الزراعية المستخدمة ، وعدم كفاية الموارد ، بالاضافة الى نقص الاهتمامات الضرورية الخاصة برفع مستوى القرية وتحسين شئون الفلاح .

---

(1) Durganand Sinha., The Indian Villages in Transition., The Associated Publishing House., New Delhi., 1969.

ولا مشاحة فى ان الانتاج الزراعى ، وما تضيفه الثروة الحيوانية ، وما تغله الارض من محاصيل ، هى مصدر يعتبر من أهم الموارد الاقتصادية ، ويعمل المخطط الاقتصادى الناجح على رفع مستوى الادوات المستخدمة فى تكنولوجيا الانتاج الزراعى ، وتحسين الطاقات الضرورية ، وانجاح المشروعات الريفية من اجل رفاهية القرية ، وزيادة الاجور ورفع معدلات الدخول الفلاحية بزيادة الالتفات الى تصنيع الريف وتعليب محاصيل الانتاج الزراعى ، والمساهمة فى رفع معدلات غلة الارض وزيادة خصوبتها وتغذيتها بالاسمدة ، وتنمية الثروة الحيوانية بتربية العجول والاغنام وتحسين سلالاتها والاهتمام بانتاج الاعلاف .

ويقاوم علماء الاجتماع الثقافى والقروى والاقتصادى تلك الصعوبات التى تواجه الفلاح اثناء عملية التنمية ويقومون بحل اهم المشكلات القروية حيث يكره الفلاح ويقاوم الانسان القروى بشدة كل ما هو جديد ويقابل بالحذر ما يراه « غير مالوف » او دخيل ، نظراً لشدة محافظته على القديم ، او « الاصيل » ، ويبدأ الصراع الثقافى بين الجديد المبتكر ، والقديم المتوارث وينتهى الامر بعملية تكيف بين « الاصيل والدخيل » او بالاندماج Amalgamation بين الثقافة الاصلية وهضم الثقافة الفرعية الدخيلة .

ومن هنا يجب خلق « ثورة عقلية بين الفلاحين » وشحذ الهمة من اجل زيادة الانتاجية ، وحل المعادلة الصعبة بين صراع « العامل الانسانى » فى مواجهته لقسوة العامل التكنولوجى وتحديه ... فما العمل ؟

فاذا كانت احوال الريف العامة ، تدور كلها حول مشكلات تتعلق بانخفاض مستوى المعيشة ، وارتفاع معدلات الانجاب فنشأت بذلك اقتصاديات الفقر والحاجة ، الى جانب الامية والجهالة المنتشرة ووجود الثغرة الثقافية او ما يسمى بالتخلف الثقافى Cultural lag ، نظرا للجهل بالتكنولوجيا ومع الايمان بالخرافة والسحر ، وبوجود كائنات غيبية Mystique لا منظورة ، وسط كثافة بشرية هائلة وزيادة رهيبة . فمن اجل التغيير والتنوير فى التعداد السنوى للسكان ، لابد من القيام بالخطوات الاساسية للتوصل الى اكبر معدل ممكن فى تحقيق رفع معدلات التنمية للانتاج الزراعى وسط القرى المكتظة بجماهير الفلاحين ، ومن اهم

الجوانب المطلوب التركيز عليها ، وهى مسالة تغيير نظرة الفلاحين للزمان والمكان بل وللحياة بأسرها كما ينبغى تحديث الحياة الفلاحية ، بالعمل على زيادة تطلعات القروى نحو حياة افضل مع رصد درجات خاصة به للكشف عن مدى التوقعات المطلوبة للتوصل الى اعلى مستوى ممكن للمعيشة ، كما يمكننا الالتفات بالضرورة الى زيادة العمل على الانتاج مع تطوير الانسان القروى وبناء ثقافته واعداد شخصيته اعداداً خاصاً ليصبح كائناً متطلعاً معتمداً على ذاته دون غيره فترتقى طموحاته وتتبدل أهدافه ليصبح كائناً ديناميكياً ومنتجاً .

والى جانب كل هذه الضرورات هناك خطوة أساسية تتطلبها مشروعات تنمية الريف الهندى ، وهى ضرورة تغيير ثقافى وجذرى ، لاساليب السكن ، ومناهج التعليم ، وطرق العلاج ، وكيفية الاهتمام بالمرافق والصحة العامة . والحدائق والمتنزهات وبراج الترويح Recreation والتنفيس ، مع ضرورة تغيير غير المناسب من الازياء والعادات المتخلفة حضارياً كالوشم وتشويه الوجه والجبهه مع الاهتمام بالانوثة ودور المرأة وتعليمها ، وتحديث Modernization القيم والمعتقدات التى تعوق عملية التنمية ، وكل هذه شروط ثقافية مطلوبة من اجل زيادة مستوى المعيشة بين الفلاحين الهنود .

ولقد تم بالفعل تحت اشراف ورعاية الزعيم الهندى « جواهر لال نهرو » رسم وتخطيط برنامج تنفيذى خاص ، من اجل تطوير الريف الهندى ، وتنمية القرية ، ولقد اطلق على هذا المشروع الثورى اسم « تنمية المجتمع المحلى فى الهند Community development in India » ويخلق هذا البرنامج القروى التغيرى الرغبة الملحة بين الفلاحين ، فى تطوير احوالهم ، بشحذ اهمم ، وجعل الناس يرغبون فى تغيير انفسهم ، ويحاول هذا المشروع الهندى ، ممارسة كل ما من شانه أن يقلب الاوضاع ، ويلهب المشاعر ويغير من نظرتهم الى الحياة بتطوير اساليب سلوكهم وطرق معيشتهم .

ويخلق فينا نحن العرب ، هذه النزعة « القروية الخلاقة » ، كتابنا المقدس الذى بين ايدينا ، حيث يقول القرآن العظيم ، « ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ، وتدعونا هذه الآية الكريمة نحو شحذ الهمة بترك ما نحن فيه من

اوضاع ، يتخلف فيها المسلم ، ويطالبنا القرآن بتغيير ما بانفسنا من جمود ورخاوة ففى القرآن دعوة الى الثورة على التخلف ، وفى القرآن نزعة نحو التغيير والتنوير بمحاولة دعوة المسلمين الى تغيير انفسهم بخلق الرغبة فى التغيير ، وبالهاب المشاعر من اجل قلب العتيق وتطوير القديم، وتحديث طرق الحياة بتحسين الممارسة، وتجديد اساليب السلوك المستخدمة فى الصناعة، وتطوير الصناعات، وتعليم الناس وخلق فرص العمل، وتوفير الايدى العاملة المدربة، واثارة الحماس بين جماهير الفلاحين، بالتعاون ورفع روح التضامن ، وترقية مستوى الطموح ، وتحقيق النمو السريع باستخدام الجهود الذاتية من اجل حياة افضل .

وكما ان القرية هى الاصل الذى يتولد عنه نشاة المدن ، فالمدينة لا تظهر من تلقاء نفسها ، وانما يسند كل مدينة عامل تركيبى هو العامل الاقليمى Regional Component ولسوف ينقص فهمنا للمدينة ولمضمون الحضرية ، اذا ما درسناها فى عزلة عما حولها ، وانما ينبغى دراسة علاقات المدينة بالاقليم ومناطق اخرى وفى ضوء « علاقات التفاعل المتبادل » بين المدينة وما يربطها بالقرى والارياف من حركة تجارية رائجة ونشطة خلال شبكة من الطرق ووسائل النقل السريعة[١] .

وارتكانا الى هذا الفهم ، نشأت المدن فى أحضان القرى وفى قلب الريف حيث تبدأ كل مدينة تحت وصاية ما يحيطها من قرى وارياف ، حتى أصبحت المدينة هى مركز التنظيم السياسى ، وتحولت بعد الثورة الصناعية الى مركز هام للخدمات الحضارية ، يستخدم تكنولوجيا منزلية متقدمة ، ثم تحولت المدينة فى النهاية الى دكتاتورية مستبدة ، او سلطان متحكم فى خيراتها ، او حتى « ولى امر » يسيطر على دينامية العلاقة التى تربطها باقتصاديات القرى وناتج محاصيل الأرياف[٢] .

ففى العاصمة مثلا نجد تركز البيروقراطية Bureaucracy والاهتمام بالخدمات المرفقية ، كما وتتجه الراسمالية دائما نحو الحواضر الكبرى ، للبحث عن استغلال واستثمار الثروة فى مجالات حضرية متكاملة ، ومترابطة فى شبكة سريعة من

(1) Arbatov, G.A. Social and Cultural Changes in Developing Countries Moscow. 1975.
(2) Smith, T. Lym & Mc. Mahn, C.A.. The Sociology of urban Life, New York. The Dryden Press. 1951.

المواصلات البحرية والحديدية والسلكية واللاسلكية والطرق والكبارى تمشيا مع المبدأ الاقتصادى القائل : دعه يعمل ... دعه يمر Laissez Faire, Laissez Passer.

ورحمة بالعواصم والحواضر الكبرى ، ينبغى ان تعمل الحكومات على ان تخفف من اعباء المركزية Centralization ، وان تقلل من عيوب البيروقراطية حيث لا يتزايد الضغط الحضرى على الحواضر الكبرى الى الدرجة التى معها تنوء العاصمة بالعبء وتفقد كثيرا من كفاءتها ووظيفتها وسط الزحام ، والكثافة البشرية مع بطء حركة المرور نظرا لكثرة الاختناقات فى ساعات الدفع اليومى Rush Hours وبخاصة فى اوقات دخول وخروج الطلاب والعمال والموظفين من المدارس والمتاجر والدواوين والمصانع . وقد تؤدى المركزية الصارمة الى تشبيه المجتمع « بالتشتت الكامل » كمن انفجرت شرايين رأسه ، او كمن اصيبت أطرافه بالشلل والانيميا .

ولا شك ان درجات التحضر والحضرية ، انما ترتبط ايضا بحجم وكثافة المدن ، وخاصة فيما يتعلق بتعداد القوى العاملة او المنتجة بالنسبة للفئات المعولة التى لا تنتج ، ولا يقصد بحجم المدينة عدد سكانها ، وانما المقصود اصلا هو درجة الكثافة البشرية[1] ، كما لا يقصد بحجمها ايضا مدى الاتساع او البقعة المساحية ، وانما يتصل تركيب السكان فقط بالحجم ، مما يكون له صداه ايضا فى تحديد وظيفة الحجم ودوره وقيمته ، بالاضافة الى ما وصل كل ذلك بضوابط وميكانيزمات الحجم ، كلما ازدادت المدن كثافة وتعدادا وازدحاما .

فلقد اصبح تعداد مدينة لندن مليون نسمة ، فى عام ١٨٠١ ، ولذلك تعتبر عاصمة الانجليز ، هى اول مدينة تبلغ المليونية فى العالم ، بينما بلغت نيويورك ١٣ مليون نسمة فى عام ١٩٥٠ .

ومع زيادة الكثافة والازدحام ، فقد تتحول كل مدينة كبرى الى « مقبرة للحضارة » مع شدة دفع الطغيان الحضرى Tyrannopolis . ولذلك كان « لويس

---

(١) هناك مدن كثيفة السكان over populated ، ومدن قليلة السكان under populated ، ومدن ذات كثافة مثالية optimum populated

ممفورد Mumford ، لا يفضل ما يسميه بالمدن الماردة الكبرى ، فيهاجم هذا النوع الخانق من المدن . ويعتقد ممفورد ان حجم المدينة المثالى ، ينبغى الا يزيد عن مليون نسمة ، وهذا هو السبب من شدة خشيته من تطور حضارة المدن من النمط القروى البسيط الى الصناعى Eopolis او المعقد Mipolis الى المتروبوليتان Metropolis او المدينة الام Mother City[1] .

وفيما يتعلق بالايكولوجيا الحضرية ، لقد كان الجغرافى راتزل Ratzel ، هو اول من ميز بين الموضع Site والموقع Location ، فالموضع فكرة محلية بحتة ، وقد تتزايد فكرة الموضع فى حدها الاعلى ، فتقترب من فكرة الموقع فى حدها الادنى . بمعنى ان الحد الادنى للموقع ، هو بمثابة الحد الاعلى للموضع .

فالموقع منطقة ، والموضع نقطة مكانية بسيطة وليست بالمنطقة المساحية . وموقع المدينة هو مكانها الفعال . وتتباين المدن نتيجة للتفاضل Differentiation المكانى بين المواقع الحضرية Urban Location ، والتباعد الذى يفصل بين مختلف الاماكن والمدن ، ومما يربط بين هذه الاماكن والمواقع من حركة Traffic تظهر لنا فى سهولة النقل وسيولة المرور ، وداخل شوارع المدن ، فتتوافر الطرق وتترابط الشرايين التى تربط بين سائر الاجزاء والمواقع الحضرية بوسط المدينة وميادينها واسواقها .

ولقد اشار راتزل فى هذا الصدد الى ما يسميه بانسداد الحركة Damming of Traffic كظاهرة تعبر عن الوحدة الحضرية ، على اعتبار ان قيام الموقع او المدينة ، هو السبب الجوهرى فى كثافة الحركة والنقل والمرور تلك التى تتزايد مع ازدياد كثافة المواقع والمدن .

فحركة المدينة ، هى عملية مستمرة ودائبة لا تتوقف ليل نهار ، بل وتعمل المدن الهامة كخلايا عمل مستمرة داخل البناء الحضرى ، ونواته هى وسط المدينة .

ولقد اشار تشارلس كولى Charles Cooley ، الى فكرة قوية وخصبة تكشف لنا بوضوح عن قيمة ووظيفة الموقع الحضرى[2] ، وتلك هى فكرة انقطاع النقل

---

(1) Mumford, L., The Culture of Cities, London, Secker & Worburg. 1946.

(2) Cooley, ch., Social organization., New York., Scribners. 1908.

Break in Transportation حيث تدور حركة النقل والمرور فتقل وتخف حدتها حول حواف او تخوم القطاعات الحضرية ، بينما تزداد حركة النقل كثافة وحدة وتشتد وطاتها وسط وداخل اطار البناءات الحضرية .

فقد تتوقف مثلا الشاحنات الكبرى على جوانب الطرق القائمة خارج المدن ، اما حركة المرور التقليدية ، داخل المدن ووسطها ، فلا تتوقف طوال النهار ، وقد لا تتوقف المدن الكبرى ليل نهار . ولذلك تختلف المواقع باختلاف الاماكن والمواضع ، فهناك مواقع بؤرية Focal واخرى مركزية Central بالاضافة الى المواقع الهامشية[1] .

ويعتبر البعد البؤرى ، فى المدن ، هو اكثر الابعاد نشاطا وكثافة وحركة ، ويتوسط خطوط التجارة ، ولقد خلقت الطرق الكبرى مختلف المدن ، كما خلقت طرق النقل البرى والبحرى مختلف مشروعات الصناعة والتعدين[2] .

اما عن المواقع المركزية ، فهى تقترب من المواقع البؤرية ، فالقاهرة مثلا كمدينة كبرى تتمتع بمركزية واضحة بين سائر قطاعات الدلتا والصعيد ، بينما تتركز طنطا كمدينة تجارية كبرى فتقع او تتوسط سائر محافظات الوجه البحرى . وتقع المدن الهامشية ، على حدود المواقع البؤرية ، ومراكز النشاط التجارى والصناعى . مثل موقع مدينة السلوم التى تمتاز بموقع هامشى بالنسبة للحدود التى تفصل بين ملتقى التخوم المصرية والحدود الليبية .

الايكولوجيا الحضرية :

اذا كان للقرية او للصحراء ، مختلف السمات الايكولوجية ، فاننا يمكن فى ضوئها ان نكتشف طبيعة السلوك السائد فى ثقافة القرى او انماط البداوة Nomadism حين نتعرف على طبيعة حياة الصحراء الخلوية ودراسة السمات الايكولوجية للفلوات ومدى قربها او بعدها عن الآبار والعيون والواحات .

وبالنسبة للمدينة وايكولوجيا المصانع ، فاننا نلحظ ان للمصنع ظروفه الفيزيقية

(1) Clarke. W.M. How the City Works? The Proffessions. London. 1983.
(2) Coggin. P.A.. Technology and Man., Surindon, England. 1980.

وان لايكولوجيا العمل الصناعى مواصفاتها وخصائصها التى تترك بصماتها على نفسية العامل وسمات شخصيته .

بمعنى ان للصناعة فى ذاتها سماتها وانماطها ، وللايكولوجيا الحضرية Urban Ecology ، والصناعية ظواهرها الثقافية البارزة[1] . ولقد اثبت علم الجريمة ، انتشار الجنوح والانحراف ، فى البيئات الصناعية ، حيث تقل حدّة الضوابط الاجتماعية ، وتخف سطوة القانون . وبالنسبة للصراعات الحضرية التى تتسم بالعنف ، هناك ردود افعال قوية تعكسها ادوات الاعلام الرئيسية كالصحافة والسينما والتلفزيون ، حين تكشف لنا مثلا برامج التلفزيون عن « مغامرة جديدة » من مغامرات « سيمون وسيمون Simon and Simon » او جريمة مريعة من جرائم « هتشكوك » المخيفة ، يرتكبها « آلن ديلون » او حتى « دين مارتن » ، ثم يحاول ان يكشف الغطاء عنها « كوجاك » او « برنابى » او حتى « كولومبو » فى مختلف برامجهم البوليسية المشهورة على الشاشة الصغيرة او شرائط الفيديوكاست .

فللتصنيع والايكولوجيا الحضرية أثرهما على انتشار ظواهر « الصراع والتمزق » التى تؤثر بدورها على سمات شخصية العامل وتركيبها الدينامى ، فقد تعترى شخصيته الكثير من الاضطرابات ، نظرا لما تصادفه من وطأة الصناعة ومحنة التكنولوجيا وفقدان المعايير Anomie ، الامر الذى يفضى بدوره الى عدم التوازن والاحباط Frustration . وسنشير فى الباب الاخير من هذا الكتاب الى مختلف المشكلات الحضرية ، وخاصة ما يتعلق باضطرابات الشخصية وتاثير الضغط الثقافى والصراعات التى يعانى منها العمال ، فتتهافت المعايير فى نسق القيم .

وفى حالات الضيق والتمزق ، قد تتهاوى الفضائل وتتهافت المثل العليا الكامنة فى ارق مراتب الانا Super-Ego ، او السائدة بقيامها فى بنية الضمير الانسانى .

وكثيرا ما يشعر العمال فى البيئات الصناعية بفقدان المعايير ، وتفكك محتويات الضمير الخلقى[2] فلا شك ان للتصنيع ظروفه ونتائجه الاجتماعية

---

(1) Anderson, Nels., The Urban Community, Routledge & Kegan Paul. London. 1960. pp. 321-330.

(2) Hoeeweg-de Haart; W. Richter., Impact of technology on Society., edited by B. Schmeikal, 1983.

والنفسية ، ولمكان العمل وبيئته الفيزيقية خصائصها ، وللايكولوجيا الحضرية سماتها وانماطها وثقافتها وامراضها . فقد يكون لدرجة الحرارة او لطبيعة الجو داخل المصنع ردود افعالها فى تقليل او زيادة القدرة على الانتاج ، فيؤثر الجو الخانق على درجة تركيز الذهن وازدياد التهابات الجلد والعين والعضلات(١) ، مما يؤدى فى درجة الكفاية الانتاجية ، الامر الذى معه ينبغى اصدار تشريعات العمل للوقاية من امراض المهن وآلامها مع الاسترشاد ببرامج التوجيه المهنى Vocational Guidance فقد تؤدى اعمال اللحام الى امراض بصرية نتيجة لشدة الضوء ووهج النار ، ومع اتساع وضيق حدقة العين وبطريقة عصبية ومفاجئة ، يحدث الاخلال العصبى فى الجهاز البصرى ، فتقل درجة الابصار وقد تتأثر ايضا اعصاب السمع من شدة ضوضاء المهنة كالحدادة والحفر الآلى والتعدينى ، فتجهد الضوضاء خلايا الشعيرات الحسية ، وتؤثر على درجة حساسيتها ، فتقل القدرة السمعية نتيجة التوتر والتعب العصبى وتقليل الحساسية واجهاد الخلايا الحسية والحركية .

وتكثر امراض المعادن التى تتأثر بالابخرة والغازات الناتجة عن تفاعل الكبريت وتكرير البترول الخام ، وقد يحدث التسمم بين عمال صناعة الرصاص ، ومن اعراض هذا النوع من التسمم ، أن تظهر علامات عضوية . وتتمثل أعراض هذا المرض فى حدة الارق وهبوط ضغط الدم ، والاعياء الشديد وفقدان الشهية . ومن اعراض التسمم المزمن فقر الدم واضطراب المزاج ، وقد تؤدى الغازات والابخرة الى الاختناق والالتهابات كما قد يؤدى نقص الاكسوجين الى التشنج العصبى .

وتظهر الالتهابات الجلدية وتطفح ، كنتيجة لاستعمال القلويات والاحماض ومواد طلاء المعادن والبويات ، وتنتج عن هذه الالتهابات ظهور اكياس تحت الجلد مع انسداد الغدد الدهنية ، وبصيلات الشعر . الا ان الاهتمام بتغذية العامل ، وتوفير وجبة غذائية كاملة طبقا للشروط والمواصفات الصحية حيث تكون غنية بالفيتامينات والبروتينات ، فالغذاء الجيد يوفر الطاقة اللازمة حتى ينجز العامل عمله دون اجهاد يكون على حساب صحته الجسمية ، فينبغى على كل

(1) Weinstein, W.S., Health in the City, Vancouver, Canada, 1979.

مؤسسة صناعية ان تقوم بتقديم وجبة غذائية كاملة للعمال اثناء راحة الغذاء فى فترة الظهيرة .

ولما كان ذلك كذلك ، ينبغى بذل الجهود المكثفة لحل مشكلات العمل والعمال بتغيير انماط حياة العامل وبيئته ، وتطوير ايكولوجيا المصنع ، واستخدام ظروف العمل الفيزيقية العلمية والمبتكرة حتى تحمى العامل من امراض المصنع وتشوهات المهنة وتلوث البيئة Pollution الصناعية(١) .

سمات الاسرة(٢) الحضرية ومشكلاتها :

كان التصور الخاطىء القديم فى اعداد الطفل وتربيته ، هو النظر الى هذا الناشىء المبكر ، على انه « رجل صغير » ، وهذه نظرة قاسية وخاطئة تربويا ،(٢) فليس الطفل رجلا صغيرا ، وانما هو « رجل فى سبيل الصنع Man in Making » او انسان ينمو ويصنع نفسه Man Makes Himself ، على حد تعبير « جوردون تشايلد » فى كتابه الذائع الصيت ، والذى يحمل نفس العنوان(٣) .

ولقد اعلن اساطين التربية وعلم النفس ، اننا ينبغى الا ننظر الى الاطفال ، نظرتنا الى رجال كبار او حتى صغار ، فلا نحكم على الطفل بنفس المقاييس والمعايير التى نحكم بها على الكبار البالغين او الراشدين ، فهذه حقيقة سيكولوجية تؤكدها نتائج الدراسة فى علم نفس « النمو » والفروق الفردية . فلقد كان الهدف من اعداد الطفل وتربيته هو نقل المعارف اليه ، لانه كما كانوا يعتقدون خطأ أنه « رجل صغير » تنقصه الخبرة والمعرفة والمهارة وتحيله عمليات التربية والاعداد والتنشئة(٤) من رجل صغير الى مواطن صالح نافع بالغ . وهذه نظرة لا تدعمها الحقائق العلمية ، فالتربية هى الهدف وهى الغاية ، وليست حشو الادمغة بالمعلومات والمادة العلمية .

---

(١) قد تتلوث البحيرات والانهار والبحار حين تتخلص المصانع من بقاياها ، فتفرز إفرازاتها او غازاتها كى تسمم الجو وتفسد الهواء وتلوث المياه .

(2) Kirkpatrick, C., The Family As Process and institution ., Ronald Press. N.Y. 1963.

(3) Childe. Gordon., Man Makes Himself.. Fontana., 1966.

(4) Titmus. R., Familya as a social institution.. British National Conference on social Work., London. 1953.

ولقد كانت المدرسة هى وسيلة نقل المعارف والمهارات ، فالمدرسة مؤسسة عامة لتوزيع المعلومات ، أما الاسئلة والبحث والاستقصاء فهى أمور ممنوعة من التلاميذ .

ولقد كانت وظيفة المدرس القديم هى تلقين المعلومات وأجبار التلاميذ على حفظ هذه المعلومات ، أى ان دور المدرس والطالب انما يقتصر على الحفظ والتلقين وتنظيم المعلومات فى وحدات منطقية حتى يسهل حفظها من الطالب ، ويحيطها المدرس بهالة من القداسة والاحترام[1] .

ولقد كانت الغاية المنشودة من هذا الاسلوب الخاطىء فى مناهج التربية هى صب الطالب فى « قالب معين » ، فتتخرج كل عام نماذج متشابهة الصورة متجانسة المضامين ، وكأنها نسخ متكررة وخالية من الفكر والابداع ، لانها ذات انساق محددة ومغلقة ، فلقد كان دور المدرس فى مناهج التربية التقليدية العتيقة هو الدور الايجابى Positive فى العملية التعليمية ، فهو الذى يلقن المعلومات ويفرضها فرضا ، وهو الذى يقوم بتقييم Evaluation الطالب عن طريق ما يوجهه المدرس من اختبارات وامتحانات واسئلة تكشف عن مدى قدرة الطالب على الحفظ الروتينى الآلى الذى يصبح مع التكرار الرتيب افكارا جاهزة او عادات فكرية يتلقاها الطالب على نحو سلبى Negative لأنه يقف من المادة والاستاذ موقف الولاء مع الطاعة والقدرة على الاستجابة الآلية أو الميكانيكية للاسئلة التى تكشف عن مدى استيعاب الطالب للمادة التى يلقنها اياه استاذه بطريقة دكتاتورية ضاغطة وكابتة عمياء ، فيتحول الطلبة الى آذان تسمع وعقول تتلقى او اوعية فارغة يملأها المدرس بالمعلومات الجافة التى فقدت الحياة .

واستنادا الى هذا الفهم ، كانت التربية فى المدرسة القديمة ، تدور بين قطبى الطالب والاستاذ ، او بين سالب وموجب ، « معلم يعلم وطلبة يتلقون منه المعلومات » أو بمعنى أدق مدرس يفكر ويعرف ، وطلبة لا يفكرون ولا يعرفون ، هكذا كان نظام التربية والتعليم فى مدارسنا ومؤسساتنا التعليمية ، وهكذا كان ماضى المدرسة والاسرة ، اما مستقبل المدرسة ووظيفة الاسرة فى التخطيط والبرامج

---

(١) الدكتور محمد لبيب النجيحى . فى الفكر التربوى دار النهضة . بيروت ١٩٨١ .

الحديثة ، ففيها نلحظ كيف نرفض اخطاء الماضى ، ونعلن الحربَ على التربية التقليدية ، فلقد اثبتت الدراسات السيكولوجية المعاصرة ان الدور السلبى للطفل سواء فى الاسرة القديمة او المدرسة التقليدية ، انما هو دور هدام ، ولا تعمل السلبية على الخلق والابداع ففى السلبية كما يقول « باسكال Pascal » نفاق وهدم وتدهور ، حيث ان الموقف السلبى لا يتطلب منّا سوى الراحة والرتابة ، على العكس تماما من « الايجابية » التى تنبنى على التحدى والمبادرة والجسارة والاثارة ، مع الحماس والتشجيع حين يمتزجان بالتشويق وتاكيد الذاتية . فالدور الايجابى للطفل فى الاسرة والمدرسة انما يفتح الباب على مصراعيه للنقاش الحر المفتوح والارتباط الحر بمجتمع المستقبل الذى يصل ويربط بين التربية والتعليم[1] .

ولقد اثبتت الدراسات التربوية والسيكولوجية المعاصرة ، ان التذكر الميكانيكى والترديد الببغاوى الاجوف للقواعد العمياء كلها عمليات ضاغطة وكابتة[2]، ففى الكبت والضغط والاستبداد سرقة للذكاء البشرى ، لانها تقضى على الحرية ، حرية الفكر فى البحث والكشف والاستقصاء فتضيع هذه الحرية اذا مورست التربية فى الاسرة التقليدية بصورة اصطناعية ومفتعلة .

والعقل الحر الخلاق ، انما ينبنى اصلا على الفهم والتحليل والحكم والنقد وكلها ملكات وعمليات ضرورية ولازمة فى كل عملية تربوية ، حيث ان التمادى فى التعلم الآلى والميكانيكى من شانه ان يؤدى الى هدم لاستعدادات الانسان وضعف قدراته على التأمل الخلاق والتفكير المنتج ، مما يقلل من الشعور بالذاتية ولا يدعم الحرية ، ويخلق العقلية المترددة والشخصية المقصوعة ، التى تتمايز عن الشخصية السوية ، وتتميز عنها بالذبذبة كما ويتصف هذا النمط من الشخصيات المريضة باضطراب الفكر والسلوك المهتز بسبب الغباء والخواء وفقدان الثقة .

فالسلبية طبقا لنتائج علوم النفس تعوق الفكر والتصورات،وتحيل السلبية ذكاء الانسان الفرد من كائن زاخر بالخيال والتفكير والعمل والتلقائية الى كائن خوى من الفعل والفاعلية .

(١) الدكتور محمد ناصر ، الفكر العربى والاسلامى ، وكالة المطبوعات ـــ الكويت ١٩٧٧ .

(2) Follet, Mary., Freedom and co-ordination., London. 1949.

وفى مستقبل الاسرة ، سوف لا تصبح المدرسة مجرد مكان لتوزيع ونقل المعارف والخبرات ، بل تتحول المدارس الى مراكز ومعاهد للبحث والاستقصاء ، وبيئة حية للتعلم ، حين تجتاز المدرسة مرحلة « التعليم » التى كانت قاصرة على نقل مادى «لمعلومات جاهزة» يلقيها مدرس ايجابى ويحفظها تلميذ سلبى ، وانما ستنعكس الآية ليصبح المعلم سلبيا وهذا هو موقفه التربوى السليم على « هامش عملية التربية والتعليم » بينما يكون التلميذ هو « العنصر الايجابى » الخلاق الذى يتوصل الى كل ما يريده عن طريق التفاعل الحر ، بين التلميذ وبيئته ، لاعادة تركيب رصيده من الخبرات والمعلومات للتوصل الى المعرفة الجديدة عن طريق تجديد البرامج ووسائل التعبير والتفاعل الحر وهذا هو المستقبل الحقيقى للاسرة والمدرسة فى عالم سريع التحضر[١] .

ومدرسة المستقبل ، هى المدرسة التى تهىء الظروف للطفل لكى ينمو ويبلور قدراته على التفكير الحر الخلاق فى مراحل التعليم الابتدائى والثانوى مع الاهتمام الجاد وتقديم القضايا المعروضة على مستويات تتسم بالعمق والقدرة على الوعى .

كما نجد فى مدارس المستقبل تيسيرا للعملية التعليمية واتاحة الفرصة المتكافئة لاكتساب الخبرة والمهارة والاختبار والفهم وحرية التفكير والمناقشة لتاكيد الذاتية وتشجيع المبادأة ، ومن ثم يستطيع المدرس الناجح وسط هذا الجو التربوى الصحى ان يكتشف مختلف استعدادات ومواهب تلميذه ، فيساعده طبقا لما يناسب رغباته وحاجاته .

وبتحديث التربية والتعليم يكون الطفل هو محور الدراسة وهو الغاية على ما يقول شيخ المربيين الاميركان جون ديوى John Dewey وعلى المدرس ان يشجع الذاتية دون ضغط او تسلط ، وانما يمارس العملية التربوية بنجاح وبطريقة تلقائية تتسم بالمتابعة والاستقرار ، وبتهيئة البيئة الصالحة نمو الطفل وتعليمه ، والنظر اليه ككائن مفكر وفعال ، وكانسان نام ومتحرك وحساس ، فيجب ان نفتح أمامه كل السبل لاكتشاف مواهبه وانطلاق طاقاته وتحريك امكانياته وتحرير حب الاستطلاع لديه ، لتتجه فى حرية نحو اتجاهات جديدة ، طبقا لقواه الذكائية .

---

(1) Dewey. John., Democracy and Education., The McMillan. 1951.

وطاقاته ورغباته ، وهذا هو النمو الطبيعى الأصيل الذى ينبع وفقا لميولنا وطبقا لفكرنا الذى ينطلق على أرضية صلبة ، وبنفس آمنة مطمئنة ، ومن ثم لا يتخبط التلميذ الصغير خبط عشواء فيتخلف عن الركب حيث يقع او ينزلق فى جو من الغربة والاضطراب ، فيترك المدرسة فاشلا الى الابد .

فليست المدرسة مركزا للتعليم ، ومصدرا للنمو الفكرى والعقلى بطريقة آلية ، او التكيف العاطفى على نحو ميكانيكى ، وانما ينبغى ان تتيح المدرسة الفرصة الكاملة والمتكافئة لتنمية الانسان المتكامل والمتوازن . ولا يصبح الطالب فى هذه المدرسة ، هو المستقبل السلبى للمعلومات ، وانما هو حقيقة الكائن النشط المنتج للمعارف وليس الطفل مجرد جهاز ميكانيكى يستقبل المعرفة ، وانما هو عقلية متفتحة وخلاقة ، وذاتية منطلقة صانعة للمعانى والقيم والمفاهيم الجديدة[1] .

ففى مدرسة المستقبل ، يتلقى الطفل منهجا للفكر ، ويتعلم به كيف يتعلم ، ويعرف بواسطته كيف يتعامل مع الافكار ، وكيف يصنع الافكار ويخلق المعانى الجديدة فى جو خالٍ من السيطرة والضغط والاحباط Frustation لان الخوف كما يقول برتراند راسل Russel هو الداء ، والجبن هو اعدى اعداء الانسان فهو يشل حركة الفكر والعقل ، فيتوقف الانسان وتتجمد شخصيته واناه .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو ضرورة الالتفات الى طرق التربية المعاصرة ، وتطبيقها كخطط وبرامج فى سائر مؤسسات المجتمع كالاسرة والمدرسة والجامعة ، وما تتصل بهذه المؤسسات من اهتمامات العلماء والفلاسفة والمربين ورجال الدين ، بقصد تكوين الانسان النموذجى ، وبناء المواطن الحر المستنير[2] .

تصور المدرسة كقطعة من الحياة :

مدرسة المستقبل ، هى «عدسةلامة» لكل ما يدور فى عصر العلم والتكنولوجيا ، وتكوين المواطن المتفتح ، بعقلية حرة ومستقلة ، وذلك لبناء الانسان العصرى وشخصيته الذكية النامية ، حين يتكيف ككائن حضرى مع عصر الصناعة والتعقيد[3] .

(1) Kirkpatrick, C., The Family As Process and institution, Ronald Press. N.Y. 1963.

(٢) د. محمد لبيب النجيحى ، فى الفكر التربوى ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨١ .

(٣) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع والايديولوجيات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

ولم يعد هدف المدرسة العصرية ، هو تحقيق منهج تجزئة العلوم ، وحشد المعلومات مع اغفال تنمية القدرات والمهارات والاغراق والاهتمام بالجوانب الآلية فى المعارف والأفكار الجاهزة Toute Faite مع تجاهل واغفال الجوانب العاطفية والوجدانية حيث ان هذا المنهج التقليدى العتيق سوف يؤدى الى التوصل الى مستقبل غامض فلم تعد التربية هى مجرد وسيلة لاكتساب المعلومات والمعارف ، داخل « سجون المدارس » بل اصبحت التربية المعاصرة هى عملية ثقافية تتفق مع نمو وبناء الانسان الفرد وايجاد البيئة الصالحة لنمو وتشجيع الذاتية .

والمدرسة العصرية عند جون ديوى Dewey هى قطعة من الحياة ، وعملية التربية هى فى ذاتها عملية حياة Aprocess of life . ولابد ان ترتبط عملية التعليم بعملية نمو ، وان تتصل برمتها بتنمية الحياة وتربية النفس ، واعداد العقل ، واكتساب الخبرة . ولابد من ان تراعى شروط النمو فى عملية التربية المعاصرة ، كما تتصل بها ضرورة عملية اجتماعية تتضمن تفاعلا مستندا الى شروط التعليم وضرورات اكتساب الخبرة ، فتتم بذلك سائر برامج عملية التربية وتكتسب فى جو اجتماعى ومناخ ديمقراطى ، متحرر دون ضغط او اكراه[1] .

وفى المدرسة العصرية ، اعطى ديوى ، اهتماما كبيرا فى آداء عملية التدريس وطرق التعليم واكتساب الخبرة ونمو المعرفة . فالتربية عند جون ديوى هى « عملية بناء للخبرة » واعادة تنظيم للمعرفة التى ينبغى ان تتكامل وتضاف الى سائر الخبرات السابقة ، وتزيد من القدرة على اكتساب خبرات لاحقة ، وهذا هو السبب الذى من اجله يربط ديوى ، بين عملية التفكير ، وبناء الخبرة وتنظيم المعارف ، فهو يقول ان الانسان لا يتعلم خبط عشواء او بطريقة اعتباطية ، وانما يتعلم الانسان كيف يفكر عن طريق الخبرة .

ولا شك ان النمو الصحى للخبرة الصحيحة ، انما لا يقف عند حد معين ، بمجرد التفاعل السطحى او الاحتكاك البسيط بين العوامل الداخلية والذاتية ، وبين الشروط الخارجية والدوافع الواقعية فقط بل تتعداه الخبرة الصحيحة والصحية الى محاولة التوفيق والتنسيق بين هذين النوعين من العوامل .

---

(1) Follet, Mary., Freedom and Co-Ordination., London. 1949.

وحتى تضيق الفجوة تماما بين المدرسة والحياة ، يكون التعليم عن طريق الخبرة والممارسة ، بشرط اختيار الخبرة على اساس الاستمرارية والتفاعل ولا يتم التعليم الا على اساس هذا النوع من الخبرة المشروطة بالاستمرار والديمومة والفاعلية .

وتستند التربية المعاصرة عند ديوى ، الى[1] ذاتية الطفل الذى نقوم بتربيته واعداده اعتمادا على جانب ، نفسى واجتماعى ، اما الجانب النفسى فيتكون من عواطف وغرائز وملكات ، وهذه هى مادة التربية ونقطة بدايتها . ولكن الطفل هو البداية وهو الغاية من عملية التربية ، كما يقول ديوى . وبالتالى جعل من الطفل هو مركز العملية التربوية بعد ان كانت التربية التقليدية متمركزة اساسا حول المادة الدراسية . اما الجانب الاجتماعى فى العملية التربوية ، فيتمثل فى التأكيد على الفردية individualism وتشجيع الذاتية ، فالطفل « حقيقة واقعية » وليست كائنا مجردا ، والطفل واقعة ، او حالة قائمة ، او كائن اجتماعى لا ينبغى اغفاله . فينبغى التركيز على الجانب الاجتماعى للطفل ، وتربيته التى تبدأ بالنظر الى قوى الطفل وعاداته التى تعبر عن ذاته وسماته التى تدل على شخصيته . وليست المدرسة وسيلة لنقل التراث على ما يزعم اصحاب النظرة التقليدية فى فلسفة التربية ، فالمدرسة حياة وتجديد وليست المدرسة المعاصرة منفصلة عن واقعها الاجتماعى والسياسى ، وانما تلتحم المدرسة العصرية بروح العصر ، وتنظر الى التراث نظرة جديدة فتجدده ، وتحيل القديم الى جديد ، وتلك هى النظرة العبقرية الخلاقة[2] . وتخلق المدرسة العصرية المواطن المنتمى لمجتمعه ، والملتزم باهدافه وقيمه الانسانية . وليس الهدف هو الولاء لمعتقدات بعينها أو قيم بذاتها ، وانما العطاء للانسانية ككل، وتلك هى التربية العصرية التى تخلق «الاستعداد والعطاء والتضحية» ، فليس الانسان كائنا منعزلا أو أنانيا وانما يعيض الانسان المتحضر من أجل الآخرين ومعهم على ما يقول المبدأ الاخلاقى الوضعى القائل «العيش للآخرين Vivre Pour L'autrui بشرط أن نتجنب الذوبان فى الآخرين ، فنجمع بذلك بين الاصالة Originality والتجديد Innovation .

(1) Dewey, John., Democrocy and Edcation, The McMillan Co. N. 1951 P. 191.

(٢) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، تيارات معاصرة فى علم الاجتماع ، الدار القومية ١٩٨٠ .

منهج التربية الاسلامية :

ان التربية الاسلامية الحقة ، هى التى تربى الانسان المسلم أو المؤمن ، والمؤمن هو الكيّس الفطن ، على ما يقول الحديث الشريف ، وهو الذى ينشد لذلك وجه الحقيقة متى وجدها . وينبغى أن تستوعب الترية الاسلامية حضارة الاسلام وثقافته وطموحاته وأن تكون أهدافها التربوية هى مسئولية كل المؤسسات التربوية من البيت والاسرة والمدرسة والجامعة وكل وسائل الاعلام ، بشرط أن تضع سائر هذه المؤسسات فى أعتبارها « بناء الانسان العربى المتوازن » لخلق الشخصية الناجحة ، مع الاهتمام بتكوين المهارات الفكرية والسلوكية والاجتماعية .

وتنظر فلسفة التربية[١] الاسلامية الى البيت والعائلة والاسرة بأعتبارها نظم أو مؤسسات تؤسس جميعها الجماعة المبكرة أو المدرسة الاولى « التى يجد الطفل فيها نفسه كأحد أعضائها وأفرادها » .

فالاسرة كما يقال دائما هى « الخلية الاجتماعية الاولى » التى يولد فيها الطفل ليتربى فى أحضانها ، ويتشرب منذ مهده مع حليب أمه ، أسلوب الحياة ويتعلم أنماط السلوك ، ويلقن الطفل سمات الثقافة منذ نعومة أظفاره[٢]. ويتفهم فى طفولته المبكرة ، كل ما يتعلق بالقواعد الاولية اللازمة لتكوين « الكائن الاجتماعى » وبناء ذاتيته من خلال الانشطة الضرورية فى نسق الحياة العائلية والقبلية .

ولم تكن الاسرة والقبيلة وعلاقات الجوار وانساق القرابة ، هى المدرسة الاولى التى يتربى فيها الاطفال . وانما تعتبر الطبيعة Nature فى زعم الفيلسوف التربوى « جان جاك روسو » هى معلم أو مدرسة أخرى ، يتعلم الانسان منها الكثير ويلقن سائر الخبرات التى تتلقاها وتتناقلها الاجيال ، وهذا هو الذى من أجله أعلن جان جاك روسو Rousseau فى كتابه « اميل Emile » الذى أعتبره المربون القدامى « انجيل الثورة الفرنسية » والذى صاح فيه روسو ولفت الانظار ونبه الاذهان نحو جمال الطبيعة وهو صاحب « نداء العودة الى الطبيعة Back to Nature » لان المجتمع هو مصدر الرذائل القبيحة والعادات السيئة ، أما الطبيعة

(١) الدكتور محمد ناصر ، الفكر التربوى العربى الاسلامى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٧ .

(2) Qubain, F., Education and Science in theAurab World, Baltimore, Moryland John Hopkins Press. 1966.

فهى المعلم الحقيقى الذى يعلم الطفل ، حين يلاحظ ويتأمل فى امتداد الارض والسماء ، وما يدور مع القمر والشمس من افلاك ونجوم ، كما يتابع الصغير ويشاهد الاطفال الظواهر الجوية وتعاقب الفصول ، ويعايش صغار الحيوانات ، فيتعلم الطفل ويلقن فى أحضان الطبيعة كل خبرة ، وبطريقة ذكيّة لا تفرض عليه الحقيقة من الخارج . ولذلك طالب « روسو » بتحويل فصول المدارس الى « حدائق جميلة » يتابع فيها الاطفال الحقائق العلمية ، أما « الكتب » فينبغى أن نستبعدها تماما عن الاطفال ففيها لعنة الطفولة ، على حد تعبيره .

ولقد كان الهدف من العملية التربوية يتطور مع تطور طبيعة المجتمعات ، حيث بنيت التربية على فلسفة لم تكن تنفصل عن « بنية الحياة الاجتماعية » ، ففى الفلسفات اليونانية ، كان الهدف من التربية هو اعداد الانسان المتفهم لطبيعة الكون والحياة ، وبناء تصورات الانسان بالنسبة الى وجود الله والنفس والعالم . والتربية عندهم هى تربية للعقل وتنمية للجسم وتسامى بالذوق الفنى ، وكان الفلاسفة من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو يركزون أصلا على طبيعة « الانسان العاقلة » .

وكانت التربية اليونانية ، تحترم الهندسة والموسيقى وتعشق البطولة واعداد الابطال فى أعمال الحرب ، والتدريب على المصارعة فى وقت السلم الا أن التربية اليونانية كانت تفضل الجانب الفكرى على الجانب المادى ، وتحتقر المهن والطبقات التى تعمل عملا يدويا .

وضاق مفهوم العلم وحصرته فى مفهوم « العلم للعلم » ، أما الفلسفة فترف واستمتاع حيث أن السعادة كما قال أرسطو تتحقق «فى عملية الفكر وفعل التأمل» ، ومن ثم كانت الميتافيزيقا عنده هى أشرف العلوم[١] .

وفى القرون الوسطى ارتبطت «المدرسة بالكنيسة» وانسجمت مع تعاليم الدين المسيحى فظهرت المدارس الديرية ، والمدارس الكاتدرائية ، وفى نهاية القرون الوسطى ، اشتهرت مدارس « اخوان الحياة العامة » ومدارس اليسوعيين

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الثقافى ، الاسكندرية منشأة المعارف ١٩٨١ .

« الجيزويت » ، ودارت كل هذه المدارس فى فلك المدارس الديرية ، من حيث برامج التعليم ومحتويات المنهج وكانت المادة العلمية فى المدارس المسيحية ، تحاول قتل ومحاربة العقل ، كما كانت التربية الديرية تقتل الغريزة ، أما الكنيسة فما يقوله رجالها وكهنتها ، فينبغى أن يخضع له سائر الناس خضوعاً أعمى .

ولقد كان هدف التربية الديرية ، هى قتل واماتة الشهوات ، ومواجهة الدوافع الفطرية وكبح جماح النفس ، واهمال مطالب البدن ، حتى تترقى الروح ، وتتسم بالشفافية ، فتنجو من عذاب الدنيا والآخرة ، ولذلك اتسمت تربية الاديرة « بأتخاذ أنماط السلوك القاسية بقهر الجسد وكبت الشهوة ، بالرهبنة والعزلة » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، كان « البيوريتان Puritan » فى «نيوإنجلند» يعتقدون أن هناك طبيعة فاسدة فى الاطفال ، وهى مبعث كل الذنوب والآثام ومصدر الشرور والانحرافات .

ولقد نصح كهنة البيوريتان ، أن يأخذ أولياء أمور الاطفال « المسكونة نفوسهم » كما يعتقدون بأرواح شريرة ، فأصبحت فى أعتقاد الكهنة أرواح جاهلة خاطئة ومشوهة ومستعبدة للشيطان وحده ، وعلى الاب أن يأخذ الطفل المريض الى الكنيسة حتى يلقاه الرب عيسى المسيح ، فيخلصهم من خطاياهم وشرورهم وآثامهم ، ويطرد الشياطين التى سكنت نفوسهم المسكينة .

ومن اخلاقيات البيوريتان وسائر المدارس التطهرية ، أن التبرير الدينى لضرب الاطفال أو جلدهم ـــ كقاعدة تطهرية أساسية هى الخطيئة الاولى ، والى أن الانسان شرير بطبعه وأن الجسم هو « وعاء أو صندوق للروح » ولذلك غلبت على الانسان شهواته بطبيعة جسمه المادية كما سيطرت أهواء البدن على سلوك الانسان . وهذا هو السبب الذى من أجله صَرح البيوريتان بضرورة جلد « البدن » حتى يتخلص الاطفال من الشياطين الكامنة فى أجسادهم . مما أدى الى خروج قانون « ماساشوسش عام ١٦٤١ » وقانون « كنتكت عام ١٦٧٢ » اللذين أقرا عقوبة الاعدام على الاطفال الجانحين والجامحين .

ولقد قوبلت هذه النظرة بهجوم شديد ، هاجمها « جان جاك روسو » فالشر

لا وجود له فى طبيعة الانسان ، ككائن خير بطبعه ، ولد طاهرا ، فأفسده المجتمع وتطبع بالطباع والخصائص اللا أخلاقية الخسيسة والرديئة ، لان المجتمع هو مصدر الدنس .

أما الطبيعة عند روسو ، فهى على العكس تماما لانها خيرة وتفيض بالخيرات والنعم ، والطفل هو ابن الطبيعة الطاهرة الخيرة ، وعلى المربيين أن يبحثوا دائما عن مفاتيح النمو الطبيعى للطفل أثناء اعداده وتربيته فى أحضان الطبيعة ، مع اتاحة الفرصة لكى ينمو بصورة تلقائية وطبيعية فى جو ديموقراطى مفعم بالحرية[1] .

اعداد الطفل فى التربية الاسلامية :

تكلمنا عن التربية البيوريتانية فى المسيحية ، ويهمنا فى تيار بحثنا ، أن نركز على التربية فى الاسلام حتى نستطيع أن نتتبع سمات الاسرة وملامح الشخصية المسلمة . وعلى أساس القرآن والسنة تستند التربية الاسلامية ، والاسلام دين يخطط للدنيا والآخرة ، وآيات القرآن تشرع للانسان والمجتمع ، وآيات القرآن ذات قداسة لانها كلام الله ، أما السنة هى التخلق بأخلاق القرآن . ولذلك تستند التربية فى الاسلام الى ذلك التكامل القائم فى تلك النظرة الشاملة للكون والانسان والمجتمع . وفى اعداد المسلم ، تعتبر غاية كل من الفرد والمجتمع هى غاية واحدة ، بتحقيق السلوك الاسلامى ، وتنفيذ المنهج القرآنى فى الدنيا ، ابتغاء وجه الله تعالى والتشرف بالنظر اليه يوم القيامة حتى يقيم فى جنات النعيم . تقول الآية الكريمة « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار » .

وفى التربية الاسلامية يكون اعداد المسلم اعدادا متكاملا للدنيا والآخرة وبالالتفات الى الجوانب المادية والروحية معا فى تكامل وانسجام « وأسعوا فى مناكبها » ، و « وكلوا من طيبات ما رزقناكم » و « ويل للمطففين الذين اذا أكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » و « أعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ويقول المثل الاسلامى السائد والمنسوب الى النبى ﷺ « اعمل لدنياك كأنك

---

(1) Follet, Mary., Freedom and Co-Ordination London. 1949.

تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . ومثل الآية القائلة « ولا تنسى نصيبك من الدنيا » وفى « أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

وأستنادا الى كل هذه الآيات البينات تستند التربية فى الاسلام ، الى النظر الى الانسان نظرة كلية شاملة لاشباع الجوانب الروحية والعاطفية والدنيوية وعالجت التربية الاسلامية موقف الانسان بالنظر اليه «كجسم وعقل وروح» اذأن الاسلام يؤمن بكيان الانسان المادى المحسوس ، وأنه قبضة من طين الارض لها مطالبها وشهواتها ، وأنه فى نفس الوقت نفحه من روح الله ، فخلق النفس وجمع فيها الكثير من المتناقضات وخلق النفس الانسانية وألهمها فجورها وتقواها ، ووقعت فى شقاق أبدى بين عالم الروح النورانى والجسد المادى والفانى ، فكان الصراع الدائم الدائب بين العقل والشهوة ، بين مطالب الغريزة وتطلعات الضمير ، حيث لا يلتقى النقيضان نظرا لشدة الجدل بين المثال والواقع وحدة الخلاف بين السماء والارض .

وكانت الدعوة الاسلامية للايمان مقرونة دائما بالدعوة الى العلم فنجدها هى الاخرى مقرونة بالدعوة الى المعرفة التى تقترن بالدعوة الى العبادة ، فالعلم خطوة من أجل المعرفة ، والمعرفة خطوة من أجل العبادة .. وهنا تقول الآية « وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون » أى ليعرفون ، كما يقول « ابن عباس » الذى وصل بين العبادة والمعرفة ، كما أعلن القشيرى[1] .

ولا شك أن الدعوة الى العبادة هى الاخرى مقرونة بالدعوة الى العمل ، « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يُرى ، ثم ان الدعوة الى الفكر والتأمل نجدها فى القرآن الكريم مقرونة بالدعوة الى « اليقظة الروحية وتنمية الروح والوجدان » مثل الآية القائلة « أفلا ينظرون الى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت »[2] . و « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن

---

(١) الرسالة القشيرية ــ لأبى القاسم القشيرى ــ القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) من سورة الغاشية ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[1] .

وفى التربية الاسلامية[2] تكون الدعوة الى الغاية مقرونة بالنظر الى الوسيلة من أجل بناء المجتمع المسلم وهى غاية الاسلام ، وتنبنى أسس التربية على أخلاقيات القرآن والسنة . وتلك هى الوسيلة الفعالة لتحقيق الدولة الاسلامية الحقيقية بتهذيب الاخلاق وتقويم السلوك ، وأستقامة الحياة الاجتماعية بكل أبعادها الصحية ، وبناء النفس المسلمة المطمئنة ، وتكوين الاسرة الاسلامية بحيث يكون قوامها « الاخلاق والفضيلة والوطنية » ، حتى يتحقق المجتمع الاسلامى الفاضل ليشيد لنا حضارة عصريه حضارة البطولة والفتوة ، تكون مفتوحة الحدود ، ترفع أعلام الحرية والعدل ، تؤمن بالتقدم والاخاء والمساواة وتشمل كل ما فى الحياة . حضارة اسلامية قوية ، ترفرف عليها رايات العزة والكرامة ، راقية فى مثلها العليا وسماتها الفكرية والنفسية ، حضارة تشجع المؤمن على التفكير الحر والمبادأة الجسورة ، والتفكير فى خلق الله ، فالحقيقة ضالة المؤمن ، عليه أن يسعى للبحث عنها والقبض عليها متى وجدها ، تقول الآيات « وفى أنفسهم أفلا ينظرون » و « تبينوا يا أولى الالباب » و « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ربك » .

وتتميز حضارة الاسلام بالشمول والعالمية ، وشريعة القرآن لا تحدها حدود زمانية أو مكانية ، ومبادىء الاسلام شاملة ومطلقة لا تحدها حدود ضيقة من الفكر ، أو حدود قاصرة يمكن حصرها فى مقولات جامدة كالانانية والفردية والسلبية ، والعنصرية .

وغاية القرآن العظيم هى تحرير الانسان والفكر ، وهذه هى الغاية الحقيقية من حضارة الاسلام ، وتربية القرآن وهى الهدف البعيد من تطبيق السنة المحمدية فيتحرر الانسان من عبادة الشهوات كالمال والسلطة والجاه « بئس عبد الدرهم بئس عبد الدينار » كما يقول حديث الرسول ﷺ « فلا يعبد المسلم سوى الرحمن ، ولا يتجه المؤمن الى غير الله » ، ولا ينشغل بشهوات الدنيا ، فقد تحرر

---

(١) من سورة الحجرات الآية رقم ٦

(٢) الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ١٩٦٢ .

منها لانها فاسدة ومفسدة ز ومن لا يغفل عن ذكر الله ينزل الله عليهم السكينة ويتحرر الانسان من عبودية الجاه والمنصب والسلطة والسلطان والهيل والهيلمان ، ومن يخشى الله ، آمنه الله من المخاوف ، ومن أصابه الخوف والغم ، يفزع الى قوله تعالى « لا أله الا أنت سبحانك ، أنى كنت من الظالمين » . ثم يعقبها الله تعالى بقوله « فأستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » وتقول الآية الكريمة « آلا بذكر الله تطمئن القلوب » .

ولقد أحترم القرآن الفكر الانسانى ، « ولينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، انه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر » وقوله تعالى « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » .

ويحترم القرآن المنطق والحجة والاقناع بالدليل العقلى ، كما فى قوله تعالى « كيف يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى خلقها أول مرة » .

« ويسألونك عن الاهله ، قل هى مواقيت للناس » ، ففى القرآن منهج وتشريع وتعليم وتربية وثقافة وسلوك ، وذلك لتنمية الادراك والفهم والحكمه ، ومن يتخلق بأخلاق القرآن يكون على خلق عظيم ، مصداقا لقول الله تعالى لرسوله الكريم « وانك لعلى خلق عظيم » ولقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ « لقد كان خلقه القرآن » .

ويشجع القرآن الكريم على التفكير الذى يميز ويوازن ويقارن ، ويعلل ويحلل ويستنتج فلقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال « العلم خزانة مفتاحها السؤال » .

وفى شخصية رسول الله ﷺ ، تجمعت كل سمات المعلم والمربى وصفات القائد والحاكم والقاضى ، وكان اماما يؤم المسلمين ، ومعلما لهم بالحكمة والموعظة الحسنة وقاضيا يحكم بينهم بالعدل وتاجرا يمشى فى الاسواق يوازن بين مطالب الدين ومطالب الدنيا .

ولكن ما هى أهم سمات التربية فى الاسلام ؟ وما موقف الاسلام من العلم ؟ وكيف تكون الوظيفة الحقيقية للعلم النافع ؟

١ ــ اهتم الاسلام بالعلم النافع قال عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن عمل بعلمه » وكل علم وبال على صاحبه الآمن عمل به « وأطلبوا العلم من المهد الى اللحد » .

٢ ــ ارتبطت العقيدة الاسلامية بالعلم والتعليم وأمتزجت الرسالة الاسلامية بالتربية بما يضمن خير البشرية ومنفعة الناس ، فى كل زمان ومكان .

٣ ــ امتزج العلم بحاجات وأهتمامات البشر ومنافعهم ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « اللهم علمنى ما ينفعنى ، وانفعنى بما علمتنى ، وزدنى علما والحمد لله على كل حال » .

٤ ــ أهتم الفكر الاسلامى بالفروق الفردية بين الناس[١] ، فقامت التربية على أساس مميزات كل فرد وهناك فى التشريع الاسلامى « فرض عين » على كل المسلمين ، « وفرض كفاية » ويفرض على البعض دون الآخر « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » ويقول الحديث السائد « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » .

٥ ــ لم تقم العقيدة والتربية فى الاسلام ، الا على أساس تحقيق التوازن والاشباع الضرورى لحاجات الانسان ولقوى النفس والعقل والروح والبدن[٢] .

التصور الاسلامى للانسان :

فى طبيعة الانسان ، ثنائية بين المادة والروح ، وفى تربية المسلم واعداده ، ينبغى النظر الى تلك التركيبة الثنائية التى جمعت بين خلقه من طين ومن ماء مهين ، ثم سواه فعدله ونفخ فيه سبحانه وتعالى من روحه ، وجعل له العقل والروح والسمع والبصر والفؤاد .

ففى الانسان طبيعة سماوية الهية وقدسية تجعله يميل الى التفكير والسمو على الوجود المادى وعن طريق الذاكرة ، الانسان كائن قادر على التذكر فيستوعب

---

(١) الدكتور محمد ناصر ، الفكر التربوى العربى الاسلامى . وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٧ .

(٢) د. عبد الله عبد الدائم ، التربية عبر التاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ .

الماضى ، وهو يفكر ويتأمل فيستوعب الحاضر . الذى يعيشه بخبراته ومعطياته وهو قادر على التصور والتخيل ، فينظر الى نفسه ويتصور الحاضر ويخطط للمستقبل[1] .

وللانسان عقله وضميره ، ونفسه وارادته ، فيختار الانسان المسلم فى سلوكه بين الفضيلة والرذيلة ، بين الخير والشر . وبالأرادة يسيطر الانسان على سلوكه ، وتعصمه ارادته من الخطأ وتضبط حركاته وسكناته ، فبالارادة يُقدم الانسان أو يُحجم

والعقل هو اداة التمييز والادراك عند الانسان ، والمقياس الذى يقيس به الاشياء وهو معيار أحكامه فى الصواب والخطأ - فالعقل هو الذى يزن ويقيس ويستنبط ، ويحسب النتائج ، ويحكم على ما يقع أو يحدث ، ويتنبأ بالمستقبل ، أما الضمير فهو قوة موجّهة تراقب أفعال الناس ، وتهيمن على سلوك الانسان المسلم فيشعر بوخزات الضمير أو الندم اذا فعل اثما أو ارتكب ذنبا ويظل ضميره يؤنبه ، ويشعر بوخزه كوخز الابر واذا ما تمادى الانسان فى الاثم ، يتزايد وخز الضمير ويزداد ايلامه حتى يرجع الانسان عن ذنبه ، ويتوب الى الله ويندم على ما فعل ، وسرعان ما تهدأ نفسه وتعود الى سيرتها الخيرة وتسكن نفسه وتطمئن ، وترجع الى حالتها الاولى ، فالضمير قوة خيره كامنه ، أما العقل فهو قوة مدركه ، تميز بين الصواب والخطأ ، بين النافع والضار ، والخير والشر ، ثم ينزع الانسان بأرادته الحرة ، ويختار ما يروقه من ألوان السلوك . فالعقل يدرك ويقيس ويميز بين مختلف المعايير السلوكية ، والضمير بنورانيته وحساسيته ، يراقب أفعال الانسان ويحاسبه ، بينما توجه الارادة كل من العقل والضمير نحو السلوك المطلوب أو النزوع الواقعى أو المرغوب فيه ، بمعنى أن الارادة هي «ماوراء الافعال من قوى بحيث تحيل الارادة ما هو بالقوة الى ما هو بالفعل »، اذا ما استخدمنا لغة أرسطو ، حيث تتحول القوى الخامدة أو الباطنة الى وقائع وأحداث ، تقع وتحدث هنا والآن Here and now فالانسان ليس كما يقول البيوريتان شريرا بطبعه ، كما أنه ليس كما يقول روسو ، خيرا بطبعه ، وانما هو « طاقة » والطاقة فى حد ذاتها لا يمكن وصفها بطاقة خيرة

(١) دكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى . المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ١٩٦٢ .

أو طاقة شريرة ، وانما الانسان طاقة محايدة بين الخير والشر ، والخيريه والشرية هما من معايير الاستخدام والاستعمال . فاذا استعملت الطاقة فى وظائفها الحقيقية أنشغلت بالطاعة وصارت خيرا ، واذا انشغلت بالمعصية واستخدمت الطاقة فى غير وظائفها الحقيقية صارت شرا ووبالا .

والانسان يكتسب الخير أو الشر بالتطبع لا بالطبع بالتربية والتعليم والبيئة ، أى أن التنشئة الاجتماعية هى السبب الكامن وراء نماذج السلوك الفاضل حين تتمايز عن الرذل . ومن هنا يكون الانسان فى عقيدة الاسلام « طاقة محايدة » لأنه ببساطة كائن طبيعى واقعى ، والله هو الفاعل الحقيقى ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو على كل شىء قدير ، فالله هو خالق الطبيعة وخالق الانسان حتى يدرك العقل الانسانى قوانين الكون ويتوصل اليها فيزداد علمه بالموجودات من حوله ، ويؤثر فيها ، وعن طريق العقل والارادة والضمير وطاقات الانسان الذكائية ، يستطيع الانسان أن يعيد أمجاد الاسلام ويجدد بالتحديث Modernization حضارة القرآن الكريم ، وتطبيق الفكر الاسلامى الرشيد فى عصر تزداد فيه حدة الماديات وتتهافت النفوس الضعيفة حول الشهوات الدنيا وتتجه قيم العصر نحو عبودية المال والسلطة والقوة ، يومها تحطم فلسفة القرآن تلك القيم المتهالكة ، وتهدم تصوراتها الخاوية من المثل العليا[1] .

تحديث التربية والتنمية فى الاسرة العربية :

يمكننا أن نمارس « التربية » بمعناها الاسلامى الصحيح ، فلقد أقام القرآن الكريم فى آياته البينات ، قواعد التربية بمعناها الانسانى الحقيقى ، تلك التربية التى تبعدنا تماما عن نمط التدريب المادى المباشر ، كما نجده مثلا فى المعسكر العقائدى الشيوعى ، كما تبعدنا أيضا عن التدريب غير المباشر كما تعلمناه فى كتب التربية التى شاعت وذاعت فى المجتمعات الرأسمالية .

ففى حضارة الاسلام ، ترتفع التربية عن مستوى « الترويض والتدريب » وتتجاوز تلك النظرة التى تتناول الانسان ككائن بيولوجى ، له « ما هيه مادية » . ففى التربية العقائدية الشيوعية ، يأخذ التدريب التربوى والسياسى

(١) دكتور عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .

شكل التوجيه المباشر لأن الفلسفة الماركسية الشيوعية تقوم أصلا على عملية توجيه عقائدى . فالانسان فى المذاهب الشيوعية تحكمه « حتمية جبرية » بالنظر اليه ككائن مادى . ويأخذ التدريب فى التربية الرأسمالية الامريكية شكل الاساليب غير المباشرة ، أى تقوم المدرسة الامريكية بالتدريب والتوجيه بطرق غير مباشرة ، على عكس التوجيه العقائدى ، ولذلك تقوم التربية الليبرالية أستنادا الى ما يمكن أن نطلق عليه بالتحريك اللا إرادى ، بوضع شعارات بعينها ليست مثلا تحتذى أو قيماً تحترم لذاتها ، ويربى الانسان على أساسها ، كما هو الحال فى التوجيه الشيوعى المباشر . ومن ثم تصبح التربية الليبرالية الرأسمالية هى الاخرى تربية مادية ، تقوم على الخواء الاجوف ، وتستخدم أجهزة الاعلام ووسائل الاقناع أو « التسيير غير المرئى » بتحريك الانسان الفرد ، واثارة الجماهير بخيوط وهمية غير مرئية « كخيوط مسرح العرائس » التى تستخدم فى تحريك النماذج على خشبة المسرح .

وفى الاسلام لا يخضع الانسان لجبرية أو حتمية مطلقة ، فالانسان المسلم كائن حر ومختار ، وهو حر فيما يفعل ، ويختار ويستشار فى الامور ، ويميز فيما بينها بالعقل . فالانسان مكلف ومسئول ، اذا ما توفر لديه العقل الناضج والفكر السوى . ومن ثم تقوم تربية المسلم واعداده على مبادىء الحرية والاختيار ، لا الجبرية الحتمية ، فى السلوك الاسلامى أختيار حر ، ولذلك تمارس التربية فى الاسلام بالبعد عن التيارات المادية الموجهة ، فلقد بنيت التربية الاسلامية على الحرية بمعناها الإنسانى الوسيع[1] .

منهج الغزالى فى التربية :

ويعتبر الامام أبو حامد محمد الغزالى (٤٥٠ــ٥٠٥) من أعلام الفكر التربوى الاسلامى ولم يقصد الغزالى فى كل كتاباته أن يوجد مذهبا دينيا ولا نظاما فلسفيا كما كان شأن الامام « على كرم الله وجهه » لان الاسلام فى ذاته ، هو المذهب الصحيح ، والنظام الوحيد ، فى التربية والسياسة وفى أمور الدين والدنيا . ومن أهم الرسائل التى كتبها الغزالى فى التربية والتعليم والتمسك بتعاليم الدين « رسالة

(١) د. عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .

أيها الولد » وهى رسالة كتبها الامام فى الرد على أحد طلابه يسأله عن « العلم النافع فى الآخرة »، حتى يتمسك به ويترك ما سواه .

فكتب اليه أستاذه الغزالى هذه الرسالة مكرراً فى كل فقراتها الرسالة بندائه « أيها الولد » وذلك بعد كل فقرة ، كما أفتتح الغزالى رسالته تلك فى تربية المسلم بقوله : « ان النصح يؤخذ من معدن النبوة ، فان كان قد بلغك منه شىء فأى حاجة لك فى نصيحتى ، وان لم تبلغك فماذا حصّلت فى تلك السنين الماضية ؟ » .

ولقد أورد الغزالى فى رسالة أيها الولد « مفهومه للتربية فقال : معنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه » .

فالتربية عند الغزالى ، هى عملية إعداد للبيئة الاسلامية ، وتهيئة للاسرة الصالحة لتربية المسلم حتى ينتهج المسلمون منهج الاسلام ، وينمو المسلم نمواً تلقائياً حراً دون أن تعترضه ما يعوقه عن الحركة أو حتى ما يعتاق النمو أثناء مراحل اعداد المسلم وتربيته[1] .

ويبدأ منهج التربية الاسلامية ، بتعليم المسلم الصغير الطهارة وكيف يتطهر ، وتقويم أخلاقه ، وتعديل غير السوى ، وتقول الآية الكريمة : « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم »[2] .

فينبغى اذن على المسلم أن يتطهر من أوساخ البدن وقذارة الجوارح ، فالنظافة من الايمان . كما أنها هى جوهر الاديان . وعلى المؤمن أن يتطهر ثانيا لكى يتخلص من رق الشهوات ، فتصفوا نفسه ، وينطلق عقله ، للكشف عن أسرار النفس ، فيصل الى الكمال الانسانى ، وهو «سعادة الدنيا». ويوحى منهج التربية الاسلامية بأنتقال العقل من البسيط الى المركب « فان العلوم مرتبة ترتيباً طبيعياً ، وبعضها طريق الى بعض ، والموفق هو من راعى ذلك الترتيب والتدرج » .

---

(١) د. محمد على الفنيش ، التربية بين المجتمع والجامعة ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس ١٩٨١ .

(٢) من سورة الملك الآية رقم ٢١ .

ومن التوجيهات التربوية السليمة ، يطالب الامام الغزالى ، أن يراعى المعلم « مدى استعداد التلميذ فى تحصيل العلوم » ، كما ينبغى أن يراعى المعلم « مستوى الفهم » ودرجة الاستيعاب عند تلميذه فلا يترق « الى الدقيق من الجلى ، والى الخفى من الظاهر هجوما وفى أول رتبة » والى هذا يشير الرسول ﷺ « ما أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلّا كان ذلك فتنة على بعضهم »[1] .

والقرآن الكريم يشير الى ضرورة مراعاة « الفروق الفردية » فى التعلم استنادا الى الآية الكريمة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » ، فالحكمة تستخدم مع الفلاسفة والموعظة مع آخرين والمجادلة مع أهل الكلام والجدل ، واذا استعملت الحكمة والفلسفة مع أهل الموعظة ، جهلوها ولا يفهمونها ، بل أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير .

واذا استعملت منهج المجادلة مع أهل الحكمة اشمأزوا منها . كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى . واذا استعمل الجدال مع اهل الجدال والكلام بأسلوب يخالف الاسلوب الأحسن الذى أشار اليه القرآن الكريم ، كان كمن غذى البدوى بخبز القمح وهو لم يألف الا التمر ، أو كمن يطعم القروى بالتمر وهو لم يألف الا الخبز .

ومن أقوال الغزالى فى التربية « أيها الولد ، العلم[2] بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون » . و « النصيحة سهلة والمشكلة قبولها » و « المؤمن كيّس فطن » « صدق رسول الله فى حديثه الشريف » ونستطيع أن نشير الى بعض ماجاء فى رسالة الغزالى ، فيقول فى تربية واعداد تلميذه « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من أتبع هواه . أيها الولد : عش ما شئت فأنك ميت ، وأحبب ما شئت فأنك مفارق ، واعمل ما شئت فأنك مجزى به » .

وأعلم أن اللسان المطلق ، والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة ، علامة الشقاوة ، فاذا لم تقتل النفس بصدق المجاهدة فلن يحيا قلبك بأنوار المعرفة .

---

(١) الدكتور محمد ناصر ، الفكر التربوى العربى الاسلامى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٧ .

(٢) الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ١٩٦٢ .

قال رسول الله ﷺ « تعلموا العلم فان فى تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمونه صدقه ، وبذله لاهله قربة » .

قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه « اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها ، وأعمل لآخرتك بقدر بقاءك فيها ، وأعمل لله بقدر حاجتك اليه ، وأعمل للنار بقدر صبرك عليها » .

قال ﷺ « نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .

وجد ﷺ بمجلسين ، فى أحدهما يدعو الله الناس ويسألونه عز وجل ويرغبون اليه ، وفى الثانى يعلّمون الناس : فقال الرسول الكريم ، أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ، فان شاء أعطاهم ، وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيعلمون الناس ، انما بعثت معلماً ، ثم عدل اليهم وجلس معهم .

قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، أطلبوا العلم ولو بالصين » .

ويمكننا تلخيص منهج تربية المسلم عند الامام الغزالى بالاشارة الى بعض الآراء التى أوردها فى كتابه الاشهر « احياء علوم الدين » . حيث قال فى « تربية الصبيان » كأن يشغل الصبى وقت فراغه كله ، فيما يبعده عن العبث والمجون والخلاعة ، مع تعويد الطفل منذ نعومة أظفاره على قراءة القرآن وأحاديث الاخبار والابرار .

ويتهذب الطفل فى زعم الغزالى — بقيامه بالعبادات اللازمة واتخاذ السلوك الدينى القويم ، وحفظه للقرآن ودراسته لعلوم الشريعة وأصول الدين . فينبغى فى تربية المسلم ابعاد الطفل عن قرناء السوء ، مع الاعتدال فى تربيته وتهذيب أخلاقه وتعويده على النشاط لا الكسل ، وإبعاده عن التدليل والتراخى ، وتخويفه من أكل الحرام ، وتعويده الصدق بعد تعليمه أضرار الكذب .

ومن الآراء التى يتمسك بها الغزالى فى منهج التربية واعداد المسلم ، الاهتمام باللعب كضرورة نفسية ، ومطلب ترفيهى ، فينبغى أن يؤذن للطفل على القيام بما

يستريح اليه من ألعاب ، بعد الانصراف عن مشقة الدرس والاستذكار ، فاللعب أمر حيوى لطاقة الاطفال الحبيسة تلك التى يجب التنفيس عنها واطلاقها بعد الفراغ من عناء الدراسة والكتب . حيث أن محاولة منع الطفل من ألعابه ، وارهاقه بالكتب والحفظ والدروس ، انما يميت قلبه .

ويذهب الغزالى الى أن هناك وظائف نفسية واجتماعية لالعاب الاطفال والصبية فالى جانب ترفيه الطفل بلعبه والاستفادة من ألعابه ، والانصراف الى نشاطه الرياضى فى اللعب وخفة حركته ، وارتباطه المستمر بأقرانه ، انما هى عوامل تساعد جميعها على ترويض جسم الصغير وتنمية عضلاته ، وتقوية بنيانه ، فاللعب بعد تعب الدروس ، يساعد على ادخال السرور ، فترتاح أعصاب الصبية ، ويدخل فى قلوبهم المرح والنشاط .

منهج التربية الاسلامية عند ابن خلدون :

يعتبر عالم الاجتماع العربى عبد الرحمن ابن خلدون (٧٣٢ هـ ــ ٨٠٨) من كبار المربين العرب وله منهجه فى التربية واعداد الفتى المسلم ، ويذهب ابن خلدون فى منهجه التربوى ، وجوب تلقين العلم على نحو تدريجى ، وهذا هو المنهج المفيد فى عملية التربية والتعليم بالنسبة للطفل الصغير فتلقى عليه المسائل الاولية البسيطة والسهلة ، ويستمر شيئا فشيئا حتى يبدأ أو يدخل فى التعليم ، فيلقن قليلا قليلا[١] .

ويراعى ابن خلدون فى منهجه التربوى ، ضرورة عرض كل باب على حده ، وطرق أصوله ومتابعة فروعه وفصوله . بشرط تقييم ومراعاة مدى استعداد الطفل الصغير لقبول ما يرد عليه من مسائل فى كل باب من أبواب الفن ، حتى ينتهى الطفل الصغير من دراسة الفن كله طبقا لمستواه ودرجة ذكائه وقدراته العقلية[٢] .

ومع زيادة النمو العقلى والفكرى والذكائى للطفل ، يمكن تحصيل جزيئات الفن الدقيقة ، وشرح مسائله الصعبة ، فتجود للطفل الصغير ملكته ، ويزداد صبره وجلده حين يستوفى كل عويص ، ويتعلم كل ما استغلق عليه فهمه . فلا يترك

(١) د. عبد الكريم الياق ، تمهيد فى علم الاجتماع ، الجامعة السورية ، دمشق الطبعة الثانية ١٩٥٥ .
(٢) دكتور عمر فروخ ، كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة ١٩٥١ .

مغلقا الا وضحه وسبر غوره ، وأعتمد على عقله وذكائه فى فهم ودرس العويص فبعقله الراجح ينفتح له مقفله ، ومع نمو الخبرة وتواتر التكرار ، وازدياد الشرح والبيان ، يخلص الطفل من دراسة الفن وقد استولى على ملكته ، على حد تعبير ابن خلدون[1] وفى ضوء منهجه نستطيع أن نستخلص مجموعة من المبادىء التربوية الهامة نلخصها فى النقاط الجوهرية الآتية :

أولا : ينبغى أن نحدد ونراعى القدرات العقلية لطالب العلم والدرس ، مع ضرورة تشويقه للعلم بتقديم ما يساعده على التعليم التدريجى ، بشرط أن يكون الاستعداد فطرى وضرورى والقدرات العقلية مناسبة كما وكيفا ، للمساعدة فى الحفظ والتدريب على البسيط واستبعاد المسائل الصعبة والمحيرة حتى لا تتعقد نفسية الطفل الصغير وتتحطم معنوياته وتضعف وتتراخى طموحاته Aspiration .

ثانيا : وفى زعم ابن خلدون تتحقق عملية التعليم فى مرور الصبى الصغير ، مراحل ثلاث يقدم له فى المرحلة الاولى بسائط العلم وقضاياه الأولية ، وفى الثانية كلماته وقضاياه العامة ، وتلك هى جوامع العلم ، أما فى المرحلة الثالثة ، فيلقن الدارس معضلات العلم وفلسفاته ومشكلاته[2] .

ثالثا : وفوق كل ذلك ، يفترض ابن خلدون فى منهجه التربوى ، ضرورة المتابعة والاستمرار فى الدروس وعدم الفصل بينها ، لان الانقطاع يؤدى الى النسيان والكسل ويهدم النسيان والكسل دعائم البناء التعليمى كله[3] .

وتتفق نظرية ابن خلدون فى التربية ، مع أحدث النظريات العلمية المعاصرة ، ويرى مع معظم اساطين التربية الامريكان ، ضرورة أنسنة Humanization العملية التعليمية ، بابراز دور العلاقات الانسانية Human Relation ، لان الشدة فى التعليم تتعارض مع القيم الانسانية ، كما أن القسوة فى التربية ، تؤدى الى الانصراف عن العلم ، فالضغط والصرامة ، تفرضان بالطبع وجود الصلة بين ضاغط ومضغوط . الامر الذى معه ينشأ الاحباط Frustration ، وما ينجم عن

(١) ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٣ .

(٢) الدكتور محمد ناصر ، الفكر التربوى العربى الاسلامى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٧ .

(٣) د. خليل شرف الدين ، ابن خلدون ، منشورات دار مكتبة الهلال ، ١٩٨٣ — بيروت ، انظر ايضا : الدكتور عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .

الكبت من الشعور بالهوان ، ومرض التوهين ، مما يؤدى بالطبع الى خلق شخصيات مقصوعة ونفسيات معقدة وملتوية تمتاز بأنحرافات فى السلوك[١] .

ويعلن ابن خلدون بصدد تطبيق المنهج التربوى الاسلامى الحق ، ضرورة المناقشة والمحاورة ، وتقول الآية الكريمة « وجادلهم بالتى هى أحسن » فبالمحاورة يتفتق اللسان ، وينكشف البيان بالمقارعة والحجة والمناظرة فى المسائل العلمية ، فيسهل فهمها ويحصل مرماها .

وأشار ابن خلدون أيضا ، الى ضرورة الاهتمام بالنواحى التطبيقية فى العملية التعليمية ،« فليس المهم هو المادة العلمية »، وانما المهم هو مدى استخدامها والاستفادة منها عمليا ومعرفة طرق وقواعد تطبيقها ..

ولقد فرق خبراء اللغة بين « صناعة اللغة » ، من جهة و « ملكة اللغة » من جهة أخرى وتتصل صناعة اللغة بقواعدها وقوانينها ومصطلحاتها ، ومن يدرس القواعد والمصطلحات دون أن يطبقها ، يصبح كمن يتقن الدراسة نظريا دون دراية بها عمليا ، وفرق هائل بين الدراسة النظرية للهندسة ، وبين التطبيق العملى للهندسة فى الورش والمصانع .

ولم يقتصر ابن خلدون على ضرورة ربط العمل بالعلم ، بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك بتطبيق الغاية السلوكية وتحقيق الهدف والغرض ، بتحويل الدراسة النظرية الى منفعة عملية ، وترجمة العلم النظرى الى « سلوك تطبيقى » يعود على الانسان بالكسب والفائدة .

فمن يتعلم الهندسة والكهرباء مثلا ينبغى أن يعرف كيف يمارسهما فى حياته العملية لأن من يستوعب القواعد والمصطلحات دون تطبيقها ، فهو كمن يتقن نظريات الهندسة والكهرباء دون أن يحقق منها شيئا نافعا لنفسه أو لوطنه . الامر الذى يفرض علينا ضرورة ربط العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق والتخطيط النظرى بتحقيق ما يمكن تحقيقه عمليا ، ومن هنا تربط النظريات المعاصرة بين التربية والتخطيط Planning ، كما هو الحال عند « كوكبرن Cockburn »[٢] .

(١) دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، طبعة مؤسسة دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

(2) Cockburn., Education For Planning, Centre for Environmental Studies, London. England. 1973.

وبصدد تربية المسلم واعداده ، يذهب ابن خلدون الى ضرورة تعليمه بأستخدام مختلف الطرق وبتنويع أساليب التعليم ، حيث نلحظ أشارته الى التلقين والمحاكاة أو التقليد والتجربة ، كما أكد على ضرورة استخدام وسائل الايضاح المختلفة ، لانها وسائل مفيدة ومعينة على التعلم والتعليم .

ومن مبادىء التربية والتعليم عند ابن خلدون ، مراعاة التدرج والتتابع والتوسع والتعمق والشمول . ويذهب فى منهجه فى تعليم الفنون والعلوم ، الى أن القواعد والاصطلاحات هى وسائل وليست غايات ، ويرى أن الفائدة منها ، أنما تكمن فى امكانية تطبيقها أو القدرة على استخدامها[1] .

فقواعد اللغة مثلا هى وسائل نظرية لغاية تطبيقية ، الامر الذى يفرض علينا تطبيق الوسائل لتحقيق الغايات والاهداف ، للتوصل الى الدربة فى استخدام الاساليب اللغوية ، مع حسن الأداء ، واكتساب الخبرة ، والاستماع الى النطق السليم ، والمشاركة فى مناقشة الآراء المطروحة ، وعلى الدارس أن يساهم فى التوصل الى الحقيقة ، وهذه نظرية تربوية تتفق مع أحدث النظريات المعاصرة ، التى تؤكد على ايجابية موقف الدارس ، حين يسأل ويناقش ويبحث عن « التفاسير » حتى يحقق أهداف العلوم ، لان الغاية من العلم فى حقيقة أمرها هى الكشف و « التفسير » ، وهذا تفسير عصرى ، وفهم واضح لفلسفة العلم ومنهج التربية اللذان ينشدان معا وجه الحق .

---

(١) الدكتور عمر فروخ ، كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة ١٩٥١ .

الفصل التاسع

كيف تحدث التنمية ؟

* السكان والتخطيط الحضرى
* الهجرة والنمو الحضرى
* الهجرة والاكتساب والتحضير
* الديناميكا الثقافية
* التحضير والتهميش **Marginalization**
* انماط وبناءات هامشية
* ثقافات الحدود
* الاندمــاج **Amalgamation**

تمهيـــد :

يمكننا ان نتساءل بصدد الحضرية Urbanism وتركيباتها الاولية ما هى ؟ وكيف تكون ؟ وما هى مكونات المركب الحضرى ؟ وكيف يمكن وضع قواعد فهم وتخطيط الانساق الحضرية ؟

هذه هى اهم المسائل المطروحة فى هذا البحث ، ولقد ذهب « جديون سجوبرج Gideon Sjoberg فى كتابه : « المدينة قبل الصناعة The Pre-industrial City » الى ان الحجم السكانى أو تكثيف التركز البشرى ، ليس هو المعيار الوحيد الذى نضعه كمؤشر ايكولوجى ، او كعلامة من علامات « التجمع الحضرى ». فهناك تجمعات افريقية وهندية كبيرة ، بين الزنوج فى المجتمعات البدائية النيلية والحامية ، وبين هنود البويللو فى الولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك يندر أن تجد فى هذه التجمعات البشرية الكبرى ، الكثيفة ، تجمعا حضريا واحدا ، ويعتبر القليل منها رغم حجمه وكثافته من التركيبات الحضرية البسيطة .

وقد يكون للبعد التكنولوجى أثر الكبير فى تكوين النسق الحضرى Urban System ، ففى كتابه « الطاقة والمجتمع »[1] ذكر « فردريك كتريل Catrell » أن ظهور المدينة المعاصرة قد ارتبطت بوجود الطاقة ، والتوسع فى تكنولوجيا المحركات ، وآلات الاحتراق الداخلى واستخدام هندسات الطرق والكبارى ، ومرافق الكهرباء والنقل والمواصلات السلكية واللاسلكية .

وبفضل وسائل النقل القوية ، لم يعد العمال فى حاجة الى السكنى قرب المصانع واماكن العمل ، وبذلك توافرت الأيدى العاملة الرخيصة نظرا لسهولة الانتقال الى مراكز الصناعة . ولقد كان السبب فى تحرير الصناعة والتكنولوجيا من قيود المكان وقرب الموانى والاسواق وطرق النقل ، يتمثل فى سهولة نقل القوى والطاقات الكهربية ، بواسطة تعدد الخطات والشبكات .

وعلى هذا التركز التكنولوجى ، ظهرت المراكز والتجمعات الحضرية الجديدة ،

(1) Catrell, Frederick., Energy and Society., Mc-Graw Hill, New York, 1955.

وتزايدت الجماعات المتلاحمة Compact groups التى سكنت الضواحى الجديدة فتعقدت التكتلات والمركبات الحضرية ، وتركزت حول الاماكن المكتظة التى تحيطها فى الغالب ما تكتف من مراكز واسواق تقع حولها مرافق وخدمات عامة كالتليفون والمياه والنور والغاز .

ولقد ذهب آموس هول Amos Hawley[1] استاذ علم الاجتماع بجامعة ميتشجان ، الى ان علم الديموجرافيا Demography انما يعنى بتركيب السكان للاسباب الآتية :

١ ــ اذا كان التركيب Construction هو بنيان شعب او امة فمن السهل وصف ومقارنة السلالات ، كما يتيسر علينا دراسة فئات السن Age Sets وفئات الجنس .

٢ ــ فى ضوء التركيب السكانى يمكننا أن نحدد معدلات الزيادة الطبيعية والخصوبة ، وكل ما يتعلق بالمواليد والوفيات ، والهجرة والزواج والجنسية ، مع تحليل القوى العاملة والموارد البشرية .

٣ ــ وبفضل دراسة التركيب نستطيع فهم وتحليل كل ما يتصل بدراسة التنظيم Organization والحجم Size والبنيان الاجتماعى social structure .

٤ ــ تلقى دراسة الوصف الديموجرافى للسكان ضوءاً على معدلات الخصوبة والانجاب net reproduction rate[2] وكل ما يتصل بالانسال والتحليل النوعى للسكان .

ومن الحقائق التى ظهرت من الدراسات الحقلية للمدن الحضرية والصناعية ، قلة عدد الوفيات قبل الولادة فى تلك التجمعات الصناعية والمراكز الحضرية ، ونظرا لقلة تسجيل مواليد الاناث عنه فى حالة الذكور ، يزداد لذلك وبالضرورة معدل الوفيات بين الذكور ، اكثر منه

(1) Hawley, Amos., Human Ecology, A Theory of Community structure. 1950

(٢) معدل الانجاب هو مقياس حيوية السكان بتعداد انجاب الاناث فقط اللتى يمكن انجابهن من كل مائة أم ، فقد يعوض النساء أنفسهن وقد يحدث التوازن وقد لا يعوضن أنفسهن اذا أنجبت كل مائة أم اقل من المائة بنت .

بين الاناث . بالاضافة الى وجود « المناعة الطبيعية » بين الاناث فى السنوات الأولى للميلاد فتزداد معدلات الوفيات بين الذكور .

٥ ــ لقد ثبت ان غالبية المجتمع القروى من الذكور ، كما تزداد معدلات الاناث على الذكور فى المجتمعات الحضرية ويدل هذا الاختلاف فى التركيب النوعى بين المدينة والقرية والنزيف المستمر من هجرة الشبان من الريف الى الحضر ، كما يتميز مجتمع القرية عن مجتمع المدينة الصناعى ، بخاصة الترابط الاجتماعى . وقد تتضمن الهجرة من الريف الى الحضر ، هجرة عدد من الاناث الا انها أعداد قليلة لا تتناسب مع معدلات المواليد الكلية من الاناث بالاضافة الى ان المرأة الريفية غير المتزوجة او التى فقدت زوجها بسبب الطلاق أو الوفاة ، هى أميل بطبيعتها من الرجل الى تفضيل الانتقال الى المجتمع الحضرى ، فى مثل تلك الظروف القاسية التى تمر بها المرأة المتعلمة فى الارياف ، فلا تستطيع ظروف القرية ان تهيىء للمرأة تلك المزايا المهنية والاجتماعية التى تهيئها المدينة .

السكان والتخطيط الحضرى(١) :

فى ضوء فهمنا لطبيعة الحضر والحواضر ، ودراستنا لتعداد السكان فى القرى والمدن نستطيع ان نقرر ان الغرض الاساسى من « التخطيط الحضرى » هو تحويل المركبات الحضرية ، غير المنتظمة ، وعلاج مشكلة الاستقطاب الحضرى **Urban Polarization** بتعديل تركيب التجمعات الحضرية ، وضبط المركب الحضرى غير المحدد ، لتحقيق التوازن وتكوين المجتمع الحضرى المتكامل من كل الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وذلك عن طريق اجراء التعديلات البطيئة ، وتقديم التحسينات التدريجية التى يمكن ان تعمل على تحسين او زيادة تكامل حياة الجماعة ، فى تنظيم المركب الحضرى .

ويمكننا ان نحقق اكبر الاعمال فى المشروعات الاقتصادية ، الخاصة بتكوين وتخطيط المركبات الحضرية ، عن طريق توفير وتحقيق اكبر قدر ممكن من حاجات

(1) Taylor & Williams., Urbam Planning Practice in Developing Countries., The World Bank. 1982.

المدينة بشرط ان يتوافر ما هو ممكن وما هو ضرورى وحيوى ، فى بنية المركب الحضرى بالاضافة الى توافر التسهيلات Facilities ، والكماليات من الادوات التكنولوجية والالكترونية .

ومن اهم الشروط الضرورية ، لاجراء مثل هذه المشروعات الانمائية فى تكوين المركب الحضرى وتخطيط حاجاته وتنميته ، هو وجود مناطق وتجمعات واجزاء حضرية مسبقة ، وهذا شرط سوسيولوجى ام مدخل ايكولوجى ضرورى ، بدونه لا يمكن تحقيق اى مشروع يدخل فى التخطيط الحضرى Urban Planning او يحقق منفعة اقتصادية تشبع حاجات الناس فى سائر القطاعات[1] . ولا يمكن التوصل الى عملية ناجحة من عمليات التطوير او التخطيط ، الا بفضل التنفيذ الادارى الجيد عن طريق السلطات المركزية او بواسطة تضافر الجهود الذاتية ، ومشاركة الانشطة الاهلية والشعبية التى تتجمع وتتركز وتنطلق طاقاتها المنظمة ، من اجل التحضير والتغيير والتطوير ، فى كل مرفق من مرافق المدن والحواضر ، وهذا هو بالضبط ما يسمى بالتنمية الحضرية Urban Development .

ولكن كيف تحدث التنمية الحضرية ؟

اذا كنا نبغى احداث عملية تنمية حضرية ، كان لزاماً ان نجرى على مجموعة من الناس فى منطقة محددة ، بعض الدراسات والمسوح الاولية كدراسة استطلاعية Pilot Study تسبق كل تخطيط للتنمية ، فلا نحقق او ننجز او ننفذ دون اجراء « معاينة للواقع الموضوعى » وتحديد المتطلبات الضرورية التى تساعدنا على سرعة الانجاز والتنفيذ وتلك هى الخطة Plan ، التى بدونها لا تتم اية عملية للتنمية او التغيير او التطوير .

واذا كان التغيير المخطط Planned Changing[2] هو مطلب وضرورة ، فمن الخطورة ان نرى فى التغيير كعملية للازالة ثم البناء وفق الخطة الجديد ، ففى ذلك ما يفوق خطط التنمية وطاقاتها ، كما وترفضه الدول الصغيرة الآخذة فى النمو Developing Countries . الامر الذى ينبغى معه حدوث نوع من التفاعل بين

(1) Alexander, I., City Centre Redevelopment; Vol: 3 No: I. Sydny, Australia. 1974.
(2) Panadiker, V.A.P., Development Administration An Approach Administration Boston., Allyn and Bacon I nc. 1967.

افراد المجتمع ومشروعات التغيير والتنمية ، ولا ينجح او يتحقق التغير الاجتماعى ، الا اذا حدث هذا التفاعل الخلاق ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولا يجد الجديد او يحدث التجديد Innovation وتتحقق التنمية حتى تتخلص المجتمعات من كل بالٍ قديم او متخلف تضيق به ، وتبتكر الجديد الذى يلائمها ويشبع حاجاتها .

ويذهب « ويلبرت مور Moore »[1] الى انه بفضل تواجد عناصر التنمية ، كالادارة والقيادة ، ونقل التكنولوجيا وتخطيط وتنمية البيئة eco-development واعدادها مع تهيئة الناس لعملية النقل الحضارى ، حتى تستعد أبنية الجماعات لاستقبال التغيير الجوهرى للانماط الاستاتيكية العتيقة ، ومواجهة دورات العمل الجديد ، الامر الذى معه يتغير اسلوب الحياة ، حين تظهر وتتعدد الكثير من نتائج التنمية ، حيث تتغير دينامية العلاقات الاجتماعية ، ويظهر عدم التماسك فى القيم .

ولا يمكن أن تعتبر عملية التنمية ، هى عملية اضافة مادية أو آلية أو ميكانيكية فحسب وانما هى أضافة سيكولوجية وسيوسيولوجية « كيفية Qualitative » عن طريق تهجين قيم الماضى بالحاضر ، وتوليد الجديد بالتحديث والتجديد Innovalion[2] بمعنى ان التنمية هى عملية تغيير تدريجى ، او التحول الذى يطرأ على التنظيم الاجتماعى سواء فى تركيبه او فى بنيانه ووظائفه ، فتصبح التنمية هى عملية اضافة ديناميكية ، بقصد تغيير نمط الحياة . من انخفاض فى متوسط الدخل ومعدلات الانتاج وندرة فى الخبرات الفنية والادارية الى زيادة فى العمالة والكفاية الانتاجية Productivity بأستخدام التكنولوجيا ووفرة المدخرات ، فالانسان المتخلف ينتج ما يكفيه دون فائض أو مدخر ، أما الفرد المنتج فى المجتمع الصناعى المتقدم فانه يستطيع ان ينتج ما يكفى الكثير فيغطى احتياجات اسرة او حتى اسرتين كاملتين[3] .

(1) Moore, W.E., Social Change., Foundations of Modern Sociology, Prentice-Hall, New Jersey. 1963.

(2) Volgyes, I. Lonsdale Avery., The Process of Rural Transformation., University of Nebraska, U.S.A. 1980.

(3) Clark, W.A.V., Recent Research on Migration and Mobility.. University of California, Los Angeles., 1982.

ومن هنا نستطيع ان نتساءل بصدد التنمية الحضرية عن العناصر المكونة للتغيير ؟ وأيهما يكون أسرع تغيرا ؟ وكيف يمكن زيادة عدد من يجرى عليهم مدلول الحضر ؟

فى الرد على كل هذه المسائل نقول هناك الكثير من العناصر الديموجرافية التى تتدخل فى عملية التنمية الحضرية ، تلك التى لا تتحقق الا من خلال الشروط والمبادىء التى تتكامل وتتضافر فى النقاط الآتية :

١ ـــ يمكن استخراج عامل « الزيادة الطبيعية » فى منطقة محدودة من المناطق المعدودة فى نطاق أهل الحضر . والزيادة الطبيعية هى النسبة المأخوذة من طرح عدد المواليد من عدد الوفيات فى سنة معلومة ، ومنطقة محدودة .

٢ ـــ لا تحسب الهجرة فى حساب الزيادة الطبيعية ، فالهجرة زيادة غير طبيعية ويمكن التوصل الى التنبؤات بحساب معدل الزيادة الطبيعية ، بالمدة التى يستغرقها هذا البلد فى الوصول الى حجم معين . اما الهجرة فتنتج كنتيجة سوسيولوجية بعمليتى جذب ودفع ، يتمثل فى حراك اجتماعى Social Mobility يتواجد بانتقال تيار ديموجرافى بشرى ، نتيجة الحركة الدائبة بين مناطق واقاليم قروية ومناطق حضرية أغزر تقدما .

وتتغير معدلات الهجرة اليومية[1] لاسباب زمانية وايكولوجية ، وتتعلق الاولى بتغير انشطة الاقتصاد والتجارة والمحاصيل حسب تغير فصول الانتاج والحركة تلك التى تتغير مع تغير فصول السنة . اما الاسباب الايكولوجية فتتعلق كلها حول ايكولوجيا الريف والحضر ومدى التغير الناجم عن تغير الطرق فى المناطق الريفية .

٣ ـــ قد تضم او تفصل منطقة قروية وتتحول الى منطقة حضرية ، عن طريق الضم او الاستبعاد السياسى لمنطقة ما قروية بالنسبة لمكان حضرى قائم بالفعل .

٤ ـــ اختلاف الاسباب والمداخل التى تميز الثقافة القروية عن الثقافة

(1) Jansen, C J., Readings on the sociology of Migration., York University, Toronto Canada. 1970.

الحضرية ، بالنظر الى تعدد وتشابك المفاهيم الخاصة بالتحديث Modernization الحضارى .

٥ ـــ لقد تعددت التصانيف الاحصائية مع تعدد المفاهيم والتعاريف الخاصة بالثقافة ومدى امتزاجها واندماجها بثقافات اخرى هامشية Marginal Culture وما يطرأ بالزيادة او بالنقص ، على عدد سكان منطقة من المناطق فى كل تعداد سنوى . وبالنظر الى مؤشرات التعداد السنوى يمكن ان تتحول جماعات بشرية ، من تجمعات قروية الى مركبات حضرية بسيطة ، او بانتقالها من مستوى فئة حضرية بسيطة الى مستوى مركبات حضرية عصرية او راقية .

الهجرة والنمو الحضرى[1] :

اذا كانت الهجرة هى بمثابة عملية « نقل بشرى تلقائى » عن طريق الخروج القروى اليومى ، ولذلك فإن الهجرة هى زيادة سكانية غير طبيعية ، تسبب نموا حضريا ، يؤدى الى زيادة طبيعية ، بشرية واقليمية وايكولوجية مما يضيف الى المدينة اضافة مستمرة فى الخدمات والمرافق[٢] . الأمر الذى يتطلب بالضرورة مجموعات مختلفة من خدمات التعليم والصحة لمواجهة احتياجات خطة التنمية الحضرية بادخال كل ما يزيد من حيوية التركيب الحضرى بشرط أن يترقى أهل الحضر كيفاً ويزدادون كماً . ومن الطرائف التى تروى وتتناقلها الالسن ، فانتشرت من اجيال مضت وانقضت ، فقد قيل : ان القرية « أنتجت الناس ثم إستهلكتهم مناطق الحضر »[٣] .

ولقد كانت الهجرة هى السبب الجوهرى الوحيد لتفسير التحضير Acculturation ، واغلب الظن ان « نمو المدن الكبرى » فيما قبل الثورة الصناعية انما كان يرجع الى عامل الهجرة .

---

(1) Jansen, C.J., Readings on the Sociology of Migration., York University, Toronto Canada. 1970.

(٢) ابرمز ، تشارلز ، المدينة ومشاكل الاسكان ، ترجمة لجنة من الاساتذة المترجمين ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، بدون تاريخ .

(3) Mendras, H. Mihailescu, I. Theories and methods in Rural Community Studies., Vienna Centre., Vienna 1982.

وفى ضوء دراسة تاريخ المرافق والبلديات فى المجتمع الاوربى ، نجد انه كان يتعذر ، منذ منتصف القرن الثامن عشر ، امداد مدن اوربا بالغذاء الصحى ، أو توافر الماء الصالح للشرب ، فلم يكن يوجد الا اقل قدر من قنوات المجارى للصرف الصحى كما لم يتوافر الاسكان الاقتصادى ، أو العناية الطبيعية اللائقة .

ولم تعد « التنمية الحضرية » راجعة اصلا الى الهجرة من الريف الى الحضر او بسبب انخفاض تعداد القرويين انفسهم بدراسة المؤشرات التى اكدتها معدلات الزيادة الطبيعية التى اخذت فى الهبوط بين فئات اهل القرية بصفة عامة ، حتى شكل القرويون جزءا يتزايد كل عام من سكان الحواضر .

كما ويتزايد الناس كماً وعدداً ، بفائدة مركبة كما يقال بين خبراء البنوك ، وليس بفائدة بسيطة . اذا ما استخدمنا تعبيرا اقتصاديا اكثر ايضاحا ودقة حتى يفسر لنا التدفق المتزايد كل عام ، مع زيادة عدد سكان المدينة ، ومع تزايد نسب الزيادة الطبيعية مع كل تعداد سنوى ، بالاضافة إلى الزيادة المستمرة لمعدلات المواليد على الوفيات .

بالاضافة الى ان اعادة تصنيف الجهات والمناطق الريفية وادراجها فى أعداد الجهات الحضرية ، وهذه كلها اسباب جوهرية اجتمعت بل وتضافرت لتحديد الكيفية التى تتحقق بفضلها التنمية الحضرية[1] .

الخروج القروى :

ولقد اشتهرت كل مجتمعات العالم بظاهرة الخروج القروى Rural Exodus حيث تلتهم المدينة من القرية موجات من المد البشرى فى حركة يومية نشطة حيث ينتقل العمال بين المدن والقرى المتاخمة والقريبة ، فيخرج العامل القروى من مصنعه القائم فى قلب المدينة ليغادره الى مسكنه الرخيص فى قريته ، وهذه هجرة داخلية دائمة ويومية ولا تتوقف ، كما وتدخل تحت ما يسمى بالحراك الاجتماعى .

ونظرا لزيادة معدلات الخصوبة Fecondité بين اهل الريف والقرى تعتبر القرية من الموارد البشرية الضرورية ، حيث تتزايد اعداد السكان فى المناطق الريفية

(1) Paul, R., E., Readings in Urban Sociology., University of Kent., England. 1968.

بصورة اوضح واقوى بكثير من تعداد المواليد فى المناطق الحضرية ، تلك التى تاخذ بالطرق العلمية الحديثة فتتجه نحو الاخذ بمبدا تحديد النسل أو تنظيمه .

ففى القرية فائض سكانى تمتصه مشروعات المدن والقطاعات الصناعية والحضرية النامية او الآخذة فى النمو ، ولقد ادى تقدم التكنولوجيا Technology الى دخول الآلات الزراعية فى باطن الريف ، مما ادى الى اقتصاد الجهد والوقت والمال ، بالاضافة الى تزايد البطالة وانخفاض مستوى المعيشة ، فاصبحت المدينة قطبا للجاذبية Attraction مما ادى الى زيادة الاستقطاب الحضرى Urban Polarization فاندفع العامل القروى من قريته هربا من الاجور المنخفضة .

ولكننا مع ذلك ينبغى الا نقع فى سطحية النظر الى الخروج القروى كظاهرة صحية فحسب ، ولا يفوتنا فى الوقت عينه ان القرية قد تصاب بالبوار والخراب ، نظرا للنزيف المستمر لهجرة الفلاحين الدائمة ، التى تبور معها الارض فتبقى بلا فلاحة ، وتتفاقم المشكلات ، ويضيع الانتاج الزراعى وتتهاوى اقتصادياته . فعلينا الا نترك الحبل على الغارب ، وأن يضبط الخروج القروى ، على الرغم من جاذبية المدن وبهذه السياسة الرشيدة يمكن تحقيق التوازن والانضباط بين الانتاج الزراعى وأشباع حاجات المدينة من اقتصاديات قروية ضرورية تتطلبها أسواق المدن والحواضر .

ولقد أعلن « برونر Brunner » و « كولب Kolb » فى كتابهما « دراسة المجتمع القروى » أن هجرة اهل القرى وخروجهم الى المدن[1] هو عملية انتخابية أو انتقالية Selective ، بالنسبة لمجموع فئات القوى البشرية العاملة فى القرى - بحيث تهاجر نوعية معينة من شباب القرية المكافح الطموح[2] ، وتبقى نوعية أخرى أقل درجة فى مستوى الطموح Level of Aspiration ، وهم غالبا فئة من الشيوخ وكبار السن أو صغار الصبية ، مما يؤثر بالطبع على الخصائص الديموجرافية للريف والحضر ، وعلى مدى توازن التوزيع السكانى وبخاصة فى درجة الكثافة والتخلخل بين القرى والمدن[3] .

---

(1) Brunner L., & Kolb. I.H., A Study of Rural Society., Madison. 1940.

(2) Erickson G., Urban Behaviour. The Macmillan Company. 1954.

(٣) صلاح العبد ، التوطين وتنمية المجتمع بالوطن العربى . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ .

وللهجرة السكانية قيودها السياسية والاقتصادية وهى قيود قد تفرضها الدولة ، إما للمحافظة على نظام الحكم ، وإما للمحافظة على الثروة القومية . والهجرة ، إما داخلية وهى خاصة بالانتقال بين الاقاليم فى المجتمع الواحد للتجارة أو التعليم أو السياحة الداخلية ، وإما هجرة خارجية ، وهى خاصة بالانتقال من مجتمع الى آخر . وهناك حرية بالنسبة لانتقال الافراد داخليا ، فهذا النوع من الهجرة لا تنظمه قوانين ، ولكن الولايات المتحدة الامريكية[١] تقلل الى حد كبير من الهجرة من ولاية الى ولاية اخرى وتضع كل ولاية أمريكية سياساتها وقوانينها ، ولكل منها ميزانيتها الخاصة ، ونظام ضرائبى تتميز به الولاية وحدها ، ويشترط للتمتع بالخدمات العامة لكل ولاية كالتعليم المجانى والضمان الجماعى والاقامة داخل الولاية ثلاثة أو أربعة سنوات متصلة ، حيث لا تؤدى هذه الخدمات الا لدافعى الضرائب التى تجمع ، ونتيجة لمثل هذا القانون قد تقل الهجرة من ولاية الى أخرى لتشجيع الاستقرار وعدم التنقل .

وفى جمهورية مصر العربية ، توضع السياسات المختلفة ، لتشجير صحراء سيناء وتعميرها بانشاء الطرق او الانفاق الجديدة ، مثل نفق احمد حمدى ، او مد السكك الحديدية فى بعض المناطق الاخرى كالوادى الجديد ، وتؤدى هذه السياسات الى هجرة وانتقال السكان وهى ليست موضوعة للتأثير على الهجرة ، وانما بطريق غير مباشر تنمو المشروعات الانمائية . والعمرانية ويزداد الاستقطاب البشرى ، نتيجة لوجود دوافع اقتصادية واجتماعية وطبيعية للهجرة وخاصة بين مناطق جاذبة ومناطق أخرى دافعة[٢] أو طاردة .

الهجرة بين قطبى الدفع[٣] والجذب[٤] :

هناك دوافع اقتصادية للهجرة ، مثل انشاء صناعات جديدة فى مناطق معينة فتنجذب نحوها الاعداد الكبيرة من العمال ، كما حدث عند انشاء صناعة

---

(1) Bette, S. Denich., Migration and Net Work Manipolation in Yougoslavia., art. form. Spencer., Migration Anthropology. Unis. of Washington Press. 1970.

(٢) د. عبد المنعم شوقى ، تنمية المجتمع وتنظيمه ، القاهرة ١٩٦١ .

(٣) من عوامل الدفع أو الطرد Push Factors ، الجوع والفقر وانتشار الامراض والأوبئه ووقوع الخفاف وحدوث المجاعات Famines .

(٤) تعتبر المناجم والمصانع والمدن من « مراكز الجذب Centres of attraction » .

النسيج فى المحلة الكبرى ، وكفر الدوار فى جمهورية مصر العربية . وكما حدث فى صناعة السيارات فى الولايات المتحدة الامريكية فقد انجذب نحوها الكثيرون للعمل فى هذه الصناعة الجديدة ، ذات السوق الرائجة .

وقد تكون الاختراعات والاكتشافات من عوامل الجذب البشرى ، فلقد كان اكتشاف « كرستوف كولمبوس » ومن بعده « أمريجوفاسبوشى » للاراضى الجديدة فى أمريكا ، هو العامل الاساسى لدفع الملايين من سكان أوربا نحو الارض الجديدة . ولقد كان اكتشاف الآلات وتقدم التكنولوجيا ، من أكبر عوامل الدفع البشرى للأيدى العاملة نحو الصناعات الجديدة . ولقد أدى أكتشاف الآلات أيضا الى رد فعل عكسى ، حيث أن وجود الآلة فى ذاته ، معناه اقتصاد للجهد والوقت والاستغناء عن كثير من الايدى العاملة التى تنجذب هى الاخرى نحو الجديد من مبتكرات الصناعة ومكتشفات التكنولوجيا ، ولذلك تؤدى عمليات التصنيع والتنمية الى حدوث عمليات الجذب والدفع ، حيث توفر الآلة الايدى العاملة وتقتصد الجهد والمال وهى عامل فى نفس الوقت لجذب العمال نحوها ، ومثالنا على ذلك هو « آلة وابور الحرث » فقد أدى اختراعها الى جذب العمال لتصنيعها ، كما أدت هذه الآلة نفسها الى توفير الايدى العاملة فى القرى ، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الخروج القروى ، لكى يندفع بعملية جذب نحو مصانع المدينة وتكنولوجيا الحواضر[1] .

وقد يكون الضغط السكانى ، من عوامل تهجير الناس الى جانب عوامل التصنيع واكتشاف الجديد ، حيث يتزايد السكان وتتزاحم الكتل البشرية ، فيضطر الفائض عن الحاجة الى الهجرة الى مناطق الجذب[2] ، فيهاجر الفقير قبل الغنى ويهاجر المهرة من أصحاب المهن ، ويحدث نزيف الهجرة ايضا بين ذوى الخبرة فى فنون الطب والهندسة من أساتذة الجامعات وكبار العلماء والخبراء هربا من مستوى المعيشة المنخفض ، ويفضل الناس الاقامة فى مناطق أفضل ، فهناك

---

(1) Al Abd., Salah., An Approach & integrated Rural development in Africa., Sires El Layan, Menofia, Egypt. 1973.

(٢) اختلفت درجة التزاحم degree of crowding من منطقة لـ أخرى ، بسبب الهجرة الدائمة والمؤقتة ، وتغير معدلات الزيادة الكلية بين هجرة فعبة وهجرة مدسدبة Oscillatory Migration .

اذن تفضيلات اجتماعية عامة للمدينة على القرية[1] . بل وهناك من أهل القرى ، من يتمسك بالارض والاستقرار فى القرية ، نظرا لقوة التعلق العاطفى ، وشدة الانتماء الاجتماعى .

وقد يعود الكثير من الموظفين وكبار الحرفيين ممن يحالون فى أعمالهم الى المعاش ولهم فى نفس الوقت علاقات قرابية ريفية ومصالح تتصل بالقرية ، فان هؤلاء قد يقضون بدافع اجتماعى لتفضيل القرية على المدينة فيعود الى قريته بين أقرانه وذويه . وقد يهاجر الى القرية أيضا من أثرى من أبنائها فيفضل العيش والانتقال بثروته الى القرية لاستثمار امواله فيها .

وقد يفضل الناس صحيا ، الاقامة فى مناطق معينة فلا يستطيع المصاب بالروماتزم مثلا المعيشة فى الاسكندرية او مدن السواحل لشدة ارتفاع درجة الرطوبة فى جوها وتشبعها فى ذرات الهواء ، فيفضلون العيش فى مناطق جافة مثل أسوان وحلوان والكثير من مدن الصحارى المشهورة بجفافها ، ولا شك أن الاستجمام هو نوع من الهجرة السياحية Migration For Leisure .

وقد تكون الفياضانات والبراكين والزلازل من العوامل الفيزيقية والطبيعية لهجرة السكان وانتقالهم الى مناطق اخرى .

وللهجرة آثارها الاقتصادية والاجتماعية ، فمن الناحية الاقتصادية ، هى وسيلة من الوسائل التى يكيف بها الاشخاص أنفسهم للظروف المحيطة بهم ، وهى وسيلة لاعادة توزيع الناس لكى يتناسبوا مع الثروات الموجودة ، وذلك لايجاد نوع من المساواة والتعادل فى مستوى المعيشة ، اذا ما قام نوع من التوازن بين كم السكان ومدى تدفق الموارد الطبيعية .

ومن الناحية الاجتماعية ، تحدث الهجرة تغييرات هائلة فى التركيبات السكانية ، لما يكون لها رد فعلها فى الحالة التعليمية والحالة الزواجية بل على الحالة العمرية ، اذا ما تبينا أن كل من يهاجر معظمهم من بين سن الشباب (١٥ــــ٣٠) سنة كما يكون عادة من غير المتزوجين . ولذلك يزداد عدد الاناث فى

---

(١) وهذا هو السبب الذى من أجله تحدث الهجرة من الريف الى الحضر Rural urban Migration

المناطق التى يهاجر منها الشباب واغلبهم من الذكور . ولذلك ايضا يزداد عدد المتعلمين والعزاب من الذكور فى المناطق التى يهاجر اليها الناس[1] .

ومن الناحية الديموجرافية ، لا تحتاج الهجرة الى كبار السن ولا تحتاج ايضا الى غير المتعلمين ، كما تشجع الهجرة العلماء ، فلقد فتحت الولايات المتحدة الامريكية ابوابها لجميع العلماء والخبراء الالمان ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وتساعد الهجرة على انتقال الثروة، فالغنى لا يميل الى الهجرة ، لاستقراره وكسبه وغناه ، اما الفقير فيكافح ويدخر ويستثمر خبراته ، حتى يثرى وينتقل بثروته عائدا الى بلده .

واذا لم يكن معه ثروة ، فهو فى حد ذاته خبرة ، ويد عاملة يمكن استثمارها فى كافة المهن والحرف المطلوبة فى بلده ، فيكون قد ازداد بعد هجرته خبرة فوق خبرة ، ثم عاد الى بلده .

حـ الهجرة والاكتساب والتحضير :

اذا انتشرت مجموعة من السمات او العناصر الثقافية وانتقلت من مراكز معينة الى دوائر ثقافية اخرى عن طريق الاحتكاك الثقافى او ما يسمى بالتحضير Acculuration الذى يعبر عن عملية اكتساب الثقافة ، بعد استعارة العناصر الثقافية من مجتمعات أو ثقافات اخرى كانت فى حالة عزلة ثقافية .

ونستطيع أن نميز بين حالة العزلة الثقافية ، وحالة « الاكتساب » أو التحضير الذى يتم نتيجة لانتشار السمات الثقافية ، عن طريق الاحتكاك Contact ، الذى يتم تحت وطاة التصنيع او الغزو والحرب والاستعمار ، وقد يحدث عن طريق الانتقال والترحال سعيا وراء الرزق والهجرة او التجارة .

وجملة القول — حين نلحظ وجود ظاهرة مشتركة او سمة ثقافية متشابهة فى مجتمعين متباعدين فهناك ثلاثة فروض تفسر هذا الاشتراك او ذلك التشابه .

---

(1) Soliman, Adley., Social Development in New Rural Development in Egypt. Egyptian Authority for Cultivation and development., Cairo. 1973.

(2) Jansen, C.J., Readimgs on the Sociology of Migration., York University. Toronto, Canada. 1970.

والفرض الاول ، هو وجود الظواهر والعناصر الثقافية ، بطريقة تلقائية دون اى اتصال او احتكاك سابق . وهذا هو الفرض الذى تقوم عليه مدرسة النشاة المستقلة ، حيث ان السبب فى تشابه الظواهر وتجانس عناصر الثقافة هو فى زعم هذه المدرسة ، تشابه فى الفكر وتجانس فى العقل .

والفرض الثانى ، هو وجود هجرة لهذه السمات او العناصر الثقافية من مراكزها الاصلية وانتقالها الى مجتمعات او ثقافات اخرى . وهذا هو الفرض الذى تؤكده « مدرسة الانتشار الثقافى » . حيث يذهب الانتشاريون الى ان سمات الثقافة انما تنتقل وتهاجر ، بانتشارها من مراكزها الاصلية ، كى تشع وتشيع فى دوائر وبيئات ثقافية اخرى .

والفرض الثالث ، هو وجود صلة غير مباشرة بين المجتمعين ، بمعنى ان هذه المدرسة الثالثة تفترض ، ان السمات والعناصر الثقافية قد لا تنشا تلقائيا وفى عزلة فتصدر صدورا مستقلا ، وقد لا تنتقل هذه السمات او تهاجر من مراكزها وتتصل اتصالا مباشرا بمجتمعات اخرى ، فليس التشابه الثقافى دليلا يقينياً مؤكدا على وجود « حراك ثقافى » او « احتكاك مباشر » بين المجتمعات وانما قد تكون هجرة السمات واستعارتها قد نتجت وظهرت بطريق غير مباشر ، وذلك باتصال المجتمعين بمجتمع ثالث ، وهذا الفرض الثالث يضعه اصحاب نظرية التقارب او « الميل الثقافى Convergence of Culture » .

ويذهب اتباع مدرسة « الميل الثقافى » الى ان المجتمع حين يستعير اى عنصر من عناصر الثقافة ، فان هذه الاستعارة لا تعنى ابدا ضرورة اقتباس العنصر على حالته الاصلية، وانما قد يغير المجتمع المستعمر فى العنصر الثقافى المستعار ، لكى يتلاءم مع بقية العناصر السائدة فى بنية المجتمع المستعير .

فلو فرضنا مثلا وجود تشابه بين سمات وعناصر ثقافية مشتركة فى المجتمعين (ا ، ب) ، على الرغم من عدم وجود أى اتصال تاريخى او مباشر بينهما . فيمكن ان تكون هذه السمات المشتركة والعناصر المتشابهة قد صدرت عن مجتمع ثالث (جـ) ، يكون هو وسيلة الاتصال وهجرة السمات الثقافية الى كل من المجتمعين (ا ، ب) على الرغم من عدم ضرورة استعارة السمات الثقافية بنفس الحالة

الاصلية وانما يستعير كل من (ا ، ب) سمة ثقافية من المجتمع (ا ، ب) بحيث يقوم بتغيير السمة تغيرا شكليا ، بحيث تميل السمات الثقافية وتتقارب ، كى تنسجم مع بقية عناصر وسمات ثقافية سائدة فى المجتمع المستعير. ومن هنا جاءت ضرورة اكمال المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة واعادة ترتيب ماضيها ، بتطبيق المنهج الوظيفى Functional Method لدراسة « العلاقات العلية Causal Relations » بين سائر السمات الثقافية وكيفية تراكمها ، بالرجوع الى الفروض المنهجية للنزعة الوظيفية ، حتى يمكن تفسير هذه السمات المستعارة والتى تلاءمت مع سمات الثقافة ، باعتبارها اجزاء متكاملة وليست منعزلة او منتزعة من سياقها الثقافى .

ولقد تأكد علماء الثقافة من تحليل الانتشار وبتطبيق المنهج الاستقرائى ، أن هناك تفاعل وتساند بين سائر عناصر الثقافة الواحدة ، كما اكتشفوا أيضا أنه من الممكن أن يلعب العنصر الثقافى الواحد ، دوراً معيناً فى مجتمع ما ، ويؤدى أيضا نفس العنصر الثقافى وظيفة مختلفة كل الاختلاف فى ثقافة أخرى .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة ، ليس منهجا واحدا بعينه ، وانما ينقسم الى ثلاثة اتجاهات أو مواقف ، ويأخذ الموقف الاول بمبدأ التشابه العقلى وفكرة النشأة المستقلة للثقافة ، أما الموقف الثانى فيتابع مبدأ الانتشار والاحتكاك الثقافى ، فى حين يأخذ الموقف الثالث ، بفكرة « الميل » أو التقارب الثقافى . ومن أكبر ممثلى مدرسة النشأة المستقلة العالم الالمانى « باستيان Bastian » ، أما المدرسة الانتشارية فأتباعها كثيرون فى المانيا وانجلترا ، فلقد نشرت المدرسة الالمانية التاريخية مكتشفاتها العلمية فى مجلة « الانسان Anthropos » ومن أشهر علماء هذه المدرسة « جروبنر Graebner » والاب « شميث Pater W. Schmidt » ومساعدى الاب شميث وعلى رأسهم « Koppers » و « Gusinde » .

هذه هى المدرسة التاريخية فى المانيا ، أما عن المدرسة البريطانية ، فاشتهر فيها عالم التشريح البريطانى « السير جرافتون اليوت شميث Sir Grafton Elliot Smith » حيث اهتم بثقافات مصر القديمة ، وتشريح المخ الفرعونى ، فى ضوء دراسة جماجم الموميات المصرية . ومن علماء المدرسة الانجليزية الانتشارية

« م.ج. برى W.J. Perry » حيث نشر أهم كتبه « أبناء الشمس The Children of the Sun » الذى يؤكد فيه انتشار الثقافة الانسانية من مراكزها الاصلية فى مصر الفرعونية ، فالمصريين هم أبناء الشمس ، التى سطعت وانتشرت ضياؤها على العالم القديم[1] .

التحضير والديناميكا الثقافية :

بمعنى أن هناك حالة من « الاندماج الثقافى Cultural amalgamation » فانتقلت الملامح الفيزيقية ، وهاجرت العناصر والسمات الثقافية ، عن طريق عملية « الاحتكاك الثقافى Guitural Contact » فأنتشرت بذلك الثقافة الآسيوية ، وانتقلت السمات الفيزيقية الافريقية حيث حدث ما يسمى عند علماء الانثروبولوجيا الثقافية ، وبخاصة لدى العلماء المحدثين من الشبان ، بأسم « الديناميكا الثقافية » أو « الحراك الثقافى » ، وهو موضوع جديد من موضوعات البحث فى ميدان الدراسات الانثروبولوجية وهو ما يعرف أو يشتهر فى الاوساط الاكاديمية بأسم « عملية التحضر » أو « التحضير » أو « أكتساب الثقافة Acculturation » .

وهناك فى جزيرة مدغشقر ، قام هذا الحراك أو الانتقال الثقافى ، فحدث هذا التشابه بين الانماط الافريقية والآسيوية ، وأصبحت مدغشقر كما يقال وكما أشتهر عنها دائماً ، بأنها هى الجزيرة الافريقية الآسيوية[2] .

ونحن اذا ما أستخدمنا المنهج التاريخى ، أو المنهج الاثنولوجى الثقافى وجدنا أن الملامح العنصرية Racial Traits ، والسمات السلالية والظواهر الثقافية ، فى جزيرة مدغشقر ، كما هى قائمة الآن بالفعل ، انما تعود بكل تأكيد الى فترة قريبة ولم يمض عليها وقت طويل ، حيث قامت هجرة من القارة الآسيوية الى جزيرة مدغشقر .

تتأكد لنا حقيقة هذه الهجرة اذا ما قمنا الآن بدراسة أنثروبولوجية ثقافية لسكان جزر الملايو الحاليين ، وبخاصة دراسة كل ما يتعلق باللغة . وهجرة

(1) Herskovits, Melville., Cultural Anthropology., New York 1964. pp. 461-483.

(2) Radcliffe-Brown, A.R., Method in Social Anthropology, Chicago, 1958. p. 5.

المركبات والصيغ اللغوية ، وأنتقال الملامح الفيزيقية والخصائص العنصرية .

بالاضافة الى دراسة كل ما يتعلق بملامح الثقافة وأنتقال سماتها وعناصرها الجزئية من أرخبيل الملايو الى جزيرة مدغشقر .

وهذه الهجرة التاريخية حقيقة دون شك ، ونحن نحاول أن نحدد تاريخ هذه الهجرة متى حدثت ؟ نظراً لأهميتها فى ميدان الدراسات الاثنولوجية والكتابات الانثروبولوجية الثقافية .

واستنادا الى الدراسة العلمية ، لا يمكننا أن نحدد بطريقة يقينية قاطعة متى حدثت هذه الهجرة ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه الهجرة قد حدثت دون شك بعد أن وصلت ثقافة جزر الملايو ، الى مرحلة « صناعة الحديد » تلك التى تخلفت عنها فى ذات الوقت ، ولم تصل اليها ثقافة مدغشقر .

ولعل الدراسة المنهجية المفصلة لمختلف السمات الثقافية والملامح العنصرية لسكان جزيرة مدغشقر ، تمكننا حقيقة من أن نضع تاريخا أوفى وأدق لهذه الجزيرة النائية ، حيث نتوصل بفضل تلك الدراسة المنهجية المنظمة ، وبالاستناد الى استخدام المنهج التاريخى أن نتوصل الى اعادة بناء الجانب الاكبر من « تركيب ماضى » وتاريخ هذه الجزيرة الأفريقية الاسيوية .

حيث أننا نلحظ بوضوح بفضل الدراسة الانثروبولوجية ، أن هناك على الاقل فى تلك الجزيرة ، نشاهد عنصرين ثقافيين ، قد أمتزجا واندمجا فى ثقافة مدغشقر ، أو بمعنى اننا قد نشهد فى ثقافة الجزيرة « نمطين » متمايزين من أنماط الثقافة وبحيث نلحظ « غشائين » مختلفين فى نسيج ثقافة تلك الجزيرة النائية ، وتلك « الانماط » أو « الاغشية الثقافية » هى ما يسمى فى الاصطلاح العلمى فى ميدان الانثروبولوجيا الثقافية باسم Gulture-strata[1] .

ومن خلال الدراسة المنهجية ، وفى ضوء المحاولة العلمية الجادة باستخدام المنهج المقارن ، يمكننا أن نضع ثقافة جزيرة مدغشقر ، موضع الفحص الدقيق ، عن طريق مقارنة الاجزاء الجنوبية من شرق آسيا وافريقيا ، وبخاصة من زاوية المقارنة

(1) Ibid. pp. 5-6.

المفصلة لمختلف ظواهر الثقافة فى تلك المناطق الجنوبية الشرقية من سواحل آسيا وافريقيا ، ومن هنا نستطين أن نتبين ضرورة تطبيق المنهج المقارن ووظيفته ، فى ضوء تلك المقارنات المنظمة لمختلف السمات الثقافية فى ثقافة جنوب شرق آسيا ، ومقارنتها بأنماط الثقافة الافريقية ولسوف تسمح لنا هذه الدراسة المنهجية المقارنة أن نقوم بمحاولة التحليل الانثروبولوجى العلمى ، لسائر سمات ومركبات الثقافة السائدة فى جزيرة مدغشقر ، وبالتالى يمكننا تفسير هذا الشكل الثقافى المعقد الذى يتجلى فى ذلك « التأليف الكلى الفريد » الذى تتميز به « ثقافة الجزيرة » .

كما أننا نحاول أيضا بفضل الدراسة البنائية والتحليلية لمختلف السمات الثقافية أن نتعرف على ما اذا كانت هذه الخصائص الفيزيقية والثقافية العامة قد انتقلت وهاجرت مع هؤلاء الذين هاجروا من جنوب شرق آسيا ؟ .. أم أن هذه الخصائص الفيزيقية والسمات الثقافية ، انما هى ثابتة لم تنتقل وراثياً ولم تكتسب ثقافياً ؟ .. أى أننا نريد أن نعرف ما هى العناصر « الدخيلة » التى انتقلت وهاجرت ؟ .. وما هى العناصر التقليدية « الاصيلة » التى كانت تنتمى الى السكان الاوائل للجزيرة ؟ ..

ولست أشك فى أننا بأتباع المنهج التاريخى التحليلى ، علينا أن نعيد بناء بعض السمات والمركبات الثقافية ، وأن نضع مختلف سمات وملامح الثقافة التى كانت سائدة قبل الغزو ، وبهذه الطريقة نجد أننا انما نحاول أن نفسر وأن نعلل مراحل تكوين « ثقافة جزيرة مدغشقر »عن طريق اتباع الطريقة التاريخية والمنهج الاثنولوجى التحليلى ، كل ذلك بالرجوع الى ابراز وتأكيد « العملية التاريخية Historical Process » تلك العملية التى بفضلها نجمت الثقافة الجديدة وصدرت عن طريقها مختلف السمات الحالية ، والانماط الثقافية الراهنة[1] .

نعود ونتساءل : ما هو الاكتساب أو التحضير ؟ وما هى أهم المشكلات الناجمة عن التحضير والتهميش ؟ وكيف تصدر ؟

(1) Ibid. p. 6.

التحضير والتهميش Marginalization :

للتحضير أثره الكبير فى خلق وايجاد المدن الهامشية حيث تمتاز كل مدينة بتركيب اقتصادى ونمو تكنولوجى محدد ، يتلاءم مع درجة طغيان الصناعة فى المدينة فى ضوء دراسة سائر البناءات والتركيبات المهنية والانساق الحرفية ، استنادا الى مدى قربها أو بعدها عن مناطق التعدين ، ومراكز استغلال الثروة ، كالمناجم والغابات ، ومع سيولة الحركة وسهولة المواصلات تظهر المدن على حواف طرق النقل ومراكز المرور ، فتصبح المدينة هى بمثابة « طفح ريفى » كما يقال .

وقد تظهر مشكلة تضخم المدينة ، وهى مشكلة استنكرها الكثير من العلماء . فلقد كان عبد الرحمن ابن خلدون[1] ، ينظر الى المدينة ، من خلال انحلال الحضارات ، وانقراض الدول ، وزوال الامم . وكان « شبلنجر » يرى أن المدينة هى علامة على نهاية أو خراب العالم فأشار الى غروب أو انحدار حضارة أوربا واندحارها حيث تحولت حضارات التاريخ من ثقافة Culture الى مجرد مدنيَّة Civilization .

وتعتبر المدينة « كمجال حضرى » هى محور ونواة أو قاعدة حيوية لكل ما يحيط بها ومن حولها من أقاليم زراعية ، حيث تعتبر المدينة هى القاعدة التنظيمية والادارية للاقليم برمته . ويمكننا اعادة تنظيم وتخطيط المدن[2] الكبرى والعواصم والحواضر بما يتمشى مع اعادة توزيع Redistribution السكان ، مع التخفيف من شدة الازدحام والتقليل من حدة التركز ، عن طريق المداومة المستمرة لعمليات التهجير مع ترشيد أساليب التوطن .

الا اننا لا نقصد بهذه العملية هى « اذابة المدن Disurbanization » أو تفتيتها Pulverisation . بمعنى أننا نقصد بمشروع حضرى كمشروع القاهرة الكبرى Great-Cairo ، هو اعادة تخطيط القاهرة بما يتناسب مع الزيادة المساحية ومدى تركز أو تخلخل الزيادة البشرية فوق المدينة النامية الكبرى ذات الضواحى الجديدة تماما كما حدث فى أنجلترا بالنسبة لمشروع مانشستر الكبرى ، حين قام خبراء

---

(١) الدكتور عمر فروخ ، كلمة فى ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، مكتبة منيمنة ١٩٥١ .

(2) Alexander, I., City Centre Redevelopment, Vol. 3 No: 1, Sydney, Australia, 1974.

الانجليز بأعادة تشكيل المدينة الحضرية الكبرى ، فكانت عملية تخطيط مانشستر الكبرى ، هى اعادة النظر فى عملية تحضير Reurbanization مانشستر واعادة تخطيطها من جديد فى ثوب آخر ، عن طريق تخفيف المركزية والاخذ أيضا وبنفس القوة بنظم الادارة اللامركزية Decentralisation أو تدرج مدى شدة التركز ، من مستوى مركزى صارم ، حتى يصل الى درجة اللامركزية فتتحول المدينة المزدحمة ، من وحيدة النواة Mono-nucleated الى مدينة متعددة النواة أو كثيرة النويات[1] .

وعن طريق التخطيط الرشيد ، والمشروعات المدروسة ، تظهر المدن الجديدة بعد عمليات كثيفة للتنمية والتهجير[2] والاسكان واعادة التخطيط ، وهناك وسائل أخرى يقترحها البعض ، مثل منع أو تقييد الهجرة من الريف ، وهذا لا يتمشى مع مبدأ « حرية الحركة » كما لا يأخذ فى نفس الوقت تبدأ ديموقراطى مشهور ، حين يتحدى « مبدأ عدم التهجير » ذلك هو مبدأ تكافؤ الفرصة .

أنماط هامشـــية :

اذا كانت القرية ترابط على نحو اقتصادى تبادلى مع المدينة ، وخاصة فى مواسم نتاج الحصاد ، أو تسويق المحاصيل الزراعية . حيث تستورد المدينة من القرية الكثير من ألوان الخضر وأنواع الفاكهة ، بالاضافة الى الزبد والجبن والدجاج ، فالقرية ضرورة اقتصادية بالنسبة للوجود الحضرى ودوامه وتنميته[3] .

واذا كانت المدينة تستورد لحوم الارياف ونتاجه ومحاصيله ، وكذلك أيضا تغزو المدينة القرية بحضارتها وتجارتها ونفوذها وخبراتها ، فتعمل المدينة بذلك على « تحضير الريف » .

---

(1) Tylor & Williams, Urban Planning Practice in Developing Countries, The World Bank. 1932.

(٢) الهجرة إما مؤقتة Temporary مثل إنتقال الطلاب من قراهم الى مدارسهم وجامعاتهم لقضاء السنوات الدراسية فى المدن الكبرى . وإما هجرة دائمة Permanent Migration كهجرة الفلاح الناتجة نتيجة دفع قروى من قريته الى المدن الكبرى .

(3) Clark, W. A.V. Recent Research on Migration and Mobility, University of Colifornia. Los Angeles. 1982.

ولقد خلق لنا عقد الزواج بين المدينة والقرية ، نمطا هامشيا Marginal جديدا هو « النمط الحضريفي » ويسميه جالبن Galpin بحواشي الريف والحضر Rurban Fringes ، وهو نمط جديد ، يعيش على هامش الحدود بين القرى والحواضر حيث تتاخم الانماط الهامشية ما يحيط بها من ثقافات ريفية وتركيبات حضرية .

وعلى هذا الاساس أصبحت للمدينة وظيفة أقتصادية وخدمات محلية وبلدية لخدمة المرافق والسكان وللاشراف على كيان المدينة ذاته ونظافتها وجمالها ، حتى تصبح ذات عائد اقتصادى سياحى .

وللمدينة وظيفة أخرى اقليمية وهى خاصة بخدمة الاقليم وسكان المناطق الريفية من حولها ، فلا يمكن أن نتصور « قرى بلا حواضر » ، أو « مدن بلا ريف » ، اللهم الا فى بعض المدن الشيطانية التى ظهرت فجأة دون أصل موضوعى أو قاعدة تطورية تصدر عنها . وهناك أسباب متعددة تفسر لنا كيف صدرت وتطورت مثل هذه المدن . وهى أسباب اقتصادية واجتماعية . فكثيرا ما نشأت هذه «المدن الاشباح»، حول مناطق التعدين ومراكز الصناعة ، ثم ظهرت ونتأت فجأة نتوءات أو بقع حضرية Urban tract ناتئة وقد طغت وبرزت على السطح كزوائد نامية وغريبة عن وسطها الاجتماعى السائد .

وكذلك انتشرت المدن السياحية والمصايف التى تكفى ذاتها بذاتها ، ولذلك ظهرت «الحضرية المنعزلة» التى تعيش فى غناها الفاحش دون تفاعل وظيفى ، مع حولها من مناطق قروية . وقد تسبق المدينة فى ظهور ما حولها من مناطق ريفية وأقاليم زراعية ، كما هو الحال فى أمريكا الشمالية والبرازيل . فلقد نشأت مدن رعاة البقر ، قبل أن تنشأ الاقاليم الريفية الجديدة فانقلبت القاعدة . وسبقت المدينة القرية الى الظهور ، وكانت المدن هى النواة الأولى « لفتح الأقاليم الجديدة » ، والتوطن أو التركز فيها ، حتى اذا ما أستقر التحجير ودامت عمليات التعمير ونشطت حركة الدفع البشرى بالتنقل والهجرة . بدأ الاهتمام بالمساحات الشاسعة المحيطة بالتركز الحضرى ، وظهر الريف الزراعى . باستغلال الأرض وادخال التكنولوجيا الحديثة لاستزراع المناطق الخلاء . واستغلال الأراضى الفضاء . ثم لا تلبث المدينة بعدها ، أن ترتبط ارتباطا وظيفيا بمناطق التحجير واقاليم التركز الزراعى

والتوطين القروى ، حيث أن العلاقة بين المدينة والريف هى فى الواقع علاقة ديناميكية تكاملية ، فالمدينة هى نواة الاقليم الزراعى ، والسوق التجارى هو « نواة المدينة » ، والمدينة هى الرأس والريف هو الجسم ، ولذلك كان رخاء المدينة من رخاء ريفها ، لان المدينة هى انعكاس مباشر للريف والقرية ، وليست المدينة هى رأس الاقليم فحسب بل هى أيضا « ولى أمره » كما يقول برونر Brunner وكولب Kolb فى كتابهما « دراسة المجتمع الحضرى A study of Rural Society[1] .

(1) Brunner L. & Kolb. I.H., A story of Rural Soceity Madison, 1940

الفصل العاشـــر

التوطن ومشكلات التنمية

تمهيـــد :

* ولكن ما هى عملية التوطن ؟ وكيف نحدد مجالها ومشكلاتها ؟
* الاستقطاب والتوطن والتحديث
* ما هى عملية التهجير وكيف يمكن توطين البدو ؟
* إقتصاديات تنمية الصحراء واستغلال المياه الجوفية
* الانعاش الاقتصادى ومشروعات تنمية المراعى

تمهيـــد :

من أهم مشكلات التنمية على العموم ، مشكلات سكانية واقتصادية واجتماعية ، تتعلق جميعها بعمليات الهجرة والاستقطاب Polarization والتركزوالتهميش Marginalization والتوطن والاندماج Amalgamation .

ومع تعقد العلاقات الاجتماعية وتشابك ظواهر التهجير والتحضير والتوطن ، تسهم علوم التخطيط والاقتصاد والتنمية فى الكشف Acculturation عن صعوبات التحضير ومشكلاته ، وما ينجم عن تجارب التهجير ، فيدرس كل علم أو تخصص فى فرع معين ثم تتكامل الدراسات والتخصصات ، وتشارك بعضها بعضا دون أن تتشتت Discon-Centrated[1] .

ويدرس خبراء التخطيط والاقتصاد ، مستوى المعيشة بتقييم درجة التعليم وبتحديد دخل الانسان الفرد ومدى استهلاكه . كما يدرس « عالم الاجتماع » « نمط التغيير الاجتماعى » ودرجة الرفاهية بقياس مركز الاسرة ، والسكن وملكية السيارة ، وقد يتمسك « المربون » بنمط الثقافة ومستوى التعليم العالى والفنى والمتوسط ، وقد يتدخل « السياسى » ورجل الدولة ، فى كل هذه الانشطة برمتها .

ولقد انتهت مثلا لجنة روزفلت التى كونها الرئيس الامريكى للاهتمام بمشكلات الريف فى الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، فقامت بدراسة جادة ومتصلة استمرت ستة اشهر ، تبلورت نتائجها وخلاصتها فى تقرير علمى دقيق ، حيث كشفت اللجنة للرئيس فرانكلين روزفلت وأوضحت أهم مشكلات الريف الامريكى ، وكان هذا التقرير العلمى ، هو بمثابة الأساس النظرى لكل تطبيقات علم الاجتماع الريفى ، الذى أصبح فى الولايات المتحدة الامريكية هو أهم فروع علم الاجتماع على الاطلاق .

---

(1) Bette, S. Denich., Migration and Network Manipolation in Yougoslavia Art. from Spencer., Migration Anthropology University of Washington Press 1970.

ولكن ما هى عملية التوطن ؟ وكيف نحدد مجالها ؟ وطبيعتها ؟

لكى نعرف طبيعة التوطن ، ينبغى الالتفات فوراً الى دوافع التركز ، والى مجال البيئة الطبيعية وفحواها ، على اعتبار ان عملية التوطن هى فى ذاتها عملية انتقال لجماعات إنسانية ، من بيئة الى أخرى ، سعياً وراء الرزق الموفور ، وطلبا لحياة أفضل .

ولكى تنجح مشروعات التوطن ، لابد وأن تتوافر الكثير من الشروط ، وأهمها هى أن تسبقها عملية أساسية ، هى عملية تهيئة أو « تبيّؤ » لانها بمثابة مقدمة استطلاعية وضرورية لمعرفة أو فهم مدى نجاح درجة التكيف مع البيئة الجديدة .

ولقد أطلق اسم « الايكولوجيا Ecology » بين علماء الاجتماع الامريكان ، للاشارة الى دراسة التركيب الداخلى للبيئة وما يغطيه بشريا من « غطاء سكانى » له مجهوداته التى تتكامل وتتحقق فى أنشطة اقتصادية ، يكون لها رد فعلها المباشر على طبيعة محتوى البيئة الفيزيقية ، فتظهر البيئات الحضرية ، فتتغير سمات البيئة الفيزيقية ، وحامت حولها سمات الايكولوجيا الحضرية[1] .

الاستقطاب والتوطن والتحديث :

لاشك أن « التركيب الحضرى » هو تركيب وظيفى ومنظم Organized » وهو تركيب انسانى لانه من صنع بشر ، والتركيب الحضرى بالاضافة الى ذلك ، هو تركيب اقتصادى يقوم على الانتاج والتوزيع والتسويق والحركة ، فالمدينة ، هى « بؤرة اقتصادية » أو « عدسة لامّة » لافراد كل اقليم ، وهى نواته الحضرية ، ولذلك يستقطب المجال الحضرى للمدينة كبؤرة أو عدسة للاقليم الاعداد الهائلة من أبناء القرى والنجوع والواحات وسائر المجتمعات التقليدية المحيطة بالمدن .

ولقد نجم عن عملية الاستقطاب الحضرى Urban Polarization هجرة أو انتقال طفح بشرى ، هربا من الاجور التى لا تشبع أو تسمن من جوع . وطلبا

(١) دراسة الايكولوجيا الحضرية Urban Ecology هى دراسة التركيب الداخلى لبيئة أو هياكل المدن [illegible] وترتبط فى نفس الوقت دراسة بنية التركيب الداخلى للمدينة كنسق حضرى ارتباطا وثيقا بما يسمى [illegible] تخطيط المدن أو العمران .

لاعمال وأنشطة أخرى أكثر رزقا وأوفر راحة . وأطيب عيشا ، فى مجال حضرى تتجمد فيه العلاقات ، وتقل الاحتكاكات ، حتى سادت حياة العزلة الفردية والمحلية .

ومن مشكلات التوطن ، أن المجتمعات الجديدة ، سواء فى حقول البترول ، حيث لا يوجد سوى البدو فى البوادى والفلوات ، وحول المشروعات والمعامل الكبرى على شواطىء البحار والبحيرات ، حيث تستوعب عملية التوطن نقل وهضم الكثير من الفئات والقوالب المتنافرة من أجل تنمية مجتمع الصحراء ، أو تحضير المناطق الساحلية أو ترقية المجتمع التقليدى للقرية ، بقصد محاولة تنمية البيئة Eco-development واعدادها وتهيئتها من أجل مشروعات التحديث الحضارى Modernization مع تنمية هذه المناطق اقتصاديا واجتماعيا بما يتفق وتنميط Standardization مستوى الحياة الجديدة ، برفع القيود الاستاتيكية وتغيير أنماطها التقليدية وتحديث ما فيها مع تجانس « الخدمات المرفقية » كالنور والمياه ومد خطوط التليفون وسائر ما تقدمه البلديات العصرية للمدن والحواضر[1] .

كيف يمكن توطين البدو ؟ وماذا نقصد بعملية التهجير ؟

لا يقصد بعملية توطين البدو أو تفهم على انها «محاولة تهجير قبائل البدو وطردهم من الصحارى وتفريغ ما فيها من بداوة » . وانما تبدأ عملية توطين البدو بعملية « تعمير للصحارى » وتطوير لبواديها ووديانها . كما حدثت فى مشروع الوادى الجديد من جمهورية مصر العربية ، بأستغلال البدو فى الاعمال المطلوبة كأيدى عاملة رخيصة ، تندفع وتهاجر بقوة دفع من باطن الصحارى ليستقطنوا مناطق المشروع . الامر الذى معه يبدأ العمران الصحراوى بترحيل البدو ، وتهجير قوافلهم بمحض ارادتهم ونقلهم من ديارهم التقليدية الى أماكن المشروع الجديدة ، وهى غالبا ما تكون من المناطق النائية والبعيدة عن ديار البدو الأصلية ، فتبعدهم عن أنماط سلوكهم .

ويعيش البدو فى ظروف فيزيقية قاسية ، ويحيا المجتمع البدوى تحت رحمة

---

(1) Anderson. Nels., The Urban Community., Routledge & Kegan Paul, London. 1960. pp. 321-330.

الطبيعة ، ولذلك يحاول البدوى بالطبع أن يبحث عن حياة أكثر يسراً ورفاهية من حياته الخشنة . فتبدأ عمليات التوطين أو التهجير كمحاولة أولى للاستقرار ، بعد حياة الحل والترحال سعيا وراء الكلاءفيستقر البدوى فى مسكن دائم حول المشروع الاقتصادى ، أو فى أقرب وأنسب الاماكن ، وقد تحدث التحولات الكبرى بتغيير الظروف البيئية وتهيئتها للاستقلال الاقتصادى المثمر ، مع تنمية واعداد بيئة الصحراء للتوافق مع عمران واقتصاديات المشروع الجديد وبفضل تقدم العلم والتكنولوجيا ، تتغير الظروف الطبيعية والاجتماعية للبوادى بعد اخضاعها للإستغلال المباشر .

ولا يقام المشروع الانتاجى الا بعد القيام بالمسوح الجيولوجية والدراسات الاستطلاعية Pilot Study ، لاختيار أنسب المناطق وأكثرها صلاحية وملائمة . وحول مرافق الانتاج يتم توطين البدو ، مع تدريبهم ومساعدتهم ، بأنشاء الخدمات المرفقية المخططة جنبا الى جنب مع مرافق المشروع الانتاجى .

ولا ينبغى أن نقوم بعملية التهجير أو التوطين بأسلوب عشوائى وانما أثبتت تجارب التوطين والتهجير ، ضرورة الاعداد والتخطيط المسبق ، ويمكننا الاستفادة من « مشروع النوبة » فى جمهورية مصر العربية ، وكيف تمت عمليات النقل والتهجير الى مجتمع « كوم أمبو » وماذا طرأ على مجتمع « النوبة الجديدة » . والسعودية هى أقدم دول العالم العربى ممارسة لتجارب توطين البدو ، ومن أشهرها « مشروع واحة جبرين » لتوطين البدو ، وتم هذا المشروع وفقا لخطة عملية مدروسة ، وطبقا لمراحل متتابعة تترتب فى النقاط الجوهرية الآتية :

(أ) الاهتمام ببرامج ومشروعات أجراء دراسات أستطلاعية Pilot Study للقيام بالعديد من أبحاث جيولوجية للتربة والماء ، وكلها دراسات عملية وقياسية تقيس لنا منسوب الامطار ومخزون المياه الجوفية .

(ب) محاولة أجراء مسوح أجتماعية ودراسات تجريبية وذلك لمعرفة أنسب الطرق لاختيار البدو الذين يتطلعون نحو التجديد والتغيير ويقبلون التحديث والاستقرار والتمدين والاقامة الدائمة ، بدلا من حياة التنقل والترحال من مكان لآخر .

(جـ) التركيز المستمر على محاولة أقناع جماهير البدو بنجاح المشروع ، وبث أدوات الاعلام لتكثيف الدعوة بين البدو الذين اجتازوا مرحلة الاختبار ، ووقع عليهم الاختيار فى المرحلة السابقة مع وضع وتنفيذ اجراءات التخطيط المتكامل للمستوطنات الجديدة الخاصة بتوطين البدو ، ودراسة نوع البرامج الزراعية ومشروعات وتصنيع منتجاتها وتسويق الحاصلات الزراعية البدوية بالاضافة الى الاهتمام باعداد المواصلات وتعبيد الطرق ورفع خدمات التعليم والصحة .

(د) العمل المخطط بقصد محاولة امكان التكيف السليم بين البدو من ناحية قبول التكيف بينهم فى مجتمع المستوطنه ، ومدى تآلفهم وتقبلهم للمكان ، حتى يمكن ايجاد انسب الوان التكيف الاقتصادى والاجتماعى والحضارى للاوضاع الجديدة ، بعد القيام بعملية التهجير والتوطن .

(هـ) للتغلب على الصعوبات الخاصة بالتغيير فى كل المراحل السابقة ، ومواجهة المشاكل المرحلية قبل أستفحالها ، مع تلافى الاخطاء التى قد تسبب فشل المشروع ، ولذلك كان من الضرورى فى تجارب توطين البدو ، القيام بمحاولة تقسيم العمل مرحليا ، مع تقييم فترى لكل مرحلة من المراحل السابقة .

(و) اذا ثبت نجاح خطة التوطين ، بتهجير البدو وتكيفهم ، ينبغى أن يتم تعميمها وترشيدها فى مناطق وتجارب أخرى ، حتى يمكن تطبيقها بنجاح على أكبر عدد ممكن من التجارب المستقبلة .

اقتصاديات انعاش المراعى ، ومشروعات تنمية الصحراء :

الى جانب المشروعات الخاصة بخطط التوطن ، وبرامجها فى عمليات توطين وتهجير البدو ، لابد وأن تتجه الهمم وبنفس القوة نحو تنمية البادية وتحضر الصحراء وانعاش المراعى وأستغلال الارض وهما من المصادر الاساسية لتنمية اقتصاديات الصحراء وزيادة الثروة الحيوانية مع زيادة الاهتمام بالآبار وترشيد عملياتها ، بالاضافة الى تخطيط المشروعات الخاصة بأقتصاديات المياه الجوفية . ولقد كانت المملكة العربية السعودية الى وقت قريب من أكبر وأقدم الدول المصدرة للمواشى والجمال ، ثم تعرضت مواشيها ومراعيها فجأة لسنوات من الجدب

والجفاف فجفت الآبار وقلت الامطار فقضت على معظم الثروة الحيوانية فى الكثير من المناطق التى جفت فيها المراعى والاعشاب .

ولقد دلت الدراسات فى علوم الصحراء وتنمية المراعى وأكدت على أمكان انعاش المراعى الطبيعية بل وشجعت عودتها أو أعادتها كمصدر من مصادر الثروة القومية للمملكة السعودية ، وذلك نظرا لتوافر مناطق نباتية وعشبيّة فى سائر أنحاء المملكة لها أهميتها وخصوبتها النوعية والرعوية ، مما يسهل تكثيف الابحاث من أجل اعادة الطاقة الانتاجية لهذه المراعى لجودتها وعودتها للمساعدة فى التنمية وانعاش الصحراء وتعميرها .

ولقد أثبتت التجارب الرعوية ، سهولة ظهور نباتات الرعى الجيدة ، وسرعة أستجابتها للنمو والانتشار السريع وبخاصة فى المراعى الخصبة ، كما وتسمح كثرة أنواع النباتات المنتشرة فى مناطق الرعى بأمكان تنظيم دورات خاصة للرعى ، وترشيد تنمية المراعى وتربية الحيوان . وتتوافر فى المملكة السعودية الظروف الفيزيقية ، كما تتوافر المعدات التكنولوجية لاستغلال المياه السطحية والجوفية ، نظرا لصلاحية التربة وخصوبتها ، كما يمكن تحسين وتهجين السلالات المحلية من أجل تطويرها لسلالات أخرى جديدة ، أكثر انتاجا وأفضل نوعا ، وذلك للحصول على أكبر معدلات ممكنة من حيث الكم والكيف .

ومن أجل تنمية الثروة الحيوانية ، ينبغى اجراء البحوث والدراسات لتنظيم هجرة الاغنام وحركة القطعان وتنقلاتها ، ودراسة أنسب الطرق لحماية المراعى . ومع امكان الاهتمام بدراسة طبيعة نباتات الرعى نفسها ، يمكن أختيار أنسب المناطق الصالحة لاستنبات المراعى بالتخطيط العلمى الجيد والدراسات الحقلية المتأنية والمركزة التى تقوم بها مختلف اللجان العلمية المتخصصة مع امكان انتاج الاعلاف الاحتياطية الممتازة وأختزانها وتسويقها لوقت الحاجة ، اذا ما قلت أو شحت الاعلاف اللازمة والضرورية للتسمين والتربية نتيجة لعدم توفر العلف لغذاء الحيوان .

ولامكان الزراعة واصلاح الارض الزراعية ، ينبغى أولا وقبل كل شىء محاولة أجراء ما يلزم من أجل تثبيت « الكثبان الرملية » حتى لا تزحف الرمال على

الزراعة فتفسدها ، ويمكننا آليا وتكنولوجيا تثبيت هذه الكثبان الرملية بزراعة حشائش خضراء فوقها تصلح بعدها كمراعى ، للاغنام والماعز ، كما يمكن لنجاح مشروعات التنمية الصحراوية ، العمل الدائم الدائب على زيادة مصادر وموارد مياه الشرب للقطعان والاغنام وحسن توزيعها ، بما يتناسب وحاجة كل منطقة ودرجة خصوبة التربة ومدى جودة مراعيها وأستجابتها للنمو والانتشار السريع .

الفصل الحادى عشر

مقاييس الأنسال بين القرى والحواضر

تمهيــد :

* الديموجرافيا وتركيب السكان
* المدن المركزية والمناطق الحضرية
* النظم الاجتماعية ورد فعلها على معدلات الخصوبة
* فئات إقتصادية
* توقّع الحيـاة

الديموجرافيا والتركيب القروى للسكان :

ماذا نقصد بتركيب السكان ؟ وهل هناك تمايزات بين التركيب القروى والتركيب الحضرى ؟ وما هى هذه التمايزات ؟

فى الرد على هذه المسائل ، نقول ان التركيب الحضرى ... يختلف تماما عن التركيب القروى فى المجتمعات ...يفية ، وبين ... وجماعات الصيد والصيادين[1] .

وبذلك يمكننا تحديد تركيب Construction أو بنيان شعب من الشعوب بدراسة فئات السن والنوع والجنس Age-Set ومعرفة العلاقات المتبادلة بين معدلات الوفيات Mortality والخصوبة Fecondity وفيض الهجرة ، بأحصاء حركة الدخول والخروج من المجتمع ، وهو ما يسمى فى علوم الاجتماع الديموجرافى والحضرى باسم الحراك الاجتماعى Social Mobility .

وأهم ظاهرة ايكولوجية وديموجرافية فى نفس الوقت هى ظاهرة التوزيع Distribution[2] فكيف يجرى توزيع الناس ؟ وما هى سائر التغيرات التى تطرأ على توزيعهم ؟ وما مكانهم على الخريطة الحضرية ، كالاحياء والضواحى ، وهى أجزاء من المدن والحواضر ، ومثل « الكفر » أو « النجلة Hamlet » وهى أجزاء من مناطق قروية أو زراعية ، طبقا لتقاسيم الريف .

فى الرد على كل ذلك ، نقول : انه بالنسبة للتوزيع ، هناك مناطق صناعية متقدمة وهى مناطق وتجمعات حضرية . وهناك مناطق سابقة على التصنيع ، أو سابقة على الحياة الحضرية . وبذلك يمكننا عن طريق التوزيع السكانى ، معرفة أو فهم طبيعة الانماط الحضرية والريفية ، كما يمكننا فهم التوزيع الداخلى لشعب أو مجتمع ودراسة كيفية نموه ، بتغيير الكيفية الكمية والنوعية .

---

(1) El Abd, Salah., An Approach to integratid Rural Development in A Frica, Sirs el Layan, Menofia Egypt. 1973.

(٢) التوزيع مصطلح فنى يستخدمه الباحث حينما يهتم بكيفية اجراء أو فهم طريقة توزيع السكان فى منطقة حضرية أو شبه حضرية . وتميزات كل منطقة منها ، ودراسة كل التعيزات التى تقع على المنطقة ، والناجمة عن طبيعة توزيع الناس فى المنطقة موضوع الدراسة .

مقاييس الانسال بين الريف والحضر :

هناك فوارق كبيرة بين الريف والحضر فى المجتمعات النامية الا أن هذه الفوارق تأخذ فى التضاؤل، سواء فى المجتمعات المتقدمة صناعياً والراقية حضريا ، ويتجلى الاختلاف بين تركيب كل من سكان الحضر وسكان القرية ، حسب فئات السن والجنس[1] ، وكأنه هرم فوق قمة هرم آخر ، حيث تزداد الفئات العمرية من سن ٥ــ١٩ سنة وهى فئات فى الغالب معولة . بينما تقل الفئات العمريه المنتجة من سن ٢٠ــ٤٤ سنة وهى سنوات الانتاج ، بينما تزداد فئات السن من سن ٤٥ سنة فما هو أكثر .

ويختلف التركيب العمرى والنوعى بين الريفيين ممن لا يقيمون فى المزارع عنه فى المدن . حيث ينجب سكان الريف الذين لا يقيمون فى المزارع عددا كبيرا من الذكور وعدد أقل من الاناث فى المجموعة العمرية ٢٠ــ٢٤ .

وتقاس عملية الانسال ، عن طريق تحديد النسبة بين عدد النساء وعدد المواليد بمعنى أن نسبة الخصوبة Fecondité هى نسبة المواليد الى النساء فى الفئات العمرية ما بين ٢٠ــ٤٤ أو ٢٠ــ٤٩ ، ويمكن أن تستند النسبة الحقيقية للاخصاب عن طريق احصاء عدد الاطفال الذين تصل أعمارهم الى الرابعة بالنسبة الى كل ١٠٠٠ امرأة ويحتمل أن يمثلن فئة الامهات .

ويختلف سكان القرى عن الحواضر ، حيث تنجب الجماعات القروية عددا أقل نسبيا من المواليد خارج البلاد ، أو من أصل أجنبى ، وأن فيهم عددا أكبر نسبيا من الفئات غير المنتجة وعددا أقل من النسوه المتزوجات ، حيث أن المسنين من أفراد القوى العاملة أكثر عددا فى صفوف أهل المدن .

أما بصدد كلمة Ratio فهى غالبا ما تستخدم فى المصطلحات الديموجرافية ، وتستخدم الكلمة للتعبير عن «حجم عدد ما بالقياس الى حجم عدد آخر» . ولقد صدرت لدينا الاعداد النسبية ، لكى تساعدنا على « فهم الواقع الاجتماعى » عن طريق النسب والاعداد النسبية ، حيث تلخص لنا النسب والمعدلات فتكشف

(١) بنى « جومار Jomard » تعداد سكان مصر ، على أساس عدد الذكور والاناث ، ونسبتهم فى كل محافظة .

عن طبيعة الخواص النفسية والجسمية وتفصح عن كل الحقائق الباطنة والظاهرة التى يكشف عنها التحليل العلمى للبيانات .

وينبغى أن يتعلم الباحث فى علم الاجتماع الحضرى ، كيف يستخدم الاعداد النسبية ، وكيف يحلل البيانات وتصنيفها فيضبط ويتم حسابها .

فالنسبة بين حجمين مثلا ، كدراسة النسبة بين الذكور والاناث هى نسبة تختلف من مجتمع الى آخر ، فقد تزيد نسبة الذكور على الاناث ، وقد يحدث العكس فتزيد نسبة الاناث على نسبة الذكور ، ويكون النساء أكبر نسبة من الرجال وأكثر عددا.والنسبة اما نوعية واما مئوية ، أما النسبة النوعية ، فهى نسبة جزء الى الكل Proportions ، دون النظر الى التعبير عن النسبة بالقياس الى حجم آخر ، ونسبته الى نفس الكل . ويمكننا الحصول على النسبة النوعية بقسمة العدد الجزئى على العدد الكلى ، وتتفاوت قيمة النسبة النوعية من الصفر الى الواحد الصحيح.أما النسبة المئوية فهى نسبة محسوبة على أساس الافتراض أن عدد الاساس يساوى ١٠٠ بمعنى أن النسبة المئوية هى نصيب مضروب فى ١٠٠ ، فنسبة الذكور المئوية هى نسبة الذكور الى الاناث فى المائة ، فهذه هى النسبة المئوية للذكور ، أى عدد الذكور بين كل مائة من السكان .

وتختلف المعدلات عن النسب ، لان المعدل يعبر عما يحدث فى المجتمع على أساس وحدة زمنية محددة ، وهذا ما يميز « المعدل عن النسبة » ومن أشهر المعدلات فى البحوث الديموجرافية ، هى معدلات الوفيات ومعدلات المواليد Birth Rate على أن تكون الوحدة الأساسية كما جرت العادة هى سنة كاملة[1] .

ويمكن الحصول على معدل المواليد بقسمة عدد المواليد المسجلين خلال سنة معينة ، على عدد سكان المنطقة كلها ، مما يعطينا كسرا من المواليد بالنسبة الى الشخص الواحد ، ثم يضرب الناتج من أجل ازالة وضياع مثل هذه الكسور فى ألف نسمة وينتج من هذا معدل المواليد الخام . وهو على نقيض معدلات المواليد المنقحة ويتجاهل معدل المواليد الخام فى حسابه جميع الاختلافات فى التركيب .

(١) تتصل الاحصاءات الحيوية Vital Statistics بدراسة معدلات المواليد ، ومعدلات الوفيات Death Rate .

أما معدل المواليد المنقح ، فيحسب الاختلافات بين المجموعات السكانية ، فى خاصية أو خصائص معينة عند أجراء التنقيح .

ويمكن ربط معدلات ونسب المعدلات بنسب معدلات ونسب أخرى ، مثل دراسة الفروق من نسبة التعليم ونسبة الخصوبة ، أو دراسة معدلات الانسال ومحل الاقامة ، ان كان فى القاهرة أو طوكيو ، بين مدينة ومركز أو كفر حيث يختلف الناس بأختلاف أماكن الاقامة . فلقد قلت نسبة التعليم بين القرويين ، بينما زادت معدلات الانسال فى القرى نظرا لانخفاض مستوى التعليم وهبوطه .

ويحتل القروى الذى لا يقيم فى المزرعة ، مركزا وسطا بين الحضريين والقرويين من ناحية التعليم والانسال والدخل مع بداية اعطاء المرأة حق الخروج الى العمل .

المدن المركزية والمناطق الحضرية :

ان الفوارق كبيرة بين المدن المركزية ، والضواحى المحيطة وهى أكبر حدة وأعظم شدة بين المدن المركزية وبين مجموع سكان المدن الكلى .

وتختلف الضواحى عن جميع الفئات الاخرى ، من نواح كثيرة فسكانها أوفر تعليما وأعظم ثراء بكثير ، وبها عدد أكبر من النازحين ، ومن العمال غير اليدويين والعاملين فى الصناعات التحويلية ، ومن العمال والموظفين فى مقاطعات غير المقاطعات التى يعيشون فيها . وظهر أن معدل الانسال فى الضواحى أكثر منه فى المدينة المركزية ، كما أنه أعلى من المعدل الكلى فى صفوف سكان المدن ، ولكنه أدنى منه فى صفوف الفنيين من الريفيين[1] .

ومن أهم المعدلات المشهورة فى الديموجرافيا واحصاء السكان لدراسة النواحى الحيوية كالمعدلات فى الوفيات والمواليد ، واحصاء الزيادة الطبيعية ومعدل الانسال العام ، وكلها دراسات هامة فى حيوية السكان Population Vitality .

ويمكن حساب معدل المواليد التقريبى على النحو الآتى :

---

(١) يشكل مجموع سكان المدن ٤٦٪ فى المائة من سكان المدن المركزية ، ٣٠٪ فى المائة من سكان الضواحى ، ٢٤٪ فى المائة من غير هؤلاء من سكان المدن .

$$\frac{\text{عدد المواليد الكلى فى سنة معلومه وفى منطقة محددة}}{\text{عدد السكان الكلى فى منتصف السنة وفى نفس المنطقة}} \times ١٠٠٠$$

وبنفس الطريقة يمكن حساب معدل الوفيات التقريبى على النحو الآتى :

$$\text{معدل الوفيات الخام} = \frac{\text{مجموع الوفيات فى دولة فى عام كامل}}{\text{مجموع السكان فى نفس الدولة فى منتصف العام}} \times ١٠٠٠$$

$$\text{المعدلات العمرية للوفيات} = \frac{\text{عدد الوفيات بين الاشخاص فى سن معينة}}{\text{عدد السكان الكلى}} \times ١٠٠٠$$

الزيادة الطبيعية[١] :

ويمكن تحديد الزيادة الطبيعية بطرح عدد الوفيات الكلى من عدد المواليد الكلى فى سنة محددة ، وفى منطقة واحدة .

والزيادة الطبيعية السالبة، تكون فيها الوفيات أكثر عددا من المواليد . بمعنى أن الزيادة السالبة ، تعبر عن النقص الطبيعى فى تعداد السكان .

ولا تحسب الهجرة فى حساب الزيادة الطبيعية ويمكن التنبؤ بحساب معدل الزيادة الطبيعية بالمدة التى يستغرقها هذا البلد والوصول الى حجم معلوم حيث أن الهجرة زيادة غير طبيعية .

نسبة المواليد Fecundity Rate :

أما نسبة المواليد فيكون حسابها على النحو الآتى :

$$\frac{\text{عدد المواليد أقل من خمس سنوات}}{\text{عدد المتزوجات اللائى فى سن الحمل من سن ١٥—٤٥}} \times ١٠٠٠$$

(١) وتحدث نتيجة لأسباب بيولوجية واقتصادية تتعلق بمستوى معيشة وهرم العمر Age Pyramid ، أو الهرم السكانى ومدى اتصاله الوثيق بمعدلات منتجة ومعمولة . ولا شك أن الزيادة الكلية إنما تؤثر على كل مناشط الاقتصاد ، سواء فى مجال التعدين أو الزراعة أو الصناعة أو حتى المناشط الحرفية واليدوية . والزيادة الطبيعية تتضمن معدل الزيادة السنوية للسكان The Annual Rate of =

أما نسبة الخصوبة Fertility Rate فتحسب كالآتى :

$$\frac{\text{عدد المواليد أقل من خمس سنوات}}{\text{عدد النساء اللائى فى سن الحمل من سن ١٥ــ٤٥}} \times ١٠٠٠$$

وتقل نسب المواليدعن نسب الخصوبة لاختلاف نسبة الزواج بين النساء من مجتمع الى آخر .

وهناك عوامل تؤثر فى معدلات الانسال والخصوبة ، نحددها فى النقاط الآتية :

١ ـــ هبوط معدلات الوفيات ، مما أدى الى تحديد النسل أو تنظيمه .
٢ ـــ أنتشار العلم وتقدم الطب والاهتمام بالصحة ونمو الحرية الفكرية .
٣ ـــ قد يؤثر انتشار الاجهاض فى أشكاله العمرية أو غير القانونية أو العلاجية على صحة المرأة الحامل ، الامر الذى يكون له صداه على درجة الخصوبة .

ولكننا نتســـاءل :

هل تتمايز حيوية السكان بين مجتمعات الريف والحضر ؟

لقد أثبتت الدراسات الاحصائية والديموجرافية وجود الكثير من الفوارق بين الريف والحضر وبخاصة فى معدلات المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية ، كما أثبتت الدراسات أيضا تمايز معدلات الانجاب وأختلاف درجات ونسب التواليد Fecondité ومعدلات الخصوبة Fertilité . وهذه هى أهم مقاييس حيوية السكان Population Vitality .

وتقاس معدلات المواليد كما قلنا بعدد المواليد فى كل ١٠٠٠ من السكان كما تقاس الوفيات بعددها فى كل ١٠٠٠ ، والفارق بين هذين النوعين من المعدلات هو ما يسمى بالزيادة الطبيعية ، وخلال الفترة ما بين ١٩١٧ وعام ١٩٤٧ نلحظ زيادة طبيعية فى جمهورية مصر العربية بنسب عالية وصلت الى ٢٢,٢ ، بينما وصلت فى انجلترا ٤,٤ وفى الهند ١٠,٧ وفى الولايات المتحدة ٧,٠ وفى

= Increase ومع الزيادة السنوية الهائلة ، [illegible]
اليابان نحو سياسة منع الحمل Anti-Birth Policy [illegible] .

السويد ٧,٣ ويرجع السبب فى ذلك الى ارتفاع المستوى الصحى فى مصر وانخفاض نسبة الوفيات .

ولو اننا اخذنا درجة الخصوبة فى مصر لوجدنا أنها تختلف وتتباين من دولة الى أخرى ، ومن منطقة حضرية الى أخرى ، كما تتمايز حيوية السكان بصورة واضحة بين سائر مجتمعات الريف والحضر ، فنسبة الخصوبة فى الولايات المتحدة الامريكية بلغت ٤٣١ ، بينما بلغت فى جمهورية مصر العربية ٥٤٥,٩ ، وهناك عوامل متعددة يكون لها أثرها ورد فعلها فى معدلات الانسال والخصوبة نحددها فى النقاط الآتية :

١ ـــ تختلف حيوية السكان بين الريف والحضر حيث نجد أن درجة الخصوبة فى الحضر هى على العموم أقل من درجة الخصوبة فى الريف . وكأن محل الاقامة الحضرى أو القروى انما يكون له رد فعله فى ارتفاع أو انخفاض نسبة التوالد والخصوبة .

ولقد ظهرت فى جمهورية مصر العربية بعض النتائج العكسية ، حيث بلغت درجة الخصوبة فى الحضر ٥٦٧ وفى الريف ٥٤٥,٩ ، فهى فى الحضر أعلى منها فى الريف وهذا ما يخالف الفكرة العامة عن الريف المصرى ، ودرجة خصوبته المرتفعة عن الحضر ، وحتى الولايات المتحدة الامريكية نجد أن درجة الخصوبة بين الحضرين أقل منها بين القرويين ، ثم تعادلت بعد ذلك درجة الخصوبة بين الريف الامريكى والحضر .

وبالنسبة لمصر فقد ثبت أن درجة الخصوبة فى القاهرة أعلى منها فى القليوبية وهى ذات طابع قروى ، ويرجع السبب فى ذلك هو أن المقياس الذى نقيسه فى الغالب هو عدد الاطفال الذين يقل سنهم عن خمس سنوات . وينجب القروى المصرى أطفالا أكثر عددا ، ولكنهم يموتون قبل سن الخامسة فلا يحتسبوا فى الاحصاء .

أما الحضرى فينجب أطفالا أقل ، ولكن معدل الوفيات فى الريف أكبر من الحضر .

ولقد ثبت من الاحصائيات أنه اذا ارتفعت درجة الكثافة ترتفع الخصوبة ، فهناك معامل ارتباط بين الكثافة والخصوبة . ونظرا لوجود الخدمات الصحية وغير الصحية ترتفع درجة الخصوبة فى المناطق الحضرية لنقص عدد الوفيات ، وارتفاع معدل الزيادة الطبيعية[1] .

وللمركز الاقتصادى للاسرة ودخلها ، أثرهما على معدل الخصوبة ، فيرتفع فى الطبقات الفقيرة ، ويقل فى الطبقات الغنية ، فهناك علاقة بين درجة الخصوبة والدخل أو مستوى المعيشة فكلما زاد الدخل قلت درجة خصوبة السكان ، وهذه قاعدة ثابتة فى الريف والحضر على السواء ، ولذلك يقول المثل الشعبى المصرى « من يطلب القرش يلاقى كرش » للتعبير عن لسان حال الفقير . ويقول الاقتصاديون ان تعدد الافواه تتطلب الطعام ، وشر البلاء عند آدم سميث Adam Smith هو تعدد الاطفال بين الفقراء ، وهذا هو السبب نفسه فى أن الاغنياء ليس لهم الا القليل من الابناء .

وهناك معدلات ارتباط وثيقة بين الآباء ودرجة الخصوبة ، وفى عام ١٩٤٧ قام التعداد فى القطر المصرى ووجدنا أن درجة الخصوبة هى (٥٩٨) على أساس عمر ١٦ــ٤٤ سنة بغض النظر عن العقائد والديانات . ثم وجدنا أن درجة الخصوبة بين المسلمين هى ٦٠٦ والمسيحيون ٥١٩ وبين اليهود ٣٩٥ . وللدين أثره على تحديد النسل ، وتجيز بعض الدول تنظيم النسل والاسرة ، وتعارض الديانات تحديد النسل كالكاثوليك والارثوذكس ، ورجال الدين رأيهم التابع مما جاء بالكتب المقدسة .

وبالنسبة للتعليم نجد أيضا معامل ارتباط واضح بين درجة الخصوبة ومستوى التعليم فكلما زاد تعليم الناس قل عدد الانجاب بينهم . ولا نفسر ذلك بأن التعليم يسبب ضعفا فى درجة الخصوبة . وقد يكون انخفاض معدل الخصوبة بين المتعلمين يرجع الى تأخير سن الزواج حتى يتم سنوات الدراسة ، ويحصل على وظيفة أو مهنة ولهذه القاعدة شواذ ، فقد يكون الانسان مثقفا ومتعلما ولديه الكثير من الابناء ، وقد يكون جاهلا وقليل الاطفال .

---

(١) مع الزيادة الطبيعية الهائلة ، علينا بالعمل والانتاج حتى نواجه الزيادة الطبيعية من ... فاذا كان كل سنة من ثلاث سنوات يتضاعف فيها المحصول ... مجاعة .

وقد تتدخل السياسة العامة للدولة التى تعانى نقصا أو زيادة ، ومعدلات الخصوبة وبخاصة فى الدول التى تعانى نقصا أو زيادة فى الكثافة السكانية ، وقد تساهم الدولة فى زيادة المواليد بتشجيع النسل ومساعدة الزوج لتشجيع الخصوبة ، بزيادات مالية على الرواتب تزداد كلما ازداد عدد الاطفال . وهكذا فعل هتلر فى المانيا النازية للسيطرة على أوربا بتحسين وزيادة معدلات المواليد كمّا ونوعاً ، فيختار الآباء والامهات ويزوج الرجل المناسب بالمرأة المناسبة لتشجيع الخصوبة وبشروط تشجيعية وتحقيق عنصريه نقيّة ، وهذه نزعة لا أنسانية ، كما أن العنصرية خرافة ، فلا وجود للعنصر النقى وهذه نظرية لا علمية ومتحيزة ، وتعصب أعمى، فلا فضل لابيض على أسود ، ولا عربى على عجمى الا بالتقوى والخلق والذكاء .

ولقد سقط موسولينى « دوتشى ايطاليا » فى نفس الخطأ حين أعطى أفضلية للمساكن الحكومية للمتزوجين فقط ، من أجل انجاب الاعداد الكبيرة من الاطفال .

وهناك دول أخرى تشجع تقليل خصوبة السكان ، وأنخفاض المواليد واصدار قوانين تحديد النسل ، كما حدث فى اليابان ، فجعلت عملية الاجهاض عملية شرعية قانونية ولاسباب اقتصادية ، فيصرح للزوجة أن تدخل المستشفى للاجهاض ، بينما تقف دول أخرى مترددة ولم تصل الى هذا الحد من التشريعات ، كما هو الحال فى مصر ، فالوازع الدينى والقيم الاسلامية تمنعان من أجراء مثل هذه الحالات اللاانسانية الا أن التصنيع وأرتفاع مستوى المعيشة والتعليم والدخل ، وانتشار العلاج الطبى والسكن المناسب المريح ، كل هذا سيؤدى يوما الى انخفاض درجات الخصوبة ، حيث ثبت أن المجتمعات والشعوب المتقدمة فى مستوى معيشتها ، تمتاز بدرجة خصوبة أقل من الشعوب والمجتمعات التقليدية المختلفة .

ويعطى معدل الانجاب Net Reproduction Rate مقياسا لقياس حيوية السكان ، بتعداد انجاب الاناث فقط وعدد المواليد البنات فقط ، اللائى تم انجابهن من كل مائة أم .

فاذا أنجبت مائة أم طوال الحياة عدد ١١٠ مائة وعشرة من الاناث ، دل ذلك القياس على أن النساء يعوضن أنفسهن وزيادة . واذا أنجبت مائة أم طوال الحياة عدد ١٠٠ مائة من الاناث يدل معدل الانجاب على التوازن فى المستوى العادى مع ضرورة المحافظة على هذا المعدل . واذا كانت كل ١٠٠ أم تنجب طوال حياتها ٩٥ بنت ، دل ذلك على التهديد بتناقص السكان لانهم لا يعوضون أنفسهم .

ويمكننا أن نلخص أهم العوامل التى تؤثر فى معدلات الانسال والخصوبة ونحددها فى النقاط الآتية :

١ ـــ هبوط معدلات الوفيات ، مما أدى الى تحديد النسل أو تنظيمه .
٢ ـــ انتشار العلم وتقدم الطب والاهتمام بالصحة ونمو الحرية الفكرية .
٣ ـــ قد يؤثر انتشار الاجهاض فى أشكاله العمدية أو غير القانونية أو العلاجية ، على صحة المرأة الحامل ، الامر الذى يكون له رد فعله على معدلات المواليد ودرجة الخصوبة ، بل وعلى معدل الانجاب نفسه New Reproduction Rate .

فئات اقتصاديــــة :

من المسائل الهامة والضرورية فى التحليل الديمجوجرافى للسكان ، هو توزيعهم حسب الاعمار ، كما يرتبط ذلك بعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية . فلا يهمنا أن يصل تعداد السكان فى جمهورية مصر الى أربعين أو خمسة وأربعين مليونا . ولكن الاهم هو معرفة كيفية توزيعهم ،١٩,٥ مليون طفل ، ١٥ مليون شيخ ، فيكون هناك نسبة عالية من الاطفال والشيوخ ، وتحتسب هذه النسبة العالية من الفئات المعولة أو غير المنتجة ، وعلى المجتمع أن يوفر الغذاء والكساء وكل المعوقات الاقتصادية . ولا نستطيع أن نرسم سياسة عامة أو خطة اقتصادية قصيرة أو بعيدة الاجل ، الا فى ضوء دراسة علمية لفئات العمر والانتاج .

وتبيع الولايات المتحدة على سبيل المثال ، حسب سياسة اقتصادية دقيقة ما يزيد على عشرات الملايين من علب اللبن المبستر للاطفال ، بعد أن قامت

بأحصائيات لعدد الاطفال من سن ١ الى الخامسة ، ومن الناحية الصحية والتعليم ، فانها تنتج ما يزيد على مائة طن من العلب المحفوظة للاطفال من يوم الى ٣٠ يوم لرعايتهم الصحية .

ومن الضرورى أن يكون لدينا احصائيات للاعمار ما بين ١٥ــ٢٤ سنة ، وهى فترة عمرية يكون فيها الشاب طالبا فى الجامعة أو مجندا فى الجيش ، كما يمكن توزيعهم على المهن المختلفة . ومن الممكن أيضا معرفة القوى العاملة Labour Force الممكن توجيهها توجيها اقتصاديا ، وهم يتراوحون بين ٢٤ــ٦٠ للزراعة والتجارة والصناعة بحيث نستطيع أن نعمل كل الاحتياطات لتحقيق توازن فى الانتاج ، طبقا لاشباع حاجات الكل ووفقا لاحتياجات السكان أنفسهم .

ولقد قصد علماء الاقتصاد والسكان من أجل دراسة مختلف الفئات المنتجة وغير المنتجة ، وتحليل القوى العاملة ومعدلاتها فى البناء الاقتصادى . وحاولوا الرجوع الى مختلف الإحصائيات القومية والعامة، وتحليل البيانات والارقام التى تلقى ضوءا كاشفا على نسبة القوى العاملة وما يقابلها من « الفئات المعولة » . فمثلا رجعنا مثلا الى الاحصائيات المصرية ، لوجدنا أن متوسط الاعمار والفئات المنتجة والمعولة ، دائما يتخذ شكلا هرميا فى المجتمع المصرى .

السن أو الفئة العمرية :

١ ــ المواليد من سن الميلاد حتى ١٤ سنة ، ونعتبر هذه الفئة من الفئات المعولة . فكلها من الاطفال والتلاميذ وتبلغ عددهم ٣٨٪ من اجمالى الاحصاء الكلى .

٢ ــ من سن الخامسة عشر حتى سن الرابعة والعشرين ، وتعتبر هذه الفئة من الفئات معظمها من طلبة الجامعة ومن المجندين فى الجيش وتبلغ نسبة عددهم ١٧٪ من المجموع الكلى .

٣ ــ من سن الخامسة والعشرين حتى سن التاسعة والثلاثين ويبلغ عددهم ٢٢٪ . ومن سن الاربعين حتى الاحالة الى المعاش ويبلغ عددهم ١٧٪ وتعتبر كل هذه الفئات من القوى العاملة أو الفئات المنتجة .

٤ ـــ ومن ٦٠ فما فوق ويبلغ عددهم ٦٪ وهم شيوخ لا ينتجون .

توقع الحيـــاة :

يعتبر متوسط عمر الانسان ، هو غاية ما نتوقعه من سنى حياته . ولقد لوحظ أن توقعات الحياة بين المواليد البنات أكثر منه بين المواليد الذكور ، حيث ثبتت الحصانة أو المناعة البيولوحية التى يتمتع بها صغار المواليد البنات ، فهناك امكانية بيولوجية أو طاقة حيوية للبقاء على قيد الحياة لفترة أطول بين الاناث عنها بين الذكور ، مما يفسر زيادة عدد المواليد الاناث من سن الخامسة أكثر من عدد من المواليد الذكور ، ومما يفسر أيضا زيادة عدد الارامل بين النساء بالنسبة لعدد الارامل بين الذكور .

وكلما نجحنا فى تقليل عدد الوفيات والتخفيف من المؤثرات التى يكون لها رد فعلها على معدلات الوفيات « كلما ازداد توقع الحياة وارتفع متوسط العمر » . ويمكن تحديد عدد السنوات التى يتوقع الاشخاص من أى سن معلومة أن يحيوها فى المتوسط ، وبالتالى نحصل على متوسطات احصائية للاعمار بين مختلف الشعوب والدول .

حيث تختلف نسبة الوفيات بين مختلف الدول . وتقل نسبة الوفيات مثلا فى المجتمعات القروية عنها فى المجتمعات الحضرية .

وقد أثبتت الاحصائيات قلة معدلات الوفيات بين المتزوجين وفى جميع الاعمار عنها بين غير المتزوجين والارامل والمطلقين ، وهناك صلة بين الصحة والزواج وبين معدلات الوفاة والحالة الصحية الزواجية ولذلك كثيرا ما تعزف الانثى عن أختيار من هو ضعيف البنية شريكا لها ، لان ضعف الصحة ينذر بالمرض ويزيد من توقع الوفاة ويقلل من توقع الحياة ، ولذلك يندر أن يتزوج الشاب ضعيف الصحة لصعوبة توفير أسباب العيش الكريم لاسرته بعد الزواج .

ولقد بحث « آرثر نيوزهولم Arthur Newsholme » عن عوامل انخفاض معدلات الوفيات بين المتزوجين ، فأرجع السبب الى عامل الانتظام فى الحياة .

فالمتزوجين وبخاصة بين الرجال أكثر انتظاما فى حياتهم من غير المتزوجين ، ووجد أن التحرر النسبى فى الحياة الزواجية يؤدى الى مخاطر رهيبة حيث ثبت أن مرض الزهرى ، مرض تصاب به الاعضاء التناسلية ، وهو مرض لا يوجد أو يتوافر بين المتزوجين بقدر ما يرتبط بحياة التحرر والعزوبية ، هذا ما أثبتته الاحصائيات الحيوية Vital Statistics .

وتعتبر المهنة أو نوع العمل ، من أهم العوامل التى تتدخل فى احصائيات متوسط الاعمار وتحديد معدلات الوفيات ، فالعمل فى المناجم وخطورته على الصحة ، والعمل فى أفران الحديد والصلب ومصانع النحاس وسائر الصناعات الثقيلة ، تعتبر من الاعمال والمهن الخطرة وذات التأثير البالغ على متوسطات العمر وتوقّعَ الحياة ، ولذلك كان الفلاح أو القروى أطول عمرا من الصانع أو العامل .

وقد تعتبر الاوبئة والقذارة وازدحام السكان من أهم العوامل الرئيسية فى تحديد ورفع معدلات الوفيات ، فالطاعون وكثافة الشوارع والبيوت ، عوامل حاسمة فى انتشار الاوبئة . وتقل معدلات الوفيات على العموم ، كلما ازدادت الرعاية الصحية ، وأنتشر الوعى الطبى والدوائى بين الناس ، حرصا على الصحة العامة من ناحية ، والعمل والوقاية واحترام الشعوب لنداء الدول فى القضاء على الامراض المعدية والتحصين ضدها فورا ، مع المحافظة بقدر الامكان على مستوى اقتصادى معقول ومقبول ، من ناحية أخرى .

ومع انخفاض الوفيات ، وازدياد الاهتمام بالصحة العامة وزيادة أساليب الانتاج تزداد معدلات نمو السكان ، بل ويتضاعف هذا النمو الذى أحدث أهم مشكلة سكانية فى العالم ، وهى الانفجار الواضح فى تعداد البشر . الامر الذى يجب أن يواجه فى المستقبل بتوافر العلاج اللازم لمشكلة الجوع والاسكان والغلاء الى جانب التركيز على « الانتاج » لمواجهة المشكلة الكبرى مشكلة « الاستهلاك » عن طريق تخفيف الضغط السكانى ، والهجرة المنظمة ، وتحديد النسل أو تنظيمه أو ضبطه Birth Control ، الى جانب ضرورة الاهتمام بمشروعات التنمية Development فى جوانبها الاقتصادية والفنية والتكنولوجية والاجتماعية ، حتى

يحدث التوازن بين ضغط السكان وزيادة الانتاج . ولعل المثل الاعلى والسياسة السكانية السليمة ، هى نمو السكان مع رفاهية الناس وتعليمهم ، مع درجة من الكفاية فى المواد الاقتصادية وانخفاض واضح فى معدلات المواليد والوفيات .

الفصل الثانى عشر

التعليم العالى وخطط التنمية

تمهيـــد

* ضرورة التعليم العالى
* منهج الفكر الجامعى ودوره فى البحوث التطبيقية
* الطريقة التقليدية فى برامج التعليم العالى ودورها فى التنمية
* طلبة الجامعات وتنمية البيئة
* اقتراح مخطط للتنمية فى العالم العربى

مقدمـــة :

لقد تزايدت اهتمامات الخبراء والعلماء فى ميادين التربية والتنمية والادارة والتخطيط ، حين التفت علماء الاجتماع والاقتصاد فى عصرنا الى الوظيفة الاجتماعية للعلم Social Function of Science والى دور « الفكر الجامعى الخلاق » فى التطوير والتغيير . الأمر الذى بصدده أنشغلت أذهان المفكرين فى العالم العربى[1] بقضايا التعليم ، وخطط التنمية فصدرت مراكز التدريب والاعداد والتربية ، وتعددت مختلف معاهد التكنولوجيا وتطبيقاتها الفنية فى حقل التعليم العالى .

. ضرورة التعليم العالى فى الوطن العربى[1] :

ومن هذا المنطلق ظهرت وتزايدت حاجة الحكومات والدول فى الوطن العربى من الخليج الى المحيط الى ضرورة فتح ابواب التعليم العالى فى سائر الحواضر والمدن العربية الكبرى ، وكان لذلك كله صداه فى تطوير الابحاث وتغير البرامج واللوائح فى مختلف المجتمعات العربية ، وفى بلورة المناهج فى سائر الكليات النظرية والعلمية على السواء .

ولا مشاحة فى أن غاية الفكر الجامعى ، هى فى ذاتها غاية تطبيقية ، الى جانب كونها أكاديمية خالصة . ولما كان البحث النظرى هو محور الزاوية فى سائر البحوث التجريبية والعلمية ، كما أنه « أصل جوهرى » تبدأ منه كل دراسة ميدانية أو حقلية ، ومن ثم تطلبت مناهج العلم وفرضت أدواته التقنية Techniques ضرورة دمج الفرض بالتجربة ، عن طريق منهج المزاوجة بين قضايا العلم النظرى البحت Pure Science التى هى نفسها قضايا نتخذها منذ البداية كفروض موجهة Des Hypotéses Directrices[3] لعمليات البحث الأمبيريقى، وبين ما تمليه علينا الوقائع Facts ، وما تفرضه عملية التجريب Experimentation من مواقف

---

(1) Qubain, F.. Education and Science in the Arab World, Baltimore, Maryland John Hopkins Press, 1966.

(2) Thompson, Kenneth W., Barbara R. Fogel and Helen E. Danner Ed., Higher Education and Social Change, V. 2: Case Studies. New York: Praeger, 1977.

(3) Comte, Auguste., Cours de Philosopnie Positive., Tome Premier 5e Edition - Paris. 1907.

نهائية وأحكام فاصلة حين توضع الفروض النظرية تحت محك التجارب ، فتظهر النتائج والحقائق حاسمة بعد عملية اختبار الفروض وتحقيقها بدعمها أو دحضها، بقبولها أو رفضها، في ضوء البحوث والدراسات الأستطلاعية Pilot Study ، فى سائر التجارب الحقلية والتطبيقات الميدانية .

منهج الفكر الجامعى ودوره فى البحوث التطبيقية :

ومجتمعنا العربى الكبير ، كم هو فى مسيس الحاجة الى تلك المزاوجة بين العلم الاكاديمى الخالص ، والتجربة المعملية والحقلية ، نظرا لما تعتريه من تغيرات هائلة تحت وطأة التكنولوجيا ومحنة التصنيع . وليس المجتمع العربى كوطن مجتمعا واحدا قائما بذاته Sui-generis ، وأنما هو مجموعة متمايزة من المجتمعات التى تترابط ثقافيا فيما بينها ، على نحو فسيفسائى مركب[1] يقوم على أرضية ثقافية متشابكة الطرز والأنماط Patterns .

فالوطن العربى هو خليط غير متجانس من المجتمعات البدوية والقروية والرعوية ، بالاضافة الى ما ينتشر فيه من مدن كبرى وحواضر . وعلى الرغم من وفرة أغنى مصادر العالم فى ضخ وانتاج البترول . يتسم الوطن العربى بوجود عدم التوازن الثقافى والاجتماعى مع التفاوت الاقتصادى الشديد ، نظرا لما يسود الوطن العربى من انماط ثقافية متخلفة Underdevelopment مثل نمط البداوة الخالصة ، ونمط التهميش Marginalization الذى قد يطرأ على البناءات التقليدية المستحدثة حين يقع التعارض وعدم التكيف ، والاستقطاب الحضرى Urban Polarization والصراع الذى يحدث نتيجة الاحتكاك الثقافى الدائم بين ثقافة الدفع القروى ، وثقافة الجذب الحضرى ، وما ينجم عن ذلك ضرورة من ظهور البناءات الهامشية Marginal Structures ، فى الوطن العربى نتيجة لوجود العديد المتكثر من الثقافات البدوية والقروية والصناعية فى المدن والحواضر ، وبين النجوع والواحات ، وخلال السهول والهضاب وحول البحار والبحيرات والانهار[2] .

وهنا ينبغى أن يتحول الفكر الجامعى بكل طاقاته ، نحو دراسة مثل تلك

---

(١) كارلتون ، كون ، القافلة Caravan دراسة ثقافة الشرق الأوسط ، ترجمة برهان دجانى ١٩٥٩ م .

(2) Dayton C.M., The Design of Educational Experiments, M.C. Graw Hill Book 1970.

المجتمعات ، على نحو علمي ومتكامل ، حين ينتشر طلاب التعليم العالي لدراسة « نجوع » و « قبائل » البدو ، وينتقل علماؤنا بين « الكفور » و « القرى » و « المراكز » و « المدن » وينطلق الباحثون والدارسون بين مختلف « المعامل » و « المصانع » و « المزارع » من أجل بحث ودراسة هذه المجتمعات حتى تؤدى الجامعات دورها الثوري الصحيح وتصبح مركزا أساسيا للاشعاع الثقافي والصحي ، حين تشارك وتنفذ وتتابع خطط التنمية[1] .

وعملية التنمية في ذاتها هي « استراتيجية مضادة للتخلف » مؤيدة لمنهج التخطيط العلمي السليم ، من أجل التطوير والتغيير ، وسد الثغرات الثقافية الناجمة عن وطأة التصنيع** ، وتحديث انماط الحياة ، وكلها عوامل توجه مجتمعاتنا وجماهيرنا الكادحة نحو التجديد ، فتتطلع نحو حياة أفضل ، بترشيد الاستهلاك وارتفاع معدلات الانتاج .

والتنمية على العموم هي « برنامج عمل » من أجل التكامل والتكافل الاجتماعي ، وهي « تخطيط منظم » لحماية المجتمع من الخلل والاضطراب وسد الثغرات ، حين يؤدى التصنيع الى زوال أو تحطيم انساق تقليدية بأسرها ، حيث يبدأ الانحلال ويتسلل التفكك في مختلف « التنظيمات »[2] Organization ، ويظهر ذلك جلياً وواضحاً حين يطرأ عدم التكامل في سائر البناءات الاجتماعية Social Structures[1] .

وتعيش هياكل الجمود والتبعية مع استاتيكية بطء التغير وانعدام احساس الجماهير بقيمة الوقت ، وهكذا تعمل النزعات الاستعمارية[3] على التأخر والتخلف والنمطية ، وهو ما يسمى في اقتصاديات التنمية بتنمية التخلف development of uunderdevelopment ، والتخلف هو حركة تاريخية موقوفة تعبر عن النكوص الى

---

(1) Morgan, R.P., Science and Technology for Developments, Washington University, 1979.

★★ Cultural gaps.

(2) Gouldner, Alvin, Modern Sociology, An Introduction the Study of Human Interction, U.S.A. 1963.

Schnieder, Eugone, Inductrial Sociology., Mc. Graw Hill, New York, 1957.

(٣) د. اسماعيل صبرى عبد الله نحو نظام اقتصادى عالمي . دراسة في التنمية والتحرر الاقتصادى والعلاقات الدولية ، الهيئة المصرية العامة ص ١٠٦ .

الوراء ، ولا شك ان النمو انما لا يحدث فى فراغ ، وانما يتحقق فى مجتمع وفى تاريخ ، فما هو التخلف الذى توقف خلال حركة التاريخ ؟ فأعتبرناه بالنسبة للتقدم والتنمية تخلفا ؟ وما هو التقدم الذى سار قدما ، فاعتبرناه بالنسبة للتخلف الاستاتيكى « نموا » أو « تنمية » ؟ .

ولا شك ان الثقافات المتخلفة هى بناءات اجتماعية تقليدية تعيش على الطبيعة والفطرة ومازالت تقوم على تقسيم بسيط للعمل يمتاز بالتضامن الآلى la solidarité mecanique على حد تعبير « اميل دروكيم Durkheim »[1] .

وتحتاج مثل هذه الثقافات التقليدية الى عملية « احداث للتغير » أو « تحديث » Modernization حضارى، عن طريق التدخل الواعى لاحداث التنمية وتحديث الحضارة وبفضل منهجية التخطيط والتنظيم والادارة ، بقصد توجيه الاقتصاديات ، بما يتفق ومصلحة الجماهير الكادحة[2] .

الطريقة التقليدية فى برامج التعلم العالى :

كانت برامج التعليم العالى معوّقة وقاصرة حين استندت الى الدراسة النظرية وحدها دون تجريب أو تطبيق ، فأصبحت مناهج التعليم سلبية واحادية الجانب one-sided اذ ان « النظرية » وحدها لا تستطيع الوقوف على اقدامها ، حين لا تستند الى الواقع والممارسة العملية وفى هذا المعنى يقول مفيستوفيل فى مأساة « جوته Goethe » المشهورة « فاوست » : « ان النظرية رمادية اللون ياصديقى ولكن شجرة الحياة خضراء الى الابد » . وفى ضوء هذا المعنى نؤكد فشل مناهجنا التعليمية ، لانها منفصلة عن حاجاتنا ومنعزلة عن مطالبنا القومية فاتسعت الهوة بين ما يدرسه الطالب فى الجامعة ، وبين ما يتحقق بالفعل فى واقعه العملى ، فعلينا ان نملأ ذلك الفراغ القائم بين النظرية والتطبيق . حتى نمارس بالفعل ما نفكر فيه ، ونترجم ثقافتنا الى سلوك ويتحقق التوازن بين المجتمع وحاجاته ، وتلك هى العملية التربوية الناجحة .

---

(1) Durkheim, Emile.,De La Division Du Travall Social., Alcan, Paris, 1926. pp. 91-98.

(٢) محبوب الحق ، ستار الفقر بخيارات لعالم الثالث . ترجمة احمد فؤاد سيغ . تقديم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله .

فالتناقض بين الفكر الواقع يولد الصراع Conflict ، كما ان التعارض بين العقل والوجود يؤدى بنا الى عالم الضياع والضجر ، ويمثل القرن العشرون حقيقة ما يسميه « هربرت كوهل Kohl » بعصر التعقيد[1] age of complexity والتعقيد فى عصرنا هذا ليس تعقيدا وجوديا فحسب ، بل هو تعقيد تربوى وثقافى نتيجة للتغيرات التكنولوجية والقفزات الاجتماعية السريعة والهائلة .

ولذلك حدث فى بداية السبعينات ولاحظ الناس جميعا تلك الحركات الطلابية المتذمرة والتى اجتاحت معظم جامعات أوربا . فلقد تعالت الصيحات التى تردد صداها مدويا رغبة فى تغير المناهج . فبرامج الجامعة لا تكفى ، ومقررات التعليم العالى لا تنهض بملكات الطالب ، وانما تعتمد فقط على اجهاد الذاكرة ، واستهلاك عقل الطالب فى عمليات الحفظ والتلقين ونقل المعلومات . فينبغى ان تعلمنا الجامعات كيف نفكر ؟ How to think دون ان تتشبث بما كنا نفكر فيه What to think ، فنخضع لعادات فكرية صارمة . فينبغى ان تقوم خطط التعليم العالى بسد الحاجات الاقتصادية ، حيث تتميز مجتمعات العالم العربى ببطء التنمية وسوء التغذية .

فيجب أن يحقق خبراء التخطيط « الطموح الاجتماعى » حيث ان التربية من أجل التغيير « هى فى ذاتها « عملية لتنمية المجتمع » ، ومن اجل التدريب وتحسين الاداء المهنى ظهرت برامج التربية المجدّدة Recurrent Education[2] . وهى دعوة الى التعليم المستمر والتربية المتجدّدة لمحو الأمية وتعليم الكبار ورفع المستوى الثقافى والاجتماعى للقرْية المتخلفة والانسان البدوى والعامل الكادح فى سائر المجتمعات التقليدية والبدوية . وبذلك تحقق التربية أغراضا اقتصادية وتعليمية وثقافية ، من اجل بناء الانسان وتغيره وتطوره .

ولقد أصبحت « التربية المجددة » هى امل العالم الوحيد لتنمية قدرات الانسان المنتج ، وخلق الشخصية الديناميكية النامية واعداد الأجيال الصاعدة على أسس

---

(1) Kohl, Herbert., The age of compelexity Mentor. 1965.

(2) Fagerlind, L., Education and National Development., Stockholm University, Sweden, 1983.

رشيدة ، وفى اطار عقلى منتج . والتعليم هو وسيلتنا الحقيقية فى التطوير ومواكبة تقدم العلم والتكنولوجيا فى عالم سريع التغير[1] .

اقتصاديات التعليم العالى ودورها فى التنمية :

بفضل برمجة Programmation التعليم الفنى ، ونقل الخبرات والمهارات واعداد القوى العاملة ذات الكفاية الفنية العالية ، ونجحت تجربة الصين رغم مواردها البشرية الهائلة فى عملية التنمية ، بالتركيز على برامج الانتاج ، والمهارات التقنية ، عن طريق نشر التعليم الفنىٔ فى كل قرى الصين[2] ، باستخدام برامج التدريب الوظيفى ، القصير الأمد ، بدلا من الخطط الطويلة الأمد ، فقضت على البطالة والتخلف والحرمان ، باستخدام العلم والتكنولوجيا[3] واستناداً على الايمان بدور التعليم العالى واقتصادياته ، على اعتبار ان جماهير شباب الجامعات هم ركيزة اقتصادية ، أو رؤوس اموال مستثمرة كودائع ثابتة فى المستقبل القريب ، حين تتحول طاقات الشباب من جماهير الطلاب الى كوادر قادرة على الانتاج والعمل . ومن هنا يمكننا ترشيد مناهج التعليم العالى فى العالم العربى ، بالالتفات الى كل ما يتفق وبرامج التنمية ، وما يشبع حاجات الشعوب وطموحات الجماهير ، حتى تبدأ عملية تغيير المجتمع ، بوسائل التنمية وطرق التربية ، باستخدام العلم والتكنولوجيا ومناهج التعليم والتدريب[4] .

ويحتاج الوطن العربى الى خطة قومية للاعداد والتدريب والتربية ، لاحداث التغيير فى عملية تنمية قومية[5] ، ومن اجل حل مشكلات النمطية والثبات والولاء والعصبية ، فى مجتمعات تقوم علاقاتها على القرابة والمركز Status أو المكانة ، مع التفاوت الاقتصادى الشديد الذى نراه سائدا فى معظم مجتمعات الوطن العربى ، وما تتسم به أنساقه وأبنيته من عدم التوازن الثقافى والاجتماعى[6] .

---

(1) Babatunde., Thomas., Edit., Integration of Science and Technology with Development., Florida University, 1979.

(2) Hsi-Dn Chen., Chinese Education since 1949., Academic and Revolutionary Model, University of Southern California, Los Angeles., U.S.A. 1981.

(3) Sigurdson. J., Technology and Science in the people's Republic of China, University of Lund., Sweden, 1980.

(4) Buchanan, R.A., Technology and Social Progress, Bristol College of Science and Technology, England, 19660

(5) Urquidi, Edit.: Science and Technology in Development Planning, Mexico, 1979.

(6) Fagerlind, L., Education and National Development, Stockholm University, Sweden, 1983.

وتحتاج مثل هذه المجتمعات العربية المختلفة الى مختلف برامج التغيير والتطوير الا ان عملية التحديث فى ذاتها ، لا تتم الا بفضل المشروعات الاقتصادية التى تساعدنا على تحويل كل ما هو ثابت وتقليدى فى المجتمع الى ما هو تقدمى وديناميكى Dynamic ، فلا تتسلط على انساق المجتمع العادات الفكرية الجامدة ، ومن ثم يحل العقد Contract والقانون محل العرف ، ويترقى الولاء من مستوى العصبية الى درجة الوطنية ، ويرتفع مستوى الطموح level of aspiration العائلى ويتسامى من مفهوم القبيلة الى المجتمع فالإنسانية كلها .

وتنحصر معظم دوافع التطوير الحضارى فى وجود أدوات الاتصال Communication واجهزة الاعلام الجماهيرى واثرها فى ربط مجتمعات القرى والبداوة بمجتمعات اخرى متقدمة ، مع وجود التخطيط المركزى الصارم ، لدفع عجلة التطوير ، ونشر التعليم بقصد تغيير نظرة البدوى لحياته ، وفهم الفلاح وصلته بالأرض ، مع تطوير نظم الاصلاح الزراعى والاجتماعى فى سائر الدول العربية .

طلبة الجامعات وتنمية البيئة :

دعما لخطط التنمية ، وتحقيقا لمبدأ العلم للمجتمع ، هربا من تقوقع الفكر الجامعى حين يخضع فى سلبية وانهزامية لمبدأ « العلم للعلم » ، فيتشرنق علماؤنا فى أبراج من عاج بعيدا عن مشكلات مجتمعاتهم وفى عزلة عن واقعهم الحى ، وانما تحقق لنا الجامعات أهدافا اقتصادية ، بربط مناهج التعليم العالى بخطط التنمية والاسراع بمشروعات التطوير ، بالتحديث الواعى والتنوير الصناعى فى سائر البيئات البدوية والصحراوية من اجل التعجيل بتنمية البيئة Eco-Development فى القرى والواحات ، وحل مشكلات البيئة بفضل التخطيط العلمى الشامل والدقيق ، ويشرط ان يكون التخطيط مرنا ومعتمدا على ارضية تجريبية صلبة من البحوث الميدانية والدراسات الحلقية ، والمسوح الدورية للواقع الاجتماعى والثقافى والاقتصادى حتى تتوافق عملية التخطيط مع طبيعة مشكلات المجتمع أو الثقافة موضوع الدراسة .

وتتوظف الجامعات ومؤسسات التعليم العالى فى اقتصاديات المجتمع ، فيكون لها دورها الانتاجى ، الا ان التعليم لا يعطى نتاجا ماديا ، وانما يكون للتعليم العالى

عطاؤه اللامادى بالتدريب على المهارات Skills واعداد الخبرات الفنية على ادوات التكنولوجيا والاليكترونيات المعاصرة .

كما وتساعد مختلف الوان التعليم العالى والفنى فى عمليات الترشيد Rationalization واعداد التخصصات ووضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح ، وبفضل اجهزة الجامعات التى تتأثر بالطبع بكل ما يدور فى مجتمعاتها ، يمكن تخطيط المشروعات الانمائية وتقديم المقترحات والحلول لعلاج مختلف معوقات التنمية ، مع برمجة واعداد المشروعات الخاصة برفع الكفاية الانتاجية بالارشاد والتوجيه والتوعية ، فى ميادين استصلاح الاراضى واستزراع الصحراء .

ولما كانت الوظيفة التربوية للجامعات تتمثل فى اعداد الشباب وخلق الشخصيات النامية والكوادر القادرة على تطوير الحياة ، حين تشارك وتسهم وتنفذ مختلف استراتيجيات التخطيط لسد الثغرات الثقافية Cultural gaps ومن ثم يصبح الفكر الجامعى هو تتمة للحياة الاجتماعية Complementary to social life فيلحق علماؤنا بركب الحضارة وبفضل العلم والتكنولوجيا وخطط التنمية لا يتجمد فكرنا فلا ينتج أو يبدع ، وانما يشارك فى الكشف عن علل وامراض الحياة الاجتماعية Pathology of social life فيجرى علماؤنا مختلف الفحوص من أجل الصحة الاجتماعية بفضل نتائج البحث فى علوم النفس والثقافة والطب الاجتماعى ، واستنادا الى متابعة الدراسات الحقلية والبحوث الامبيرقية فى ميدان الباثلوجيا الاجتماعية .

اقتراح مخطط للتنمية فى العالم العربى :

من أجل تنمية عاجلة وسريعة ، ينبغى أن يحقق التعليم العالى والجامعى اهدافه ، بالتطلع الى فلسفة تربوية جديدة تعيد النظر فى هياكل وبرامج التعليم وخطط التنمية فنرسم اطاراً مخططاً يتجه العمل فى مساره لتحقيق الغاية من الوظيفة الاقتصادية للتعليم العالى .

(1) Thompson, Kenneth W. Barbara R. Fogel and Helen E. Danner Edit: Higher Education and social change.,
V:2 Case studies. New York. Brager. 1977.

(2) Urquidi, Edit.. Science and Technology in development planning, Mexico, 1979.

ومن هنا نستطيع القيام بالدراسات المركزة على قرى مصر وواحاتها ، « وبقارة » غرب النيل الابيض ، و « جهينة » دارفور وكردفان ، وبداوة السعودة وقبائل فزان ، وطوارق شمال افريقيا ، واكراد العراق ، وعشائر الدروز فى سوريا ولبنان ورعاة الابل والاغنام فى الصحارى والفلوات فى البحرين وعمان وعجمان وابى ظبى ودبى ورأس الخمية .

هذه صور ونماذج من المجتمعات غير النامية فى العالم العربى ، تحتاج برمتها الى عمليات للتنمية قوية وناجحة ، وربطها بفضل أجهزة الاعلام الجماهيرية "mass-information"[١] بمجتمعات اخرى نامية ومتقدمة ، لدفع الثقافات المتخلفة بحركة دينامية فعالة بقصد تغيرها بالتركيز على التخطيط والتكنولوجيا وغيرها من دافعيات التطوير . فعملية التغيير فى ذاتها هى عملية شاقة وقاسية ، تتحول فيها بالضرورة انماط من السلوك الاستاتيكى . وتتغير النظرة القدرية والغيبية الى الحياة .

وتتبدل الثقافة التقليدية حين تتحطم انساقها . مع تقدم العلم وغزو التكنولوجيا . ومواجهة الميكنة Automation والاستقطاب الصناعى . بتخفيف حدة التصنيع وأنسنة Humanizing العلاقات الصناعية[٢] . وظهور المناهج الجديدة فى التربية . التى تتغير معها اهداف وبرامج معاهدنا وجامعاتنا من اجل سلوكيات جديدة تتبدل معها نوعيات الشباب . وحمايتهم من الفراغ والضياع والسلبية . عن طريق التوعية والتثقيف وشغل الفراغ Leisure .

وتتجه الأذهان فى هذه الأيام ، نحو تغيير النظرة الى التربية والتعليم . من زاوية المنظور الاقتصادى الذى يعادل عملية التربية والتعليم ، كعملية انتاجية . ولذلك وجدنا تعمد التخطيط والانتاج والتنمية اهتمت بدورها بمؤسسات التربية والاعلام والثقافة . لأن مشكلة التنمية فى جوهرها هى مشكلة تثقيف ، بمعنى أنها مشكلة انسانية لحما ودما لأن عملية التثقيف تتعلق بالانسان وتنمية ملكاته الخصبة التى تتواءم وتتكيف مع تكنولوجيا العصر المتغيرة . ولذلك يدرس

(١) الدكتورة جيهان رشتى ، نظم الاتصال والاعلام فى الدول النامية ، دار الفكر العربى ١٩٧٢ م .

(2) Ellensom, Ann. Human, Relations, Printice, Hall. 1973.

علم الاجتماع مشكلة التنمية على أنها مشكلة « ثقافية » بينما يدرسها عالم الاقتصاد على أنها مشكلة اقتصادية لها أصولها المادية وجذورها الانتاجية ونتائجها التكنولوجية ، أما علماء النفس والتربية فينظرون الى التنمية على أنها « محنة الانسان » تحت وطأة التكنولوجيا ، وفي عصر التصنيع والتعقيد ، فكان علينا أن نحمي هذا الانسان النامي من استهلاكه المادي والمعنوي حين يطحنه عصره بين فكي المادة والتكنولوجيا[1] ، ومع غزو العلم والتنمية يتعذر عليه هضم ثقافة التعقيد ، تلك التي تستطيع أن يتفاعل ويتكيف معها بتنميته الاجتماعية والاقتصادية ، مع اعداده وتربيته وتنشئته على نحو علمي ، وفي هذا الصدد يقول « السير برس نن Percy Nunn » شيخ المربين الانجليز : لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم ، الا عن طريق النشاط المطلق للافراد نساءاً كانوا أم رجالا ، وبفضل استغلال انشطة الشباب واستخدام « السبيل التربوى الخلاق » تبدأ وتتحول جماعات الشباب «على ما تذكر « مارى فولت Mary Follet » من جماعات عددية aggregate الى جماعات عضوية Organic groups الأولى سلبية وفارغة وجوفاء ، اما الثانية فدينامكية ومنتجة وخلاقة .

وفي عصر التعقيد ، يعبر شبابنا عن ضجرة ، وعدم الاذعان لقيمه التقليدية ، فأعلن انسحابه من واقعة الممض ، هربا من وطأة المادة وحضارة التصنيع ، فكان الاغتراب alienation هو القدر المحتوم لشباب عصرنا[2] ، ونظرا لمرارة الاحساس بالسخط والزيف الحضارى ، سقط انسان العصر بين اللامعقول واللامعنى Nonsens وحار شبابنا بين العبث وعدم التفهم Le Malentendu . وتلك هي أمراض عصر التصنيع وحضارته التي لوثت نفوس شبابنا فكان الاكتئاب والاحباط Frustration وشاعت السلبية واللامبالاة وانتشرت بين الشباب روح التفكك والتشكك .

والاتجاه الغالب الآن في سائر الدوائر التربوية والعلمية هو البحث عن سوسيولوجية للفكر ، كمحاولة علمية وجادة ، نحو الالتفات الى ما يسميه عالم

---

(1) Morgan, R.B., Science and Technology For development, Washington University, 1979.

(2) Follet, Mary, Freedom and co-ordinateoin, London. 1949.

(3) Burns, Tom., Sociology of Literaeture and Drama, Benguin, 1973.

الاجتماع الفرنسى « أندريه لاموش Lamouche » بسوسيولوجية العقل Sociologie de la Raisom وتهدف تلك المحاولة فى جوهرها ، الى ربط الفكر بالواقع ووصل العقل بالحياة ، ودمج المنطق بالوجود الاجتماعى[1] ، ولذلك أكدت اتجاهات التربية المعاصرة على ضرورة ربط العلم بالعمل ووصل التربية بالحياة ، فمن المنطقى اذن أن نطالب بدمج برامج التعليم بمشروعات تنمية البيئة .

وانطلاقا من هذه المزاوجة بين الفكر والعمل ، والتكامل بين قطاعات الثقافة والتربية ، ومراكز التنمية والانتاج ، نستطيع أن نقترح مشروعا تربويا يساهم فى اقتصاديات التنمية ، فنضع برنامجا علميا وتكامليا ، تتعاون فيه جامعاتنا ومراكز البحث العلمى من أجل ترشيد التعليم العالى وتخطيط التنمية .

وبفضل اشراف جامعاتنا ومساهمة مراكز البحث العلمى فى العالم العربى ، يقوم طلاب التعليم العالى بتنسيق جهودهم المشتركة ، فتتعاون كليات الطب والزراعة والهندسة ومعاهد الصحة والتمريض ، وأقسام الاجتماع والتخطيط والاقتصاد والاعلام والخدمة الاجتماعية بالاضافة الى جهود كليات الحقوق والتربية والعلوم السياسية ، لممارسة الانشطة والبرامج المختلفة لنشر الوعى السياسى والقومى ، وتنمية المجتمع عن طريق محو الامية وتعليم الكبار ، مع الاهتمام ببرامج التنمية الثقافية وزيادة الوعى الاجتماعى بالقيمة الاقتصادية للوقت واستغلال الفراغ وشغله فيما ينفع شباب طلاب التعليم العالى ، وذلك لامتصاص السلبية واللامبالاة وملأ الفراغ القائم فى الصدور لشعورهم بالفراغ والخواء والسأم Boardom والملل Monotony ، والانسان الذى يعرف قيمة الوقت هو أنسان يحترم العمل ويستهلك وقته فيما هو نافع ومفيد لنفسه ولوطنه ، فيسلم شبابنا من الانحرافات والايديولوجيات الضارة ، فالشباب هم طاقة ديناميكية خلاقة علينا أن نخطط لهم لتوجيه طاقاتهم توجيها علميا سليما من أجل التقدم درجة فى مشروعات التنمية والاسراع بها فى عالمنا العربى . وفارق بالطبع بين درجة النمو ، وسرعة التنمية ، حيث

---

(1) Lamouche, André, Sociologie de la Raison, 2, Volume Dumond, Paris 1964.

وأنظر ايضا فى هذا الصدد :

Gurvitch, Georges, Les cadres sociaux, de la connaissance, Presses Universitaires de France, 1966.

Gurvitch, Georges, Dialectique et sociologie, Flammerion, Paris, 1962.

تتم عملية النمو على نحو تلقائى وطبيعى ، وقد يتوقف النمو الطبيعى عند درجة محددة ، وعلى سبيل المثال قد يتوقف نمو « بلورة » فى « عملية الاستقطاب الكيمائى » عند درجة محددة ، وقد يتوقف نمو الذكاء الفطرى فى السنوات الاخيرة من فترة المراهقة بينما تتفوق بعدها درجة نمو « الذكاء الاجتماعى » ، وفى ضوء هذا المعنى نقول إن سرعة التنمية هى مطلب قومى بالنسبة للعالم العربى فنحن فى مسيس الحاجة الى « سرعات متزايدة » دون أن نتوقف عند درجة محددة فى معدلات التنمية .

ما يعنينا من كل ذلك هو التأكيد على التنمية وعلى وظيفة الجامعة بالتحامها بالمجتمع ، وأقتحامها لحل مشكلات التنمية ، فتخطط لنا هيئات التدريس مختلف البرامج العلمية والتطبيقية لكيفية استغلال المعامل وسائر الامكانيات العلمية ، والطاقات البشرية مع ترابط الجهود وتكثيفها لرفع مستوى الحياة ، وتحديث المجتمعات القروية والتقليدية بتنميتها زراعيا واقتصاديا وتربويا ، وتتغير بفضل هذه الجهود التنموية خريطة المجتمع ايكولوجيا واقتصاديا .

وبفضل تضامن لجان النشاط الطلابى وفرق الجوالة واتحادات الطلاب تستطيع أن نحدد مختلف نوعيات اللجان الخاصة بالتوجيه والنشاط ، مثل لجان التربية ، ولجان الرعاية الاجتماعية ، والخدمة العامة ، بالاضافة الى تواجد لجان طبية وزراعية وعلمية وتحويل طاقات الطلاب صيفا الى أعمال اقتصادية منتجة تحت اشراف هيئات التدريس بالجامعات ، كل فى نطاق عمله ومجال تخصصه . وهكذا تكون وظيفة الجامعة فى التنمية ودور الاستاذ فى التخطيط والتوجيه والاشراف .

واستنادا الى هذا التقسيم الطلابى ، يمكن توزيع العمل لكى يقوم الطالب الجامعى بوظيفته ودوره الانتاجى ، فطالب الطب مثلا ينشغل بالجوانب المرضية والعلاجية عن طريق التوجيهات أو الارشادات الصحية لعلاج « الامراض المتوطنة » . وطالب الآداب والتربية والخدمة الاجتماعية . لا يفكر او يدبر الا فى علاج مشكلة شائعة وعامة بين سائر أقطار الوطن العربى . وهى مشكلة تعليم الكبار عن طريق محو الامية ونشر الوعى التقدمى بين أهل القرى . وبخاصة

الاحساس بالزمن فما زال الفلاح لا يقدر للزمن قدره الحقيقى أو الموضوعى ، على ما يذكر بورديه Bourdieu فى دراسته عن الفلاح الجزائرى[1] .

أما طالب الزراعة ، فعليه أن يقوم بالتوجيه والارشاد الزراعى ، كما أنه «يعلّم ويتعلّم من الفلاحين» حين يصطدم بخبراتهم العلمية ، فتهتز نظرته العلمية ويضعف ايمانه بالنظريات الجافة التى فقدت الحياة . وهكذا يعمل ويفكر الطالب[2] ويمارس بالفعل ما يفكر فيه كما ويطبق علميا ونظريا ما كان قد تلقاه من دروس نظرية ، وهذا هو نموذج تصورى للتربية الجامعية ، وبرنامج عمل لتجربة التعليم كعملية انتاجية واقتراح مخطط لممارسة النظرية فى حقل التطبيق العملى ، عسى أن يحظى بأهتمامات رجال التخطيط والاقتصاد والتربية فى العالم العربى[3] .

وختاما أرجو مخلصا أن تتعاون الحكومات والدول والجامعات ، وسائر الشركات والمؤسسات ومراكز البحث العلمى ، من أجل تطوير الثقافات القروية والعشائرية فتتغلغل مهمة الجامعات فى باطن المجتمعات ، وتغوص أقدام العلماء فى جوف الثقافات لحل المشكلات القومية المزمنة للوطن العربى[4] ، واقتراح التنمية والتخطيط العمرانى من أجل تدعيم بناء الانسان العربى وتثبيت أقدامه .

وكم نحن فى عالمنا العربى المتطلع ، فى مسيس الحاجة « الى التربية القومية الموجّهة فالتربية من أجل التغيير ، هى فى ذاتها عملية للتنمية القومية » .

وهذا ما يجب أن نخطط له كمربين وكعلماء للاجتماع والاقتصاد والثقافة لمعالجة الاخطاء وحل المشكلات ، وتقديم الحلول ، « وأشباع حاجات الشعوب » وطموحات الجماهير وخلق الاجيال الصاعدة على أسس تربوية صلبة ورشيدة[5]

---

(1) Bourdieu, Pierre., The Attitude of Algerian Peasant Toward Time., Article from Mediterranian Country Men. p. 56, 1963.

(2) Dewey, John., Democracy and Education., The McMillan Co. 1951.

(3) Benjamin, Paul., Health, Culture and Community., Case studies of Public Reaction to Health Programs, New York, Russel Sage. 1955.

(4) Fagerlind, op cit.

(٥) الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع السياسى . وقضايا التخلف والتنمية والتحديث ، منشأة المعارف ١٩٨٢ ، اسكندرية .

الباب السادس

مشكلات الإنسان الحضرى

تمهيد

* حضارة الانسان والخطر الداهم من التلوث
* مشكلات التلوث فى الثقافات الحضرية والقروية
* أثر المبيدات والاسمدة الكيماوية
* التلوث الصناعى
* الحضارة والانحرافات الشخصية
* أمراض الانسان فى البناءات الصناعية

تمهيـــد :

لقد كانت التحولات الاجتماعية ، والتغيرات البنائية[1] الناجمة آثارها وردود فعلها على شخصية الانسان الحضرى، كما كان للثورات الكبرى دورها الهائل فى حركات التصنيع والتنمية وفى تغيير أنماط التخلف والتبعية ، وتحرير الشعوب من رقدة العدم ، وفك الرقاب ، وكسر القيود ، للقضاء على الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى[2] .

ولقد خفت حدة الهوة الهائلة بين المجتمع الزراعى والمجتمع الصناعى ، وأدت ردود فعلها الى تفاعلات اجتماعية ، زال معها التباعد ، وقلت نسب التخلف الثقافى Cultural lag ، حين بدأت ثورة أكتوبر الكبرى فى الاتحاد السوفيتى وبعدها تفجرت ثورة الصين بقيادة « ماوتسى تونغ »[3] ، ثم تتابعت ثورات العالم الثالث ، من أجل التحديث Modernization أو لرفع مستوى الانسان الكادح ، وتحت اسم التحديث ، ومن أجل شعار التنمية الصناعية ، وميكنة Automation الزراعة ، يعانى الانسان المعاصر من تجارب التحرير ، ويواجه الكثير من المشاق فى مختلف المجتمعات النامية ، خلال مسارها الطويل وجهودها المضنية من أجل ازالة التخلف أو أختصار مراحله ، بهدف تنمية الشعوب أو تحديثها وتقريبها من العالم الصناعى المتقدم[4] .

وعملية التحويل Treansformation ، هى أهم خطوة ، وأعوص مشكلة يصطدم بها الانسان النامى ، حيث يثور من أجل تحويل مجتمعه من « بناء اجتماعى جامد ومتخلف » يقوم على الزراعة التقليدية ، مما يحتاج بالضرورة الى تطويره وتغييره من جموده وتحجره ليتطلع الى تكوين وايجاد « بناء اجتماعى متقدم »

---

(١) د. على احوات ، بادىء التنمية والتخطيط الاجتماعى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ١٩٨٤ .

(2) Schram, Stuart., R., Authority, Participation and Cultural Change in China., London Combridge University. Press. 1973.

(3) Arbatov, G.A., Social and Cultural Changes in Developing Countries, Moscow. 1975.

(٤) الدكتور مصطفى عمر التير ، التنمية والتحديث ، نتائج دراسة ميدانية فى المجتمع الليبى ، الطبعة الاولى ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازى ١٩٨٠ .

يقوم على الصناعة الحديثة ، فيترق ويزدهر ويصل الى قمة التحديث ، بتطبيق برامج الزراعة الآلية ، وتصنيع الريف بتعليب منتجاته من الخضر والفاكهة واللحوم والبقول .

ولقد تشابهت أهداف وآمال كل الثورات التى اندلعت منذ اوائل القرن العشرين ، فجاءت كلها كحركات اقتصادية أو هزات هائلة ، تبغى التغير الاجتماعى[1] ورغم التشابه الواضح فى أهداف الثورة كتغير فورى وجوهرى ، الا أن سائر الثورات قد حملت شعارات ومبادىء نجدها فى أصولها مختلفة المذاهب والفلسفات والمصادر وعللت كل منها تخلف مجتمعاتها طبقا لطبيعة السياسة السائدة ، ونوعية التيارات والاتجاهات والايديولوجيات المنبثقة من طبيعة العلاقات القائمة بين طبقة السيادة والحكم وسائر الطبقات والفئات الشعبية المحكومة .

واذا كانت الماركسية كفلسفة اجتماعية واقتصادية قد نجحت فى تجربة ازالة الاقطاع ورفع الظلم الاجتماعى ، الذى كان سائدا فى روسيا القيصرية ، الا أنها فشلت فى تطبيقها على أفكار أخرى ، ولم تقدم نموذجا واحدا بعينه يستجيب لمختلف مطالب مشروعات التنمية فى البلاد النامية وشبه النامية ، فكان لكل منها تجربتها ووعيها الوطنى ونموذجها الخاص[2] .

ولقد ساد الاعتقاد بأن السبب فى تخلف ثقافات العالم الثالث الى ظروف استعمارية والى الصراعا كات التحرير التى قامت بعد الحربين العالميين ، والمطالبة بالاستقلال الاقتصادى والتحرر السياسى ، وعلاج التناقض القائم بين طبقات المجتمع ورفع مستوى الطبقات الكادحة ، وحل مشكلات الانسان المطحون ، وتنمية العامل والفلاح[3] .

وبدأت عمليات التنمية ومشروعاتها أما بأستثمار رؤوس الاموال فى مجال الصناعة ، طبقا لنظرية آرثر لويس Arthur Lewis ، بتحرك العامل وتصعيده من

(1) Landberg, Hanry., Rural Protest Peasant Movements and Social Change, London, Macmillan Press. 1974.

(٢) الدكتور مصطفى عمر التير وآخرون ، أنماط التكيف الاجتماعى ، فى القرى الزراعية الحديدة ، الطبعة الاولى ، طرابلس ، معهد الانماء العربى ١٩٨١ .

(3) Mustafa, Tirr., Directions of Change: Modernization Theory, Research and Realistics., Boulder, Colorade, Western Press. 1981.

ثقافة القرية الى قطاع الصناعة ، حتى تصبح هى القطاع الرائد لعملية التنمية واستخدام الفائض فى تطوير النظم الفلاحية التقليدية .

ويذهب « روزنشتاين روردان Rosensteine Rodan » الى أن « الدفعة القوية » هى السبيل الوحيد ، كنظرية للتصنيع والتنمية ، ورفع الدخول فى البلاد النامية ، وحل مشكلات الانسان الحضرى والقضاء على البطالة الزراعية بالهجرة من الريف الى مناطق الصناعة والاستفادة بالموارد المحلية والاكتفاء الذاتى ، وبناء الصناعات الثقيلة وتدريب اليد العاملة .

ويعتقد « روجنر نيركسه Rognar Nurks'a » أن تنمية الانسان الحضرى لا تتم الا بزيادة حوافز الاستثمار ، ومضاعفة القدرة على الادخار ، وخفض القدرة الشرائية لدى المستهلكين ، وتلك هى«نظرية النمو المتوازن»، بين الاستهلاك والانتاج والادخار والاشباع .

وليس هناك قاعدة ذهبية عند كارل مانهايم ، أو نموذج مثالى يصلح لكل مجتمع ، فالتخطيط ينبثق أصلا من الواقع ، ولا يهبط من عالم المثال أو الخيال[١] .

مشكلات الانسان الحضرى :

يطلق على عصرنا الحالى برمته ، ما يتردد الآن ويشيع باسم عصر التعقيد Age of Complexity على حد تعبير « هربرت كوهل Kohl[٢] والاسم يطابق تماما ما يحويه « روح العصر » من مضامين غير متجانسة ، وتركيبات متفاضلة .

ولقد أصبح « التعقيد » هو سمة أساسية من سمات البناءات الصناعية ، وسادت مشكلات العصر الصناعىْ ، التى كان لها صداها فى تغيير البناءات الاجتماعية .

واذا ما عقدنا المقارنات بين المجتمعات التقليدية Traditional والبدائية لوجدناها ، تتشابه الى حد كبير فى نظم تقسيم العمل الاجتماعى ، تلك التى

---

(1) Mannheim, Karl., Man and Society in an age of reconstruction, Kegan Paul London 1942.

(2) Kohl, Herbart., Age of Complexity., Mentor., 1965.

تتسم بالبساطة Simplicity فى نظم الاقتصاد ، بينما تسود سمة التجانس Homogeneity سواء فى أنماط السلوك وصور الفكر ، أو فى نسق التصورات السائدة فى كل البناءات الاسرية والعائلية .

هذا عن الاسرة البسيطة التقليدية ، أما عن نسق المجتمع الصناعى والمعاصر فقد لحقت به ريح التغيير وأصابته روح التعقيد ، وتحت وطأة التكنولوجيا ، ظهرت مشكلات التغير الناجمة عن حدة أنواء التبدل والتطور ، فالتغيير كما يقال هو جوهر الحياة ولبابها Change is the essence of life .

وتتسم المجتمعات الصناعية المتغيرة ، على حد تعبير هيربت سبنسر Spencer بأنها بناءات غير متجانسة Heterogeneous . وبذلك تتمايز المجتمعات طبقا لصور البناءات وأشكال التطور ونظم العمل ، ونمط الاقتصاد ، وذلك هو ما يعنيه تماما ردفيلد ، حين يقف عند حدود المجتمع الحضرى حين يقارنه بالمجتمع التقليدى أو مجتمع الفولك Folk Society .

ولقد عبر « فرديناند توينس Tonnies » ، عن أهم المشكلات التى تصادف الاسرة أو الجماعة Community حين تصطدم بروح التطور ، فتتغير علاقات الدم والجوار والتعاون ، لكى تتحول الى شكل أو نمط آخر من علاقات الصراع والتنافس .

وما يعنينا من كل هذا ، هو أن مشكلات المجتمع الحضرى المعاصر ، وما يحويه من تعقيد وتشابك فى نظمه ، انما يكون لها صداها فى انبثاق وصدور المشكلات الراهنة للاسرة الحضرية ، وما تعانيه الآن وتواجهه من متاعب وتعقيدات فى مشكلات حياتها اليومية .

«فالاسرةالمعاصرة فى سائر الاقطار والمجتمعات العربية ليست سعيدة فى عصر العلوم والتكنولوجيا »، لما يحيط بها من ظروف تعسة ، ولما تعانيه من مشكلات تربوية واقتصادية وسيكولوجية . ولعل أهم هذه المشكلات التى تعانيها الاسرة فى المجتمعات النامية ، انما تدور جميعها حول ما يسود دول العالم الثالث ، من صعوبات ، ومن أهمها :

١ ـــ مشكلة محو الامية .
٢ ـــ كثافة السكان .
٣ ـــ محنة التكنولوجيا ووطأة التصنيع .

(١) مشكلة محو الامية :

لعل أهم مشكلات الاسرة النامية ، فى عصر العلم والتكنولوجيا ، حين أصبحت الحاجة ملحة الى المعرفة والثقافة ، وأكتساب المهارات المختلفة ، حتى يتكيف الانسان مع واقعه ويتطور فكره وينمو معه ذكاؤه[1]. وتعتبر مشكلة الامية هى أهم المشكلات المستعصية والمزمنة التى تتطابق وتتواجد فى الواقع الاجتماعى فى كل دولة نامية من دول العالم الثالث .

وللاسرة دورها الاساسى فى أداء عملية التربية[2] ، وكم نحن فى مسيس الحاجة الى محو الامية لمواجهة التعقيد فى عصر العلم والتكنولوجيا ، ولبناء مجتمعنا النامى على أساس سليم ، الامر الذى يؤدى بنا فى النهاية الى تدعيم الاسرة بالعلم والاخلاق والوطنية .

وكم تعانى الاسرة فى الدول النامية ، من مشكلات التبعية الفكرية والعلمية ؟ وكم تعانى الاسرة فى معظم مجتمعات آسيا وافريقيا من التخلف فى مستوى التعليم ؟ وانتشار الامية بين الكبار ، والنقص الواضح فى الكوادر والكفاءات والمهارات الفنية .

ولقد أثبت المسئولون عن « اقتصاديات التعليم » ، أن انتشار الامية والجهالة بين كبار السن الذين يمثلون الفئة المنتجة ، انما يؤثر على معدلات الانتاج ودرجة التقدم الاقتصادى . حيث أثبتت دراسات علوم التنمية والتربية والاقتصاد التربوى أن رأس المال البشرى والايدى العاملة المدربة مطلوبة ، وأن الانسان المثقف ، هو أعلى انتاجية من غير المثقف ، كما أن الامم التى اهتمت بتثقيف أبناءها من الكبار كان عائد التنمية الاقتصادية لديها أكبر[3] .

---

(1) Qubain, F., Education and Scienoe in the Arab World, Baltimore, Maryland. John Hopkins Press. 1966.

(2) Kirkpatrick Co., The Family As Process and Institution., Ronald Press. N.Y. 1963.

(3) Fagerlind., Education and National development., Stockholm University, Sweden. 1983.

ولقد ساد الاعتقاد الآن أن بناء الاقتصاد فى كل مجتمع انما يعتمد أصلا على عناصر الاستثمار البشرى ، فالتربية هى مفتاح التنمية ، وهى مفتاح التحديث والانطلاق الاقتصادى ، وما علينا سوى أن نعد الايدى الماهرة فى المهن المناسبة وأن ندرب القوى البشرية العاملة ، للاضطلاع بأعباء التنمية والتحديث Modennization .

ولا شك أن الانسان المتعلم ، هو أقدر من العامل الجاهل أو المنتج الامى والعامل المتعلم هو أكثر فهما للاتجاهات الصحيحة نحو الاستثمار والادخار وترشيد الاستهلاك الصحيح ومعرفة أسلوب الحياة الملائم للوطن والشعب ، وكيفية قضاء الفراغ ، وترقية مهاراته وتنمية استعداداته ، ومحاربة عاداته السيئة .

فاذا كان الأمى والجاهل ، يستطيع أن يعيش فى المجتمعات التقليدية القديمة نظرا لتكيفه السريع معها لشدة بساطتها ، وخبراتها المتوارثة ، الا أن الانسان المعاصر لا يستطيع أن يواجه عصر العلم والتكنولوجيا الا اذا كان متسلحا بسلاح العلم والمعرفة والوعى والخبرة والحذر ، لما يحيط به من الكثير من المشكلات الناجمة عن تعقد المجتمع .ومحنة التكنولوجيا تحت وطأة التصنيع[1] .

فلا شك أن القضاء على الأمية ، مطلب قومى ضرورى ، وهدف جوهرى ورئيسى لان التنمية الحقيقية للمجتمع الحالى فى عصر العلم والتكنولوجيا ، انما تحتاج الى توفير المستوى التعليمى الدائم الذى يجب أن يسود بين كل أعضاء المجتمع بالقضاء على الامية ورفع الكفاية من أجل العمل الدائم .الدائب على رفع معدلات الدخل الفردى والانتاج القومى .

ومن الحقائق التى ثبتت وتأكدت فى دراسات علم الاجتماع الادارى[2] ، أن الطاقة البشرية التى تقوم بالانتاج ، هى القاعدة الرئيسية ، وهى مصدر التغيير والتطوير ، فالقوى العاملة ، هى صاحبة المصلحة الحقيقية ، وهى التى تقوم

(1) Sigurdson, J., Technology and Science in the People's Republic of China, University of Lund. Sweden. 1980.

(٢) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الادارى ، ومشكلات التنظيم فى المؤسسات البيروقراطية ، منشأة المعارف ١٩٨٢ .

بتطوير النظم ، وتحويل الخامات الى سلع نافعة يمكن تسويقها بعد أعداد كل امكانيات زيادة انتاجها حسب احتياجات السوق .

ولقد أكدت علوم الانتاج والهندسة البشرية أن نجاح أى عمل يؤديه الانسان العاقل انما يتصل أساسا بخبراته وقدراته ومستواه الذكائى والعلمى ، وقد يساعد العلم على أبتكار الجديد ، وقد تؤدى المعرفة الى زيادة التكيف مع فلسفة الادارة الناجحة[1].

وفى العالم العربى ، نواجه مشكلة ارتفاع الامية بشكل رهيب ، فلقد بلغت نسبة الامية الى ٨٠٪ فى دول الوطن العربى عام ١٩٦٢ ، ثم أنخفضت الى ٧٣٪ عام ١٩٧٠ ، ومع المحاولات الدائمة والدائبة لتخفيض معدلات الجهالة ، فأنخفضت نسبة الامية عام ١٩٧٥ ، حتى وصلت الى ٦٣٪ ، مما يؤكد الحماس المستمر فى تعليم الكبار ، وعلاج مشكلة الامية قبل أن يستفحل خطرها الجاثم على الوطن العربى .

ولقد ثبت من الاحصاءات القريبة وبخاصة منذ عام ١٩٨٠/٧٩ كما وظهر من خلال استعراضنا للوضع الحالى ، وجد أن نسبة عدد الاميين فى سائر دول الوطن العربى قد بلغ ٧٣٪ أو ٧٤٪ ، بمعنى أن تعداد الاميين بلغ حوالى خمسة وثلاثين مليونا ونصف المليون ، بينما بلغت أعداد الدارسين المقيدين رسميا فى فصول محو الامية لنفس العام ٦١٦ ، ٧٠١ دارسا فقط بنسبة منخفضة جدا لا تصل الى ١٩٨ متعلم لكل عشرة آلاف أمى ، أى أن ما يتلقى تعليمه فى برامج محو الامية ، بلغ ٢٪ فقط من واقع عدد الاميين الموجودين بالفعل . ثم اننا لو سرنا بنفس هذه الدرجة البطيئة من السرعة السلحفائية البسيطة نحو الامية ، لاحتجنا الى مائة سنة لكى ننجح فى محو أمية الحاليين على الاقل ، على افتراض ثبات الكم ، وهذا افتراض خاطىء ، فهناك من يتسرب من التعليم الابتدائى ، فيفشل فى مواصلة الدراسة لعدم التوصل الى التكيف الكامل مع المدرسة الابتدائية .

وهناك الكثير من الاسباب التى تؤدى الى فشل برامج تعليم الكبار فى الوطن

(1) Fagerlind, Education and National development, Stockholm University, Sweden. 1983.

العربى[1] ، على الرغم من كونهم يمثلون غالبية الطاقة البشرية العظمى فى بناء الانتاج ، فالمؤشرات خطيرة بصدد انتشار الامية بين كبار السن ، وهم الطاقة المنتجة بالطبع فى كل بناء اقتصادى ، أو مشروع صناعى أو زراعى .

ومن الاسباب الرئيسية لفشل خطط وبرامج محو الامية :

١ ـــ السطحية والمظهرية وعدم القيام بالدراسات الحقلية والميدانية لإقتراح أنسب الحلول بعد استعراض أهم تجارب محو الامية فى معظم دول العالم الثالث ، ومن أشهر تجارب محو الامية ، تجربة الصين وكوبا .

٢ ـــ ينبغى أن تتفق المادة العلمية وبرامجها مع مستوى تحصيل كبار السن وأهتماماتهم بمعنى أن تتصل المادة التعليمية بحياة الامى ومشكلات الجهالة ، الامر الذى يفرض علينا تطبيق طرق تدريس خاصة لكبار السن ، نظرا لبعد المادة التعليمية عن مجالات اهتمام الكبار من خلال محو الامية .

٣ ـــ ليست عملية محو الامية عبارة عن الاقتصار على مهارات القراءة والكتابة ومبادىء الحساب فحسب ، وانما المهم هو تطبيق هذه المهارات فى مجالات الحياة العملية وضرورتها اليومية .

٤ ـــ يمتاز كبار السن بالحساسية والخوف من الفشل ، والقلق النفسى ، والتعب والجهد المبذول أثناء بطء التقدم الذى يحتاج الى كثير من الصبر والعناء والجلد .

٥ ـــ لا يتوافر المدرس الخاص بمحو الامية ، وهو نوعية نادرة وخاصة ينبغى أعدادها تربويا ووظيفيا لتعليم الكبار .

٦ ـــ لا توجد الخطط الدراسية ، والمواعيد المناسبة لكبار السن ، حتى يمكن تطبيق البرامج التى تتوافق مع ظروف الدارسين من العمال الاميين . ولعل أنسب وقت حين تخلو المدارس تماما ، ويتفرغ المدرسون والنظار وطلاب الجامعات لمشروع محو الامية على المستوى القومى .

(١) د. قبارى محمد اسماعيل ، التعليم العالى فى الوطن العربى وعلاقته بخطط التنمية ، المنظمة العربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٤ .

الكثافة البشرية فى المجتمع الحضرى :

كيف نواجهها وكيف نتصور بناء الاسرة العربية ؟ وما هى طبيعة المشكلة أصلا ؟

لا مشاحة فى أن القوى البشرية هى الطاقة المحركة لكل مشروع ، وهى علة الحياة فى حركتها الدائمة . فالقوى العاملة هى المصدر الحقيقى وراء كل عمل فى البناء الاقتصادى برمته . ولكن ما معنى وجود قوى بشرية هائلة عاطلة دون عمل ؟ وماذا نعمل بكثافة بشرية خام دون خبرة أو دراية ؟

اننا نعيش فى الواقع عصرا من أهم سماته أنه هو عصر العلم والتكنولوجيا ، ويحتاج عصرنا الى « طاقات بشرية منتجة » والى أيدى عاملة ذات خبرة ودربة ، كما نتطلع أيضا الى برامج ودراسات من أجل رفع الكفاية الانتاجية ، الامر الذى يفرض علينا أولا وقبل كل شىء تحويل هذه الكتل البشرية الى طاقات عمل ، وكفاءات للانتاج ، فكان على المدرسة والجامعة وسائر مؤسسات التربية والتعليم هو اعداد مجتمع العصر ، وامداده بما يتكامل مع متطلبات عصر العلم والتكنولوجيا .

فالقوى البشرية المؤهلة واعدادها للمجتمع ، هى واجب المجتمع والمدرسة الفنية بمعنى أن واجب الجامعات ازاء الكثافة البشرية هو « التنمية البشرية » وشتان ما بين كثافة بشرية غير مؤهلة وتنمية بشرية هادفة وعاملة ، حيث أن الغاية من التنمية البشرية تتمثل فى تلك القضية القائلة بأن البشر هم مصدر التغيير وهم طاقة التطوير « فى سائر النظم والمؤسسات والانساق الاجتماعية » . والعلم هو البيئة الملائمة لتنمية وتطوير قدرات أفراد المجتمع ، وتكوين استعداداتهم وتزويدهم بالمهارات والاتجاهات والقيم والمعارف التى تساعدهم على الخلق والابداع .

ولقد أوضح « آدم سميث Adam Smith » فى كتابه الذى نشره عن « ثروة الشعوب Wealth of Nature » حيث أكد فى هذا الكتاب على أن « القدرات المكتسبة » والنافعة لدى أعضاء المجتمع تعتبر مصدرا أساسيا من مصادر « رأس

المال » ، وعنصرا جوهريا ينبغى أن يتوافر منذ البداية كرأس مال ثابت . كما يرى الفريد مارشال Alfred Marshal ، أن التعليم هو نوع من أنواع الاستثمار البشرى الرئيسى الذى ينبغى أن يتوافر فى كل عملية أنتاجية .

ومن هنا أصبح التعليم ، اذا استخدمنا لغة الاقتصاديين ، هو «سلعة ضرورية» تتصل بأشباع حاجات المجتمع حيث تظهر أهمية هذه السلعة فى سوق الانتاج ، ويستثمر عائد التعليم فى البناء الاقتصادى القومى برمته[1] .

ولقد أشار مارشال فى كتابه « أصول الاقتصاد » الى هذا المثال الاقتصادى الواضح فقال : ان فئة متعلمة من الناس ، لا يمكن اطلاقا أن تعانى من الفقر وشظف العيش حيث أن الانسان المسلح بالخبرة والعلم والمعرفة والوعى إنما ترفع جميعها من مستوى الطموح Level of Aspiration والقدرة على العمل ، وتسخير الطبيعة لصالحه، والارتفاع بمستوى معيشته ، وتوفير الحياة الكريمة له .

فبالتربية والتعليم ، يمكن رفع الكفاية الانتاجية فلكل من المدرسة والجامعة دوره فى التنمية البشرية ولكل هذا أثره الواضح فى عملية الاستثمار البشرى بمعنى أن اعداد الطلبة والتلاميذ فى المدارس والجامعات ، هم بمثابة « رأس مال مستثمر » فى المستقبل ، وعلى مستوى الفرد الواحد ، قام « بيكروميلر » بوضع تقديرات لعائد التعليم فى مختلف مراحله ، وظهر من الدراسة أن الفرق فى عائد التعليم العالى ، عن التعليم الثانوى ، يقدر بحوالى مائة ألف دولار فى الدخل الكلى على مدى الحياة[2] .

فالاستثمار فى التعليم ، يؤدى الى رفع الكفاية الانتاجية وزيادة معدلات الانتاج والدخل الفردى والقومى . فلقد قدر الفرق بين عائد كل من التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى ، أن كل سنة تعليمية تضيف عائدا يقدر بحوالى أربعمائة ألف دولار .

هذا بالنسبة للعائدات المباشرة ، أما بالنسبة للعائدات غير المباشرة ، فهى

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الاقتصادى ، ومشكلات الصناعة والتنمية ، منشأة المعارف . ١٩٨٢ .

(2) Fagerlind, Education and National Development, Stockholm University, Sweden. 1983.

تتمثل فى زيادة رصيد أفراد المجتمع من المعارف والحقائق والمهارات والامكانيات . وهذا هو رأس المال البشرى وكيفية تنميته واستثماره .

وفى ضوء كل تلك القضايا ، نستطيع أن نقول أن للجامعة وظيفتها الاقتصادية وللمدرسة الفنية أدوارها الاجتماعية فى اعداد المهنيين اللذين يحتاجهم المجتمع ، ومن هنا ينبغى رفع شعار « العلم للمجتمع » ، وتخطيط التربية والتعليم على أساس حاجة المجتمع أولا ، من نتاج المدارس وخريجى الجامعات . ومن هنا نستطيع أن نتساءل ، عن دور المدرسة ووظيفة الجامعة فى معركة[1] التنمية الاقتصادية ، فنقول إن مؤسسات التربية والتعليم العالى ، هى المؤسسات المسئولة مسئولية كاملة عن عملية تحويل الكثافة البشرية الى طاقات وقوى عاملة وتطوير مشكلة الانفجار السكانى ، وحلها بمحاولة خلق رؤوس أموال ذات استثمار بشرى منتج يرفع من معدلات الدخل القومى والفردى .

ويتمثل دور الجامعة فى المدرسة الفنية والتعليم فى تنمية الطاقات البشرية غير المؤهلة ، وتأهيلها العالى فيما يلى :

١ ــ وضع ورسم الخطط والبرامج الخاصة بتنسيق واعداد القوى ذات المهارات الفنية والادارية من المستوى العالى فى مختلف التخصصات التى تحتاجها اقتصاديات المجتمع ومؤسساته ومشروعاته .

٢ ــ محاولة الكشف عن طبيعة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى المجتمع مع التشخيص العلمى لها والتعرف عليها عن طريق الدراسات الاستطلاعية Pilot Study والابحاث الميدانية الممهدة للبحث عن الحلول العلمية لسائر المشكلات المزمنة .

٣ ــ العمل على رسم سياسة علمية لمواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية على أسس مدروسة .

٤ ــ الاستفادة من أستخدام وسائل الاعلام لتبسيط المعارف وتوصيلها الى الجماهير بصورة واضحة تخدم أهداف التنمية .

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، التعليم العالى فى الوطن العربى ، وعلاقته بخطط التنمية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دمشق ١٩٨٤ .

٥ ــ تتبع مصادر التركز السكانى ، وملاحقة النمو السريع واستخدام الطاقات الزائدة عن الحاجة بتأهيلها واعداد الطلاب فى برامج صيفية مؤقتة للمساهمة فى مشروعات عامة بالجهود الذاتية ، مع محاولة توفير الكفاءات البشرية الضرورية بتحقيق الكفاية الانتاجية والتنمية البشرية ، عن طريق رفع مستوى الاداء ، وربط مشكلات المجتمع بأهدافنا العلمية والتعليمية مع تسخير العلم والتكنولوجيا لخدمة هذه الاهداف[1] .

فالجامعة ليست مجموعة من المعامل والمكتبات والمدرجات فحسب ، وانما هى مصدر اشعاع لتنمية الكوادر الفنية من الشباب ، واعداد الطالب اعدادا متطورا يتمشى مع عملية النمو المهنى ، واعداد الباحثين الممتازين ذوى العقليات المتفتحة والكفاءات الممتازة . بالاضافة الى تدريب المتخصصين والفنيين عن طريق الدراسة المنظمة .

وتهتم الجامعة كمؤسسة علمية وتعليمية بالبحث العلمى وتطوير أساليبه التى تساهم فى خدمة المجتمع مع تنمية البيئة المحلية ، مع تأليف الكتب وتكوين المناهج واعداد البرامج التعليمية التى تساعدنا على القيام بعمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع تدريب المدرسين على أحدث الطرق والوسائل المستخدمة فى عمليات ومناهج التربية والتعليم . كما تعمل الجامعات دائما على أعداد الكوادر لامداد المجتمع بالخبرة والدربة عن طريق تكوين واعداد الكفاءات المدربة على مستويات رفيعة من خريجى التعليم العالى ، للمساهمة فى بناء الاقتصاد القومى[٢] .

فليست الزيادة البشرية كما قال الزعيم السياسى الصينى « ماوتسى تونج » نقمة نحاول التخلص منها ، وانما أصبحت مع الدراسة والتأهيل والبحث والتنمية والاستثمار المنتج للقوى العاملة ، أصبحت الزيادة البشرية نعمة ، نحيلها عن طريق مؤسسات التعليم الفنى والمهنى الى طاقات اقتصادية خلاقة تبنى مجتمع المستقبل وتشيد بنية الاقتصاد على أساس متين من العلم والتكنولوجيا . ففى الصين

---

(1) Dewey., John, Democracy and Education., The McMillan Co. 1951.

(2) Cockburn Co., Education for Planning., London. 1973.

الشعبية لم تقم المدارس والجامعات على هامش المجتمع ، ولم تقتصر على العمل الاكاديمى وحده ، بل أصبحت « الجامعة خلية ثورية » تخوض معركة التقدم والتنمية[1] فى مستواها الاجتماعى والاقتصادى .

كما تعلمنا أيضا من خلال اثارة مشكلة الانفجار السكانى ، أن زيادة « الثروة » الوطنية لا تعنى « زيادة مادية فى الموارد الطبيعية » ووفرة فى المواد الخام ، أو كثرة فى حجم رأس المال المستثمر ، كل هذه عوامل لا قيمة لها فى نجاح المشروع الاقتصادى دون أيدى عاملة رخيصة ومدربة وقوية ونشطة ، فلابد من توفير واعداد وتوافر القوى العاملة المؤهلة بمهارات وتخصصات متنوعة لامداد المجتمع بالطاقات المنتجة التى تقوم بالعمل وتؤديه بفاعلية ونشاط على أفضل أداء ممكن .

فلا تقاس درجة حضارة الامم الآن بمواردها الطبيعية ، أو بمناجمها ومواردها الخام ومصادرها التعدينية ، وإنما أصبحت حضارة الامم المتقدمة صناعياً رغم ما تفتقره من مواد خام ومناجم وموارد ، تفتخر بما تمتلكه من طاقات بشرية هائلة واعية ومنتجة ، مؤهلة علميا وتكنولوجيا مدربة على أفضل ما يكون التدريب على العمل الفنى الدقيق والقيام بالمهن الراقية التى تحتاج الى مهارات خاصة ودرية معينة[1] .

ولعل المجتمع اليابانى ، هو مثلنا الاعلى فى عصرنا الراهن ، فلقد انتهت اليابان ، وقضى عليها سياسيا بتحطيم شوكتها العسكرية التقليدية ، بعد سقوط القنبلة الذرية على نجازاكى . وأعلنت اليابان الاستسلام الكامل دون قيد أو شرط وأنهاء الحرب العالمية الثانية . ولم تركع اليابان رغم تعرضها لحرب أمريكية شرسة لا ترحم ، ردا على ما فعلته اليابان غدرا فى « بيرل هاربر » . وتدميرها المفاجىء للاسطول الامريكى كله بطريقة سريعة ومدبرة ، رغم وجود السفير اليابانى وقتها فى حفل دبلوماسى فى « واشنطن » . ورغم الموارد الخام البسيطة فى اليابان ، الا أن الطاقة البشرية المنتجة والخلاقة ، هى التى غمرت أسواق العالم ونافست الصناعة اليابانية ، تكنولوجيا الامريكان ، وأجتاح « الين اليابانى » وسادت تكنولوجيا اليابان الرخيصة ، وراجت منتجات الفكر اليابانى وزاد انتاجه الصناعى ، ونافس الاقتصاد اليابانى سوق الدولار ، وحاربت اليابان أمريكا فى معركة الاقتصاد رغم

(١) دكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع السياسى ، وقضايا التخلف والتنمية والتحديث ، منشأة المعارف ١٩٨٠ .

هزيمتها فى معركة الحرب ، وأنتصر الاقتصاد اليابانى رغم عدم وجود القوى العسكرية التى تدعمه وتحميه . ولعل السبب فى ذلك هو أن اليابان قد أستيقظت برجالها وبأنتشار برامج التنمية فى عملية التربية والتعليم فتفوقت المدرسة اليابانية ، وخلقت الطبقة المنتجة واهتمت بالصناعات الالكترونية الدقيقة ثم أستيقظت « طاقات التجديد والتغيير » فى سائر أنحاء الجزر اليابانية وأصبحت التنمية البشرية اليابانية ، هى محور الارتكاز ، وحجر الزاوية فى البناء الاقتصادى للمجتمع اليابانى ، الغنى بطاقاته البشرية ، الفقير بموارده الطبيعية . وأثبتت تجربة المجتمع اليابانى أن تنمية الانسان واعداده وتربيته ، تستطيع حقا أن تخلق منه المعجزات .

الفصل الثالث عشر

وطأة الصناعة وتلوث البيئة

تمهيـــد

* تلوث البيئة الصناعية
* جوانب التلوث فى القطاع القروى
* المبيدات والاسمدة الكيماوية
* التلوث المائى فى البحار والبحيرات الميتة
* الظروف الايكولوجية والتلوث الصناعى
* حل مشكلة العوادم

تمهيـــد :

ماذا تقصد بمشكلات التلوث Pollution ؟ وما هى طبيعته ومصادره ؟ وكيف نحدد أشكاله وأنواعه ؟

فى الرد على كل هذه الاسئلة ، نقول إن التلوث[1] هو القاء النفايات مما يفسد جمال الطبيعة ونقاء الجو ، ونظافة مياه البحار والانهار والبحيرات .

وهناك توازن طبيعى ، بين انتاج ثانى اكسيد الكربون واستهلاكه فى عملية التمثيل الضوئى Photosyntheses وهى عملية الهدم أو الاستهلاك ، وعند امتصاص ثانى أكسيد الكربون من الهواء ، فيكون له أثره على خلايا النبات والانسجة وثماره ، بينما ينتج ثانى أكسيد الكربون عن طريق الاحتراق الطبيعى للاكسجين فى عملية التنفس التى تستهلك الاكسجين وتفرز ثانى أكسيد الكربون . بينما يقوم النبات بأمتصاص غاز ثانى أكسيد الكربون ، وأفراز أو اطلاق غاز الاكسجين نهارا لتنتفع به الكائنات الحية ، فيحدث التوازن Equilibrium بين انتاج واستهلاك ، والتوافق بين البناء والهدم ، بأفراز عناصر ضارة لكى تستهلكها عناصر نافعة . هذا هو التوازن فى النظام البيئى أو التوافق فى النسق الايكلوجى Ecosystem .

الانسان الحضرى وتلوث البيئة الحضرية :

لقد أحدث الانسان الحضرى فى البيئة الطبيعية خللا هائلا بعد أن استخدم أدوات العلم ، واعتمد على سلاح التجربة ، فأصاب تخريبا فى « التوازن البيئى » . والاصل أن البيئة منذ أن خلقها الله سبحانه وتعالى ، وهى فى حالة توازن ، فحاول الانسان الحضرى برؤيته العلمية وأسلوبه ومصلحته ، أن يسخر البيئة لخدمته ، ومن هنا حدث الخلل فى التوازن البيئى ، لان ما يغير الانسان الحضرى من ناحية ، كان بسبب العديد من الاضرار من نواحى أخرى .

---

(١) المفهوم العلمى للتلوث ، هو حدوث خلل فى الحركة التوافقية التى تتم بين العناصر المكونة للنظام البيئى أو الايكلوجى فيفقد النظام فاعليته أو تضعف قدرته فى آداء وظيفته والتخلص الذاتى من الملوثات العضوية والعمليات الطبيعية Natural Processes

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، استخدم الفلاح المعاصر الكثير من ألوان السماد الكيمائى فأثرت هذه الكيماويات على نوعية المحاصيل بالاضرار الصحية ، رغم وفرة الانتاج . وأستخدم الانسان المبيدات الحشرية ، لكى ينحو المحصول من الآفات والحشرات ، فسبب بذلك خسائر أخرى فادحة ، حيث قتلت الطيور والحيوان ، فأختفى الهدهد وأبوقردان ، وقتلت الصقور والثعالب والاسماك ، ويقال أن ظهور مشكلة الفئران فى محافظات الوجه البحرى ، هى نتيجة حتمية لاختفاء القطط والبوم والحدأة والصقور ، فأختل التوازن البيئى للحياة فى هذه المناطق من محافظات الوجه البحرى ، وأصبح هذا « الخلل الايكلوجى فى التوازن » غير صالح اطلاقا بالنسبة لحياة الانسان المصرى .

وبصدد تلوث البيئة وتطلعات الاقتصاد الصناعى والزراعى يرى الايكلوجيون أن الصراع أصبح على أشده فى معظم الدول الصناعية مع بداية السبعينات وكان شعار هذا الصراع هو القضية القائلة بضرورة الاتجاه والعمل الدائب من أجل « أقتصاد سليم وبيئة صحية **Healthy economy and healthy environment** » .

ولقد ثبت أن المناطق الحضرية تزدحم بالسيارات التى تقذف بالنفايات (الغاز والعوادم) مثل أول أكسيد الكربون وأكسيد النترجين والرصاص كتلك العوادم التى تنطلق فى الطبقة الهوائية السطحية فيعيش الانسان والحيوان والنبات على الهواء الملوث ، وقد دلت الدراسات أن السيارة الصغيرة ، تقذف كل ساعة عمودا من العوادم فى الجو حوالى ٦٠ م^{٢} من غازات العوادم بينما تطلق الشاحنة الكبيرة حوالى ١٢٠ م^{٢} . ومع أختلاط عادم السيارات بقطرات بخار الماء والامطار يتحول الى «حامض نيتريك سام» كما تتولد الهيدروكربونات أثناء عملية الاحتراق الداخلى ، ولا شك أن الهيدروكربونات هى مركبات كيماوية غير كاملة الاحتراق وهى عنصر هام فى تكوين الضبخان الكيماوى وما يحتويه من غازات ضارة بالعيون وبالجهاز التنفسى .

ولقد تعرضت مدينة لندن فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ لمدة أربعة أيام متتالية لطبقة سميكة من الضبخية نتيجة لتجمع ضباب كثيف وأختلاطه بدخان المصانع وعادم السيارات حتى أنعدمت الرؤية فى بعض أجزاء المدينة وأصبح من الصعب على الشخص أن يرى قدمه بنفسه فمات أربعة آلاف شخص الى جانب بضعة

آلاف تعرضوا لامراض الجهاز التنفسى ، وفى ديسمبر سنة ١٩٧٥ ــ غطت سماء لندن ولمدة ثلاثة أيام متتالية طبقة سميكة من الضبخان حتى أنعدمت الرؤية وتوقفت المطارات وأغلقت المحال التجارية ، وفى طوكيو سنة ١٩٧٠ تعرض السكان لحالات من السعال وضيق التنفس حتى وضعوا أجهزة تنقية Filtering Devices ليتجنبوا الهواء الملوث . وبالرغم من ذلك استقبلت مستشفيات طوكيو أكثر من ثمانية آلاف حالة مصابة بسموم التلوث[1] .

المبيدات والاسمدة الكيماوية :

ويقول علماء البيئة فى مصر ، أن المبيدات والاسمدة الكيماوية ، قد أدت الى أختفاء « أبو قردان » صديق الفلاح المصرى منذ قديم الزمان ، فازدادت أعداد وأنواع الديدان الضارة بالمحاصيل فى حقول مصر ، مما أدى الى خلل واضح فى التوازن الايكلوجى أو النظام البيئى .

ونقصد بالنظام البيئى ، بأنه النظام الطبيعى للحيوان والنبات فى أى مساحة من الطبيعة وما عليها من كائنات حية ومواد وتركيبات أو ترسيبات وطبقات ذات خصائص جامدة ، أى أنها تتفاعل كمادة غير حية ، مع كائنات حية فى مشاركه طبيعية ، وتعتمد كل منها على الاخرى ، فى اطار ظروف بيئية ثابتة وغير متغيرة ، ويشكل هذا التفاعل بين الحى وغير الحى المشاركة الازلية بوجود ذلك التحدى القائم بين البيئة الفيزيقية وبين الانسان نظاما بيئيا مستقرا وطبيعيا ومستمرا فتختزن مثلا أوراق النبات طاقة الشمس ، فى مركبات كيماوية مشحونة بالطاقة ، وغنية بالغذاء ، الامر الذى معه تنتقل الطاقة والمواد الغذائية المشحونة الى جسم الحيوان الذى يتغذى على مثل هذه المواد الغنية القائمة فى أوراق الشجر . كما يحتوى بعض النباتات الخضراء كالخضروات كالجرجير والبقدونس والحلبة الخضراء على مواد غذائية غنية بالطاقة ، تفيد الانسان اذا ما تناولها وأستهلكها ، ويكون لها رد فعلها الواضح على صحة الانسان وطاقاته وحيويته .

---

(1) Weinstein, W.S., Health in the City, Vancouver, Canada . 1979.

ولكن من هو صانع التلوث الايكولوجى ؟

قد ينشأ التلوث طبيعيا ، نتيجة للانقلاب المشاهد فى ضغط الهواء ، مع الانقلاب الحرارى Thermal-Thin Version وما يحمله الهواء من أتربة ، ومما يزيد هذا التلوث وفرة الاشعاع الشمسى والكيمائى فى المنطقة حيث يساعد على وجود نوع من التفاعل بين الاكسجين والنترجين والهيدروكربونات مكونا ما نسميه بالضبخان الكيمائى Photochemiacal-Smog وما يحويه من غازات ضارة ، تساعد على ادماع العين وآلام الزور ، وصعوبة التنفس . وقد يأتى التلوث من الريح ودورة الهواء ، ومن التيارات المائية ، وما تحمله من ملوثات ، وقد ينتقل التلوث بالتجارة والسفر والانتشار من مناطق الانتاج الى مناطق الاستهلاك ، ولا شك أن الانسان كما يقول « بول أهريلك Paul Ehrlich » هو صانع التلوث[1] بمعنى أن التلوث هو نتيجة مباشرة لتدخل الانسان وأفساده للبيئة ، لكى يحقق الانسان سيطرته على الطبيعة .

وتقوم البكتريا فى الطبيعة بتحليل بقايا النبات وفضلات الانسان ، وتحيلها عن طريق الذوبان فى الماء الى مواد غذائية تمتصها جذور النباتات ، فتعمل البكتريا على خدمة « النظام البيئى » واستقراره فى البر والبحر والجو . ففى النظام البيئى البحرى ، تقوم البكتريا بتحويل ما تخرجه الاسماك من فضلات عضوية ، تحيلها البكتريا البحرية الى مركبات عضوية كالطحالب ، فتنمو نباتات بحرية تتغذى عليها الاسماك ، فيحدث التفاعل والتوازن والمشاركة بين قوى كامنة فى الحياة والطبيعة ، وتتكون علاقات غذائية بين مختلف الكائنات النباتية والحيوانية ، التى تنتهى لصالح الانسان فى النهاية .

وللبكتريا وظيفة عضوية أخرى ، حين تغزو جذور النبات ، وتتكاثر على جذور البقول كالفول والعدس ، وتكون عقدا تمد النبات بما يلزمه من عناصر نتروجينية ، بينما تستمد المواد الكربوهيدراتية ، فتحدث البكتريا بذلك « علاقة منفعة » وهى علاقة لازمة للاستقرار البيئى ونظام النمو فى جذور نباتات الفول والعدس .

---

(1) Ehrlich, Paul & Anne-Ehrlich., Populalion - Resources and Environment. Issues., in-human and Ecolagy, San Francisco, 1972.

وقد يتعرض استقرار النظام البيئى للخلل والتخريب فتظهر الى الوجود كائنات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وتختفى كائنات أخرى قديمة ، وذلك حين تتعرض البيئة الايكلوجية ، لموجة عاتية من البرد أو الجفاف ، قد يكون لها أثرها على المراعى الخضراء فى المنطقة . ولقدأدخل أحد سكان جزيرة هاواى ، عددا من الارانب ، قد استجلبها من الخارج ، حيث وجدت الغذاء الوفير ، وتكاثرت وتحولت الى أرانب برية فأختل معدل نمو النبات وأختل التوازن بين الارانب والغذاء الكافى ، فهلكت المنطقة جوعا ، بل وخلت تقريبا من الحياة . وفى مصر ، مع كثرةاستخدام المبيدات ضد دودةالقطن كآفةمتوطنة الامر الذى ظهرت معه آفات غير متوطنة ، تكاثرت ووصلت فى تكاثرها السريع الى درجة الاخلال. بالنظام الاقتصادى ، والى الاضرار البليغ ، فلقد قتلت المبيدات المصرية الاعداء الطبيعية لدودة القطن ، فأختفت آفات كانت ضرورية لمواجهة حشرة دودة القطن ودودة اللوز القرنفلية وذباب الفاكهة ، وبسبب أنتشار المبيدات ، انتشرت آفات كثيرة مثل « التربس » و « العنكبوت الاحمر » و « الحفار » وحين قتلت المبيدات الانداد الطبيعيين لهذه الآفات أصبح الباب أمامها مفتوحا لتتكاثر دون أى عائق . واذا استخدمنا « فوسفيد الزنك » لمقاومة الفيران فى تجربتنا التى نجريها فى محافظة « الشرقية » وغيرها ضد « الفئران النرويجية » فاننا سنفقد بالضرورة الكثير من أنواع الحيوان النادر فستتناقص أعداد الثعالب الحمراء والذئب المصرى والنمس والقطط البرية بل وقد تناقصت بالفعل هذه الحيوانات وأصبحت نادرة بالنسبة لجمهورية مصر العربية .

ولقد حدث أن تسربت كميات ضخمة من البترول الخام من أنبوبة ضخ بالقرب من « رأس شقير » هذا العام فأحدث ذلك خللا سيئا بالبيئة حتى وصلت نسبة التلوث بالبترول الى ٧٣٪ على طول ساحل البحر الاحمر أدى الى تغطية الشُعب المرجانية بزيت البترول ، فماتت وهاجرت أنواع كثيرة من الاسماك ، وأصبحت مهددة بالانقراض كل أنواع الحياة فى هذه المنطقة نتيجة التلوث الكامل بالبترول .

تلوث البيئة الصناعية :

للحضارة أضرارها وللمدنية أمراضها الاجتماعية حيث أن هناك بعض التصرفات المريضة كنمو النتائج غير الصحيحة أو الصحية الناتجة عن المصنع ومخلفاته[1] ، وكثيرا ما كانت تلقى مخلفاته فى النهر القريب ، نظرا للجهل بطبيعة مشكلات تلوث البيئة ونتائجها الوخيمة ، فى أنتشار الاوبئة والامراض ، اذ نظروا الى النهر على أنه « مقلب » يجرى فى تيار مائى ممتلىء بالخبث والجيف والقمامة ، مع وجود القاذورات والحديد الصدىء . باستخدام الانهار والبحار كمصبات للمجارى والقنوات الصحية . بالاضافة الى ما تلفظه مصانع الادوية والعقاقير والمستحضرات الطبية والكيمائية وما تتطلبه صناعة الاقمشة وصباغة الخيوط والانسجة والحرير الصناعى ، من استخدام كميات من المحاليل والاصباغ فتنقل عوادم ومخلفات «بقايا مواد كاوية قاتلة» بل وتسمم هذه المواد مياه الانهار والبحيرات ، الامر الذى يؤثر بدوره على كمية الثروة السمكية ، ومدى تقبلها للعدوى والسموم ، من تلوث المياه التى قد تصبح غير صالحة حتى لغسيل الملابس ورى البساتين ورش الحدائق ، وهذه درجة بسيطة من حالات تلوث المياه ، حين نقارنها بحالة أخرى حين يصل الماء للدرجة التى معها لا يصبح صالحا للاستحمام أو حتى الشرب ، الامر الذى معه تنقرض الحضارة بتدمير البيئة الحضرية ، عن طريق تلوث المياه والانهار والهواء ز ونحن فى مصر بالذات وفى شهر مارس ١٩٨٣ قد ثارت مشكلة تلوث مياه النيل ، ولقد أصدرت وزارة الرى فى الحكومة بجمهورية مصر العربية القرارات الحاسمة ضد تلوث مياه النيل ، حتى تبقى نقية وتظل صالحة وخالية من النفايات والميكروبات .

ولقد أعطى هيو ملر Hugh Miller فى كتابه « صخر رملى أحمر وقديم Old-Red Sandstone صوره كريهه للبيئة الحضرية ، لما كانت عليه مدينة مانشستر سنة ١٨٦٢ ، حيث كانت تلقى فى نهر ايرويل الذى يخترق مدينة مانشستر ، عربات القاذورات المختلطة ببقايا الصباغة ، ومواد تبييض الاقمشة ، فتلقى فى النهر الآلاف من أطنان عوادم الغلايات البخارية ، وناتج البالوعات وتصرف فيه المجارى .

(1) Lamert, E., Social Pathology, New York, McGraw Hill. 1957.

وكذلك الحال حين يتلوث هواء مانشستر ويفسد ، من ناتج المداخن الكبرى لمصانع الحديد والصلب ، وصناعة الفحم وما ينتج عن معظم الصناعات من أبخرة كريهه وضارة بالصحة العامة ، فتعرضت التجمعات الحضرية لامراض التلوث فى المجتمعات الصناعية ، وجوها الخانق ، وما ينبعث من كثرة القاذورات والقمامة والفضلات العضوية وغير العضوية ، فتظهر الميكروبات التى تنتقل عن طريق الهواء أو الماء ، فتنتشر الامراض التى قد تكون قاتلة لسميتها الكافية لتحويل الماء والهواء الى درجة لا أمان معها لحياة الكائن الانسانى العضوى بل ولا أمان لها ، على كل ما يدور فى تيار حياته الاقتصادية من مدارات وحلقات خاصة بحياة « الكائن الانسانى المنتج أو المستهلك » .

وقد يؤثر التلوث المائى فى نقص معدلات الثروة السمكية وموت الحيوانات لانتشار التسمم فى المياه ، وقد يؤثر التلوث الهوائى الناجم عن حركة العدوى وجراثيم الهواء الملوث الآتية مع الرياح والمحملة بالميكروبات التى تقتل الطيور وتأتى على الزرع والضرع .

ومع أنتشار المواد الكيماوية وتلوث المياه بزيت البترول ، تقل معدلات الثروة السمكية وتتسمم الكائنات والحيوانات البحرية ، وتنتقل السموم الى الاسماك وحيوانات البحر ، فتفسد وتؤثر على صحة الانسان ، مما يضر بالصحة العامة حيث أن الاسماك الملوثة بالسموم تنقل الامراض الى المستهلك ، بل وقد يبلغ الضرر الى درجة القتل ، عن طريق تمكن السموم من الجسم البشرى وأنتشار العدوى والميكروبات .

ومن أجل الصحة العامة ، ينبغى أن تقل المداخن وتنقل خارج المدن ، حتى تهدأ المدينة من الضجيج والضجر من حركة الطرق وزحمة السيارات وضجيج الموتورات وصلبل الادوات والآلات ، مع رتابة الازعاج والصحة مما يتسبب بالضرورة فى وجود حالات ضعف السمع ، وأمراضه بأنواعها التى قد تصل الى حد الصمم بمختلف درجاته نظرا للانزعاج وحالات الضجيج الناتجة عن مد خطوط الترام والمترو والسكك الحديدية فى المدن والحواضر الممتلئة — طرقاتها وشوارعها

بالشاحنات الكبرى ، والسيارات الضخمة ذات المقطورة مما يحمل الازدحام الى قلب المدينة ، بالاضافة الى الازعاج مع كثافة بشرية فى السوق والشارع .

ومع أزدياد درجة الكثافة البشرية ، تزداد معدلات الامراض وأنتشار الاوبئة . وهناك كثافة بالنسبة للشوارع وكثافة المسكن[1] وكثافة الغرفة ، وكلما زادت درجة الكثافة فى المسكن والغرفة فى المجتمعات الصناعية والتجمعات الحضرية ، كلما تدهورت حالة البيئة أجتماعيا وحضاريا . ومع الازدحام وكثافة المدينة يزداد التوتر والقلق والضجر ، مع زيادة الحركة والسرعة ، وأزعاج أصوات التنبيه .

وحين اشتدت وطأة الصناعة فى المدن الصناعية الكبرى ، كانت أحياء كاملة لا تصل اليها « الخدمات البلدية » واستجدى الفقراء الماء والخبز من الجماعات المحيطة ، حين تدب المجاعة . ولقد أبلغ « بلايفير Playfair » لجنة شئون الصحة فى المدن سنة ١٨٤٢ أنه فى مقاطعة لانكشير بأسرها لم تكن توجد سوى مدينة واحدة بها حديقة عامة فقط ، وهى « برستون » وسوى مدينة واحدة بها « حمامات عامة » وهى ليفربول . ونحن نعرف بالطبع من صيحة « بلايفير » وتقرير لجنة شئون الصحة العامة ، مدى ما كانت عليه تعاسة المدن فى مقاطعة لانكشير ، ودور الخدمات البلدية فى حماية الصحة العامة منذ حوالى قرن ونصف قرن فى مدن كبرى فى مقاطعة لانكشير .

لقد خلقت الاتوميه Automation مجتمعا صناعيا جديدا[2] ، متوفر السلع ويمتاز أفراده بالمهارات العالية ، والتخصصات الدقيقة ، كما ساعدت الاتوميه على تقليل ساعات العمل وانخفاض تكاليف الانتاج ، مع زيادة معدلاته . وحين ضاق نطاق المصانع التقليدية ازدادت المصانع الاتوماتيكية التى تساعد على الانتاج الآلى بالجملة Mass Production وظهرت بعد ذلك وتتابعت معظم بل واهم مشكلات تلوث البيئة .

---

(١) يمكن تحديد درجة كثافة المسكن أو الغرفة ، بقسمة عدد أفراد المسكن على عدد الغرف ، فمسكن يتكون من أربعة غرف يعيش فيه عشرة أفراد تصبح نسبة كثافة الغرفة ٢,٥٪ لكل غرفة وتزداد كثافة الغرفة ، كلما قل عدد الغرف وازداد عدد الافراد .

(2) Clarke, W.M., How the City Work., The Professions, London. 1983.

ضجة الحضارة وعجيج التحضر[1] :

الازعاج والانزعاج من الظواهر الحضرية الواضحة التى ترهق الناس ، ولذلك اقترح مخططوا المدن اعادة النظر فى بناء المطارات الدولية فى المناطق النائية بعيدا عن العمران حتى تقل نسبة الضجيج بعيدا عن أزير الطائرات ، ولقد ثبت أن هناك الكثير من الاخطار الصحية التى تنجم عن تلوث الصوت وضجيج العمران ، مثل تلف السمع وهناك من الشواهد التى تؤكد أن عمال العنابر وشرطة المرور الذين يعملون بمناطق تتعرض للاصوات العالية وتتأثر لديهم درجة السمع تأثرا واضحا ، ومن المدهش أن الموسيقى العالية قد تسبب للمستمعين صمما . ولقد أجرى « ديفيد لبسكومب Lipscombe» الاستاذ بجامعة تنسى بالولايات المتحدة الامريكية الكثير من التجارب على الخنازير للتعرف على أثر الموسيقى العالية على درجة السمع فتعرضت مجموعات من الخنازير لحوالى ٩٠ ساعة متقطعة من موسيقى « الروك أند رول » وعند فحص خلايا قوقعة الاذن الداخلية بعد سماع الموسيقى العالية حدثت المفاجأة فى الخلايا التى تختص بتحويل طاقة الصوت الى الاعصاب فأندهش « لبسكومب » عندما وجد أن هذه الخلايا قد ضعفت وتدهورت.وثبت أن قبائل البدو يتمتعون بدرجة عالية من السمع أعلى من الامريكى المتحضر ويرجع سبب ذلك لهدوء البيئة البدوية الصحراوية وضجة البيئة الحضرية ، وقد تسبب شدة الصوت تقلصا وضيقا فى الشرايين وضعفا فى وظائف العصب السمعى ، كما أن الاصوات الشديدة والمفاجأة عادة ما تسبب ضغط الدم وأضطراب التنفس وأزدياد فى افراز العرق وخفقان فى ضربات القلب ولذلك كانت أمراض القلب وتصلب الشرايين هم أهم أمراض العصر فى معظم مدن الدول الصناعية ، ولقد ثبت أن هناك فروق فى معدلات الانتاج بين العمال المعرضين لدرجة عالية من الضوضاء وبين العمال المعرضين لدرجة منخفضة ، حيث يمتاز العامل حين تنقص الضوضاء بأزدياد القدرة على الانتباه والتركيز الذهنى ، كما ثبت أن معظم ضعاف السمع قد أصيبوا بأمراض الاذن نتيجة لضجة المدينة وأزعاجها مما يعرضها لتلوث الصوت فيها .

(١) ايريس (س .) الحضارة الصناعية ــ مالها وما عليها ، ترجمة محمد ماهر نور ، مكتبة الانجلو .

ايكلوجيا المصنع والتلوث :

أقصد بأيكلوجيا المصنع ، بيئته الطبيعية ، ومكانه الاجتماعى والفيزيقى ، حيث يعتمد موقع المصنع على عدد من العوامل الاقتصادية ، مثل قربه أو بعده عن الاسواق وطبيعة الارض ، ونوع التربة ، ان كانت صحراوية أو زراعية استنادا الى تحليل أو تركيب التربة ومدى صلاحية المناخ واستعداد البيئة ومدى تقبلها للمشروع الصناعى . بالاضافة الى ضرورة توافر المواد الخام أو مصادر الطاقة أو الوقود ، مع رخص الايدى العاملة ، ووفرة وسائل النقل الآلى والبرى والمائى .

ولبيئة المصنع أثرها على شخصية العامل ، بمعنى أن الظروف الاجتماعية والفيزيقية لايكلوجيا المصنع ، انما تؤثر على مدى نجاح المشروع الصناعى أو اخفاقه ، وهناك عوامل فيزيقية مطلوبة كالاضاءة الطبيعية أو العاكسة Reflectores كاستخدام مصابيع الفلورسنت Florescent ونوافذ للتهوية وهى مصادر الضوء الطبيعى للمصنع ، مما يجوز أن تكون متوفرة وآلية ، وذلك للتحكم فى درجة حرارة ورطوبة المصنع ، ومنع تلوثه بالروائح الكريهة أو الغبار العالق فى هواء المصنع[1] فلقد ثبت أن أنتشار الامراض التى يسببها الجو الحار ، مما يضعف من الصحة ويقلص من عضلات الجسم والامعاء وتظهر أعراض الانهاك الحرارى والصعقة الحرارية Heat-Stroke وتسمى ايضا بضربة الشمس[2] .

هذا بالنسبة للهواء والضوء والحرارة ، أما بالنسبة لطلاء الجدران ، فلقد أصبحت الالوان الداكنة أو الغامقة ، من الالوان ذات الاثر الكريه على نفوس العمال . ثم ظهرت الالوان الزاهية لتحسين الاضاءة الطبيعية وسهولة أنعكاس الضوء عليها ، وأثرها النفسى فى رفع معنويات العمال . وقد تستخدم الالوان القوية والمركزة Focal فى تحديد الاجزاء الهامة فى الآلة ، وهى الاجزاء الضرورية التى يستخدمها العامل ، فاللون الاحمر مثلا يدهن به الجزء المخصص للحركة بينما

---

(١) لقد صدرت التشريعات الخاصة بالامن الصناعى ، ومنع التلوث والاشعاعات والمواد الكيماوية مع تعويض العمال عن حوادث وأصابات العمل ، بأصدار التشريعات الخاصة بالتأمين ضد العجز ووضع برامج التأهيل المهنى . أنظر موسوعة الامن الصناعى للدول العربية الجزء الثالث ١٩٧١ ص ١٤٣ .

(٢) انظر الجزء الاول من (موسوعة الامن الصناعى للدول العربية) ١٩٧١ ـــ ٧٠٣ .

تستخدم الالوان الخضراء أو الهادئة لدهان الاجزاء الاخرى غير الضرورية أو غير الخطرة .

ويرى علماء الهندسة الصناعية والميكانيكية وخبراء تصميم الآلات ، ما يؤكد عليه دائما الخبراء فى دراسات الهندسة البشرية Human-Engineering من ضرورة العمل على راحة العاملين على الآلة أثناء عملية تصميم الآلات ، وهذه ضرورة أمن Security تهم الهندسة البشرية ، كما تهم هندسة التصميم ، وصناعة الآلات الميكانيكية ، وذلك لابعاد الخطر عن العاملين على الآلة ، وهذه قد تكون ميزة فنية وأقتصادية وعلمية للآلة ، قد تزيد من قيمتها التجارية فى التسويق فتزداد حركة المبيعات[1] .

ولقد أثبتت الدراسات التاريخية القديمة ، أن وسائل الامن الصناعى ، كالاقنعة الواقية،هى قديمة قدم الحضارة ، مع ظهور المناجم وأكتشاف صناعات التعدين وكيفية مقاومة الغازات والابخرة الناتجة عن المعادن كالزنك والكبريت .

الظروف الإيكلوجية والمناخ الصناعى :

ولقد أصدر المجلس القومى للامن الصناعى The national safety-council ما يبشر بالعواقب الوخيمة ازاء حوادث أصابات العمل ، وخسائر شركات الولايات المتحدة الامريكية ومؤسساتها الصناعية التى بلغت الكثير ، ونجم عنها ، ما يذهب بالثروات الهائلة من آثار الحرائق وحوادث الصناعة التى لا تبقى على شيء ، فتدمر وتحطم وتقتل ، وتقضى على الانسان كما وتوقف حركة الآلات . ومع الحرائق والخسائر ، يضيع الوقت بين الاعمال الخطيرة أو غير الآمنة Unsafe act التى يقوم بها العامل ، فقد يؤدى أهمال العامل وهمومه ومشكلاته الاجتماعية ، الى حدوث ما لم يكن فى الحسبان . كما قد يؤدى عدم الصيانه الفنية للآلة القديمة ، الى حدوث الحوادث وأصابات العمل .

ولقد أثبتت الدراسات أن سمات الشخصية Personality-characteristics كالذكاء والمهارة اليدوية ، أنما يكون لها رد فعلها فى بطء أو سرعة الاستجابة Response ، فلقد زاد الانتاج وأرتفع بنسبة ٨٪ فى الفترات التى يشعر العامل فيها

(١) الجزء الثانى ، من موسوعة الامن الصناعى ١٩٧١ ، ص ١٤٧

بالبهجة والسعادة ، مما لو كان حانقا أو غاضبا ، قلقا أو متوترا[١] . كما ثبت أن طول أو قصر مدة الخبرة Experience له دوره فى زيادة أو قلة معدلات الاصابة بالعمل ، فكلما قلت الخبرة زادت الحوادث . ولقد زادت الحوادث فى الاقسام التى تقل فيها فرصة الترقية ، وحيث يسود المناخ الصناعى Industrial climate المتوتر مع عدم القدرة على التعبير الديموقراطى ، بالاضافة الى عدم اشتراك العمال فى الأرباح Employee-Profit-Sharing فالضغط والتوتر والضبط ، تكون كلها من عوامل استهداف الحوادث ، مع التدريب المستمر للعمال على الاساليب العلمية فى التشغيل والوقاية انما يؤدى بالطبع الى منع الحوادث ويستهدف خفض معدلاتها فينبغى المام العامل بالطرق العلمية كما ينبغى فى نفس الوقت أن لا يكتفى بالمعرفة . فالمعرفة لا تكفى Knowledge is not enough كما يقول خبراء صناعة الصلب فى امريكا ، بل يجب أن يمارس الانسان بالفعل ما يعرف ، فينفذ بجدارة قواعد الامن الصناعى وشروطه .

وعلى هذا الاساس ، يحدد الخبراء برامج الامن الصناعى ، عن طريق تحليل المعمل Job analysis ، وعن طريق دراسة العمليات والاجراءات التى تمر بها « الخطة » مع الوصف الدقيق لحركات العامل ، والآلات المستخدمة وخطوات العمل حتى ينفذ العامل الخطة طبقا لافضل أداء ممكن ، مع تشجيع العامل على السلوك السليم واشتراك العمال فى برنامج الامن الصناعى .

ومما يؤكد قدم الاتجاهات الادارية نحو دراسات الامن Security فلقد اشار اليها « فايول Fayol » منذ فترة طويلة ، وعبر عن دور « الامن » بل وأعتبره من أوائل[٢] المسئوليات التى تتحملها الادارة الصناعية فللامن أقتصادياته وصلته الوثيقة بالدفاع المدنى[٣] ، وحالات الطوارىء وتشجيع برامج الاطفاء وتخطيط أنسب الوسائل للقضاء على الحريق ، مما يوفر للشركة الكثير لو أدى الاهمال البسيط الى حريق هائل .

---

(١) دكتور عبد الرحمن العيسوى ، علم النفس والانتاج ، مؤسسة شباب الجامعة ص ٢١٦

(2) Fayol-Henri, General and Industrial Management., trans by Storrs, Pitman Paperpacks 1969.

(٣) انظر الجزء الاول من موسوعة الامن الصناعى الدول العربية ، ١٩٧١ ، ص ٤٧ حتى ص ٩١ .

ومن أهداف الامن الصناعى ، اقتصاد الوقت الضائع عند وقوع الحوادث والاصابات ، ومنع الخسائر التى تزيد من نفقة وتكلفة الانتاج ، وتعمل براج الامن الصناعى على حماية شخصية الانسان الصناعى ، وتنمية شعوره بالامان والطمأنينة ، وولائه لادارة المصنع . حتى تزول مصادر الخطر الصناعية ، مع تدريب العمال على استخدام اجهزة الامن الصناعى وتشجيعهم على اقتنائها ، مع وضع التشريعات الخاصة بتنفيذ براج الامن الصناعى وتحقيق الصحة النفسية والفيزيقية للعامل ، مما يؤدى الى تنمية قدراته ، فى ميدان الكفاية الأنتاجية مع تنمية الميول المهنية التى تحدد أنماط الاستجابات الانفعالية ، ونسق العادات التى يتميز بها العامل .

أما اجراءات الامن الصناعى ، فقد تكون خاصة بالدفاع المدنى ، والاطفاء ، والانقاذ والاسعاف وكل ما يتصل بحالات الطوارىء Emergency للوقاية من الحريق والجروح ، ومنع التدخين والاستخدام الرشيد للاجهزة الكهربائية ، وتغطية الاسلاك والمواسير وخطوط التليفون ، وحفظ المواد الكيمائية السائلة والغازية ، واعداد المخازن المبطنة والجهزة بأدوات الطوارىء الثابتة والمنتقلة ، مع الاحتياطات الكافية للوقاية والاسعافات الاولية من حدوث اصابات عمل .

ولقد قسم « هنريك » اصابات وحوادث العمل الى قسمين رئيسين ، الاول ويرجع الى أسباب شخصية ، بينما يرجع الثانى الى أسباب تتعلق بالمصنع وتشغيل الآلات . أما القسم الاول فيتصل بالاخطاء الشخصية وعدم كفاءة العامل وجهله وقلة خبرته أو طاعته لتعليمات الامن الصناعى ، نظرا لاسباب خاصة ، كالغباء وتشتت الانتباه ، أو الاندفاع أو التسرع .

ولا شك أن عدم التبصر والافتقار للنظام ، مع التعب والارهاق والاجهاد هى عوامل نفسية بالاضافة الى الظروف الاجتماعية التى تسبب له الوقوع فى الخطأ والاصابة مثل قلة التركيز ، مع الشعور بالانفعال الشديد .

ويحد الامن الصناعى ، من زيادة الحوادث الصناعية Industrial-accidents كما يقلل من اصابات العمل ، حين يحمى العامل الماهر ، فلا يصاب حين تؤدى به

عاهته ، الى عامل عادى ، وقد تقلل عاهته من مستوى الآداء ، أو قد يعجز عن العمل فلا يعمل .

ولكل هذه الاسباب يكون للامن الصناعى أثره الواضح فى زيادة الانتاج وقلة التكاليف ، وحماية المصنع والعامل والآلات ، حيث يوفر الامن الصناعى الرشيد ، لاعداد وسائل الوقاية وأتاحة الظروف الكافية مصاحبا لتأمين سلامة عمليات التنقل واعداد الممرات الكافية فى المصانع للحد من اصابات العمل ، عن طريق الاحتكاك .

ولا تتعارض أهداف الامن الصناعى ، مع تحقيق مبادىء العلاقات الانسانية وخلق الجو المناسب الذى يدفع العامل ويرفع من روحه المعنوية . ولذلك يشرف قسم الامن الصناعى فنيا على كيفية الاستخدام الرشيد للآلات ، ومعرفة أنتاجها ومدى تشغيلها الطبيعى . ومستوى آداء الآلة وصيانتها وتدريب الافراد عليها ، واستخدام الادوات الواقية من الاخطار .

أدوات الامن الصناعى :

هناك قواعد يجب أن تتبع بصدد تشغيل الآلات ومعدات الصيانة الخاصة بالمحركات الميكانيكية Mechanical والاوتوماتيكية Automatic والاولى تخضع للملاحظة والاشراف الفنى والانسانى ، أما الثانية فتعمل دون حاجة الى ملاحظة أو أشراف ، كما أن هناك آلة ذات غرض واحد Single-Purpose وأخرى متعددة الاغراض Multi-Purpose .

ومن أهم مصادر وأدوات الامن الصناعى الاسعافات الاولية ، وخراطيم الحريق ذات الضغط العالى ، ورشاشات الحريق الذاتية الحركة ، ومن أهم ما يراعيه قسم الامن الصناعى منع التدخين بالقرب من الغازات الملتهبة . وعزل الاشياء القابلة للاشتعال ، وأعداد اجهزة الاطفاء ، ومعدات مكافحة الحريق ، وتوافر الاضاءة ، ودرجة التهوية وتعدد النوافذ الاوتوماتيكية الحركة .

ومن أهداف الامن الصناعى ، مراعاة التخطيط الداخلى للمخازن ، وضرورة تخزين السلع بطريقة علمية دقيقة ، حتى نضمن لها الامان فى المخازن . فيحقق

قسم الامن الصناعى درجة عليا من « الوقاية الصناعية » وحماية الآلات من الصدأ والمنتجات من الرطوبة ، والسلع من الفساد ، والحبوب من التآكل ، وحماية المصنع كله من السرقة ، والمخازن من تسرب الغازات التى قد تتفاعل فتسبب الحرائق والحوادث داخل أو خارج جدران المخازن .

ويهتم قسم الامن الصناعى برفع مستوى الآداء الآلى وتحسين ظروف العمل كالتدفئة والتهوية والاضاءة ، والتقليل من درجة الكثافة ، بزيادة المساحات الكافية للعمل الواحد وأختيار الالوان الهادئة لجدران المصنع ، وخلق الجو الاجتماعى الديموقراطى ، الذى ينعش نفس العامل ويهدىء من أعصابه فتزداد معنوياته ، وترتفع معدلات الانتاج .

ويسجل مكتب الامن الصناعى كما يعد الاحصائيات الدقيقة عن حوادث العمل وظروفها وأسبابها ، وطرق الامان منها . ويخطط برامج حماية العمالة وصيانة الآلة ، وتوجيه العامل الفنى . وأستخدام وسائل الامن الصناعى واحترام قواعده وتعليماته فى ترشيد تشغيل الآلات وكيفية تخزين المواد القابلة للاشتعال والرقابة على جميع أماكن العمل ، والاحتفاظ بخرائط تفصيلية للمصنع ، وحماية مستندات المشروع ، ووقايته من الحريق والحوادث .

ويحقق قسم الامن الصناعى أبسط أنماط الاداء ورفع مستواه ، بتوافر المهارات من أجل زيادة الانتاج ، وأهم طرق الاداء هى طريقة التنميط أو التوحيد القياسى **Standadization** والتبسيط **Simplification** . كل ذلك من أجل ضمان حسن سير العمل واعداد بطاقات السير **Rout-Sheets** لكل عملية من عمليات الانتاج . ويشرف قسم الامن الصناعى على راحة العمال ، وعلاج عائلاتهم ، وتدبير وسائل النقل لهم . ومنحهم علاوات تشجيعية وتنظيم رحلات سياحية خاصة ، وعقد البرامج الثقافية بعقد حلقات توعية العمال ، ونشر كتيبات صغيرة تحتوى على مشكلات عمالية وصناعية وبيان كيفية علاجها وحلها .

ولعل التغذية ضرورة يجب الالتفات اليها فى كل مصنع ، ومؤسسة ، حتى لا يصاب العامل بأمراض سوء التغذية ، مثل (العمى الليلى الذى ينشأ نتيجة لضعف القدرة على الابصار فى الظلام) ، ولقد ثبت أن سوء التغذية قد يسبب

فقدان الشهية ، وينشأ عن فقدان الشهية أمراض فقر الدم والكساح ولين العظام . ولذلك صدرت التشريعات العمالية الخاصة بالتغذية وتقديم وجبات كاملة للعمال ، طبقا لنوع الاعمال التى يقومون بها ، فقد يحتاج « عامل الافران العالية » فى شركات الحديد والصلب . الى نسبة أكبر فى التغذية من « عامل النسيج » أو جمع الحروف فى المطبعة . وفى جولة ميدانية فى شركات النصر للملابس ، وصباغى البيضا والحرير الصناعى ، حاولت معرفة أسباب اصابات العمل ، وعدد الحوادث وأنواعها وتحديد الاقسام التى تكثر فيها ، وعقدت المقارنات بينها ، كما حاولت أيضا معرفة أمكانية هذه الشركات فى برامج الامن الصناعى ، وقد تمكنت بأتصالى بالمسئولين فى شركة « مواد الصباغة والكيماويات » من أخذ ملحق خاص بأدارة الشئون الادارية ، ويتصل بواجبات لجان الامن الصناعى الفرعية ، وهذه صورة طبق الاصل ، تكشف عن مدى أهمية هذه البرامج فى الشركات الصناعية .

شركة مواد الصباغة والكيماويات
أدارة الشئون الادارية
قسم الامن الصناعى

(ملحق رقم /١)

واجبات لجان الامن الصناعى الفرعية :

تنحصر مسئوليات اللجان الفرعية للامن الصناعى برئاسة رئيس القسم فيما يلى :

١ ــ معاينة أسباب وقوع الحوادث وأصابات العمل فور وقوع الحوادث وكتابة تقرير واضح بكل ما يتعلق بالحادث ، من نقص فى أحتياطات الوقاية أو الخطأ من العمال وأيضا الرأى فيما يجب أتخاذه من أجراءات لمنع تكرار الحادث وما تم فى حدود الامكانيات وعرض التقرير على رئيس القسم لبحثه وأبداء رأيه ثم ارساله الى قسم الامن الصناعى .

٢ ـــ اصلاح الاخطاء « فى حدود الامكالانيات المتاحة ، وسواء أكانت عقب وقوع الحادث أو من المشاهدات أثناء القيام بالعمل ، وفى حالة ما اذا كان اصلاح هذه الاخطاء خارج الاختصاص ، يوضع تقريرا عنها ويرفع للرئيس المسئول .

٣ ـــ القيام بالتفتيش على الآلات وأدوات العمل وكذا ما يتعلق بأجهزة التهوية ووسائل المحافظة على درجات الحرارة والرطوبة الملائمة لجو العمل وملابس العمل ومهمات الوقاية الشخصية والتأكد من سلامتها وصلاحيتها للعمل واتخاذ ما يلزم نحو اصلاح واستبدال التالف منها أو كتابة تقرير بملاحظاته عليها ورفعه للرئيس الذى بيده سلطة الاصلاح أو الاستبدال .

٤ ـــ التنبيه على العاملين بضرورة التبليغ عن جميع الحوادث التى تقع لهم أثناء العمل سواء أكانت بسيطة أو كبيرة ، وأخطار القسم الطبى بأية اصابات تقع لهم لاجراء « الاسعافات الضرورية » فورا عند حدوث الاصابة .

٥ ـــ القيام بتوجيه العاملين بأتباع طرق العمل الآمنة ، ومراقبتهم فى تنفيذ العمليات وتدريب من يحتاج للتدريب منهم .

٦ ـــ ملاحظة العاملين طوال فترة العمل لاكتشاف أية أعراض طارئة قد تؤثر على مقدرتهم فى العمل بشكل آمن مما يعرضهم للحوادث بتوجيههم أو أبعادهم عن هذا العمل .

٧ ـــ التنبيه على العمال بعدم القيام بأصلاح آمن الآلات أثناء حركتها وحواجز الوقاية مرفوعة عنها ، كذلك التأكد من صيانة وسلامة حواجز الوقاية .

٨ ـــ التنبيه على العمال بعدم الصعود « فوق أحمال معلقة فى الآلات الرافعة » ومراقبتهم فى تنفيذ ذلك .

٩ ـــ التأكد من عدم القاء العمال الادوات فى الممرات أو نزع أغطية المجارى

١٠ ــ التأكد من أن العمال يستعملون ملابس الوقاية الشخصية والاجهزة الوقائية الموضوعة لحمايتهم من الاخطار .

١١ ــ مراقبة العمليات الخطرة أو التى ينجم عنها ضرر أو لهب وأتخاذ الاحتياطات الكفيلة بحماية العاملين بها أو العمليات المجاورة لتجنب وقوع الحوادث .

١٢ ــ مراجعة كل استعدادات وأجراءات ولوازم مكافحة الحريق .

١٣ ــ تكافىءاللجنة الفرعية الأقسام المثالية فى حالة عدم حدوث واصابات أو وقوع حوادث بقسمها،مع المحافظة على نظافة القسم،من الداخل والخارج ، وأتباع تعليمات الامن الصناعى .

١٤ ــ تحديد أمثل لجنة أمن صناعى فرعية كل شهرين من لجنة الامن الصناعى الرئيسية .

ومن هذا الملحق الادارى لواجبات الامن الصناعى ، يتضح لنا مدى الضرورة التى تؤكد عليها برامج التخطيط والمتابعة والانتاج ، كما كشفت لنا هذه الجولة الميدانية التى قمت بها أن هناك عوامل تؤدى الى وقوع الحوادث وزيادة معدلات الاصابة بالعمل ، ومنها عوامل نفسية وأجتماعية تدفع العامل الى القلق واليأس ، حين يوضع العامل فى المكان الذى لا يناسبه أو يفضله ، وقد يكون ضعف الحواس البصرية والسمعية من أسباب وقوع الحوادث ، أو قلة خبرة العامل وعدم تدريبه . وقد تنشأ الاصابة عن طبيعة مكان العمل وسوء تصميمه وعدم مراعاته للشروط الصحية والفيزيقية ، وتكديس الآلات فى مكان ضيق . كما ثبت أن انتشار تعاطى المخدرات ، انما يؤدى الى ضعف الانتاجية ، والاستهتار والاهمال ، وزيادة فرصة الاصابة بالعمل .

وينبغى فى نهاية المطاف الّا نغفل أهمية « التوجيه المعنى » أو توجيه الميول « المهنية » وضرورة هذه الدراسات فى اقتصاديات الصناعة ، وفى تطوير برامج الامن الصناعى ، حيث ينبغى أن يترقى الامن الصناعى بحيث يشمل الاشراف والتوجيه « على تدريب الايدى العاملة » وتطويرها وتنميتها ، مع الحفاظ على وجود

نظام التلمذة الصناعية ، وتطوير أنشطته داخل المؤسسات الصناعية مما يدخل فى اقتصاديات الميول المهنية .

الادارة ومشكلات تلوث البيئة :

اذا كانت التنمية الاقتصادية والادارية والاجتماعية هى أهم مشكلات المجتمعات البيئية والقروية ، فان « مشكلات التلوث Pollution » وتنمية البيئة Ecodevelopment هى أهم مشكلات المجتمعات الصناعية والتعدينية .

ومن المشكلات الاساسية فى عملية « التنمية » ردود الافعال الناتجة عن « التصنيع » وأضرار التكنولوجيا حيث تقتل الآلة « ملكات الانسان » وتقضى على طاقاته وتدمر قدراته الابداعية كما تؤدى نظم التصنيع والميكية Automation الى تفضيل الاعمال الآلية ، مما يؤدى الى القضاء على المهارات البدوية ، وأنتشار البطالة وتلوث « البيئة » كالانهار والبحار ، حين تتخلص التكنولوجيا من بقاياها فتفرز أفرازاتها القاتلة ، وغازاتها التى تسمم الجو وتفسد الهواء[1] .

الامر الذى معه صدرت دراسات خاصة بتنمية البيئة Ecodevelopment من أجل حل مشكلات التكنولوجيا ، ووضع الخطط والبرامج الصحبه الرشيدة حتى يتم التوافق النفسى والصحى بين « الانسان » و « البيئة » الصناعية بأزالة كل العناصر الناجمة عن التلوث فى المجتمعات الحضرية والمناطق الصناعية .

ولكل هذه الاسباب مجتمعة ، يخلط علماء البيئة Ecologists حين يكافح الكل من أجل التنمية الرشيدة بتطوير البيئة وتنقية الهواء وتطهير الماء ، وتحسين المرافق ، ونظم « الصرف الصحى » باستخدام أساليب الاعلام ، والاسترشاد بطرق الامن الصناعى ، حيث يتمكن المجتمع من مواجهة مشكلات التكنولوجيا بطريقة صحية وفعالة ورشيدة . وقد يؤدى التلوث الصناعى الى «التلوث المائى». ويقصد بالتلوث المائى أحداث تلف أو أفساد فى نوعية المياه مما يتسبب عنه تدهور نظامها الايكلوجى لدرجة تتحول فيها المياه الى حالة خطرة أو ضارة أو حتى مؤذية للانسان عند استخدامها ، فقد يعتبر أستنزاف الاكسجين من المياه

(1) Weinstein, S., Health in the City., Vancouver, Canada. 1979.

تلوثاً لان المياه مصدر الثروة السمكية وأستنزاف الاكسجين يعرض الاسماك الى الخطر .

ولا شك أن الشحوم ومخلفات المصانع والنفط هى أهم مصادر التلوث وحين تحطمت ناقلة البترول « تورى كانون Torrey Canyon » فى مارس ١٩٦٧ وأحدث الانفجار دويا هائلا وغطى منطقة هائلة من مسطحات المياه ، ولقد كانت هذه الناقلة محملة بـ ١٢٠ ألف طن من النفط وأنتشرت بقعة التلوث فى منطقة تبلغ حوالى ٣٢٠ كيلو٢ على طول المسطحات المائية جنوب غرب شواطىء انجلترا وتكلفت عملية انقاذ الشواطىء واذابة النفط بالمواد الكيماوية حوالى ٢,٥ مليون جنيه استرلينى وترجع خطورة التلوث بالنفط الى الخوف من اندلاع الحرائق وأنتشارها على سطح الماء حيث يغطى الجالون الواحد من النفط حوالى ١٥٠٠ م٢ ، وتؤدى تكوين هذه الطبقة الى قلة وصول الضوء الى المياه التحتية مما يكون له أثره على استهلاك الاكسجين وعلى نمو الاحياء فى المياه ونشاط البكتريا الاكسوجينية الموجودة فى مياه البحار والتى تقوم بتحليل النفط بأعتباره من المواد العضوية الى عناصر أخرى يسهل أمتصاصها .

ومن مصادر تلوث المياه مخلفات المصانع ونفايات المدن .. ومن المشاهد أن التجمعات البشرية والتكتلات الحضرية تميل الى التركز حول المجارى المائية كالانهار وشواطىء البحار وغالبا ما تلقى نفايات المدن فى هذه المياه وتقلل من نسبة الاكسجين وتغير من محتويات المياه ورائحة التلوث من كثرة ما يلقى فى هذه المياه من عوادم وقمامة الى جانب قذف محتويات أنابيب مجارى الصرف الصحى .

وقد تسقط الامطار الملوثة بالغازات والذرات والاتربة العالقة فى الغلاف الجوى فى مساحات كبيرة من شمال شرق الولايات المتحدة وأوربا الغربية وأختلطت مياه الامطار بأحماض الكبريت والنيتريك مما أدى الى التلوث وكثرة المخاطرة التى تهدد صحة الانسان(١) .

---

(1) Coggin, P.A., Technology and Man, Suridon. England. 1986.

بحيرات ميّتة :

تعتبر بحيرة ايرى بالولايات المتحدة من البحيرات التى تتسم بضحالتها وهدوء التيار فيها وينتظم من حولها مجموعة كبيرة من المدن الصناعية مثل ديترويت وكليفلاند وبفلو وغيرها من المدن الصناعية التى تقذف بمخلفاتها الصناعية فى قاع البحيرة ، وأدى تراكم الملوثات الى الاخلال بالتوازن البيئى وأستنزاف الاكسجين فأعلن الايكلوجويون أن بحيرة ايرى بحيرة ميتة بيولوجياً وأصبح من الصعب تنقيتها من الملوثات حتى تستعيد البحيرة تكاملها الايكلوجى الطبيعى ، والواقع هناك بحار وبحيرات أخرى ليست أضيق حالا من بحيرة ايرى حيث تبطىء المياه بشكل واضح وبحركة شبه ميته أو راكدة فى كثير من مناطق مياه متشجن . كما يتميز بحر البلطيق بمياهه شبه الراكدة حيث تطل عليه سبع دول صناعية كبرى ، فتحول بحر البلطيق الى « محيط صحراوى » تخلو منه كل مظاهر الحياة المائية بأستثناء بعض البكتريا اللاأكسوجينية Anaerobic .

ولقد أصبح من المناظر المألوفة والشائعة على طول السواحل المواجهة للمدن الصناعية كثرة اللآفتات التى تحذر من الصيد ومن الاستحمام No fishing - No swimming ففقدت الكثير من الشواطىء أهميتها السياحية والترفيهية والاقتصادية نتيجة لتلوث مياه البحر . وفى مؤتمر عقد عام ١٩٧٦ تحت اشراف الامم المتحدة لانقاذ البحر الابيض المتوسط من التلوث حيث أعلن المؤتمرون وحذروا من أنه لو أستمر معدل التلوث الحالى لمياه البحر المتوسط فلسوف يتحول بعد ٣٠ أو ٤٠ سنة الى بحر من البحار الميتة/ ويمكننا بالتخطيط العلمى السليم أن نتخلص من مشكلات التلوث حتى تعود البيئة الى حالتها الطبيعية ، بعد ضبط التلوث بأشكاله والقضاء على مصادره وخلق البيئة الصحية المتوازنة والنظيفة وذلك عن طريق تقليل عادم السيارات ، لتنقية هواء الجو بتقليل الملوثات ، وتحسين نوعية البيئة الحضرية ، وازدياد ارتفاع المداخن فى المصانع التى تعمل بالفحم . وتقليل استهلاك البترول عن طريق تحريم قيادة السيارات الخاصة يوم الاحد ويمكن القضاء على مصدر كبير من مصادر التلوث بتصنيع النفايات ، لايجاد موارد جديدة أقتصاديا ولتقليل نسبة التلوث ، حيث يجب أن ينظر الى النفايات على أنها موارد غير مستغلة .

We have to look at pollutions as unused resources.

وللقضاء على تلوث الهواء ، يمكن تخطيط المدن تخطيطا علميا ببناء وأقامة الحدائق العامة وزيادة المساحات الخضراء حول المدن الصناعية ، لان النبات مصدر هام من مصادر الاكسجين كما أنه يستهلك ثانى أكسيد الكربون .

طبيعة التلوث :

وفيما يتعلق بطبيعة التلوث ، نجد نوعين للتلوث فهناك « التلوث الطبيعى » و « التلوث الصناعى » ، أما عن التلوث الطبيعى فيوجد على نحو تلقائى فى البيئة وتنتشر فى الهواء والماء والتربة مثل الفيروسات والميكروبات[1] ، والجراثيم والكائنات الدقيقة ، والفطريات التى تحيط نفسها بخيوط تكون مستعمرات فطرية Fungal colonies[2] ، ولا شك أن هناك الكثير من الكائنات والميكروبات القاتلة والفطريات السامة التى تنتشر فى البيئة وتنجح فى اصابة الانسان والحيوان .

هذا عن التلوث الطبيعى ، أما عن « التلوث الصناعى » ، فيختلف كلية عن هذا النوع من التلوث لانه تلوث صادر بفعل الانسان وأفرازات الصناعة والتصنيع والكيماويات وعوادم المصانع وبقاياها ، وأثر كل ذلك بنسبة تركيب الهواء وتفاعله مع الماء والتربة ، وبسبب هذا النوع من « التلوث الصناعى » بالمعنى المعاصر ، مشكلات كبرى بالنسبة للمجتمعات الرأسمالية والصناعية ، بالاضافة الى كل هذه الانواع من التلوث الطبيعى للماء والهواء هناك نوع آخر من التلوث هو تلوث الصوت .

ولقد تعرض الانسان لكثير من الاخطار نظرا للتلوث Pollution الذى ينشأ عن بقايا الصناعة ، وبخاصة ما يتعلق بالمعامل والتفاعلات الكيمائية وتراكم الزيوت والشحوم فى مياه البحار والانهار ، فيكون له أثره على الثروة السمكية ، وتزايد نسبة الغازات السامة مما يكون له رد فعله أيضا فى تركيب الهواء وعلى مجموعة الغازات التى يتألف منها غلاف الفضاء الخارجى للكون العظيم .

---

(١) دكتور محمد رشاد الطوبى ، صراع مع الميكروب ، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٤ .

(٢) دكتور عبد المحسن صالح ، الفطريات والحياة ، دار القسم ١٩٦٤ القاهرة .

ولكل هذه الاسباب مجتمعة ، صدرت دراسات الحفاظ على البيئة Conservation of environment مما فرض على علماء الطبيعة والبيولوجيا والحيوان والنبات تنسيق الجهود واعداد الخطط لدراسة طبيعة التلوث وأعراضه وأمراضه ، بالاضافة الى دراسة مصادره وبيئاته وطرق مكافحة الملوثات ، مما يدخل فى اطار علم تنمية البيئة Ecodevelopment . ويقصد بالبيئة كل ما يتصل بما يقوم عليها من نشاط انسانى ، فى المجال الصناعى ، والزراعى ، والتعدينى ، والجيولوجى ، والبيولوجى . وكل ما يعالج شئون البيئة علميا وطبيعيا واقليميا وبشريا وجيومورفولوجيا Geomorphology كالغلاف الصخرى Lithosphere وسطح الارض ونوع التربة أو الطبقة الرسوبية أو السطح الجليدى ، وتتصل دراسات التلوث أيضا الى جانب كل ذلك ، بالغلاف الهوائى أو Atmosphere والغلاف المائى Hydeosphere .

هذا عن مصادر التلوث ، أما عن طبيعة التلوث ، فقد تكون كيمائية أو بيولوجية ، وتوجد هذه الامراض بكثرة كنتيجة لتلوث البيئة الطبيعية نظرا لتزايد السكان وأزدحام المواصلات وكثرة الشاحنات وسيارات النقل الكبرى . كما تتزايد نسبة التلوث مع كثافة التصنيع والعمران وتدهور المواد الطبيعية « ولنمو مناطق التوطن » على حساب المساحة المزروعة ، مما يسبب الاضرار الاقتصادية ، وينبغى كحل لهذه المشكلات اعداد مقالب خاصة فى الصحراء أو خارج المدن ، لإلقاء مخلفات المناجم وبقايا المصانع والمحاجر والقمامة وبقايا المنازل .

ولعل التوسع فى إستخدام الوقود Fuel ، يعتبر من المصادر الجوهرية لتلوث الغلاف الجوى ، حيث ينتج مختلف أنواع الغازات التى تنجم عن إحتراق البنزين والسولار ، والفحم ، ورقائق الكربون Carbon ، مما ينشأ عنها الإصابة بالكثير من الأمراض ، فمعظم هذه الغازات سام وقاتل ، حيث ينجم عن إستخدام البترول ومشتقاته ، وكيفية تكريره وإستخراجه وتصديره ، غازات ضارة مثل أكسيد الكبريت Sulphur dioxide وما يصدر عن الأحماض Acids من أبخرة وسموم .

كما أن التوسع فى إستخدام المبيدات الزراعية Insecticides والأسمدة الكيمائية قد يؤدى بدوره إلى تلوث التربة ، وبخاصة حين تكتسب الحشرات المناعة ضد

معظم المبيدات ، مما يكون له أثره على تلوث النباتات والترع والأنهار والبحيرات ، مما يفقد البيئة كثيراً من الثروة السمكية ، وقتل الزرع والضرع والطير والحيوان . ولا شك أن تلوث المياه Water Pollution يؤثر على الصحة العامة ، حيث تتلوث مع المياه والنباتات الطبيعية ، وتتعرض المحاصيل للآفات والأمراض ، مما يؤدى الى تلوث الغذاء Food Pullution كما يقل الانتاج الحيوانى .

ولقد ثبت أن زيادة إستخدام الاسمدة الصناعية ، فى زراعة الموالح ، إنما تقلل من نسبة الفيتامينات فى مركباتها ، نظرا للنضج المبكر للفواكه والخضراوات . الامر الذى معه ينبغى التقليل من نسب إستخدام المبيدات ، وإستعمال الاسمدة الكيماوية وبخاصة فى بساتين الفاكهة وحقول الخضر .

تلوث الصوت :

ومن أهم مصادر التلوث فى المدن الصناعية الى جانب تلوث المياه والهواء هناك ما هو أهم وأخطر هو تلوث الصوت ، فلا يستمر من يشاهد البيئات الصناعية والورش الصغيرة ولا يستطيع البقاء مدة طويلة مع الطرق على السندان الذى لا ينقطع وطنين المحركات الذى لا ينتهى ، وفى كل المدن الصناعية لا تتوقف صفارات المصانع عن الصفير . ويستمر أزيز دوران الاعمدة والسيور وتمتزج هذه الضجة مع فرقعة الانوال وحفيفها ، وصياح العمال وضربات المطارق .

وتدل التجارب الخاصة بالصوت التى أجريت فى شيكاغو فى ثلاثينات القرن العشرين على أنه لو وضع لمقادير الصوت ما يرتبها ويقيسها فى ترتيب متدرج فى وحدات نسبية تصل الى مائة فى المائة ، وهو مقدار الصوت كاملا و « عاليا » كصوت قصف المدافع الذى من شأنه اذا أستمر مدة طويلة أن يدفع بالمرء الى الجنون ، فأن مقدار الضجة فى الريف يقل عنه فى المدينة حيث تتراوح فى الريف ما بين ثمان وعشر درجات ويبلغ مقدارها فى الضواحى الحضرية خمس عشر درجة وفى المناطق السكنية خمسا وعشرين درجة وفى المناطق التجارية ثلاثين فى المائة ، أما فى المناطق الصناعية ، فيبلغ مقدار الضجة خمسا وثلاثين فى المائة[1] .

(1) Whyte, W.H., The Exploding Metropolis, Double day and Co. Garden City. N.Y. 1985.

وهناك ردود أفعال قوية قامت بها المدينة الصناعية ازاء تلوث البيئة وأضرار الحضارة ومفاسد التحضير وفى مقدمتها ما يتعلق بالصحة الوقائية والصحة العامة مثل مقاومة الاوبئة وصب أنابيب المجارى للصرف الصحى من الخزف المصقول وسبك أنابيب من الحديد لصرف مخلفات الانسان فى أماكن بعيدة ، وأستحداث الامصال الواقية من تفشى الملاريا والكوليرا والتيفود وسل الكلاب .

ولقد ظلت السيارة سادرة فى تلوث الهواء أكثر من نصف قرن من الزمان دون أن يبذل مهندسوها أى مجهود جدى لازالة أول أكسيد الكربون السام الى درجة عالية ، على الرغم من أن أستنشاقه لبعض مرات فى حالته النقية ، انما يودى بالحياة . ولم يصلوا حتى الآن الى إزالة المواد التى لم تحرق ، وهى مواد قابلة تساعد على إنتاج « الضباب الدخانى » الذى ينتشر مع أزدحام السيارات وسط المدن .

واذا كنا قد أشرنا منذ قليل الى ضرورة التنمية الصحية للمناطق الريفية والقروية ، واننا بصدد تنمية المدن ينبغى الاهتمام بالحدائق الحضرية العامة وزراعة الخضرة فى الميادين الكبرى لانها ضرورة صحية وجمالية ، فالحدائق والميادين على حد تعبير « كاميللو سيتى Camillo Sitte » هما رئتى المدينة اللتين أدرك الناس حديثا أهميتها وبخاصة عندما أفتقدوا وجودهما. فأستقر الوضع عند نهاية القرن التاسع عشر على أن يكون لكل منزل ولكل أسرة « مرحاض خاص » ودورات صحية تتصل بأنابيب الصرف العامة مع ضرورة تقليل الازدحام واستعمال الاساليب التقنيةTechnique الحديثة فى مستقبل المدن الصناعية والحضرية حتى تقل نسبة التلوث فى البيئات المزدحمة وفى التكتلات الحضرية .

ضوضاء المدينة :

ويرى خبراء النفوس وأطباء البشر أن من أمراض البيئة الصناعية وتلوث الصوت Sound Pullution مثل الضوضاء Noise وأثرها على أعصاب السمع ، لتضخم حركة المرور ، مما يسبب ضجيج المدينة وعجيجها الصادر من صوت السيارات وأزيز الطائرات وحركة الآليات والشاحنات الكبرى فيجب الكشف عن هذه الآليات ، وأعطاء شهادة ضوضاء Noise certificate لها[١] .

(١) الدكتورة عايدة بشارة « دراسات فى بعض مشاكل تلوث البيئة » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

وتتأثر الضوضاء بنوع الثقافة السائدة ، وهناك صور وأشكال من الضوضاء فى الثقافة الحضرية كضوضاء المدينة ، كما نجد فى الثقافة الصناعية ضوضاء المصانع والآلات الزراعية والجرارات ، وماكينات رفع المياه وأدوات الرش وطحن الغلال .

وتنشط الضوضاء الجهاز العصبى وتثيره ، وتزيد من سرعة النبض ، وأفراز مادة الادرنالين التى ترفع من نسبة السكر فى الدم ، مع أرتفاع الضغط ، وقد تؤدى الضوضاء الى ايجاد حالة من الكآبة لمدة طويلة ، كما تؤدى الى الاصابة بالقرحة أو اختلال الغدة الدرقية كما وتعمل على اختلال عمل القلب نفسه . الامر الذى معه ينبغى ، وضع حد لاستعمال آلات التنبيه ، بالنسبة للسيارات والمركبات وصيانتها ، والاشراف الجدى والمجدى ، مع الانضباط وسيولة الحركة للمرور من أجل ضبط ضوضاء المدينة وبناء المطارات بعيدا عن العمران وبزيادة مساحة الشوارع والحدائق مع تشجير المنتزهات فى المدن الصناعية ، واقامة المصانع فى الضواحى البعيدة ، خارج المدن ، ونقل « ورش اصلاح السيارة » مثل « ورش السمكرة والخراطة وخدمات الموتور » الى مناطق بعيدة عن الاحياء السكنية خارج العمران الحضرى .

ويدرس علم الاجتماع المهنى Sociology of Occupation سوسيولوجيا السلوك المهنى بتخيلاته وآماله ، وآثار المهنة على نفسية العامل ، وردود أفعالها الحركية والآلية والجسمية واليدوية التى قد تسبب « الشلل المهنى »[1] الذى يصيبه بالقلق ، كما ويؤثر على سمات شخصية العامل ، وعلى ظروفه أثناء حياته العملية ، وعلاقاته اليومية من خلال « خياله الصناعى » وتصوراته الطبقية والمهنية ، وهل يمكن تنميط ثقافته الصناعية والفنية وسلوكه المهنى وضبطه فى ضوء ما يترتب على التنبؤات Predictions الخاصة بالسلوك المهنى وميكانيزماته .

وعلم سوسيولوجيا المهن Occupational Sociology هو أحد الفروع المتخصصة فى علوم الصناعة ؛ الذى يدرس التنظيم الصناعى ، وأثر المهنة على شخصية العامل ، وأسلوب الادارة والسلطة فى البناء الصناعى . وبالاضافة الى كل ذلك يعالج علم سوسيولوجيا المهن سائر مشكلات تقسيم العمل ، مع دراسة

(١) حالة فتق أو تشنج عضلى ، تسبب الشلل وعدم الحركة .

تقسيم الحرف الفنية ، والمهارات المهنية ، والصناعات اليدوية الدقيقة ، فهناك مهارات سمعية وبصرية ولمسية ، وكلها « حركات ماهرة » أو « مهارات حركية » وفنية تنجم عن الخبرة الضرورية فى كل عمل أو حركة مما قد يؤدى الى « شلل مهنى » أو إلى أية أمراض مهنية[1]

وفى علوم الاجتماع الاقتصادى والصناعى والمهنى ، يؤكد سملزر Smelser على دور التخصص المهنى أو ما يسميه بالادوار المهنية Occupational Roles[2] وهى أدوار تنفيذية أو منفذة Excutive Roles وضرورية فى عملية الانتاج ، حيث يعمل « بناء المصنع » على وجود حساسيات خاصة فى علاقات العمل ، بين العمال ورؤساء العمل Foremen وبخاصة بين صغار مهرة العمال Low Skill Workers ، كما يؤكد سملزر أيضا على تأثير السلطة والتنظيمات الرسمية وغير الرسمية Formal and Informal Organization على كم الانتاج وكيفه .

ويطرق علم الاجتماع المهنى ، بالاضافة الى كل ذلك ، ميادين أخرى مثل التنمية الاقتصادية والتوطن المهنى ، وتلوث البيئة ، بحيث يعمل مخططوا الانتاج وترشيد الصناعة واقتصادياتها فيرفع كل تخطيط من « مستوى الرعاية الطبية » خوفا على صحة العامل ونفسيته . لانهما يؤثران فى توجيه زيادة أو نقصان « كم الانتاج الاجمالى » ومعرفة مؤشرات نوعه وكيفه ، وتنمية طريقته وتحسين ظروفه .

وهناك أمراض للمهن ناشئة عن البيئة الحضرية وما يعتريها ويتوافر فيها من عناصر التلوث الضارة مثل « الكلورين » و « الامونيا » و « حامض الفوسفوريك » و « المتيان » وتسبب جميعها السرطان حين تتكاثر وتملأ الجو فتهدم العناصر الحيوية التى تفتك بعناصر الحياة وبكل كائن حى فترتفع معدلات الوفيات .

ولقد حاولت مابيل بوير Mabel Buer أن تُبرِّئ ساحة الانقلاب الصناعى من تهمة « خلق الآفة الحضرية » ، فقامت بدراسة ما حدث من نقص فى معدلات

(١) يحدث هذا المرض نتيجة للاضطرابات النفسية ، فيفقد العامل القدرة على التحكم فى العضلات ويتعرض لهذا المرض الاداريين من الكتابيين وعمال الطباعة والساعات . ويعتبر الشلل المهنى هو حالة فتق التشنجات العضلية . التى تنتج عن تواتر وتكرار العملية المهنية وتشابه نمط الحركة الصناعية . انظر فى هذا الصدد دكتور صلاح عدس ، الطب الصناعى وأمراض العمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(٢) Smelser, Neil., The Sociology of Economic life, Printice-Hall, p. 72. 1963.

الوفيات قبل سنة ١٨١٥ ، ولقد حدث هذا قبل الافراط فى الازدحام وسوء المسائل الصحية الوقائية وتحصين السكان .

وفى أهم مدن أنجلترا وألمانيا نجد الطابع الحضرى الجديد حول مناجم الفحم كتجمعات حضرية طارئة ، ولقد أطلق « باتريك جيدس » على هذه التجمعات أو التكتلات الطارئة اسم « التكتل الحضرى Concentration » لانه لم يكن معروفا فى المجتمعات الحضرية ولا التقليدية كما أن مثل هذه التكتلات والتجمعات الحضرية الطارئة لم تكن معروفة أيضا فى المجتمعات البدوية والصحراوية حيث تقل الكثافة الى حد بعيد .

ولقد خيم الظلام فوق «مدينة الفحم» اذ تمشى عليها السواد وأصبح هو لونها السائد من كثرة تصاعد الأبخرة وسحب الدخان الكثيف الاسود الناجم من أحتراق فحم الكوك والذى تشاهد أدخنته الكثيفة فوق مداخن المصنع، كما أن الاتربة والرماد وسحب الدخان كثيرا ما تتصاعد حول محطات السكك الحديدية التى تشق قلب المدينة بينما تدب الشاحنات الهائلة فى شوارعها فى كل مكان فعمت وسائل النقل بضجيجها الذى معه تزداد نسبة التلوث كما كانت رائحة ما يتسرب من الغاز المحترق تعم المناطق الذى كان يطلق عليها «مناطق بيت الغاز» فأصبحت هذه المناطق أكثر أقسام المدينة تدهورا نظرا لشموخ صهاريج الغاز التى معها تتمزق أحشاء المدينة وتتلوث طبقات الهواء فوق أجواء المدينة مما يؤكد هيمنة المصالح الصناعية والاقتصادية والمشروعات العملية على كل احتياجات الحياة منذ بداية التحضر الانشائى . وكان ستار الدخان السام قد حل فى المدن الكبرى منذ عهد بعيد بل وقبل استخدام البخار فى القرن الثامن عشر .

وفى أجواء المدينة الحضرية تتكاثر الابخرة السوداء حول فوهات المداخن والمعامل والمصانع حتى أحالت الجو الى شكل رمادى غامق ممتلىء بالبخار المشبع بالدخان والاتربة ، وفى « ليدز » أحالت الاصباغ السوداء نهرها الى مجرى داكن وسام تناثرت فيه بقع الزيت والشحم غير الذائب ، وأمتزجت فى هوائها جزيئات الحديد المتطايرة من عمليات التجليخ والشحذ واللحام فى ورش البيئات الصناعية[1]

(1) Weinstein, S., Heulth in the City., Vancouver, Canada, 1979.

فلا يستطيع الانسان العادى أن يستخدم مياه البحار أو الانهار فى البيئات الصناعية الملوثة كما يتصاعد الكلورين غير المستعمل من مصانع الصودا ، مما يكون له أثره الضار والمهيج للاغشية بتأثير سحب الغبار المتصاعد مما يؤلم العين ، ويخدش الحلق والرئتين فتضعف صحة البدن ، ومع تصاعد رائحة دخان الفحم وغبار مصانع الاسمنت ، تتبلد الحواس ويفقد الانسان حاسة الذوق ومع كثرة فترات الضباب الدخانى « Smog » لا يستطيع الانسان العادى التمتع بتقدير أو تمييز الروائح الذكية .

الادارة والصحة المهنية :

يعتبر علم الصحة المهنية Vocational Hygiene ، أحد فروع علم المهن وسوسيولوجيا المهنة ، حين يدرس تلك الآثار الجانبية التى تترتب على أحتكاك العامل بالآلة وبأتصاله المستمر بجو المصنع الفيزيقى ، ومناخه الاجتماعى والنفسى ، ومدى خبرة العامل واستخدامه للآلات والادوات ، إما على نحو سليم ورشيد أو على نحو لا يتبع الاسلوب العلمى مع توجيه العامل التوجيه السليم فى أتباع والتزام قواعد « الامن الصناعى » .

وفيما يتعلق بالصحة الصناعية ، تكلم « أدوارد ولن Edward Wellin » عما يسببه بالصحة القروية Rural Hygiene ، مما يفهم معه أن الصحة المهنية ، إنما تنقسم الى قسمين أولهما فرع ثقافى ومتخصص يتسل بالصحة المهنية القروية Rural Vocational Hygiene[1] بينما يتصل الثانى بالصحة المهنية الصناعية Industrial Vocational Hygiene بمعنى أن طبيعة الثقافة التى يعيش فيها الانسان الفرد ، إنما تملى عليه مهنته التى يمكن أن يمتهنها فتحدد له أنماط الثقافة مهنته وتختار له حرفته التى يحترفها ، فالثقافة وسماتها وأنماطها ، إنما تميل الى تحديد بعض التفضيلات المهنية للانسان الاقتصادى أو الصانع Homo Faber .

ويقول « ستيفن بوكس Steven Box » و « أستيفن كوتجروف Stephen Cotgrove » فى دراستهما عن « الاختيار المهنى Occupational choice and

(1) Wellin, Edward., Water Boiling in a Peruvian Tom., Article in, A Reader in Culture Change, Volume, Iz bylvan Brady and Bary Isaac; Cambridge. p. 231. 1975.

selection » أن الاختيار السليم[1] للمهنة ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، إنما يؤدى بالطبع إلى تحقيق التوازن ويساعد على قيام « بناء سيكلوجى صحى » ، وهذا ما تؤكده دراسات الصحة النفسية Mental Hygiene ، وقد يتعرض العامل المهمل مثلا ، لخطر الشرر الناجم عن سرعة حركة الآله ، فى عملية قطع وتهذيب وخراطة المعادن . فينبغى وقاية العامل صحيا ، وتعليمه مهنيا ، وتدريبه صناعيا وفنيا . كما يجب أن يحترم العامل طرق الوقاية ، كما هو مطبق فى اجراءات الامن الصناعى ، حتى لا يقع تحت مخاطر أصابات العمل .

أما من ناحية المطلوب من الادارة ، وبخاصة المسئولين عن التنظيم الصناعى ، نجد أن « تعليم العمال » وتدريبهم وتثقيفهم وتعويدهم العادات الصناعية والمهنية السليمة وتغيير الظروف الفيزيقية للعمل ، حتى تحمى العامل من شرر الآلات المتطاير الذى قد يصيبه بأصابات قد تكون بالغة ومؤلمة وبخاصة اذا ما أصيبت عيونه بالقذى المتطاير من اللحام فى أنسجة وأغشية العيون ، مما يكون له مضاعفاته السريعة ورد فعله ونتائجه الضارة التى قد تصل به الاضرار الى درجة الاصابة بعاهة العمى وفقدان البصر كلية .

ومن هنا صدرت قواعد الصحة المهنية Vocational Hygiene وأتباع تعليمات الامن الصناعى وأجراءاته ، وأدواته اللازمة ، والتى تختلف بأختلاف المهن والصناعات والشركات والمؤسسات الصناعية ، ولقد ثبت بصفة نهائية فى علم الاجتماع المهنى ، أن المهنة أو الحرفة مهما بلغت درجة بساطتها أو تعقدها ، إنما تتمايز وبخاصة فى وظائفها الاجتماعية وردود فعلها الجسمية والفيزيقية والعضوية ، وبالاضافة الى تشوهات المهنة نفسها وأضرارها الطبية ، هناك تشوهات مهنية نفسية ، بمعنى أن يكون لكل مهنة بصماتها النفسية ، وردود فعلها التى تضطرب معها شخصية العامل وسلوكه العصبى ، حين تسيطر المهنة على أنماط تفكيره وعاداته وسماته الثقافية العامة .

وللتخصص المهنى عيوبه وحسناته حيث يقلل التخصص الصناعى من

(1) Box Steven and Stephen Cotgrove, Occupational Choice and Selection., Article from: Restivo, Sol., Christopher, K. Vanderpool., Comparative Studies in Science and Society U.S.A. pp 174-177. 1974.

تكاليف الانتاج ، كما ويزيد من أنتاجية العامل ، ويوفر وقته وجهده وتدريبه ، حتى يحقق المهارة المطلوبة ، وبالرغم من ذلك فللتخصص الصناعى عيوبه ، مثل « الملل الروتينى » « وآلية التفكير » ، « وضيق الافق » والخوف ، والتوتر والانزعاج ، من تغيير طرق الانتاج والعمل .

حل مشكلة العوادم والمخلفات :

بالاضافة الى أن التلوث إنما ينشأ عن مخلفات المداخن الضخمة ، وعوادم المصانع والسيارات ووسائل النقل . تنتج انجلترا الآن نوعاً من الوقود الصلب الذى لا ينبعث عنه دخان عند احتراقه Smokeless Solid Fuel ، وتستخدم أنواع هذا الوقود فى مراكز الصناعة البريطانية ، حتى تصبح «مناطق خالية من الدخان Smokeless Zones .

وتعتبر مشكلة تلوث الهواء فى الولايات المتحدة ، أهم مشكلات الاقتصاد الامريكى نظراً لإنتشار غاز « ثانى أكسيد الكبريت » ، حين يتساقط مع مياه الامطار ، فتتلوث البحيرات والانهار ، كما تتلوث الاسماك وتصبح ضارة ، بل وخطرة على حياة الإنسان[1] .

كما ويحدث فى المدن الصناعية الكبرى ، أن تزداد حركة النقل والمواصلات ، الأمر الذى تزداد معه نسبة عوادم السيارات ، التى تنشأ عنها مجموعة من المخلفات Emissions أهمها أول أكسيد الكربون والرصاص . فقد تتحد ذرة أول أكسيد الكربون مع ذره أكسوجين نتيجة لعدم إحتراق الوقود ، فيتكون من إتحاد كل منهما أن ينتشر الغاز السام مع هيموجلوبين الدم Haemoglobin ، مما يكون له أثره الضار مع الإخلال فى تركيب الدم ، فيعوق أداء وظيفته البيولوجية .

تلوث المعامل العلمية وإجراءات الامن الصناعى :

هناك إجراءات خاصة ، وبرامج معينة ، يتبعها خبراء الامن الصناعى فى علاج مشكلات التلوث فى المعامل العلمية ، فهناك الكثير من إصابات العمل التى يتعرض لها العاملين والفنيين فى المختبرات العلمية والمعامل ، من أثر الاحماض وما

(١) الدكتورة عايدة بشارة « دراسات فى بعض مشاكل تلوث البيئة » الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ .

ينتج عن « المتفاعلات الكيماوية من غازات وأبخرة ، فقد تنشأ الأمراض الصدرية والتهابات الجهاز التنفسى ، من استنشاق رقائق الغبار المتطاير من المواد الكيماوية « كالجير المطفى » . وحامض الهيدروكلوريك Hydrochloric acid له طبيعته الغازية ، التى يمتاز بها ، ويؤدى تطاير غازات حامض الهيدروكلوريك إلى الالتهاب الرئوى واحتقان الجيوب الأنفية ، والأضرار التى قد تكون بالغة لأغشية العين . ويلزم إستخدام وسائل الأمن الصناعى ، كالتهوية اللازمة ، واستخدام الاقنعة والنظارات الواقية لحماية الرئة والعين . وبالنسبة للصودا الكاوية ، ينبغى إستخدام « القفازات الواقية » لحماية « الأيدى والأصابع » ، بل ولحماية البشرة نفسها من الالتهابات الناتجة عن الصودا الكاوية وكلوريد الحديديك .

ولحماية الأجهزة العلمية فى المعامل والمختبرات ، ينبغى أن تتوافر عناصر الصيانة والمتابعة ، والخدمة المستمرة . فقد تحتاج بعض الأجهزة إلى تطهير وتعقيم ، أو حتى إلى تشحيم إما لتشغيلها وضبطها ، وإما لصيانتها من أجل طول عمر الآلة أو الجهاز ، ومن عمليات ترشيد إستخدام الأدوات الكهربائية ، كاستعمال « خلاط كهربى » ينبغى ضرورة تشحيم العمود الأساسى الذى يقوم بالحركة الدائرية ، داخل كل « موتور » ، وبالنسبة لحفظ الكيماويات ، مثل الكحول الابيض والاحمر ، فينبغى أن يوضع فى أماكن خاصة خوفاً من الحريق عند تسرب غاز الكحول فى الجو ، ولذلك تحفظ زجاجات الكحول الابيض ، وكذلك غاز الأثير فى ثلاجة خاصة ، أما الكحول الاحمر ، فيحتاج إلى أوعية محكمة وسليمة .

وقد تكون الأسلاك الكهربية مكشوفة أو غير معزولة داخل المعامل ، فإن الابخرة الواردة من تفاعل الكيمائيات والمواد الملتهبة القابلة للتطاير ، وإذا ما التقت بأسلاك عارية ، أثناء مرور التيار الكهربى ، فقد تتكون الرواسب على جدران الاسلاك ، مما يتسبب عنه « الماس الكهربى » ، الذى يؤدى بدوره إلى إشعار الحرائق التى قد تقضى على المعمل بكل أجهزته الباهظة الثمن . ونتيجة لإستخدام طرق التخزين غير العلمية ، هناك مخازن تحت الارض ، غير جيدة التهوية ، حيث يحدث الاشتعال الذاتى ، بمساعدة وجود المواد الملتهبة ، وإرتفاع

درجة الحرارة ، فيكون ذلك هو السبب المباشر لوجود الحريق الذى قد يدمر المخزن أو الشركة كلها .

وما يعنينا من كل هذا ، هو أن برامج الامن الصناعى وإجراءاته إزاء تلوث البيئة ، هو عملية إقتصادية ضرورية ، لمنع إتلاف المواد وتسرب الوقت الضائع دون عمل أو جهد .

ومع ظاهرة الضياع Waste تتتابع الواجبات والاختصاصات وتتعارض الاوامر ، والادارات الفردية ، بسبب حضور الطاقات المحدودة . وفى هذا المعنى يقول « جانت Gantt » قد يستمع الناس للكثير من القول ، ولكنهم لا يتعلمون سوى بعض أشياء ، ولا يتبعون إلا ما يروقهم من توجيهات ، ويعرضون عما عداها .

وتدرس الإدارة الرشيدة ، العناصر البشرية ، وطاقاتها وإمكانياتها ، حتى يشكل الإدارى سلوكه على النحو الذى يراه معقولا ومقبولا عندهم ، وعليه أن يفوز بتقديرهم لسلوكه ، وعندئذ يستمعون إليه ، ويتبعون إرشاداته . ومن مهمات « الإدارى الناجح » ، إصدار « القرار Decision » ، وتوجيه الاوامر Orders اليومية ، ومناقشة سائر قرارات الجماعة Group decides ، وربطها بالقرارات النهائية ، حتى تحقق الاهداف Goals الخاصة بالانتاج ، ومن مهمات الادارة « القيادة » و « التخطيط » Planning والتسويق والامن Safety ، وكل شئون إختيار الافراد سواء فى الصناعة والتدريب Training ، أو الحوافز والمكافآت والتعويضات ، بالاضافة إلى ضرورة إهتمام الادارة العليا بطبيعة رجال الإدارة المتوسطة Middle managers[1] .

ومن أمتع ما قرأت عن الإدارة الصناعية Industrial management كتاب « يوجين بنج Eugene Benge » الذى أصدره تحت عنوان How to manage for to-morrow? ، حيث يؤكد الكتاب على ضرورة التخطيط لحل مشكلات الإدارة فى المستقبل ، أو من أجل الغد For to morrow على حد تعبيره ، حيث يدين المستقبل دائماً لمن يخطط له ويفكر فيه ، كما تشير عبارته المشهورة القائلة Future belongs to those who think about it ويدرس الكتاب نماذج التنظيم

(1) Benge, Eugene, How to manage for to-morrow? U.S.A. pp. 212-215. 1975.

والمناشط Organization ، وتوزيع المسئوليات Responsibilities ، والسلطات Activities[1] . بالاضافة الى اطلاق التنبؤات عن بيئة المستقبل To-morrow environment ومديرى المستقبل To-morrow's managers مع دراسة أهمية العنصر البشرى كعامل أساسى فى عملية الإدارة والتنمية فى ضوء النظرة الجديدة لوظائف العمل A new look of business functions فلابد أن يتعلم المدير المرونة ، ويمارس كل خطوات ومشكلات العمل ، ويقوم المدير الناجح ببعض المهام الضرورية حتى يمكن أن « يمشى عمله To make a business go » ، حين ينبغى أن يتعلم كل مدير مستحدث ماذا يفعل ؟ وماذا يعرف ؟ وحين يغير من نفسه ، ومن معرفته من أجل نجاح العمل . « وزيادة الانتاج بالحوافز والمكافآت » Incentives and compensations .

وتزداد فرص النمو المتاحة للادارة Management بصورة فجائية ، وعلى نحو هائل ، مع إزدياد تقدم التكنولوجيا والتصنيع ، الامر الذى يحتاج الى الإدارة الجديدة ، وإلى « روح نقية » من نوع خاص ، كما يحتاج إلى تصورية تتمشى مع هذا التغير الصناعى الهائل .

ولا شك أن النمط الإدارى الجديد The new type of managers سوف يحتاج إلى نظرات متجددة ، ومحاولات جريئة لاقتحام المشكلات ، وعلاجها على نحو علمى ، بالتخطيط والتنظيم والإدارة . وإذا كان رجل النهضة The Renaissance Man هو قائد التغير فى القرن الخامس عشر ، فإن القرن العشرين هو مبعث «المدير العصرى » الذى يسمى « رجل التنظيم Organization Man » الذى ينهض بالاقتصاد والتكنولوجيا ، فتقوم نهضة العصر التكنولوجى الحالى على أكتاف قائد جديد ، هو مدير المؤسسة العصرية ، ويجب علينا أن نشكل المستقبل We must shape the future ز حتى لا ندع هذا المستقبل أن يتحكم فينا ، ويشكلنا الزمان كما يريد ، وإنما يدين المستقبل دائماً ويخضع لمن « يخطط له ويفكر فيه » .

---

(1) Ibid: p. 229.

مخلفات البتروكيماويات :

إذا ما أشرنا إلى أثر التلوث فى البيئة الصناعية ، لوجدنا أن أهم مشكلات التلوث الصناعى ، هى ما تفرزه مصانع الصباغة و « السماد » من مخلفات ضارة ، ولقد وجدنا أن أهم مشكلات التلوث فى المصانع والورش التى قمت بدراستها فى البيضا والحرير الصناعى ، هى مشكلات صحية وبدنية تتعلق بالتهوية وبالتنفس ، وتناول الاطعمة فى أماكن ملوثة بالكيماويات الضارة ، فتستخدم الاقنعة الواقية للتنفس الصحى « وقفازات الايدى » ، وغيرها من أدوات الامن الصناعى .

وهناك خاصية جوهرية وكيمائية تتعلق بعنصر الرصاص Lead ، وتظهر هذه الخاصية ، حين تضاف مادة « التترائيل Lead tetraethyl » إلى خام البترول ، لكى تزيد من سرعة احتراقه ، أو حتى تتيسر ميزة كيمائية تتصل بسهولة الاحتراق Smoother ignition . ولقد وضعت حكومة السويد قيوداً على نسبة الرصاص فى البترول ، حتى لا يتراكم فى الجسم فيحدث التسمم الذى قد يفقد الإنسان حياته . وهناك محاولة علمية مؤداها إضافة عنصر آخر للبترول لكى يحل محل الرصاص ، ويستمر معدل الأوكتان Octane العالى فى البترول ، وقد لا تضاف مادة التترائيل Tetraethyl التى تساعد على سهولة الاحتراق ، فتقل نسبة الاحتراق الداخلى وينقص عدد الكيلومترات التى تسيرها السيارة فى احتراق الجالون الواحد .

ويتنبأ خبراء الصناعة ، بظهور إرتفاع مفاجىء فى سعر البترول حين تفتقد مادة التترائيل Tetraethyl الرصاص ، إلا أنهم يقولون مع ذلك ، أنه فى المدى الطويل سوف يتسبب الوفر الاقتصادى ، حين يطول عمر موتور السيارة ، لأن مادة الرصاص تعمل على زيادة نسبة الرواسب ، أثناء عملية الاحتراق الداخلى للموتور ، الأمر الذى تتراكم فيه رواسب تترائيل الرصاص على موتور السيارة ، فيقل عمره . وينتج عن ذلك عدم كفاءة الموتور ، كما يسبب الخسارة فى أهم أداة من الأدوات الرئيسية فى السيارة .

ولقد ثبت أن احتراق السولار وزيت البترول ، فى تشغيل سيارات النقل والقطارات والصنادل الملاحية ، إنما يؤدى إلى وجود التلوث فى الهواء ، فتتكون سحابات الدخان الأسود التى تملأ الشوارع ، ولقد منعت الحكومة اللبنانية منذ فترة طويلة ، إستخدام أى وقود آخر غير البنزين ، حفاظاً على جو بيروت وجمال لبنان السياحى بجبالها ومناخها الممتاز ، فمن أجل تحقيق برامج سياحية فى المجتمعات الصناعية ، ينبغى التغلب على تلوث الهواء . ويتم ذلك بالقضاء على مخلفات الاحتراق الداخلى لتشغيل موتورات الديزل التى لا يتم تشغيلها إلا بإستخدام السولار ، كما يجب إصلاح موتور السيارة نفسها ، حيث أن الحالة الجيدة للسيارة ، إنما يقل معها نسبة الوقود المحترق مما يقلل أيضاً من نسبة العادم المنبعث منها ، ولذلك تهتم وزارات السياحة بضرورة تشجير المدن الصناعية ، لتنقية الجو ، وخاصة فى العواصم المزدحمة بالسيارات والمكتظة بالسكان .

ويفكر علماء الصناعة والهندسة والثقافة الأمريكان فى بعض شركات السيارات الأمريكية ، فى إنتاج « سيارة جديدة » يمكن تشغيلها « بوقود كهربائى » بدلا من البنزين ، وربما يكون ذلك عن طريق إستخدام « القوى النووية » إلا أن إرتفاع نسبة التكلفة هو الحائل الوحيد دون إستخدام مثل هذه البدائل فى تشغيل موتور السيارة . وتقوم حكومة إيطاليا بمحاولة تخفيف حركة المرور فى روما ، بجعل وسائل النقل الحكومى بالمجان ، حتى لا يحتاج أصحاب السيارات الخاصة بالضرورة إلى ملكية السيارات ، فيقل عدد السيارات ، وتقل بالتالى نسبة تلوث الهواء .

وفى مصر ، وهى بلد سياحى ممتاز ، يمكن بعد إنتاج كهرباء السد العالى ، إستخدام سيارات الترولى باس ، والتوسع فى صناعة الترام والقطارات الكهربائية ، حتى تصبح وسائلنا سهلة ميسرة ، متوفرة ، مما يجعلها إقتصادية ورخيصة السعر . ولذلك يمكن اقامة محطات « القوى الكهربية » فى القرى والمناطق الزراعية ، حتى يمكن الاستفادة منها فى تشغيل الصناعات القروية لتنمية الريف ورفع غلة الفدان والتعجيل بتطوير الزراعة ، وتصنيع الخضر والفاكهة .

الفصل الرابع عشر

وطأة الحضارة ومشكلات الشخصية

* تمهيد
* الثقافة والكائن العضوى
* شعار التيار الجديد
* تعميمات وقضايا
* نمط الثقافة والتركيب الدينامى للشخصية
* الحضارة وأنحرافات الشخصية
* أمراض الانسان فى البناءات الصناعية

تمهيـــد :

يمكننا أن نتساءل أولا وقبل كل شيء ، ما هي أهم مشكلات الثقافة الحضرية ؟ وما هو أثر الثقافة الحضرية على مكانيزمات الشخصية ؟ وتحت وطأة الصناعة وضغوط التكنولوجيا الخانقة إلى أى حد يكون للحضرية رد فعلها المباشر على التركيب الدينامى لشخصية الانسان الفرد[1] ؟

كل هذه مسائل نعالج فيها مسألة الثقافة وانحرافات الشخصية ، وندرس أهم المشكلات الحضرية وأثرها فى تفكك أو عدم تكامل السمات فى شخصية الانسان الحضرى الذى يحاول أن يتكيف مع أيكولوجيا المصنع .

ولا شك أن كل انسان انما تكون له استعداداته واستجاباته وردود أفعاله فى كل موقف من المواقف[2] . ويكتسب الانسان الجديد فى كل خبرة تزداد معها حدة الرغبة فى التكيف ، مع أنعاش عملية الاعداد النفسى وأثرها فى صقل الشخصية ، بأضافة الجديد مما تكتسبه من سمات .

ولكل انسان شخصيته ، مهما بلغت من القوة والضعف وليس هناك من يفقد شخصيته الا فى حالة واحدة ، هى حالة الموت ، حيث يترك « الميت » كل ما تحمله شخصيته من ثقافة وسمات ، لان شخصية الانسان الحى هى الحامل الوحيد لثقافته ، ولذلك يهتم علم الاجتماع الحضرى بحاملى الثقافة ودراسة أثر الثقافة على شخصية الانسان الفرد .

الشخصية وحامل الثقافة :

لقد تعالت الصيحات فى هذه الايام تطالب بدراسة « حاملى الثقافة » والاهتمام فى نفس الوقت بالشخصية كمقولة أساسية من المقولات « السوسيو ثقافية Socio Cultural » الامر الذى فرض على علماء الثقافة أن يصبح مصطلح « الثقافة والشخصية » هو أحدث وأهم المصطلحات السوسيولوجية الدارجة فى الدراسات الثقافية المعاصرة .

---

(1) Linton, Ralph., The eultural Buckground of Personality., 1947.

(2) Parsons, T., Personality and Social Structura., Glen. III. The Free Press. pp. 61-80. 1951.

ويعالج الاستعمال المعاصر لمصطلح « الثقافة والشخصية » سلسلة مترابطة من المسائل التى تتردد على علم « النفس » و « الاجتماع » و « الانثروبولوجيا » بالنظر إلى أن مسائل « الثقافة » انما تضطرنا قسرا إلى ميادين علم الاجتماع والانثروبولوجيا، على حين أن سائر الدراسات التى تدور حول « الشخصية » انما تدخل بالضرورة فى نطاق « علم النفس الفردى » و « علم النفس الجماعى »[1] .

ولذلك فان كل نظرية عن الشخصية ، لا تصدر عن علوم الثقافة والتحليل النفسى والانثروبولوجى ، هى نظرية ضعيفة الاساس ، خاوية المحتوى . حيث أن الشخصية هى مجموعة من الدلالات التى تكشف عن طبيعة البشر . ولا شك أن الطبيعة البشرية هى طبيعة مرنة ومتغيرة وقابلة للتبدل ، ومن هنا كانت الشخصية كمجموعة دلالات ، هى متغيرة ومتطورة بأعتبارها « نتاج أجتماعى Social Product » وبأعتبارها أيضا « نتاج تاريخى Historical Product » ، ومن المجتمع والتاريخ تنبع المصادر الحضارية والثقافية لمكونات الشخصية الانسانية ، فالحضارة هى مبعث اتزان الشخصية أو قلقها ومصدر مخاوفها وأمرضها .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هناك ثقافة تدلل الطفل ، وأخرى تفرض عليه سلطة وقهرا . بمعنى أن الثقافة لها منهاجها وأسلوبها فى صب الشخصية فى قوالب معينة بالذات . فيتعلم الطفل الهندى من قبيلة الغراب Crow أن يكون كريما ، ولكنه يتعلم الشح والبخل فى قبيلة يوروك Yorok ، بينما يتلقن العجرفة والكبرياء فى قبيلة الكواكيوتل Kwakiutl .

ففى كل ثقافة نجد مجموعة من القواعد السلوكية التى يطبقها الآباء بأسلوب خاص . ففى الثقافة البروسية يميل الفرد إلى أن ينظر إلى العلاقات الإنسانية من زاوية السلطة Authority ، لسبب بسيط جداً ، وهو أن حياته العائلية كلها قامت على السلطة ، فالثقافة تصب الشخصية فى قوالب المثل العليا للمجتمع . فاذا جىء بطفل روسى إلى أمريكا ، فإنه سيتحول إلى أمريكى فى مراحل الرشد والنضج . حيث يتصرف ويفكر وفقا لأنماط الثقافة الأمريكية . إذ أن الشخصية أيا كانت هى نتاج « التعلم » ، فيسير النمو الطبيعى أو البيولوجى جنباً إلى جنب

(1) Sorokin, Culture and Personality., N.Y. Harper of Brothers, 1947.

مع النمو الاجتماعى طبقاً لعمليات التعلم المقررة ثقافياً ، إذ أن التربية ظاهرة حضارية .

من مالينوفسكى حتى كلوكهون :

لقد ربط مالينوفسكى بين أنماط الثقافة ، وحاجات الإنسان البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . وأبرز عالم الثقافة الأشهر « كليد كلوكهون Clyde Kluckhohn » أهمية الأسس البيولوجية Biological Foundations التى إليها يستند مجموع قيم الإنسان ومهاراته ، باعتباره الصانع الوحيد لثقافته وقيمه .

وقصد مالينوفسكى بمفهوم « الحاجات » ذلك المعنى الاجتماعى أو المضمون الثقافى ، بالنظر إليها على أنها « نسق الشروط الضرورية System of necessary conditions بالنسبة لحياة « الجماعة Group » أو « بقاء الكائن العضوى Organism » .

فالحاجة تفرض على الإنسان القيام ببعض الجهود والأعمال ، التى تظهر أمامنا فى ظواهر أو وقائع Facts ، حين تتخذ هذه الأفعال والأعمال أثناء تطورها على مر الزمان ، أشكالا من النزوع أو صوراً من السلوك تفرضها الحاجة ، فتتحول إلى عادات اجتماعية Habits ، مستندة أصلا إلى دوافع بيولوجية Biological Motivations ، وتنتقل تلك العادات التى تتوارثها أجيال البشر عن طريق التربية والتلقين ، بمعنى أن الثقافة تلقن من جيل إلى جيل ، باعتبارها مجموعة من الاستجابات المتعلمة Learned Responses

وفى كل صورة من صور النزوع أو السلوك الثقافى ، نجد « دافعا » يؤدى الى « فعل Act » ، ويفضى الفعل فى النهاية الى حالة من الطمأنينة أو « الرضى Satisfaction » .

فهناك دوافع أساسية تستند إلى حاجات ، مثل الحاجة الى التنفس ، والحاجة الى الطعام والشراب بدافع الجوع أو العطش . والحاجة الى الراحة بدافع إزالة التعب .

---

(1) Firth, Raymond., Man and Culture., Routledge, London p. 33. 1957.

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فان الحاجة الى التنفس ، تجعلنا نقوم « بعمل خاص » ، هو عملية الشهيق والزفير ، بادخال الأوكسجين إلى الرئتين وطرد ثانى أكسيد الكربون من الأنسجة ، وهنا تحدث حالة من « التوازن البيولوجى » للقيام بهذه الوظائف الضرورية لحياة الكائن العضوى .

وتلك هى الحاجات الأساسية Basic needs للكائن العضوى ، من حيث هو كائن بيولوجى أو فيزيقى يندرج تحت نوع من أنواع الحيوانات الراقية .

وهذه الحاجات الأساسية ، هى فى واقع أمرها جماع « الشروط الضرورية » لحياة الكائن العضوى ، وبقاء الزمر ودوام الجماعات .

إلا أن ما يعنينا فى هذا الصدد ، هو أن كل تلك الحاجات الأساسية ، إنما يقابلها مجموعة من الاستجابات الثقافية Cultural Responses ، فهناك مثلا بعض العمليات الفسيولوجية ، مثل عملية التمثيل الغذائى Metabolism ، بإستحالة المواد الغذائية فى خلايا وأنسجة الجسم ، ومثل عملية التناسل Reproduction ، وهى عملية فسيولوجية بحتة ، تقابلها بعض صور من الاستجابات الثقافية ، مثل تكوين الأسرة Family ، تلك التى يترتب عليها وجود نظم معقدة ، مثل نظام الزواج والملكية والتبنى والميراث ، وكلها تدخل فيما يسمى بالنسق القرابى Kinship system[1] .

وهناك الحاجة إلى الراحة الجسمية ، وتقابلها استجابة ثقافية ، تتمثل فى البحث عن « المأوى » سواء أكان هذا المأوى يتمثل فى صورة « كهف » أو « سرداب » أو « خيمة » أو « كوخ » وكلها أشكال للاستجابات الثقافية لإشباع الحاجة إلى المأوى وتحقيق الراحة الجسمية وإزالة التعب .

أما الحاجة إلى الأمن فتقابلها استجابات ثقافية ، تتحقق فى محاولة القيام بالحماية أو الدفاع عن النفس ، سواء عن طريق الدفاع الذاتى ، أو عن طريق الدخول فى حماية الآخرين ، أو قد تتحقق الحاجة إلى الأمن فى الدول المتحضرة فى ظل « سيادة روح القانون » التى تفرض وتسود عن طريق وسائل اجتماعية

(1) Ibid: p. 35.

وتشريعية ، مثل هيئات التشريع ، ورجال الضبطية القضائية ، وفرق الأمن والخفر والبوليس .

وبالاضافة إلى كل ذلك ، هناك الحاجة إلى الحركة Movement وتقابلها استجابة ثقافية ، تتمثل فى القيام ببعض المناشط الجمعية Collective Activities تلك المناشط التى تتصل بالجوانب الأيكولوجية والنواحى الاجتماعية .

وجملة تقول : إن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على العمل Labour ، وعلى صنع الثقافة ، ومواجهة البيئة الفيزيقية الخالصة ، حيث أن التكيف البيولوجى Biological Adjustment مع البيئة هو ما يسمى فى علوم الأنثروبولوجيا باسم « الثقافة » .

فالتطور العضوى الذى يصاحب نمو الأعضاء ، مثل ذلك التغير الذى يطرأ على شكل الأطراف كالأيدى والأرجل ، إنما يتصل بالضرورة بالتطور الثقافى للمجتمعات الانسانية ، يمعنى أن التطور العضوى ، إنما يتجه ويتمشى فى نفس الوقت مع التطور الثقافى . الأمر الذى معه نستطيع أن نؤكد أن « للثقافة » قيمة « بيولوجية Biological Value » ، وتتعلق هذه القيمة بضرورة فيزيقية ، هى بقاء الكائن العضوى ودوام الجماعة الإنسانية .

وتنتقل سمات الثقافة فى مجتمعات الإنسان عن طريق « التربية Education » ، حيث لا يستطيع الحيوان أن ينقل ثقافته إلى صغاره ، فالحيوان لا ثقافة له ، فان أنثى الأسد مثلا ، تلك التى تتعلم الكثير من الحركات من مدرب الوحوش ، لا تستطيع أن تعلم صغارها هذه الحركات أو أن تلقنها تلك التدريبات المدروسة ، إذ لا يمكنها أن تنقل هذه الحركات المدربة إلى أشبالها الصغار[1] .

ولقد كان مفتاح الدراسة لنظرية مالينوفسكى فى الثقافة والكائن العضوى ، يتمثل فى فكرة « المستوى الثقافى للمعيشة Cultural Standard of Living » ، حيث أن الإنسان ككائن مثقف ، إنما يقضى حاجاته بأساليب مختلفة طبقا للامكانيات الاقتصادية التى تقدمها البيئة والمجتمع[2] .

(1) Ibid: p. 37.
(2) Ibid: p. 40.

ففيما يتعلق مثلا بتناول الطعام ، هناك فارق بين من يتناول طعامه بيديه وأصابعه ، وبين من يأكل مستخدما ملعقة وشوكة وسكين ، وفقاً لآداب المائدة المعروفة فى « إيتيكيت » المجتمعات المتحضرة ، ومن هنا يتمايز المستوى الثقافى للمعيشة بين الإنسان الاسترالى البدائى ، وبين الإنسان العصرى المتحضر ، هذا المستوى الذى يحدد لنا ما نسميه اليوم باسم « أسلوب الحياة Style of Life » فالشخصية الانسانية Human personality ، عند علماء الأنثروبولوجيا الثقافية هى « صفحة بيضاء Tabula Rasa » ، تنطبع عليها كل « سمات الثقافة » تلك التى تفرض على الشخصية مجموع الملامح والخصائص العامة .

شعار التيار الجديد :

ويساير التيار الثقافى الجديد « شعار » أو « نداء » الثقافة والشخصية ، بالجمع أو التوليف بين مقولتى « الثقافة » و « الشخصية » مع الالمام بنتائج علوم السيكولوجيا والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا ، بمعنى أننا لكى نتابع الاتجاه الثقافى الجديد ، علينا أن نعالج الإنسان « كوحدة جشطالتية » متكاملة فندرسه « كفرد » له تكوينه الجنسى الفريد ، وله ماضيه البيولوجى فى تاريخ أسرته ، كما ندرسه أيضا « كذات » أو « كشخصية » لها مكوناتها المكتسبة من سمات البناء الثقافى كله .

ولسوء الطالع هناك بعض الصعوبات التى تعترض هذا التيار الجديد ، تتصل جميعها بمسائل ومفهومات منهجية ، ويشير « ليند Lynd » فى هذا الصدد إلى مشكلة منهجية خطيرة ، تتصل بجوهر الاتجاه الثقافى السيكولوجى الجديد ، حيث أثار « ليند » مشكلة « الثنائية Dualism » تلك التى تكمن فى صلب مصطلح « الثقافة والشخصية Culture and Personality »[1] .

وهنا يتساءل « ليند » عن وعورة الطريق وصعوبة الدراسة ، حين نبدأ بتركيز الإنتباه على الثقافة ثم دراستها بعد ذلك كركيزة سيكولوجية فى بناء الشخصية ، أم أننا على العكس ندرس « الشخصية » أولا ، فنعرف « الذات الاجتماعية » ، ثم

---

(1) Kluckhohn, Clyde & Mowrer., Cutture and Personality: A Conceptual Scheme. Reprinted from The American Anthropolgist. Vol: 46. 1944.

نشب منها إلى معرفة « سمات الثقافة » حين تتلون الشخصية طبقا للون الثقافة والحضارة والتاريخ ؟

ولا شك أن الخطى تتعثر إزاء هذه « الثنائية » التي تثير الصعوبات المنهجية. وإزاء هذه المسألة ، نحن أمام أمرين ، إما أن ندرس « الثقافة فى الشخصية Culture in Personality » وإما أن نعالج « الشخصية فى الثقافة Personality in Culture » الأمر الذى يثير الصعوبات ويخلق المشكلات ، فيختلط الأمر على الباحث ، وتضطرب فروضه ويتعثر بحثه حين يجمع مختلف المعطيات Donnés والوقائع .

ويذهب « كلوكهون Kluckhohn » إلى أن التعرف على الثقافة هو السبيل الحاسم لفهم الشخصية ، حيث أن الثقافة هى بعد رئيسى من أبعاد الشخصية . ويرى كلوكهون أننا إذا ما توصلنا إلى معرفة أنماط الثقافة ، فإننا نحرز بالضرورة كسباً وتقدماً فى معرفة سمات الشخصية .

ولكى يتفهم الباحث طبيعة الشخصية ، فإن المنهج الممكن الوحيد ، على حد تعبير « كلوكهون » هو تحديد المادة الكافية التى يمكن أن يحصل عليها الباحث بدراسته للقيم وفهمه للمنبهات والدوافع الاجتماعية ، إما عن طريق الاتصال والعلاقات الاجتماعية Social Relationship ، وإما عن طريق استخدام منهج المقابلة المضبوطة أو « المقننة Controlled Interview » .

وقد تتجلى سمات « الشخصية » وتتبدى ملامحها عند إجراء التجربة بعزل الشروط والمواقف التجريبية Experimental Situations ، كتلك التى نتوصل إليها مثلا بتطبيق المنهج الاسقاطى Projective Method . وبذلك تتكشف معالم الشخصية فى ضوء المواقف والدوافع Motives وظروف الحاجة Need . وهى معطيات ضرورية لتفسير الشخصية ، تلك التى يعرفها كلوكهون بأنها مجموعة من القيم والدوافع التى ندرسها باجراء العمليات الموضوعية والتجارب المعملية .

تعميمات وقضايا :

تأخذ كل النظريات العلمية فى اعتبارها دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف ، ولذلك ينبغى أن تفسر « نظرية الشخصية Theory of Personality » كل ما تتميز به الشخصية من تفرد أساسى Ultimate Uniqueness ، بحيث تتحدد فى الوقت عينه مختلف الوقائع الناجمة عن مشاهدة الفروق الفردية . تلك التى تفسح لنا الطريق لمعرفة سمات الشخصية .

واستناداً إلى هذه النظرة فى دراسة « الثقافة والشخصية » توصل كلوكهون إلى عدد من التعميمات Generalizations أو القضايا العامة ، كما يتضح فى النقاط الخمس الآتية :

١ ــ هناك بعض المحددات العامة Universal Determinants التى تبرز سمات الشخصية Personality Traits الخاصة بكل بنى البشر ، كالبواعث والقيم والدوافع الاجتماعية ، وهى عناصر ثقافية عامة تتميز بالكلية والشمول ، حين يتسم بها « الشخص » فى كل زمان ومكان ، فهى سمات كلية وعامة Universal Traits نحاول فى اطارها أن نحدد معالم الشخصية ، ومعرفة « حدودها العامة » فى كل زمان ومكان ، دون تمايز أو تمييز .

٢ ــ والقضية الثانية هى أقل درجة فى التعميم من القضية الأولى ، وتتمثل فى القول أو الحكم الآتى : يميل أعضاء أى مجتمع إلى أن يشاركوا بعضهم بعضاً فى « سمات شخصية » مشتركة ، ويسميها كلوكهون بالسمات المشتركة Communal Traits ، وقد يطلق على هذا النوع من التعميم المنخفض فى سمات الشخصية ، اسم « المحددات المشتركة Communal Determinants » .

٣ ــ ويتصل التعميم الثالث بطبيعة السلوك ، على اعتبار أن السلوك يتسم فى كل جماعة أو زمرة ببعض المميزات الثابتة والخصائص المحددة . فوراء كل سلوك « دافع » يصدر عن القيم الاجتماعية Social Values . وتلعب الدوافع والقيم الاجتماعية أدواراً بعينها تحدد لنا الكيفية العامة لسلوك الجماعة أو الزمرة موضوع الدراسة ، ويطلق كلوكهون على هذا « الدور الثقافى .

الذى تلعبه القيم والدوافع الاجتماعية فى تنظيم أنماط السلوك وتكوين سمات الشخصية اسم « محددات الدور Role determinants » .

٤ — وفى التعميم الرابع يقول كلوكهون : قد يختلف أفراد المجتمع الواحد ، وتتمايز سمات الشخصية ، على الرغم من تشابه البواعث والدوافع والقيم الاجتماعية التى تلعب نفس الدور . والسبب فى ذلك التمايز هو وجود بعض « السمات الفريدة Unique Traits » ، باعتبارها مجموعة من السمات النوعية التى تمتاز بها وتنفرد كل شخصية على حدة ، وتسمى بالسمات أو « المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants » ، وهى سمات تتصل بجبّلة الشخصية وطبيعتها . الأمر الذى يفسر لنا نوعيتها وتفردها عن غيرها من سائر الأنماط أو الشخوص طبقاً لمجموعة « المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants » باعتبارها سمات فردية تتميز بالحدود الخاصة الضيقة ، وهى ما تسمى أيضا بالحدود الفريدة أو الأصلية الخاصة بالشخصية موضوع الدراسة[1] .

٥ — وتتلخص القضية الخامسة والأخيرة فى التعميم القائل ، بأنه : قد توجد بعض « المشابهات Similarities » بين أفراد مجتمعات متباينة ومتمايزة ثقافيا . ويستنتج كلوكهون أن هذا التشابه فى نمط الشخصية رغم الاختلاف البين والبون الشاسع بين سمات الثقافة ، إنما يرجع إلى تشابه المحددات الفطرية Idiosyncratic determinants ، وتجانس السمات والعناصر الخَلقية الكامنة فى التركيب أو « البناء الأساسى للشخصية Structure essentielle de la personalité » . بمعنى أن السمات الفطرية هى عناصر أو مكونات خَلقية قائمة فى طبيعة الشخصية ، وكامنة فى جبّلة الانسان الفرد الأصيل . ومن ثم فإن هذه العناصر والمحددات الفطرية لا تلتزم بالمجتمع are not Society-Bounded ، حيث لا تتصل هذه السمات الفريدة Unique بالضرورة بوجود المجتمع وقيمته ودافعياته . ويعنى هذا أن تركيب الشخصية لا يقتصر على مجرد الاستعدادات الفطرية

---

(1) Kluckhohn., Clyde., Cullure and Personality. reprint Series in the Social sciences. Rep. from American Anthropologist Vol: 46. 1944.

والمورثات البيولوجيه ، وإنما يشتمل أيضا على المؤثرات الخاصة التي يتعرض لها الفرد خلال عملية النمو . فكل فرد يستجيب للمؤثرات البيئية المختلفة بطريقته الخاصة ، وهذا هو مجال « الذات » وأسلوبها فى تكوين ما يسمى « بالشخصية الأساسية » .

وفى ثقافة « سكان جزر الألور » فى أندونيسيا ، يخضع الفرد لمؤثرات غريبة وفريدة فى نوعها ، حيث تحمل المرأة العبء الأكبر من النشاط الاقتصادى ، فتعمل طوال النهار فى الحقول وزراعة الخضروات . الأمر الذى يفرض عليها إهمال رعاية الأطفال ، فضعف « دور الأم التربوى » الذى تلعبه فى بناء « الأنا » أو « الذات » وتكوين الشخصية . فهى لا تستطيع رعاية أطفالها إلا قبل توجهها إلى الحقول صباحا وبعد عودتها منها مساء . فكانت رعاية الطفل تنتقل إلى كبار الأشقاء أو الأقارب ، مما أدى إلى إنهيار أسلوب التربية والتكامل فى طريقة تدريب الطفل وتعليمه فضعفت « الأنا » ومرضت وأصبحت مفعمة بحالات القلق والحيرة .

وحتى الشعائر الدينية لا يمارسها « سكان جزر الألور » إلا بشيء من التردد وتحت ضغط الظروف والحاح الحاجة أو الضرورة ، فاتسمت العلاقة بين أفراد ثقافة الألور بالتوتر والريبة والشك . ومن السمات الأساسية فى شخصية الألور محاولة تفسير إنتشار المجاعة ، بحدوث زلزال أو وقوع كارثة أو فيضان ، فهم يقرنون الجوع كظاهرة فسيولوجية بكوارث الطبيعة ، كما لوحظ « ضعف الضمير » وتشابه البنية الداخلية لشخصية الفرد فى ثقافة الألور ، مما يقيم الدليل على إنعكاس طريقة التربية فى هذه الثقافة ، ووجود الصلة الوثيقة بين ضعف أو قوة الضمير ، وبين أسلوب التربية وعناية الآباء بالطفل فى مراحل الطفولة .

وما يعنينا من ذلك ، هو أن نمط الشخصية يرتبط بنمط الحضارة وسمات الثقافة ، حيث يحدد نمط الحضارة إطارات نمط الشخصية تلك التى تخضع لسائر العوامل الثقافية ، فسكان الملايو يصابون أحياناً بنوبة « حب القتل » وإزدياد مشاعر التعطش لسفك الدماء ، ويقوم بعض هنود كندا بإعتداءات تشبه محاولات « الكانيباليين » ، من أكلة لحوم البشر ، وفى ثقافة جنوب شرق آسيا ،

يعتقد الناس أنهم قد إنقلبوا وتحولوا إلى نمور كاسرة . وتنتشر الشيزوفرانيا Schizophrènia بين سائر الولايات الأمريكية ، وبخاصة بين الطبقات الدنيا[1] ، على حين تنتشر فى الثقافة الأرستقراطية فى أمريكا أمراض الهياج والكآبة وبخاصة بين الطبقات العليا . وفى « سومطرة » يصاب الناس بجنون الخنازير ، وهو مرض يؤدى إلى خلل فى الجهاز العصبى ، ومن مميزاته الهياج والتصرفات الشاذة التى تذكرنا بحالة السعار التى تصيب الكلاب الضالة .

نمط الثقافة والتركيب الدينامى للشخصية :

لا شك أن « نمط الثقافة Pattern of Culture » على ما تؤكده « روث بندكت Ruth Benedict » إنما يكون له رد فعله العميق فى تركيب سمات الشخصية ، تلك التى قد تضطرب وتهتز ، وقد يطرأ التغير على « محتوى الشخصية » خلال إحتكاك الإنسان بالآخرين . وأثناء تكيفه مع الثقافة التى يعيش فيها »[2] .

وقد تمرض الشخصية أو تنحل وتتفكك كما يؤكد علم النفس المرضى ، حين تعانى إضطراباً أو قلقاً نتيجة لعدم التكيف الثقافى ، مما يؤدى إلى إحداث خلل فى التوازن تحت وطأة أنماط الثقافة ، مما يكون له صداه فى سيكولوجية الإنسان الفرد ، وأثره فى « التركيب الدينامى للشخصية » .

وإستناداً إلى تلك الصلة الدينامية التى تصل الإنسان بثقافته ، وهى صلة تمتاز بالضرورة والحتم بل والتعسف ، حيث تظهر تحت وطأة الثقافة بعض الانحرافات التى تخلق الشخصية غير السوية ، وحتى إذا تكيف الإنسان مع بعض سماتها دون البعض الآخر يصبح « هامشيا Marginal Man » ، وقد تنتشر الأمراض النفسجسمية ، والاضطرابات السيكوسوماتيكية Psychosomatic disturbances ، وخاصة فى الثقافة الأمريكية ، وبين أفراد الطبقة الوسطى بالذات ، نتيجة للعدوان المكبوت Repressed agression ، ومن ثم تنتشر بينهم

(١) الشيزوفرنيا مرض نفسى يطلق عليه علماء النفس اسم « إنفصام الشخصية » وهو حالة نفسية مرضية تتميز بالجمود والانحلال العقلى ، فتضطرب الشخصية وينعدم التوازن بين الفكر والشعور .

(2) Kluckhohn, Clyde., Culture and Personality, Reprint Series in the Social Sciences, Rep., Vol: 46. 1944.

أمراض القرحة تحت وطأة الاحباط Frustration .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يتعرض اليابانى فى جزر هاواى لاضطرابات سيكولوجية كالهياج وإنحرافات فى المزاج كالكآبة ، وهى أمراض لا تصيب اليابانى الذى يعيش فى وطنه وثقافته الأصيلة ، فالهياج والكآبة وإنحرافات الشخصية ، جاءت كرد فعل ثقافى أو لتأثير سمات الثقافة الدخيلة على شخصية اليابانى الغريب . ومن العجيب أن تزول هذه الانحرافات المرضية بعودة اليابانى الى الجزر اليابانية ومغادرته لجزر هاواى .

ويصاب الزنوج من الأمريكيين بارتفاع ملحوظ فى ضغط الدم ، وهذا أمر غريب ونادر بين سائر زنوج أفريقيا ماعدا بعض أجزاء روديسيا وأفريقيا الجنوبية ، حيث تنتشر العنصرية والحواجز اللونية . فالزنجى الأمريكى محاط بثقافة الرجل الأبيض الأمريكى ، وهى ثقافة عنصرية خانقة بل وقابضة للنمو ومعوقة للذكاء ، الأمر الذى معه تنتشر الأمراض والانحرافات السيكولوجية بين زنوج أمريكا ، وتؤدى « شدة ضغط الثقافة البيضاء » إلى إرتفاع ضغط الدم بين أصحاب الثقافة الزنجية .

مما يؤكد لنا أن هضم الثقافة وإستيعاب محتوياتها بالتعلم والاحتكاك والتربية ، إنما يؤدى بالضرورة إلى تغير فى « التركيب أو البناء الأساسى للشخصية Structure essentielle de la Personalité » . وهذا هو السبب الذى من أجله تتغير طباع وأمزجة الشعوب نظراً لتغير « المحتوى الثقافى » والميول الحضارية السائدة ، ولقد استغل « يوليوس قيصر » هذا العامل الحضارى أثناء تعامله مع قبائل البرابرة من أجل خدمة ومصلحة روما .

ولقد ربط علماء الثقافة ، بين نظرية التكامل السيكولوجى ، وتحليل نظم الثقافة التكاملية ، تلك التى تتكون عند الطفل نتيجة تراكم خبراته المتعددة أثناء مراحل النمو الذكائى والاجتماعى ، فهناك تلازم حتمى ومفروض بين قطبى « الثقافة » و « الشخصية » .

فشعائر الدين مثلا ، هى مجموعة من الصور الدينية الحسية المنقولة إلى الطفل ، أثناء عملية التربية والتدريب ، فى البيت والمدرسة والمسجد أو الكنيسة .

حيث يترقى الشعور الدينى ، وتتضح التصورات الدينية ، و « يصبح مفهوم الإله متميزاً وعاماً » .

هذا عن نسق الدين بقيمه وأخلاقه ، وأحاسيسه العامة ، ولكن الطريقة التى يلتمسها الناس ويبتغونها فى القربة إلى الله وإستدرار لطفه وعطفه ورحمته ، إنما تختلف باختلاف الخبرة الدينية ، وتتمايز طبقا لشكل أو صورة الثقافة بدائية كانت أم متحضرة . فقد يقتصر المؤمن فى ثقافة ما على إلتزام الصبر والجلد طلبا للعون الإلهى ، وفى ثقافة أخرى قد يفرض الفرد على ذاته نظاما صارما يطهر به نفسه ليتقرب إلى الإله حتى ينعم بالرحمة والمغفرة .

ولا شك أن الثقافة إنما تفرض الخبرة والميل ، وتضع القيمة وتحدد المزاج ، وكلها أمور جوهرية فى التركيب أو البناء الأساسى للشخصية . وعلى سبيل المثال ، فان القلق السائد فى ثقافة « جزر الماركيز » ، إنما ينجم أصلا عن مشكلة الخوف من المجاعة ونقص المواد الغذائية ، فظهرت بعض النظم والقيم الخاصة ، للتعبير عن رد الفعل الثقافى الذى يتجلى فى مجموعة من الشعائر والطقوس الدينية . وفى ثقافة الماركيز تختلف ظروف الكبت الجنسى عنها فى الثقافة الأمريكية أو الأوربية ، حيث تزداد نسبة الذكور زيادة واضحة تصل إلى الضعف بالنسبة لعدد الأناث .

ويتضح أثر النظام الاقتصادى فى تركيب شخصية الفرد فى قبيلة « التنالا » . حيث كان النظام القديم فى تلك الثقافة يعتمد على انتاج الأرز والملكية الجماعية ، وتوزيع الناتج على أفراد القبيلة تحت إشراف السلطة الأبوية ، التى هى سلطة مطلقة ومستبدة ، طالما يشبع سلطان رب العائلة وحكمه المطلق حاجات الأبناء والأتباع .

وحين طرأ التغير على ثقافة التنالا ، تبدلت أنماط العلاقات ونظم الانتاج وتوزيع الملكية ، وأدخلت نظم جديدة لرى الأرز . وتخلى الأفراد عن مبدأ الملكية الجماعية للأرض ، وظهرت نظم الملكية الفردية حين إشتد التنافس على إمتلاك الأراضى . مما أدى الى انهيار التنظيم العائلى القديم . وإزدادت نسبة الجرائم ودبت الانحرافات فى النفس والعقل ، وإنتشرت أمراض أحستها دفعت طرق السحر والشعوذة .

وفى ضوء هذه الدراسات ، نستطيع أن نتعرف على مختلف النتائج التى نجمت عن أساليب التكيف القديمة والجديدة ، ومدى تأثير النظام الاقتصادى فى تركيب الشخصية ، وكيف تجابه الجديد بواجباته المرهقة التى لم تكن مستعدة لقبولها ، وإلى أى حد تتفجر حالات القلق والحيرة ، حين تتخذ الشخصية بعض الأساليب الدفاعية ، كالتنافس على الملكية وإستخدام السحر ، وإنحراف الأحداث وإزديادة نسبة الجريمة .

وفى قبيلة « الكومانش » نجد طرازاً متمايزاً من طرز الشخصية ، حيث تميزت هذه القبيلة بالحرب والغزو ، وكانت صفات الشجاعة والإقدام هى المطلوبة كى تتلاءم مع ثقافة الكومانش من أجل بقاء القبيلة والحفاظ عليها ، الأمر الذى تميزت التربية بين الكومانش ، بالحرية والديموقراطية وغرس مبادىء العدالة وإزالة الصعوبات إزاء نمو الشخصية أو تعويق تطور الذكاء ، مع تأكيد الذات وتشجيع الاعتزاز بالنفس ، وتدريب الطفل على الشجاعة والمروءة والاقدام ، وهى المثل العليا فى ثقافة « الكومانش » . ولذلك كانت معتقداتهم الدينية خالية من الشعور بالذنب أو العقاب لإرتكاب الآثام ، ومن ثم لا تظهر فى النسق الدينى عندهم أية شعائر للاستغفار طلبا لغفران الآلهة ، كما تشجع تلك الثقافة مظاهر « البطولة » و « الزعامة » ، وعلى كل من يحاول الإستيلاء على السلطة السياسية أن يقيم الدليل على بطولته وشجاعته .

محددات الشخصية :

حين نقوم بتحليل تركيب الشخصية ، يمكننا أن نحدد مختلف جوانبها ، وأن نشير إلى سائر مكوناتها البيولوجية Biological والثقافية Culturai والبيئية Environmental ، وهذه هى المكونات التقليدية التى تحيل الشخصية إلى تجريد Abstranction يستند إلى « تركيب صورى » .

ولا شك أن هذه النظرة الصورية للشخصية هى مفيدة حقا ولها أهميتها فى الدراسة العلمية التى تفرض علينا أن نقوم بعزل مكونات الشخصية ، كما تقتضى طبيعة البحث العلمى أن يحاول الباحث أن يفصل بين سائر جوانبها وأجزائها .

إلا أنّ عزل مكونات الشخصية هو « عزل ضرورى وصورى » تستلزمه الدراسة ، كما أن الفصل بين محتوياتها ، هو فصل بين مجردات يعتبر من ضروريات ومقتضيات البحث[1] .

وأكد كلاكهون على العناصر الاجتماعية والفيزيقية والمكونات البيئية والحضارية التى تسهم فى تشكيل سمات الشخصية . وهناك أشكال مختلفة من السمات والمحددات ، وهى المحددات العامة Universal determinants والمشتركة Communal ، والفطرية Idiosyncratic ، ومحددات الدور Role .

وفى ضوء كل هذه المحددات يحدث التكامل الوظيفى لكل سلوك يتعلمه الفرد أثناء قيامه بمختلف الأدوار Roles التى تتمايز مع تمايز الفئات الاجتماعية مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل ، تلك الأدوار التى تخلق الشخصية المتميزة ، حيث أن الادوار والمقاييس الخلقية ، بالاضافة الى مزيج مختلط من مجموع الأهداف والآراء والعادات ، وكلها جوانب أساسية تسهم فى تكوين الشخصية ، وذلك بفضل عملية الاعداد الاجتماعى Socialization ، وهى عملية سيكو إجتماعية تتكون بفعل النظم التربوية والتعليمية السائدة فى الثقافة والتى تنقلها الأسرة والمدرسة والمؤسسات الدينية كالمساجد والكنيسة . وعلى إعتبار أن الإعداد الاجتماعى هو العملية التى يتعلم فيها الفرد مختلف عادات مجتمعة ، وكيفية فهمه « لذاته » ومقدار تقييمه لها . كما يتعلم الإنسان الفرد أثناء عملية التطبع الاجتماعى ويلقى كل الأدوار التى يتحتم عليه أن يقوم بها فى ثقافته .

وفى عبارة مشهورة يقول « كلارك هل Clark Hull » يحدد لنا فيها منهجه فى دراسة الشخصية ، فيقول : « فى البدء كان الكائن العضوى Organism أولا ثم البيئة Environment ثانياً » بمعنى أننا طبقا لهذا القول ، ينبغى أن نبدأ أولا بدراسة الكائن العضوى ، حيث أن « التعضون » هو أقدم أو أسبق فى الوجود فينبغى دراسة شخصية الانسان ، من زاوية البناء الفيزيقى أو العضوى ، ومن وجهة النظر البيولوجية والتشريعية ، ثم نعالج « تركيب الانسان » من ناحية « البناء الاجتماعى » ومن وجهة النظر الاجتماعية والثقافية ، للكشف عن تلك الجوانب

(1) Kluckhohn., Clyde., Culture and Personality, Reprint Series in the Social Sciences, Reprinted from the American Anthropolgist' Vol: 46. 1944.

التى اكتسبها الإنسان الفرد من « البيئة » بكل ما يحويه من ظواهر إيكولوجية وأشكال مورفولوجية ومصادر تاريخية ، وكلها عناصر ثقافية وليست عضوية .

وإذا ما استخدمنا طريقة « كلارك هل » وكيفية فهمه لدراسة الشخصية ، فينبغى أن نبدأ أولا بتحليل عناصر وسمات الشخصية ، فبفضل التحليل نستطيع أن نضع أيدينا على تلك الاختلافات القائمة بين سائر الأفراد ، حيث ترجع الفروق الفردية Variations إلى ظروف الوراثة والتكوين البيولوجى ، وإلى شروط التكيف الاجتماعى ، بالاضافة إلى ضرورة توافر عوامل التوافق بالثقافة والانسجام مع كل الظروف البيئية والشروط الفيزيقية .

ويمكننا أن نميز فى هذا الصدد ، بين ثلاثة أشكال للبيئة ، وهى البيئة الطبيعية أو الفيزيقية Physical ، والبيئة الاجتماعية Social ، ثم البيئة الثقافية Cultural ، وهذا تمييز أو عزل صورى لسائر أشكال البيئة ، وهو أمر مفروض فى كل دراسة علمية ، ولذلك حاول كلاكهون أن يضع تصنيفاً لمحددات الشخصية كما نلحظ من الجدول الآتى :

المحددات	العامة	المشتركة	الفطرية	الدور
البيولوجية	الجوع ــ العطش الجنس ــ الولادة الموت	سمات العنصر Racial Traits الأمراض المتوطنة مستوى التغذية Mutrition level	السحنة ــ صفات القامة ــ وظائف الغدد وعملها	اختلاف السن والجنس التمايز الطائفى
البيئة الفيزيقية	الجاذبية الحرارة الزمن Time	المناخ علم تخطيط الأماكن والبلدان والملاجىء الطبيعية	الاحداث النوعية كالصواعق والظواهر الطبيعية الفريدة	الفروق فى حيازة المنافع المادية
البيئة الاجتماعية	رعاية الطفل Infant care الحياة الجمعية Group life	توزيع السكان Size الحجم Dens الكثافة	الاحداث الاجتماعية مثل موت الوالدين والتبنى	الزمن ــ الشلل الإنسان الهامشى Marginal Man
البيئة الثقافية	Symbolism الرمزية Taboo التابو القتل داخل الجماعة	التقاليد Traditions قواعد السلوك Skills المهارات	الفلكلور الآداب العادات الشعبية	الادوار المتفاضلة ثقافيا Cultural Differentiated Roles

ومن هذا الجدول يتضح لنا أن هناك قضايا أساسية ينبغى أن تكون ماثلة دائما للعيان ، وهى تتتابع كما يلى :

١ — إن الإنسان كائن عضوى ، تتوفر فيه بعض الخصائص المحددة التى يتميز بها وحده كمجموعة من الأجهزة البيولوجية .

٢ — الإنسان حيوان اجتماعى Social animal .

٣ — الإنسان حيوان ثقافى Cultural animal .

٤ — يعيش الإنسان فى عالم فيزيقى يخضع فيه لسائر القوانين الطبيعية السائدة فى العالم الطبيعى .

ومن الناحية البيولوجية ، نجد أن الانسان ككائن عضوى يتميز منذ ولادته بأعصاب حسية وحركية تتصل بالجهاز الشوكى والعصبى . ويمتاز الانسان أيضاً بقامة معتدلة ، فالأنسان كائن يمشى على قدمين ، ولا نجد إنسانا يمشى على أربع أو يأكل بثلاثة أيدى ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحيوان من الناحية التشريحية والعضوية ، باعتدال القامة وإرتقاء أجهزته الشوكية والعصبية ، كما تتوافر عنده « ثنائية الأبصار Stereoscopic Vision » وهى خاصية يمتاز بها الإنسان دون سائر الحيوان ، بمعنى أن اعتدال القامة واستخدام اليدين والمشى على قدمين وثنائية الأبصار ، كلها خصائص إنسانية ، وصفات ولادية بشرية .

وإذا كانت هناك بعض الفروق التشريحية التى تميز الانسان عن سائر الحيوان إلا أننا نلحظ فى الوقت عينه وجود الكثير من الخصائص الحيوانية عند سائر بنى البشر ، فإذا ما تميز الانسان عن الحيوان بالعقل واعتدال القامة و « ثنائية الأبصار » فانه يشاركه فى خصائص بيولوجية أخرى ، حيث يخضع الانسان والحيوان لنفس الشروط البيولوجية والظروف الفسيولوجية ، من ناحية الميلاد والتنفس والاغتذاء والاخراج .

ولكل من الانسان والحيوان حاجاته البيولوجية ، وهى حاجات ضرورية ملحة ، كالحاجة إلى الطعام والشراب ، والحاجة إلى الشريك الجنسى ، ويتعرض كل من الانسان والحيوان فسيولوجيا لعمليات النمو والنضج ، تلك التى تنتهى

أخيراً بالشيخوخة ، وفى نهاية المطاف ، تكون خاتمة الحياة واحدة ، حين يدرك الموت كل كائن حى على وجه البسيطة ، بما فيها ومن عليها .

هذا عن الانسان ككائن تشريحى عضوى ، وهو ما يميزه كلية عن الانسان ككائن أو حيوان إجتماعى Social Animal ، حين يخضع الأخير لبيئة فيزيقية وثقافية ، وعليه أن يتكيف مع ثقافته ومجتمعه ، ويعتمد على سائر الزمر والجماعات .

أما الانسان ككائن أو حيوان ثقافى Cultural Animal ، فانه يخضع للون خاص من الوان الثقافة ، وعليه أن يتكيف كلية ، وأن يتعلم كلية ، وأن يتعلم من مجتمعه سمات ثقافية ، وأن يلقن تقاليده وفلكلوره وعاداته ، وأن يتكيف ثقافيا مع كل ما يصادفه من « توقعات ثقافية محددة Culturally defined expectations » .

وجملة القول — يتكيف الانسان بالضرورة مع بيئات وبناءات فيزيقية ، وأخرى إجتماعية وثقافية ، وعليه أن يعايشها ويتوافق أو يتلاءم معها . ومن هنا يستند « التفسير » فى تحليل الشخصية إلى تلك المكونات الثابتة Constant . على أعتبار أن البيئة والمجتمع والثقافة هى خصائص عامة يخضع لها سائر البشر ، وهذه هى القضية الأولية ، أو المسلمة الجوهرية فى نظرية الشخصية Personality Theory .

وليس من شك من أن الانسان إنما يولد عاجزا ضعيفاً ، ويقف على قدميه قليل الحيلة إزاء العالم الخارجى ، ذلك العالم الذى يهدد بقاء الانسان ويتحدى وجوده ، ولولا طبيعة الانسان Human nature تلك التى تحقق تضامنه وتكامله فى تيار الحياة الاجتماعية . لا نقرض الجنس البشرى ، برمته ، لولا عملية التكيف التى تميز طبيعة الانسان .

ولكن التكيف الانسانى Human adaptation ، وإتصال الانسان بالعالم الفيزيقى الخارجى . إنه لا يعتمد فقط على مجرد طبيعة الحياة الاجتماعية Social life ، وإنما تعتمد ايضا على مكونات الثقافة Culture ، حيث توجد الكثير من

مجتمعات الحشرات وجماعات الحيوان وأسراب الطير ، إلا أنها تبقى أبداً « دون ثقافة » ،: على الرغم من حياتها الاجتماعية .

ففى المجتمعات الحيوانية والحشرية ، نجد ما يحدد فى صرامة أشكال النزوع وأنماط السلوك ، تحت ضغط الدافع أو الاستعداد الفطرى ، وتنتقل هذه الدوافع والاستعدادات وراثيا بواسطة البلازما Plasma والخلايا الجرثومية . على حين أن الكائنات العضوية الأخرى ، إنما تتعلم من التجربة أو الخبرة Experience فترتقى قدراتها وتنمو استعداداتها .

والانسان لا يتعلم من التجربة وحدها ، وإنما ترتقى قدراته باحتكاكه بالآخرين ، على ما يقول « رالف لنتون Linton » . حيث تعتمد كل مجتمعات الانسان فى وجودها وبقائها على ذلك الكم الهائل من التعلم المتراكم Accumulated learning الذى ندعوه بالثقافة Culture .

بمعنى أن ثقافة الانسان ، هى ذلك المستودع الذى يجد فيه الانسان مختلف الحلول الجاهزة Ready-made Solutions ، لشتى المشكلات والمصاعب التى يواجهها الانسان أثناء احتكاكه بالعالم الفيزيقى .

ولا تقتصر القدرة الانسانية على التعلم ، بل تمتد إلى تلقين وتعليم الآخرين واتصالهم بسائر المكونات العامة للثقافة ، ويتلقى الانسان من العالم الخارجى كل صنوف الحرمان Deprivation وألوان الاحباط Frustration من قسوة البيئة الطبيعية ، وما يتخللها من صعوبات أو يعتريها من عقبات فيزيقية ، كشدة الحرارة أو برودة الطقس . الأمر الذى يفرض على الانسان أن يواجه الطبيعة بما يدخره من « تعلّم متراكم » ، حيث يعود الانسان دائماً إلى هذا المستودع الثقافى الهائل ، كى «ينتقى منه مختلف الحلول الجاهزة » التى تمكنه من التكيف مع العالم الفيزيقى الصارم .

وحين ينتقى الانسان شيئاً من الثقافة ، يجد نفسه إزاء « عموميات Universals » و « خصوصيات Specialists » و « بديلات alternatives » .
والعموميات مفروضة على كل أفراد الثقافة الواحدة ، لأنها مشاركة عامة فى أنماط

السلوك والفكر والاستجابة ، بل وتحرص عليها الجماعة كل الحرص ، لأنها التعبير الجمعى عن تلك « الروح العامة » التى تشيع فى جوانب الثقافة ، والعموميات تتصل بكل ما هو عام كاللغة والدين والشعائر ومراعاة التقاليد وآداب السلوك والعادات التى تفرض ، ويعاقب كل من يخرج عليها .

أما « الخصوصيات » ، فهى عناصر ثقافية خاصة بزمرة أو طبقة ، ولذلك كان أغلب الخصوصيات « مهنى » أو « تخصصى » كالطب والتدريس والمحاماة والحدادة والنجارة ، فإذا كانت العموميات هى التى تعبر عن وحدة الثقافة . وهى عامل التكامل والتضامن ، فان الخصوصيات تبعث على التفاضل والتمايز ، حين تتفاوت طبقات المجتمع ويتباين تقسيم العمل فيه دون أن يتعارض ذلك مع أنماط الفكر والسلوك الشائعة فى المجتمع ، فإذا كانت العموميات هى التعبير عن التجانس الثقافى العام ، فإن الخصوصيات هى التعبير عن التفاضل والتجانس .

أما « البديلات » فتختلف كلية عن العموميات والخصوصيات ، وينتقيها الانسان كاستجابة لموقف من المواقف . فالموقف الواحد كثيراً ما يحتاج إلى أساليب مختلفة من أنماط السلوك الثقافى . تلك التى تحقق نفس الهدف ، وتشبع نفس الحاجة .

فإذا كان صيد الطير أو قنص الحيوان سمة ثقافية عامة . فإن ذلك لا يستلزم ضرورة الصيد أو القنص بطريقة معينة دون غيرها ، بل إن الصيد أو القنص قد يتخذ أشكالا متنوعة تختلف من عشيرة إلى أخرى ، بل ومن فرد إلى آخر فهناك فى سمة ثقافية عامة نجد عدداً من البديلات أو الأنماط السلوكية البديلة التى يمكن تطبيقها فى نفس الموقف الواحد لإشباع نفس الحاجة وتحقيق نفس الأهداف والأغراض ، لذلك تخضع هذه البديلات للتغير الدائم ، فقد تندمج البديلات فى صلب الثقافة إذا أثبتت جدارتها فى تحقيق الغرض وإشباع الحاجة ، وقد تزول بزوال تلك الجدارة أو الضرورة ، وقد تتعدل وتهذب كى تصبح أكثر توافقا مع الثقافة موضوع الدراسة . وتعتبر المستحدثات الجديدة كالأزياء والموضات وطرق التعليم والتربية التى قد لا تكون مقبولة فى أول الأمر قبولا جمعياً ، حيث تجد المقاومة ويختلف عليها الناس ، إلا أنها متى إستقرت وإكتسبت أنصاراً ، أضيفت إلى الثقافة وساعدت على نموها .

وجملة القول ، هناك سمات عامة للسلوك الإنسانى ، استناداً لأنماط ثقافية محددة بالذات ، يتعلمها الإنسان كى تساعده على حل مشكلاته . فالثقافة هى « سلوك متعلم » كما تمتاز ايضا بأنها تتراكم وتزداد بعملية نمو مستمرة خلال حركة التاريخ . ولما كان المجتمع هو الحافظ الأمين لثقافته وتراثه ، فكان من الضرورى أن تمتاز الثقافة إلى جانب خاصية التراكم بخاصة « الانتقال » والحركة عن طريق « التربية Education » كنظام أو نسق من أنساق البناء الاجتماعى ، يضطلع بمهمة أو وظيفة نقل التراث الثقافى من جيل إلى جيل . وعن طريق الاختراع تنمو الثقافة ، و « الحاجة هى أم الاختراع » الذى قد يتم بالمصادفة ، والاختراع مهما كان معقداً فهو ليس إلا « تركيب جديد من عناصر قديمة كانت موجودة » . وتحقق الاستعارة الثقافية عملية التقدم الثقافى ، وتنمو الثقافة عن طريق استعارة العناصر المادية كالآلات والأجهزة .

وبالإضافة الى كل ذلك ، فللثقافة وظيفة التماسك والتضامن بين شتى وحدات المجتمع وأجزائه ، ومن هنا كان « التكامل Integration » خاصية جوهرية بالإضافة إلى خاصية « التكيف » وهى الوظيفة الأساسية للثقافة برمتها ، حين تأخذ بيد الإنسان ، وتقدم له « الحلول الجاهزة » التى تمكنه من التكيف مع البيئة الفيزيقية القاسية .

ويمكننا أن نعتبر « الانسان الفرد » هو « حامل الثقافة » التى يقوم الأفراد بتوصيلها إلى غيرهم ، فتنقلها الأسرة ، وينفعل المجتمع بالثقافة الطارئة الجديدة ، حين تبدأ عمليات الصراع بين ثقافات أصيلة وأخرى دخيلة . واستناداً إلى هذه العملية الديناميكية فى انتشار الثقافة وحملها وإنتقالها عن طريق الأفراد من «حاملى الثقافة » يقال : « ان النمط الثقافى لا حياة فيه Lifeless » ، ويقوم الأفراد أو الأشخاص بنقل هذا النمط إلى الآخرين . بمعنى أن الشخص هو « حامل الثقافة Carrier of Culture » فالفرد أو الشخص هو باعث الحركة فى نقل الثقافة وباعث الحياة فى أنماطها .

وفيما يتعلق بأهمية شخصية الإنسان الفرد فى دراسة الثقافة ، يقال فى هذا الصدد ينبغى أن « نتفهم الفرد أو الشخص كما يعيش فى ثقافته » ، كما ينبغى أن

ندرس « الثقافة كما يعيشها الأفراد » .

«We must understand the individual as living in his culture, and culture as lived by the individuals».

ويعرف السلوك الثقافى إجتماعياً بأنه « نزوع » يعبر عن « حاجة » ويهدف إلى الاتصال بالآخرين ، فهو علاقة بين الفرد وأخيه ، وبين الفرد وزمرته أو ذويه ، ونمط السلوك ، هو ظاهرة متكررة ، يتناقلها الناس ، ويقتدى بها الأفراد ، حين يحاولون الإقتفاء بقوالب سلوكية يصبون فيها أشكال النزوع والسلوك . ويحاول عالم الثقافة أن يفتش عن «نمط السلوك» وأن يدرس تلك القوالب النزوعية العامة[1] .

وحين يدرس عالم الثقافة أنماط السلوك المنوعة ، إنما يدرسها على أنها أجزاء من العالم الطبيعى أو الفيزيقى Physical world ، ولا ينظر إليها على أنها مجموعة مفككة Unconnected من الظاهرات ، وإنما ينظر إليها على أنها سلسلة من الوقائع التى تنتظم أو ترتبط بنسق System ، وتقع فى رتابة واطراد Uniformity وتحدث فى انتظام Orderliness وتتوافر فى نمط Pattern .

ولا يشاهد عالم الثقافة حاضرة من الحواضر Metropolitan ، ولا يدرس مدينة من المدن بالنظر إليها على أنها « كتلة هائلة » من الأفراد ، أو مجموعة ضخمة من المبانى والمؤسسات الفخمة ، وإنما يدرسها كظاهرة حضارية باعتبارها « نسق منظم Ogarnized System » تتكامل أجزاؤه على نحو بنائى Structural وتتداخل انحاؤه وضواحيه فى إطار وظيفى Functional .

وحين نقارن حضاريا بين عدد من المدن ، فإنما نعقد المقارنات العلمية على أساس منهجى ، بالنظر إلى سائر الضواحى والأنحاء فى كل مدينة وخاصة مختلف المرافق العامة كطرق المواصلات ووسائل النقل Transportation كالسيارات وعربات الترام والتاكسى ، بالاضافة إلى دراسة عامة لتعداد السكان ودرجة الكثافة وعدد المصانع والمستشفيات والمدارس والمعلمين والأطباء والمهندسين والعمال[2] .

ويمكننا أيضا فى ضوء هذه الدراسة فى ميدان علم الاجتماع الحضرى ، أن نحدد

(1) Foskett, John M., The Social Sciences View., Printice-Hall p. 110. 1965.
(2) Ibid: pp. 112.

مختلف الظاهرات الحضرية ، كالانتحار واصابات العمل ، وحوادث السيارات ، وكل ما يتصل بالتأمين ومستوى العناية بالأمن الصناعى داخل بناء المصنع .

فحوادث السيارات مثلا « لا تحدث على نحو عشوائى Random » ، وإنما ترتبط بعوامل ثقافية وإجتماعية ، مثل عامل الجنس Sex وعامل السن Age بين السائقين ، كما يتصل الحادث أيضا بعناصر « الزمان Time » و « المكان Place » زمان ومكان الحادث ، وظروف السائق الاجتماعية والنفسية . كما قد يتصل بعامل أو دافع « الطبقة Class » أو « العنصر Race » إذا كان المجتمع ممزقاً طبقيا وإذا سادت الثقافة صراعات التفرقة العنصرية ، كما هو الحال فى الثقافة الأمريكية .

وهناك الكثير من العوامل الاخرى التى تتدخل فى زيادة أو انخفاض نسبة حوادث السيارات وتحدد شركات التأمين مختلف درجات التأمين Differential Insurance Rates بالنسبة لمختلف السائقين ، سواء أكانوا من الرجال أو النساء أو الصبية أو الشيوخ .

والانتحار على سبيل المثال ، لا يحدث على أنه حادث اعتباطى أو عرضى ، وإنما يحدث على أنه سلوك اجتماعى مرتبط بثقافة محددة ، كما يتصل بالدين والجنس والسن والحالة الزوجية . الأمر الذى يفرض علينا دراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية ، على أنها ظاهرة اجتماعية تلعب فى المجتمع نفس الدور الذى تقوم به الظاهرة الطبيعية فى العالم الطبيعى . بمعنى أن العالم الاجتماعى Social World هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة Nature . وهذه قضية أو مسلمة وضعية تدخل فى نطاق علم المناهج Methodology الذى فى ضوئه نعالج ظاهرة الثقافة و « بناء المجتمع ونظمه » .

الثقافة والحاجات :

إذا كنا قد تكلمنا عن الحاجات البيولوجية الأولية . فإننا نستطيع أن ننتقل إلى القسم الثانى من الحاجات الأساسية ، وأعنى بها الحاجات المشتقة derived needs . وهى تلك الحاجات التى تصدر أصلا عن حاجات أولية ، بمعنى أنها مشتقة عن الحاجات البيولوجية[1] .

(1) Firth, Raymond, Man and Culture, Routledge, London, pp. 34. 35. 1957.

فاذا كانت الأسرة ضرورة اجتماعية نظراً لوظائفها البيولوجية والاقتصادية ، فإن رب هذه الأسرة يكون فى حاجة ماسة إلى المأوى ، سواء أكان أحد الأكواخ أو الخيام أو السراديب الجليدية . فكل هذه الأشكال المختلفة لمأوى الإنسان فى مجتمعات الإسكيمو أو فى قبائل إفريقيا واستراليا ، وفى الثقافات الرعوية كقبائل البدو فى الصحارى ، أو حتى فى المجتمعات القروية والزراعية الحديثة ، إنما تحتاج جميعها إلى ثقافات مسبقة ، فانسان الاسكيمو فى حاجة إلى تلك المادة التى يشيد بها سردابه ، كما أن البدائى يحتاج إلى ما يقيم كوخه ، ويبحث البدوى عن تلك الجلود والانسجة التى بها يصنع خيامه .

فالحاجة إلى المأوى مشتقة من حاجة بيولوجية وشروط اجتماعية « تفرض على الانسان الاستعانة بظروف الثقافة التى تسعفه » ، وعلى سبيل المثال أيضا ، فان الحاجة إلى الطعام إنما تؤدى إلى ضرورة وجود الثقافة أو الحاجة المشتقة ، ففى ثقافة الصيد مثلا ، وهى ثقافة فى حاجة ضرورية إلى مختلف الإدوات والاسلحة كالحراب والشباك والقوس والسهم ، كما يحتاج القناصة إلى مختلف أنواع الكلاب التى يدربونها كعامل مساعد فى عمليات القنص والصيد .

وإذا كانت الحاجات الأولية ، تصدر وبالضرورة عن حاجات بيولوجية ملحة ، يشارك فيها الانسان حاجات الكائنات الحية ، إلا أن « الحاجات المشتقة » إنما تشتق عن حاجات أولية ، كما انها فى نفس الوقت لا تصدر عن حياة الانسان البيولوجية ، بقدر ما تصدر عن ظروف البيئة والشروط الجغرافية والاجتماعية التى يخضع لها الانسان فى حياته الجمعية Collective life .

وبفضل هذه الحاجات المشتقة التى تصدر عن طبيعة الواقع الاجتماعى وشروطه ، فإن الانسان يقوم بدوره الحضارى فى نقل الثقافة Transmission of culture إلى أخيه الانسان ، حيث يكتسب الفرد كل مظاهر اللغة والدين والتكنولوجيا ، ونسق العادات والتقاليد والفلكلور ، وغير ذلك من ظواهر « التراث الثقافى الحضارى » .

الحاجات المتممة :

وإذا كنا قد أشرنا إلى الحاجات الأولية والحاجات المشتقة ، فإن القسم الثالث من تصنيف الحاجات ، هو ذلك القسم الذى يتعلق « بالحاجات المتممة أو المكملة integrative needs » كالحاجة الى « التعاون Co-operation » وتبادل الخدمات والحاجة إلى « التنظيم Organization » ، تلك الحاجات الضرورية التى تمكن الانسان من ممارسة النشاط والعمل فى حياة جمعية منظمة[1] .

وقد تتعلق هذه الحاجات بالتنظيم السياسى والاجتماعى ، ومظاهر الحياة الاقتصادية ، ولا شك أن الانسان فى حاجة أيضا إلى ما يقيم حياته الروحية والدينية والعقلية ، فقد قيل فى هذا الصدد إن « الانسان حيوان متدين » . فلكل إنسان على ظهر الأرض معتقداته وديانته مهما بلغت درجت بدائيتها أو تحضرها . ونحن ها هنا إنما نستخدم مفهوم الدين فى أوسع معانيه ، حيث أن الانسان لا يحتاج فقط إلى ما يشبع حاجاته الفيزيقية والبيولوجية وإنما يبغى الانسان أيضا ويحتاج إلى ما يرضى مشاعره الدينية ويرقى من قيمته الجمالية ، وكلها أمور تتصل بالوجدان وترتبط بصميم الحياة الروحية ، فالدين والعقيدة هما غذاء للروح والعقل ، ولذلك كان الانسان « كائنا متفلسفاً » ، له نظراته وقيمته وفلسفته فى الحياة .

وكلها أسلحة ميتافيزيقية يواجه بها الانسان قدره ، ويحدد مصيره ، فيؤكد ذاته أمام كل ما يهدد وجوده ، فيصبر مثلا عند حدوث البلاء ويتجلد عند وقوع الكوارث وانتشار الأمراض ، ويقف إزاء الموت الذى يتحدى وجوده ويتهدده فى كل وقت وحين ، حيث يقف ثابتاً مؤمناً . ويجد الانسان فى تعاليم دينه التى تفرض بعض القواعد والقيم الروحية ، يجد كافة الحلول الجاهزة لتلك المشكلات الميتافيزيقية العسيرة الفهم . فكثيرا ما يقدّم الدين للانسان «حلا سهلا مريحاً » لقضاياه الوجودية التى تتعلق بمقولات « الوجود » و « العدم » و « اليأس » و « الرجاء » .

---

(1) Ibid: pp. 36. 37.

وجملة القول ـــ فان الحاجات المتممة أو المكملة إنما تدور كلها حول حاجات سوسيولوجية ، مثل الحاجة إلى التعاون الاجتماعى والتنظيم السياسى ، وكحاجة الانسان إلى العمل الجمعى والمشاركة فى النشاط الاقتصادى ، وفى عمليات الانتاج وإبتكار الأدوات والأجهزة كتعبير عن تقدم الظاهرة التكنولوجية ، بالاضافة إلى إختراع الآلات الالكترونية ودراسة كيفية إستخدامها وإنتقالها وإدخالها كوسائل للايضاح عن طريق عملية « التربية Education » التى تقوم بدور النقل الثقافى إلى الآخرين .

وإلى جانب كل تلك الحاجات ذات الضرورة فى الحياة الجمعية المشتركة ، تدور الحاجات المتممة أو المكملة داخل إطار « القيم الروحية » الخاصة بقضايا الأخلاق والدين والتمسك بالمثل العليا .

ومن كل هذه الحاجات المتممة أو المكملة صدرت كل أنساق مناشط الانسان Systems of human activity ، تلك التى نسميها اليوم باسم « النظام الاجتماعية Social institution» . فالنظم الاجتماعية بهذا المعنى هى «تلك الوسائل التى يستخدمها الانسان لاشباع حاجاته الرئيسية » .

وعلى هذا الأساس فإن أية سمة من سمات الثقافة ، مثل وجود « عادة » أو « تقليد » أو « آلة » أو « عقيدة » . لا يمكن أن تفسر أية سمة من هذه السمات المادية أو اللامادية ، إلا بالرجوع إلى الكل الثقافى التى هى جزء فيه ، حيث أنها جميعاً لا يمكن أن تفهم إلا باعتبارها أجزاء أساسية تفسرها سائر النظم الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

فنحن مثلا لا نستطيع وصف أو تحديد النمط الثقافى لبناء البيت الانجليزى ، فى تكوينه ومقاييسه ، ومعرفة نوع الأحجار أو شكل الطوب الذى منه يتألف بناء البيت ، دون أن نشير أولا إلى طبيعة الحياة الاجتماعية فى انجلترا ، وإلى ما يعنيه الرجل الانجليزى بكلمة « بيت » أو « Home » ، ولذلك يقال فى الأمثال الانجليزية « إن بيت الرجل الانجليزى هو قلعته » .

الحاجة والاستجابة :

ومعنى ذلك أن أية سمة ثقافية جزئية ، لا يمكن أن تفسر إلا بردها إلى سياقها الثقافى الكلى الذى يعطيها مبناها ومعناها . كما أن كل حاجة إنسانية يقابلها إستجابة ثقافية معينة .. كما يوضح لنا الجدول التالى :

ونستنتج من هذا الجدول الآتى أن الحاجات الانسانية الرئيسية إنما تقابلها مختلف الاستجابات ، التى تقوم بها الثقافة كرد فعل مباشر لإشباع هذه الحاجات. وتتحدد تلك الاستجابات الثقافية Cultural responses بأن تتخذ شكل النظم Institutions ، مثل النظام الاقتصادى ، والنظام السياسى ، والنظام العائلى ، والنظام الدينى .

الحاجات الانسانية Human needs	استجابات الثقافة Cultural responses
(أ) الحاجات الأولية Primary needs	
١ ــ الطعام	١ ــ نظام التغذية Nutrition
٢ ــ العمليات الفسيولوجية ، كالتنفس والاخراج ، والحاجة إلى الراحة Rest	٢ ــ النوم والتهوية
	٣ ــ الأسلحة والرماح والدروع والحراب
٣ ــ الدفاع عن النفس	
٤ ــ الوقاية من ويلات الجوع والمناخ مثل شدة الحرارة أو البرودة	٤ ــ السراديب ــ الاكواخ ــ الخيام المنازل ــ الأزياء ــ الملابس
٥ ــ الجنس Six	٥ ــ التعبير الاجتماعى ــ ضبط السلوك الجنسى .
٦ ــ التناسل Reproduction	٦ ــ نظام الأسرة ــ نسق القرابة ــ الحمل ــ تربية الاطفال
٧ ــ الصحة	٧ ــ العلاج ــ الشفاء ــ الأدوية ــ عمليات السحر فى المجتمع البدائى

(ب) الحاجات المشتقة derived needs	
١ ــ انتقال الثقافة	١ ــ التربية Education
٢ ــ الاتصال Teransmission of culture	٢ ــ اللغة
٣ ــ القدرة على العمل اليدوى	٣ ــ الثقافة المادية فى النسق الاقتصادى
٤ ــ تنظيم المناشط الجمعية	٤ ــ القيادة Leadership
٥ ــ الضبط الاجتماعى Social control	٥ ــ جزاءات القانون والعادات Sanctions of law and customs
(جـ) الحاجات المتممة أو المكملة	
١ ــ الشعور بالثقة والوحدة الجمعية .	١ ــ نسق القيم الروحية والمعايير الدينية والسحرية
٢ ــ النزوع ــ اللعب ــ تقدير الفن ــ تذوق الجمال	٢ ــ النشاط الترويحى الخاص بالتذوق الفنى والجمالى

بمعنى أن هذه « النظم » هى وسائل الثقافة لإشباع حاجات الإنسان . كما أن كل « نظام » بعينه إنما هو بمثابة استجابة الثقافة لإشباع نوع معين بالذات من حاجات الأنسان الضرورية . وتتخذ العلاقة القائمة بين الحاجات والنظم واستجابات الثقافة ، اشكالا متعددة ، تختلف باختلاف الثقافات وتتمايز من مجتمع الى آخر .

وينبغى فى هذا الصدد على ما يزعم مالينوفسكى Malinowski ، أن نتخذ منهجاً محدداً لدراسة الثقافة ، بأن نقوم بمحاولة « عزل وحدات الواقع الثقافى Attempt to isolate the units of cultural reality » تلك الوحدات التى يمكن ملاحظة كل وحدة منها ، بالنظر إليها كوحدة متميزة وقائمة بذاتها ، ومنتزعة من شبكة العلاقات القائمة بين الحاجات البيولوجية والاستجابات الثقافية تلك

العلاقات التى تتغير رغم عمومها فى سائر الثقافات ، حيث أنها وحدات وعلاقات متغيرة Variable من مجتمع إلى آخر[1] .

وإذا ما تساءلنا فى هذا الصدد .. ماذا ندرس فى الأنثروبولوجيا الثقافية ؟ وما هى مختلف الظاهرات والوقائع Facts التى يدرسها علم الثقافة ؟

نقول فى الرد على هذه المسائل ، إنه إذا كان علم الكيمياء ينهض بدراسة مختلف التفاعلات بين الأحماض والقلويات ، وخواص الفلزات واللافلزات ، ومعالجة ما بينها من ظواهر وعلاقات كيمائية ، فى ضوئها نتوصل إلى عدد من « المعادلات الرمزية » تعبيراً عن ذلك التفاعل القائم بين ظاهرتين أو أكثر من ظواهر ناتجة عن عمليات الكيمياء[2] . كتلك الحقيقة الكيمائية القائلة : بأننا إذا ما أضفنا بعضاً من حامض الأيدروكلوريك Hydrochloric acid وسكبناه على قطعة من الرخام ، تكون نتيجة التفاعل عبارة عن فوران كيمائى ينجم عما يصيب الرخام بالتقائه بحامض الأيدروكلوريك ، حيث يتفاعل مع تفتت الرخام .

وإذا كانت هذه الظواهر التى يعالجها الكيمائى ، حين يدرس الحقائق الناجمة عن التفاعلات ، وحين يتعامل مع خصائص المادة ، ويقوم بعزل الظواهر والخصائص الكيمائية ، فإن عالم الانثروبولوجيا الثقافية ، ينبغى أن يعالج الثقافة كمجموعة من الوحدات المعزولة والمشخصة Concrete isolates of culturae على حد تعبير مالينوفسكى .

على أعتبار أن حقائق العلم الانثروبولوجى عند مالينوفسكى انما يتوقف على دراسة العلاقات الثقافية Cultural Relation، التى هى العلاقة القائمة بين «عناصر Elements » و « سماتها Its traits» كما تشمل أيضا على تلك العلاقات القائمة بين تلك العناصر والسمات الثقافية من جهة ، وبين الحاجات الانسانية من جهة أخرى .

(1) Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthropology, Vol: 1 Oliver and Boyd, Edinburgh. Third edition. p. 237. 1960.

(2) Ibid: p. 238.

وتستند الطريقة التى تربط وتصل بين أستجابات الثقافة وحاجات الانسان ، الى نمطين عامين من أنماط السلوك الاجتماعى للانسان .. أولهما أن بنى البشر انما يشبعون حاجاتهم بطريقة جمعية Collective بالانخراط فى شتى الجماعات والزمر . وثانيهما أن أشباع تلك الحاجات انما لا يأتى عفوا أو خبط عشواء ، وانما ينشأ هذا الاشباع عن بعض المناشط التى تحدد مجالها قواعد العرف الاجتماعى ، حيث تخضع هذه العملية كلية لاتجاه نسق التقاليد الثقافية Cultural Traditions ، تلك التى تصدر عنها ما نسميه بالنظم Institutions ، حيث أن النظم هى « وسائل الثقافة » أو استجابتها ، لاشباع وسد حاجات الانسان .

وهذه النظم هى ما يعبر عنها مالينوفسكى بوحدات الثقافة المنعزلة والمشخّصة Cuncrete Isolates of Culture ، حيث أن النظم هى الوحدات الرئيسية فى أية ثقافة من الثقافات ، كما أن النظم هى التى تؤلف مادة الدراسة العلمية فى الانثروبولوجيا الثقافية .

ويتحقق « النظام » عند مالينوفسكى ، بأنبثاقه عن مجموعة أو جماعات مشخصة تربطهم رابطة الفكر والعمل ، ويتبعون نسقا من القواعد والجزاءات تسود فى بيئة خاصة ، ومن هنا تتضح لنا العلاقة الوثيقة التى تربط بين « النظام » كوحدة ثقافية معزولة من جهة ، وبين نسق الحاجات الانسانية « التى تكون عناصر الثقافة هى استجابتها ورد فعلها المباشر » .

جملة القول ـــ يفرض علينا منهج دراسة الثقافة ، أن نأخذ فى الاعتبار دراسة البيئة الفيزيقية ، والنظم الثقافية Cultural institulions ، وما ترتبط به من ظواهر الديموجرافيا Demography والايكولوجيا Ecology .

ملاحق الكتاب

(أ) ملحق المصادر والمراجع

١ ـــ المصادر العربية

٢ ـــ المراجع الأجنبية

(ب) ملحق المحتويات

(أ) ملحق المصادر والمراجع :

(١) المصادر العربية :

١ ــ أبرمز ، تشارلز « المدينة ومشاكل الإسكان » ترجمة لجنة من المترجمين ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت (بدون تاريخ) .

٢ ــ الدكتور أحمد الخشاب : علم الاجتماع الحضرى ، طبعة بيروت .

٣ ــ إيريس (س .) ، الحضارة الصناعية ، ما لها وما عليها ؟ ترجمة محمد ماهر نور ، مكتبة الانجلو .

٤ ــ حتى ، فيليب ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦٥ .

٥ ــ حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٤٩ .

٦ ــ ساطع الحصرى ، دراسات عن ابن خلدون ، مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٩ .

٧ ــ ريمون،أندريه ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب . كتاب روز اليوسف السابع عشر ، يوليو ١٩٧٤ .

٨ ــ الدكتور صلاح العبد ، التوطن وتنمية المجتمع بالوطن العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٧٣ .

٩ ــ الدكتور محمد ثابت الفندى ، الطبقات الاجتماعية ، دار الفكر العربى ١٩٤٩ .

١٠ ــ الدكتور محيى الدين صابر ، التغيير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس اللبان ١٩٦٢ .

١١ ــ الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الادارى ومشكلات التنظيم فى المؤسسات البيروقراطية ، منشأة المعارف ، اسكندرية ١٩٨٠ .

١٢ ــ الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع الصناعى ومشكلات الادارة والتنمية الاقتصادية ، منشأة المعارف ، اسكندرية ١٩٨١ .

١٣ ــ الدكتور قبارى محمد اسماعيل ، علم الاجتماع السياسى وقضايا التخلف والتنمية والتحديث ، منشأة المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٢ .

١٤ ــ الدكتور عبد الباسط محمد حسن ، علم الاجتماع الصناعى ، الانجلو المصرية ١٩٧٢ .

١٥ ــ الدكتور عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ١٩٦٢ .

١٦ ــ الدكتور عمر فروخ ، كلمة فى أبن خلدون ومقدمته ، بيروت مكتبة منيمنة ، ١٩٥١ .

١٧ ــ الدكتور عبد الرحمن العيسوى ، علم النفس والانتاج ، مؤسسة شباب الجامعة . اسكندرية .

١٨ ــ كون ، كارلتون : القافلة ، دراسة لثقافة الشرق الاوسط ، ترجمة برهان دجانى ، بيروت ١٩٥٩ .

٢ ــ المراجع الأجنبية :

1 - Alan, Beals., Culture in Process., U.S.A.. 1967.

2 - Alexander, I., The City Centre Redevelopment., Vol: 3. No. 1. Sadny - Australia. 1974.

3 - Allport, F.H., Social Psychology., 1924.

4 - Andry, R.G., Delinquency and Parental Pathology., London Mathuen 1960.

5 - Anderson, Nels., Urban Community., Routledge & Kegan Paul., London. 1960.

6 - Arbatov, G.A., Social and Cultural changes in developing Countries., Moscow. 1975.

7 - Benedict, Ruth., Patterns of Culture, Baston Miffin. 1934.

8 - Bergel, Egon., Urban Sociology., Mc-Graw Hill. 1955.

9 - Bourdieu, Pierre., The Attitude of Algerian Peasant Toward Time., Mouton. 1963.

10 - Brease, G., Urbanization in Newly Developing Countries, N.Y. Printice Hall. 1966.

11 - Broom, L. & Selznick., p., Sociology., New York. Row Paterson and Co. 1956.

12 - Berskowitz., L., Roots of Agression., New York Athenton 1968.

13 - Catrell, Frederick., Energy and Society., McGraw Hill. N.Y. 1955.

14 - Clarke, W.M., How The City Works? The Proffssions. London. 1983.

15 - Clout, H., Rural Geography., University College, London. England. 1972.

16 - Corbett, Patrick., Ideologies.,, Hutchinson. 1965.

17 - Childe, Gordon., Man Makes Himself., London. Fontana. 1966.

18 - Downs, James., Culture in Crisis., Glencoe. 1971.

19 - Durkheim, E,ile., De La Division du Travail Social., Paris. Félix. Alcan. 1926.

20 - Davis, Kingsley., The Urbanization of Human Population. N.Y. Macmillan 1965.

21 - Erickson, G., Urban Behaviour, The Macmillan Company 1954.

22 - Gallion, (A.B.) & Fisner., The Urban Pattern., London. 1960.

23 - Geddes, P., The Survey of Cities., Socies., Sociological Review, Manchester. Vol: 1.1.1961.

24 - Gibbs, Iack., Urban Research Methods, Princeton. 1967.

25 - Gist., N.P., & Nalbort, L.A., Urban Society., New York. Thomas V. Crowell Co. 1950.

26 - Gutkind, E.A., The Twilight of Cities., N.Y. The Free Press of Glencoe. 1962.

27 - Follet, Mary., Freedom and Co. Ordination, London. 1949.

28 - Friednan, C., Industrial Society, The Emergence of Human Relation of automation 1964.

29 - Hauser., Implication of Population Trends For Regional and Urban Planning in Asia and far-East Regional Planning, N.Y. Macmillan 1959.

30 - Hawley, Amos., Human Ecology., A Theory of Community structure. 1950.

31 - Handlin, O., and Burchand. J., The Historian and The City., N.Y. Press and Harvard Press. 1963.

32 - Brunner, L., & Kalb. I.H., Astudy Rural Society, Madison. 1940.

33 - Hogeweg-de-Haort, W. Richter, Impact of Technology on Society, edited by B.S. Chmeikal., Vienna Center., 1983.

34 - Mendras, H., I. Milailescu., Theories & Methods in Rural Community studies., Vienna Center, Austria. 1982.

35 - Homans, G.C., The Human Group. New York. Horeourt. 1950.

36 - Hyman, H.H., The Psychology of Status., Arch. Psych 1962.

37 - Jones, M., Basis of Sociological Principles., Boston. Ginn and Company. 1949.

38 - Johnson, J.H., Urban Geography., London. University College. 1972.

39 - Joffre Dumazdier., Telévision et Education., Populaire., Basis Unesco and Feshbach, Bourrelier. 1955.

40 - Inkeles, Alex., Social Change in Soviet Russia. N.Y. 1964.

41 - Inkeles, Alex., Modernization of Man., Weiner; New York. Basie books. 1966.

42 - Kirkpatrick, C., The Family as Process and Institution, Ronald Press, N.Y. 1963.

43 - Kingsley, Davis., Urbanization and the development of Preindustrial Areas, Economic Development and Cultural Change., Vol: III October 1954.

44 - Lamert, E., Social Pathology, N.Y. Mc.Graw. Hill 1957.

45 - Kohl, Herbert., The age of Complexity, Mentor. 1955.

46 - Loomis & J.A. Beegle., Rural Social Systems., Printice Hall. 1950.

47 - Maine, Henry Sir. Ancient Law. London, Routledge. 1897.

48 - Mays, John., Family and the social group, London Longmans. 195'

49 - Mills. Wright., White Collar, New York. 1951.

50 - Mumford, L., Culture of Cities., Secker & Warburge. 1946.

51 - Paul, R.E., Readings in Urban Sociology, Univers of Kent. 1968.

52 - Redfield, Robert., Peasant Society and Culture., Univer. Chicago. 1958.

53 - Moore, W.E., The impact of Industry., Printice-Hall. 1965.

54 - Reissman, H., The Urban Process., New York. The Free Press of Glencoe. 1964.

55 - Sorokin, P.A., Culture and Personality, N.Y. Harper of Brothers. 1947.

56 - Rogers, E., Modernization Among Peasants., H.R.W. 1960.

57 - Smelser, Neil., The Sociology of Economic Life., Printice-Hall. 1963.

58 - Spencer., Migration Anthropology., Univer. of Washington Press. 1970.

59 - Stoodley., H., Society and Self, Free Press. 1962.

60 - Swarthout, J.M. and Bartly, E.R., Principles and Problems of State and Local Government, New York. Oxford Univers. 1958.

61 - Talmor., E., Malthus our Contemporary., Haifa University Israll. 1983.

39 - Titmues, R., Family as a social Institution, British National Conference on Social work., London. 1953.

62 - Tonnies, Ferdinand., Community and Society, trans. from German., Macmillan, N. York. 1963.

63 - Turner, Ralph., The Great Cultural Tradition (The Ancient Cities) New York. 1941.

64 - Thompson, Warren., David Lewis., Population Proklems., Mc. Graw Hill.,. New York. 1938.

65 - Tylor & Williams., Urban Planning Practice in Developing Countries., The World Bank. 1982.

66 - Vernon, Raymond., The Changing Economic Function of The Central City., New York. 1959.

67 - Volgyes, R.E., Lonsdale, W.P. Avery., The Process of Rural Transformation, University of Nebraska., U.S.A. 1980.

68 - Weinstein, W.S., Health in The City., Vancouver, Canada. 1979.

69 - Whyte, W.H., The Exploding Metropolis., New York. Double day and Co-Garden City. 1958.

70 - Wirth. L., Urbanism As a way of Life., American Journal of Sociology, Vol: 44 No. 1. July 1938.

71 - Wellin, Edward; Water Boiling in a Peruvian Tom., Article in a Reader. in Culture Changes, Vol: 1. 1975.

72 - Zaborski, B., On the forms of The Villages in Poland., Gracow. 1962.

73 - Zimmerman and Sorokin., and Galpin., Systematic source-book of Rural Sociology., Minnea Polis. 1930.

ملحق المحتويات

رقم الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الايداع ٨٦/٤٦٣٩
الترقيم الدولى ٨ ــ ٢٧٩ ــ ١٠٣ ــ ٩٧٧

مركز الدلتـــا للطبـــاعة
٢٤ شارع الدلتا ــ اسبورتنج
تليفون ٥٩٧٠١٤١

